



معهد الإمام الطبري
لعلوم القرآن وأدبه
بمحافظة عفر الحاضن

تَذَكُّرَاتُ اِبْرَاقِيَمِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

رَحِمَهُ اللهُ

أَكْرَمُ ١٠٠٠ فَائِدَةٍ

فَرْقَسِيْزِ اِبْرَاقِيَمِ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَحِمَهُ اللهُ

جميع وإعداد

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ السَّنْهَارِيُّ

عُضُو الدَّعْوَةِ بَوَازِرَةُ الشُّؤُونِ الْإِسْلَامِيَّةِ
بِالْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ





تَذَكَّرْتُ اِبْرَاقِيهٖ
رَحِمَهُ اللهُ
اَكْرَمُ... اَوْلَادِ
فَنَفْسِي اِبْرَاقِيهٖ
رَحِمَهُ اللهُ

ح) دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٤٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الشمري، عبدالرحمن بن محمد بن سبهان الوهبي
تدبريات ابن القيم - رحمه الله (أكثر من ١٠٠٠ فائدة من تفسير ابن
القيم - رحمه الله) /. عبدالرحمن بن محمد بن سبهان الوهبي
الشمري - ط١ - الرياض ١٤٤٠هـ

ص ٠٠×٠٠ سم

ردمك: ٣ - ٨٢ - ٨٢٥٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - الفضائل الإسلامية - الحديث أ - العنوان

ديوي ٢٢٧.٦ ١٤٤٠/٩٢٨٥

رقم الإيداع: ١٤٤٠/٩٢٨٥

ردمك: ٣ - ٨٢ - ٨٢٥٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م

دار الحضارة للنشر والتوزيع

ص.ب ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥

هاتف: ٢٤١٦١٣٩ - ٢٤٢٢٥٢٨ فاكس: ٢٧٠٢٧١٩

فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨ تحويلة ١٠٣

الرقم الموحد: ٩٢٠٠٠٠٩٠٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد :

فقد أنزل الله كتابه للتدبر، وجعل التدبر من الأوامر الواجبة فقال: (ليدبروا آياته)، وقد امتثل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الأمر فعَلَّمَ القرآن لصحابته وعلمهم التدبر، فسأل أبا المنذر عن أعظم آية، وهو سؤال لا يمكن الجواب عنه إلا بإعمال العقل والتدبر، ثم نقل الصحابة منهج التدبر لمن بعدهم فقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ”ثوروا القرآن“ وتثوير القرآن لا يكون إلا بالتدبر، ثم توالى أهل العلم على هذا المنهج الرباني يقرأون القرآن ويتدبرونه، ومن أولئك الربانيون العلامة ابن القيم الجوزية رَحْمَةُ اللَّهِ والذي رسم منهجية للتدبر تقوم على: معرفة معنى الآية على فهم السلف، ثم إعمال الفكر في كلمات الآية ومعانيها اللغوية، ثم الاستفادة من علم معاني الحروف لتسخيرها للتدبر فحرف الجر (على) يفيد الاستعلاء فيبحث ابن القيم عن معنى الاستعلاء في الآية، وكان يلاحظ أيضاً حركات الكلمات؛ فالحرف المشدد يفيد معنى القوة، والحرف المتكرر يعطي دلالة على الاضطراب في المعنى مثل كلمة: زلزلت، والزلال لا يكون إلا باضطراب الأرض وتحركها وارتفاعها ونزولها، فأصبح التدبر عند ابن القيم منهجاً علمياً يُبنى على دقة التأمل في كل الكلمة القرآنية، فيتعامل المؤمن معها بإجلال وتقدير لأنه يراها نوراً، والقرآن نور، وأترك للقارئ الكريم اكتشاف منهجية ابن القيم التدبرية في هذا الكتاب.



وقد يسر الله لمعهد الإمام الطبري لعلوم القرآن وآدابه التابع لجمعية تحفيظ القرآن الكريم بمحافظة حفر الباطن إطلاق مشروع (تدبرات المفسرين) والذي طبع منه: تدبرات ابن سعدي، وتحت الطبع (تدبرات الزمخشري) و(تدبرات القاسمي)، فمنَّ الله عليَّ بقراءة تفسير ابن القيم الموسوم ببدايع التفسير، فاستخرجت منه (تدبرات ابن القيم)، وإني أتقدم بالشكر الجزيل لمعهد الإمام الطبري بحفر الباطن، وكذلك لدار الحضارة الدار الرائدة في خدمة القرآن الكريم، وذلك فضل الله يؤتيه الله من يشاء، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

كتبه /

عبد الرحمن بن محمد السبهان

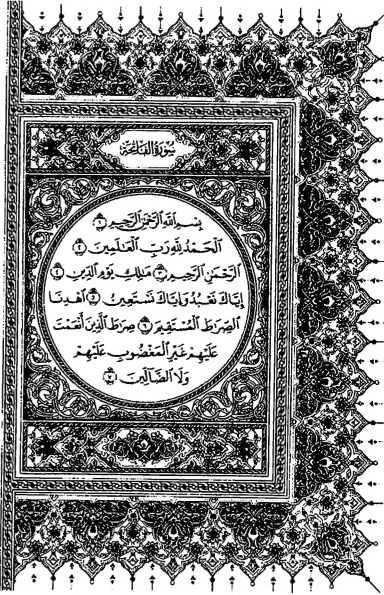
عضو الدعوة والإرشاد بوزارة الشؤون الإسلامية

بالمملكة العربية السعودية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الفاتحة



📖 قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ١.

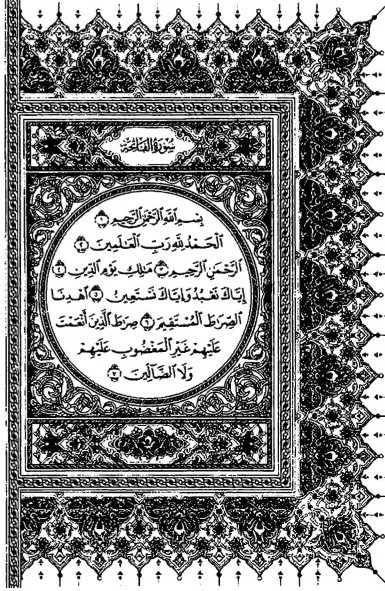
١- الجمع بين الرحمن الرحيم ففيه معنى هو أحسن من المعنيين اللذين ذكرهما، وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف والثاني للفعل.

فالأول دال أن الرحمة صفته، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته، وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ (الأحزاب: ٤٣)،

﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: ١١٧) ولم يجئ قط رحمن بهم، فعلم أن الرحمن هو الموصوف بالرحمة، والرحيم هو الراحم برحمته، وهذه نكتة لا تكاد تجدها في كتاب.

٢- لحذف العامل في ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ فوائد عديدة، منها:

- أنه موطن لا ينبغي أن يتقدم فيه سوى ذكر الله، فلو ذكرت الفعل وهو لا يستغني عن فاعله، كان ذلك مناقضا للمقصود، فكان في حذفه مشاكلة اللفظ للمعنى، ليكون المبدوء به اسم الله، كما نقول في الصلاة: «الله أكبر». ومعناه من كل شيء، ولكن لا نقول هذا المقدر، وليكون اللفظ مطابقا لمقصود الجنان، وهو أن لا يكون في القلب



إلا الله وحده، فكما تجرد ذكره في قلب المصلي،
تجرد ذكره في لسانه.

- ومنها أن الفعل إذا حذف صح الابتداء
بالتسمية في كل عمل وقول وحركة، وليس فعل
أولى بها من فعل، فكان الحذف أعم من الذكر،
فإن أي فعل ذكرته كان المحذوف أعم منه.

- ومنها أن الحذف أبلغ لأن المتكلم بهذه
الكلمة كأنه يدعي الاستغناء بالمشاهدة عن النطق
بالفعل، فكأنه لا حاجة إلى النطق به؛ لأن المشاهدة

والحال دالة على أن هذا وكل فعل فإنما هو باسمه تَبَارَكَ وَتَعَالَى والحوالة على شاهد الحال
أبلغ من الحوالة على شاهد النطق (بدائع الفوائد ١ / ١٦-٢٥).

📖 قوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

٣- كونه رب العالمين، فلا يليق به أن يترك عباده سدى هملا لا يُعَرِّفُهُمْ ما ينفعهم
في معاشهم ومعادهم وما يضرهم فيهما، فهذا هضم للربوبية، ونسبة الرب تعالى إلى ما
لا يليق به، وما قَدَّرَهُ حق قَدَّرَهُ من نسبه إليه.

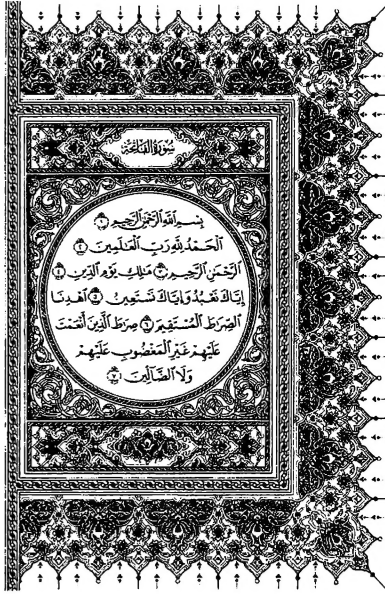
📖 قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنِ﴾.

٤- من اسم الله، وهو المألوه المعبود، ولا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من
طريق رسله.

- من اسمه «الرحمن»، فإن رحمته تمنع إهمال عباده، وعدم تعريفهم ما ينالون
به غاية كمالهم، فمن أعطى اسم «الرحمن» حقه، عرف أنه متضمن لإرسال الرسل،

وإنزال الكتب، أعظم من تضمنه إنزال الغيث، وإنبات الكلاء، وإخراج الحب، فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضاءها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكن المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظ البهائم والدواب، وأدرك منه أولو الأبواب أمراً وراء ذلك.

📖 قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

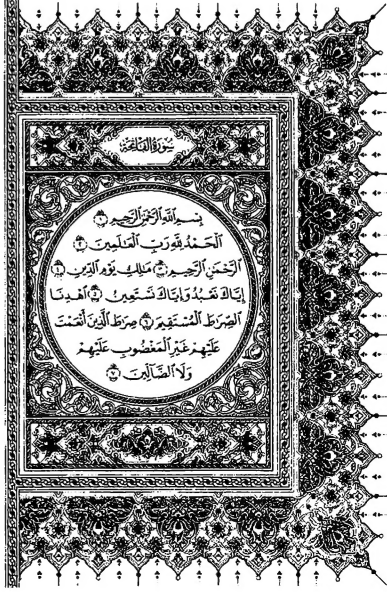


٥- يتضمن معرفة الطريق الموصلة إليه، وأنها ليست إلا عبادته وحده بما يحبه ويرضاه واستعانه على عبادته.

٦- وتقديم «العبادة» على «الاستعانة» في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل، إذ «العبادة» غاية العباد التي خلقوا لها، و«الاستعانة» وسيلة إليها، ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متعلق بالوحيته واسمه الله، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ متعلق بربوبيته واسمه «الرب»، فقدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كما قدم اسم «الله» على «الرب» في أول السورة.

ولأن العبادة المطلقة تتضمن الاستعانة من غير عكس، فكل عابد لله عبودية تامة مستعين به ولا ينعكس، لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على شهواته، فكانت العبادة أكمل وأتم، ولهذا كانت قسم الرب.

ولأن الاستعانة جزء من العبادة من غير عكس، ولأن الاستعانة طلب منه، والعبادة طلب له.



ولأن العبادة لا تكون إلا من مخلص، والاستعانة تكون من مخلص ومن غير مخلص.

ولأن العبادة حقه الذي أوجهه عليك، والاستعانة طلب العون على العبادة، وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك، وأداء حقه أهم من التعرض لصدقته.

ولأن العبادة شكر نعمته عليك، والله يحب أن يشكر، والإعانة فعله بك وتوفيقه لك، فإذا التزمت عبوديته، ودخلت تحت رقها، أعانك عليها، فكان التزامها والدخول تحت رقها سبباً لنيل الإعانة،

وكلما كان العبد أتم عبودية، كانت الإعانة من الله له أعظم.

فهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

٧- وأما تقديم المعبود والمستعان على الفعلين، ففيه: أدبهم مع الله بتقديم اسمه على فعلهم، وفيه الاهتمام وشدة العناية به، وفيه الإيذان بالاختصاص، المسمى بالحصص، فهو في قوة: لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك، والحاكم في ذلك ذوق العربية والفقه فيها.

وتأمل قوله تعالى ﴿وَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ﴾ [البقرة: ٤٠]، ﴿وَإِنِّي فَأَنْقُونِ﴾ [البقرة: ٤١] كيف تجده في قوة: لا ترهبوا غيري، ولا تتقوا سواي، وكذلك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هو في قوة: لا نعبد غيرك، ولا نستعين بسواك، وكل ذي ذوق سليم يفهم هذا الاختصاص من علّة السياق.

قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ١ ﴿﴾

٨- ثم يشهد من «اهدنا» عشر مراتب، إذا اجتمعت حصلت له الهداية.

المرتبة الأولى: هداية العلم والبيان، فيجعله عالماً بالحق مُدْرِكاً له.

الثانية: أن يقدره عليه، وإلا فهو غير قادر بنفسه.

الثالثة: أن يجعله مريدًا له.

الرابعة: أن يجعله فاعلاً له.

الخامسة: أن يثبتته على ذلك، ويستمر به عليه.

السادسة: أن يصرف عنه الموانع والعوارض المضادة له.

السابعة: أن يهديه في الطريق نفسها هداية خاصة، أخصَّ من الأولى، فإن الأولى

هداية إلى الطريق إجمالاً، وهذه هداية فيها وفي منازلها تفصيل.

الثامنة: أن يُشْهده المقصود في الطريق، ويُنبِّهه

عليه، فيكون مطالعاً له في سيره، ملتفتاً إليه، غير

محتجب بالوسيلة عنه.

التاسعة: أن يُشْهده فقره وضرورته إلى هذه

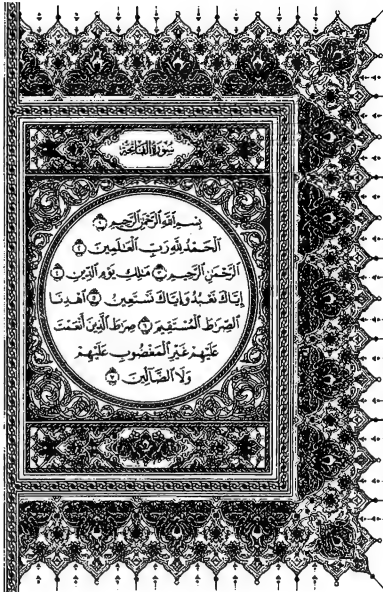
الهداية فوق كل ضرورة.

العاشرة: أن يُشْهده الطريقين المنحرفين عن

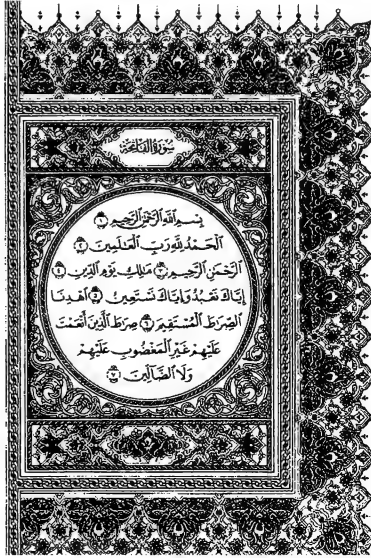
طريقها، وهما طريق أهل الغضب، الذين عدلوا

عن اتباع الحق قصداً وعناداً، وطريق أهل الضلال

الذين عدلوا عنها جهلاً وضلالاً، ثم يشهد جمع



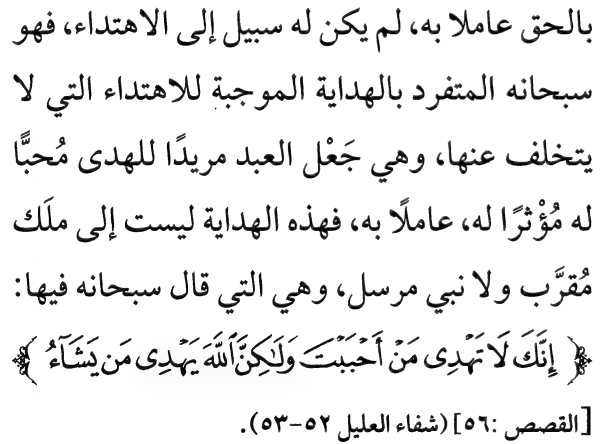
الصراط المستقيم في طريق واحد عليه جميع أنبياء الله ورسله، وأتباعهم من الصديقين والشهداء والصالحين (مدارج السالكين ٣/ ٥١٠).



٩- الإتيان بالضمير في قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ﴾ ضمير جمع، فالصواب أن يقال هذا مطابق لقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٥) والإتيان بضمير الجمع في الموضعين أحسن وأفخم، فإن المقام مقام عبودية وافتقار إلى الرب تعالى، وإقرار بالفاقة إلى عبوديته واستعانة بهدايته، فأتى به بصيغة ضمير الجمع، أي نحن معاشر عبيدك مقرون لك بالعبودية، وهذا كما يقول العبد للملك

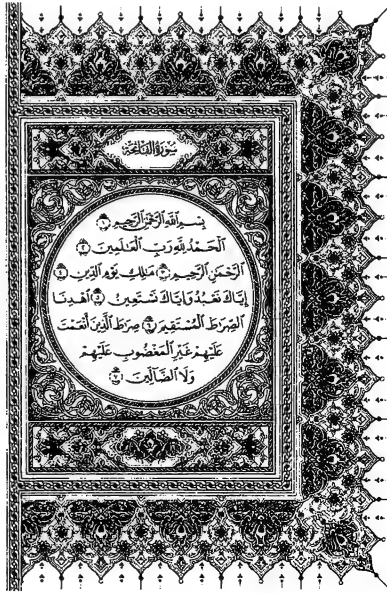
المعظم شأنه: نحن عبيدك ومماليكك وتحت طاعتك، ولا نخالف أمرك. فيكون هذا أحسن وأعظم موقعا عند الملك من أن يقول: أنا عبدك ومملوكك. ولهذا لو قال: أنا وحدي مملوكك. استدعى مقتته، فإذا قال: أنا وكل من في البلد مماليكك وعبيدك وجند لك. كان أعظم وأفخم؛ لأن ذلك يتضمن أن عبيدك كثير جدا وأنا واحد منهم، وكلنا مشتركون في عبوديتك والاستعانة بك وطلب الهداية منك، فقد تضمن ذلك من الثناء على الرب بسعة مجده وكثرة عبيده وكثرة سائليه الهداية ما لا يتضمنه لفظ الأفراد فتأمل، وإذا تأملت أدعية القرآن رأيت عامتها على هذا النمط نحو: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (البقرة: ٢٠١) ونحو دعاء آخر البقرة وآخر آل عمران وأولها وهو أكثر أدعية القرآن الكريم (بدائع الفوائد ٢/ ٩-٤١).

١٠- يتضمن طلب الهداية ممن هو قادر عليها، وهي بيده إن شاء أعطاها عبده، وإن شاء منعه إياها، والهداية معرفة الحق والعمل به، فمن لم يجعله الله تعالى عالماً



١٢- ومن هنا يعلم اضطراب العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة، وبطلان قول من يقول: إذا كنا مهتدين، فكيف نسأل الهداية؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف.

١٣ - ففي ذكر المنعم عليهم وهم من عرف الحق واتبعه، والمغضوب عليهم وهم من عرفه واتبع هواه، والضالين وهم من جهله ما يستلزم ثبوت الرسالة والنبوة، لأن انقسام الناس إلى ذلك هو الواقع المشهود، وهذه القسمة إنما أوجبها ثبوت الرسالة.



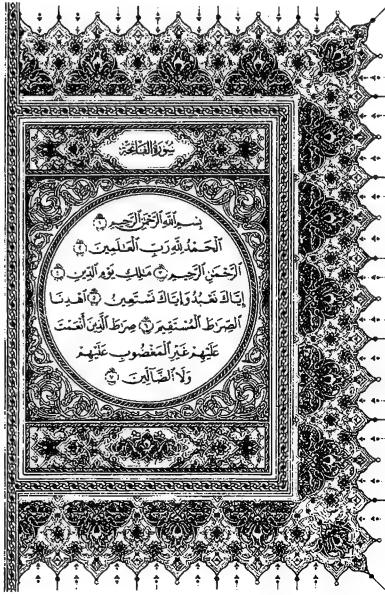
١٤- وتضمنت ذكر الصراط المستقيم مفردا مُعرِّفاً تعريفين: تعريفاً باللام، وتعريفاً بالإضافة، وذلك يفيد تعيينه واختصاصه، وأنه صراط واحد، وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه سبحانه يجمعها ويفردها، كقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فوَحَّدَ لفظ الصراط وسيله، وجمع السبل المخالفة له.

١٥- ولما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجل المطالب، ونيله أشرف المواهب،

عَلَّمَ الله عباده كيفية سؤاله، وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه، وتمجيده، ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم، فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم، توسل إليه بأسمائه وصفاته، وتوسل إليه بعبوديته، وهاتان الوسيلتان لا يكاد يرد معهما الدعاء.

١٦- في ذكر هذه الأسماء بعد الحمد، وإيقاع الحمد على مضمونها ومقتضاها ما يدل على أنه محمود في إلهيته، محمود في ربوبيته، محمود في رحمانيته، محمود في ملكه، وأنه إله محمود، ورب محمود، ورحمن محمود، وملك محمود، فله بذلك جميع أقسام الكمال.

١٧- فائدة البدل في الدعاء: لقد وردت الآية في معرض التعليم للعباد والدعاء، وحق الداعي أن يستشعر عند دعائها ما يجب عليه اعتقاده مما لا يتم الإيمان إلا به؛ إذ الدعاء مخ العبادة، والمنح لا يكون إلا في عظم، والعظم في لحم ودم، فإذا وجب إحضار معتقدات الإيمان عند الدعاء، وجب أن يكون الطلب ممزوجاً بالثناء، فمن



ثم جاء لفظ الطلب للهداية والرغبة فيها مشوبا بالخير، تصريحاً من الداعي بمعتقدده وتوسلاً منه بذلك الاعتقاد الصحيح إلى ربه، فكأنه متوسل إليه بإيمانه واعتقاده أن صراط الحق هو الصراط المستقيم، وأنه صراط الذين اختصهم بنعمته وجباهم بكرامته.

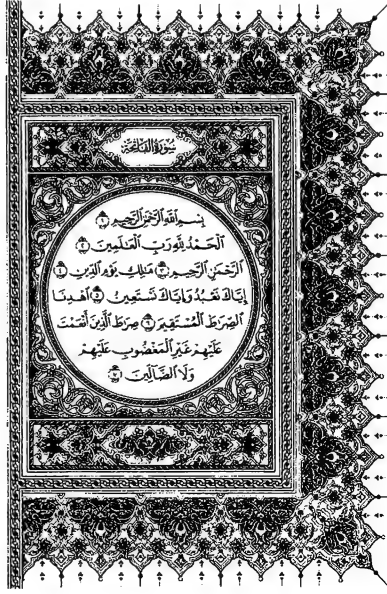
١٨- تعريف الصراط باللام: اعلم أن الألف

واللام إذا دخلت على اسم موصوف اقتضت أنه أحق بتلك الصفة من غيره، ألا ترى أن قولك: جالس فقيهاً أو عالماً. ليس كقولك: جالس

الفقيه أو العالم. ولا قولك: أكلت طيباً، كقولك: أكلت الطيب. ألا ترى إلى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق» ثم قال: «ولقاؤك الحق، والجنة حق، والنار حق» (رواه البخاري ومسلم)، فلم يدخل الألف واللام على الأسماء المحدثّة، وأدخلها على اسم الرب تعالى ووعدته وكلامه، فإذا عرفت هذا فلو قال: اهتدنا صراطاً مستقيماً، لكان الداعي إنما يطلب الهداية إلى صراطٍ ما مستقيم على الإطلاق، وليس المراد ذلك، بل المراد الهداية إلى الصراط المعين الذي نصبه الله تعالى لأهل نعمته وجعله طريقاً إلى رضوانه وجنته وهو دينه الذي لا دين له سواه، فالمطلوب أمر معين في الخارج والذهن لا شيء مطلق منكر.

١٩- إشارة إلى أن نفي التقليد عن القلب واستشعار العلم بأن من هُدي إلى هذا

الصراط فقد أنعم عليه، فالسائل مستشعر سؤاله الهداية وطلب الإنعام من الله عليه، والفرق بين هذا الوجه والذي قبله أن الأول يتضمن الإخبار بأن أهل النعمة هم أهل



الهداية إليه، والثاني يتضمن الطلب والإرادة وأن تكون منه.

﴿قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾﴾

٢٠- إن هذا جاء على الطريقة المعهودة في القرآن الكريم، وهي أن أفعال الإحسان والرحمة والجود تضاف إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيذكر فاعلها منسوبة إليه ولا يبنى الفعل معها للمفعول، فإذا جيء بأفعال العدل والجزاء والعقوبة، حذف وبنى الفعل معها للمفعول أدباً في الخطاب، وإضافته

إلى الله تعالى أشرف قسمي أفعاله، فمنه هذه الآية فإنه ذكر النعمة فأضافها إليه ولم يحذف فاعلها، ولما ذكر الغضب حذف الفاعل وبنى الفعل للمفعول فقال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وقال في الإحسان: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

٢١- من ذكره وإضافته النعمة إليه ما ليس في ذكر المنعم عليهم لو قاله، فضمن هذا اللفظ الأصلين وهما الشكر والذكر المذكوران في قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (البقرة: ١٥٢).

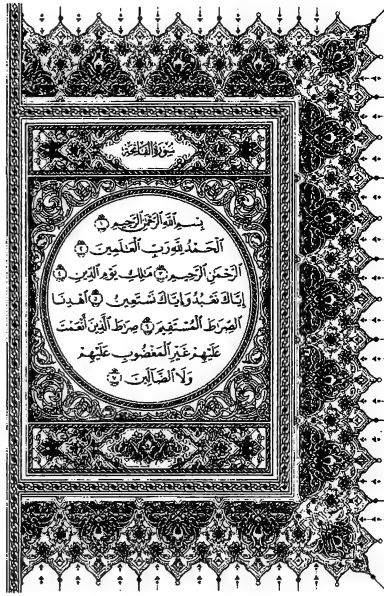
٢٢- فإذا عرفت هذا ففعل الهداية متى عدي بـ«إلى» تضمن الإيصال إلى الغاية المطلوبة فأتى بحرف الغاية، ومتى عدي باللام تضمن التخصيص بالشيء المطلوب فأتى باللام الدالة على الاختصاص والتعيين، فإذا قلت: هديته لكذا. فهم معنى ذكرته له وجعلته له وهيأته ونحو هذا، وإذا تعدى بنفسه تضمن المعنى الجامع لذلك كله وهو التعرف والبيان والإلهام.

قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

٢٣- يتضمن بيان طرفي الانحراف عن الصراط المستقيم، وأن الانحراف إلى أحد الطرفين انحراف إلى الضلال الذي هو فساد العلم والاعتقاد والانحراف إلى الطرف الآخر انحراف إلى الغضب الذي سببه فساد القصد والعمل (الفوائد ٢١-٢٢).

فأول السورة رحمة وأوسطها هداية وآخرها نعمة.

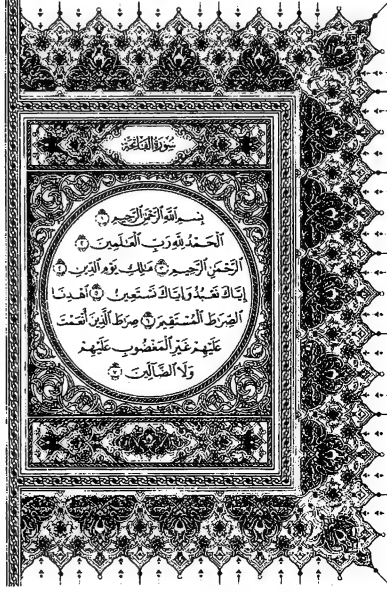
٢٤- قال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ﴾ ولم يقل: لا المغضوب عليهم. فيقال: لا ريب



أن «لا» يعطف بها بعد الإيجاب، كما تقول: جاءني زيد لا عمرو، وجاءني العالم لا الجاهل. وأما (غير) فهي تابع لما قبلها وهي صفة ليس إلا كما سيأتي، وإخراج الكلام هنا مخرج الصفة أحسن من إخراج مخرج العطف، وهذا إنما يعلم إذا عرف فرق ما بين العطف في هذا الموضع والوصف، فتقول: لو أخرج الكلام مخرج العطف وقيل: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ لا المغضوب عليهم، لم يكن في العطف بها أكثر من نفي إضافة

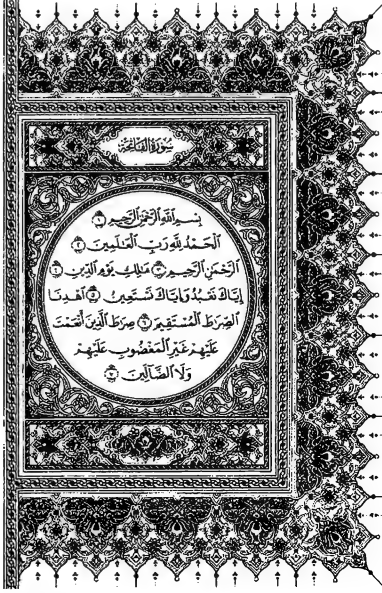
الصراط إلى المغضوب عليهم كما هو مقتضى العطف، فإنك إذا قلت: جاءني العالم لا الجاهل. لم يكن في العطف أكثر من نفي المجيء عن الجاهل وإثباته للعالم، وأما الإتيان بلفظ (غير) فهي صفة لما قبلها، فأفاد الكلام معها وصفهم بشيئين: أحدهما أنهم مُنعم عليهم، والثاني: أنهم غير مغضوب عليهم، فأفاد ما يفيد العطف مع زيادة الثناء عليهم ومدحهم.

٢٥- وفيها فائدة أخرى وهي أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ادعوا أنهم هم المنعم عليهم دون أهل الإسلام، فكأنه قيل لهم: المنعم عليهم غيركم لا أنتم. وقيل: للمسلمين المغضوب عليهم غيركم لا أنتم، فالإتيان بلفظة (غير) في هذا السياق أحسن وأدل على إثبات المغايرة المطلوبة.



٢٦- فتأمله وتأمل كيف قال: المغضوب عليهم ولا الضالين، ولم يقل: اليهود والنصارى، مع أنهم هم الموصوفون بذلك؛ تجريدا لوصفهم بالغضب والضلال الذي به غايروا المنعم عليهم ولم يكونوا منهم بسبيل؛ لأن الإنعام المطلق ينافي الغضب والضلال، فلا يثبت لمغضوب عليه ولا ضال، فتبارك من أودع كلامه من الأسرار ما يشهد بأنه تنزيل من حكيم حميد.

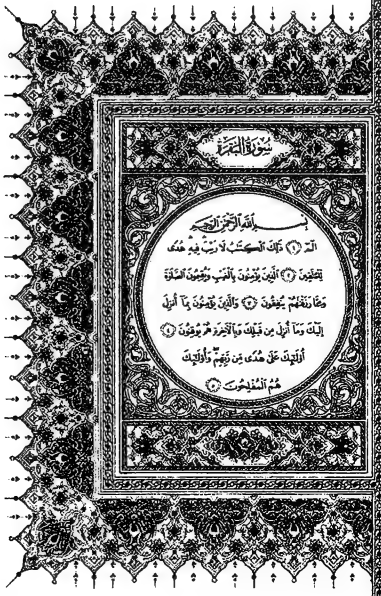
٢٧- الفائدة الثالثة: رفع توهم أن الضالين وصف للمغضوب عليهم وأنهما صنف واحد وصفوا بالغضب والضلال ودخل العطف بينهما كما يدخل في عطف الصفات بعضها على بعض نحو قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ٣﴾ (المؤمنون: ١-٣) إلى آخرها، فإن هذه صفات المؤمنين، ومثل قوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ٣﴾ (الأعلى: ١-٣) ونظائره، فلما دخلت (لا) علم أنها صنفان متغايران مقصودان بالذكر، وكانت (لا) أولى بهذا المعنى من غير لوجوه: أحدها: أنها أقل حروفا. الثاني: التفادي من تكرار اللفظ. الثالث: الثقل الحاصل بالنطق به (غير) مرتين من غير فصل إلا بكلمة



مفردة، ولا ريب أنه ثقیل على اللسان. الرابع: أن
(لا) إنما يعطف بها بعد النفي، فالإتيان بها مؤذن
بنفي الغضب عن أصحاب الصراط المستقيم كما
نفي عنهم الضلال، و(غير) وإن أفهمت هذا فلا
أدخل في النفي منها.



سورة البقرة



قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ﴾

١- تأمل سر: ﴿الَّذِينَ﴾ كيف اشتملت على هذه الحروف الثلاثة، فالألف إذا بدئ بها أولا كانت همزة، وهي أول المخارج من أقصى الصدر واللام من وسط مخارج، وهي أشد الحروف اعتمادا على اللسان، والميم آخر الحروف ومخرجها من الفم وهذه الثلاثة هي أصول مخارج الحروف أعني الحلق واللسان والشفيتين وترتيب في التنزيل من البداية إلى الوسط إلى النهاية. فهذه الحروف

معتمد المخارج الثلاثة التي تتفرع منها ستة عشر مخرجا، فيصير منها تسعة وعشرون حرفا عليها دار كلام الأمم الأولين والآخرين مع تضمنها سرا عجيبا، وهو أن للألف البداية واللام التوسط والميم النهاية، فاشتملت الأحرف الثلاثة على البداية والنهاية والواسطة بينهما (بدائع الفوائد ٣/ ١٧٤).

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾^(٨)
يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ^(٩)

٢- أخبر سبحانه وتعالى أن هؤلاء المخادعين مخدوعون، وهم لا يشعرون أن الله تعالى خادع من خدعه، وأنه يكفي المخدوع شر من خدعه.

والمخادعة: هي الاحتيال والمراوغة بإظهار الخير مع إبطان خلافه، ليحصل مقصود المخادع (إغائة اللفهان ١/ ٣٤٠).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (١١) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٢).

٣- حكم العزيز الحكيم بين الفريقين بأن سجل على المنافقين أربع إفسادات:

* أحدها: تكذيبهم.

* والثاني الإخبار بأنهم مفسدون.

* والثالث: حصر الفساد فيهم بقوله: ﴿هُمْ الْمُفْسِدُونَ﴾.

* والرابع: وصفهم بغاية الجهل وهو أنه لا شعور لهم البتة بكونهم مفسدين.

وتأمل كيف نفى الشعور عنهم في هذا الموضع، ثم نفى العلم في قولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾ فقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فنفى علمهم بسفاههم وشعورهم بفسادهم، وهذا أبلغ ما يكون من الذم والتجهيل أن يكون الرجل مفسدا ولا شعور له بفساده البتة مع أن أثر فساد مشهور في الخارج مرئي لعباد الله وهو لا يشعر به،

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۚ خَسِرَ اللَّهُ عَنْ قُلُوبِهِمْ وَغَلَ سَنُوهَهُمْ وَعَلَىٰ أَصْدُقِهِمْ غَشَوَهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ وَنَحْنُ أَلَسْنَا مَنِ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِآيَاتِهِ الْآخِرَةِ وَمَا نُمْنِيْنَ ۝ يُخَذِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ يُبَايِعُكَ أَوْ يَنْكِرُكَ يُوتُونَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ۝ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَلَقَدْ أَخَذْنَا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا قُلُوبًا وَءَامَنَّا وَقَدْ خَلَوْنَا إِلَىٰ شَيْطَانِهِمْ فَتَاوُوا إِلَيْنَا مَكَرًا لِّئِنَّمَا نَخْنُقْهُنَّ لَكُنَّ يُسْمَعُونَ ۝ أَوَلَيْكَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَتُضَلِّلُونَ ۝ بِالْهَدْيِ فَمَا رِيحَتِ رِجْلُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ۝

وهذا يدل على استحكام الفساد في مداركه وطرق علمه، وكذلك كونه سفيها والسفه غاية الجهل وهو مركب من عدم العلم بما يصلح معاشه ومعاذه وإرادته بخلافه، فإذا كان بهذه المنزلة وهو لا يعلم بحاله، كان من أشقى النوع الإنساني، فنفي العلم عنه بالسفه الذي هو فيه متضمن لإثبات جهله، ونفي الشعور عنه بالفساد الواقع منه متضمن لفساد آلات إدراكه، فتضمنت الآيتان الإِسْجَالَ عليهم بالجهل وفساد آلات الإدراك، بحيث يعتقدون الفساد صلاحًا والشر خيرًا (شفاء العليل ٩٨-٩٩).

* أحدها: تسفيهم.

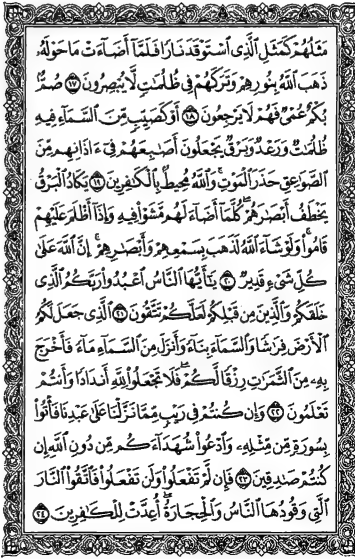
* الثالث: نفي العلم عنهم.

.(۱۳۱-۱۳۰ / ۴

٥- أخبر عن حال المنافقين بالنسبة إلى حظهم من الوحي، وأنهم بمنزلة من

نَبَاهُهُمْ كَمَا لَمْ يَأْتِ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِثْلَهُ مَاحِزَةً
 دَخَبَ اللَّهُ بِشَوْرِهِ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ٥ صَدُّ
 بِكُفْرِهِمْ هَذَا لَا يُبْصِرُونَ ٥ أَوْ كَمَا بَصُرَتْ السَّمَاءُ فِيهِ
 ظُلُمَاتٌ وَتَعَدُّ وَتُزَوِّجُ جَعَلُونَ أَصْحَابَ هَذِهِ أَهْلَ دِينِهِمْ
 الصَّوْبَ حَقَّ الْحَدِّ وَاللَّهُ يُحِيطُ بِالْكَافِرِينَ ٥ وَكَأَنَّ الْبُزْجَ
 يَخْلُقُ أَصْحَابَهُمْ كُلَّمَا أَهْلُهَا قَامُوا قَامُوا أَهْلُهَا عَلَيْهِمْ
 قَامُوا وَلَوْ أَنَّ اللَّهَ دَخَبَ بِسَعْدِهِمْ أَصْحَابَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
 عَلَى خَيْرٍ وَبَصِيرٌ ٥ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي
 خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ٥ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
 الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بَنَةً وَأَرْسَلَ فِيهَا سَحَابًا فَأَخْرَجَ
 مِنْهُ مِنَ الشَّجَرِ زُفْرًا لَعَلَّكُمْ تَفْقَهُونَ ٥ وَلَا تَقْسِمْ بِاللَّهِ أَنْ تَكُونَ
 تَعْلَمُونَ ٥ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا
 بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ٥ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ
 كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٥ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا الْقَارُونَ
 أَلَيْ وَفُودَهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ٥

إليه؛ ولهذا قال: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨].



٦- وتأمل قوله تعالى: ﴿أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ [البقرة: ١٧] كيف جعل ضوءها خارجا عنه منفصلا، ولو اتصل ضوءها به ولا بسه لم يذهب، ولكنه كان ضوء مجاورة لا ملابسة ومخالطة، وكان الضوء عارضا والظلمة أصلية، فرجع الضوء إلى معدنه وبقيت الظلمة في معدنها فرجع كل منهما إلى أصله اللائق به، حجة من الله قائمة، وحكمة بالغة تعرف بها إلى أولي الأبواب من عباده (اجتماع الجيوش الإسلامية (٦٤/٢).

٧- وتأمل قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧] ولم يقل: بنارهم. لتطابق أول الآية؛ فإن النار فيها إشراق وإحراق، فذهب بما فيها من الإشراق وهو النور، وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق وهو النارية.

٨- وتأمل كيف قال: ﴿بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧] ولم يقل: بضوئهم. مع قوله: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ [البقرة: ١٧]؛ لأن الضوء هو زيادة في النور، ولو قيل: ذهب الله بضوئهم، لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل، فلما كان النور أصل الضوء، كان الذهاب به ذهابا بالشيء وزيادته، وأيضا فإنه أبلغ في النفي عنهم وأنهم من أهل الظلمات الذين لا نور لهم، وأيضا: فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سَمَى كتابه نوراً، ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نوراً، ودينه نوراً، وهدايه نوراً، ومن أسمائه النور، والصلاة نور، فذهابه سبحانه بنورهم ذهاب بهذا كله.

٩- وتأمل كيف قال الله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧] فوحده، ثم قال: ﴿وَرَكَّهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧] فجمعها، فإن الحق واحد وهو صراط الله

مَنَّا لَهُمْ كَذَلِكِ الَّذِي اسْتَوْفَدْنَا قَالَتَا أَتَيْنَاكَ مَا سَأَلْتَهُ
 ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٢٥٧﴾ مَنَّا لَهُمْ
 بِكَوْكَبٍ مِّنْهُ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ
 ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنُقُودٌ يَخْتَلُونَ أَصْحَابُ ظُلُمَاتٍ إِذَا يَخِرُّونَ
 الْمَوْتِ عَنْ حَذَرِ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُجِيبٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٢٥٩﴾ يَكْفُرُ الْبَرُّ
 بِتُفْلِهِ أَتَبَرُّ مِنْ كُفْرِهِ أَتَعْلَمُونَ ﴿٢٦٠﴾ وَلَقَدْ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ
 قَامُوا وَلَوْ سَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ
 عَلَى خَمُوءٍ قَبِيرٍ ﴿٢٦١﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي
 خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢٦٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
 الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بَنَةً وَأَرْسَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ
 بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لَهُ آدَادًا وَأَنْتُمْ
 تَعْلَمُونَ ﴿٢٦٣﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا
 بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ
 كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٦٤﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ
 الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٦٥﴾

المستقيم الذي لا صراط يوصل إليه سواء وهو عباده وحده لا شريك له بما شرعه على لسان رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا بالأهواء والبدع وطرق الخارجين عما بعث الله به رسوله من الهدى ودين الحق بخلاف طرق الباطل، فإنها متعددة متشعبة ولهذا يفرد سبحانه وتعالى الحق، ويجمع الباطل كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فجمع سبل الباطل ووحد سبيله الحق، ولا يناقض هذا قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦] (اجتماع الجيوش الإسلامية ٢/ ٦٧).

١٠- وتأمل مطابقة هذا المثل لما تقدمه من قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَّحَتْ بِحَدْرَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦]، كيف طابق هذه التجارة الخاسرة التي تضمنت حصول الضلالة والرضا بها، وبذل الهدى في مقابلتها وحصول الظلمات التي هي الضلالة والرضا بها، بدلا عن النور الذي هو الهدى والنور، فبدلوا الهدى والنور وتعوضوا عنه بالظلمة والضلالة فبذلوا النور في تجارتها ما أخسرها وصفقة ما أشد غبنها.

١١- فوصفهم سبحانه بأنهم لا يفقهون الحق ولا تنطق به ألسنتهم، والعلم يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب: من سمعه، وبصره، وقلبه. وقد عليهم سدت هذه الأبواب

الثلاثة، فسد السمع بالصمم، والبصر بالعمى، أو القلب بالبكم (شفاء العليل (٩٦).

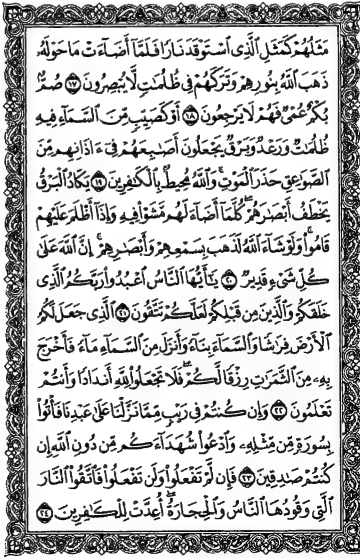
قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْصِعُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (١٩).

١٢- ثم ضرب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهُمْ مثلاً آخر ماثياً فقال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْصِعُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ

بِالْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩] فشبه نصيبهم مما بعث الله تعالى به رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من النور والحياة بنصيب المستوقد للنار التي طفئت عنه أحوج ما كان إليها، وذهب نوره وبقي في الظلمات حائراً تائها لا يهتدي سبيلاً ولا يعرف طريقاً، وبنصيب أصحاب الصيب وهو المطر الذي يصبوب -أي ينزل- من علو إلى سفلى، فشبه الهدى الذي هدى به عباده بالصيب، لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر، ونصيب المنافقين من هذا الهدى بنصيب من لم يحصل له

من الصيب إلا ظلمات ورعد وبرق، ولا نصيب له فيما وراء ذلك مما هو المقصود بالصيب من حياة البلاد والعباد والشجر والدواب، وأن تلك الظلمات التي فيه وذلك الرعد والبرق مقصود لغيره، وهو وسيلة إلى كمال الانتفاع بذلك الصيب، فالجاهل لفرط جهله يقتصر على الإحساس بما في الصيب من ظلمة ورعد وبرق ولوازم ذلك من برد شديد وتعطل مسافر عن سفره وصانع عن صنعتته، ولا بصيرة له تنفذ إلى ما يؤول إليه أمر ذلك الصيب من الحياة والنفع العام، وهكذا شأن كل قاصر النظر ضعيف العقل لا يجاوز نظره الأمر المكروه الظاهر إلى ما وراءه من كل محبوب. وهذه حال

من الصيب إلا ظلمات ورعد وبرق، ولا نصيب له فيما وراء ذلك مما هو المقصود بالصيب من حياة البلاد والعباد والشجر والدواب، وأن تلك الظلمات التي فيه وذلك الرعد والبرق مقصود لغيره، وهو وسيلة إلى كمال الانتفاع بذلك الصيب، فالجاهل لفرط جهله يقتصر على الإحساس بما في الصيب من ظلمة ورعد وبرق ولوازم ذلك من برد شديد وتعطل مسافر عن سفره وصانع عن صنعتته، ولا بصيرة له تنفذ إلى ما يؤول إليه أمر ذلك الصيب من الحياة والنفع العام، وهكذا شأن كل قاصر النظر ضعيف العقل لا يجاوز نظره الأمر المكروه الظاهر إلى ما وراءه من كل محبوب. وهذه حال



أكثر الخلق إلا من صحت بصيرته، فإذا رأى ضعيف البصيرة ما في الجهاد من التعب والمشاق والتعرض لتلاف المهجة والجراحات الشديدة وملامة اللوام ومعادة من يخاف معاداته، لم يقدم عليه؛ لأنه لم يشهد ما يتول إليه من العواقب الحميدة والغايات التي إليها تسابق المتسابقون وفيها تنافس المتنافسون.

١٣- منها: أن المستضيء بالنار مستضيء بنور من جهة غيره لا من قبل نفسه، فإذا ذهب تلك النار بقي في ظلمة. وهكذا المنافق لما أقر بلسانه من غير اعتقاد ومحبة بقلبه وتصديق جازم كان ما معه من النور كالمستعار.

١٤- ومنها: أن ضياء النار يحتاج في دوامه إلى مادة تحمله، وتلك المادة للضياء بمنزلة غذاء الحيوان، فكذلك نور الإيمان يحتاج إلى مادة من العلم النافع والعمل الصالح يقوم بها ويدوم بدوامها فإذا انقطعت مادة الإيمان طفق كما تطفأ النار بفراغ مادتها.

١٥- ومنها: أن الظلمة نوعان: ظلمة مستمرة لم يتقدمها نور، وظلمة حادثة بعد النور وهي أشد الظلمتين وأشقهما على من كانت حظه، وظلمة المنافق ظلمة بعد إضاءة، فمثلت حاله بحال المستوقد للنار الذي حصل في الظلمة بعد الضوء، وأما الكافر فهو في الظلمات لم يخرج منها قط.

١٦- ومنها: أن في هذا المثل إيذانا وتنبها على حالهم في الآخرة وأنهم يعطون نورا ظاهرا كما كان نورهم في الدنيا ظاهرا، ثم يطفأ ذلك النور أحوج ما يكونون إليه إذ لم تكن له مادة باقية تحمله ويبقون على الجسر في الظلمة لا يستطيعون العبور؛ فإنه

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ

عَبْدَانَا تَوَاسُورَةً مِّن مِّثْلِهِ. وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

١٨- فقررت هذه الآيات هذه المطالب كلها على أحسن وجه، فصدرها تعالى بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وهذا خطاب لجميع بني آدم يشتركون كلهم في تعلقه بهم، ثم قال: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ فأمرهم بعبادة ربهم، وفي ضمن هذه الكلمة البرهان القطعي على وجوب عبادته؛ لأنه إذا كان ربنا الذي يربينا بنعمة وإحسانه وهو مالك ذاتنا ورقابنا وأنفسنا وكل ذرة من العبد فمملوكه له ملكا خالصا حقيقيا وقد رباه بإحسانه إليه وإنعامه عليه عبادته له وشكره إياه واجب عليه.

١٩- ولهذا قال: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ ولم يقل: إلهكم. والرب هو السيد والمالك والمنعم والمربي والمصلح، والله تعالى هو الرب بهذه الاعتبارات كلها، فلا شيء أوجب في العقول والفطر من عبادة من هذا شأنه وحده لا شريك له.

٢٠- ثم قال: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ فنبه بهذا أيضا على وجوب عبادته وحده وهو كونه

أخرجهم من العدم إلى الوجود وأنشأهم واخترعهم وحده بلا شريك باعترافهم وإقرارهم كما قال في غير موضع من القرآن: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُم مِّن خَلْق السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ فإذا كان هو وحده الخالق فكيف لا يكون وحده المعبود؟! وكيف يجعلون معه شريكا في العبادة وأنتم مقرون بأنه لا شريك له في الخلق؟!

وهذه طريقة القرآن يستدل بتوحيد الربوبية على

توحيد الإلهية.

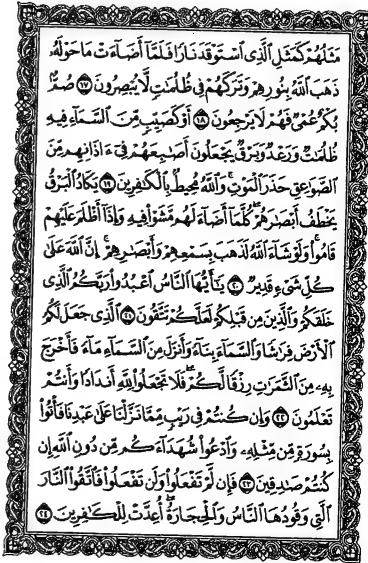
تَعَالَى كَذَلِكَ الَّذِي اسْتَوْفَقْنَا لَهُ فَاذْكُرُوا أَنصَابَكُمْ مَّا حَوَّلَهُ
ذَمَّ اللَّهُ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٥﴾ ضَلُّوا
بِكُفْرَانِهِمْ فَهُمْ لَا يُهْتَدُونَ ﴿٢٦﴾ أَوْ كَسَيْتُمْ فِي تَوَالِفٍ
ظُلُمَاتٍ لَّيْسَ فِيهَا سِرٌّ وَلَا يُضِيءُ وَلَا تُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا تَتَذَكَّرُونَ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا ﴿٢٧﴾ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا
أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٢٩﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا
يَبْصُرُونَ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٣١﴾
وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا
أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا
يَبْصُرُونَ ﴿٣٤﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٣٥﴾
وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا
أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا
يَبْصُرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٣٩﴾
وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا
أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا
يَبْصُرُونَ ﴿٤٢﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٤٣﴾
وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٤٤﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا
أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٤٥﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا
يَبْصُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٤٧﴾
وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا
أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٤٩﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا
يَبْصُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٥١﴾
وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا
أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٥٣﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا
يَبْصُرُونَ ﴿٥٤﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٥٥﴾
وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا
أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا
يَبْصُرُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٥٩﴾
وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا
أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٦١﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا
يَبْصُرُونَ ﴿٦٢﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٦٣﴾
وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا
أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٦٥﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا
يَبْصُرُونَ ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٦٧﴾
وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا
أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٦٩﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا
يَبْصُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٧١﴾
وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا
أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا
يَبْصُرُونَ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٧٥﴾
وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٧٦﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا
أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٧٧﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا
يَبْصُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٧٩﴾
وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا
أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا
يَبْصُرُونَ ﴿٨٢﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٨٣﴾
وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا
أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا
يَبْصُرُونَ ﴿٨٦﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٨٧﴾
وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٨٨﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا
أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٨٩﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا
يَبْصُرُونَ ﴿٩٠﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٩١﴾
وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٩٢﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا
أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٩٣﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا
يَبْصُرُونَ ﴿٩٤﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٩٥﴾
وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٩٦﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا
أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٩٧﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا
يَبْصُرُونَ ﴿٩٨﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿٩٩﴾
وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْيُنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴿١٠٠﴾

٢١- ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فنبه بذلك على أنه وحده الخالق لكم ولا بآئكم ومن تقدمكم، وأنه لم يشركه أحد في خلق من قبلكم ولا في خلقكم، وخلقته تعالى لهم متضمن لكمال قدرته وإرادته وعلمه وحكمته وحياته، وذلك يستلزم لسائر صفات كماله ونعوت جلاله، فتضمن ذلك إثبات صفاته وأفعاله ووحدانيته في صفاته، فلا شبهة له فيها ولا في أفعاله، فلا شريك له فيها، ثم ذكر المطلوب من خلقهم وهو أن

يتقوه فيطيعونه ولا يعصونه، ويذكرونه فلا ينسونه، ويشكرونه ولا يكفرونه، فهذه حقيقة تقواه.

٢٢- وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قيل: إنه تعليل للأمر. وقيل: تعليل للخلق. وقيل: المعنى اعبدوه لتتقوه بعبادته. وقيل: المعنى خلقكم لتتقوه. وهو أظهر لوجوه:

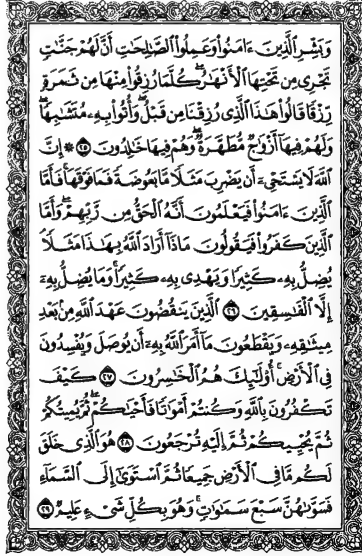
أحدها: أن التقوى هي العبادة، والشيء لا يكون علة لنفسه.



الثاني: أن نظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

الثالث: أن الخلق أقرب في اللفظ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ من الأمر.

٢٣- ثم قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فتأمل هذه النتيجة وشدة لزومها لتلك المقدمات قبلها وظفر العقل بها بأول وهلة وخلوصها من كل شبهة وريبة وقادح، وإن كل متكلم ومستدل ومحاج إذا بالغ في تقرير ما يقرره وأطاله وأعرض القول فيه، فغايتة إن صح ما يذكره أن ينتهي إلى بعض ما في القرآن، فتأمل ما تحت هذه الألفاظ من البرهان الشافي في التوحيد، أي إذا كان الله وحده هو الذي فعل هذه



الأفعال، فكيف يجعلون له أندادا وقد علمتم أنه لا ند له يشاركه في فعله (بدائع الفوائد ١٣١-١٣٦).

📖 قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِمْ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾

٢٤- فتأمل جلاله المبشر ومنزلته وصدقه وعظمته

من أرسله إليك بهذه البشارة وقدر ما بشرك به وضمنه لك على أسهل شيء عليك وأيسره وجمع سبحانه في هذه البشارة بين نعيم البدن بالجنات وما فيها من الأنهار والثمار ونعيم النفس بالأزواج المطهرة ونعيم القلب وقرة العين بمعرفة دوام هذا العيش أبد الأبد وعدم انقطاعه (بدائع الفوائد ٤/ ١٣١-١٣٦).

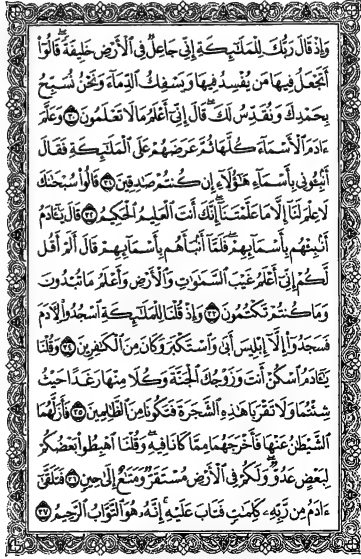
📖 قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

٢٥- أنه تعالى أحياهم بعد هذه الإماتة.

- أنه تعالى يميتهم بعد هذه الحياة.

- أنه يحييهم بعد هذه الإماتة فيرجعون إليه، فما بال العاقل يشهد الثلاثة الأطوار الأول ويكذب بالرابع، وهل الرابع إلا طور من أطوار التخليق؟! فالذي أحياكم بعد أن كنتم مواتا ثم أماتكم بعد أن أحياكم، ما الذي يعجزه عن إحيائكم بعد ما يميتكم؟! وهل إنكاركم ذلك إلا كفر مجرد بالله تعالى؟! فكيف يقع منكم بعد ما شاهدتموه؟!

ففي ضمن هذه الآية الاستدلال على وجود الخالق وصفاته وأفعاله على المعاد.



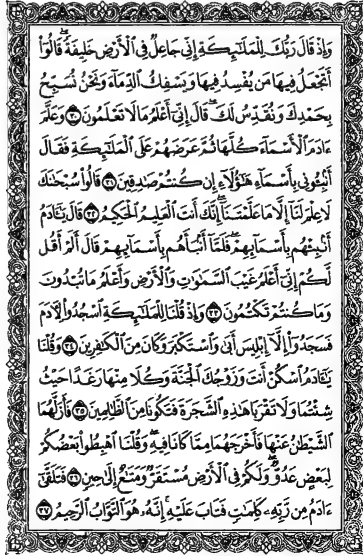
قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَذَكَّرُ أُنْثَاهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْنَهُونَ ﴿٣٣﴾﴾

٢٦- ثم إنه سبحانه أظهر فضل الخليفة عليهم بما خص به من العلم الذي لم تعلمه الملائكة، وأمرهم بالسجود له تكريماً له وتعظيماً له وإظهاراً لفضله.

وفي ضمن ذلك من الحكم ما لا يعلمه إلا الله، فمنها امتحانهم بالسجود لمن زعموا أنه يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فأسجدهم له وأظهر فضله عليهم لما أثنوا على أنفسهم وذموا الخليفة، كما فعل سبحانه ذلك بموسى لما أخبر عن نفسه أنه أعلم أهل الأرض، فامتنحه بالخضر وعجزه معه في تلك الوقائع الثلاث، وهذه سنته تعالى في خليقته وهو الحكيم العليم.

٢٧- ومنها خبره لهذا الخليفة وابتدأه له بالإكرام والإنعام لما علم مما يحصل له من الانكسار والمصيبة والمحنة، فابتدأه بالجبر والفضل، ثم جاءت المحنة والبلية

والذل وكانت عاقبتها إلى الخبر والفضل والإحسان، فكانت المصيبة التي لحقته محفوفة بإنعامين إنعام قبلها وبعدها ولذريته المؤمنين نصيب مما لأبيهم، فإن الله تعالى أنعم عليهم بالإيمان ابتداء، وجعل العاقبة لهم فما أصابهم بين ذلك من الذنوب والمصائب، فهي محفوفة بإنعام قبلها وإنعام بعدها، فتبارك الله رب العالمين.



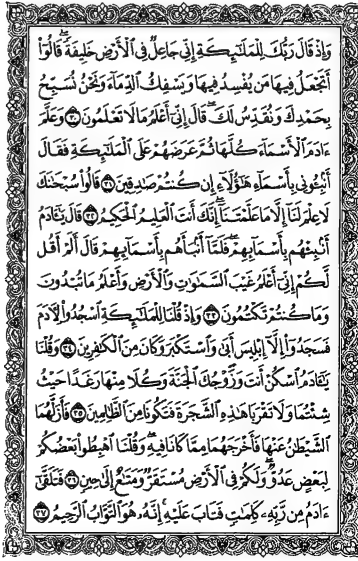
٢٨- ومنها استخراجها تعالى ما كان كامنا في نفس عدوه إبليس من الكبر والمعصية الذي ظهر عند أمره بالسجود فاستحق اللعنة والطرود والإبعاد على ما كان كامنا في نفسه عند إظهاره والله تعالى كان يعلم منه ولم يكن ليعاقبه ويلعنه على علمه فيها بل على وقوع معلومة فكان أمره بالسجود له مع الملائكة مظهرا للخبث والكفر الذي كان كامنا فيه ولم تكن

الملائكة تعلمه فأظهر لهم سبحانه ما كان يعلمه وكان خافيا عنهم من أمره فكان في الأمر بالسجود له تكريما لخليفته الذي أخبرهم بجعله في الأرض وجبرا له وتأديبا للملائكة وإظهارا لما كان مستخفيا في نفس إبليس وكان ذلك سببا لتمييز الخبيث من الطيب وهذا من بعض حكمه تعالى في إسجادهم لآدم (بدائع الفوائد ٤/ ١٣٧-١٣٩).

٢٩- بيان فضل العلم من هذه القصة من وجوه أحدها أنه سبحانه رد على الملائكة لما سأله كيف يجعل في الأرض من هم أطوع له منه فقال إني أعلم ما لا تعلمون فأجاب سؤالهم بأنه يعلم من بواطن الأمور وحقائقها ما لا يعلمونه وهو العليم الحكيم فظهر من هذا الخليفة من خيار خلقه ورسله وأنبيائه وصالحى عباده والشهداء والصديقين والعلماء وطبقات أهل العلم والإيمان من هو خير من الملائكة

وظهر من إبليس من هو شر العالمين فأخرج سبحانه هذا وهذا والملائكة لم يكن لها علم لا بهذا ولا بهذا ولا بما في خلق آدم وإسكانه الأرض من الحكم الباهرة.

٣٠- الثاني أنه سبحانه لما أراد إظهار تفضيل آدم وتمييزه وفضله ميزه عليهم



بالعلم فعلمه الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين جاء في التفسير أنهم قالوا لن يخلق ربنا خلقا هو أكرم عليه منا فظنوا أنهم خير وأفضل من الخليفة الذي يجعله الله في الأرض فلما امتحنهم بعلم ما علمه لهذا الخليفة أقروا بالعجز وجهل ما لم يعلموه فقالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم فحينئذ أظهر لهم فضل آدم بما خصه به من العلم فقال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم أقروا له بالفضل.

٣١- الثالث أنه سبحانه لما أن عرفهم فضل آدم وعجزهم عن معرفة ما

علمه قال لهم ألم أفل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون فعرفهم سبحانه نفسه بالعلم وأنه أحاط علما بظواهرهم وباطنهم وبغيب السماوات والأرض فتعرف إليهم بصفة العلم وعرفهم فضل نبيه وكليمه بالعلم.

٣٢- الرابع أنه سبحانه جعل في آدم من صفات الكمال ما كان به أفضل من غيره

من المخلوقات وأراد سبحانه أن يظهر لملائكته فضله وشرفه فأظهر لهم أحسن ما فيه وهو علمه فدل على أن العلم أشرف ما في الإنسان وأن فضله وشرفه إنما هو بالعلم

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ

وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَرِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٥﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ قَالُوا لَا نَعْلَمُ قَالَ إِنَّمَا أَنْتَ الْمَلَكُ الْمَكِينُ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَقْدُمُ أُنْثَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَتَاهُمْ أُسْمِيَهُمْ قَالُوا أَتُوقَلُّ لَكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَسْكُنُوا فِي الْأَرْضِ وَأَنْتُمْ ثَائِدُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا كُنْتُمْ بِتَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ قَالَا لَمَّا الْخُلُقُ عَلَيْنَا فَأَعْرَضْنَا عَنْهَا كَانَا فِيهَا وَمَا نَكُنَّا نَحْصِرُكَ لِيَتَّعِزَّ عَدُوٌّ وَلَكَرُمِي الْأَرْضُ مُسْتَقَرًّا وَمُنْعًى إِلَىٰ جِوْشَنَ قُلْنَا قُلْنَا لَكَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ مَوْلَا الرَّابِّ الرَّحِيمِ ﴿٤٢﴾

٣٣- في ذكر مناظرة إبليس عدو الله في شأن آدم

وإيائه من السجود له وبيان فسادها وقد كرر الله تعالى ذكرها في كتابه وأخبر فيها أن امتناع إبليس من السجود كان كبرا منه وكفرا ومجرد إباء وإنما ذكر الشبهة تعنتا وإلا فسبب معصيته الاستكبار والإباء والكفر وإلا فليس في أمره بالسجود لآدم ما يناقض الحكمة بوجه وأما شبهته الداحضة وهي أن أصله وعنصره النار وأصل آدم وعنصره التراب ورتب على ذلك أنه خير

من آدم ثم رتب على هاتين المقدمتين أنه لا يحسن منه الخضوع لمن هو فوقه وخير منه فهي باطلة من وجوه عديدة منها أن دعواه كونه خيرا من آدم دعوى كاذبة باطلة واستدلالة عليها بكونه مخلوقا من نار وآدم من طين استدلال باطل وليست النار خيرا من الطين والتراب بل التراب خير من النار وأفضل عنصرا من وجوه:

أحدها: أن النار طبعها الفساد وإتلاف ما تعلقت به بخلاف التراب (مفتاح دار السعادة

٥٦-٥٧).

الثاني: أن طبعها الخفة والحدة والطيش والتراب طبعه الرزانة والسكون والثبات.

الثالث: أن التراب يتكون فيه ومنه أرزاق الحيوان وأقواتهم ولباس العباد وزينتهم وآلات معاشهم ومساكنهم والنار لا يتكون فيها شيء من ذلك.

الرابع: أن التراب ضروري للحيوان لا يستغني عنه البتة ولا عما يتكون فيه ومنه

الثامن: أن المادة الإبليسية هي المارج من النار وهو ضعيف يتلاعب به الهوى فيميل معه كيفما مال ولهذا غلب الهوى على المخلوق منه فأسره وقهره ولما كانت المادة الآدمية التراب وهو قوي لا يذهب مع الهوى أينما ذهب وقهر هواه وأسره ورجع إلى ربه فاجتبه واصطفاه فكان الهوى الذي مع المادة الآدمية عارضا سريع الزوال فزال وكان الثبات والرزانة أصليا له فعاد إليه وكان إبليس بالعكس من ذلك فرجع كل من الأبوين إلى أصله وعنصر آدم إلى أصله الطيب الشريف واللعين إلى أصله الرديء.

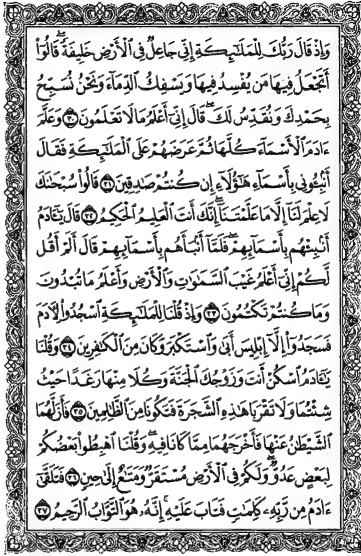
وَأَقَالَ رُفَاتُ الْمَلَكِيَّةِ إِلَى جَائِلٍ فِي الْأَرْضِ خَلْقَةً قَالُوا
أَفَجَعَلَهَا مِنْ بَعْضِهَا وَبَسِطَهَا فِيهَا وَتَحْنُ مَسِيحُ
يَحْنُوكَ وَيَقْدِسُ لَكَ قَالَ إِنْ أَغْلَرْنَا مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَعَدَّ
عَادِمًا الْأَشْمَاءَ كُنْهَا تَعْرِضُهُمْ عَلَى الْمَلَكِيَّةِ فَقَالَ
أَيُّكُمْ بِأَسْمَاءِ هَذِهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ
لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝ قَالَ يَتَذَكَّرُ
الْأَشْمَاءَ بِأَسْمَاءِهِمْ فَلَمَّا أَتَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ
لَكُمْ إِنْ أَغْلَرْتُمْ غَيْبَ السَّمَكِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَرْتُمْ مَائِدَتِ
وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ۝ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِيَّةِ اسْجُدُوا لآدَمَ
فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ إِنْ وَاسَّكَ تَكْبَرُ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝ وَقُلْنَا
يَتَذَكَّرُ أَسْمَاءُ أَنْتَ وَرُفَاتُكَ الْخَلْقَةَ وَكُلٌّ مِنْهَا رَعْدٌ أَحْيَى
يَشْفَعُونَ وَلَا تَقْرَأُ هَذَا وَالشَّجَرَةَ فَتَكْرَأُ مِنَ الظَّالِمِينَ ۝ قَالُوا لَنَا
الْأَسْمَاءُ عَنْهَا فَأَخْرَجْنَاهَا مِنْهَا كَأَنَّا نَفِيءُ وَقُلْنَا أَخْرِطُوا أَنْفُسَكُمْ
بِعِصْيَانِ عَدُوٍّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مَسْتَقَرٌّ وَمَتْنٌ إِلَى الْجَنِّ ۝ فَتَلَقَّى
عَادَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝

التاسع: أن النار وإن حصل بها بعض المنفعة والمتاع فالشر فيها لا يصددها عنه إلا قسرها وحبسها ولولا القاسر والحابس لها لأفسدت الحرث والنسل وأما التراب فالخير والبر والبركة كامن فيه كلما أثير وقلب ظهرت بركته وخيره وثمرته فأين أحدهما من الآخر.

العاشر: أن الله تعالى أكثر ذكر الأرض في كتابه وأخبر عن منافعها وخلقها وأنه جعلها مهادا وفرشا وبساطا وقرارا وكفاتا للأحياء والأموات ودعا عباده

إلى التفكير فيها والنظر في آياتها وعجائب ما أودع فيها ولم يذكر النار إلا في معرض العقوبة والتخويف والعذاب إلا موضعا أو موضعين ذكرها فيه بأنها تذكرة ومتاع للمقوين تذكرة بنار الآخرة ومتاع لبعض أفراد الإنسان وهم المقوون النازلون بالأرض الخالية إذا نزلها المسافر تمتع بالنار في منزله فأين هذا من أوصاف الأرض في القرآن.

الحادي عشر: أن الله تعالى وصف الأرض بالبركة في غير موضع من كتابه خصوصا وأخبر أنه بارك فيها عموما فقال: ﴿ قُلْ أَيْتُكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝١﴾ وجعل فيها رؤس من فوقها وبرك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ۝١٠﴾ فهذه بركة عامة وأما البركة الخاصة ببعضها فكقوله: ﴿ وَجَعَلْنَاهُ لَكُمْ لَوْطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ۝٧١﴾ وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَهْرَةً ۝٧٢﴾ وقوله: ﴿ وَاسْلَيْمَنَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِ رَبِّهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۝٧٣﴾ وأما النار فلم يخبر أنه جعل فيها بركة أصلا بل المشهور أنها مذهب للبركة ماحقة لها فأين المبارك في نفسه المبارك فيما وضع فيه إلى مزيل البركة وماحقها.



الثاني عشر: أن الله تعالى جعل الأرض محل بيوته التي يذكر فيها اسمه ويسبح له فيها بالغدو والآصال عموما وبيته الحرام الذي جعله قياما للناس مباركاً فيه وهدى للعالمين خصوصاً ولو لم يكن في الأرض إلا بيته الحرام لكفاها ذلك شرفاً وفضلاً على النار.

الثالث عشر: أن الله تعالى أودع في الأرض من المنافع والمعادن والأنهار والعيون والثمرات والحبوب والأقوات وأصناف الحيوانات وأمتعها والجبال والجنان والرياض والمراكب البهية والصور

البهيجة ما لم يودع في النار شيئاً منه فأى روضة وجدت في النار أو جنة أو معدن أو صورة أو عين فوارة أو نهر مطرد أو ثمرة لذيدة أو زوجة حسنة أو لباس وستر.

الرابع عشر: أن غاية النار أنها وضعت خادمة لما في الأرض فالنار إنما محلها محل الخادم لهذه الأشياء المكمل لها فهي تابعة لها خادمة فقط إذا استغنت عنها طردتها وأبعدتها عن قربها وإذا احتاجت إليها استدعتها المخدم لخدمة ومن يقضي حوائجه.

الخامس عشر: أن اللعين لقصور نظره وضعف بصيرته رأى صورة الطين تراباً ممتازاً بماء فاحتقره ولم يعلم أن الطين مركب من أصلين الماء الذي جعل الله تعالى منه كل شيء حي والتراب الذي جعله خزانة المنافع والنعم هذا وكم يجيء من الطين من المنافع وأنواع الأمتعة فلو تجاوز نظره صورة الطين إلى مادته ونهايته لرأى أنه خير من النار وأفضل وإذا استقرت الوجوه التي تدل على أن التراب أفضل من النار وخير منها وجدتها كثيرة جداً وإنما أشرنا إليها إشارة.

قَالَ قَالَ رَبُّكَ الْمَلَكُ إِلَى جِبَالٍ فِي الْأَرْضِ خَلْقَةً قَالُوا
أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ سَائِغٌ
بِحَسْبِكَ وَنَحْنُ ذُلٌّ لَكَ قَالَ أَلَمْ نَقُلْ لَكَ لَا تَخْلُقُونَ ۝ وَعَلَى
عَادَ الْأَنْسَاءُ عَلَى هَؤُلَاءِ عَزَّيْزَةٌ عَلَى الْمَلَكِ فَقَالَ
أَلَمْ يَكُنْ فِي بَنَاتِهِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ
لَا يَخْلُقُ إِلَّا مَا شَاءَ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝ قَالَ يَتَذَكَّرُ
أَلَيْكُمُ بَنَاتُيَ هَؤُلَاءِ بَنَاتُكُمْ أَنْبَاءُكُمْ بَنَاتُكُمْ قَالُوا أَفَأُولَ
لَكُمْ إِيَّاهُنَّ غِيْبٌ أَلَمْ نَقُلْ لَكَ الْغَيْبُ وَالْأَرْضُ وَأَعْلَى مَا تُبْدُونَ
وَمَا تُخْفُونَ ۝ قَالُوا فَتَكُنْ الْمَلَكُ عَلَى سَائِدِ الْأَرْضِ
فَسَجَدُوا لِلْإِلَهِ إِنَّكَ أَنْتَ سَاحِدٌ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝ وَقَالُوا
يَتَذَكَّرُ أَلَيْسَ لَكَ رُؤُوسُ الْجَنَّةِ وَكُلَّا مِنْهَا رَغَدًا سَائِغٌ
يَتَذَكَّرُ وَلَا تَقْرَأُ هَؤُلَاءِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ ۝ قَالُوا
الْظُّلُمَ عَنْهَا فَأَقْرَبَهُمَا رِيقًا فَكَاذِبِينَ وَقَالُوا أَهِيْطُوا بَعْضُكُمْ
بِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ۝ فَتَلَقَّى
عَادَ مِنْ رَبِّهِمْ كَلِمَتَ فِتْنَةٍ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ الْوَارِثُ الرَّحِيمُ ۝

فقياسه باطل نصا وعقلا وكل من عارض
نصوص الأنبياء بقياسه ورأيه فهو من خلفائه وأتباعه
فنعوذ بالله من الخذلان ونسأله التوفيق والعصمة من
هذا البلاء الذي ما رمي العبد بشر منه ولأن يلقى الله
بذنوب الخلائق كلها ما خلا الإشراف به أسلم له من
أن يلقى الله وقد عارض نصوص أنبيائه برأيه ورأي
بني جنسه وهل طرد الله تعالى إبليس ولعنه وأحل
عليه سخطه وغضبه إلا حيث عارض النص بالرأي
والقياس ثم قدمه عليه.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَتَذَكَّرُ أَلَيْسَ لَكَ رُؤُوسُ الْجَنَّةِ وَكُلَّا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا
تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ۝﴾ (٣٥) فَأَزَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا
فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ۝﴾ (٣٦).

٣٤- فهذا يدل على أن هبوطهم كان من الجنة إلى الأرض من وجهين أحدهما
من لفظة ﴿اهْبِطُوا﴾ فإنه نزول من علو إلى سفلى، والثاني ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾
عقب قوله ﴿اهْبِطُوا﴾ فدل على أنهم لم يكونوا قبل ذلك في الأرض، ثم أكد هذا بقوله
في سورة الأعراف: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ۝﴾ (٣٥) ولو كانت الجنة
في الأرض لكانت حياتهم فيها قبل الإخراج وبعده.

قالوا وقد وصف سبحانه جنة آدم بصفات لا تكون إلا في جنة الخلد فقال: ﴿إِنَّ
لَكَ أَلَّا يَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۝﴾ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ۝﴾ (١١٩) وهذا لا يكون في الدنيا
أصلا فإن الرجل ولو كان أطيب منازلها لا بد أن يعرض له شيء من ذلك.



قالوا وأيضا فلو كانت تلك الجنة في الدنيا لعلم آدم كذب إبليس في قوله: ﴿هَلْ أَذُكَّ عَلَى شَجَرَةٍ الْخُلْدِ وَمَلِكٌ لَا يَبْلَى﴾ فإن آدم كان يعلم أن الدنيا منقضية فانية وأن ملكها يبلى.

قالوا وأيضا هذه القصة في سورة البقرة ظاهرة جدا في أن الجنة التي أخرج منها فوق السماء فإنه سبحانه قال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَتَّخِذْ أَسْكُنَ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا

حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَلَقِيَ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّجِيمُ ﴿٣٧﴾ (حادي الأرواح (٣٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ غَافِلِينَ﴾ ﴿٤٢﴾

٣٥- نهى عن لبس الحق بالباطل وكتمانه ولبسه به خلطه به حتى يلتبس أحدهما بالآخر ومنه التلبيس وهو التدليس والغش الذي يكون باطنه بخلاف ظاهره فكذلك الحق إذا لبس بالباطل يكون فاعله قد أظهر الباطل في صورة الحق وتكلم بلفظ له معنيان معنى صحيح ومعنى باطل فيتوهم السامع أنه أراد المعنى الصحيح ومراده الباطل فهذا من الإجمال في اللفظ (الصواعق المرسلة ٣/ ٩٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَأَسْعَيْنُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا كَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوْنَ رَبَّهُمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾

وَأَذَلْنَا أَذْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَعَلُوا بِهَا مَا يَحْسَبُونَ
رَحْمَةً وَأَدْخَلُوا الْآلِيبَ رَحْمَةً وَقُولُوا حِطَّةً وَتَغْفِرْ لَكُمْ
خَطِيئَتَكُمْ وَسْتَغْفِرُ الْمُخْسِرِينَ ﴿٥٠﴾ قِيلَ لِلَّذِينَ
ظَلَمُوا قُولُوا عَصِيَ آلُ إِبْرَاهِيمَ قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَاهُ عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا
وَجَزَّائِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُدُونَ ﴿٥١﴾ وَأَوَّلَاسْتَفْتَى
مُوسَى لِقَوْمِهِ فَلَمَّا أَضْرَبَ بِعَصَاهُ عَلَى الْحَجَرِ فَانْفَجَرَتْ
مِنْهُ أَيْنِسَاتُ عَشْرَةِ عَيْنَاتٍ فَذَرَكُنَّ عَلَى آتَابِيسَ فَتَشْرَبْنَ كُلُوا
وَأَشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتَفُوا فِي الْأَرْضِ مُغْسِدِينَ ﴿٥٢﴾
وَأَذَلْنَا نِسْمَةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَى ظُلْمِهِ وَجَعَلْنَا قُلُوبَنَا
وَلَمْ يَجْعَلْ يَخْشَى أَنْ يَأْتِيَهُ أَثَرُ الْأَرْضِ مِنْ قَبْلِهَا وَقَفَّاهَا
وَوَعْدَهُ بِوَعْدِهِمَا فَصَلَّى لَمْ يَأْتِ أَثَرُهُمْ إِلَّا إِلَى مَوْ
أَدُنَ بِالْأَيْدِي مُوحِّضِينَ لِيُظْلَمُوا بِمَا كَانُوا يَفْسُدُونَ ﴿٥٣﴾ فَصَلَّى
وَصُرَّتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ وَكَانُوا كَسَّةً وَوَيْبَةً وَتَغَصَّبَ مِنْ
اللَّهِ بِالَّذِينَ كَانُوا يَكْفُرُونَ وَتَالَيْتُ اللَّهُ أَنْ يَفْتَنُوا
الَّذِينَ يَخْفَوْنَ الْحَقَّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٥٤﴾

٣٧- ومن تلاعب الشيطان بهم: أنهم كانوا في البرية قد ظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، فملوا ذلك، وذكروا عيش الثوم والبصل، والعدس، والبقل، والقثاء، فسألوه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

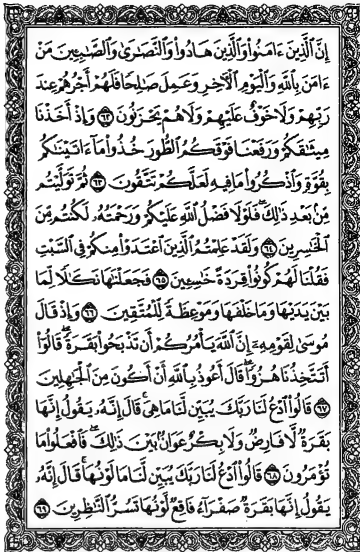
وهذا من سوء اختيارهم لأنفسهم، وقلة بصرهم بالأغذية النافعة الملائمة، واستبدال الأغذية الضارة القليلة التغذية منها، ولهذا قال لهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبِطُوا مِصْرًا﴾ أَي مِصْرًا مِنَ الْأَمْصَارِ ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١].

فكانوا في أفصح الأمكنة وأوسعها، وأطيبها هواء، وأبعدها عن الأذى، ومجاورة
الأنثان والأقذار، سقفهم الذي يظلمهم من الشمس الغمام، وطعامهم السلوى، وشرابهم
المن.

وكانوا مع ذلك يتفجر لهم من الحجر اثنتا عشرة عينا من الماء، فطلبوا الاستبدال بما هو دون ذلك بكثير، فذموا على ذلك فكيف بمن استبدل الضلال بالهدى، والغى بالرشاد، والشرك بالتوحيد، والسنة بالبدعة، وخدمة الخالق بخدمة المخلوق، والعيش الطيب في المساكن الطيبة في جوار الله تعالى بحظه من العيش النكد الفاني في هذه الدار؟ (إغاثة اللهفان ٢/ ٣٠٨).

﴿قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾. إلى قوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.﴾

٣٨- ومن تلاعب الشيطان باليهود بهم في حياة نبيهم أيضا ما قصه الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتُمْ نَحْنُ الَّذِينَ أَكُونُ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَذْأَنْتَ رَبُّنَا يَا مَاهِي قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانُ بَيْنَكَ ذَلِكَ فَأَفْعَلُوا مَا تَأْمُرُونَ ﴿٧٨﴾ قَالُوا أَذْأَنْتَ رَبُّنَا يَا مَاهِي قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرَ ﴿٧٩﴾ قَالُوا أَذْأَنْتَ رَبُّنَا يَا مَاهِي إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٨٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٨١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٨٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٨٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [البقرة: ٦٧ - ٧٤] في كتابه



من قصة القتيل الذي قتلوه وتدافعوا فيه، حتى أمروا بذبح بقرة وضربه ببعضها.

❁ وفي القصة أنواع من العبر:

٣٩- منها: أن الإخبار بها من أعلام نبوة رسول الله تعالى عليه وآله وسلم.

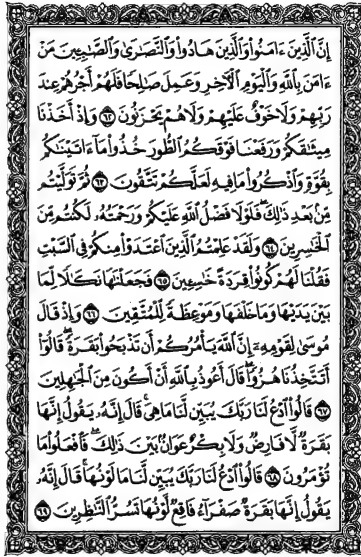
٤٠- ومنها: الدلالة على نبوة موسى، وأنه رسول رب العالمين.

٤١- ومنها: الدلالة على صحة ما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم، من معاد الأبدان، وقيام الموتى من قبورهم.

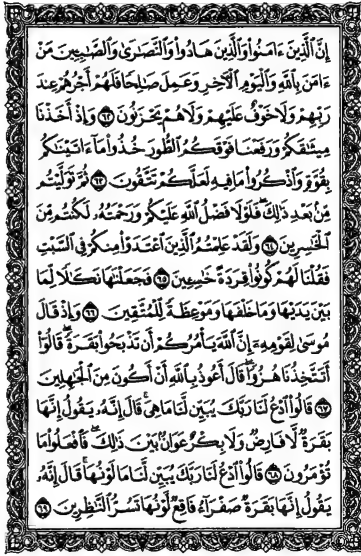
٤٢- ومنها: إثبات الفاعل المختار، وأنه عالم بكل شيء، قادر على كل شيء، عدل لا يجوز عليه الظلم والجور، حكيم لا يجوز عليه العبث.

٤٣- ومنها: إقامة أنواع الآيات والبراهين والحجج على عباده بالطرق المتنوعات، زيادة في هداية المهتدين، وإعدادًا وإنذارًا للضلال.

٤٤- ومنها: أنه لا ينبغي مقابلة أمر الله تعالى بالتعنت، وكثرة الأسئلة، بل يبادر إلى الامتثال، فإنهم لما أمروا أن يذبحوا بقرة كان الواجب عليهم أن يبادروا إلى الامتثال بذبح أي بقرة اتفقت فإن الأمر بذلك لا إجمال فيه ولا إشكال، بل هو بمنزلة قوله: أعتق رقبة، وأطعم مسكينًا، وصم يومًا، ونحو ذلك، ولذلك غلط من احتج بالآية على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب، فإن الآية غنية عن البيان المنفصل، مبينة بنفسها، ولكن لما تعنتوا وشددوا شدد عليهم.



قال أبو جعفر بن جرير عن الربيع عن أبي العالية: «لو أن القوم حين أمروا أن يذبحوا بقرة استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها لكانت إياها. ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم».



٤٥ - ومنها: أنه لا يجوز مقابلة أمر الله الذي لا يعلم المأمور به وجه الحكمة فيه بالإنكار. وذلك نوع من الكفر، فإن القوم لما قال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧].

قابلوا هذا الأمر بقولهم: ﴿قَالُوا أَلَنُخَذُّنَا هُزُؤًا﴾ [البقرة: ٦٧].

فلما لم يعلموا وجه الحكمة في ارتباط هذا الأمر بما سأله عنه، قالوا: ﴿أَلَنُخَذُّنَا هُزُؤًا﴾ [البقرة: ٦٧].

وهذا من غاية جهلهم بالله ورسوله، فإنه أخبرهم عن أمر الله لهم بذلك، ولم يكن هو الأمر به. ولو كان هو الأمر به لم يجز لمن آمن بالرسول أن يقابل أمره بذلك، فلما قال لهم: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

وتيقنوا أن الله سبحانه أمره بذلك، أخذوا في التعنت بسؤالهم عن عينها ولونها. فلما أخبروا عن ذلك رجعوا إلى السؤال مرة ثالثة عن عينها. فلما تعينت لهم ولم يبق إشكال، توقفوا في الامتثال، ولم يكادوا يفعلون.

ثم من أقبح جهلهم وظلمهم قولهم لنبيهم: ﴿الْأَن جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٧١].

فإن أرادوا بذلك: أنك لم تأت بالحق قبل ذلك في أمر البقرة، فتلك ردة وكفر

ظاهر. وإن أرادوا: أنك الآن بينت لنا البيان التام في تعيين البقرة المأمور بذبحها فذلك جهل ظاهر، فإن البيان قد حصل بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ فإنه لا إجمال في الأمر، ولا في الفعل، ولا في المذبوح، فقد جاء رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحق من أول مرة.

٤٦- ومنها: الإخبار عن قساوة قلوب الأمة وغلظها، وعدم تمكن الإيمان فيها.

قال عبد الصمد بن معقل عن وهب: كان ابن عباس يقول: «إن القوم بعد أن أحيا الله تعالى الميت فأخبرهم بقاتله، أنكروا قتله. وقالوا: والله ما قتلناه، بعد أن رأوا الآيات والحق». قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

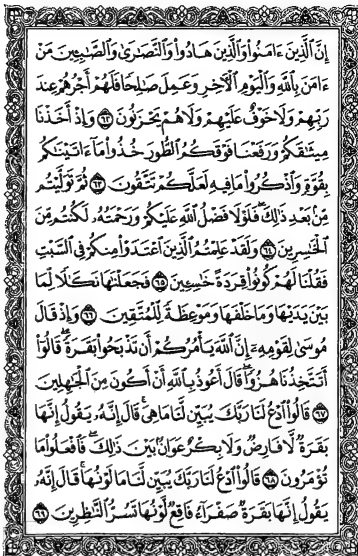
٤٧- ومنها: مقابلة الظالم الباغي بنقيض قصده شرعا وقدرًا، فإن القاتل قصده ميراث المقتول، ودفع القتل عن نفسه، ففضحه الله تعالى وهتكه وحرمه ميراث المقتول.

٤٨- ومنها: أن بني إسرائيل فتنوا بالبقرة مرتين من بين سائر الدواب، ففتنوا

بعبادة العجل وفتنوا بالأمر بذبح البقرة، والبقرة من أبلد الحيوان، حتى ليضرب به المثل.

٤٩- والظاهر: أن هذه القصة كانت بعد قصة

العجل؛ ففي الأمر بذبح البقرة تنبيه على أن هذا النوع من الحيوان الذي لا يمتنع من الذبح والحرث والسقي، لا يصلح أن يكون إلها معبودا من دون الله تعالى، وأنه إنما يصلح للذبح والحرث والسقي والعمل (إغاثة اللهفان ٢/ ٣١٤-٣١٧).



قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

٥٠- أي لا تنقص قسوتها عن قسوة الحجارة بل إن لم تزد على قسوة الحجارة لم تكن دونها وهذا المعنى أحسن وأدق من قول من جعل (أو) في هذه المواضع بمعنى (بل) ومن قول من جعلها للشك بالنسبة إلى الرأي وقول من جعلها بمعنى الواو (التيان في أقسام القرآن ٢٥٠-٢٥١).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨٠).

٥١- فهذا مطالبته لهم بتصحيح دعواهم وترديد لهذه المطالبة بين أمرين لا بد من واحد منهما وقد تعين بطلان أحدهما فلزم ثبوت الآخر فإن قولهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ خبر عن غيب لا يعلم إلا بالوحي فإما أن يكون قولاً على الله بلا علم فيكون كاذباً وإما أن يكون مستنداً إلى وحي من الله وعهد عهده إلى المخبر وهذا منتف قطعاً فتعين أن يكون خبراً كاذباً قائله كاذب على الله تعالى (بدائع الفوائد ٤/١٤٣).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِذَا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٨٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ

أَوْ لَا تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوتُ وَمَا تَكْتُمُونَ ٨١
وَعِنْدَهُ أَرْخُوسَاتٌ لَا يَحْكُمُتُ إِلَّا بِأَمْرِهِ إِلَّا أَنْتُمْ تَكْتُمُونَ ٨٢
إِلَّا بِطُغْيَانٍ ٨٣ وَقِيلَ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكَيْبَاتِ بِأَيْدِيهِمْ
لَنْ يَخْفَا عَنْكَ اللَّهُ لَيْسَ بِأَمْرٍ بِهِ تَحْتَسِبُونَ ٨٤
قِيلَ لَهُمْ فَمَا تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ قَالُوا بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فَمِمَّا يَكْتُمُونَ
٨٥ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ
أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ
تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٨٦ أَمْ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً
وَأَحْطَطَ بِهِ فَمِنْ حَيْثُ فَرَّغْتُمْ وَأَقْبَلْتُمْ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ ٨٧ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ٨٨ وَإِذْ أَخَذْنَا
مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا
لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ
تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ٨٩

ونظير هذا التفريق من يرد آيات الصفات وأخبارها ويقبل آيات الأوامر والنواهي فإن ذلك لا ينفعه لأنه آمن ببعض الرسالة وكفر ببعض فإن كانت الشبهة التي عرضت

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَوْحَايَ عِبَادِي اللَّهَ الصَّالِحِينَ
 ذُوِي الْقُرْبَىٰ فَتَقَرُّوْا بِمَوْنِهِمْ فِي يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ۚ وَإِنْ
 يَسْتَفْهِمُوا أَمْرًا يَسِفُوا فَمَنْ عَظِيْمُ عَذَابِهِمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ
 ٥٠ وَلَتَجِدَنَّهُمْ قَحْطَ النَّعْلِ عَالِي خُبْرٍ وَفِي أَلْيَتِهِمْ أَشْرَارٌ
 يَوْمَ أَكْثَمُ لَهُمُ الْعَذَابُ لَكَ فَسَتَوْا لَهُمْ مَا يَوْمُوعْتَدُونَ
 الْعَذَابِ ۚ إِنْ يَصْغُرْ عَلَيْكَ الْعَبْدُ فَاصْطَلِمْتَ ۖ قُلْ مِمَّنْ
 كَانَ عَذَابُ الْعَبِيدِ ۚ فَإِنَّهُ يَنْزَلُكَ عَلَىٰ بَيْتِكَ بِإِذْنِ
 اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَيُعْطِيكَ وَهْدً وَيُسْخَرُ لَكَ مِنَ
 ٥١ مِمَّنْ كَانَ عَذَابُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فَتَسْتَعِيبُهُمْ وَتُسْخَرُ لَهُمْ
 وَمِمَّنْ كَلَّ الْقَوْمُ عَلَيْهِمْ ۚ وَاللَّهُ أَكْبَرُ ۚ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا
 إِلَيْكَ الْبَيِّنَاتِ وَيُسْخَرُ لَهَا الْآلُفُF
 أَوْ كُنَّا عَنْهَا وَعَالَمٌ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ
 لَا يُؤْمِنُونَ ۚ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقُ
 لِّمَا مَعَهُمْ نَبَتْ فَبِئْسَ فِئْرَةً آلِ يَثْرِبَ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا
 كَافِرِينَ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۚ

والعذاب الأليم بكفرهم بالأنبياء وقتلهم لهم وعداوتهم لرسول الله.

فإن قيل فهلا أظهروا التمني وإن كانوا كاذبين فقالوا فنحن نتمناه قيل وهذا أيضا معجزة أخرى وهي أن الله تعالى حبس عن تمنيه قلوبهم وألستهم فلم ترده قلوبهم ولم تنطق به ألستهم تصديقا لقوله: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ (بدائع الفوائد ٤/ ١٤٩-١٥٠).

📖 قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾.

قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَوْيَاكُمْ يُقْبَلُ مِنْكُمْ وَلَا تَقُولُوا لِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ خَيْرًا لِّمَنْ يَكْفُرُ ۚ إِنَّكُمْ تَعْلَمُونَ ۚ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا بِآيَاتِنَا أَنْذِرْ قَوْمَكَ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كُفْرُهُمْ وَلَئِنْ لَّمْ يَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ ذَوِّينَ فَسَوْفَ يَكُونُ لِقَاءُ اللَّهِ غَاشًى ۚ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا هَارُونَ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ قَوْمِهِ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْذِرْ قَوْمَكَ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كُفْرُهُمْ وَلَئِنْ لَّمْ يَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ ذَوِّينَ فَسَوْفَ يَكُونُ لِقَاءُ اللَّهِ غَاشًى ۚ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا عِيسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْذِرْ قَوْمَكَ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كُفْرُهُمْ وَلَئِنْ لَّمْ يَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ ذَوِّينَ فَسَوْفَ يَكُونُ لِقَاءُ اللَّهِ غَاشًى ۚ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِي فَكَانَ أَجْرُهُمْ يَوْمَ تَأْتِي السُّحُبُ ۚ وَكُنْتُمْ أَشْرَكًا بِمَا تُعْبَدُونَ ۚ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا بِآيَاتِنَا أَنْذِرْ قَوْمَكَ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كُفْرُهُمْ وَلَئِنْ لَّمْ يَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ ذَوِّينَ فَسَوْفَ يَكُونُ لِقَاءُ اللَّهِ غَاشًى ۚ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا هَارُونَ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ قَوْمِهِ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْذِرْ قَوْمَكَ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كُفْرُهُمْ وَلَئِنْ لَّمْ يَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ ذَوِّينَ فَسَوْفَ يَكُونُ لِقَاءُ اللَّهِ غَاشًى ۚ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا عِيسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْذِرْ قَوْمَكَ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كُفْرُهُمْ وَلَئِنْ لَّمْ يَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ ذَوِّينَ فَسَوْفَ يَكُونُ لِقَاءُ اللَّهِ غَاشًى ۚ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِي فَكَانَ أَجْرُهُمْ يَوْمَ تَأْتِي السُّحُبُ ۚ وَكُنْتُمْ أَشْرَكًا بِمَا تُعْبَدُونَ ۚ

٥٦- تأمل قوله تعالى في هذه الآية: كيف نجد

تحتة برهانا عظيما على صدقه وهو مجيء الرسول الثاني بما يطابق ما جاء به الرسول الأول ويصدقه مع تباعد زمانها وشهادة أعدائه وإقرارهم له بأنه لم يتلقه من بشر ولهذا كانوا يمتحنونه بأشياء يعلمون أنه لا يخبر بها إلا نبي أو من أخذ عنه، وهم يعلمون أنه لم يأخذ عن أحد البتة ولو كان ذلك لوجد أعداؤه السبيل إلى الطعن عليه ولعارضوه بمثل ما جاء به إذ من الممكن أن لو كان ما جاء به مأخوذا عن بشر أن

يأخذوهم عن ملك أو عن نظيره فيعارضوا ما جاء به والمقصود أن مطابقة ما جاء به لما أخبر به الرسول الأول من غير مواطأة ولا تشاعر ولا تلقي منه ولا ممن أخذ عنه دليل قاطع على صدق الرسولين معا.

ونظير هذا أن يشهد رجل بشهادة فيخبر فيها بما يقطع به أنه صادق في شهادته صدقا لا يتطرق إليه شبهة فيجيء آخر من بلاد أخرى لم يجتمع بالأول ولم يتواطأ معه فيخبر بنظير تلك الشهادة سواء مع القطع بأنه لم يجتمع به ولا تلقاها عن أحد اجتمع به فهذا يكفي في صدقه إذا تجرد الأخبار فكيف إذا اقترن بأدلة يقطع بها بأنه صادق أعظم

بينه وبين نسله علامة العهد أن يختنوا كل مولود منهم ويكون عهدي هذا ميسما في أجسادهم فالختان علم للدخول في ملة إبراهيم وهذا موافق لتأويل من تأول قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨] على الختان (تحفة الودود (١٦٢)).

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٣٥) قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦).

٦٠- وهذا الجواب مع اختصاره قد تضمن

المنع والمعارضة: أما المنع مما تضمنه حرف (بل) من الإضراب أي ليس الأمر كما قالوا. وأما المعارضة ففي قوله: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي أتبع أو يتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وفي ضمن هذه المعارضة إقامة الحجة على أنها أولى بالصواب مما دعوتهم إليه من اليهودية والنصرانية لأنه وصف صاحب الملة بأنه حنيف غير مشرك ومن كانت ملته الحنيفية والتوحيد فهو أولى بأن يتبع ممن ملته اليهودية والنصرانية (بدائع الفوائد (١٥٥-١٥٧/٤)).

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (١٤٢) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ

الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٣﴾ قَدْ زَرَى ثَقَلَبُ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلِّ

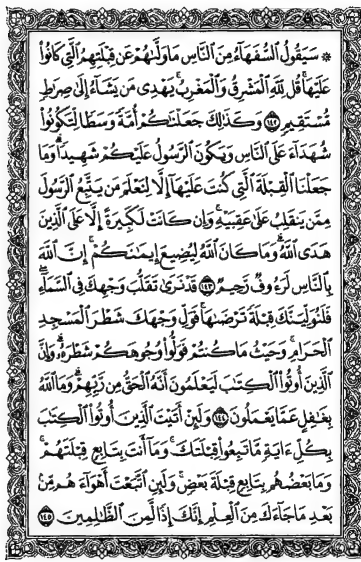
وَجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّهَا فَاسْتَقِيمُوا الْحَيْرَةَ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ إِلَّا لَيَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمْنَعِي عَيْبَكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

* سَبَقُوا الشُّعْرَاءَ مِنَ النَّاسِ مَا لَمْ يَنْهَوْا عَنْ قِبْلَتِهِمْ أَلَيْكَ كَافُوا عَلَيْهِمْ أَفَلَا تَتَذَكَّرُ وَالْمُغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٣﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَتُكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلِّ

٦١- قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ

وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ يدل على وجوب اتباع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ووجه

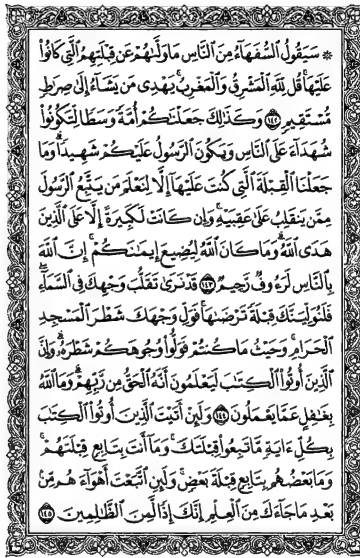
الاستدلال بالآية أنه تعالى أخبر أنه جعلهم أمة خيارا عدولا، هذا حقيقة الوسط، فهم خير الأمم، وأعدلها في أقوالهم، وأعمالهم، وإرادتهم ونياتهم، وبهذا استحقوا أن يكونوا



شهداء للرسول على أممهم يوم القيامة، والله تعالى يقبل شهادتهم عليهم، فهم شهداؤه، ولهذا نوه بهم ورفع ذكرهم، وأثنى عليهم؛ لأنه تعالى لما اتخذهم شهداء أعلم خلقه من الملائكة وغيرهم بحال هؤلاء الشهداء، وأمر ملائكته أن تصلي عليهم وتدعو لهم وتستغفر لهم، والشاهد المقبول عند الله هو الذي يشهد بعلم وصدق فيخبر بالحق مستندا إلى علمه به كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

[الزخرف: ٨٦] (إعلام الموقعين ٤ / ١٦٦-١٦٧).

٦٢- وتأمل حكمه العزيز الحكيم ولطفه وإرشاده في هذه القصة لما علم أن هذا التحويل أمر كبير كيف وطأه ومهده وذلك بقواعد قبله فذكر النسخ وأنه إذا نسخ شيئا أتى بمثله أو خيرا منه وأنه قادر على ذلك فلا يعجزه ثم قرر التسليم للرسول وأنه لا ينبغي أن يعترض عليه ويسأل تعنتا كما جرى لموسى مع قومه ثم ذكر البيت الحرام وتعظيمه وحرمة وذكر بانيه وأثنى عليه وأوجب اتباع ملته فقرر في النفوس بذلك توجهها إلى البيت بالتعظيم والإجلال والمحبة وإلى بانيه بالاتباع والموالاة والموافقة وأخبر تعالى أنه جعل البيت مثابة للناس يشوبون إليه ولا يقضون منه وطرا فالقلوب عاكفة على محبته دائمة الاشتياق إليه متوجهة إليه حيث كانت ثم أخبر أنه أمر إبراهيم وإسماعيل بتطهيره للطائفين والقائمين والمصلين وأضافه إليه بقوله: ﴿لَأَن طَهَّرَا بَيْتِي﴾ وهذه الإضافة هي التي أسكنت في القلوب من محبته والشوق إليه ما أسكنت



وهي التي أقبلت بأفئدة العالم إليه فلما استقرت هذه الأمور في قلوب أهل الإيمان وذكروا بها فكأنها نادتهم أن استقبلوه في الصلاة ولكن توقفت على ورود الأمر من رب البيت فلما برز مرسوم ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ تلقاه رسول الله والراسخون في الإيمان بالبشرى والقبول وكان عيداً عندهم.

٦٣- وفي هذه الآية أيضاً ثبوت للرسول والمؤمنين على لزوم قبلتهم وأنه لا يشتغل بما يقوله أهل الكتاب ارجعوا إلى قبلتنا فتتبعكم على دينكم

فإن هذا خداع ومكر منهم فإنهم لو رأوا كل آية تدل على صدق ما تبعوا قبلتك لأن الكفر قد تمكن من قلوبهم فلا مطمع للحق فيها ولست أيضاً بتابع قبلتهم فليقطعوا مطامعهم من موافقتك لهم وعودك إلى قبلتهم وكذلك هم أيضاً مختلفون فيما بينهم فلا يتبع أحد منهم قلبة الآخر فهم مختلفون في القلبة ولستم أيها المؤمنون موافقين لأحد منهم في قبلته بل أكرمكم الله بقلبة غير قلبة هؤلاء المختلفين اختارها الله لكم ورضيها وأكد تعالى هذا المعنى بقوله: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فهذا كله تثبيت وتحذير من موافقتهم في القلبة وبراءة من قبلتهم كما هم براء من قبلتك وكما بعضهم بريء من قبله بعض فأنتم أيها المؤمنون أولى بالبراءة من قبلتهم التي أكرمكم الله تعالى بالتحويل عنها ثم أكد ذلك بقوله: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (١٥٧).

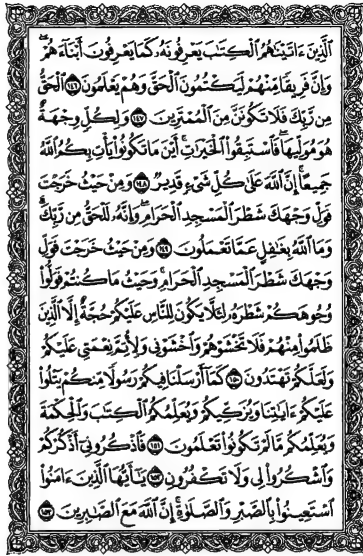
٦٤- وتحت هذا سر بديع يفهمه من يفهمه وهو أنه عند الاختلاف في الطرائق والمذاهب والشرائع والقبل يكون أقربها إلى الحق ما كان أدل على الله وأوصل إليه

لأن مرجع الجميع إليه يوم القيامة وحده وإن اختلفت أحوالهم وأزمتهم وأمكتهم فمرجعهم إلى رب واحد وإله واحد فهكذا ينبغي أن يكون مرد الجميع ورجوعهم كلهم إليه وحده في الدنيا فلا يعبدون غيره ولا يدينون بغير دينه إذ هو إلههم الحق في الدنيا والآخرة فإذا كان أكثر الناس قد أبى ذلك إلا كفورا وذهابا في الطرق الباطلة وعبادة غيره وإن دانوا غير دينه فاستبقوا أنتم أيها المؤمنون للخيرات وبادروا إليها ولا تذهبوا مع الذين يسارعون في الباطل والكفر.

٦٥- فقله ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ يتناول مبدأ الخروج وغايته له وللأمة وكان أولى بهذا الخطاب لأن مبدأ التوجه كان على يديه وكان شديد الحرص على التحويل.

وقوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾ يتناول أماكن الكون كلها له وللأمة وكانوا أولى بهذا الخطاب لتعدد أماكن أكوانهم وكثرتها بحسب كثرتهم واختلاف بلادهم وأقطارهم واستدارتها حول الكعبة شرقا وغربا ويمنا وعراقا فكان الأحسن في حقهم أن يقال لهم وحيث ما كنتم أي من أقطار الأرض في شرقها وغربها وسائر جهاتها ولا ريب أنهم أدخلوا في هذا الخطاب منه. فتأمل هذه النكت البديعة فلعلك لا تنظر بها في موضع غير هذا والله أعلم (بدائع الفوائد ٤/ ١٥٧-١٧٤).

٦٦- وتأمل قصة نسخ القبله لما كانت شديده على النفوس جدا كيف وطأ سبحانه قبلها عدة موطئات: منها: ذكر النسخ، ومنها: أنه يأتي بخير من المنسوخ أو مثله، ومنها: أنه على كل شيء قدير، وأنه بكل شيء عليم؛ فعموم قدرته وعلمه صالح لهذا الأمر الثاني كما كان صالحاً للأول.



٦٧- ومنها: تحذيرهم الاعتراض على رسوله كما اعترض من قبلهم على موسى، بل أمرهم بالتسليم والانقياد.

٦٨- ومنها: تحذيرهم بالإصغاء إلى اليهود، وأن لا تستخفهم شبههم، فإنهم يودون أن يردوهم كفارا من بعد ما تبين لهم الحق.

٦٩- ومنها: إخباره أن دخول الجنة ليس بالتهود ولا بالنصر، وإنما هو بإسلام الوجه والقصد والعمل والنية لله مع متابعة أمره.

٧٠- ومنها: إخباره سبحانه عن سعته، وأنه حيث ولى المصلي وجهه فثم وجهه تعالى، فإنه واسع عليم، فذكر الإحاطتين الذاتية والعلمية، فلا يتوهمون أنهم في القبلة الأولى لم يكونوا مستقبلين وجهه تَبَارَكَ وَتَعَالَى ولا في الثانية، بل حيثما توجهوا فثم وجهه تعالى.

٧١- ومنها: أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حذر نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن اتباع أهواء الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، بل أمر أن يتبع هو وأمته ما أوحى إليه فيستقبلونه بقلوبهم وحده.

٧٢- ومنها: أنه ذكر عظمة بيته الحرام، وعظمة بانيه وملته، وسفه من يرغب عنها، وأمر باتباعها، فنهو بالبيت وبانيه وملته، وكل هذا توطئة بين يدي التحويل، مع ما في ضمنه من المقاصد الجليلة والمطالب السنية.

ثم ذكر فضل هذه الأمة وأنهم الأمة الوسط العدل الخيار، فاقتضى ذلك أن يكون نبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوسط الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وخيارهم، وكتابهم

كذلك، ودينهم كذلك، وقبلتهم التي يستقبلونها كذلك، فظهرت المناسبة شرعا وقدرًا في أحكامه تعالى الأمرية والقدرية، وظهرت حكمته الباهرة، وتجلت للعقول الزكية المستنيرة بنور ربها تَبَارَكَ وَتَعَالَى (إعلام الموقعين ٤/ ٢٠٨).

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٧) وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ءَمُوتٌ بَلْ ءَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٨﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٩﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٦٠﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ءَمُوتٌ بَلْ ءَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٨﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٩﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٦٠﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

٧٣- وعد الصابرين بثلاثة أشياء كل واحد خير من الدنيا وما عليها وهي صلواته تعالى عليهم ورحمته لهم وتخصيصهم بالهداية في قوله تعالى أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون وهذا مفهم لحصر الهدى فيهم (عدة الصابرين ١١٣).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه «نعم العدلان، ونعمت العلاوة» فبالهدى خلصوا من الضلال، وبالرحمة نجوا من الشقاء والعذاب، وبالصلاة عليهم نالوا منزلة القرب والكرامة (إغاثة اللهفان ٢/ ١٧٢ - ١٧٣).

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (٣١)

٧٤- الأسباب التي تقطعت بهم هي العلائق التي بغير الله ولغير الله، تقطعت

بهم أحوج ما كانوا إليها، وذلك لأن تلك الغايات لما اضمحلت وبطلت اضمحلت أسبابها وبطلت، فإن الأسباب تبطل ببطان غاياتها وتضمحل باضمحلالها، وكل شيء هالك إلا وجهه سبحانه، وكل عمل باطل إلا ما أريد به وجهه. وكل سعي لغيره باطل ومضمحل، وهذا كما يشاهده الناس في الدنيا من اضمحلال السعي والعمل والكد والخدمة التي يفعلها العبد لمتولٍ أو أمير أو صاحب منصب أو مال، فإذا زال ذلك الذي عمل له عدم ذلك العمل وبطل ذلك السعي ولم يبق في يده سوى الحرمان، ولهذا يقول الله تعالى يوم القيامة: «أليس عدلاً مني أني أولي كل رجل منكم ما كان يتولى في الدنيا»، فيتولى عباد الأصنام والأوثان أصنامهم وأوثانهم فتساقط بهم في النار، ويتولى عابدو الشمس والقمر آلهتهم، فإذا كوّرت الشمس وانتثرت النجوم اضمحلت تلك العبادة وبطلت وصارت حسرة عليهم (طريق الهجرتين ١٢٦).

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ

وَأَتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا
وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ
الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

٧٥- قد جمع الله خصال البر في هذه الآية الكريمة، فأخبر سبحانه أن البر هو الإيمان بالله وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهذه هي أصول الإيمان الخمس التي لا قوام للإيمان إلا بها، وأنها الشرائع الظاهرة من إقامة الصلاة، وإيتاء

[illegible]

الزكاة، والنفقات الواجبة، وأنها الأعمال القلبية التي هي حقائقه من الصبر والوفاء بالعهد فتناولت هذه الخصال جميع أقسام الدين حقائقه وشرائعه والأعمال المتعلقة بالجوارح والقلب وأصول الإيمان الخمس. ثم أخبر سبحانه عن هذا أنها هي خصال التقوى بعينها فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (الرسالة التبوكية ١٥).

📖 قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٧١).

لَقَدْ أَلْهَمَ اللَّهُ لَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةً يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٢﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٣﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٤﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٥﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٦﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٠﴾

٧٦- وتأمل ما تحت هذه الألفاظ الشريفة من الجلالة والإيجاز والبلاغة والفصاحة والمعنى العظيم فصدر الآية بقوله: لكم. المؤذن بأن منفعة القصاص مختصة بكم عائدة إليكم، فشرعه إنما كان رحمة بكم وإحساناً إليكم، فمنفعته ومصلحته لكم لا لمن لا يبلغ العباد ضرره ونفعه.

٧٧- ثم عقبه بقوله: ﴿فِي الْقِصَاصِ﴾ إيذاناً بأن الحياة الحاصلة إنما هي في العدل وهو أن يفعل به كما فعل والقصاص في اللغة المماثلة وحقيقته راجعة

إلى الاتباع ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ أي اتبعي أثره ومنه قوله: ﴿فَارْتَدَّ عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ أي يقصان الأثر ويتبعانه. ومنه قص الحديث واقتصاصه لأنه يتبع بعضه بعضاً في الذكر فسمى جزاء الجاني قصاصاً لأنه يتبع أثره فيفعل به كما فعل وهذا أحد ما يستدل به على أن يفعل بالجاني كما فعل فيقتل بمثل ما قتل به لتحقيق معنى القصاص.

٧٨- ونكر سبحانه الحياة تعظيماً وتفخيماً لشأنها وليس المراد حياة ما، بل المعنى أن في القصاص حصول هذه الحقيقة المحبوبة للنفوس المؤثرة عندها

المستحسنة في كل عقل والتنكير كثيرا ما يجيء للتعظيم والتفخيم كقوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ وقوله: ﴿وَرِضْوَانٍ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ ﴿٤﴾.

٧٩- ثم خص أولي الألباب وهم أولو العقول التي عقلت عن الله أمره ونهيه وحكمته إذ هم المنتفعون بالخطاب ووازن بين هذه الكلمات وبين قولهم: القتل أنفى للقتل. ليتبين مقدار التفاوت وعظمة القرآن وجلالته (مفتاح دار السعادة ٤٣١-٤٣٢).

قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَكُمْ لَمَلَكُمُ تَنْقُوتَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ. وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾.

٨٠- فرق الشارع بين أيام رمضان وبين أيام القضاء، فجعل أيام رمضان محدودة الطرفين لا يجوز تقدمها ولا تأخرها، وأطلق أيام قضاؤه فقال سبحانه: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ

ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَكُمْ لَمَلَكُمُ تَنْقُوتَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ فأطلق العدة ولم يوقتها، وهذا يدل على أنها تجزئ في أي أيام كانت، ولم يجئ نص عن الله ولا عن رسوله، ولا إجماع على تقيدها بأيام لا تجزئ في غيرها.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۗ﴾.

فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ. وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْقُرْآنِ فَمَن نَّهَىٰ عَنْهُ مِسْكُورٌ يُؤْتِ الْهَرَجَ وَيُخْلِفُهَا عَلَى الْكَافِرِ وَالَّذِي تَضَعُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ حَبِيبٌ ۚ إِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۗ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُطِيعُوا أَصْوَاتَ الْمَلَائِكَةِ يُسْمِعُونَ ۚ وَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ۚ ﴿١٨٦﴾

٨١- وهذا القرب من الداعي هو قرب خاص ليس قربا عاما من كل أحد فهو قريب من داعيه وقريب من عابده، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد وهو أخص من قرب الإنابة وقرب الإجابة الذي لم يثبت أكثر المتكلمين سواه بل هو قرب خاص من الداعي والعابد كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ راويا عن ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى «من تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا ومن تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا» (رواه البخاري ومسلم)، فهذا قربه من عابده وأما قربه من داعيه وسائله فكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (بدائع الفوائد ٣/ ٧-٨).

📖 قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾.

الْحَقُّ أَشْهُرُ مَعْلُومَاتٍ فَمَنْ قَرَضَ فِيهِمُ الْحَقَّ فَلَا رَفْعَ وَلَا سُورَ وَلَا حِدَالَ فِي الْحَقِّ وَمَاتُوا مِنْ خَيْرٍ كَلِمَةُ اللَّهِ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَالتَّقْوَى تَأْوِيلُهَا الْإِتِبَاعُ لَيْسَ عَلَيْهِ جُنَاحٌ أَنْ تَتَّبِعُوا أَفْضَلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَلَمَّا أَفْضَلُ مِنْ عِزِّكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِدَّةَ السَّعَةِ الْحَرَامِ وَأَنْتُمْ كُنْتُمْ كَمَا هَدَيْتُمْ وَلَنْ تُخْشَوْا مِنْ قَبْلِهِ لَوْ أَنَّ الصَّالِحِينَ نُهُوا فَيُضَاوَمُوا حَيْثُ أَقْبَضَ النَّاسُ وَأَنْتُمْ تَقُولُوا اللَّهُ أَرَأَيْتُمْ كَيْفَ كُنَّا قَدْ أَفْضَلْنَا مِنْكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَنْتُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ فَقَدْ كُنَّا نَسِيَهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَمَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَدْ آتَيْنَا النَّارَ وَلَئِنْ لَمْ تُحِبِّهِمْ فَمَا كُنَّا سُبُوحًا وَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ

٨٢- أمر الحاج بأن يتزودوا لسفرهم، ولا يسافروا بغير زاد، ثم نبههم على زاد سفر الآخرة، وهو التقوى. فكما أنه لا يصل المسافر إلى مقصده إلا بزاد يبلغه إياه، فكذلك المسافر إلى الله تعالى والدار الآخرة لا يصل إلا بزاد من التقوى، فجمع بين الزادين (إغاثة اللهنان ١/ ٥٨).

فذكر الزاد الظاهر والزاد الباطن وهذا من زينة القرآن الباطنة المضافة إلى زينة ألفاظه وفصاحته وبلاغته الظاهرة (روضة المحبين ٢٢٦).

📖 قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِّنْ سِكَكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ لِكُرِّكُمْ أَبَاءَكُمْ﴾
أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا.

٨٣- ففيه الأمر بالذكر بالكثرة والشدة لشدة حاجة العبد إليه وعدم استغنائه عنه



طرفة عين، فأني لحظة خلا فيها العبد عن ذكر الله عَزَّجَلَّ كانت عليه لا له وكان خسارانه فيها أعظم مما ربح في غفلته عن الله.

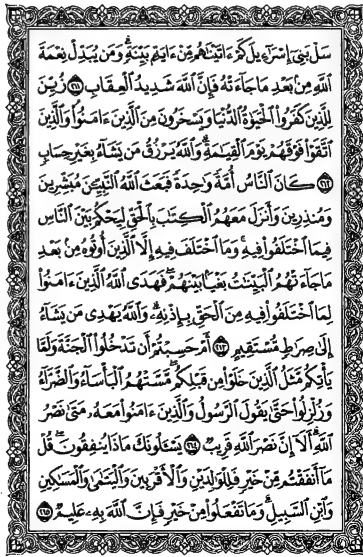
وقال بعض العارفين: لو أقبل عبد على الله تعالى كذا وكذا سنة ثم أعرض عنه لحظة لكان ما فاتته أعظم مما حصله (الوابل الصيب ٥٩).

📖 قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الْإِنْفِقُونَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ٢١٥﴾.

٨٤- فسألوه عن المنفق فأجابهم بذكر

المصرف؛ إذ هو أهم مما سأله عنه، ونبههم عليه بالسياق، مع ذكره لهم في موضع آخر، وهو قوله تعالى ﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩] وهو ما سهل عليهم إنفاقه ولا يضرهم إخراجهم (إعلام الموقعين ٤/ ٢٠١).

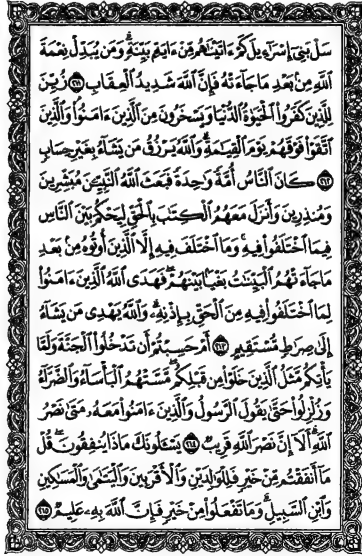
📖 قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٢١٦﴾.



٨٥- في هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد فإن العبد إذا علم أن المكروه

قد يأتي بالمحبوب والمحبوب قد يأتي بالمكروه لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة لعدم علمه بالعواقب فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد وأوجب له ذلك أموراً منها أنه لا أنفع له من امتثال الأمر وإن شق عليه في الابتداء لأن عواقبه كلها خيرات ومسرات ولذات وأفراح وإن كرهته

نفسه فهو خير لها وأنفع وكذلك لا شيء أضر عليه من ارتكاب النهي وإن هويته نفسه ومالت إليه وإن عواقبه كلها آلام وأحزان وشُرور ومصائب وخاصة العقل تحمل الألم اليسير لما يعقبه من اللذة العظيمة والخير الكثير واجتناب اللذة اليسيرة لما يعقبه من الألم العظيم والشر الطويل فنظر الجاهل لا يجاوز المبادئ إلى غاياتها والعاقل



الكيس دائماً ينظر إلى الغايات من وراء ستور مبادئها فيرى ما وراء تلك الستور من الغايات المحموده والمذمومة فيرى المناهي كطعام لذيذ قد خلط فيه سم قاتل فكلما دعه لذته إلى تناوله نهاه ما فيه من السم ويرى الأوامر كدواء كريحه المذاق مفض إلى العافية والشفاء وكلما نهاه كراهة مذاقه عن تناوله أمره نفعه بالتناول ولكن هذا يحتاج إلى فضل علم تدرك به الغايات من مبادئها وقوة صبر يوطن به نفسه على تحمل مشقة الطريق لما يثول عند الغاية فإذا فقد اليقين والصبر تعذر عليه ذلك وإذا قوي يقينه وصبره هان عليه كل مشقة يتحملها في طلب الخير الدائم واللذة الدائمة.

٨٦- ومن أسرار هذه الآية أنها تقتضي من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور والرضا بما يختاره له ويقضيه له لما يرجو فيه من حسن العاقبة.

٨٧- ومنها أنه لا يقترح على ربه ولا يختار عليه ولا يسأله ما ليس له به علم فلعل مضرتة وهلاكه فيه وهو لا يعلم فلا يختار على ربه شيئاً بل يسأله حسن الاختيار له وأن يرضيه بما يختاره فلا أنفع له من ذلك.

٨٨- ومنها أنه إذا فوض إلى ربه ورضي بما يختاره له أمده فيما يختاره له بالقوة

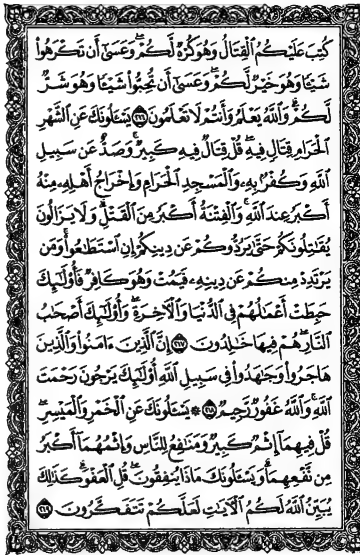
عليه والعزيمة والصبر وصرف عنه الآفات التي هي عرضة اختيار العبد لنفسه وأراه من حسن عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه.

٨٩- ومنها أنه يريحه من الأفكار المتعبة في أنواع الاختيارات ويفرغ قلبه من التقديرات والتدبيرات التي يصعد منه في عقبة وينزل في أخرى ومع هذا فلا خروج له عما قدر عليه فلو رضى باختيار الله أصابه القدر وهو محمود مشكور ملطوف به فيه وإلا جرى عليه القدر وهو مذموم غير ملطوف به فيه لأنه مع اختياره لنفسه.

ومتى صح تفويضه ورضاه اكتنفته في المقدور العطف عليه اللطف به فيصير بين عطفه ولطفه فعطفه يقيه ما يحذره ولطفه يهون عليه ما قدره إذا نفذ القدر في العبد كان من أعظم أسباب نفوذه تحيله في رده فلا أنفع له من الاستسلام وإلقاء نفسه بين يدي القدر طريحا كالهيئة فإن السبع لا يرضى بأكل الجيف (الفوائد ١٣٤-١٣٥).

فهذه الآية تضمنت الحض على التزام أمر الله وإن شق على النفوس وعلى الرضا

بقضائه وإن كرهته النفوس (شفاء العليل ٣٣).



٩٠- قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾

من باب بدل الاشتمال والسؤال إنما وقع عن القتال فيه فلم قدم الشهر وقد قلتم إنهم يقدمون ما هم ببيانهم أهم وهم به أعنى قيل السؤال لم يقع منهم إلا بعد وقوع القتال في الشهر وتشنيع أعدائهم عليهم وانتهاك حرمة فكان اعتناؤهم واهتمامهم بالشهر فوق اهتمامهم بالقتال فالسؤال إنما وقع من أجل حرمة الشهر فلذلك قدم في الذكر وكان تقديمه

مطابقا لما ذكرنا من القاعدة فإن قيل: فما الفائدة في إعادة ذكر القتال بلفظ الظاهر

وهلا اكتفى بضميره فقال: قل هو كبير. وأنت إذا قلت: سألته عن زيد أهو في الدار؟ كان أوجز من أن تقول: أزيد في الدار؟ قيل في إعادته بلفظ الظاهر نكتة بدیعة وهي تعلق الحكم الخبري باسم القتال فيه عموما ولو أتى بالمضمر وقال هو كبير لتوهم اختصاص الحكم بذلك القتال المسئول عنه وليس الأمر كذلك وإنما هو عام في كل قتال وقع في شهر حرام (بدائع الفوائد ٢/ ٧٤).

📖 قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ﴾

فِي النَّبَا وَالْآخِرَةِ وَسَأَلْتَهُ عَنِ النِّسَاءِ قُلْ إِذَا صَلَّحْتُمُ
خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ فَالْحَوْلُ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْمَغِيضُ
الْمُضْطَبُّ وَتَوْبَةُ اللَّهِ لَا تَعْتَكِفُ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
وَلَا تَكُونُ الْمَشْرُكَ حَتَّىٰ يُؤْمِرَ وَلَا تَكُونُ الْمُؤْمِنَةُ
خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَا تُجْبِتُ كُفْرًا لَّشِكْوَ الْمُشْرِكِينَ
حَتَّىٰ يُؤْمِرُوا وَلَعَلَّ الْمُؤْمِنِينَ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكِينَ وَلَا تَعْجَبْ
أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ
وَيَذَرُهُمْ فِي مَقَادِيرِ الْفِتَنِ لِّيَأْتِيَ النَّاسُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ
وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي
الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ
مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَجِبَتْ لِيُطَهَّرْنَ
سَبَأُكُمْ حَرَّمَ كُفْرًا فَاتَّخَذُوا كُفْرًا لَّيْسَتْ وَوَقَعُوا
لَا تُسَبِّحُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مُلْكُهُ وَبَيَّنَّ
الْمُؤْمِنِينَ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْشَةً لِّأَعْيُنِكُمْ وَأَنْ تَبْشُرُوا
وَتَقْرَأُوا وَتُصَلُّوا النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

٩١- ولم يقل فيه تعليقا لحكم الاعتزال بنفس الحيض وأنه هو سبب الاعتزال وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ أَذَىٰ﴾ ولم يقل الحيض لأن الآية جارية على الأصل.

٩٢- ولأنه لو كرره لثقل اللفظ لتكرره ثلاث مرات، وكان ذكره ذكره بلفظ الظاهر في الأمر بالاعتزال أحسن من ذكره مضمرًا، ليفيد تعليق الحكم بكونه حيضًا بخلاف قوله: ﴿قُلْ هُوَ أَذَىٰ﴾ فإنه إخبار بالواقع والمخاطبون يعلمون أن جهة كونه أذى هو

نفس كونه حيضًا بخلاف تعليق الحكم به فإنه إنما يعلم بالشرع فتأمله (بدائع الفوائد ٢/ ٤٨).

📖 قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾

٩٣- أن الطهر طهران طهر بالماء من الأحداث والنجاسات وطهر بالتوبة من الشرك والمعاصي وهذا الطهور أصل لظهور الماء وظهور الماء لا ينفع بدونه بل هو

مكمل له معد مهياً بحصوله فكان أولى بالتقديم لأن العبد أول ما يدخل في الإسلام فقد تطهر بالتوبة من الشرك ثم يتطهر بالماء من الحدث (بدائع الفوائد ١/ ٨٦).

فأخبر تعالى أنه إنما يعتبر في الأيمان قصد القلب وكسبه، لا مجرد اللفظ الذي لم يقصده أو لم يقصد معناه؛ على التفسيرين في اللغو، فكيف إذا كان قاصدا لصدا ما يتحيل عليه (إعلام المعوقين ٣/ ٣٩٢).

قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ

عَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾

٩٤- واللغو نوعان:

أحدهما: أن يحلف على الشيء يظنه كما حلف عليه، فيتبين بخلافه.

والثاني: أن تجري اليمين على لسانه من غير قصد للحلف كلا والله، وبلى والله في أثناء كلامه، وكلاهما رفع الله المؤاخذة به لعد مقصد الحالف إلى عقد اليمين وحقيقتها وهذا تشريع منه سبحانه لعباده

ألا يرتبوا الأحكام على الألفاظ التي لم يقصد المتكلم بها حقائقها ومعانيها، وهذا غير الهازل حقيقة وحكما (زاد المعاد ٥/ ٢٠٧).

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ

﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾

٩٥- وجعل سبحانه للأزواج مدة أربعة أشهر يمتنعون فيها من وطء نساءهم بالإيلاء، فإذا مضت، فإذا أن يفىء، وإما أن يطلق، وقد اشتهر عن علي وابن عباس

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَالطَّلَاقُ ثَلَاثَةٌ يَرْفَعُهَا اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا طَلَّقُوا نِسَاءَهُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ فَمَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ أَنْ يَتَرَاجَعُوا فِيهَا بِمَا تَرَاجَعُونَ فِي الْأَوَّلِ فَإِنْ طَلَّقُوا نِسَاءَهُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ فَمَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ أَنْ يَتَرَاجَعُوا فِيهَا بِمَا تَرَاجَعُونَ فِي الْأَوَّلِ فَإِنْ طَلَّقُوا نِسَاءَهُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ فَمَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ أَنْ يَتَرَاجَعُوا فِيهَا بِمَا تَرَاجَعُونَ فِي الْأَوَّلِ

أن الإيلاء إنما يكون في حال الغضب دون الرضا، كما وقع لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع نسائه، وظاهر القرآن مع الجمهور.

وقد تناظر في هذه المسألة محمد بن سيرين،
ورجل آخر، فاحتج على محمد بقول علي، فاحتج
عليه محمد بالآية، فسكت.

وقد دلت الآية على أحكام منها هذا.

٩٦- ومنها: أن من حلف على ترك الوطء أقل

من أربعة أشهر لم يكن مؤلياً، وهذا قول الجمهور، وفيه قول شاذ أنه مؤل.

٩٧- ومنها: أنه لا يثبت له حكم الإيلاء حتى يحلف على أكثر من أربعة أشهر، فإن كانت مدة الامتناع أربعة أشهر، لم يثبت له حكم الإيلاء؛ لأن الله جعل لهم مدة أربعة أشهر وبعد انقضائها إما أن يطلقوا، وإما أن يفيتوا، وهذا قول الجمهور، منهم أحمد، والشافعي، ومالك، وجعله أبو حنيفة مؤلّياً بأربعة أشهر سواء، وهذا بناء على أصله أن المدة المضروبة أجل لوقوع الطلاق بانقضائها، والجمهور يجعلون المدة أجلاً لاستحقاق المطالبة، وهذا موضع اختلف فيه السلف من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والتابعين ومن بعدهم (زاد المعاد ٥/ ٣٤٤-٣٥٣).

قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ فَأَوْ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٣٣) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

٩٨- فختم حكم الفيء الذي هو الرجوع والعود إلى رضا الزوجة والإحسان إليها بأنه غفور رحيم يعود على عبده بمغفرته ورحمته إذا رجع إليه والجزاء من جنس

العمل فكما رجع إلى التي هي أحسن رجع الله إليه بالمغفرة والرحمة ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا
الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [٢٢٧] فَإِنْ الطَّلَاقَ لَمَا كَانَ لَفْظًا يَسْمَعُ وَمَعْنَى يَقْصِدُ عَقْبَهُ بِاسْمِ
السميع للنطق به العليم بمضمونه (جلاء الأنهام ٩٣-٩٤).

قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ
اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾ .

لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ۚ

٩٩- فيه جواز الخلع كما دل عليه القرآن.

ومنع الخلع طائفة شاذة من الناس خالفت
النص والإجماع.

١٠٠- وفي الآية دليل على جوازه مطلقا بإذن
السلطان وغيره، ومنعه طائفة بدون إذنه، والأئمة
الأربعة والجمهور على خلافه.

١٠١- وفي الآية دليل على حصول البينونة به؛

لأنه سبحانه سماه فدية، ولو كان رجعيًا كما قاله

بعض الناس لم يحصل للمرأة الافتداء من الزوج بما بذلته له، ودل قوله سبحانه: ﴿ فَلَا
جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾ [البقرة: ٢٢٩] على جوازه بما قل وكثر وأن له أن يأخذ منها أكثر
مما أعطاه (زاد المعاد ٥/١٩٣).

١٠٢- وهذا دليل على أن الخلع المأذون فيه إنما هو إذا خاف الزوجان أن لا
يقيما حدود الله، وأن النكاح الثاني إنما يباح إذا ظنا أن يقيما حدود الله، فإنه شرط في
الخلع عدم خوف إقامة حدوده، وشرط في العود ظن إقامة حدوده.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾.

١٠٣ - إن الله سبحانه قال ذلك في المطلقة ثلاثاً أي إن طلقها الثاني فلا جناح عليها وعلى الزوج الأول أن يتراجعا والمراد به تجديد العقد، وليس ذلك مختصاً بالصورة التي يطلق فيها الثاني فقط، بل متى تفارقا بموت أو خلع أو فسخ أو طلاق حلت للأول، قياساً على الطلاق (إعلام الموقعين ١/ ٢٢٦ - ٢٦٧).

لَا يُجَاوِزُ اللَّهُ بِاللَّغَوِي أَتْسِنًا وَلَا يَخْلُفُ أَمْرًا وَلَكِنْ يُؤَيِّدُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ نِكَاحٌ أَزْوَاجُكُمْ وَإِنْ قَالَهُ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ وَلَنْ عَزِمُوا ۝ الطَّلَاقُ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَدَّدْنَ عَلَى الْأَوَّلِ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكُنَّ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ فِي أَزْوَاجِهِنَّ ۝ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَمْ يُؤْخَرْنَ عَنْ حُرِّمْ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۝ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ الطَّلَاقُ مَرَّتَيْنِ ۝ فَمَنْ طَلَّقَ الْمَرْءُ نِسَاءً فَهِيَ بِيَدِهِ وَأَمَّا الْيَسْرُ فَهُوَ حَرَامٌ ۝ وَلَا يَحِلُّ لَكُنَّ أَنْ تَأْخُذُوا بِنِسَاءٍ آتَيْنَهُنَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۝ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ۝ ذَلِكَ حَدُّ اللَّهِ وَلَا تَعْدُوا عَنْهُ وَلَنْ يَتَذَكَّرَ اللَّهُ قَوْمًا ۝ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ۝ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۝ وَبِذَلِكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝

١٠٤ - وذلك نص في أن الرجعة إنما ملكها الله تعالى لمن قصد الصلاح دون من قصد الضرر لم يملكه الله تعالى الرجعة (إغاثة اللهفان ١/ ٣٧٧).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا مَنْ ضَرَّكُمْ لِنَعْدُوا﴾.

١٠٥ - وذلك نص في أن الرجعة إنما ملكها الله تعالى لمن قصد الصلاح دون من قصد الضرر، فإذا قصد الضرر لم يملكه الله تعالى الرجعة (إغاثة اللهفان ١/ ٣٧٧).

قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِيَ الرِّضَاعَةُ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَشَاوَرَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِضُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا ءَاتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ۖ وَالْقَوْلُ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

فدلت الآية على عدة أحكام:

١٠٦- أحدها أن تمام الرضاع حولين وذلك حق للولد إذا احتاج إليه ولم يستغن عنه

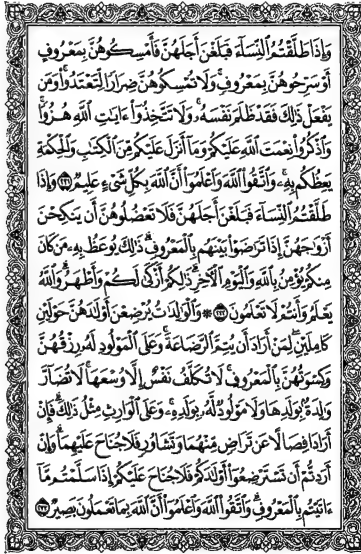
وأكدهما بكاملين لثلاث يحمل اللفظ على حول وأكثر.

١٠٧- وثانيها أن الأبوين إذا أرادا فطامه قبل

ذلك بتراضيهما وتشاورهما مع عدم مضرة الطفل فلهما ذلك.

١٠٨- وثالثها أن الأب إذا أراد أن يسترضع

لولده مرضعة أخرى غير أمه فله ذلك وإن كرهت الأم إلا أن يكون مضارا بها أو بولدها فلا يجاب إلى ذلك ويجوز أن تستمر الأم على رضاعه بعد الحولين إلى نصف الثالث أو أكثر.



وأحمد أوقات الفطام إذا كان الوقت معتدلا في الحر والبرد وقد تكامل نبات

أسنانه وأضراسه وقويت على تقطيع الغذاء وطحنه فطامه عند ذلك الوقت أجود له ووقت الاعتدال الخريفي أنفع في الطعام من وقت الاعتدال الربيعي لأنه في الخريف يستقبل الشتاء والهواء يبرد فيه والحرارة الغريزية تنشأ فيه وتنمو والهضم يزداد قوة وكذلك شهوة (تحفة الودود ٢٠٥-٢٠٦).

📖 قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ﴾.

١٠٩- فهذا يتناول المدخول بها وغيرها، والصغيرة والكبيرة، ولا تدخل فيه

الحامل؛ لأنها خرجت بقوله: ﴿وَأُولَئِذَا أَلْحَمِلَ أُمَّهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]

فجعل وضع حملهن جميع أجلهن، وحصره فيه.

بخلاف قوله في المتوفى عنهن: ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ فإنه فعل مطلق لا عموم له، وأيضا فإن قوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] في غير الحامل بالاتفاق، فإنها لو تمادى حملها فوق ذلك تربصته (زاد المعاد ٥/ ٥٩٥).

📖 قوله تعالى: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾.

١١٠- فكبر قدره في باطنه بالعلم وفي ظاهره باشتداد الجسم، فكمل ظاهره وباطنه ومعناه وصورته، وهذا أكمل من أن يكمل معناه وفكره دون ذاته وصورته، وهذا شأنه سبحانه فيما يريد تكميله من خلقه فإنه يكمله ذاتا ومعنى ظاهرا وباطنا (الصواعق المرسلة ٤/ ١٣٧٦).

📖 قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ.

١١١- ففي الآية أربعة أدلة على خلق الله

سبحانه الأعمال وتكوينه وإيجاده لها.

أحدها: قولهم: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ والصبر فعلهم الاختياري فسألوه ممن هو بيده ومشيتته وإذنه إن شاء أعطاهموه وإن شاء منعهموه.

والثاني: قولهم: ﴿وَتَثَبَّتْ أَقْدَامُنَا﴾ وثبات الأقدام فعل اختياري ولكن التثبيت فعله والثبات فعلهم ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله.

فَلَمَّا أَفْصَلَ طَالُوتَ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً يَدُّهُ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَنْعُوا مِمَّنْ شَرِبُوا إِلَّا ظِلًّا لَاطِقًا لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَرِهُوا فِتْنَةَ قَلْبِهِمْ عَلَيْهِمْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٥١﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَفَتَكَ دَابُّوهُمُ الْجَالُوتَ وَهَرَبَهُمْ أَتَمَّةً اللَّهُ أَلْفُ لَكِ وَالْحَمْدُ وَتَلَّاهُ رَمَاتُ يَسَاءُ وَلَا دُعَاءُ اللَّهِ الْكَاسِ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَمَسَدَاتِ الْأَرْضِ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَتْحٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ تَشَاءُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِالْحَقِّ وَلَئِنْ لَمْ يَرْسَلْنَاكَ



الثالث: قولهم: ﴿وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فسألوه النصر وذلك بأن يقوي عزائمهم ويشجعهم ويصبرهم ويثبتهم ويلقي في قلوب أعداهم الخور والخوف والرعب فيحصل النصر وأيضا فإن كون الإنسان منصورا على غيره إما أن يكون بأفعال الجوارح وهو واقع بقدرة العبد واختياره وأما أن يكون بالحجة والبيان والعلم وذلك أيضا فعل العبد وقد أخبر سبحانه أن النصر بجملته من عنده وأثنى على من طلبه منه وعند القدرة لا يدخل تحت مقدور الرب.

الرابع: قوله: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وإذنه هاهنا هو الإذن الكوني القدرى أي بمشيئته وقضائه وقدره وليس هو الإذن الشرعي الذي بمعنى الأمر فإن ذلك لا يستلزم الهزيمة بخلاف إذنه الكوني وأمره الكوني فإن المأمور المكون لا يتخلف عنه البتة (شفاء العليل ٦٣-٦٤).

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (٢٥٥)



١١٢- ففي آية الكرسي ذكر الحياة التي هي أصل جميع الصفات وذكر معها قيمته المقتضية لذاته وبقائه وانتفاء الآفات جميعها عنه من النوم والسنة والعجز وغيرها ثم ذكر كمال ملكه ثم عقبه بذكر وحدانيته في ملكه وأنه لا يشفع عنده أحد

قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾.

• تلك أرسل قسبنا لنعصرهم على بعض منهم من علم الله
ورفع بعضهم درجات وابتدعوا عيسى ابن مريم البين
وايدنه بروح القدس ولو شاء الله ما قتل الذين من
بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اخلفوا
قربهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما قتلوا
ولكن الله يفعل ما يريد • يا ايها الذين آمنوا انفقوا
مما رزقكم من قبل ان ياتي بآية مني فيه ولاخه ولا
شعة ولا كبر ولا ظهركم الظالمون • الله لا اله الا هو
الغني القدير لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات
وما في الارض من الذي يشفع عنده ولا يزدنيه يعلم
ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه الا
بما شاء وبما knewه الذين السموات والارض ولا يؤيدونه
ظلمهم • وكما انزلنا العظمير • لا اكره في الذين قد تبين الزمدين
التي فمن يكفر بالشعوت ويؤمن بالله فقد استمسك
بالعمرة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم •

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾.

١١٤- فوحد ولي الذين آمنوا وهو الله الواحد الأحد وجمع الذين كفروا لتعدددهم وكثرتهم وجمع الظلمات وهي طرق الضلال والغي لكثرتها واختلافها ووحد النور وهو دينه الحق وطريقه المستقيم الذي لا طريق إليه سواه (بدائع الفوائد ١/ ١٢٠).

١١٥- وهذا يتضمن إخراج الشياطين لهم من نور الفطرة إلى ظلمة الكفر والشرك، ومن النور الذي جاءت به الرسل من الهدى، والعلم إلى ظلمات الجهل والضلال (أحكام أهل الذمة ٢/ ٥٣٢).

قوله تعالى: ﴿لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ

إِبْرَاهِيمَ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

اللَّهُ وَلِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ الظُّلُمَاتُ يَخْرُجُونَهُمْ مِنَ
النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴿٢٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ
أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي
وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي
بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي
كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَّيْلٌ
مِّنَ اللَّيْلِ قَبْلَ هَٰذَا مِن فَعْلِهِ قَدْ جَاءَكَ عَلَىٰ غُرُوبِهَا وَقَالَ لَنُحْيِيكَ
مِنْهَا لَنَمُدَّ بِكَ مَدَّتَ عَالَمٍ ثُمَّ يَمْتُ بِكَ
قَالَ كَيْفَ لَيْتَ قَالَ لَيْتَ يَوْمًا أَوْ تَعْضُ يَوْمًا قَالَ بَل
لَيْتَ يَوْمًا عَالِمٍ قَانَطِرٍ إِلَىٰ عِلْمَائِكَ وَتَسْلُوكَ لَمْ يَسْتَفْهَمْ
وَأَنْظُرَ إِلَىٰ جَمَاعِكَ وَلَتَجْعَلَكَ ءَاتِيَةً لِلنَّاسِ وَأَنْظُرَ إِلَى
الْعِظَامِ كَيْفَ تُنْشِئُهَا ثُمَّ كَسَّهَا الْخَمَافَةَ
تَبَخَّرَ لَهُ قَالَ أَعْمَرَ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

١١٦- إن من تأمل موقع الحجاج وقطع المجادل فيما تضمنته هذه الآية وقف على أعظم برهان بأوجز عبارة فإن إبراهيم لما أجاب المحاج له في الله بأنه الذي يحيي ويميت أخذ عدو الله معارضته بضرب من المغالطة وهو أنه يقتل من يريد ويستبقي

من يريد فقد أحيا هذا وأمات هذا فالزمه إبراهيم على طرد هذه المعارضة أن يتصرف في حركة الشمس من غير الجهة التي يأتي الله بها منها إذا كان بزعمه قد ساوى الله في الإحياء والإماتة.

فإن كان صادقا فليتصرف في الشمس تصرفا تصح به دعواه وليس هذا انتقالا من حجة إلى حجة أوضح منها كما زعم بعض النظار وإنما هو إلزام للمدعي بطرد حجته

إن كانت صحيحة (الصواعق المرسلة ٢ / ٤٩٠-٤٩١).

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٦١).

١١٧- هذه الآية كالتفسير والبيان لمقدار

الأضعاف التي يضاعفها للمقرض، ومثل سبحانه بهذا المثل إحضاراً للصورة التضعيف في الأذهان بهذه الحبة التي غابت في الأرض فأنبت سبع سنابل في كل سنبل مائة حبة، حتى كأن القلب ينظر إلى هذا التضعيف ببصيرته كما تنظر العين إلى هذه السنابل التي من الحبة الواحدة فينضاف الشاهد العياني الشاهد الإيماني القرآني فيقوى إيمان المنفق وتسخو نفسه بالإنفاق.

وَلَا قَالَ ابْنُ هُرَيْرٍ أَرَى كَيْفَ غَيَّرَ الْمَوْتُ قَالَ أَوَّلُهُ
يُؤْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيُظَاهِرَ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ
الْطَّيْرِ فَصَرِّهِنَّ إِلَىكَ فَاجْعَلْ عَلَى كُلِّ بَيْتٍ مِنْهُنَّ حَبَّةً
ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
﴿٣٦١﴾ قَوْلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ
أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ
يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٦١﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ
أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَذَكَّرُونَ أُولَئِكَ أَمْوَالُهُمْ
أَدَّى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴿٣٦٢﴾ قَوْلُ مَعْرُوفٍ وَمَنْفَعَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ
يَسْتَعْمِلُهَا أَذَى وَاللَّهُ عَزِيزٌ عَلِيمٌ ﴿٣٦٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تَطْلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي كَانَ يُدْفِنُ مَالَهُ
رِثَّةً أَلْكَاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ
صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثَرَاتٌ فَاصْبِرْهُ وَلَبَّ لَكَ صَلَاتُكَ لَا يَقْدِرُونَ
عَلَيْ شَيْءٍ وَصَلَاكَ سُبْحًا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٦٤﴾

١١٨- وتأمل كيف جمع السنبل في هذه الآية على سنابل وهي من [مجموع]

الكثرة، إذ المقام مقام تكثير وتضعيف، وجمعها على سنبلات في قوله تعالى: ﴿وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ [يوسف: ٤٣]، فجاء بها على جمع القلة لأن السبعة قليلة ولا مقتضى للتكثير.

١١٩- ثم ختم الآية باسمين من أسمائه الحسنی مطابقين لسياقها، وهما الواسع

والعليم، فلا [يستبعد] العبد هذه المضاعفة ولا يضيق عنها عطنه، فإن المضاعف [سبحانه] واسع العطاء واسع الغنى واسع الفضل، ومع ذلك فلا يظن أن سعة عطائه تقتضى حصولها لكل منفق فإنه عليم بمن تصلح له هذه المضاعفة وهو أهل لها، ومن

١٢٢- وفي الآية الأخرى ذكر الإنفاق بالليل والنهار سرًّا وعلانية، فذكر عموم الأوقات وعموم الأحوال، فأتى بالفاء في الخبر ليدل على أن الإنفاق في أي وقت وجد

من ليل أو نهار، وعلى أي حالة وجد من سر وعلانية فإنه سبب للجزاء على كل حال فليبادر إليه العبد ولا ينتظر به غير وقته وحاله، ولا يؤخر نفقة الليل إذا حضر إلى النهار ولا نفقة النهار إلى الليل، ولا ينتظر بنفقة العلانية وقت السر ولا بنفقة السر وقت العلانية، فإن نفقته في أي وقت وعلى أي حال وجدت سبب لأجره وثوابه، فتدبر هذه الأسرار في القرآن فلعلك لا تظفر بها تمر بك في التفاسير، والمنة والفضل لله وحده لا شريك له.

قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَىٰ ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ

حَلِيمٌ ۝١٢٣﴾

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْحَنِي كَيْفَ تُخَيِّرُ الْمَرْءَ قَالَ أُولَئِكَ ثُلُومٌ قَالَ بَلَىٰ وَلَئِنْ لِّيُطْلَمَنَّ عَلَىٰ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْأً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٢٣﴾ قَوْلُ الَّذِينَ يُبْغِفُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَقَوْلِ حَبِشَةَ أَنْبَتَتْ سَمْعَ سَتَائِلٍ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ وَاتَتْ حَبِشَةَ وَاللَّهُ يُصَلِّفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٤﴾ الَّذِينَ يُبْغِفُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَبْغِفُونَ مَا أَنفَقُوا مَنَآ وَلاَ أَذَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ زُلْفَتُهُمْ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَلاَ يَحْزَنُونَ ﴿١٢٥﴾ قَوْلُ مَعْرُوفٍ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَىٰ ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿١٢٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَبْطُلُوا صَدَقَتُكَ يَا أَلْمَنُ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُبْغِي مَالَهُ رِيَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثَرْبٌ فَاصْبَاهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْبًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٢٧﴾

١٢٣- والصدقة المقرونة بالأذى حسنة مقرونة بما يبطلها، ولا ريب أن حسنتين خير من حسنة باطلة. ويدخل في المغفرة مغفرته للسائل إذا وجد منه بعض الجفوة والأذى بسبب رده، فيكون عفوه عنه خيراً من أن يتصدق عليه ويؤذيه.

١٢٤- ثم ختم الآية بصفتين مناسبتين لما تضمنته فقال: ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣]، وفيه معنيان:

أحدهما: أن الله غني عنكم لن يناله شيء من صدقاتكم، وإنما الحظ الأوفر لكم في الصدقة فنفعها عائد عليكم لا إليه سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، فكيف يمنُّ بنفقته ويؤذي مع غنى الله التام عنها وعن كل ما سواه، ومع هذا فهو حلِيمٌ إذ يعاجل المانَّ بالعقوبة، وضمن هذا الوعيد والتحذير.

والثاني: أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مع غناه التام من وجهه فهو الموصوف بالحلم والتجاوز والصفح، مع عطائه الواسع وصدقاته العظيمة، فكيف يؤدي أحدكم بمنه وأذاه، مع قلة ما يعطي ونزارته وفقره.

📖 قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْتَطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُبْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٤﴾

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ كُنْتُ نُفْسًا فَكُلْتُ مِنْ ثَمَرِهِ أَوْ أَتَتْهُنَّ أَهْلِيَّ كَيْفَ أَتِيَهُنَّ قَالَ كَذَبٌ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَافِلُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ كُنْتُ نُفْسًا فَكُلْتُ مِنْ ثَمَرِهِ أَوْ أَتَتْهُنَّ أَهْلِيَّ كَيْفَ أَتِيَهُنَّ قَالَ كَذَبٌ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَافِلُونَ ﴿٦٦﴾ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ كُنْتُ نُفْسًا فَكُلْتُ مِنْ ثَمَرِهِ أَوْ أَتَتْهُنَّ أَهْلِيَّ كَيْفَ أَتِيَهُنَّ قَالَ كَذَبٌ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَافِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ كُنْتُ نُفْسًا فَكُلْتُ مِنْ ثَمَرِهِ أَوْ أَتَتْهُنَّ أَهْلِيَّ كَيْفَ أَتِيَهُنَّ قَالَ كَذَبٌ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَافِلُونَ ﴿٦٨﴾

١٢٥- تضمنت هذه الآية الإخبار بأن المن والأذى يحبط الصدقة، وهذا دليل على أن الحسنة قد تحبط بالسيئة مع قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الحجرات: ٢] وقد يقال: إن المن والأذى المقارن للصدقة هو الذي يبطلها دون ما يلحقها بعدها، إلا أنه ليس في اللفظ ما يدل على هذا التقييد والسياق يدل على إبطالها به مطلقا.

١٢٦- وهذا من أبلغ الأمثال وأحسنها، فإنه يتضمن تشبيه قلب هذا المنفق المرائي - الذي لم يصدر إنفاقه عن [إيمانه] واليوم الآخر - بالحجر لشدته وصلابته وعدم الانتفاع به. وتضمن تشبيه ما علق به من أثر الصدقة بالغبار الذي علق بذلك الحجر، والوابل الذي أزال ذلك التراب عن الحجر فأذهب بالمانع الذي أبطل صدقته وأزالها كما يذهب الوابل التراب الذي على الحجر فيتركه صليدا فلا يقدر المنفق على شيء من ثوابه لبطلانه وزواله.

١٢٧- وفيه معنى آخر: وهو أن المنفق لغير الله هو في الظاهر عامل عملاً يرتب عليه الأجر يزكو له كما تزكو الحبة التي إذا بذرت في التراب الطيب أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، ولكن وراء هذا الإنفاق مانع يمنع من نموه وزكائه كما أن تحت التراب حجراً يمنع من نبات ما يبذر من الحب فيه فلا ينبت ولا يخرج شيئاً.

📖 قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتُبَيْتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَثَاءَتْ أَكْطُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٣٦٥﴾.

١٢٨- فإن المنفق يعترضه عند إنفاقه آفتان إن

نجا منهما كان مثله ما ذكره في هذه الآية، إحداهما: طلبه بنفقته محمداً أو ثناء أو غرضاً من أغراضه الدنيوية، وهذا حال أكثر المنفقين والآفة الثانية: ضعف نفسه بالبذل وتقاعسها وترددتها، هل يفعل أم لا؟ فالآفة الأولى تزول بابتغاء مرضاة الله، والآفة الثانية تزول بالتثبيت فإن تثبيت النفس تشجيعها وتقويتها والإقدام بها على البذل. وهذا هو صدقها، وطلب مرضاة الله إرادة وجهه وحده وهذا إخلاصها.

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتُبَيْتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَثَاءَتْ أَكْطُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٣٦٥ أَيْدُ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ٣٦٥ أَوْفَى عَزَاكَ كَيْدًا وَمَا يَنْدَعُرُ إِلَّا أَوْلَا الْأُنْيَابِ ٣٦٥

📖 قوله تعالى: ﴿أَيْدُ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ٣٦٥﴾.

١٢٩- فقله تعالى: ﴿أَيْدُ أَحَدُكُمْ﴾ أخرجه مخرج الاستفهام الإنكاري،



وهو أبلغ من النفي والنهي والطف موقعا، كما ترى غيرك يفعل فعلا قبيحا فنقول: لا يفعل هذا عاقل، لا يفعل هذا من يخاف الله والدار الآخرة.

١٣٠ - وقال تعالى: ﴿أَيُّدُ أَحَدُكُمْ﴾ بلفظ الواحد لتضمنه معنى الإنكار العام، كما تقول يفعل هذا أحد فيه خير؟ وهو أبلغ في الإنكار من أن يقول أيودون. وقوله: ﴿أَيُّدُ﴾ أبلغ في الإنكار من لو قيل: أريد، لأن محبة هذا الحال المذكورة وتمنيها أقبح وأنكر من مجرد إرادتها.

١٣١ - وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ خص هذين النوعين من الثمار بالذكر لأنهما أشرف أنواع الثمار وأكثرها نفعاً، فإن منهما القوت والغذاء والدواء والشراب والفاكهة والحلو والحامض، ويؤكلان رطبا ويابساً، ومنافعهما كثيرة جدا.

١٣٢ - ثم قال تعالى: ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ هذا إشارة إلى شدة حاجته إلى جنته، وتعلق قلبه بها من وجوه:

أحدها: أنه قد كبر سنه عن الكسب والتجارة ونحوها.

الثاني: أن ابن آدم عند كبر سنه يشد حرصه.

الثالث: أن له ذرية فهو حريص على بقاء جنته لحاجته وحاجة ذريته.

الرابع: أنهم ضعفاء فهم كل عليه لا ينفعونه بقوتهم وتصرفهم.

الخامس: أن نفقتهم عليه، لضعفهم وعجزهم.

[illegible]

فَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

فلو تصور العامل بمعصية الله بعد طاعته هذا المعنى حق تصوره وتأمله كما ينبغي لما سولت له نفسه والله إحراق أعماله الصالحة وإضاعته، ولكن لا بد أن يغيب عنه علمه عند المعصية، ولهذا استحق اسم الجهل فكل من عصى الله فهو جاهل.

١٣٣- وتأمل كيف ضرب سبحانه المثل للمنفق المرائي الذي لم يصدر إنفاقه عن الإيمان: بالصفوان الذي عليه التراب، فإنه لم ينبت شيئاً أصلاً، بل ذهب بذره ضائعاً، لعدم إيمانه وإخلاصه.

[illegible]

١٣٥- وخص سبحانه هذين النوعين - وهما الخارج من الأرض والحاصل بكسب التجارة دون غيرهما من المواشي - إما بحسب الواقع فإنهما كانا أغلب أموال القوم إذ ذاك، فإن المهاجرين كانوا أصحاب تجارة وكسب والأنصار كانوا أصحاب حرث وزرع، فخص هذين النوعين بالذكر لحاجتهم إلى بيان حكمهما وعموم وجودهما، وإما لأنهما أصول الأموال وما عداهما فعنهما يكون ومنهما ينشأ، فإن الكسب تدخل فيه التجارات كلها على اختلاف أصنافها وأنواعها من الملابس والمطاعم والرقيق والحيوانات والآلات والأمتعة وسائر ما تتعلق به التجارة والخارج

١٣٦- ثم قال: ﴿وَلَا تَيْمَمُوا الْحَيْثُ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، فنهى سبحانه عن قصد إخراج الرديء [كما هو عادة أكثر النفوس تمسك الجيد لها وتخرج الرديء]

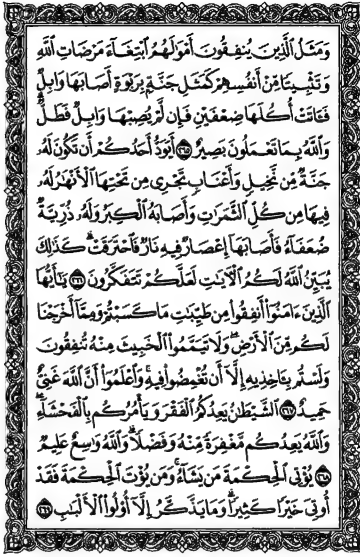
للفقير، ونهيه سبحانه عن قصد ذلك وتيممه فيه ما يشبه العذر لمن فعل ذلك لا عن قصد وتيمم بل [إما] عن اتفاق، إذا كان هو الحاضر إذ ذاك أو كان ماله من جنسه، فإن هذا لم يتيمم الخبيث بل تيمم إخراج بعض ما من الله عليه.

١٣٧- ثم ختم الآيتين بصفتين يقتضيهما سياقهما فقال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧] فغناه وحمده يأبى قبول الرديء، فإن قابل الرديء الخيث إما أن يقبله لحاجته إليه، وإما أن

نفسه لا تأباه لعدم كمالها وشرفها، وأما الغنى عنه الشريف القدر الكامل الأوصاف فإنه لا يقبله.

قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

١٣٨ - هذه الآية تتضمن الحض على الإنفاق والحث عليه بأبلغ الألفاظ وأحسن المعاني، فإنها اشتملت على بيان الداعي إلى البخل والداعي إلى البذل والإنفاق، وبيان ما يدعو إليه البخل وما يدعو إليه الإنفاق وبيان ما يدعو به داعي الأمرين.



فأخبر سبحانه أن الذي يدعوهم إلى البخل والشح هو الشيطان، وأخبر أن دعوته هي بما يعدمهم به ويخوفهم من الفقر إن أنفقوا أموالهم، وهذا هو الداعي الغالب على الخلق، فإنه يهم بالصدقة والبذل فيجد في قلبه داعياً يقول له: متى أخرجت هذا دعتك الحاجة إليه وافتقرت إليه بعد إخراجها، وإمساكه خير لك حتى لا تبقى مثل الفقير، فغناك خير لك من غناه.

فإذا صور له هذه الصورة أمره بالفحشاء وهي البخل الذي هو من أقبح الفواحش. وهذا إجماع من

المفسرين أن الفحشاء هنا البخل، فهذا وعده وهذا أمره، وهو الكاذب في وعده، الغار الفاجر في أمره. [فالمستجيب] لدعوته مغرور مخدوع مغبون، فإنه يدلي من يدعو به غروره، ثم يورده شر الموارد.

١٣٩- وتأمل كيف ختم هذه الآية بهذين الاسمين، فإنه واسع العطاء عليم بمن يستحق فضله ومن يستحق عدله، فيعطى هذا بفضله ويمنع هذا بعدله وهو بكل شيء عليم. فتأمل هذه الآيات ولا تستطل بسط الكلام فيها، فإن لها شأنًا لا يعقله إلا من عقل عن الله خطابه وفهم مراده: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (٤٣). [العنكبوت: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٣١) وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٢٧٠) إِنْ تَبَدُّوا لَصَّدَقَتِ

فَنِعْمًا هِيَ وَإِنْ تُخَفُّوْهَا وَتُؤْتُوْهَا الْفَقْرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ۖ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ﴿٢٧٠﴾ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسُكُمْ ۖ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا لِآبَتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُّوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ ﴿٢٧١﴾

١٤١- ﴿إِنْ بُدُوا الصَّدَقَتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ [البقرة: ٢٧١] أي فنعم شيء هي، وهذا مدح لها موصوفة بكونها ظاهرة بادية، فلا يتوهم مبدئها بطلان أثره وثوابه فيمنعه ذلك من إخراجها ويتنظر بها الإخفاء فتفوت أو تعترضه الموانع ويحال بينه وبين قلبه أو بينه وبين إخراجها، فلا يؤخر صدقة العلانية بعد حضور وقتها إلى وقت السر، وهذه كانت حال الصحابة.

ثم قال: ﴿وَلِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]، فأخبر أن إعطاءها للفقير في خفية خير للمنفق من إظهارها وإعلانها.

وَمَا أَفْقَرُ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذْرٍ مِنْ نَذْرِكَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُ وَالْخَلِيقَ مِنْ أَنْصَارِهِ ۖ إِنْ تَدُودَا الصَّدَقَتِ فَيَعْمَاهُ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَنْ تَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ يَمُنَّ أَتَى كُؤُوبَ خَيْرٍ ۖ أَلَيْسَ عَلَيْنَا هُدًى مِمَّا نَكْفُرُ بِهِ مِنَ النَّاسِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا يُنْفِقُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۝ الْفُقَرَاءُ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسَيِّئَاتِهِمْ لَا يُسْأَلُونَ النَّاسَ الْحَسَنَاتِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ۝ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْأَيْدِي وَالْأَنْفُسِ وَسِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرٌ مُعَدٌّ وَهُمْ لَا يُخْلَوْنَ ۝ وَلَا هُمْ يَخْرُجُونَ ۝

١٤٢ - وتأمل تقييده تعالى الإخفاء بإيتاء الفقراء خاصة ولم يقل: وإن تحفوها فهو خير لكم، فإن من الصدقة ما لا يمكن إخفاؤه كتجهيز جيش وبناء قنطرة وإجراء نهر أو غير ذلك، وأما إيتاؤها الفقراء ففي إخفائها من الفوائد الستر عليه وعدم تخجيله بين الناس وإقامته مقام الفضيحة، وأن يرى الناس أن يده هي اليد السفلى وأنه [فقير] لا شيء له فيزهدون في معاملته ومعاوضته، وهذا قدر زائد من الإحسان إليه بمجرد الصدقة مع تضمنه الإخلاص وعدم المراعاة وطلبهم المحمدة من الناس، وكان إخفاؤها للفقير

خيرا من إظهارها بين الناس، ومن هذا مدح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صدقة السر وأثنى على فاعلها وأخبر أنه أحد السبعة الذين هم في ظل عرش الرحمن يوم القيامة.

ولهذا جعله سبحانه خيرا للمنفق وأخبر أنه يكفر عنه بذلك الإنفاق من سيئاته، ولا يخفى عليه سبحانه أعمالكم ولا نياتكم، فإنه بما تعملون خير.

📖 قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسَيِّئَاتِهِمْ لَا يُسْأَلُونَ النَّاسَ الْحَسَنَاتِ﴾.

١٤٣ - ثم ذكر المصروف الذي توضع فيه الصدقة فوصفهم بست صفات:

إحداها: الفقر.

وَمَا أَفْقَرُ مِنْ نَفْسٍ أَنْ يَنْصَرُّ مِنْ دُونِ اللَّهِ يَكْفُرُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ شِدْقَ
الْحَقِّ قَدْ قُبِعَ بِهَا، وَإِنْ تُخَفُّوهُمَا وَتُؤْخَرُ
الْفُقَرَاءُ فَهُمْ خَيْرٌ كَرُّكُمْ عَنْكُمْ مِنْ
سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَقُولُونَ خَيْرٌ ﴿١٠١﴾ فَلَيْسَ
عَلَيْكَ هَذَا بُهْرٌ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا
تُفْقَهُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُفْسِدُوا مَا تُنْفِقُونَ إِلَّا
أَبْغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُفْقَهُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤْتِ الْيَتَامَى
وَأَنْتُمْ لَا تَنْظُرُونَ ﴿١٠٢﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُخْضِرُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْ يَسْتَطِيعُوا صَبْرًا فِي الْأَرْضِ
يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ الْقَعْفِ تَعْرِفُهُمْ
يَسْتَعِزُّوْنَ لَا يَسْتَعِزُّوْنَ النَّاسَ الْخَائِفَ وَمَا تُفْقَهُوا مِنْ
خَيْرٍ فَلَا تَكُنْ لِلَّهِ بِمُسْلِمٍ ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ
بِالْأَيْدِي وَالْأَنْفُسِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ
رَبِّهِمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ مِنْ الْخَائِلِينَ ﴿١٠٤﴾

الثانية: حبسهم أنفسهم في سبيله تعالى وجهاد أعدائه ونصر دينه، وأصل الحصر المنع، فمنعوا أنفسهم من تصرفها في أشغال الدنيا، وقصروها على بذلها لله في سبيله.

الثالثة: عجزهم عن الأسفار للتكسب، والضرب في الأرض هو السفر، قال تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى وَأَخْرُوجَ بَصَرِيُونَ فِي الْأَرْضِ يَلْتَمِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ [النساء: ١٠١].

الرابعة: شدة تعففهم، وهو حسن صبرهم، وإظهارهم الغنى حتى يحسبهم الجاهل أغنياء من تعففهم وعدم تعرضهم وكتمانهم حاجتهم.

الخامسة: أنهم يعرفون بسيماهم، وهي العلامة الدالة على حالتهم التي وصفهم الله بها، وهذا لا ينافي حسابان الجاهل أنهم أغنياء لأن الجاهل له ظاهر الأمر، والعارف هو المتوسم المتفرس الذي يعرف الناس بسيماهم، فالمتوسمون خواص المؤمنين كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ (٧٥) [الحجر: ٧٥].

السادسة: تركهم مسألة الناس فلا يسألونهم [شيئا] والإلحاف هو الإلحاح والنفي متسلط عليهما معا، أي لا يسألون ولا يلحفون، فليس يقع منهم سؤال يكون بسببه إلحاف.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقْوَمُونَ إِلَّا كَمَا يَقْوَمُ الَّذِي
يَخْطُطُّ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَيْمَنِ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ
مِثْلُ الرِّبَا وَأَحْلَ اللَّهُ السَّيْمَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ
مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّقَ اللَّهَ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ
عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٩﴾ يَنْبَغِي
اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُجِبُ كُلَّ كَذَّابٍ أَتَمَّ
﴿٢٨٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٨١﴾ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا اللَّهُ
وَدَرُوا مَا بَيْنَهُم مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٨٢﴾ إِنْ لَمْ تَقْعَلُوا
فَأَذْنُ الْبَيْعِ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنْ تُبْتِغُوا فَكُونُوا مِنْ
أُولَئِكَ لَا تَقْظِلُكُمْ وَلَا تَقْظِلُكُمْ وَلَا تَقْظِلُكُمْ وَلَا تَقْظِلُكُمْ
دُونَكُمْ فَظِلُّكُمْ إِلَى مَسَرَّةٍ وَأَنْ تَصْدُقُوا خَيْرٌ لَكُمْ
إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٣﴾ وَأَقْمُوا زَمَانَكُمْ فِيهِ إِلَى
اللَّهِ تَعَالَى كُلِّ نَفْسٍ نَأْسَبُهَا وَهِيَ لَا تَقْظِلُكُمْ ﴿٢٨٤﴾

١٤٤ - فقال تعالى: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [البقرة: ٢٧٩] ففي ضمن هذا الوعيد أن المرابي محارب لله ورسوله، قد آذنه الله بحربه، ولم يجئ هذا الوعيد في كبيرة سوى الربا وقطع الطريق والسعي في الأرض بالفساد، لأن كل واحد منهما مفسد في الأرض، قاطع الطريق على الناس، هذا بقره لهم وتسليطه عليهم، وهذا بامتناعه من تفريج كرباتهم إلا بتحصيلهم كربات أشد منها.

فأخبر عن قطاع الطريق بأنهم يحاربون الله ورسوله وأذن هؤلاء إن لم يتركوا الربا بحربه وحرب رسوله.

١٤٥ - فذكر سبحانه المحسن وهو المتصدق ثم عقبه بالظالم وهو المرابي.

ثم ذكر العادل في آية التداين فقال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] الآية، ولولا أن هذه الآية تستدعي سفرا وحدها لذكرت بعض تفسيرها. والغرض إنما هو التنبيه والإشارة، وقد ذكر أيضا العادل، وهو آخذ رأس ماله من غريمه لا بزيادة ولا نقصان، ثم ختم السورة بهذه الخاتمة العظيمة التي هي من كنز تحت عرشه، والشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه، وفيها من العلوم والمعارف وقواعد الإسلام وأصول الإيمان ومقامات الإحسان ما يستدعي بيانه كتابا مفردا (طريق الهجرتين ٣٣٩-٣٥٣).

قوله تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ

الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهَا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعْمَلَ هُوَ فَلْيُعْمَلْ وَلِيَهُ بِالْعَدْلِ
وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ
رَضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ
إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ
وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تَحَرَّةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ
فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ
وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

١٤٦- وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة:

٢٨٢]، فيه دليل على أن الشاهد إذا نسي شهادته فذكره بها غيره لم يرجع إلى قوله حتى
يذكرها وليس له أن يقلده، فإنه سبحانه قال: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة:

٢٨٢] ولم يقل: فتخبرها، وفيها قراءتان: التثقيف والتخفيف، والصحيح: أنهما بمعنى

واحد من الذكر وأبعد ممن قال: فيجعلها ذكرا، لفظا

ومعنى، فإنه سبحانه جعل ذلك علة للضلال الذي

هو ضد الذكر، فإذا ضلت أو نسيت ذكرتها الأخرى

فذكرت، وقوله: ﴿أَنْ تَضِلَّ﴾ [البقرة: ٢٨٢] تقديره

عند الكوفيين: لثلاث تضل إحداهما، ويطردون ذلك

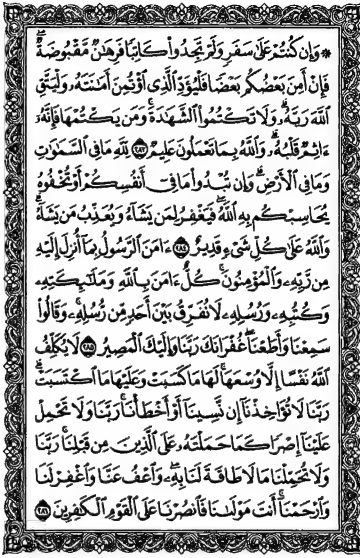
في كل ما جاء من هذا، كقوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ

تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦] ونحوه. ويرد عليهم نصب قوله:

﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة: ٢٨٢] إذ يكون

تقديره: لثلاث تضل، ولثلاث تذكر.

يَتَأْتِيهَا الْخَيْرُ أَمْثَلُ إِذَا تَدَابَعْتُمْ بَيْنَهُنَّ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى
فَأَكْتَبُوا وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوا بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ
كَاتِبُ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ
الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيُخَيِّرْ اللَّهُ رِزْقَهُ وَلَا يَخْشَ مِنْهُ شَيْئًا
فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهَا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ
أَنْ يُعْمَلَ هُوَ فَلْيُعْمَلْ وَلِيَهُ بِالْعَدْلِ وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ
مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ
مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ
إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا
أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ
عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ
تَحَرَّةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ
وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا
اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾



قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۝﴾

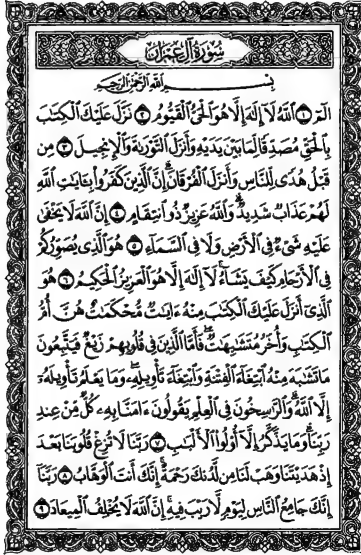
١٤٧- وقد أثنى الله عليهم سبحانه بهذا الدعاء الذي سألوه فيه أن لا يحملهم ما لا طاقة لهم به وقد فسر ذلك بالعشق وليس المراد اختصاصه به بل المراد أن العشق مما لا طاقة للعبد به وقال مكحول

هو شدة الغلظة وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا ينبغي للمرء أن يذل نفسه. قال الإمام أحمد تفسيره: أن يتعرض من البلاء لما لا يطيق وهذا مطابق لحال العاشق فإنه أذل الناس لمعشوقه ولما يحصل به رضاه والحب مبناه على الذل والخضوع للمحبيب (روضة المحبين ١٨١).



سورة آل عمران

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾



١- لقد دل سبحانه على نفسه أوضح دلالة بما أشهده كل عبد على نفسه من حاله وحدوثه وإتقان صنعه وعجائب خلقه وآيات قدرته وشواهد حكمته فيه.

قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ

٢- تضمنت هذه الآية الكريمة إثبات حقيقة التوحيد، والرد على جميع هذه الطوائف، والشهادة ببطلان أقوالهم ومذاهبهم، وهذا إنما يتبين بعد فهم الآية ببيان ما تضمنته من المعارف الإلهية، والحقائق الإيمانية.

فتضمنت هذه الآية أجل شهادة، وأعظمها، وأعدلها، وأصدقها، من أجل شاهد، بأجل مشهود به.

وعبارات السلف في ﴿شَهِدَ﴾ تدور على الحكم والقضاء، والإعلام والبيان، والإخبار.

قال مجاهد: حكم، وقضى. وقال الزجاج: بين. وقالت طائفة: أعلم وأخبر. وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وخبره، وقوله،

وتتضمن إعلامه، وإخباره وبيانه، فلها أربع مراتب:

فأول مراتبها: علم ومعرفة واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته.

وثانيها: تكلمه بذلك، ونطقه به، وإن لم يعلم به غيره، بل يتكلم به مع نفسه ويذكرها، وينطق بها أو يكتبها.

وثالثها: أن يعلم غيره بما شهد به، ويخبره به، ويبينه له.

ورابعها: أن يلزمه بمضمونها ويأمره به.

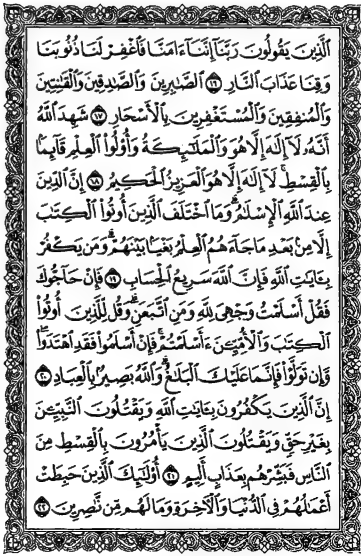
فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية، والقيام بالقسط تضمنت هذه المراتب الأربعة: علم الله سبحانه بذلك، وتكلمه به، وإعلامه، وإخباره لخلقه به، وأمرهم وإلزامهم به (عدة الصابرين ١٦٧-١٦٨).

٣- وأيضا فإن الأدلة قد دلت على أنه سبحانه وحده المستحق للعبادة، فإذا أخبر أنه هو وحده المستحق للعبادة، تضمن هذا الإخبار: أمر العباد وإلزامهم بأداء ما يستحقه الرب تعالى عليهم، وأن

القيام بذلك هو خالص حقه عليهم، فإذا شهد سبحانه أنه لا إله إلا هو تضمنت شهادته الأمر والإلزام بتوحيده.

٤- فتضمنت هذه الآية وهذه الشهادة: الدلالة على وحدانيته المنافية للشرك، وعدله المنافي للظلم، وعزته المنافية للعجز، وحكمته المنافية للجهل والعيب، ففيها الشهادة له بالتوحيد، والعدل، والقدرة والعلم والحكمة، ولهذا كانت أعظم شهادة.

ولا يقوم لهذه الشهادة على وجهها من جميع الطوائف إلا أهل السنة، وسائر



الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا
وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝ الصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ
وَالْمُسْتَفْعِينَ وَالْمُسْتَفْعَاتِ ۝ وَالْمُسْتَفْعِينَ
وَالْمُسْتَفْعَاتِ ۝ وَالْمُسْتَفْعِينَ وَالْمُسْتَفْعَاتِ ۝
أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَكُوتُ لَهُ وَأُولُو
الْمِلَّةِ قَائِمًا ۝ بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا خَلَفَ الَّذِينَ أَوْفُوا
الْكَتَبَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ بَعَثْنَا
بِهِمْ رَسُولًا ۝ وَالَّذِينَ يَكْفُرُونَ
بِآيَاتِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَئِكَ
يَكُونُونَ فِي الْأُولَى ۝ وَالَّذِينَ
يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
أُولَئِكَ يَكُونُونَ فِي الْأُولَى ۝
وَالَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
أُولَئِكَ يَكُونُونَ فِي الْأُولَى ۝
وَالَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
أُولَئِكَ يَكُونُونَ فِي الْأُولَى ۝

طوائف أهل البدع لا يقومون بها (مدارج السالكين ٣/ ٤٥٠-٤٧٤).

٥- استشهد سبحانه بأولي العلم على أجل مشهود عليه وهو توحيده فقال: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَكُوتُ وَأُولُو الْأَعْلَامِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه: أحدها استشهادهم دون غيرهم من البشر. والثاني اقتران شهادتهم بشهادته. والثالث اقترانها بشهادة ملائكته. والرابع أن في ضمن هذا تركيتهم وتعديلهم فإن الله لا

يستشهد من خلقه إلا العدول ومنه الأثر المعروف عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين (مفتاح دار السعادة ٥٢-٥٣).

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾.

٦- دل قوله: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران: ١٩] على أنه دين جميع أنبيائه ورسله وأتباعه من أولهم إلى آخرهم، وأنه لم يكن لله قط ولا يكون له دين سواه. فالإسلام دين أهل السماوات، ودين أهل التوحيد من أهل الأرض، لا يقبل الله من أحد دينا سواه، فأديان أهل الأرض ستة: واحد للرحمن، وخمسة للشيطان، فدين الرحمن: هو الإسلام، والتي للشيطان: اليهودية، والنصرانية، والمجوسية، والصابئة، ودين المشركين.

فهذا بعض ما تضمنته هذه الآية العظيمة من أسرار التوحيد والمعارف، ولا تستطل الكلام فيها (مدارج السالكين ٣/ ٤٧٤-٤٧٦).

قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ

أَوْتَرَى إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا ضَبَابًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ فَيُحْزِنُ قَوْمًا مِنْهُمْ وَمَنْ يُعْزِزْهُمْ فَذَلِكَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَهُمْ لَا يُزْجَرُونَ فِي دِينِهِمْ مَّا كَانُوا يُقَرَّرُونَ ۝ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ فِي يَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّقَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْهَالِكِ قُوِّي الْمَلَأَتِينَ نَفْسًا وَتَزَيَّجَ الْمَلِكُ مَعَ نَفْسَةٍ وَبُغِزَ مَن نَفْسَةٍ وَذُوُلُ مَن نَفْسَةٍ يَبِيدُهَا أَخْبَرْتُكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَفِيهِ ۝ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ فِي النَّهَارِ وَفَوَيْلٌ لِلَّذِينَ فِي اللَّيْلِ وَخُورُجُ الْعَمَى مِنَ السَّيِّبِ وَخُورُجُ الْعَمَى مِنَ النَّهَارِ وَخُورُجُ مَن نَفْسَةٍ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ نَفْسَةً وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ ۝ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ۝ قُلِ إِنْ تَحْفَظُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ يُبْدِئُ اللَّهُ بِعَلَمِهِ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۝ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَفُورٌ ۝

فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ ۝ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ۝ ﴿٢٨﴾

٧- معلوم أن التقاة ليست بموالاة ولكن لما نهاهم عن موالاة الكفار اقتضى ذلك معاداتهم والبراءة منهم ومجهاراتهم بالعدوان في كل حال إلا إذا خافوا من شرهم فأباح لهم التقية وليست التقية موالاة لهم (بدائع الفوائد ٣/ ٦٩).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي

يُحِبِّكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ ﴿٣١﴾

٨- قال: ﴿يُحِبِّكُمْ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها، وفائدتها. فدليلها وعلامتها: اتباع الرسول. وفائدتها وثمرتها: محبة المرسل لكم. فما لم تحصل المتابعة، فليست محبتكم له حاصلة، ومحبته لكم متتفية (مدارج السالكين ٣/ ٢٢).

فالمحبون ثلاثة أقسام: منهم من يريد من المحبوب، ومنهم من يريد المحبوب، ومنهم من يريد مراد المحبوب مع إرادته للمحبوب، وهذا أعلى أقسام المحبين (روضة المحبين ٢٨٤).

قوله تعالى: ﴿يَمْرِمُ أَفْتَقَ لِرَبِّكَ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ۝ ﴿٤٣﴾

٩- الذي يظهر في الآية -والله أعلم بمراده من كلامه- أنها اشتملت على مطلق العبادة وتفصيلها، فذكر الأعم ثم ما هو أخص منه، ثم ما هو أخص من الأخص، فذكر القنوت أولاً وهو الطاعة الدائمة، فيدخل فيه القيام والذكر والدعاء وأنواع الطاعة، ثم

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ارْفَعْكَ إِلَىٰ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ وَإِن تَبْصُرْ مِنْ تَحْتِهَا عِظَامًا فَأَنِ إِذْ بِهَا نَفْسًا وَارْفَعْكَ إِلَىٰ الْكَرْسِيِّ وَارْجِعْكَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ وَالْقَبْرِ إِنَّ عَلَيْكَ لَحِفَظًا﴾

النصارى إلى يوم القيامة (إغاثة اللهفان ٢ / ١٨٥).

بجامع ما يشتركان فيه من المعنى الذي تعلق به وجود سائر المخلوقات، وهو مجيئها طوعا لمشيئته وتكوينه، فكيف يستنكر وجود عيسى من غير أب من



١٦٠
 ١٦١
 ١٦٢
 ١٦٣
 ١٦٤
 ١٦٥
 ١٦٦
 ١٦٧
 ١٦٨
 ١٦٩
 ١٧٠
 ١٧١
 ١٧٢
 ١٧٣
 ١٧٤
 ١٧٥
 ١٧٦
 ١٧٧
 ١٧٨
 ١٧٩
 ١٨٠
 ١٨١
 ١٨٢
 ١٨٣
 ١٨٤
 ١٨٥
 ١٨٦
 ١٨٧
 ١٨٨
 ١٨٩
 ١٩٠
 ١٩١
 ١٩٢
 ١٩٣
 ١٩٤
 ١٩٥
 ١٩٦
 ١٩٧
 ١٩٨
 ١٩٩
 ٢٠٠
 ٢٠١
 ٢٠٢
 ٢٠٣
 ٢٠٤
 ٢٠٥
 ٢٠٦
 ٢٠٧
 ٢٠٨
 ٢٠٩
 ٢١٠
 ٢١١
 ٢١٢
 ٢١٣
 ٢١٤
 ٢١٥
 ٢١٦
 ٢١٧
 ٢١٨
 ٢١٩
 ٢٢٠
 ٢٢١
 ٢٢٢
 ٢٢٣
 ٢٢٤
 ٢٢٥
 ٢٢٦
 ٢٢٧
 ٢٢٨
 ٢٢٩
 ٢٣٠
 ٢٣١
 ٢٣٢
 ٢٣٣
 ٢٣٤
 ٢٣٥
 ٢٣٦
 ٢٣٧
 ٢٣٨
 ٢٣٩
 ٢٤٠
 ٢٤١
 ٢٤٢
 ٢٤٣
 ٢٤٤
 ٢٤٥
 ٢٤٦
 ٢٤٧
 ٢٤٨
 ٢٤٩
 ٢٥٠
 ٢٥١
 ٢٥٢
 ٢٥٣
 ٢٥٤
 ٢٥٥
 ٢٥٦
 ٢٥٧
 ٢٥٨
 ٢٥٩
 ٢٦٠
 ٢٦١
 ٢٦٢
 ٢٦٣
 ٢٦٤
 ٢٦٥
 ٢٦٦
 ٢٦٧
 ٢٦٨
 ٢٦٩
 ٢٧٠
 ٢٧١
 ٢٧٢
 ٢٧٣
 ٢٧٤
 ٢٧٥
 ٢٧٦
 ٢٧٧
 ٢٧٨
 ٢٧٩
 ٢٨٠
 ٢٨١
 ٢٨٢
 ٢٨٣
 ٢٨٤
 ٢٨٥
 ٢٨٦
 ٢٨٧
 ٢٨٨
 ٢٨٩
 ٢٩٠
 ٢٩١
 ٢٩٢
 ٢٩٣
 ٢٩٤
 ٢٩٥
 ٢٩٦
 ٢٩٧
 ٢٩٨
 ٢٩٩
 ٣٠٠
 ٣٠١
 ٣٠٢
 ٣٠٣
 ٣٠٤
 ٣٠٥
 ٣٠٦
 ٣٠٧
 ٣٠٨
 ٣٠٩
 ٣١٠
 ٣١١
 ٣١٢
 ٣١٣
 ٣١٤
 ٣١٥
 ٣١٦
 ٣١٧
 ٣١٨
 ٣١٩
 ٣٢٠
 ٣٢١
 ٣٢٢
 ٣٢٣
 ٣٢٤
 ٣٢٥
 ٣٢٦
 ٣٢٧
 ٣٢٨
 ٣٢٩
 ٣٣٠
 ٣٣١
 ٣٣٢
 ٣٣٣
 ٣٣٤
 ٣٣٥
 ٣٣٦
 ٣٣٧
 ٣٣٨
 ٣٣٩
 ٣٤٠
 ٣٤١
 ٣٤٢
 ٣٤٣
 ٣٤٤
 ٣٤٥
 ٣٤٦
 ٣٤٧
 ٣٤٨
 ٣٤٩
 ٣٥٠
 ٣٥١
 ٣٥٢
 ٣٥٣
 ٣٥٤
 ٣٥٥
 ٣٥٦
 ٣٥٧
 ٣٥٨
 ٣٥٩
 ٣٦٠
 ٣٦١
 ٣٦٢
 ٣٦٣
 ٣٦٤
 ٣٦٥
 ٣٦٦
 ٣٦٧
 ٣٦٨
 ٣٦٩
 ٣٧٠
 ٣٧١
 ٣٧٢
 ٣٧٣
 ٣٧٤
 ٣٧٥
 ٣٧٦
 ٣٧٧
 ٣٧٨
 ٣٧٩
 ٣٨٠
 ٣٨١
 ٣٨٢
 ٣٨٣
 ٣٨٤
 ٣٨٥
 ٣٨٦
 ٣٨٧
 ٣٨٨
 ٣٨٩
 ٣٩٠
 ٣٩١
 ٣٩٢
 ٣٩٣
 ٣٩٤
 ٣٩٥
 ٣٩٦
 ٣٩٧
 ٣٩٨
 ٣٩٩
 ٤٠٠
 ٤٠١
 ٤٠٢
 ٤٠٣
 ٤٠٤
 ٤٠٥
 ٤٠٦
 ٤٠٧
 ٤٠٨
 ٤٠٩
 ٤١٠
 ٤١١
 ٤١٢
 ٤١٣
 ٤١٤
 ٤١٥
 ٤١٦
 ٤١٧
 ٤١٨
 ٤١٩
 ٤٢٠
 ٤٢١
 ٤٢٢
 ٤٢٣
 ٤٢٤
 ٤٢٥
 ٤٢٦
 ٤٢٧
 ٤٢٨
 ٤٢٩
 ٤٣٠
 ٤٣١
 ٤٣٢
 ٤٣٣
 ٤٣٤
 ٤٣٥
 ٤٣٦
 ٤٣٧
 ٤٣٨
 ٤٣٩
 ٤٤٠
 ٤٤١
 ٤٤٢
 ٤٤٣
 ٤٤٤
 ٤٤٥
 ٤٤٦
 ٤٤٧
 ٤٤٨
 ٤٤٩
 ٤٥٠
 ٤٥١
 ٤٥٢
 ٤٥٣
 ٤٥٤
 ٤٥٥
 ٤٥٦
 ٤٥٧
 ٤٥٨
 ٤٥٩
 ٤٦٠
 ٤٦١
 ٤٦٢
 ٤٦٣
 ٤٦٤
 ٤٦٥
 ٤٦٦
 ٤٦٧
 ٤٦٨
 ٤٦٩
 ٤٧٠
 ٤٧١
 ٤٧٢
 ٤٧٣
 ٤٧٤
 ٤٧٥
 ٤٧٦
 ٤٧٧
 ٤٧٨
 ٤٧٩
 ٤٨٠
 ٤٨١
 ٤٨٢
 ٤٨٣
 ٤٨٤
 ٤٨٥
 ٤٨٦
 ٤٨٧
 ٤٨٨
 ٤٨٩
 ٤٩٠
 ٤٩١
 ٤٩٢
 ٤٩٣
 ٤٩٤
 ٤٩٥
 ٤٩٦
 ٤٩٧
 ٤٩٨
 ٤٩٩
 ٥٠٠
 ٥٠١
 ٥٠٢
 ٥٠٣
 ٥٠٤
 ٥٠٥
 ٥٠٦
 ٥٠٧
 ٥٠٨
 ٥٠٩
 ٥١٠
 ٥١١
 ٥١٢
 ٥١٣
 ٥١٤
 ٥١٥
 ٥١٦
 ٥١٧
 ٥١٨
 ٥١٩
 ٥٢٠
 ٥٢١
 ٥٢٢
 ٥٢٣
 ٥٢٤
 ٥٢٥
 ٥٢٦
 ٥٢٧
 ٥٢٨
 ٥٢٩
 ٥٣٠
 ٥٣١

إحدهما: أنه اسم للموجب للحج، فكان أحق بالتقديم من ذكر الوجوب، فتضمنت الآية ثلاثة أمور مرتبة بحسب الوقائع: أحدها: الموجب لهذا الفرض فبدئ بذكره، والثاني: مؤدي الواجب وهو المفترض عليه وهم الناس، والثالث: النسبة والحق المتعلق به إيجاباً وبهم وجوباً وأداءً وهو الحج.

١٤- ومن فوائد الآية وأسرارها أنه سبحانه إذا ذكر ما يوجبه ويحرمه يذكره بلفظ الأمر والنهي وهو الأكثر، أو بلفظ الإيجاب والكتاب والتحريم، نحو: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾، ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾، ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي﴾ نظم الآية وتأكد الوجوب، وفي الحج أتى بهذا النظم الدال على تأكيد الوجوب من عشرة أوجه:

أحدها: أن قدّم اسمه تعالى.

وأدخل عليه لام الاستحقاق والاختصاص.

ثم ذكر من أوجبه عليهم بصيغة العموم الداخلة عليها حرف (على).

ثم أبدل منه أهل الاستطاعة.

ثم نكر السبيل في سياق الشرط إيذاناً بأنه يجب الحج على أي سبيل تسرت

من قوت أو مال، فعلق الوجوب بحصول ما يسمى
سبيلاً، ثم أتبع ذلك بأعظم التهديد بالكفر فقال:
(وَمَنْ كَفَرَ) أي بعدم التزام هذا الواجب وتركه.

ثم عظم الشأن وأكد الوعيد بإخباره باستغنائه
عنه والله تعالى هو الغني الحميد ولا حاجة به إلى
حج أحد.

وإنما في ذكر استغنائه عنه هنا من الإعلام بمقته
له وسخطه عليه وإعراضه بوجهه عنه ما هو من أعظم
التهديد وأبلغه.

ثم أكد ذلك بذكر اسم العالمين عموماً ولم يقل: فإن الله غني عنه. لأنه إذا كان
غنياً عن العالمين كلهم فله الغنى الكامل التام من كل وجه عن كل أحد بكل اعتبار،
وكان أدل على عظم مقته لتارك حقه الذي أوجبه عليه.

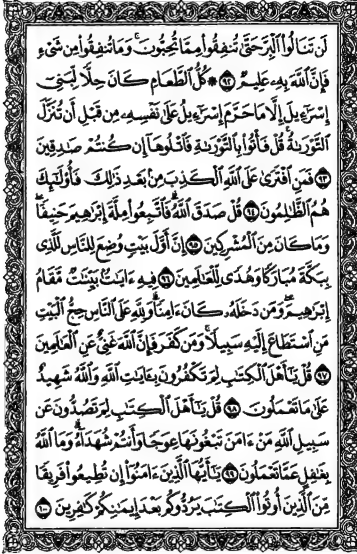
ثم أكد هذا المعنى بأداة (إن) الدالة على التوكيد.

فهذه عشرة أوجه تقتضي تأكيد هذا الغرض العظيم.

١٥ - وتأمل سر البدل في الآية المقتضي لذكر الإسناد مرتين مرة بإسناده إلى عموم
الناس، ومرة بإسناده إلى خصوص المستطيعين، وهذا من فوائد البدل تقوية المعنى
وتأكيده بتكرار الإسناد، ولهذا كان فيه نية تكرار العامل وإعادته.



١٦- ثم تأمل ما في الآية من الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال وكيف تضمن ذلك إيراد الكلام في صورتين وحلتين اعتناء به وتأكيداً لشأنه.



١٧- ثم تأمل كيف افتتح هذا الإيجاب بذكر محاسن البيت وعظم شأنه بما يدعو النفوس إلى قصده وحجه وإن لم يطلب ذلك منها فقال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴿فوصفه بخمس صفات:

أحدها: أنه أسبق بيوت العالم وضع في الأرض.

الثاني: أنه مبارك والبركة كثرة الخير ودوامه

وليس في بيوت العالم أبرك منه ولا أكثر خيرا ولا أدام ولا أنفع للخلائق.

الثالث: أنه هدى وصفه بالمصدر نفسه مبالغة حتى كأنه هو نفس الهدى.

الرابع: ما تضمنه من الآيات البينات التي تزيد على أربعين آية.

الخامس: الأمن لدخله.

وفي وصفه بهذه الصفات دون إيجاب قصده ما يبعث النفوس على حجه وإن شطت بالزائرين الديار وتناءت بهم الأقطار ثم أتبع ذلك بصريح الوجوب المؤكد بتلك التأكيدات وهذا يدل على الاعتناء منه سبحانه بهذا البيت العظيم والتنويه بذكره والتعظيم لشأنه والرفعة من قدره.

١٨- ولو لم يكن له شرف إلا إضافته إياه إلى نفسه بقوله: ﴿وَلَهُرِّيَّتِي﴾

لِلطَّائِفِينَ ﴿لكنفى بهذه الإضافة فضلا وشرفا وهذه الإضافة هي التي أقبلت بقلوب

العالمين إليه وسلبت نفوسهم حبا له وشوقا إلى رؤيته، فهو المثابة للمحبين يشوبون إليه ولا يقضون منه وطرا أبدا كلما ازدادوا له زيادة ازدادوا له حبا وإليه اشتياقا فلا الوصال يشفيهم ولا البعاد يسليهم (بدائع الفوائد ٢/ ٤٢٤٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٤).

١٩- خص هؤلاء بالفلاح دون من عداهم، والداعون إلى الخير هم الداعون إلى كتاب الله وسنة رسوله، لا الداعون إلى رأي فلان وفلان (إعلام الموقعين ٢/ ٢٢٤).

قوله تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى﴾.

٢٠- وتقدير الدخول في هذا أظهر؛ إذ المعنى:

لن ينالوا منكم إلا أذى. وأما الضرر فإنهم لن ينالوه منكم ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ فنفي لحوق ضرر كيدهم بهم مع أنهم لا يسلمون من أذى يلحقهم بكيدهم ولو أنه بالإرهاب والكلام والجائهم إلى محاربتهم وما ينالهم بها من الأذى والتعب ولكن ليس ذلك بضارهم ففرق بين الأذى والضرر (بدائع الفوائد ٣/ ٧٢).

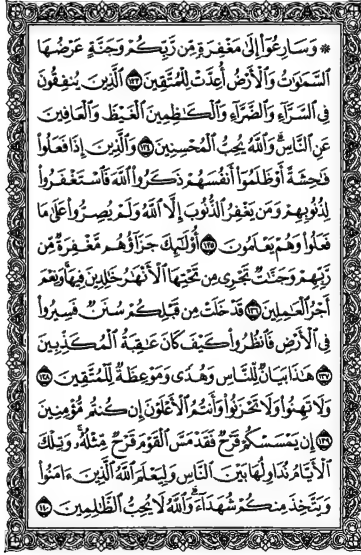
قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾

﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١١٣) مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ربيع فيها صر أصابت حرّ قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفُسهم يظلمون (١١٣).

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُنْفِلُ عَلَى كُفْرِكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَوَيْلٌ لَكُم بِمَا تَكْفُرُونَ ﴿١٠٤﴾
 وَنَبَأُ الَّذِينَ آمَنُوا أَتَوْا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٥﴾ وَأَقْبَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَمِيعًا وَلَا تَقْرَأُوا وَلَا تَكُونُوا
 بِحَسْبِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ رَاغِبِينَ إِلَى الْبَيْتِ فَأُلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ
 فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرٍ مِمَّنْ
 الْتَمُوا فَأَنْذَرْتُمْهَا كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ تِلْكَ الْيَوْمَ لَمَّا كُنْتُمْ
 تَقْتُلُونَ ﴿١٠٦﴾ وَلَكِنْ مَذْكُورَةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ
 بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٧﴾
 وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَقَرَّوْا وَخَلَعُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ
 وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٨﴾ يَوْمَ تَنْبَسُ رُجُودٌ وَنَسُودٌ
 وَرُجُودٌ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَرُجُوعُهُمْ أَكْثَرُ بَعْدَ إِعْمَارِكُمْ
 قُلُوبُهُمْ أَلَمْ تَكُنْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْهَتُوا
 وَرُجُوعُهُمْ فَوَيْلٌ رَحِمَهُ اللَّهُ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٠﴾ إِنَّكَ إِذْ
 أَنْتَ تَتْلُو آيَاتِكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١١١﴾



٢١- في قوله: ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [آل عمران: ١١٧] تنبيه على أن سبب إصابتها لحرثهم هو ظلمهم؛ فهو الذي سلط عليهم الريح المذكورة حتى أهلكت زرعهم وأبيسته، فظلمهم هو الريح التي أهلكت أعمالهم ونفقاتهم وأتلفتها (إعلام الموقعين ١/ ٢٤١-٢٤٢).



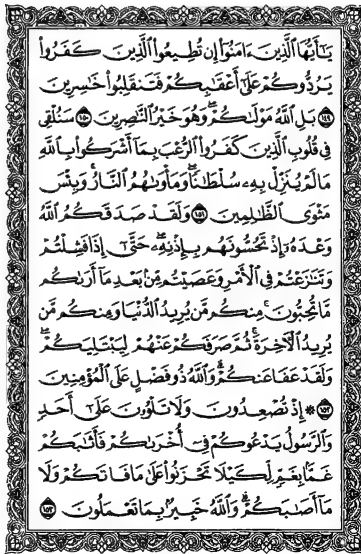
قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٦) إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ تُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمْنُونَ الْوَيْتَ مِنْ قَبْلُ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣) ﴿

٢٢- قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠] تنبيه لطيف الموقع جدا على كراهته وبغضه للمنافقين الذين انخدلوا عن نبيه يوم أحد فلم يشهدوه ولم يتخذ منهم شهداء، لأنه لم يحبهم فأركسهم وردهم ليحرمهم ما خص به المؤمنين في ذلك اليوم، وما أعطاه من استشهاد منهم، فبسط هؤلاء الظالمين عن الأسباب التي وفق لها أولياءه وحزبه (عدة الصابرين ١٦٦-١٦٧).

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ مِنَ الرُّسُلِ يَدْعُوكُمْ فِيْ أَخْرَجَكُمْ فَأَتَيْتُكُمْ عَمَّا بَعَثَ لَكُمْ كَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٥٧) ﴿

٢٣- تنبيه على حكمة هذا الغم بعد الغم، وهو أن ينسيهم الحزن على ما فاتهم من الظفر وعلى ما أصابهم من الهزيمة والجراح، فنسوا بذلك السبب، وهذا إنما يحصل بالغم الذي يعقبه غم آخر.

٢٤- وقوله: ﴿يَغْمِرُ﴾ من تمام الثواب، لا أنه سبب جزاء الثواب، والمعنى: أثابكم غما متصلا بغم جزاء على ما وقع منهم من الهروب، وإسلامهم نبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، وترك استجابتهم له، وهو يدعوهم، ومخالفتهم له في لزوم مركزهم، وتنازعهم في الأمر وفشلهم، وكل واحد من هذه الأمور يوجب غما يخصه، فترادفت عليهم الغموم، كما ترادفت منهم أسبابها وموجباتها، ولولا أن تداركهم بعفوه لكان أمراً آخر.



ومن لطفه بهم ورأفته ورحمته أن هذه الأمور التي صدرت منهم كانت من موجبات الطباع، وهي من بقايا النفوس التي تمنع من النصر المستقرة،

فقيض لهم بلطفه أسبابا أخرجها من القوة إلى الفعل، فترتب عليها آثارها المكروهة، فعلموا حينئذ أن التوبة منها، والاحتراز من أمثالها، ودفعها بأضدادها أمر متعين لا يتم لهم الفلاح والنصرة الدائمة المستقرة إلا به، فكانوا أشد حذرا بعدها ومعرفة بالأبواب التي دخل عليهم منها.

وربما صحت الأجسام بالعلل.

📖 قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنْكُمْ

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْقُرْآنِ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِّنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَهُنَا قُل لَّو كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ١٥٤

وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِّنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَهُنَا قُل لَّو كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾

٢٥- فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا

الموضع، وليتب إلى الله تعالى، وليستغفره كل وقت من ظنه بربه ظن السوء، وليظن السوء بنفسه التي هي مأوى كل سوء، ومنبع كل شر، المركبة على الجهل والظلم، فهي أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين وأعدل العادلين وأرحم الراحمين، الغني الحميد الذي له الغنى التام والحمد التام والحكمة التامة، المنزه عن كل سوء في ذاته وصفاته، وأفعاله وأسمائه والمقصود ما ساقنا إلى هذا الكلام من قوله: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾.

📖 قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

٢٦- وقد تضمنت هذه الكلمات مراعاة حق الله وحق الخلق، فإنهم إما يسيئون في حق الله وفي حق رسوله، فإن أساءوا في حقك فقابل ذلك بعفوك عنهم، وإن أساءوا في

جاء في الرسالة التبوكية (٨٦).

وَمَا أَحْبَبَ كُفُوبُهُ أَلْفَى الْجَمْعَانَ قِيَادَنَ اللَّهِ وَبَعْلَةَ الْمُؤْمِنِينَ
وَبَعْلَةَ الَّذِينَ تَقَاتَرُوا لَهُمْ قَالُوا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أَوْ دَعُوا قَاتِلُوا أَوْ تَقَاتِلُوا أَلَا تَنْتَهُمُ كُرْهُ الْكُفْرِ بِمَدِينِهِ
أَقْرَبَ مِنْهُمْ بِالْإِيمَانِ يَقُولُونَ يَا أَيُّهَا هَذِهِ أَلْسِنَتُنَا فَعَلُوا بِهِمْ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ بِمَا كَيْفَ تُنْفُونَ ۝ الَّذِينَ قَالُوا لِلْإِيمَانِ خَيْرٌ مِمَّا قَدْ فَعَلُوا
وَأُطِيعُوا مَا خِيفُوا عَلَيْهِ قَاتِلُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ أَلَمْ تَكُنْ مِنَ الْإِن
فَكُنْ صَالِحِينَ ۝ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَتَرَاءَوْنَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أَمْوَالَهُمْ أَلْحِقَهُ عَدُوُّهُمْ بِمَدِينَتِهِمْ يَقُولُونَ ۝ فَيَحْزِنُونَ إِذْ يَأْتِيهِمْ
أَلَّهُمْ مِنْ قِبَلِهِ وَتَسْتَعِثُّونَ بِالْأَنْبِيَاءِ لَوْ لَمْ يَخْلُقْ بِهِمْ
عَيْنَ عَلَيْهِمُ الْآخِرِينَ عَلَيْهِمْ وَآلِهِمْ وَآلِهِمْ وَآلِهِمْ ۝ تَسْتَعِثُّونَ
بِغَيْرِ مَوْتٍ أَلَمْ تَقْضَلُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَمْرًا
الْمُؤْمِنِينَ ۝ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ الْمُنَافِقِينَ
الْفَتْحَ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أُولَئِكَ يُعْطَوْنَ
الَّذِينَ قَالُوا لَهُمُ الْفَاتِحُونَ إِنَّ الْكَافِرَ قَدْ جَعَلَ أَلْمُؤْمِنِينَ
قِرَادَةً لِمَنْ يَكْفُرُ ۝ وَالْحَسْبُ اللَّهُ وَبِهِ تَرْكَبُونَ ۝

٢٨- من كيد عدو الله تعالى: أنه يخوِّف المؤمنين من جنده وأوليائه، فلا يجاهدونهم ولا يأمرونهم بالمعروف، ولا ينهونهم عن المنكر، وهذا من أعظم كيده

بأهل الإيمان، وقد أخبرنا الله سبحانه عنه بهذا فقال: ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخَوْفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٧٥﴾ [آل عمران: ١٧٥].

المعنى عند جميع المفسرين: يخوفكم بأوليائه. قال قتادة: «يعظمهم في صدوركم، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فكُلَّمَا قَوَّى إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمان العبد قوي خوفه منهم» (إغاثة اللهفان ١/ ١١٠).

٢٩- وقد أمر سبحانه بالخوف منه في قوله:

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، فجعل الخوف منه شرطاً في تحقق الإيمان، وإن كان الشرط داخلاً في الصيغة على الإيمان فهو المشروط في المعنى، والخوف شرط في حصوله وتحقيقه.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٧٦﴾.

٣٠- هذه الآية من كنوز القرآن نبه فيها على حكمته تعالى المقتضية تمييز الخبيث من الطيب، وأن ذلك التمييز لا يقع إلا برسله، فاجتبي منهم من شاء وأرسله إلى عباده، فيتميز برسالته الخبيث من الطيب، والولي من العدو، ومن يصلح لمجاورته وقربه وكرامته ممن لا يصلح إلا للوقود، وفي هذا تنبيه على الحكمة في إرسال الرسل وأنه لا بد منه، وأن الله تعالى لا يليق به الإخلال به، وأن من جحد رسالة رسله فما قدره حق

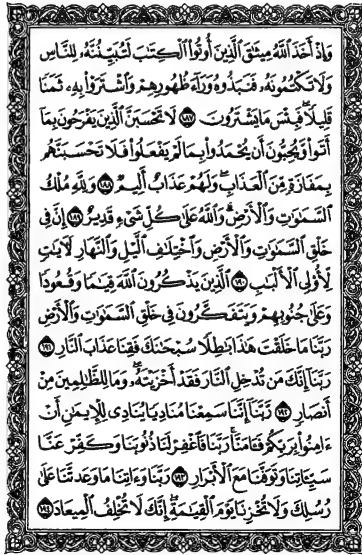


قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١١٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١١١﴾ .

وَلَا تَعْبُدُ اللَّهَ مُتَمِيزًا الْإِنِّ أَرَأَيْتَ إِنْ سَبَّكَ فَتَبَيَّنْتَ لِفَتَاهِ لِقَابِ
وَلَا تَكُنْ مِنْهُمْ قَبِيلًا وَرَبُّكَ لَهُمْ رَحْمَةٌ وَنَصْرٌ فَإِنَّهُمْ قَسَمًا
فِي آيَاتِهِ مَا تُشَكُّوْنَ ۚ وَلَا تَحْزَنْ أَلِ الْيَقِينِ ۚ وَتُحْشَرُونَ بِمَا
أَفْعَلُوا فَيُحْشَرُونَ لَهُ إِمَامًا أَوْ كَافِرًا ۖ فَتَعْلَمُونَ ۚ وَلَا تَحْزَنْهُمْ
بِعَفَا رَفْعِ الْعَذَابِ ۚ فَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۚ وَرَبُّكَ مَا فَكَ
الْمَسْكُونِ ۚ وَالْأَرْضُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۚ إِنْ فِي
عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَافِيفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ لَا يَتَذَكَّرُ
إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ۚ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَنُوعًا وَهُمْ
وَعَلَى كُلِّ جَبَلٍ مَرْجُومٌ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَى الْغُلَامِ وَالْأَرْضِ
رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ قَوْلُنَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۚ
رَبَّنَا إِنَّكَ مَن قَدْ عَلِمْتَ إِنَّكَ عَزَمْتَ ۚ وَمَا الظَّالِمِينَ مِنْ
أَصْلٍ ۚ رَبَّنَا اسْمِعْنَا مُنَادِيًا يَدْعُو إِلَى الْإِسْلَامِ ۚ أَنْ
عَامِلُونَ فِي كُفْرٍ قَاتِلًا ۚ رَبَّنَا تَغْنَصِرْ أَفْئِدَتَنَا لِمَا بَدَءَ فَزَعَنَا
سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّعْ أَفْئِدَتَنَا ۚ رَبَّنَا وَبَارِكْ مَا وَعَدَ غَنَمًا
رُسُلُكَ ۚ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْعِزَّةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَاتِ ۚ

٣٣- وقال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ ولا يجوز أن يكون المراد أنه تعالى خلقها ليستدل بتركيبها وتأليفها على وجود

الصانع؛ لأن هذا القدر حاصل في تركيب البقعة والبعوضة، وفي حصول الحياة في بنية الحيوانات على وجود الصانع أقوى من دلالة تركيب الأجرام الفلكية على وجود الصانع لأن الحياة لا يقدر عليها أحد إلا الله، أما تركيب الأجسام وتأليفها فقد يقدر على جنسه غير الله، فلما كان هذا النوع من الحكمة حاصلًا في غير الأفلاك، ثم إنه تعالى خصها بهذا التشريف وهو قوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ علمنا أن له تعالى في تخليقها أسرارًا عالية وحكما بالغة تتقاصر عقول البشر عن إدراكها (مفتاح دار السعادة ٥٢٩).



قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ۝ رَبَّنَا وَءَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۝﴾ (١١٣)

٣٤- تأمل كيف تضمن إيمانهم به والإيمان بأمره ونهيه ورسله ووعدده ووعيده وأسمائه وصفاته وأفعاله وصدق وعده والخوف من وعيده واستجابتهم لأمره، فبمجموع ذلك صاروا مؤمنين بربهم تعالى، فبذلك صح لهم التوسل إلى سؤال ما وعدهم به والنجاة من عذابه.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝﴾ (٢٠٠)

٣٥- قيل في قوله تعالى ﴿أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠] إنه انتقال

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَابِدٍ مِّنْكُمْ
ذَكَرُوا أَنَّهُمْ بُعِثُوا فِي قُلُوبِهِمْ آيَاتٌ وَلِئَلَّيْهِمْ سَاجِدُونَ
مِن دُونِهِمْ وَإِذْ أَوْفَىٰ سَبْعًا وَقَتَلُوا وَقِيلَ لَهُمُ الْقَوْلُ
عِنْدَهُمْ سَيُفْعِلُهُمْ وَأَلَّا يُفْعِلَهُمْ جَنَّتْ تَجْوِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَفْئِدَةُ قُرْبَانًا عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ خُسْنُ الْقَوَابِ ۝
لَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ يُفْعِلُونَ ۝ مَتَىٰ قِيلَ
لَهُمْ يَا أَهْلَ الْبَيْتِ جَهَنَّمُ رِيشُ الْمَهَادِ ۝ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّكَفُوا
رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّتْ تَجْوِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَفْئِدَةُ خَلِيلِينَ فِيهَا
سُزْأَمِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَعَاضِدُ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الْأَعْرَافِ ۝ فَإِذَا مِنْ
أَهْلِ الْكُتُبِ نَبِيٌّ نَّجْوَىٰ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ
وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَلِيلِينَ فَلَهُ لَا تَسْتَعِزُّونَ بِعِبَادِ اللَّهِ
فَمَا أَقْبَلُوا وَلَوْ كُنْهُمْ أَهْلُ عَرْشِ عِزِّهِمْ ۝ إِنَّ اللَّهَ
سَوِيحُ الْحِسَابِ ۝ يَتَأَمَّلُوا الَّذِينَ ۝ أَمَّا أَضْمِرُوا
وَضَامِرُوا وَكَاطَبُوا وَأَنَافُوا إِنَّ اللَّهَ لَمَعْلَمٌ قُلُوبِهِمْ ۝

سورة النساء

﴿قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ غَيْرِ مُضَارٍّ﴾.﴾

لِيَرْتَأَى نَصِيبَ مَا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ
مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا
مَّفْرُوضًا وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى
وَالْمَسْكِينُ فَأَرْضُوهُمْ مِنْهُ وَفُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا
﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا
خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ إِنَّ
الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي
بَطْنِهِمْ نَارًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ سَعِيدًا ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي
أَوَّلِ ذِكْرٍ لِلَّذِينَ يَمُوتُونَ غَيْرَ مَعْلُومِيْنَ أَنَّهُ كَانَ فِي نَسَبِهِ
قَوْلُ الْيَتَامَى فَلَهُمْ مِمَّا تَرَكُوا مَن كَانَتْ وَجْدَةً فَلَها
النَّصِيبُ وَلَا يَنْهَى لِكُلِّ ذَكَرٍ مِنْهُمَا الشُّرُكُ وَمِمَّا تَرَكُوا
كَانَ لَهُ وَلَهُ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَاءٌ وَوَرِثَهُ أَوَّلُوهُ فَلَهُمُ الْكُلُّ
كَانَ لَهُ وَلَهُ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَاءٌ وَوَرِثَهُ أَوَّلُوهُ فَلَهُمُ الْكُلُّ
أُولَئِكَ هُمُ الْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْيَتَامَى
تَقَرَّبُوا بِرِيشَةٍ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا

١- فإنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِنَّمَا قدم على الميراث وصية من لم يضار الورثة، فإذا كانت الوصية وصية ضرار كانت حراماً، وكان للورثة إبطالها، وحرم على الموصي له أخذ ذلك بدون رضا الورثة، وأكد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذلك بقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩].

٢- وتأمل كيف ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الضرار في هذه الآية دون التي قبلها؛ لأن الأولى تضمنت ميراث العمودين، والثانية تضمنت ميراث الأطراف: من الزوجين، والإخوة. والعادة أن الميت قد يضار زوجته وإخوته، ولا يكاد يضار والديه وولده.

﴿قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لَتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ﴾.﴾

٣- استنبط بعضهم من الآية أنه لا يحل للرجل أن يمسك امرأته ولا أرب له فيها، طمعاً أن تموت فيرث مالها، وفيه نظر، والله أعلم.

٤- فهذا دليل على أنه إذا عضلها لتفتدي نفسها منه وهو ظالم لها بذلك، لم يحل له أخذ ما بذلته له ولا يملكه هو.

٥ - فحرم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَأْخُذَ مِنْهَا شَيْئًا مِمَّا آتَاهَا إِذَا كَانَ قَدْ تَوَسَّلَ إِلَيْهِ بِالْعِضْلِ.

(إغاثة اللهفان ١/ ٣٧٨).

﴿قوله تعالى: {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ}﴾

وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُبَيِّلُوا مِيلًا عَظِيمًا ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَوِّفَ عِبَادَهُ وَلِيُخَلِّقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا ﴿١١٠﴾ يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ بَيْعَةً عَنْ قَرْضَيْنِ مِنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّبُكَ وَأَنْتَ كَذَّابٌ ﴿١١٢﴾ عَلَى اللَّهِ يُسِيرُ ﴿١١٣﴾ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَنَّكُمْ مِثْقَلًا ﴿١١٤﴾ وَلَا تَسْتَمْتُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِيُجْزَلَ بَيْنَكُمْ شَيْءًا مِمَّا كُنْتُمْ بَيْنَهُمُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١١٥﴾ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿١١٦﴾ وَلِكُلِّ جَمْعٍ تَتْرَكْنَاهُ مِنْ أَمْوَالِكِ الْأَوْلِيَاءِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْدِيكَ عَنْ قَوْلِهِمْ قَسِيمٌ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿١١٧﴾

٦ - إذا تأملنا قوله تعالى، نجد نحن بالطف دلالة وأدقها وأحسنها، أنه من اجتناب الشرك جميعه، كفرت عنه كبائره، وأن نسبة الكبائر إلى الشرك كنسبة الصغائر إلى الكبائر، فإذا وقعت الصغائر مكفرة باجتناب الكبائر، فالكبائر تقع مكفرة باجتناب الشرك، وتجد الحديث الصحيح كأنه مشتق من هذا المعنى، وهو قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يروي عن ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «ابن آدم إنك لو لقيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا، لقيتك بقرابها مغفرة»، وقوله: «إن الله حرم النار على من قال لا

إله إلا الله خالصا من قلبه»، بل محو التوحيد الذي هو توحيد الكبائر أعظم من محو

اجتناب الكبائر للصغائر. (إعلام الموقعين ١/ ٢٩٠-٢٩١).

﴿قوله تعالى: {يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ}﴾

٧ - جعل الغاية التي يزول بها حكم السكران أن يعلم ما يقول، فمتى لم يعلم ما يقول، فهو في السكر، وإذا علم ما يقول، خرج عن حكمه، وهذا هو حد السكران عند جمهور أهل العلم.



قيل للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: بماذا يعلم أنه سكران؟ فقال: إذا لم يعرف ثوبه من ثوب غيره، ونعله من نعل غيره. (روضة المحبين ١٥١).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهٗ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا



أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ مَّجْدَلَهُ ۖ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَخِيَابُ السَّاعَةِ لِلَّذِينَ ظَنُّوا أَنَّهُم بِمَنَّاتٍ مِّنَ اللَّهِ أَن لَّا يُؤْتُوا مِنَ النَّاسِ نَبِيرًا ۚ أَمَّا يَجْحَدُونَ مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِمَ سَاءَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۚ فَذَلِكُمُ الَّذِي يَنْفَرُ مِنَ اللَّهِ فَمَا يَزِيدُهُ إِلَّا هَمًّا مِّنْهُ ۚ وَلِيُذَكِّرَ الَّذِينَ لَمْ يَرْجِعُوا إِلَيْهِمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ عِلْمٌ غَيْبُ الْأَوَّلِينَ ۚ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا عَلَى سُرُرٍ مُّتَنِشِفُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَؤْتِيهِ الْغِيثُ نَبَأً ۚ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا وَعَمِلُوا غَيْرَ صَالِحٍ جَنَّاتُ أَوْثَانٍ ۚ فِيهَا نَارُ لَظْلِمٍ ۚ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَلَهُمْ فِيهَا جَنُودٌ مُّنْقَلَبُونَ ۚ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا وَعَمِلُوا غَيْرَ صَالِحٍ جَنَّاتُ أَوْثَانٍ ۚ فِيهَا نَارُ لَظْلِمٍ ۚ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَلَهُمْ فِيهَا جَنُودٌ مُّنْقَلَبُونَ ۚ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا وَعَمِلُوا غَيْرَ صَالِحٍ جَنَّاتُ أَوْثَانٍ ۚ فِيهَا نَارُ لَظْلِمٍ ۚ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَلَهُمْ فِيهَا جَنُودٌ مُّنْقَلَبُونَ ۚ

٨- أمر سبحانه بطاعته وطاعة رسوله، وافتتح الآية بالنداء باسم الإيمان المشعر بأن المطلوب منهم من موجبات الاسم الذي نودوا به وخطبوا به، كما يقال: يا من أنعم الله عليه وأغناه من فضله، أحسن كما أحسن الله إليك. ويا أيها العالم، علم الناس ما ينفعهم. ويا أيها الحاكم، احكم بالحق. ونظائره.

ولهذا كثيرا ما يقع الخطاب في القرآن بالشرائع،

كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ

الصِّيَامُ ۖ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ ۖ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۖ﴾. ففي هذا إشارة إلى أنكم إن كنتم مؤمنين فالإيمان يقتضي منكم كذا وكذا فإنه من موجبات الإيمان وتمامه.

٩- قرن بين طاعة الله والرسول وطاعة أولي الأمر، وسلط عليهما عاملا واحدا. وقد كان ربما يسبق إلى الوهم أن الأمر يقتضي عكس هذا، فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله، ولكن الواقع هنا في الآية المناسب.

وتحته سر لطيف وهو دلالته على أن ما يأمر به رسوله يجب طاعته فيه وإن لم

١٠- تأمل كيف اقتضت إعادة هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾،

تعالى هو بعينه حكم رسوله، وما يحكم به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو بعينه حكم الله. فإذا ردّتم إلى الله ما تنازعتم فيه يعني كتابه، فقد ردّتموه إلى رسوله. وكذلك إذا ردّتموه إلى رسوله فقد ردّتموه إلى الله، وهذا من أسرار القرآن.

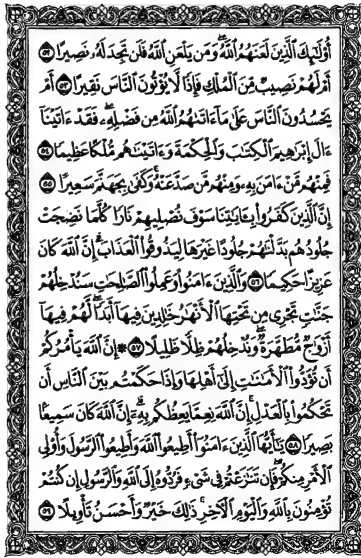
التزاع في كل ما تنازع فيه الناس من الدين كله إلى الله
ورسوله لا إلى أحد غير الله ورسوله، فمن أحال الرد
على غيرهما فقد ضاد أمر الله، ومن دعا عند النزاع

١٢- ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، وهذا مما ذكرنا

آفأ أنه شرط ينتفي المشروط بانتفائه، فدل على أن من حكم غير الله ورسوله في موارد مقتضى النزاع كان خارجا من مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر، وحسبك بهذه الآية العاصمة القاصمة بيانا وشفاء؛ فإنها قاصمة لظهور المخالفين لها، عاصمة للمتمسكين بها الممثلين ما أمرت به.

قال الله تعالى ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأَنْفَال: ٤٢].

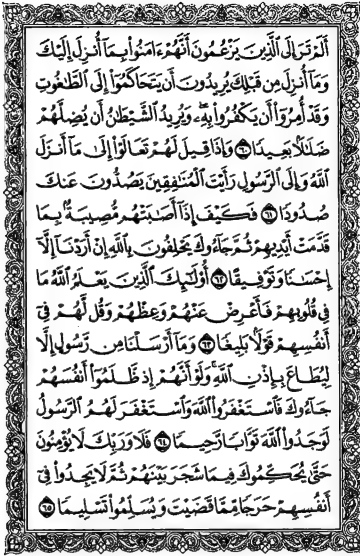
وقد اتفق السلف والخلف على أن الرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول هو الرد إليه في حياته والرد إلى سنته بعد وفاته.



١٣- فدل هذا على أن طاعة الله ورسوله وتحكيم الله ورسوله هو سبب السعادة عاجلا وآجلا. ومن تدبر العالم والشروع الواقعة فيه علم أن كل شر في العالم سببه مخالفة الرسول والخروج عن طاعته، وكل خير في العالم، فإنه بسبب طاعة الرسول. وكذلك شرور الآخرة وآلامها وعذابها إنما هو من موجبات مخالفة الرسول ومقتضياتها، فعاد شر الدنيا والآخرة إلى مخالفة الرسول وما يترتب عليه، فلو أن الناس أطاعوا الرسول حق طاعته، لم يكن في الأرض

شر قط، وهذا كما أنه معلوم في الشرور العامة والمصائب الواقعة في الأرض، فذلك هو في الشر والألم، والغم الذي يصيب العبد في نفسه، فإنما هو بسبب مخالفة الرسول، ولأن طاعته هي الحصن الذي من دخله كان من الآمنين، والكهف الذي من لجأ إليه كان من الناجين.

فعلم أن شرور الدنيا والآخرة إنما هو الجهل بما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والخروج عنه، وهذا برهان قاطع على أنه لا نجاة للعبد ولا سعادة إلا بالاجتهاد في معرفة ما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علما والقيام به عملا.



قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحْكَمُوا فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ﴿٦٥﴾

١٤- أقسم سبحانه بنفسه المقدسة أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله في كل ما شجر بينهم، ولا يكفي ذلك في حصول الإيمان حتى يزول الحرج من نفوسهم بما حكم به في ذلك أيضا حتى يحصل منهم الرضا والتسليم، فقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحْكَمُوا فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ﴿٦٥﴾ [النساء: ٦٥]. فأكد ذلك بضروب من التأكيد:

أحدها: تصدير الجملة المقسم عليها بحرف النفي المتضمن لتأكيد النفي المقسم عليه وهو في ذلك كتصدير الجملة المثبتة بـ"إن".

الثاني: القسم بنفسه سبحانه.

الثالث: أنه أتى بالمقسم عليه بصيغة الفعل الدالة على الحدث أي لا يقع منهم إيمان ما حتى يحكموا.

الرابع: أنه أتى في الغاية بـ(حتى) دون (إلا) المشعرة بأنه لا يوجد الإيمان إلا بعد حصول التحكيم؛ لأن ما بعد (حتى) يدخل فيما قبلها.

الخامس: أنه أتى المحكم فيه بصيغة الموصول الدالة على العموم وهو قوله: ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ أي في جميع ما تنازعا فيه من الدقيقة والجليلة.

السادس: أنه ضم إلى ذلك انتفاء الحرج وهو الضيق من حكمه.

السابع: أنه أتى به نكرة في سياق النفي، أي لا يجدون نوعاً من أنواع الحرج البتة.

الثامن: أنه أتى بذكر ما قضى به بصيغة العموم، فإنها إما مصدرية أي من قضائك،

أو موصولة أي من الذي قضيته، وهذا يتناول كل فرد من أفراد قضائه.

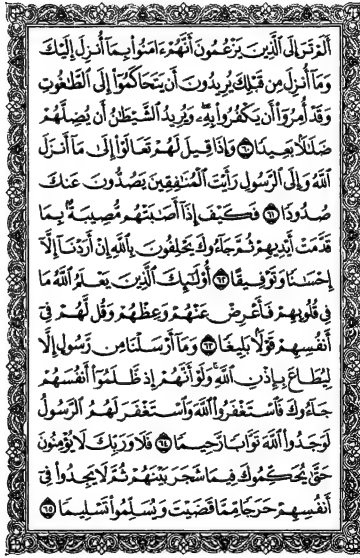
التاسع: أنه لم يكتف منهم بذلك حتى يضيفوا إليه التسليم، وهو قدر زائد على التحكيم وانتفاء الحرج، فما كل من حكم انتفى عنه الحرج، ولا كل من انتفى عنه الحرج يكون مسلماً منقاداً، فإن التسليم يتضمن الرضا بحكمه والانقياد له.

العاشر: أنه أكد فعل التسليم بالمصدر المؤكد.

(الصواعق المرسله ٤ / ١٥٢٠ - ١٥٢١).

١٥ - إن لفظة (ما) من صيغ العموم، فإنها موصولة تقتضي نفي الإيمان، أو يوجد تحكيمه في جميع ما شجر بينهم. ولم يقتصر على هذا حتى ضم إليه انشراح صدورهم بحكمه حيث لا يجدون في أنفسهم حرجاً - وهو الضيق والحصر - من حكمه، بل يقبلون حكمه بالانشراح، ويقابلونه بالتسليم لأنهم يأخذونه على إغماض، ويشربونه على قذى، فإن هذا مناف للإيمان، بل لا بد أن يكون أخذه بقبول ورضا وانشراح صدر.

١٦ - لم يقتصر سبحانه على ذلك حتى ضم إليه قوله تعالى: ﴿وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾ فذكر الفعل مؤكداً بمصدره القائم مقام ذكره مرتين، وهو التسليم والخضوع



١٨- هو سبحانه إنما قال: ﴿مَا أَصَابَكَ﴾ ولم يقل: ما أصبت، وما كسبت. فما يفعله العبد يقال فيه: ما أصبت وكسبت وعملت، كقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، وكقوله: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾، ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا﴾ وقول المذنب التائب: يا رسول الله، أصبت ذنبا فأقم علي كتاب الله. ولا يقال في هذا: أصابك ذنب وأصابتك سيئة. وما يفعل به غير اختياره يقال فيه: أصابك. كقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، وقوله: ﴿إِنْ تُصِيبْكَ

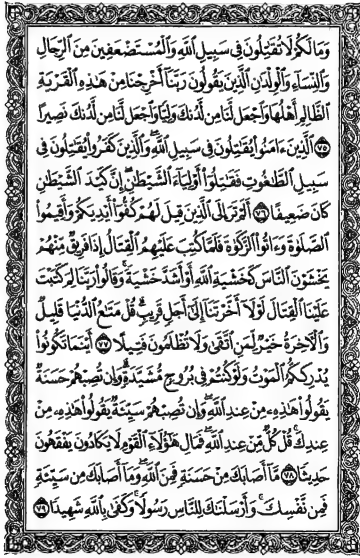
حَسَنَةً تَسُوهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ، وقوله: ﴿أَوَلَمَّْا أَصِيبَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾ فجمع الله في الآية بين ما أصابوا بفعلهم وكسبهم وما أصابهم مما ليس فعلا لهم، وقوله: ﴿وَمَنْ نَرَبِّصْ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ

بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾، وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾، وقوله: ﴿فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾، فقوله: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾ هو من هذا القسم الذي يصيبه العبد لا باختياره، وهذا إجماع من السلف في تفسير هذه الآية.

١٩- ولهذا قال سبحانه: ﴿فَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ فإنهم لو فقهوا الحديث، لعلموا أنه ليس في الحديث الذي أنزله الله على رسوله ما يوجب شرا البتة، ولعلموا أنه سبب كل خير، ولو

فقهوا علموا أن العقول والفطر تشهد بأن مصالح المعاش والمعاد متعلقة بما جاء به الرسول، فلو فقهوا القرآن علموا أنه أمرهم بكل خير ونهاهم عن كل شر، وهذا مما يبين أن ما أمر الله به يعلم حسنه بالعقل، وأنه كله مصلحة ورحمة ومنفعة وإحسان، بخلاف ما يقوله كثير من أهل الكلام الباطل أنه سبحانه يأمر العباد بما لا مصلحة لهم فيه، بل يأمرهم بما فيه مضرة لهم، وقول هؤلاء تصديق وتقرير لقول المتطهرين بالرسول. (شفاء العليل ١٥٩-١٧٢).

٢٠- فذم من لم يفقه كلامه، والفقه أخص من الفهم، وهو فهم مراد المتكلم من كلامه، وهذا قدر زائد على مجرد فهم وضع اللفظ في اللغة، وبحسب تفاوت مراتب



الناس في هذا تتفاوت مراتبهم في الفقه والعلم. (إعلام الموقعين ١/ ٢١٩).

٢١- ومما يوضح الأمر في ذلك أنه سبحانه لما قال: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾

وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكُمْ ﴿١٠﴾ عَقِبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۖ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ۖ﴾
وذلك يتضمن أشياء:

[illegible]

منها تنبيه أمته على أن رسوله الذي شهد له
بالرسالة إذا أصابه ما يكره فمن نفسه، فما الظن بغيره؟!

٢٢- ومنها أن حجة الله قد قامت عليهم بإرساله،

فإذا أصابهم سبحانه بما يسوءهم لم يكن ظالما لهم في ذلك؛ لأنه قد أرسل رسوله إليهم يعلمهم بما فيه مصالحهم وما يجلبها لهم وما فيه مضرتهم وما يجلبها لهم، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

٢٣- ومنها أنه سبحانه قد شهد له بالرسالة بما أظهره على يديه من الآيات الدالة

على صدقه، وأنه رسوله حقا فلا يضره جحد هؤلاء الجاهلين الظالمين المتطيرين به
لرسالته ومن شهد له رب السماوات والأرض.

٢٤- ومنها أنهم أرادوا أن يجعلوا سيئاتهم وعقوباتها حجة على إبطال رسالته،

فشهد له بالرسالة وأخبر أن شهادته كافية، فكان في ضمن ذلك إبطال قولهم إن المصائب من عند الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإثبات أنها من عند أنفسهم بطريق الأولى.

٢٥- ومنها ذم من لم يتدبر القرآن ولم يفقهه، وإن إعراضه عن تدبره وفقهه

يوجب له من الضلال والشقاء بحسب إعراضه.

٢٦- ومنها إثبات الأسباب وإبطال قول من ينفيها ولا يرى لها ارتباطا بمسبباتها.

٢٧- ومنها أن الخير كله من الله والشر كله من النفس، فإن الشر هو الذنوب

مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ قَوْلِي قَمَّا أَرْسَلْتَكَ عَلَيْهِمْ حَقِيظًا ۝ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِنَّا بَرَاءٌ مِمَّنْ عَذَّبَكَ بِآيَةِ طَاعَتِهِ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبْخَرُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرَارَىٰ وَأَلَوْ كُنتَ مِنَ الْعَادِلِينَ ۝ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدْعَاؤُهُمْ وَلَوُ زِدَتْهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى الْأَنْبِيَاءِ مِنْهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْصَرِفُونَ ۝ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَفْضُلُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَحْمَتُهُمْ لَآتِيَةٌ الشَّيْطَانِ إِلَّا قَلِيلًا ۝ فَتَقِيلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْلَفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرَضِ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ اللَّهِ أَنْ يَكْفَى بِأَسْرِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيدًا ۝ مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا ۝ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْبِلاً ۝ وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَحَيُّوا بِأَحْسَنِ مَا أُرِيدُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ۝

وعقوبتها والذنوب من النفس وعقوباتها مترتبة عليها، والله هو الذي قدر ذلك وقضاه، وكل من عنده قضاء وقدر، وإن كانت نفس العبد سببه بخلاف الخير والحسنات، فإن سببها مجرد فضل الله ومنه وتوفيقه كما تقدم تقريره.

٢٨- ومنها أنه سبحانه لما رد قولهم أن الحسنة

من الله والسيئة من رسوله وأبطله بقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾، رفع وهم من توهم أن نفسه لا تأثير لها في السيئة ولا هي منها أصلاً بقوله: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ

فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ وخاطبه بهذا تنبيهها غيره كما تقدم. (شفاء العليل ١٥٩-

١٧٢).

قوله تعالى: ﴿فَقِيلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكْلَفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرَضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢٩- لما أمره بالقتال أخبره أنه لا يكلف بغيره، بل إنما كلف نفسه، ثم أتبع

ذلك بقوله: ﴿وَحَرَضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لثلاث يتوهم سامع أنه وإن لم يكلف بهم فإنه يهملهم

ويتركهم. (الصواعق المرسلة ١/ ٣٩٠-٣٩١).

قوله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً

سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾.

وهذا باب من العبودية لا يعرفه إلا القليل من الناس، ومن ذاق طعمه ولذته بكى على أيامه الأول.

وبالله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وصاحب هذا المقام إذا نظر إلى الشيطان، ولاحظه في الذنب، راغمه بالتوبة النصوح، فأحدث له هذه المراغمة عبودية أخرى. (مدارج السالكين ١/ ٢٢٦-٢٢٧).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّٰهُ أَوَّلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّا أَوْ نَعَرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝١٣٥﴾.

٣٢- قال في الآية الأخرى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلّٰهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ فنصممت الآياتان

أمورًا أربعة:

أحدهما: القيام بالقسط.

الثاني: أن يكون لله.

الثالث: الشهادة بالقسط.

الرابع: أن تكون لله.

واحتضنت آية النساء بالقسط والشهادة لله، وآية

المائدة بالقيام لله والشهادة بالقسط لسر عجيب من

أسرار القرآن ليس هذا موضع ذكره.

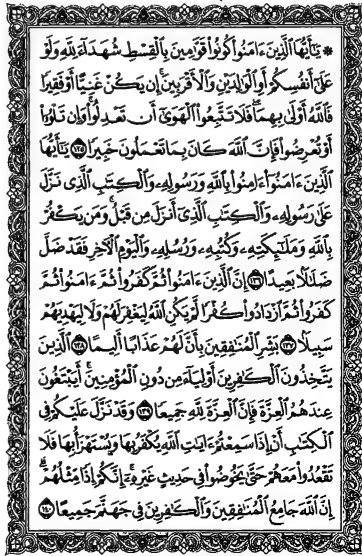
٣٣- ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ نهاهم عن اتباع الهوى الحامل

على ترك العدل.

٣٤- ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَلَوُّا أَوْ نَعَرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ذكر

سبحانه السببين الموجبين لكتمان الحق محذرا منهما ومتوعدا عليهما: أحدهما:

اللي. والآخر: الإعراض.



والتحقيق: أنها مثل هذه الآيات، وأن انتفاء السبيل عن أهل الإيمان الكامل، فإذا ضعف الإيمان صار لعدوهم عليهم من السبيل بحسب ما نقص من إيمانهم، فهم

﴿قوله تعالى: مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ﴾

[illegible]

وفي هذا رد لقول من زعم أنه سبحانه يكلفه ما لا يطيقه، ثم يعذبه على ما لا يدخل تحت قدرته، تعالى الله عن هذا الظن الكاذب والحسبان الباطل علوا كبيرا، فشكره سبحانه اقتضى ألا يعذب المؤمن

قوله تعالى: ﴿فَيُظْلَمُ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا عَلَيْهِمْ طِبَبَتْ أُحْلَتْ لَهُمْ﴾.

٣٧- أي شيء أصرح من هذا حيث أخبر سبحانه بأنه حرمه عليهم مع كونه طيباً في نفسه، فلولاً أن طيبه أمر ثابت له بدون الأمر، لم يكن ليجمع الطيب والتحريم، وقد أخبر تعالى أنه حرم عليهم طيبات كانت حلالاً عقوبة لهم، فهذا تحريم عقوبة بخلاف التحريم على هذه الأمة، فإنه تحريم صيانة وحماية. (مفتاح دار السعادة ٣٣٧).

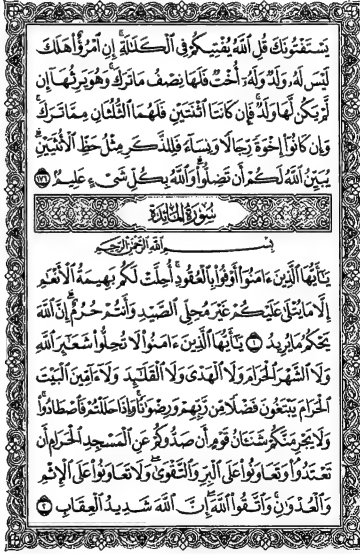
* إِنْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَىٰ وَمَنْ يَسْمَعُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ
وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَلْقَبَ وَيُوشَعَ وَحَدْرُونَ وَمُسْلِمِينَ
وَالْحَبِشَةَ إِذْ هُمْ أَقْرَبُ ۚ وَمُزْكَلَّةً فَلَمَّا خَفَّضْتُمُوهَا عَلَيْهِ
مِنْ قَبْلِهَا وَمُزْكَلَّةً لَمْ تَنْقُصْ مِنْ خَلْقِهَا ۚ وَكَفَّ اللَّهُ مُوسَىٰ
تَكْلِيمًا ۚ سُلَٰلَةُ الْفَارِسِيِّينَ وَمُزْدِيغِيَّتَ لَيْلَىٰ ذَكْوَتَ
النَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الْبَرَاءِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا
۝ لَكِنَّ اللَّهَ يَنْهَىٰ عَنْ بَرْئِ الْإِنْسَانِ إِلَهُكَ أَفَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ
يَسْمَعُونَ وَكَانَ بِاللَّهِ عَهْدُكُمْ ۚ إِنَّ الْآيَاتِ كَثِيرًا
مَنْ يَصِدَّقُ ۚ وَاعْنِ سَبِيلَ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالَةً عَظِيمًا ۚ إِنَّ الْآيَاتِ
كَثِيرًا وَلَعَلَّهُم يَرْجِعُونَ ۚ لَكِنَّ اللَّهَ يَتَغَيَّرُ لَهْوَهُ وَلَا يَلْتَمِزُ لَهُمْ
طَرِيقًا ۚ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ وَكَانَ
ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۚ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ
مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا ۚ لَكُمْ فَوَان تَكْفُرُوا فَلَهُ
مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝

٤١- وأيضا فإن وصف المصدر هاهنا مؤذن بقلته وإن نوعا من أنواع التكليم حصل له وهذا محال هاهنا فإن الإلهام تكليم ما ولهذا سماه الله تعالى وحيا والوحي تكليم ما فقال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَىٰ الْحَوَارِيِّينَ﴾ ونظائره وقال عبادة بن الصامت: «رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في منامه.

* (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَذَٰلِكَ أَوَّلَ مَا نُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ وَآلِهِ مِنْ أَنْ يَخُذَ
 وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ آلِهِ زَوْجَهُ وَاسْمُهَا سَمِيلٌ وَاسْتَحَقَّ وَتَعُوبُ
 وَالْأَسْبَاطُ وَيَحْسَنُ وَالْأُفُفُ وَكُلُّهُمْ وَهَرُونَ وَسَلَمَتُونَ
 وَهَافَتَنَا دَاوُدُ وَدُونَا) وَرُسُلًا قَدْ فَصَّصْنَاهُمْ عَلَيْكَ
 مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ
 تَحْسِينًا وَرُسُلًا مُتَّبِعِينَ وَمُرْسِلِينَ لِكُلِّ أُمَّةٍ
 لِيَأْتِيَ عَلَىٰ آلِهِمْ حَقٌّ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا
 لِكُلِّ أُمَّةٍ أَتَيْنَاهُمْ بِرُسُلٍ أَنْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلِيَذْكُرُوا
 بِآيَاتِنَا وَلِيُنذِرُوا نَجْمَهُمْ إِذَا أُولَٰئِكَ كَفَرُوا
 وَصَدَّاعُن سَمِيلَ اللَّهِ قَدْ فَصَّلْنَا لَكَ آيَاتِنَا إِذَا أُولَٰئِكَ
 كَفَرُوا وَظَلَمُوا وَلِيُذَكِّرَ اللَّهُ لِيُقْشَرَّ لَهُمْ وَأُزِيلَ لَهُمْ
 طَرِيقًا إِلَىٰ طَرِيقِ جَهَنَّمَ خَلِيلِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ وَكَانَ
 ذَٰلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرًا يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرُّسُلُ بِالْحَقِّ
 مِنْ رَبِّكُمْ فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَخْرُجَ الْكُفْرُ فَإِنَّكُمْ سَوْفَ مُؤْتَوْنَ
 مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا

سورة المائدة

قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝﴾

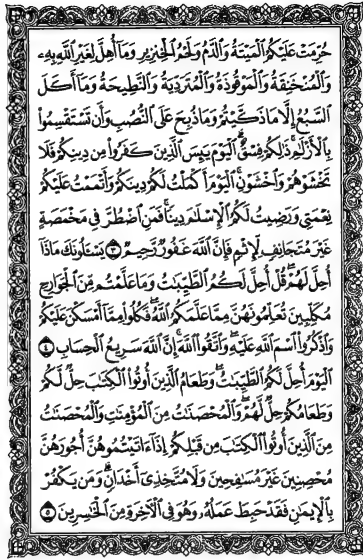


١- قد اشتملت هذه الآية على جميع مصالح العباد في معاشهم ومعادهم فيما بينهم بعضهم بعضا، وفيما بينهم وبين ربهم، فإن كل عبد لا ينفك عن هاتين الحالتين وهذين الواجبين: واجب بينه وبين الله، وواجب بينه وبين الخلق. فأما ما بينه وبين الخلق: من المعاشرة والمعاونة والصحبة، فالواجب عليه فيها أن يكون اجتماعه بهم وصحبته لهم تعاونا على مرضاة الله وطاعته التي هي غاية سعادة العبد

وفلاحه، ولا سعادة له إلا بها، وهي البر والتقوى اللذان هما جماع الدين كله، وإذا أفرد كل واحد من الاسمين دخل في مسمى الآخر إما تضمنا وإما لزوما، ودخوله فيه تضمنا أظهر لأن البر جزء مسمى التقوى، وكذلك التقوى فإنه جزء مسمى البر، وكون أحدهما لا يدخل في الآخر عند الاقتران لا يدل على أنه لا يدخل فيه عند انفراد الآخر.

٢- وأما عند اقتران أحدهما بالآخر كقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۝﴾ فالفرق بينهما فرق بين السبب المقصود لغيره والغاية المقصودة لنفسها، فإن البر مطلوب لذاته، إذ هو كمال العبد وصلاحه الذي لا صلاح له بدونه كما تقدم.

٣- فأرشدت الآية إلى ذكر واجب العبد بينه وبين الخلق وواجبه بينه وبين الحق. ولا يتم له أداء الواجب الأول إلا بعزل نفسه من الوسط، والقيام بذلك لمحض



النصيحة والإحسان، ورعاية الأمر، ولا يتم له أداء الواجب الثاني إلا بعزل الخلق من البين، والقيام له بالله إخلاصاً ومحبة وعبودية.

فينبغي التفطن لهذه الدقيقة التي كل خلل يدخل على العبد في أداء هذين الأمرين الواجبين إنما هو عدم مراعاتها علماً وعملاً، وهذا معنى قول الشيخ عبد القادر - قدس الله روحه -: «كن مع الحق بلا خلق، ومع الخلق بلا نفس، ومن لم يكن كذلك لم يزل في تخييط ولم يزل أمره فرطاً».

قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

٤- تأمل كيف وصف الدين الذي اختاره لهم بالكمال والنعمة التي أسبغها عليهم بالتمام إيداناً في الدين بأنه لا نقص فيه ولا عيب ولا خلل ولا شيء خارجاً عن الحكمة بوجه، بل هو الكامل في حسنه وجلالته ووصف النعمة بالتمام إيداناً بدوامها واتصالها، وأنه لا يسلبهم إياها بعد إذ أعطاهموها، بل يتمها لهم بالدوام في هذه الدار وفي دار القرار.

٥- وتأمل حسن اقتران التمام بالنعمة وحسن اقتران الكمال بالدين وإضافة الدين إليهم؛ إذ هم القائمون به المقيمون له، وأضاف النعمة إليه؛ إذ هو وليها ومسديها والمنعم بها عليهم فهي نعمته حقاً وهم قابلوها.

٦- وأتى في الكمال باللام المؤذنة بالاختصاص وأنه شيء خصوا به دون الأمم

وفي إتمام النعمة بـ(على) المؤذنة بالاستعلاء والاشتمال والإحاطة، فبجاء أتممت في

مقابلة أكملت، وعليكم في مقابلة لكم، ونعمتي في مقابلة دينكم، وأكد ذلك وزاده تقريراً وكمالاً وإتماماً للنعمة بقوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾. (مفتاح

دار السعادة ٣٢٤).

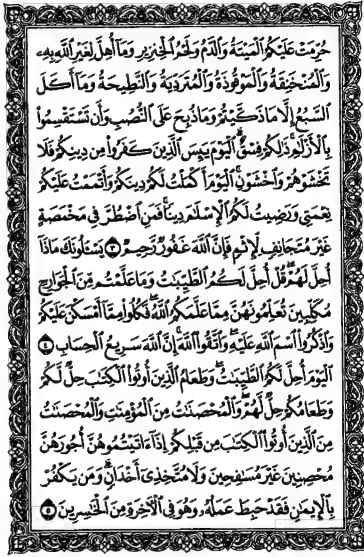
٧- ونسب الكمال إلى الدين والتمام إلى النعمة

مع إضافتها إليه؛ لأنه هو وليها ومسديها إليهم، وهم محل محض لنعمه قابلين لها، ولهذا يقال في الدعاء المأثور للمسلمين: (واجعلهم مثنين بها عليك قابليها، وأتممها عليهم).

وأما الدين فلما كانوا هم القائمين به الفاعلين له بتوفيق ربهم نسبه إليهم، فقال:

﴿أَكَمَلْتُ لَكُمُ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]. وكان الكمال في جانب الدين والتمام في جانب النعمة، واللفظتان وإن تقاربتا وتوازنتا فبينهما فرق لطيف يظهر عند التأمل، فإن الكمال أخص بالصفات والمعاني ويطلق على الأعيان والذوات، وذلك باعتبار صفاتها وخواصها كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «(كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد)». وقال عمر بن عبد العزيز: «إن للإيمان حدوداً وفرائض وسنناً وشرائع، فمن استكملها فقد استكمل الإيمان». (اجتماع الجيوش الإسلامية ١-٣).

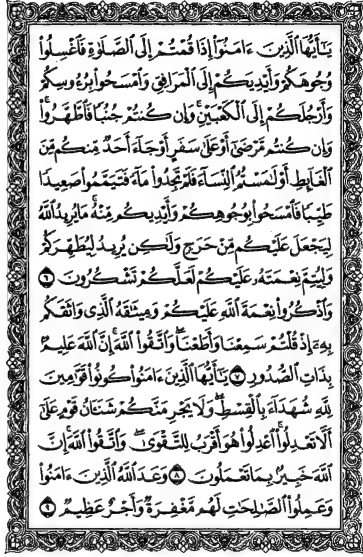
قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾.



٨- أما تقديم غسل الوجه، ثم اليد، ثم مسح الرأس، ثم الرجلين في الوضوء، فمن

يقول: إن هذا الترتيب واجب وهو الشافعي وأحمد بن حنبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ومن وافقهما، فالآية عندهم اقتضت التقديم وجوبا لقرائن عديدة:

أحدها: أنه أدخل ممسوحا بين مغسولين وقطع النظر عن نظيره، ولو أريد الجمع المطلق لكان المناسب أن يذكر المغسولات متسقة في النظم والممسوح بعدها، فلما عدل إلى ذلك دل على وجوب ترتيبها على الوجه الذي ذكره الله.



٩- الثاني: أن هذه الأفعال هي أجزاء فعل واحد

مأمور به وهو الوضوء، فدخلت الواو عاطفة لأجزائه بعضها على بعض، والفعل الواحد يحصل من ارتباط أجزائه بعضها ببعض، فدخلت الواو بين الأجزاء للربط فأفادت الترتيب؛ إذ هو الربط المذكور في الآية، ولا يلزمه من كونها لا تفيد الترتيب بين أفعال لا ارتباط بينها نحو أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، ألا تفيد بين أجزاء فعل مرتبطة بعضها ببعض، فتأمل هذا الموضع ولطفه، وهذا أحد الأقوال الثلاثة في إفادة الواو للترتيب، وأكثر الأصوليين لا يعرفونه ولا يحكونه، وهو قول ابن أبي موسى من أصحاب أحمد، ولعله أرجح الأقوال.

١٠- الثالث: أن لبداء الرب تعالى بالوجه دون سائر الأعضاء خاصة فيجب مراعاتها، وألا تلغى وتهدر فيهدر ما اعتبره الله تعالى ويؤخر ما قدمه الله، وقد أشار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أن ما قدمه الله، فإنه ينبغي تقديمه ولا يؤخر، بل يقدم ما قدمه الله ويؤخر ما أخره الله تعالى، فلما طاف بين الصفا والمروة بدأ بالصفا وقال: «نبدأ بما بدأ الله تعالى به».

وهكذا يقول المرتبون للوضوء سواء نحن نبدأ بما بدأ الله به ولا يجوز تأخير ما قدمه الله تعالى، ويتعين البداية بما بدأ الله تعالى به وهذا هو الصواب لمواظبة المبين عن الله تعالى مراده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الوضوء المرتب فاتفق جميع من ثقل عنه وضوءه كلهم على إيقاعه مرتباً ولم ينقل عنه أحد قط أنه أحل بالترتيب مرة واحدة، فلو كان الوضوء المنكوس مشروعا لفعله ولو في عمره مرة واحدة لتبين جوازه لأتمته، وهذا بحمد الله واضح.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَأَطْهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾.



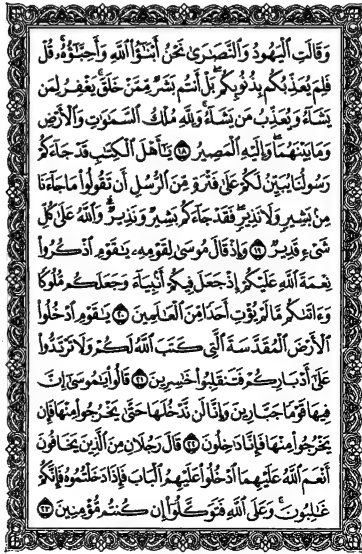
١١- ألحقت الأمة أنواع الحدث الأصغر

على اختلافها في نقضها الغائط، والآية لم تنص من أنواع الحدث الأصغر إلا عليه وعلى اللمس على قول من فسره بما دون الجماع، وألحقت الاحتلام بملامسة النساء، وألحقت واجد ثمن الماء بواجده، وألحقت من خاف على نفسه أو بهائم من العطش إذا توضأ بالعدام؛ فجوزت له التيمم وهو واجد للماء، وألحقت من خشي المرض من شدة برد الماء بالمرضى في العدول عنه إلى البدل.

وإدخال هذه الأحكام وأمثالها في العمومات المعنوية التي لا يستريب من له فهم عن الله ورسوله في قصد عمومها. وتعليق الحكم به وكونه متعلقاً بمصلحة العبد أولى من إدخالها في عمومات لفظية بعيدة تناول لها. (إعلام الموقعين ١/ ٢٦٨).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٠) إلى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

١٢- تأمل: تल्पف نبي الله تعالى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بهم، وحسن خطابه لهم، وتذكيرهم بنعم الله عليهم، وبشارتهم بوعده الله لهم: بأن القرية مكتوبة لهم، ونهيهم عن معصيته بارتدادهم على أدبارهم، وأنهم إن عصوا أمره، ولم يمثلوا انقلبوا خاسرين، فجمع لهم بين الأمر والنهي، والبشارة والندارة، والترغيب والترهيب، والتذكير بالنعم



السالفة. فقابلوه أقبح المقابلة. فعارضوا أمر الله تعالى بقولهم: ﴿يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢].

فلم يوقروا رسول الله وكليمه، حتى نادوه باسمه، ولم يقولوا: يا نبي الله. وقالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ ونسوا قدرة جبار السماوات والأرض الذي يذل الجبابرة لأهل طاعته. وكان خوفهم من أولئك الجبارين - الذين نواصيهم بيد الله - أعظم من خوفهم من الجبار الأعلى سبحانه وكانوا أشد رهبة في صدورهم منه.

ثم صرحوا بالمعصية والامتناع من الطاعة، فقالوا: ﴿وإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ [المائدة: ٢٢].

فأكدوا معصيتهم بأنواع من التأكيد:

أحدها: تمهيد عذر العصيان بقولهم: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢].

وَقَالَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا رَسُولَهُ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ بِكُمْ بِدْعُكُمْ كُلَّ نَسَمٍ يَشَاءُ مِنْ خَلْقٍ يُفْسِدُونَ
يَسْأَلُهُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا قَالُوا وَالصَّابِرُونَ ۝ يَأْتِيهِ الْكُتُبُ قَدِ جَاءَتْكُمْ
رُسُلُكُمُ الْبَيْنُ لَكُمْ عَلَى فِتْنَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا
مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَلَوْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَقَوُّوا أَذْكَرُوا
بِشْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ كَذَّابٌ فِي كُتُبِهِ وَجَعَلَكُمْ مَثَلًا
وَهَذَا كَرَامَاتُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْعَالَمِينَ ۝ يَتَقَوُّوا أَذْكَرُوا
الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا
عَنْ أَدْبَارِكُمْ فَتَقُولُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْكُمْ كَذِبًا أُولَئِكَ يُرِيدُونَ
فِيهَا كُفْرًا تَجَرَّادُونَ فَيَذَلُّوا حَتَّى يُنْفِرَ الْجُودُ مِنْهَا وَإِنْ
يَتَرَدَّدُوا مِنْهَا فَأُولَئِكَ كَانُوا فِي الْيَوْمِ يَسْتَأْذِنُونَ
أَنَّهُمْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَذْكَرُوا لِيَوْمِ الْبَابِ فَادْعُهُمْ فَادْعُهُمْ
عَلَيْهِمْ وَعَلَى اللَّهِ فِتْنَةٌ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا مِّنْ قَوْمٍ مِّنْ

والثاني: تصریحهم بأنهم غير مطيعين، وصدروا
الجملة بحرق تأكيد، وهو (إن)، ثم حققوا النفي بأداة
(لن) الدالة على نفى المستقبل: أي لا ندخلها الآن،
ولا في المستقبل.

ثم علقوا دخولها بشرط خروج الجبارين منها
فقال لهم: ﴿رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ
عَلَيْهِمَا﴾ [المائدة: ٢٣].

بطاعته والانقياد إلى أمره، من الذين يخافون
الله. هذا قول الأكثرين، وهو الصحيح.

١٣ - فسبحان من عظم حلمه حيث يقابل أمره بمثل هذه المقابلة، ويواجهه رسوله
بمثل هذا الخطاب، وهو يحلم عنهم، ولا يعاجلهم بالعقوبة، بل وسعهم حلمه وكرمه،
وكان أقصى ما عاقبهم به: أن ردهم في برية التيه أربعين عاما يظل عليهم الغمام من
الحر، وينزل عليهم المن والسلوى. (شفاء العليل ١٢١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

١٤ - أحسن ما قيل في تفسير الآية: إنه إنما يتقبل الله عمل من اتقاه في ذلك العمل،
وتقواه فيه أن يكون لوجهه على موافقة أمره، وهذا إنما يحصل بالعلم، وإذا كان هذا
منزلة العلم وموقعه، علم أنه أشرف شيء وأجله وأفضله، والله أعلم. (مفتاح دار السعادة ٩٠).

قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا
يَغْيِرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا
فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾.

١٥- وقد أشكل فهم هذا على كثير من الناس، وقال: معلوم أن إثم قاتل مائة



أعظم عند الله من إثم قاتل نفس واحدة، وإنما أتوه من ظنهم أن التشبيه في مقدار الإثم والعقوبة، واللفظ لم يدل على هذا، ولا يلزم من تشبيه الشيء بالشيء أخذه بجميع أحكامه. (الجواب الكافي) (الداء والدواء ٢٢١-٢٢٢).

١٦- مما يدل على أن العبد إذا اعتاد سماع الباطل وقبوله أكسبه ذلك تحريفا للحق عن مواضعه، فإنه إذا قبل الباطل أحبه ورضيه، فإذا جاء الحق بخلافه رده وكذبه إن قدر على ذلك، وإلا حرفه.

١٧- ودلت الآية على أن طهارة القلب موقوفة

على إرادة الله تعالى، وأنه سبحانه لما لم يرد أن يطهر قلوب القائلين بالباطل، المحرفين للحق، لم يحصل لها الطهارة.

ولا يصح أن تفسر الإرادة هاهنا بالإرادة الدينية، وهي الأمر والمحبة، فإنه سبحانه قد أراد ذلك لهم أمرا ومحبة، ولم يرده منهم كونا، فأراد الطهارة لهم وأمرهم بها، ولم يرد وقوعها منهم، لما له في ذلك من الحكمة التي فواتها أكره إليه من فوات الطهارة منهم.

وقد أشبعنا الكلام في ذلك في كتابنا الكبير في القدر.

١٨- ودلت الآية على أن من لم يطهر الله قلبه فلا بد أن يناله الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة، بحسب نجاسة قلبه وخبثه؛ ولهذا حرم الله سبحانه الجنة على من في قلبه نجاسة وخبث، ولا يدخلها إلا بعد طيبه وطهره؛ فإنها دار الطيبين. ولهذا يقال لهم: ﴿طَيِّبُوا قُلُوبَكُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] أي ادخلوها بسبب طيبكم. والشارة عند

لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٩﴾ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٢٠﴾

١٩ - أكد هذا التأكيد وكرر هذا التقرير في موضع واحد؛ لعظم مفسدة الحكم بغير ما أنزله، وعموم مضرته، وبلية الأمة به. (إعلام الموقعين ١/ ٢٢٨).

والصحيح أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكافرين (الأصغر، والأكبر) بحسب حال الحاكم، فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة، وعدل عنه عصياناً، مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة، فهذا كفر أصغر، وإن اعتقد أنه غير واجب، وأنه مخير فيه، مع تيقنه أنه حكم الله، فهذا كفر أكبر، وإن جهله وأخطأه فهذا مخطئ، له حكم المخطئين. (مدارج السالكين ١/ ٣٣٦ - ٣٣٧).

قوله تعالى: ﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾

٢٠ - بذلك وصف أهل المحبة في قوله:

﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة:

٥٤]. فوصفهم بست صفات:

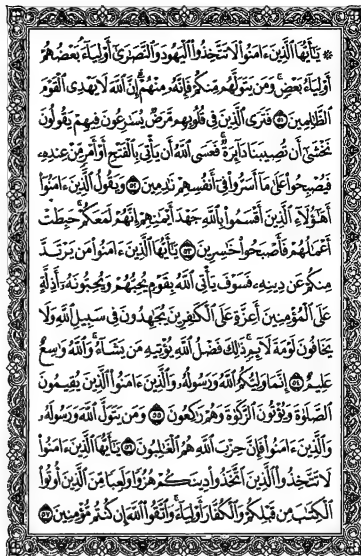
أحدها: محبتهم له.

والثانية: محبته لهم.

والثالثة: ذلهم ولينهم على أوليائه.

والرابعة: عزهم وشدتهم على أعدائه.

والخامسة: جهادهم في سبيله.



والسادسة: احتمالهم لوم الخلق لهم على ذلك، وأنهم ليسوا ممن يصده الكلام والعذل عن الجهاد في سبيل الله، وأنهم ليسوا بمنزلة من يحتمل الملام والعذل في محبة ما لا يحبه الله، ولا بمنزلة من أظهر من مكروهات الرب تبارك وتعالى ما يلامون عليه، ويسمّون بالملامتية؛ إظهاراً منهم لما يلامون عليه في الظاهر، وهم منطّون في الباطن على الصدق والإخلاص، سترًا لحالهم عن الناس، فهم فعلوا ذلك لعدم احتمالهم الملام، والأولون احتملوا الملام فيما لا يحبه الله، وأحبّاء الله فعلوا ما أحبه الله، ولم تأخذهم فيه لومة لائم.

٢١- فالأقسام ثلاثة:

أحدها: من يصده اللوم عن محاب الله.

والثاني: من لا تأخذه في محبة الله لومة لائم.

والثالث: من يظهر ما يلام عليه إخفاءً لقيامه بمحاب الله.

فالأول مفرط، والثالث مؤمن ضعيف، والوسط هو الوسط الخيار، وهو المؤمن

القوي، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف. وأعلى ما يحبه الله ورسوله الجهاد في سبيل الله، واللائمون عليه كثير، إذ أكثر النفوس تكرهه. (الكلام على مسألة السماع ٢٨٨-٢٨٩).

قوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنِّي يُؤْفِكُون﴾



٢٢- قد تضمنت هذه الحجة دليلين ببطلان إلهية المسيح وأمه:

أحدهما: حاجتهما إلى الطعام والشراب وضعف بنيتهما عن القيام بنفسهما،



بل هي محتاجة فيما يقيمها إلى الغذاء والشراب والمحتاج إلى غيره لا يكون إلها؛ إذ من لوازم الإله أن يكون غنيا.

الثاني: أن الذي يأكل الطعام يكون منه ما يكون من الإنسان من الفضلات القذرة التي يستحي الإنسان من نفسه وغيره حال انفصالها عنه، بل يستحي من التصريح بذكرها.

ولهذا والله أعلم كنى سبحانه عنها بلازمها من

أكل الطعام الذي ينتقل الذهن منه إلى ما يلزمه من

هذه الفضلة، فكيف يليق بالرب سبحانه أن يتخذ صاحبة وولدا من هذا الجنس. ولو كان يليق به ذلك أو يمكن لكان الأولى به أن يكون من جنس لا يأكل ولا يشرب ولا يكون منه الفضلات المستقذرة التي يستحي منها ويرغب عن ذكرها.

فانظر ما تضمنه هذا الكلام الوجيز البليغ المشتمل على هذا المعنى العظيم الجليل الذي لا يجد سامعه مغمزا له ولا مطعنا فيه ولا تشكيكا ولا سؤالا يورده عليه بل يأخذ بقلبه وسمعه (الصواعق المرسلة ٢/ ٤٨٢-٤٨٣).

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا

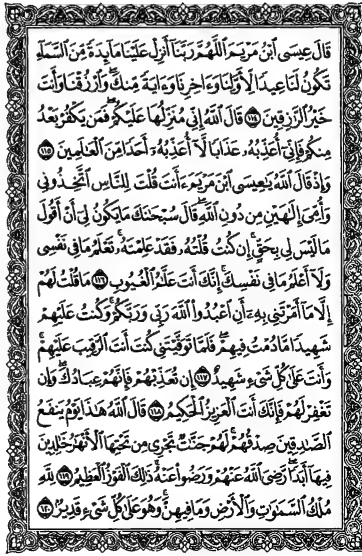
الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾

٢٣- أخبر سبحانه أن الهداية في طاعة الرسول لا في غيرها، فإنه معلق بالشرط

فيتنفي بانتفائه وليس هذا من باب دلالة المفهوم، كما يغلط فيه كثير من الناس ويظن أنه محتاج في تقريره الدلالة منه لا تقرير كون المفهوم حجة، بل هذا من الأحكام التي ترتبت على شروط وعلقت، فلا وجود لها بدون شروطها، إذا ما علق على الشرط فهو عدم عند عدمه، وإلا لم يكن شرطاً له.

إذا ثبت هذا، فالآية نص على انتفاء الهداية عند عدم طاعته. (إعلام الموقعين ١/ ١٠٩-١١١).

📖 قوله تعالى: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾.



٢٤- وتحتة سر عجيب دال على كمال معرفة

المسيح بربه وتعظيمه له فإن هذا السؤال كان عقيب سؤال قومه له: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ فخوفهم الله وأعلمهم أن هذا مما لا يليق أن يسأل عنه، وأن الإيمان يرده، فلما ألحوا في الطلب وخاف المسيح أن يداخلهم الشك إن لم يجابوا إلى ما سألوا، بدأ في السؤال باسم ﴿اللَّهُمَّ﴾ الدال على الثناء على الله بجميع أسمائه وصفاته، ففي ضمن ذلك تصويره بصورة المثني الحامد الذاكر

لأسماء ربه المثني عليه بها، وأن المقصود من هذا الدعاء وقضاء هذه الحاجة إنما هو أن يثني على الرب بذلك ويمجده به ويذكر آلاءه، ويظهر شواهد قدرته وربوبيته، ويكون برهانا على صدق رسوله، فيحصل بذلك من زيادة الإيمان والثناء على الله أمر يحسن معه الطلب، ويكون كالعذر فيه فأتى بالاسمين اسم الله الذي يثني عليه به، واسم الرب الذي يُدعى ويُسأل به، لما كان المقام مقام الأمرين، فتأمل هذا السر العجيب ولا يثب عنه فهمك، فإنه من الفهم الذي يؤتاه الله من يشاء في كتابه وله الحمد. (بدائع الفوائد ٢/ ١٩٤).

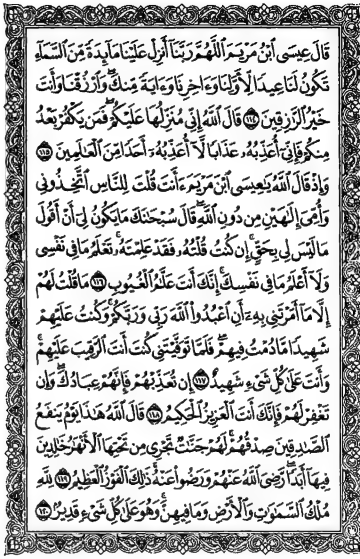
قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْسَلُهَا عَلَيْكَ مِنْ سُحُبٍ تُخْرِجُهَا مِنْهَا أَنْزِلُ عَلَيْهَا عَذَابًا لَا يُغْنِي عَنْكَ اللَّهُ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَتْسَلَى بِحُجَّتِي إِنْ كُنْتُ فَكُنتُ فَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ قَوْلُ مَافِي نَفْسِي وَلَا أَقُولُ مَا فِي نَفْسِي إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَكَ الْقُرْآنَ مَا كُنْتُ لَمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُكَ رَبِّي وَرَبَّكَ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبُ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٢﴾ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عَذَابُكَ وَإِنْ تَنْصُرْ لَهُمْ فَلَا فَتَانَكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا آيَةُ نَسُخِ الصَّدِيقِينَ صَدَقْتُمْ لَمْ تَجْعَلْ مِنْ خَلْقِي آلِهَةً لِلتَّعْبَادِ فِيهَا آيَاتٌ لِي أَنْتَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَرُضْوَانُهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُتَّقُوا وَالْأَرْضُ وَمَنْ عَلَيْهَا مُخَوَّلَةٌ كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

٢٥- قال المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ [المائدة: ١١٦]. ولم يقل: لم أقله. وفرق بين الجوابين في حقيقة الأدب، ثم أحال الأمر على علمه سبحانه بالحال وسره فقال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ [المائدة: ١١٦]، ثم برأ نفسه عن علمه بغييب ربه وما يختص به سبحانه فقال: ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، ثم أننى على ربه ووصفه بتفرده بعلم الغيوب كلها فقال: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦]، ثم نفى أن يكون قال لهم غير

ما أمره ربه به - وهو محض التوحيد - فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧]، ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم، وأنه بعد وفاته لا اطلاع له عليهم، وأن الله عَزَّ وَجَلَّ وحده هو المنفرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم، فقال: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبُ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧]، ثم وصفه بأن شهادته سبحانه فوق كل شهادة وأعم، فقال: ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

٢٦- ثم قال: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَا تَعْبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨]. وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام، أي شأن السيد رحمة عبده والإحسان إليهم، وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيدا لغيرك، فإذا عذبتهم - مع كونهم عبيدك - فلو لا أنهم عبيد سوء من أبخس العبيد، وأعتاهم على سيدهم، وأعصاهم له - لم تعذبهم؛ لأن قربة العبودية تستدعي



إحسان السيد إلى عبده ورحمته، فلماذا يعذب أرحم الراحمين، وأجود الأجودين، وأعظم المحسنين إحساناً عبيده؟ لولا فرط عتوهم، وإبائهم عن طاعته، وكمال استحقاقهم للعذاب.

وقد تقدم قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [المائدة: ١١٦].

أي هم عبادك، وأنت أعلم بسرهم وعلايتهم، فإذا عذبتهم: عذبتهم على علم منك بما تعذبهم عليه، فهم عبادك وأنت أعلم بما جنوه واكتسبوه.

٢٧- فليس في هذا استعطاف لهم، كما يظنه

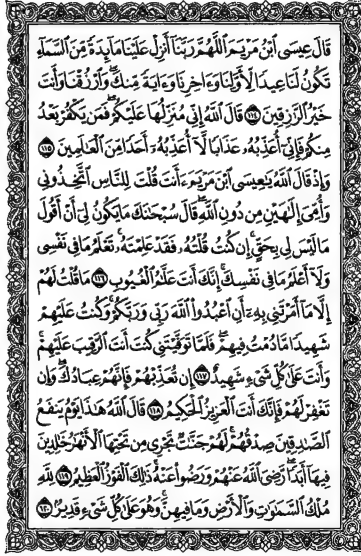
الجهال، ولا تفويض إلى محض المشيئة والملك المجرد عن الحكمة، كما تظنه القدرية. وإنما هو إقرار واعتراف وثناء عليه سبحانه بحكمته وعدله، وكمال علمه بحالهم، واستحقاقهم للعذاب.

ثم قال: ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

٢٨- ولم يقل: الغفور الرحيم، وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى، فإنه قاله في وقت غضب الرب عليهم، والأمر بهم إلى النار. فليس هو مقام استعطاف ولا شفاعاة. بل مقام براءة منهم، فلو قال: فإنك أنت الغفور الرحيم؛ لأشعر باستعطافه ربه على أعدائه الذين قد اشتد غضبه عليهم، فالمقام مقام موافقة للرب في غضبه على من غضب الرب عليهم، فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته إلى ذكر العزة والحكمة، المتضمنتين لكمال القدرة وكمال العلم.

والمعنى: إن غفرت لهم فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم، ليست عن عجز عن الانتقام منهم، ولا عن خفاء عليك بمقدار جرائمهم، وهذا لأن العبد قد يغفر

لغيره لعجزه عن الانتقام منه، ولجهله بمقدار إساءته إليه، والكمال هو مغفرة القادر العالم، وهو العزيز الحكيم. وكان ذكر هاتين الصفتين في هذا المقام عين الأدب في الخطاب. (مدارج السالكين ٢/ ٣٧٨-٣٧٩).



٢٩- وفيه أيضا أمر آخر ألطف من هذا، وهو أن كونهم عباده يقتضي عبادته وحده وتعظيمه وإجلاله كما يجبل العبد سيده ومالكه الذي لا يصل إليه نفع إلا على يده ولا يدفع عنه ضرر إلا هو، فإذا كفروا به أقبح الكفر وأشركوا به أعظم الشرك ونسبوه إلى كل نقيصة مما تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا كانوا أحق عباده وأولاهم بالعذاب.

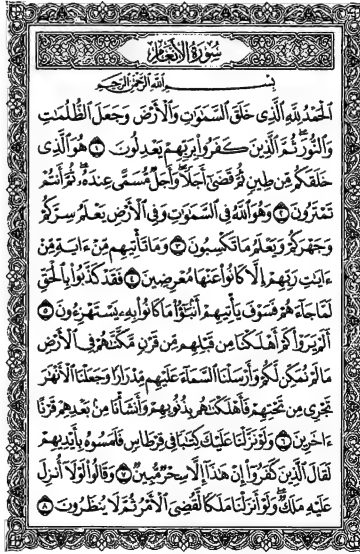
٣٠- وفيه أمر آخر أيضا لعله ألطف مما قبله،

وهو إن تعذبهم فإنهم عبادك وشأن السيد المحسن المنعم أن يتعطف على عبده ويرحمه ويحنو عليه، فإن عذبت هؤلاء وهم عبيدك، لا تعذبهم إلا باستحقاقهم وإجرامهم، وألا فكيف يشقى العبد بسيده وهو مطيع له متبع لمرضاته، فتأمل هذه المعاني ووازن بينها وبين قوله من يقول: إن تعذبهم فأنت الملك القادر وهم المملوكون المربوبون، وإنما تصرف في ملكك من غير أن يكون قام بهم سبب العذاب. (مفتاح دار السعادة ٤٤٥-٤٤٦).



سورة الأنعام

﴿قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾﴾



١- تأمل كيف أتت [السموات] مجموعة

هنا لحكمة ظاهرة وهي تعلق الظرف بما في اسمه تَبَارَكَ وَتَعَالَى من معنى الإلهية، فالمعنى وهو الإله وهو المعبود في كل واحدة من السماوات ففي كل واحدة من هذا الجنس هو المألوه المعبود، فذكر الجمع هنا أبلغ وأحسن من الاختصار على لفظ الجنس الواحد، ولما عزب هذا المعنى عن فهم بعض المتسنة فسر الآية بما لا يليق بها فقال الوقف التام على السماوات، ثم يتدنى بقوله: وفي الأرض يعلم، وغلط في فهم الآية

وأن معناها ما أخبرتك به وهو قول محققى أهل التفسير. (بدائع الفوائد ١/١١٦).

﴿قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ﴾﴾

وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾

٢- ذكر سبحانه إهلاك من قبلنا من القرون، وبين أن ذلك كان لمعنى القياس، وهو ذنوبهم، فهم الأصل ونحن الفرع، والذنوب العلة الجامعة، والحكم الهلاك؛ فهذا محض قياس العلة، وقد أكد سبحانه بضرب من الأولى، وهو أن من قبلنا كانوا أقوى منا، فلم تدفع عنهم قوتهم وشدتهم ما حل بهم. (إعلام الموقعين ١٨١-١٨٢).

📖 قوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾.

٣- وهذا إيجاب منه على نفسه، فهو الموجب، وهو متعلق بالإيجاب الذي أوجبه، فأوجب بنفسه على نفسه، وقد أكد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا المعنى بما يوضحه كل الإيضاح ويكشف حقيقته بقوله في الحديث الصحيح: «لما قضى الله الخلق بيده

وَلَجَعَلَنَّهُ مَلَكًا جَمَعَنَّهُ رَجُلًا وَلَلَّسْنَا عَلَيْهِمَا
يَلْمُسُونَ ﴿١﴾ وَلَقَدْ أَسْمَعْنَاهُ مِنْ رَبِّهِ قَبْلَ ذَلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ
سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢﴾ فَلْيَسِيرُوا
فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَقِيبُهُ الْمُكَذِّبِينَ
﴿٣﴾ فَلْيَلْمِزْ لَنَا مِنَ السَّكَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُتُبٌ عَلَى
نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَ كُنُوزُ الْيَوْمِ الْفَيْصَةَ لَا رَيْبَ
فِي الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ وَلِلَّهِ
مَاسْكَةٌ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ قُلْ
أَعْتَذِرُ إِلَهُهُ أَفْعَدُوكَ فَأَطَاعُوا السَّكَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ
يُطْعِمُهُ وَلَا يَطْعَمُهُ قُلْ إِنْ أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أُنْشَرُ
وَلَا أَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ قُلْ إِنْ أَعْلَفُ إِنْ عَصَيْتُ
رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٧﴾ مَنْ يَضُرُّهُ عَنْهُ قَوْلِي فَقَدْ ضَعُفَ
وَذَلِكَ الْقَوْلُ الْمِيمُ ﴿٨﴾ وَإِنْ يَمَسُّنَا اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَافٍ
لَهُ إِلَّا هُوَ وَلَنْ يَمَسُّنَا بِضُرٍّ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
﴿٩﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١٠﴾ وَهُوَ الْكَبِيرُ الْحَبِيرُ ﴿١١﴾

على نفسه في كتاب فهو موضوع عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي» وفي لفظ «سبقت غضبي» (رواه البخاري ومسلم والترمذي)، فتأمل: كيف أكد هذا الطلب والإيجاب بذكر فعل الكتاب وصفة اليد ومحل الكتابة، وأنه كتاب وذكر مستقر الكتاب، وأنه عنده فوق العرش، فهذا إيجاب مؤكد بأنواع من التأكيد وهو إيجاب منه على نفسه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فهذا حق أحقه

على نفسه. (الفوائد ٢/ ١٦١-١٦٢).

٤- أخبر سبحانه في هذه المواضع بشهادته لرسوله وكفى بشهادته إثباتاً لصدقه وكفى به شهيداً.

فإن قيل: وما شهادته [سبحانه] لرسوله؟ قيل: هي ما أقام على صدقه من الدلالات والآيات المستلزمة لصدقه بعد العلم بها ضرورة، فدلالته على صدقه أعظم من دلالة كل بينة وشاهد على حق، فشهادته سبحانه لرسوله أصدق شهادة وأعظمها وأدلها على ثبوت المشهود به، فهذا وجهه.

ووجه آخر: أنه صدقه بقوله وأقام الأدلة القاطعة على صدقه فيما يخبر به عنه، فإذا أخبر عنه أنه شهد له قولاً لزم ضرورة صدقه في ذلك الخبر وصحت الشهادة له به قطعاً،

إنهم قد عرفوا صدقك وأنت غير كاذب فيما تقول، ولكن عاندوا وجحدوا بالمعرفة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما والمفسرون، قال قتادة: يعلمون أنك رسول

ولكن يجحدون، قال تعالى: ﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَاسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ دَابَّةٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلِيمٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي

الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ تُنْمَرُ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

* إِنَّمَا اسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْتَعِينُونَ وَالْقَوَىٰ يُعْذِرُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ
يَرْجِعُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ
قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ وَبِمَا
مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلِيمٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ
مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ تُنْمَرُ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٤٠﴾
وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا صُفْرٌ وَكَافٍ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَاءِ
اللَّهُ يَضِلُّهُ وَمَنْ يَشَاءِ يَهْدِهِ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤١﴾ قُلْ
أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْذَرْتُكُمْ عَذَابَ اللَّهِ أَوْ أَنْذَرْتُكُمْ السَّاعَةَ أَغَيْرَ اللَّهِ
تَذَعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٢﴾ بَلْ إِنْ آتَاكُمْ تَذَعُونَ فَيَكْشِفُ
مَا تَذَعُونَ إِلَّا بَعْدَ سَاعَةٍ وَقَدْ نَبَّأْتُمْ أَنَّكُمْ كَذِبُونَ ﴿٤٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْأَسْبَاطِ وَالْعُرْوَةِ لَمَّا هَمُّوا
بِتَعْذِيرِ عَنْهُمْ ﴿٤٤﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِنْ قَسَّيْنَا
قُلُوبَهُمْ وَزَيَّنَّا لَهُمُ السَّيْفَ مَكَائِلَ فَاذْنَبُوا ﴿٤٥﴾ فَلَمَّا
سَأَلْنَا مَا تُكْرِمُوا بِهِ فَصَحَّاحُوا عَلَيْهِمْ أَبْوَابُ كُلِّ شَيْءٍ وَخَوَّفْنَا
إِلَاقَتَهُمْ بِمَا أَوْفَوُا الْعَهْدَ فَهَمُّ بَعَثَهُ فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٦﴾

٧- قال: منهم من يكون على أخلاق السباع العادية، ومنهم من يكون على أخلاق الكلاب وأخلاق الخنازير وأخلاق الحمير، ومنهم من يتطوس في ثيابه كما يتطوس الطاووس في ريشه، ومنهم من يكون بليدا كالحمار، ومنهم من يؤثر على نفسه كالديك، ومنهم من يألف ويؤلف كالحمام، ومنهم الحقود كالجمل، ومنهم الذي هو خير كله كالغنم، ومنهم أشباه الثعالب التي تروغ كروغانها،

وقد شبه الله تعالى أهل الجحيم والغي بالحر تارة، وبالكلب تارة، وبالأنعام تارة، وتقوى هذه المشابهة باطنا حتى تظهر في الصورة الظاهرة ظهورا خفيا، يراه المتفرسون، وتظهر في الأعمال ظهورا يراه كل أحد. (الجواب الكافي ١٦٠).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَسُّوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾.

٨- وهذا من أعظم الغرة أن تراه يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على ما يكره، فالشيطان وكل الغرور وطبع النفس الأمارة بالاغترار، فإذا اجتمع الرأي والبغي والشيطان موكل بالغرور والنفس المغترية لم يقع هناك خلاف، فالشياطين غروا المغترين بالله وأطمعوهم مع إقامتهم على ما يسخط الله ويغضبه في عفوه وتجاوزه

وحدوئهم بالتوبة لتسكن قلوبهم، ثم دافعوهم بالتسويق حتى هجم الأجل فأخذوا على أسوأ أحوالهم. (الروح ١٩٨).

﴿قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾﴾

وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَكَ الَّذِينَ يُوَفُّونَ بِعَهْدِكَ أَقْلَ سَلَامٍ عَلَيْكَ كَذَبَتْ يَدَاكَ عَنْ تَقْرِيرِ الرَّحْمَةِ إِنَّهُمْ مِنْ عِجْلٍ وَبَعْضُهُمْ يَهْجُمُ الْآخَرَ تَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَوَوْ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْأَنْبِيَاءَ وَالْمُتَّقِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٤﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أُشْرِكَ بِالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَفْعَلُ أَعْمَارَةً لَعَنَ اللَّهُ فَكَيْفَ صَدَقْتُ إِذَا مَا أَنَا مِنَ الْمُتَعَذِّبِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عُدِّي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَأَيُّوهُنَّ نَفْسُ الْحَقِّ وَهُوَ خَيْرٌ النَّاصِلِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ أَوَلَمْ يَعْنَى مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ لِقَافِي الْأَخْسَرِينَ ﴿٥٧﴾ وَتَذَكَّرُوا أَنَّهُمْ أَغْلَى الْأَعْلَاءِ ﴿٥٨﴾ وَصَدَقَهُمْ مَقَالِيمُ الْقَبْرِ لَا يَتْلُوهُ إِلَّا الْهَوَىٰ وَيَعْلَمُ مَا فِي السِّرِّ وَالْخَيْرِ وَمَا نَسْفُطُ مِنْ رَحْمَةٍ إِلَّا يَنْتَظِرُهَا وَلَا يُخْفِي عَنْهَا غَيْبٌ ﴿٥٩﴾ وَلَا تَطِبُّ وَلَا تَبَايَسُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦٠﴾

٩- لا ريب أن هذا تعليل لفعله المذكور وهو امتحان بعض خلقه ببعض كما امتحن السادات والأشراف بالعبيد والضعفاء والموالي، فإذا نظر الشريف والسيد إلى العبد والضعيف والمسكين قد أسلم أنف وحمى أن يسلم معه أو بعده ويقول هذا يسبقني إلى الخير والفلاح وأتخلف أنا، فلو كان ذلك خيراً وسعادة ما سبقنا هؤلاء إليه، فهذا القول منهم هو بعض الحكم والغاية المطلوبة بهذا الامتحان، فإن هذا القول دال على إباء واستكبار وترك الانقياد للحق بعد المعرفة التامة به وهذا وإن كان علة فهو مطلوب لغيره.

﴿قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ عَازَرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾﴾ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُقَوِّمُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي

فَطَرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ خَنيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٨﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدِنَ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾

وَأَذَى قَالَ إِبْرَاهِيمُ لَأَبْرَأُكَ إِلَى اللَّهِ وَأَزِيدُكَ قَوْلًا فِي صَبْرِكَ لِيُؤْتِيَكَ اللَّهُ مِنْ أَمْرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْسَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آوَىٰ إِلَىٰ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآلِهَةَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ الْقُرْآنَ بَارِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ إِلَهُي بَرِيٌّ رَبِّي لَا أَكُونُ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ الْقُرْآنَ بَارِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ يَتَقَوَّمُ إِلَيَّ بَرِيٌّ وَمَتَانُ شَرِكُوتِ ﴿٨٢﴾ إِيَّيَّيْ وَجْهَتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَنيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٣﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدِنَ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٤﴾ وَكَيْفَ أَتَىٰ مَا أَنْزَلَ مِنْ قَوْلٍ وَلَا خَافُونَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ مِنَ اللَّهِ مَا لَوْ يَرَوْهُ إِلَّا قَوْمٌ مَلُوتٌ قَالُوا الْقُرْيُونَةُ أَحْيَا بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ مُعْذِرُونَ ﴿٨٥﴾

١٠- قال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَنيفًا﴾ [الأنعام: ٧٩] وفي ذلك إشارة إلى أنه سبحانه خالق أمكتها ومحالها التي هي مفترية إليها، ولا قوام لها إلا بها، فهي محتاجة إلى محل تقوم به، وفاطر يخلقها ويدبرها ويربها، والمحتاج المخلوق المربوب المدبر لا يكون إلها، فحاجة قومه في الله، ومن حاج في عبادة الله فحجته داحضة.

١١- قال إبراهيم عليه السلام: ﴿أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدِنَ﴾ [الأنعام: ٨٠].

وهذا من أحسن الكلام، أي أتريدون أن تصرفوني عن الإقرار بربي وتوحيده، وعن عبادته وحده، وتشككوني فيه وقد أرشدني وبين لي الحق، حتى استبان لي كالعيان، وبين لي بطلان الشرك وسوء عاقبته، وأن ألتهتم لا تصلح للعبادة، وأن عبادتها توجب لعابديها غاية الضرر في الدنيا والآخرة، فكيف تريدون مني أن أنصرف عن عبادته وتوحيده إلى الشرك به؟ وقد هداني إلى الحق وسبيل الرشاد؟

قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨١) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمَنُ
وَهُمْ مُسْتَقِيمُونَ ﴿٨٢﴾ وَذَٰلِكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى
قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾
وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا
مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ
وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾
وَرَكَّبْنَا بِلَاقِيَّ وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ
﴿٨٥﴾ وَاسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا كُلًّا أَضَلَّامًا عَلٰى
الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِن ءَاتَانَا لَهُمْ دُرِّيَّةً مِّنْ دُونِهَا وَلِأَخِيهِمْ
وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي
بِهِ مَن يَشَاءُ مَن عَادَءَهُ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَلَقَدْ
كَلَّمْنَا هَٰؤُلَاءَ فَقَدَرْنَا مَقَٰمَهُمُ الْقَبِيلَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ
الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مَن عَادَءَهُ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ
مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ
وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءَ فَقَدْ
وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٩١﴾

١٢- يقول لقومه: كيف يسوغ في عقل أو عند
ذي لب أن أخاف ما جعلتموه لله شريكا في الإلهية
وهي ليست بموضع نفع ولا ضرر وأنتم لا تخافون
أنكم أشركتم بالله في إلهيته أشياء لم ينزل بها حجة
عليكم ولا شرعها لكم، فالذي أشرك بخالقه وفاطره
وباريه الذي يقر بأنه خالق السماوات والأرض ورب
كل شيء ومليكه ومالك الضر والنفع آلهة لا تخلق
شيئا وهي مخلوقة ولا تملك لأنفسها ولا لعابديها
ضرا ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشورا وجعلها

ندا له ومثلا في الإلهية تعبد ويسجد لها ويخضع لها ويتقرب إليها أحق بالخوف ممن لم
يجعل مع الله إلها آخر، بل وحده وأفرده بالإلهية والربوبية والعظمة والسلطان والحب
والخوف والرجاء، فأَيَ الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون، فحكم الله سبحانه
بينهما بأحسن حكم خضعت له القلوب وأقرت به الفطر وانقادت له العقول فقال:
﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمَنُ وَهُمْ مُسْتَقِيمُونَ﴾ (٨٢) [الأنعام: ٨٢].

فتأمل هذا الكلام وعجيب موقعه في قطع الخصوم وإحاطته بكل ما وجب في
العقل أن يرد به ما دعوه إليه وأرادوا حمله عليه وأخذه بمجامع الحجة التي لم تبق
لطاقن مطعنا ولا سؤالا. (الصواعق المرسله ١٨٥-١٩٠).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مَن عَادَءَهُ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ
مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٨٨) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءَ فَقَدْ
وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾

١٣- إن تحت هذه الآية إشارة وبشارة يحفظها، وإنه لا ضيعة عليها وإن هؤلاء وإن ضيعوها ولم يقبلوها فإن لها قوما غيرهم يقبلونها ويحفظونها ويرعونها ويدبون عنها، فكفر هؤلاء بها لا يضيعها ولا يذهبها ولا يضرها شيئا، فإن لها أهلا ومستحقا سواهم، فتأمل شرف هذا المعنى وجلالته وما تضمنه من تحريض عباده المؤمنين على المبادرة إليها والمصارعة إلى قبولها، وما تحته من تنبيههم على محبته لهم وإيثاره إياهم بهذه النعمة على أعدائه الكافرين، وما تحته من احتقارهم وازدراؤهم وعدم المبالاة والاحتفال بهم، وإنكم وإن تؤمنوا بها فعبادي المؤمنون بها الموكلون بها سواكم كثير كما قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝﴾ (١٨).

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ۝﴾

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ۝ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَتُعْلِمُونَهُ مَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَكُلُّ الْوَعْدِ لِلَّهِ قَدْ يَعْلَمُونَ ۝ وَهَذَا كِتَابُنَا أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكًا مُصَدِّقًا لِلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِكُنَّا أَزْوَاجَ الْقُرْآنِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُضِلُّونَ بِالْآخِرَةِ يُضِلُّونَهُمْ وَيُضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِهِمْ فَتُطْفَلُونَ ۝ وَمَنْ أَظْلَمُ مِنْ

١٤- قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۝﴾ ولم يقل: وما قدروا الله قدره. فإن حق قدره هو الحق الذي لقدره فهو حق عليهم لقدره سبحانه، فوجدوا ذلك الحق وأنكروه وما قاموا بذلك الحق معرفة ولا إقرارا ولا عبودية، وذلك جحود وإنكار لبعض قدره من صفات كماله وأفعاله لجحودهم أن يتكلم أو يعلم الجزئيات أو يقدر على إحداث فعل فشبهات منكري الرسالة ترجع إلى ذلك.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ

مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعِلْمُكُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ۝﴾

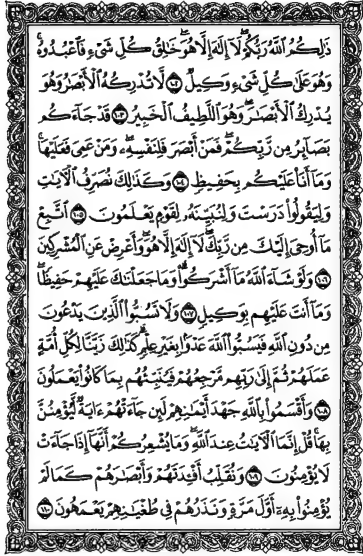
١٧- حرم الله تعالى سب آلهة المشركين - مع كون السب غيظا وحمية لله وإهانة

لآلهتهم - لكونه ذريعة إلى سبهم الله تعالى، وكانت مصلحة ترك مسبته تعالى أرجح من مصلحة سبنا لآلهتهم، وهذا كالتنبية بل كالتصريح على المنع من الجائر لئلا يكون سببا في فعل ما لا يجوز. (إعلام الموقعين ١/ ١٨١).

١٨ - قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ آمَةٍ عَمَلُهُمْ﴾

وهذا التزيين سبحانه حسن إذ هو ابتلاء واختبار بعيد لتمييز المطيع منهم من العاصي والمؤمن من الكافر كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (٧) وهو من الشيطان قبيح، وأيضا فتزيينه سبحانه للعبد عمله السيئ عقوبة منه له على إعراضه عن توحيده وعبوديته وإيثار سيئ العمل على حسنه، فإنه لا بد أن يعرفه سبحانه السيئ

من الحسن، فإذا أثر القبيح واختاره وأحبه ورضيه لنفسه زينه سبحانه له وأعماه عن رؤية قبحه بعد أن رآه قبيحا، وكل ظالم وفاجر وفاسق لا بد أن يريه الله تعالى ظلمه وفجوره وفسقه قبيحا، فإذا تمادى عليه ارتفعت رؤية قبحه من قلبه، فربما رآه حسنا عقوبة له، فإنه إنما يكشف له عن قبحه بالنور الذي في قلبه وهو حجة الله عليه، فإذا تمادى في غيه وظلمه ذهب ذلك النور فلم ير قبحه في ظلمات الجهل والفسوق والظلم، ومع هذا فحجة الله قائمة عليه بالرسالة وبالتعريف الأول فتزيين الرب تعالى عدل وعقوبته حكمة وتزيين الشيطان إغواء وظلم وهو السبب الخارج عن العبد والسبب الداخل فيه حبه وبغضه وإعراضه والرب سبحانه خالق الجميع والجميع واقع بمشيئته وقدرته، ولو شاء لهدى خلقه أجمعين والمعصوم من عصمه الله والمخذول من خذله الله ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين (شفاء العليل ١٠٣-١٠٤).



قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (١١٣)

﴿وَلَوْ أَنَّا نُنَزِّلُ الْإِنجِيلَ فِي الْبَلَدِ لَنُكَلِّمُنَا فِيهِ مَنَّا ذُكِّرُوا وَلَوْلَا تَأْيِيدُ اللَّهِ لَلَّذِينَ هُمَا مُخَوَّضَتَا السُّيُوفِ لَافْتَحَا بِالْغَوَابِرِ﴾ (١١٤)

١٩- ذكر سبحانه أنهم يستعينون على مخالفة أمر الأنبياء بما يزخرفه بعضهم لبعض من القول فيغتر به الأغمار وضعفاء العقول، فذكر السبب الفاعل والقابل، ثم ذكر سبحانه انفعال هذه النفوس الجاهلة به بصغوها وميلها إليه ورضاها به لما كسي من الزخرف الذي يغر السامع، فلما أصغت إليه ورضيته اقترفت ما تدعو إليه من الباطل قولاً وعملاً، فتأمل هذه الآيات وما تحتها من هذا المعنى العظيم القدر الذي فيه بيان أصول الباطل والتنبيه على مواقع الحذر

منها وعدم الاغترار بها، وإذا تأملت مقالات أهل الباطل رأيتهم قد كسوها من العبارات وتخبروا لها من الألفاظ الرائقة ما يسرع إلى قبوله كل من ليس له بصيرة نافذة، وأكثر الخلق كذلك حتى إن الفجار ليسمون أعظم أنواع الفجور بأسماء لا ينبو عنها السمع ويميل إليها الطبع فيسمون أم الخبائث أم الأفراح ويسمون اللقمة الملعونة لقيمة الذكر والفكر التي تثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن، ويسمون مجالس الفجور والفسوق مجالس الطيبة، حتى إن بعضهم لما عدل عن شيء من ذلك قال لعاذله: ترك المعاصي والتخوف منها إساءة ظن برحمة الله وجرأة على سعة عفوه ومغفرته. فانظر ماذا تفعل هذه الكلمة في قلب ممتلئ بالشهوات ضعيف العلم والبصيرة (الصواعق المرسله ٢/ ٤٣٨).

قوله تعالى: ﴿وَلْيَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْعَدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ (١١٣)

﴿وَلَوْ أَنَّا أَتَيْنَا إِلَهُهُمْ الْمَلَائِكَةَ وَكُنَّا لَهُمُ الْمُوقِنَ وَخَشَرَتْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُلْنَا مَا كُنَّا إِلَهُكُمْ أَلَا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَهُمْ فَلْيَرْسَلْ إِلَيْكُمْ رَسُولًا وَنَحْنُ الْمُنِذِرُونَ﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَاطِئِينَ إِلَّا إِبْرَاهِيمَ وَالْحُسَيْنَ وَبُحَيْرَةَ وَنَحْنُ الْمُنِذِرُونَ يُخْرِقُ الْقَوْلَ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلْنَاهُ قَدْ زَهَرْنَا وَمَا يَفْقَهُونَ ﴿وَلْيَضْحَكُوا بَلَلًا فَبُذِلُوا﴾ الَّذِينَ لَا يُلَاحِظُونَ إِلَّا الْحِجْرَةَ وَلَيْسَ لَهُمْ مَالُهُمْ فَقَدْ نُسِفَتْ ﴿أَفَذَرِ اللَّهُ أَتَنِي حَسْبَ مَا هُمُ الْوَلِيُّ أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ أَلَمْ نُنَزِّلْ مِنْ رُبِّكَ بِالْحَقِّ قَلَامًا مَكِينًا مِنَ الْمُنْذِرِينَ وَتَنَزَّلَتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَرَعْدًا لَا يَمِيلُ لِكَيْلٍ سَنِيَّةٍ يُفَوِّتُ السَّمِيعَ الْعَلِيمَ ﴿وَأَن تُلْقُوا بِأَعْيُنِكُمْ فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَشَاءُونَ إِلَّا الظُّلُمَاتُ وَأَن هُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَحْسِلُ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿تَكُونُوا مِمَّا ذُكِّرْتُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾

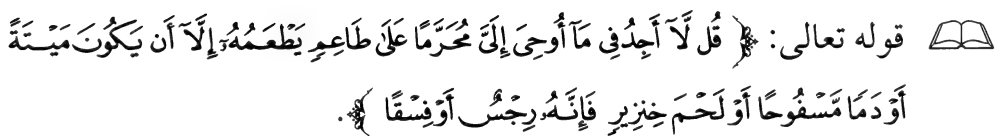
٢٠- سبحانه قد أخبر بمقصودهم من الإيحاء المذكور وهو أربعة أمور غرور من يوحون إليه وإصغاء أفئدتهم إليهم ومحبتهم لذلك وانفعالهم عنده بالاقتراف وإن كان ذلك تعليلاً لجعله سبحانه لكل نبي عدوا فيكون هذا الحكم من جملة الغايات والحكم المطلوبة بهذا الجعل وهي غاية وحكمة مقصودة لغيرها لأنها مفضية إلى أمور هي محبوبة مطلوبة للرب سبحانه وفواتها يستلزم فوات ما هو أحب إليه من حصولها وعلى التقديرين فاللام لام التعليل والحكمة. (شفاء العليل ١٩٣).

قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ﴾.

٢١- قرر أن ما أخبر به فهو صدق وما أمر به فهو عدل، وهذا يبين أن ما في النصوص من الخبر فهو صدق علينا أن نصدق به لا نعرض عنه ولا نعارضه، ومن دفعه أو عارضه بعقله لم يصدق به، ولو صدقه تصديقا مجملا ولم يصدقه تصديقا مفصلا في أعيان ما أخبر به لم يكن مؤمنا ولو أقر بلفظه مع جحد معناه أو حرفه إلى معان آخر غير ما أريد به لم يكن مصدقا، بل هو إلى التكذيب أقرب. (الصواعق المرسلة ٣/ ١٠٤٢-١٠٤٦).

قوله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مِيثًا فَاحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

٢٢- قوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ يتضمن أموراً: أحدها أنه يمشي في الناس بالنور وهم في الظلمة، فمثله ومثلهم كمثل قوم أظلم عليهم الليل



٢٥- فالضمير في قوله: ﴿فَإِنَّهُ﴾ وإن كان عوده إلى الثلاثة المذكورة باعتبار لفظ المحرم، فإنه يترجح اختصاص لحم الخنزير به لثلاثة أوجه:
أحدها: قرينه منه.

والثالث: أنه أتى (بالفاء) و (إن) تنبيها على علة التحريم لتزجر النفوس عنه، ويقابل هذه العلة ما في طباع بعض الناس من استلذاذه واستطابته، فنفي عنه

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلَمْ شُهِدْكُمْ أَلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾.

٢٦- مما يدل على أن لفظ الشهادة غير مشروط ومعلوم قطعاً أنه لم ينكر عليهم إلا مجرد قولهم إن الله حرم هذا، لم يخص الإنكار بقول من قال يشهد أن الله تعالى حرمه ولا نهى رسول الله أن يتلفظ بالشهادة على التحريم، بل هو نهى له أن يقول إن الله حرمه. (بدائع الفوائد ٥/ ٥٥).

قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ .

٢٧- فلما ذكر إتيانه سبحانه ربما توهم متوهم أن المراد إتيان بعض آياته أزال هذا الوهم ورفع الإشكال بقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيكَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ فصار الكلام مع هذا

التقسيم والتنويع نصا صريحا في معناه لا يحتمل غيره، وإذا تأملت أحاديث الصفات رأيت هذا لائحا على صفحاتها باديا على ألفاظها كقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنكم ترون

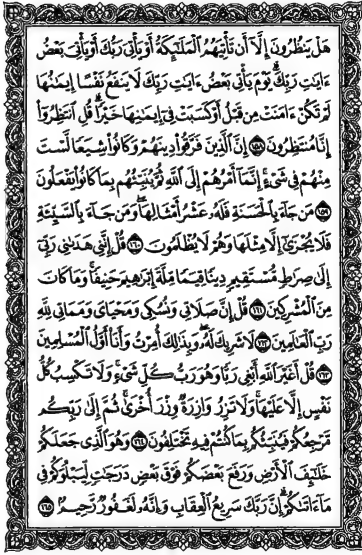
ربكم عيانا كما ترى الشمس في الظهيرة صحوا ليس دونها سحب، وكما يرى القمر ليلة البدر ليس دونه سحب». (بدائع الفوائد ٥/ ٥٥).

قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾.

٢٨- أنت عدد الأمثال لتأويلها بحسنات ومثله قراءة أبي العالية: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَتُهَا﴾ بالتاء والفعل مسند إلى الإيمان لكنه طاعة وإثابة في المعنى. (بدائع الفوائد ٤/ ٢٠٩).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَىٰ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

٢٩- إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل، رأيتها هي نفس الرضا بالله ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسولا، ورأيت الحديث يترجم عنها، ومشتقا منها، فكثير من الناس يرضى بالله ربا، ولا يبغى ربا سواه، لكنه لا يرضى به وحده وليا وناصر، بل يوالي من دونه أولياء؛ ظنا منه أنهم يقربونه إلى الله، وأن موالاتهم كموالاته خواص الملك، وهذا عين الشرك.



سورة الأعراف

قوله تعالى: ﴿الْمَصَّ ۝ كَتَبُ أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِئُنْذِرَ بِهِ ۝ وَذَكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾

١- الله تعالى رفع الحرج عن الصدور بكتابه، وكانت قبل إنزال الكتاب في أعظم الحرج والضيق، فلما أنزل كتابه ارتفع به عنها ذلك الحرج وبقي الحرج والضيق على من لم يؤمن به كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥].



٢- ومن آمن به من وجه دون وجه ارتفع عنه الحرج والضيق من الوجه الذي آمن به دون ذلك الوجه، فمن أقر أنه منزل من عند الله أنزله على رسوله ولم يقر بأنه كلامه الذي تكلم به بل جعله مخلوقا من جملة مخلوقاته، كان في صدره من الضيق والحرج ما يناسب ذلك، ومن أقر بأنه تكلم بشطره وهو المعاني دون شطره الآخر وهو حروفه، كان في صدره من الحرج منه ما يناسب ذلك.

٣- ومن زعم أنه غير كاف في معرفة الحق، وأن العباد يحتاجون معه إلى معقولات وآراء ومقاييس وقواعد منطقية ومباحث عقلية، ففي صدره منه أعظم حرج وأعظم حرجا منه من اعتقد أن فيه ما يناقض العقل الصريح ويشهد العقل بخلافه وكذلك.

٤- من زعم أن آياته لا يستفاد منها علم ولا يقين، ففي صدره منه من الحرج ما الله به عليم، ومن زعم أن الخطاب به خطاب جمهوري يخيل للعامة ما ينتفعون به مما



ليس له حقيقة في نفس الأمر، ففي صدره منه أعظم حرج، ومن زعم أن أجل ما فيه وأشرفه وأفضله وهو قسم التوحيد المتضمن للأسماء والصفات مجازات واستعارات وتشبيهات لا حقائق، ففي صدره منه أعظم حرج، فكل هذه الطوائف في صدورهم منه حرج وريب، وليس في حقهم هدى ولا شفاء ولا رحمة، ولا هو كاف لهم بشهادتهم على أنفسهم وشهادة الله وملائكته والشهداء من عباده عليهم وبالله التوفيق. (الصواعق المرسلة ٤/ ١٥١٨-١٥١٩).

قوله تعالى: ﴿ أَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢).

٥- أمر سبحانه باتباع ما أنزل على رسوله ونهى عن اتباع غيره، فما هو إلا اتباع المنزل. واتباع أولياء من دونه، فإنه لم يجعل بينهما واسطة، فكل من لا يتبع الوحي فإنما يتبع الباطل واتباع أولياء من دون الله، وهذا بحمد الله ظاهر لا خفاء به. (الرسالة التبوكية ٥٤).

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾.

٦- إن نفي كونه من الساجدين أخص من نفي السجود عنه؛ لأن نفي الكون يقتضي نفي الأهلية والاستعداد، فهو أبلغ في الذم من أن يقال لم يسجد. (بدائع الفوائد ٣/ ٥٧-٥٨).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِحٍ ۝٢١﴾ .

٧- الصواب في ذلك أن يقال: إن آدم - صلوات الله وسلامه عليه - لما قاسمه عدو الله أنه ناصح وأخرج الكلام على أنواع متعددة من التأكيد:

أحدها: القسم.

الثاني: تصديرها بالجملة اسمية لا فعلية.

الثالث: تصديرها بأداة التأكيد.

الرابع: الإتيان بلام التأكيد في الخبر.

الخامس: الإتيان به اسم فاعل لا فعلا دالا على الحدث.

السادس: تقديم المعمول على العامل فيه.

ولم يكن آدم يظن أن أحدا يقسم بالله كاذبا يمين

غموس يتجراً فيها على الله هذه الجرأة، فغره عدو الله

بهذا التأكيد والمبالغة، فظن آدم صدقه وأنه إن أكل منها لم يخرج من الجنة، ورأى أن

الأكل وإن كان فيه مفسدة فمصلحة الخلود أرجح، ولعله يتأتى له استدراك مفسدة

النهي أثناء ذلك إما باعتذار وإما بتوبة، وإما بغير ذلك. كما تجد هذا التأويل قائما في

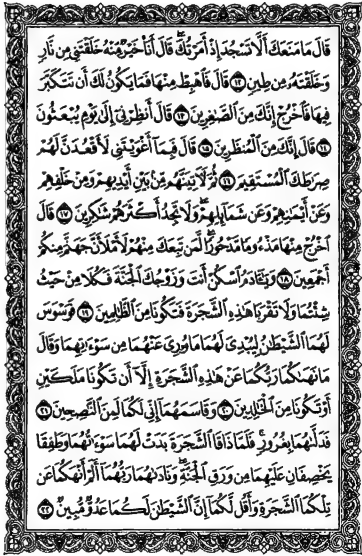
نفس كل من يؤمن بالله واليوم الآخر إيمانا لا شك فيه إذا أقدم على المعصية، فوازن

بين هذا التأويل وبين تأويلات المحرفين، يظهر لك الصواب من الخطأ، والله الموفق

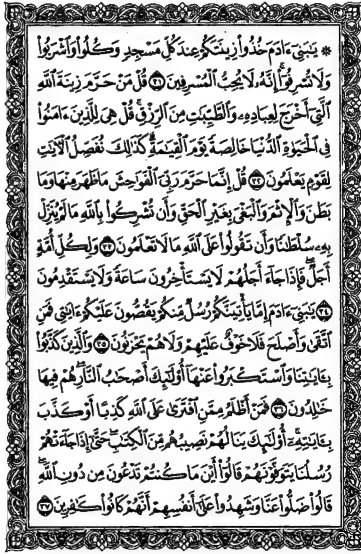
للسواب. (الصواعق المرسلة ١/ ٣٧٢ ٣٧٥).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ

لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٢٨﴾ .



٨- قوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ دليل على أنها في نفسها فحشاء، وأن الله لا يأمر بما يكون كذلك، وأنه يتعالى ويتقدس عنه، ولو كان كونه فاحشة إنما علم بالنهي خاصة كان بمنزلة أن يقال إن الله لا يأمر بما ينهى عنه، وهذا كلام يسان عنه



آحاد العقلاء فكيف بكلام رب العالمين؟! ثم أكد سبحانه هذا الإنكار بقوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ فأخبر أنه يتعالى عن الأمر بالفحشاء، بل أوامره كلها حسنة في العقول مقبولة في الفطر، فإنه أمر بالقسط لا بالجور، وبإقامة الوجوه له عند مساجده لا لغيره، وبدعوته وحده مخلصين له الدين لا بالشرك، فهذا هو الذي يأمر به تعالى لا بالفحشاء. (مفتاح دار

السعادة ٣٣٦-٣٣٧).

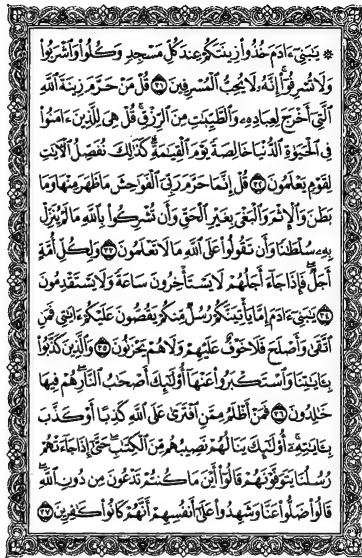
قوله تعالى: ﴿يَبْنِيْءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٣١).

٩- جمعت أصول أحكام الشريعة كلها: فجمع الأمر، والنهي، والإباحة، والخبر.

(بدائع الفوائد ٧/٤).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ (٣٢).

١٠- هذا دليل على أنها فواحش في نفسها لا تستحسنها العقول، فتعلق التحريم بها لفحشها، فإن ترتيب الحكم على الوصف المناسب المشتق يدل على أنه هو العلة



المقتضية له، وهذا دليل في جميع هذه الآيات التي ذكرناها، فدل على أنه حرمها لكونها فواحش، وحرم الخبيث لكونه خبيثا، وأمر بالمعروف لكونه معروفا، والعلة يجب أن تغاير المعلول، فلو كان كونه فاحشة هو معنى كونه منهيا عنه، وكونه خبيثا هو معنى كونه محرما، كانت العلة عين المعلول، وهذا محال فتأمل، وكذا تحريم الإثم والبغي دليل على أن هذا وصف ثابت له قبل التحريم. (مفتاح دار السعادة ٣٣٣).

ودخل في قوله تعالى تحريم كل فاحشة ظاهرة

وباطنة، وكل ظلم وعدوان في مال أو نفس أو عرض، وكل شرك بالله وإن دق في قول أو عمل أو إرادة بأن يجعل لله عدلا بغيره في اللفظ أو القصد أو الاعتقاد، وكل قول على الله لم يأت به نص عنه ولا عن رسوله في تحريم أو تحليل أو إيجاب أو إسقاط أو خبر عنه باسم أو صفة نفيا أو إثباتا أو خبرا عن فعله، فالقول عليه بلا علم حرام في أفعاله وصفاته ودينه. (إعلام الموقعين ١/ ٤١٣).

١١- وقوله: ﴿وَأَنْ تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلَّ بِهِ سُلْطَانًا﴾ متضمن تحريم أصل الظلم في حق الله، وذلك يستلزم إيجاب العدل في حقه وهو عبادته وحده لا شريك له. (مفتاح دار السعادة ٤٥٨).

١٢- فذكر سبحانه المحرمات الأربع مبتدئا بالأسهل منها، ثم ما هو أصعب منه، ثم كذلك، حتى ختمها بأعظمها وأشدّها، وهو القول عليه بلا علم، فكيف بالكذب عليه؟ قالوا: ولأن الكذب عليه بأنه قال كذا ولم يقله، نسبة للقول المكذوب إليه بأنه قاله، فالكاذب يعلم أن ما اختلقه كذب، فإذا نسبته إلى رسول الله، فقد نسب إليه الكذب.

(الكلام على مسألة السماع ٣٢٤-٣٥٢).

قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ فِي النَّارِ كَمَا خَلَتْ أُمَّةٌ لَمْ نَكُنْ لَكُمْ آيَةً إِذَا أَدَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرِجْنَاهُمْ لَأُقْتُلَهُمْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا إِسْخَارًا لَهُمْ إِنَّكَ بَاطِلٌ لَدَيْهِمْ عَذَابَ ضِعْفَيْنِ الْآيَةُ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَهُمْ لِأَخْرَجْنَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَآمَرُوا عِبَادَهُمْ أَنْ يُسَبِّحُوا لَهُمْ أَتُوبُ إِلَيْهِمْ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يُلَاقُوا فِي سَوَاءٍ لَوْ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ فِي جَهَنَّمَ مَا دَرَسُوا فِيهَا مِنْ شَيْءٍ غَوَوْنَ عَلَى كَذَلِكَ تَبْجِزِ الْقُلُوبِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَفِلْ نَفْسًا إِلًّا أَوْ سَمْعًا أَوْ بَصَرًا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَزَيْنًا مِمَّا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ شَيْءٍ يُجْزَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَسْبُ لِلَّهِ هَذَا الَّذِي هَدَىَٰنَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَعْتَدِي لَهُ أَنْ هَدَىَٰنَا اللَّهُ لَعَذَابِهِ أَجْدَدُ أَوْ يُسَلِّمُوا إِلَيْنَا اللَّهُ يُؤْتِي مَا يَؤْتِي الْوَدَّادَ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُتَوَفَّوهُمْ قَالُوا أَإِنَّا مَا كُنْتُمْ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آدَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرِجْنَاهُمْ لَأُقْتُلَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَجَاعِلْهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَهُمْ لِأَخْرَجْنَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾

١٣ - فليتدبر العاقل هذه الآيات وما اشتملت عليه من العبر.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ ذكر الصنفين المبطلين:

أحدهما: منشئ الباطل والفرية وواضعها وداعي الناس إليها.

والثاني: مكذب بالحق.

فالأول: كفره بالافتراء وإنشاء الباطل.

والثاني: كفره بجحود الحق.

وهذان النوعان يعرضان لكل مبطل. فإن انضاف إلى ذلك دعوته إلى باطله وصد

الناس عن الحق، استحق تضعيف العذاب لكفره وشره.

ولهذا قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ ﴿٨٨﴾ فلما كفروا وصدوا عباده عن سبيله عذبهم عذابين: عذابا بكفرهم، وعذابا بصددهم عن سبيله. وحيث يذكر الكفر المجرد لا يعدد العذاب، كقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٤٢﴾.

قَالَ أَبُو حَالٍ فِي أَمْرِ قَدَسَتْ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْجَنَّةِ وَالْإِيسَاءِ فِي النَّارِ كَيْسًا ذَكَرْتُ أَنَّهَا حَقٌّ إِذَا كَانَتْ فِيهَا حَيَاةٌ فَكَانَ أَحَدُهُمْ لَا يُلْهِمُ رَبَّنَا هَذَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ قَاتِلُهُ عَذَابًا يَضَعُهَا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَكُونُونَ ﴿٥٠﴾ وَقَالَ أُولَئِكَ لَا تُخْزِيهِمْ قَسَاكُنَا لَكُمْ عَلَيْكُمْ بَيْنَ فَضْلٍ فَذَرُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْسِيُونَ ﴿٥١﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا نُفَعِّجُ لَهُمْ قُلُوبَ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يُلَاحِظَ فِي سَبْعِ الْمَلَايِكَةِ نَجْرِي الْمَجْرِيْنَ ﴿٥٢﴾ لَهُمْ فِي جَهَنَّمَ رِيحٌ مَهْمَزَةٌ وَفِيهَا عَذَابٌ وَكَذَلِكَ نَجْرِي الظَّالِمِينَ ﴿٥٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥٤﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ فَخَيَّرْنَا مِنْ بَيْنِ أَلْفَيْهِمْ وَمَا أُولَئِكَ إِلَّا الْغَنَاءُ لِلَّذِي هَذَا هَذَا وَمَا كَانُوا يَحْكُمُونَ وَلَا أَنْ هَذَا اللَّهُ لَعَنَ جَاهِدَ رَسُولَ رَبِّهِ بِالْحَقِّ وَوَدَّ أَنْ يَكُونَ الْجَنَّةُ أَوْ يَشْتَرِيَهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

١٤- اعترض بين المبتدأ والخبر بقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ لما تضمنه ذلك من الاحتراز الدافع لتوهم متوهم أن الوعد إنما يستحقه من أتى بجميع الصالحات فرفع ذلك بقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وهذا أحسن من قول من قال إنه خبر عن الذين آمنوا، ثم أخبر عنهم بخبر آخر، فهما خبران عن مخبر واحد، فإن عدم التكليف فوق الوسع لا يخص الذين آمنوا، بل هو حكم شامل لجميع الخلق، مع ما

في هذا التقدير من إخلاء الخبر عن الرابط وتقدير صفة محذوفة أي نفسا منها وتعطيل هذه الفائدة الجليلة. (التيان في أقسام القرآن ٢٢١-٢٢٢).

قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾.

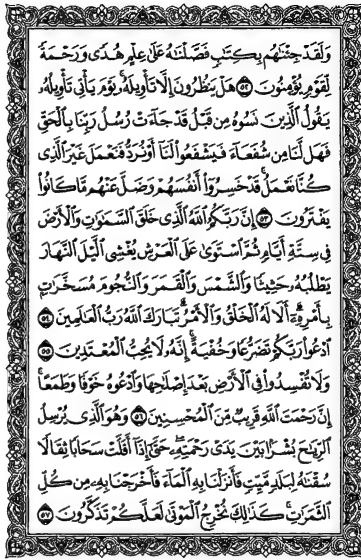
١٥- قال تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٧). هذا دليل على أنه بمكان مرتفع بين الجنة والنار، فإذا أشرفوا على أهل الجنة نادوهم بالسلام وطمعوا في الدخول إليها، وإذا أشرفوا على أهل النار سألوا الله ألا يجعلهم معهم.

قوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦).

وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكُتُبٍ فَخَلَّتْ عَنْهُمْ عِلْمُ هُدًى وَرَحْمَةٍ
لِقَوْمٍ يُفْقَهُونَ ﴿٥٥﴾ كُلُّ يَوْمٍ تَوَلَّى دَاعٍ إِلَى تَابِهَا فَوَلَّى تَابَهَا فَلَهُ
يُغْلِبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا لِرَبِّنَا وَالْحَقُّ
قَوْلُكَ إِنَّا لَمِنَ الْخَافِينَ ﴿٥٦﴾ فَتَضَرَّعُوا لَهُ أَوَّعًا مُّذْجِعًا لِّدَعْوَاهُمْ فَبَدَّلَ
كُتُبَهُمْ لَعْنًا فَجَنَحَ فَأَنَّهُمْ وَكَلَّاهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمُ الْبَازِينَ
فَتَضَرَّعُوا ﴿٥٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ فَاسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى إِلَيْهِ الْقُلُوبُ
يُظَلِّمُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْجِبِينَ ﴿٥٨﴾ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ
بِأَمْرِ رَبِّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥٩﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُفُسٍ نَّجِيَّةٍ
أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٦٠﴾
وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا
إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ
الرِّيحَ فتنفخ بها العاصِفَ يَذْفُقُ رَحْمَتَهُ فَخَلَّتْ إِذَا أَفَلَتْ سَحَابًا مِّثْلَ الْآ
سُفْنَةِ لِيَلْذُقَ مِنْهَا ذُوقًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ فَخَرَجَتْ مِنْهُ مِنْ كُلِّ
الشَّجَرَةِ كَذَلِكَ يُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعْنَةً تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾

١٦- هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء (دعاء العبادة، ودعاء المسألة)، فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة وهذا تارة، ويراد به مجموعهما وهما متلازمان، فإن دعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي وطلب كشف ما يضره أو دفعه، وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود حقا، والمعبود لا بد أن يكون مالكا للنفع والضرر، ولهذا أنكر الله تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك ضرا ولا نفعاً وذلك كثير في القرآن كقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ

مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٧١)، وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ (٦٦) أَفِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَنذِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٦١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَنكُمِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمُ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣)﴾، وقوله



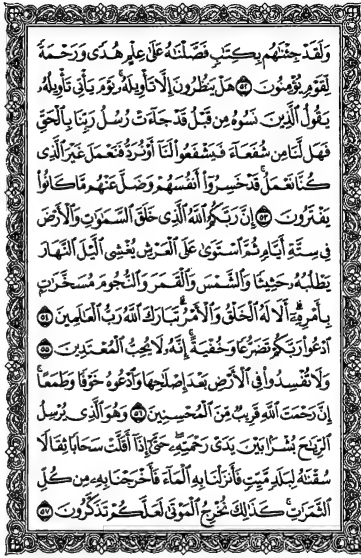
تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ۝٢٥﴾، وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۖ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ۝٥٥﴾ فنفي سبحانه عن هؤلاء المعبودين من دونه النفع والضرر القاصر والمتعدي فلا يملكونه لأنفسهم ولا لعابديهم. وهذا في القرآن كثير، بيد أن المعبود لا بد أن يكون مالكا للنفع والضرر فهو يدعى للنفع والضرر دعاء المسألة، ويدعى خوفا ورجاء دعاء العبادة، فعلم أن النوعين متلازمان، فكل

دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة، وعلى هذا فقولته تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ يتناول نوعي الدعاء، وبكل منهما فسرت الآية.

١٧- فقولته تعالى: ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۖ﴾ فإنه يتناول نوعي الدعاء، لكنه ظاهر في دعاء المسألة متضمن دعاء العبادة، ولهذا أمر بإخفائه وإسراره. قال الحسن: «بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفا، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۖ﴾ وأن الله تعالى ذكر عبدا صالحا ورضي بفعله فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ، نِدَاءً خَفِيًّا ۝٣﴾».

١٨- وفي إخفاء الدعاء فوائد عديدة:

أحدها: أنه أعظم إيمانا لأن صاحبه يعلم أن الله تعالى يسمع دعاءه الخفي وليس كالذي قال: إن الله يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا.



ثانيها: أنه أعظم في الأدب والتعظيم، ولهذا لا تخاطب الملوك ولا تسأل برفع الأصوات، وإنما تخفض عندهم الأصوات ويخف عندهم الكلام بمقدار ما يسمعون ومن رفع صوته لديهم مقتوه، والله المثل الأعلى، فإذا كان يسمع الدعاء الخفي فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به.

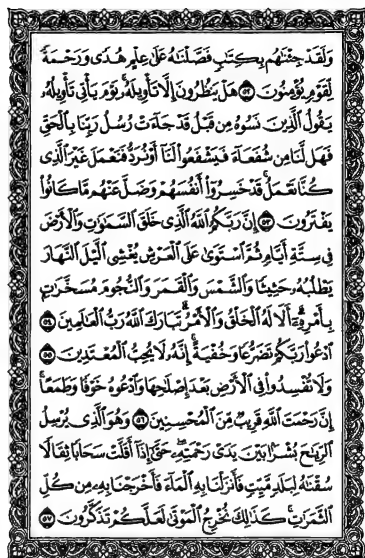
ثالثها: أنه أبلغ في التضرع والخشوع الذي هو روح الدعاء ولبه ومقصوده، فإن الخاشع الذليل الضارع إنما يسأل مسألة مسكين ذليل قد انكسر قلبه

وذلت جوارحه وخشع صوته، حتى إنه ليكاد تبلغ به ذلته ومسكنته وكسره وضراعتة إلى أن ينكسر لسانه فلا يطاوله بالنطق فقلبه سائل طالب مبتهل ولسانه لشدة ذله وضراعتة ومسكنته ساكت، وهذه الحالة لا يتأتى معها رفع الصوت بالدعاء أصلاً.

رابعها: أنه أبلغ في الإخلاص.

خامسها: أنه أبلغ في جمعه القلب على الله تعالى في الدعاء، فإن رفع الصوت يفرقه ويشتته، فكلما خفض صوته كان أبلغ في صمده وتجريد همته وقصده للمدعو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

سادسها: وهو من النكت السرية البديعة جداً: أنه دال على قرب صاحبه من الله، وأنه لا اقترابه منه وشدة حضوره يسأله مسألة أقرب شيء إليه، فيسأله مسألة مناجاة للقريب لا مسألة نداء البعيد للبعيد؛ ولهذا أثنى سبحانه على عبده زكريا بقوله: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ (٣) فكلما استحضر القلب قرب الله تعالى منه وإنه أقرب إليه من كل قريب وتصور ذلك أخفى دعاءه ما أمكنه ولم يتأت له رفع الصوت به بل يراه



غير مستحسن، كما أن من خاطب جليسا له يسمع خفي كلامه فبالغ في رفع الصوت استهجن ذلك منه، والله المثل الأعلى سبحانه.

والمقصود ها هنا الكلام على هذه الآية.

سابعها: أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال، فإن اللسان لا يمل والجوارح لا تتعب بخلاف ما إذا رفع صوته فإنه قد يكل لسانه وتضعف بعض قواه وهذا نظير من يقرأ ويكرر رافعا صوته، فإنه لا يطول له ذلك بخلاف من يخفض صوته.

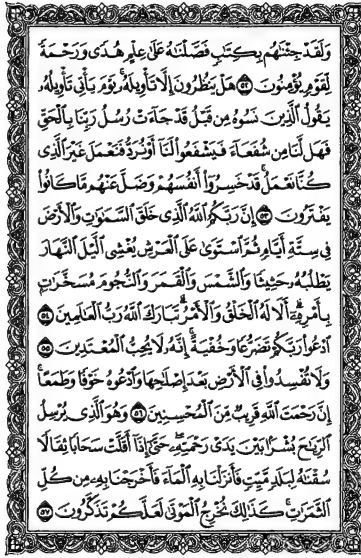
ثامنها: أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات والمضعفات، فإن الداعي إذا أخفى دعاءه لم يدر به أحد فلا يحصل هناك تشويش ولا غيره، وإذا جهر به تفتنت له الأرواح الشريرة والباطولية والخبیثة من الجن والأنس، فشوش عليه ولا بد ومانعته وعارضته، ولو لم يكن إلا أن تعلقها به يفرق عليه همته فيضعف أثر الدعاء لكفى، ومن له تجربة يعرف هذا، فإذا أسر الدعاء وأخفاه أمن هذه المفسدة.

تاسعها: إن أعظم النعم الإقبال على الله والتعبد له والانقطاع إليه والتبتل إليه، ولكل نعمة حاسد على قدرها دقت أو جلّت، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة فأنفس الحاسدين المنقطعين متعلقة بها، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد، وأن لا يقصد إظهارها له، وقد قال يعقوب ليوسف: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ وكَم من صاحب قلب وجمعية وحال مع الله قد تحدث بها وأخبر بها فسلبه إياها الأغيار، فأصبح يقلب كفيه ولهذا

[illegible]

١٩- وقوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ فيه الإشارة والإعلام بهذا القرب، وأما قرينة تَبَارَكَ وَتَعَالَى من محبه فنوع آخر وبناء آخر وشأن آخر، كما قد ذكرناه في كتاب التحف المكية على أن العبارة تنبو عنه ولا تحصل في القلب حقيقة معناه أبداً، لكن بحسب قوة المحبة وضعفها يكون تصديق العبد بهذا القرب، وإياك ثم إياك أن تعبر عنه بغير العبارة النبوية، أو يقع في قلبك غير معناها ومرادها، فتزل قدم بعد ثبوتها.

٢٠- وتأمل كيف قال في آية الذكر: ﴿وَأَذْكُرْكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ وفي آية الدعاء: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ فذكر التضرع فيهما معا وهو التذلل والتمسك



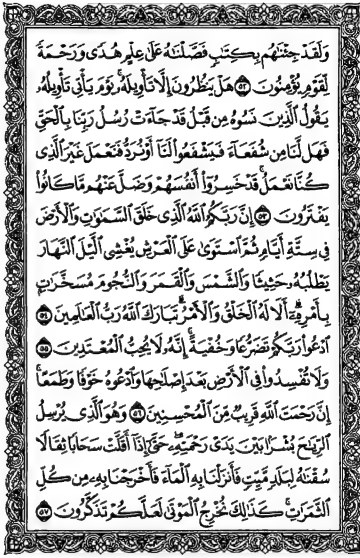
والانكسار وهو روح الذكر والدعاء وخص الدعاء الخفية لما ذكرنا من الحكم وغيرها، وخص الذكر بالخفية لحاجة الذاكر إلى الخوف، فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها ولا بد، فمن أكثر من ذكر الله تعالى أثمر له ذلك محبته، والمحبة ما لم تقرن بالخوف فإنها لا تنفع صاحبها بل قد تضره؛ لأنها توجب الإدلال والانبساط وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أنهم استغنوا بها عن الواجبات.

٢١- فتأمل أسرار القرآن الكريم وحكمته في

هذا الاقتران فإنه قال: ﴿وَأَذْكُرْكَ فِي نَفْسِكَ﴾ فلم يحتج بعدها أن يقول: (خفية) وقال في الدعاء: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ فلم يحتج أن يقول في الأول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ فانتظمت كل واحدة من الآيتين للخيفة والتضرع أحسن انتظام، ودلت على ذلك أكمل دلالة.

٢٢- وذكر الطمع الذي هو الرجاء في آية الدعاء؛ لأن الدعاء مبني عليه، فإن الداعي ما لم يطمع في سؤله ومطلوبه لم تتحرك نفسه لطلبه إذ طلب ما لا طمع فيه ممنوع.

٢٣- وذكر الخوف في آية الذكر لشدة حاجة الخائف إليه كما تقدم، فذكر في كل آية ما هو اللائق بها والأولى بها من الخوف والطمع، فتبارك من أنزل كلامه شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين.



٢٤- وعلى هذا فتكون الآية دالة على شيئين:

أحدهما محبوب للرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى مرض له وهو الدعاء تضرعا وخفية، الثاني: مكروه له مبغوض مسخوط وهو الاعتداء، فأمر بما يحبه الله وندب إليه، وحذر مما يبغضه وزجر عنه بما هو أبلغ طرق الزجر والتحذير، وهو أنه لا يحب فاعله، ومن لم يحبه الله فأى خير يناله؟!

٢٥- وفي قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾

عقب قوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ دليل

على أن من لم يدعه تضرعا وخفية فهو من المعتدين الذين لا يحبهم، فقسمت الآية الناس إلى قسمين: داع لله تضرعا وخفية، ومعتد بترك ذلك.

٢٦- وقوله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ إنما كرر الأمر بالدعاء لما ذكر

معه من الخوف والطمع، فأمر أولا بدعائه تضرعا وخفية، ثم أمر بأن يكون الدعاء أيضا خوفا وطمعا، وفصل بين الجملتين إحداهما خبرية ومتضمنة للنهي وهي قوله:

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾، والثانية طلبية وهي قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ

إِصْلَاحِهَا﴾، والجملتان مقررتان مقويتان للجملتين الأولى مؤكدتان لمضمونها. ثم

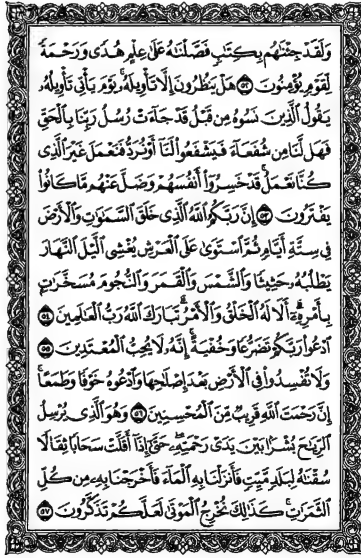
لما ثم تقريرها تقدم وبيان ما يضادها ويناقضها أمر بدعائه خوفا وطمعا، ثم قرر ذلك

وأكد مضمونة بجملته خبرية وهي ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فتعلق

هذه الجملة بقوله: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ كتعلق قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾

بقوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

٢٧- ولما كان قوله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ مشتملا على جميع مقامات الإيمان والإحسان وهي الحب والخوف والرجاء عقبها بقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي إنما ينال من دعاة خوفا وطمعا فهو المحسن والرحمة قريب منه لأن مدار الإحسان على هذه الأصول الثلاثة.



٢٨- ولما كان دعاء التضرع والخفية يقابله الاعتداء بعدم التضرع والخفية عقب ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يَجِبُ الْمُعْتَدِي﴾.

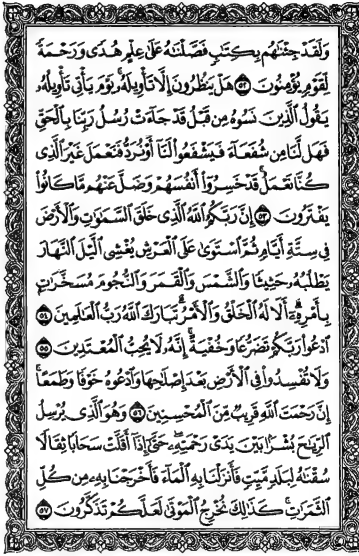
٢٩- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فيه تنبيه ظاهر على أن فعل هذا المأمور به هو الإحسان المطلوب منكم ومطلوبكم أنتم من الله هو رحمته ورحمته قريب من المحسنين الذين فعلوا ما أمروا به من دعائه خوفا وطمعا فاقرب مطلوبكم

منكم وهو الرحمة بحسب أدائكم لمطلوبه منكم وهو الإحسان الذي هو في الحقيقة إحسان إلى أنفسكم، فإن الله تعالى هو الغني الحميد وإن أحسستم أحسستم لأنفسكم.

٣٠- وقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ له دلالة بمنطوقه ودلالة بإيمائه وتعليله ودلالة بمفهومه فدلالته بمنطوقه على قرب الرحمة من أهل الإحسان ودلالته بتعليله وإيمائه على أن هذا القرب مستحق بالإحسان فهو السبب في قرب الرحمة منهم ودلالته بمفهومه على بعد الرحمة من غير المحسنين فهذه ثلاث دلالات لهذه الجملة.

وإنما اختص أهل الإحسان بقرب الرحمة منهم لأنها إحسان من الله أرحم الراحمين وإحسانه تعالى إنما يكون لأهل الإحسان لأن الجزاء من جنس العمل فكما

أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته وأما من لم يكن من أهل الإحسان، فإنه لما



بعد عن الإحسان بعدت عنه الرحمة بعدا بعيدا وقربا بقرب فمن تقرب بالإحسان تقرب الله إليه برحمته ومن تباعد عن الإحسان تباعد الله عنه برحمته والله سبحانه يحب المحسنين ويبغض من ليس من المحسنين ومن أحبه الله فرحمته أقرب شيء منه ومن أبغضه فرحمته أبعد شيء منه.

والإحسان ها هنا هو فعل المأمور به سواء كان إحسانا إلى الناس أو إلى نفسه فأعظم الإحسان الإيمان والتوحيد والإنابة إلى الله والإقبال عليه

والتوكل عليه وأن يعبد الله كأنه يراه إجلالا ومهابه وحياء ومحبة وخشية فهذا هو مقام الإحسان كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد سأله جبريل عن الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه» (رواه مسلم الترمذي والنسائي وغيرهم). وإذا كان هذا هو الإحسان فَرَحْمَةُ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ صَاحِبِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا يَرْحَمُ أَهْلَ تَوْحِيدِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ، وَإِنَّمَا كَتَبَ رَحْمَتَهُ ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ والذين يتبعون رسوله فهؤلاء هم أهل الرحمة كما أنهم هم المحسنون وكما أحسنوا جوزوا بالإحسان و﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ ﴿٦٠﴾ يعني هل جزاء من أحسن عبادة ربه إلا أن يحسن ربه إليه؟ قال ابن عباس: «هل جزاء من قال لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد إلا الجنة؟».

٣١- إن هذا من باب الاستغناء بأحد المذكورين عن الأخ لكونه تبعا له ومعنى

من معانيه، فإذا ذكر أغنى عن ذكره لأنه يفهم منه.

فعلى هذا يكون الأصل في الآية: إن الله قريب من المحسنين، وإن رحمة الله

٣٢- ففي حذف التاء ها هنا تنبيه على هذه الفائدة العظيمة الجليلة وأن الله تعالى قريب من المحسنين، وذلك يستلزم القرين قربه وقرب رحمته، ولو قال إن رحمة الله قريبة من المحسنين لم يدل على قربه تعالى منهم لأن قربه تعالى أخص من قرب رحمته والأعم لا يستلزم الأخص بخلاف قربه، فإنه لما كان أخص استلزم الأعم وهو قرب رحمته فلا تستهن بهذا المسلك، فإن له شأنًا وهو متضمن لسر بديع من أسرار الكتاب وما أظن صاحب هذا المسلك قصد هذا المعنى ولا ألم به وإنما أراد أن الإخبار عن قرب الله تعالى من المحسنين كاف عن الإخبار عن قرب رحمته منهم

وَأَن تَعْلَمَ أَنَّا إِذْ جَعَلْنَا خُلَافَةً مِن بَنِي عَادَ وَوَعَدْنَاكَ
فِي الْأَرْضِ فَتَجِدُونَ فِيهَا سُهْلًا لَّهَا أَفْئُورًا وَتَجِدُونَ
الْجِبَالَ مَبْدُورًا فَكَانَ رِزْقُ آلِ عَادَ الْقَوَّةَ وَلَا تَقْتَرِفُ
الْأَرْضُ مُقْسِدِينَ ﴿١٠﴾ قَالَ الْمَلَكُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن
قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَخَفُّوا مِنَّا لَمَّا بَرَأْنَا مِنهُمْ أَهْلَكُوا
أَن صَلَّيْنَا مَائِدَةً مِن رِّزْقِهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلُوا بِهِ
مُقْسِدُونَ ﴿١١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلُوا
بِهِ أَتَائِمٌ بِهِ كَعَمَلِكُمْ ﴿١٢﴾ فَتَقَرَّرَ الْقِتْلَةُ وَوَعَدْنَا
أَمِيرَهُمْ وَقَالَ أَتَصْلَحُ اسْتَبْنَا بِمَا عَمِلْنَا إِن كُنْتُمْ
مِنَ الْمُتَصَلِّينَ ﴿١٣﴾ فَخَذَ مِنْهُمْ الرِّقَّةَ فَصَلَّى بِهَا فِي دَارِهِ
جَبْرِيًّا ﴿١٤﴾ فَقَالَ عَنْهُمْ وَقَالَ يَتَكَبَّرُونَ لَعَلَّ إِلَهُكُمُ
رِسَالَتِي وَتَصَحُّتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُحْمِئُونَ لِلْصَّحِيحِ
وَلَوْ طَافَ الْأَعْلَامُ قَوْمَهُ أَتَأْنُوْنَ الرَّحْمَةَ مَا تَسْتَعْتِفُّ
بِهِمْ أَحَدٌ مِّنْ آلِهِمْ ﴿١٥﴾ أَلَمْ تَكُنْ تَأْتُونَ الرِّجَالَ
شَهْوَةً مِّنْ دُونِ الْبَسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٦﴾

٣٣- من تأمل قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ﴾

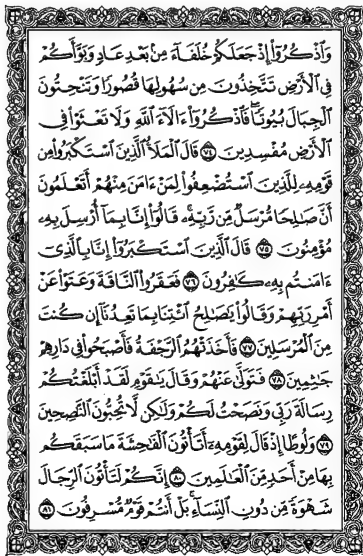
إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ [الإسراء: ٣٢]،

وقوله في اللواط: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٨٠]، تبين له تفاوت ما بينهما، وأنه سبحانه نكّر الفاحشة في الزنى، أي هو فاحشة من الفواحش، وعرفّها في اللواط، وذلك يفيد أنه جامع لمعاني اسم الفاحشة، كما تقول: زيد الرجل، ونعم الرجل زيد، أي أتأتون الخصلة التي استقر فحشها عند كل أحد، فهي لظهور فحشها وكمال غنية عن ذكرها، بحيث لا ينصرف الاسم إلى غيرها، وهذا نظير قول فرعون لموسى: ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ أَتَيْتَ فَعَلْتَ﴾ [الشعراء: ١٩].

أي الفعلة الشنعاء الظاهرة المعلومة لكل أحد. ثم أكد سبحانه شأن فحشها بأنها لم يعملها أحد من العالمين قبلهم، فقال: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾، ثم زاد في التأكيد بأن صرح بما تسمئ منه القلوب، وتنبو عنه الأسماع، وتنفّر منه الطباع أشد نفرة، وهو إتيان الرجل رجلا مثله ينكحه كما ينكح الأنثى.

٣٤- قال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ [الأعراف: ٨١].

ثم نبه على استغنائهم عن ذلك، وأن الحامل لهم عليه ليس إلا مجرد الشهوة لا الحاجة التي لأجلها مال الذكر إلى الأنثى، ومن قضاء الوطر ولذة الاستمتاع، وحصول المودة والرحمة التي تنسى المرأة لها أبويها، وتذكر بعلها، وحصول النسل الذي هو حفظ هذا النوع الذي هو أشرف المخلوقات، وتحصين المرأة وقضاء وطرها، وحصول علاقة المصاهرة التي هي أخت النسب، وقيام الرجال على النساء، وخروج أحب الخلق إلى الله من جماعهن كالأنبياء والأولياء والمؤمنين، ومكاثرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ



الأنبياء بأمته إلى غير ذلك من مصالح النكاح. (الداء والدواء ٢٥٨-٢٠٦).

قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ بِشَعِيبٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَوْمِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ ۝٨٨ قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنَّا عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَعْنَا اللَّهَ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۝٨٩﴾

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ بِشَعِيبٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَوْمِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ ۝٨٨ قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنَّا عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَعْنَا اللَّهَ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۝٨٩﴾

٣٥- [هذا ما قاله نبي الله شعيب لقومه]. وهذا

يبطل تأويل القدرية المشيئة في مثل ذلك بمعنى الأمر فقد علمت أنه من الممتنع على الله أن يأمر بالدخول

في ملة الكفر والشرك به، ولكن استثنوا بمشيئته التي يضل بها من يشاء ويهدي من يشاء، ثم قال شعيب ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فرد الأمر إلى مشيئته وعلمه، فإن له سبحانه في خلقه علم محيط، ومشيئته نافذة وراء ما يعلمه الخلائق، فامتناعنا من العود فيها هو مبلغ علومنا ومشيتنا، والله علم آخر ومشية أخرى وراء علومنا ومشيتنا، فلذلك رد الأمر إليه. (الفوائد ١٦١).

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ تَرَنِى وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِ فَلَمَّا بَلَغَ رُبُّهُ لِّلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ۝٩٠﴾

٣٦- بيان الدلالة من هذه الآية من وجوه عديدة:

أحدها: أنه لا يظن بكليم الرحمن ورسوله الكريم عليه أن يسأل ربه ما لا يجوز عليه، بل ما هو من أبطل الباطل وأعظم المحال وهو عند فروخ اليونان والصابئة

وَجُوزًا بَيْنَ إِسْرِهِ بِلِ الْبَحْرِ فَأَنَارَ عَلَى قَوْمٍ يَتَّبِعُونَ
عَلَى أَصْحَابِ لَهُمْ قَالُوا يَمُوتُ أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا
لَهُمْ إِلَهَةٌ قَالِ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَبْهَلُونَ ﴿٤٦﴾ إِنَّ هَذِهِ مَتَابِعُ
مَا هُمْ فِيهِ وَتَبِيلُ مَا كَانُوا يَتَّبِعُونَ ﴿٤٧﴾ قَالِ أَفَعَبَرْتُمْ
أَنِّي أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ الْكَافِرِينَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٨﴾ وَذَلِكَ لِيُعْزِزَ
فِي آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُوا كُفْرَهُمْ الْعَذَابِ أَفْسَؤُنَ
أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ فِي ذَلِكُمْ يَكْفُرُ
فِي رَبِّكَ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَوَعَدْنَا مُوسَى ذَلِيلًا لِّبَنِي
وَأَقَمْنَا لَهُمْ سَبْعَ مِيقَاتٍ رَزَيْنَا أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ
مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ
سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِهِ وَكَلَّمَ
رَبَّهُ قَالَ رَبِّ ارْنُؤْنِي آيَاتِكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي وَلَكِنْ
أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِي فَلَمَّا
تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا
أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾

والفرعونية بمنزلة أن يسأله أن يأكل ويشرب وينا
ونحو ذلك مما يتعالى الله عنه، فيا الله العجب كيف
صار أتباع الصابئة والمجوس والمشركين عباد
الأصنام وفروخ الجهمية والفرعونية أعلم بالله تعالى
من موسى بن عمران وبما يستحيل عليه ويجب له
واشد تنزيها له منه.

الوجه الثاني: إن الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى لم ينكر عليه
سؤاله ولو كان محالا لأنكره عليه ولهذا لما سال
إبراهيم الخليل ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن يريه كيف يحيي
الموتى لم ينكر عليه ولما سال عيسى ابن مريم ربه

إنزال المائدة من السماء لم ينكر عليه سؤاله ولما سال نوح ربه نجاة ابنه أنكر عليه
سؤاله وقال: ﴿إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْكَكَ مَا
لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾.

الوجه الثالث: أنه أجابه بقوله: ﴿لَنْ تَرَنِي﴾ ولم يقل: لا تراني، ولا إني لست
بمرئي، ولا تجوز رؤيتي. والفرق بين الجوابين ظاهر لمن تأمله، وهذا يدل على أنه
سُبحَانَهُ وَتَعَالَى يرى ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار لضعف قوة البشر فيها
عن رؤيته تعالى يوضحه.

الوجه الرابع: وهو قوله ﴿وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِي﴾
فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت لتجليه له في هذه الدار، فكيف بالبشر
الضعيف الذي خلق من ضعف؟!.

الوجه الخامس: إن الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى قادر على أن يجعل الجبل مستقرا مكانه
وليس هذا بممتنع في مقدوره بل هو ممكن وقد علق به الرؤية ولو كانت مجالا في ذاتها

لم يعلقها بالممكن في ذاته ولو كانت الرؤيا محالا لكان ذلك نظير أن يقول: إن استقر الجبل فسوف أكل واشرب وأنام فالأمران عندكم سواء.

وَيَحْذَرُ بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكَفَرَ قَالُوا عَلَى قَوْمٍ يَتَّبِعُونَ
عَنْ أَصْنَائِهِمْ قَالُوا يَنْصُرُنِي أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا
لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٢٢٩﴾ إِنَّ هَذِهِ مِنْ
تَأْمِنِهِمْ وَيَكِيلُ مَا كَانُوا يَتْلُونَ ﴿٢٣٠﴾ قَالَ أَتَقْتَرُونَ
أَنْبِيَاءُ إِلَهُكُمْ وَهُمْ قَدْ كَفَرُوا بِالْغَيْبِ ﴿٢٣١﴾ وَلَا تَحْزَنْ
فِي هَذَا الْفِرْعَوْنَ يَسْؤُمُونَكَ سُوءَ السَّعَادِ يَتْلُونَ
آيَاتِهِمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ فِي ذَلِكَ كَذَلِكَ
يُنْزِلُ رُوحَهُ عِظِيمًا ﴿٢٣٢﴾ وَوَعَدْنَا مُوسَى تَلْيِيسَ
وَأَتَيْنَاهُ بِأَسْمَاءٍ فَتَمِيزُكُمْ رُوحَهُ أَنْبِيَاءُ إِلَهُكُمْ
مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلَفَنِي فِي قَوْمِي وَأَسْلَخَ وَلَا تَنْفَعُ
سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٢٣٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ
رُوحُهُ قَالَ رَبِّ ارْزُقْ أَنْظِرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي وَلَكِنْ
أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانُهُ فَسَوْفَ تَرَنِي فَلَمَّا
تَجَلَّى رُوحُهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَوْمًا فَلَمَّا
أَنَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَإِنَّا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٣٤﴾

الوجه السادس: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿٢٣٤﴾ فَلَمَّا تَجَلَّى
رُوحُهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴿٢٣٤﴾ وهذا من أبين الأدلة
على جواز رؤيته تَبَارَكَ وَتَعَالَى فإنه إذا جاز أن يتجلى
للجبل الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب عليه
فكيف يمتنع أن يتجلى لأنبياؤه ورسله وأوليائه في دار
كرامتهم ويريههم نفسه فأعلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى موسى إن
الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار فالبشر أضعف.

الوجه السابع: أن ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد كلمه منه إليه وخاطبه وناجاه وناداه ومن
جاز عليه التكلم والتكليم وأن يسمع مخاطبه كلامه معه بغير واسطة، فرؤيته أولى
بالجواز ولهذا لا يتم إنكار الرؤية إلا بإنكار التكليم، وقد جمعت هذه الطوائف بين
إنكار الأمرين فأنكروا أن يكلم أحدا أو يراه أحد، ولهذا سأله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ النظر إليه
وأسمعه كلامه وعلم نبي الله جواز رؤيته من وقوع خطأ به وتكليمه لم يخبره باستحالة
ذلك عليه ولكن أراه أن ما سأله لا يقدر على احتماله كما لم يثبت الجبل لتجليه. وأما
قوله تعالى: ﴿لَنْ تَرَنِي﴾ فإنما يدل على النفي في المستقبل، ولا يدل على دوام النفي،
ولو قيدت بالتأيد فكيف إذا أطلقت قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ مع قوله تعالى:
﴿وَنَادَاوُا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ﴾. (حادي الأرواح ٢٢٩ - ٢٣٠).

قوله تعالى: ﴿وَأَتَّخِذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلَمَّ
بِرَوَاهُ أَنَّهُ لَا يَكْلِمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾.

٣٧- نبه بهذا الدليل على أن من لا يكلم ولا يهدي لا يصلح أن يكون آلهًا.

📖 قوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

وَأَمَّا هَذَا فَمَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ
إِنَّا هَذَا الْبَيْتُ قَالَ عَدَائِي أَصِيبْ بِهِ مِنْ أَمَلٍ وَتَمَنَّى
وَيَسْعَى كُلُّ مَنْ يَسْعَى فِيهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ
الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا الْخَائِفُونَ ﴿الَّذِينَ يَتَّقُونَ
الرَّسُولَ الَّذِي آتَاهُمُ الْكِتَابَ الَّذِي يَهْدِيهِمْ مَكْرَهُمْ بِأَعْيُنِهِمْ
فِي النَّزْدَةِ وَالْإِنْجِيلَ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ
الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ
عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا
النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿فَلْيَتْلُوهُ
قُلُوبُهُمْ الْقُرْآنَ فِي رُسُلِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ حَيْثُمَا الَّذِي
لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ
فَقَامُوا بِآيَاتِهِ وَرُسُلِهِ الَّتِي آتَاهُمُ الْكِتَابَ بِاللَّهِ
وَكَلَامِهِمْ وَأَتَى بِهِمْ لِمَا كُنْتُمْ تَعْتَدُونَ ﴿وَمَنْ
قَرَأَ مِنْهُ مِنْ خَفَاةٍ يُضَاعَفْ لَهُ أَثَرُ ذَلِكَ الْوَجْهِ يَظُنُّ
أَنَّهُ قَرَأَ وَلَهُ أَجْرٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَجْرٌ قَبْلَ ذَلِكَ وَلَنْ يَكُنَ

٣٨- هذا صريح في أن الحلال كان طيبا قبل حله، وأن الخبيث كان خبيثا قبل تحريره، ولم يستفد طيب هذا وخبيث هذا من نفس التحليل والتحرير.

فتأمل هذا الموضوع حق التأمل يطلعك على أسرار الشريعة ويشرفك على محاسنها وكمالها وبهجتها وجلالها، وأنه من الممتنع في حكمة أحكم الحاكمين أن ترد بخلاف ما وردت به، وأن الله تعالى يتنزه عن ذلك كما يتنزه عن سائر ما لا يليق به. (مفتاح

دار السعادة ٣٣٢-٣٣٣).

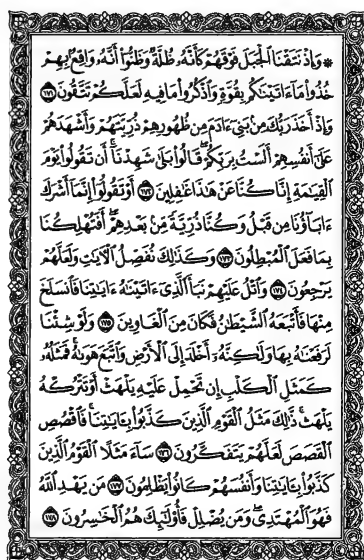
٣٩- وقوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ﴾ سمي الله التكليف الشاقة أغلالا في قوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ فشبها بالأغلال لشدتها وصعوبتها. قال الحسن: "هي الشدائد التي كانت في العبادة كقطع أثر البول وقتل النفس في التوبة وقطع الأعضاء الخاطئة وتتبع العروق من اللحم" وقال ابن قتيبة: "هي تحريم الله سبحانه عليهم كثيرا مما أطلقه لأمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجعلها أغلالا لأن التحريم يمنع كما يقبض الغل اليد. (شفاء العليل ٩٤-٩٥).

📖 قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾.

وأيضا فإنه قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. ولم يقل: «من آدم»، ثم قال: ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. ولم يقل: «من ظهره»، ثم قال: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، ولم يقل: «ذريته»، ثم قال: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. وهذا يقتضي إقرارهم بربوبيته إقرارا تقوم عليهم به الحجة.

قوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (١٧٦) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتَرَكَهٗ يَلْهَثَ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِءَايَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾

سخط الله على رضاه، ودنيه على آخرته، والمخلوق على الخالق، بالكلب الذي هو من أخبث الحيوانات، وأوضعها قدرا، وأخسها نفسا، وهمته لا تتعدى بطنه، وأشدّها شرها وحرصا، ومن حرصه أنه لا يمشي إلا وخطمه في الأرض يتشمم ويستروح





حرصاً وشرها، ولا يزال يشم دبره دون سائر أجزائه، وإذا رميت إليه بحجر رجع إليه ليعضه من فرط نهمته، وهو من أمهن الحيوانات، وأحملها للهوان، وأرضاهها بالدنيا، والجيف القدرة المروحة أحب إليه من اللحم الطري، والعذرة أحب إليه من الحلوى، وإذا ظفر بميتة تكفي مائة كلب لم يدع كلباً واحداً يتناول منها شيئاً إلا هز عليه وقهره لحرصه وبخله وشره.

٤٢- وفي تشبيهه من أثر الدنيا وعاجلها على الله

والدار الآخرة مع وفور علمه بالكلب في حال لهثه سر

بديع، وهو أن هذا الذي حاله ما ذكره الله من انسلاخه من آياته واتباعه هو ما كان لشدة لهفه على الدنيا لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخرة فهو شديد اللهف عليها، ولهفه نظير لهف الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه، واللهف واللهث شقيقان وأخوان في اللفظ والمعنى.

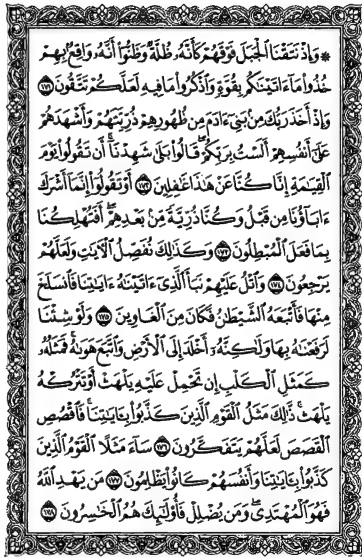
٤٣- وتأمل ما في هذا المثل من الحكم والمعاني: ﴿عَاتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٧٥]. فأخبر سبحانه أنه هو الذي آتاه آياته، فإنها نعمة، والله هو الذي أنعم بها عليه، فأضافها إلى نفسه، ثم قال: ﴿فَأَسْلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥]. أي خرج منها كما تنسلخ الحية من جلدها، وفارقها فراق الجلد يسلك عن اللحم.

٤٤- لم يقل: (فسلخناه منها)؛ لأنه هو الذي تسبب إلى انسلاخه منها باتباع هواه.

ومنها قوله سبحانه: ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: ١٧٥]. أي لحقه وأدركه كما قال في قوم فرعون: ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠]. وكان محفوظاً محروساً بآيات الله، محمي الجانب بها من الشيطان، لا ينال منه شيئاً إلا على غرة وخطفة، فلما انسلخ

من آيات الله ظفر به الشيطان ظفر الأسد بفرسته، فكان من الغاوين العاملين بخلاف عملهم، الذين يعرفون الحق ويعملون بخلافه، كعلماء السوء.

٤٥- ومنها أنه سبحانه قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ﴾



[الأعراف: ١٧٦]. فأخبر سبحانه أن الرفعة عنده ليست بمجرد العلم، فإن هذا كان من العلماء، وإنما هي باتباع الحق وإيثاره وقصد مرضاة الله.

فإن هذا كله من أعلم أهل زمانه، ولم يرفعه الله بعلمه ولم ينفعه به فتعوذ بالله من علم لا ينفع، وأخبر سبحانه أنه هو الذي يرفع عبده إذا شاء بما آتاه من العلم، وإن لم يرفعه الله فهو موضوع لا يرفع أحد به رأساً، فإن الخافض الرافع سبحانه خفضه ولم يرفعه،

والمعنى لو شئنا فضلناه وشرفناه ورفعنا قدره ومنزلته بالآيات التي آتيناها.

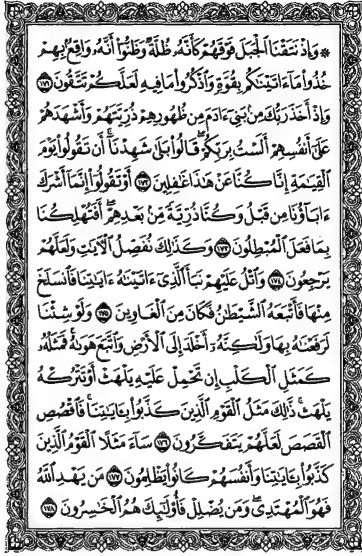
٤٦- فهذا مثل عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه. وتأمل ما تضمنته هذه الآية

من ذمه، وذلك من وجوه:

أحدها: أنه ضل بعد العلم واختار الكفر على الإيمان عمداً ولا جهلاً.

وثانيها: أنه فارق الإيمان مفارقة من لا يعود إليه أبداً، فإنه انسلخ من الآيات بالجملة كما تنسلخ الحية من قشرها، ولو بقي معه منها شيء لم ينسلخ منها.

وثالثها: أن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه، ولهذا قال ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ ولم يقل (تبعه)، فإن في معنى أتبعه أدركه ولحقه، وهو أبلغ من تبعه لفظاً ومعنى.



ورابعها: أنه غوي بعد الرشد والغي الضلال في العلم والقصد، وهو أخص بفساد القصد والعمل كما أن الضلال أخص بفساد العلم والاعتقاد، فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر وإن اقرنا فالفرق ما ذكر.

وخامسها: أنه سبحانه لم يشأ أن يرفعه بالعلم فكان سبب هلاكه؛ لأنه لم رفع به فصار وبالا عليه فلو لم يكن عالما كان خيرا له وأخف لعذابه.

وسادسها: أنه سبحانه أخبر عن خسة همته وأنه اختار الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى.

وسابعها: أن اختياره للأدنى لم يكن عن خاطر وحديث نفس، ولكنه كان عن إخلاد إلى الأرض وميل بكليته إلى ما هناك وأصل الإخلاد اللزوم على الدوام، كأنه قيل لزم الميل إلى الأرض، ومن هذا يقال: أخلد فلان بالمكان، إذا لزم الإقامة به.

قال مالك بن نويرة:

بأبناء حي من قبائل مالك وعمرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا

وعبر عن ميله إلى الدنيا بإخلاده إلى الأرض لأن الدنيا هي الأرض وما فيها وما يستخرج منها من الزينة والمتاع.

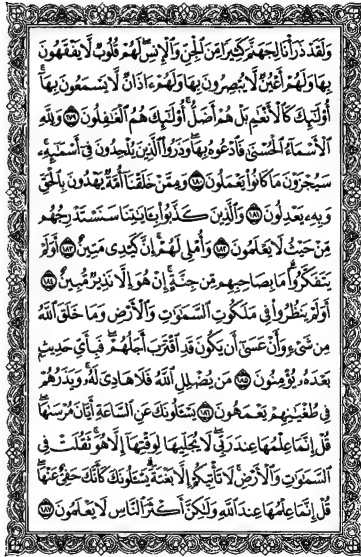
وثامنها: أنه رغب عن هداة واتبع هواه فجعل هواه إماما له يقتدي به ويتبعه.

وتاسعها: أنه شبهه بالكلب الذي هو أخس الحيوانات همة وأسقطها نفسا وأبخلها وأشدّها كلبا ولهذا سمي كلبا.

وعاشرها: أنه شبه لهثه على الدنيا وعدم صبره عنها وجزعه لفقدائها وحرصه على

تحصيلها بلهث الكلب في حالتي تركه والحمل عليه بالطرد، وهكذا هذا إن ترك فهو لهثان على الدنيا وإن وعظ وزجر فهو كذلك، فاللهث لا يفارقه في كل حال كلهث

الكلب. (الفوائد ١٠٠-١٠٢).



قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾.

٤٧- لما لم يحصل لهم الهدى المطلوب بهذه الحواس كانوا بمنزلة فاقيديها، قال تعالى: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ فالقلب يوصف بالبصر والعمى والسمع والصمم والنطق والبكم، بل هذه له أصلا وللعين والأذن واللسان تبعا، فإذا عدها القلب

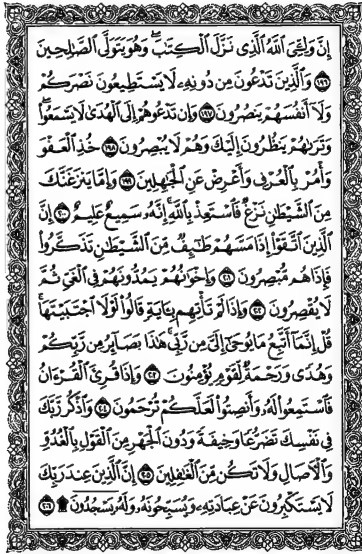
فصاحبه أعمى مفتوح العين أصم ولا آفة بأذنه أبكم وإن كان فصيح اللسان، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾. (مفتاح دار السعادة ١/ ١٠١).

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾.

٤٨- جعل علة السكون أنها منه، ولو كان علة الحب حسن الصورة الجسدية، لوجب أن لا يستحسن الأنقص من الصور، ونحن نجد كثيرا ممن يؤثر الأدنى ويعلم فضل غيره ولا يجد محيدا لقلبه عنه ولو كان للموافقة في الأخلاق لما أحب المرء من لا يساعده ولا يوافقه، فعلمنا أنه شيء في ذات النفس وربما كانت المحبة لسبب من الأسباب، فتفننى بفنائها. (روضة المحبين ٨٤).

٤٩- فجعل سبحانه عدم البطش والمشي والسمع والبصر دليلا على عدم إلهية من عدت فيه هذه الصفات، فالبطش والمشي من أنواع الأفعال، والسمع والبصر من أنواع

الصفات. (الصواعق المرسلة ٣/ ٩١٥).



قوله تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾

٥٠- في هذه الآية من حسن المعاشرة مع الخلق وأداء حق الله فيهم والسلامة من شرهم. فلو أخذ الناس كلهم بهذه الآية لكففتهم وشفتهم، فإن العفو ما عفى من أخلاقهم وسمحت به طبائعهم ووسعهم بذله من أموالهم وأخلاقهم.



سورة الأنفال

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾



فَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ
وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ
وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ
وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ
وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ
وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ
وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ
وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ
وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ
وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ

١- أخبر سبحانه أنه قطع عنهم مادة الاهتداء، وهو إسماع قلوبهم وإفهامها ما ينفعها، لعدم قبول المحل، فإنه لا خير فيه، فإن الرجل إنما ينقاد للحق بالخير الذي فيه، والميل إليه، والطلب له، ومحبته، والحرص عليه، والفرح بالظفر به، وهؤلاء ليس في قلوبهم شيء من ذلك، فوصل الهدى إليها ووقع عليها كما يصل الغيث النازل من السماء ويقع على الأرض الغليظة العالية، والتي لا تمسك ماء، ولا تنبت كلاً،

فلا هي قابلة للماء ولا للنبات، فالماء في نفسه رحمة وحياة، ولكن ليس فيها قبول له.

ثم أكد الله هذا المعنى في حقهم بقوله: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾

[الأنفال: ٢٣].

فأخبر أن فيهم مع عدم القبول والفهم آفة أخرى، وهي الكبر والإعراض، وفساد القصد، فلو فهموا لم ينقادوا، ولم يتبعوا الحق. ولم يعملوا به، فالهدى في حق هؤلاء هدى بيان وإقامة حجة، لا هدى توفيق وإرشاد، فلم يتصل الهدى في حقهم بالرحمة. وأما المؤمنون: فاتصل الهدى في حقهم بالرحمة، فصار القرآن لهم هدى ورحمة ولأولئك هدى بلا رحمة.

والرحمة المقارنة للهدى في حق المؤمنين عاجلة وآجلة.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٤).

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَكُمْ اللَّهُ مَغْفِرٌ غَفِيرٌ وَمَا رَيْبٌ إِذْ تَمُنَّتَ
وَلَكِنَّ اللَّهَ رَحِيمٌ وَلَيْسَ لِلنَّفْسِ مِنَ الْغُيُوبِ مِنْهُ سَلَاةٌ حَسَنَةٌ
إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ قَالُوا وَأَنْ لَّيْسَ اللَّهُ مُبْدِي
الْكَلْبِ وَالْخَيْلِ وَالْغَنَمِ وَالْأَنْعَامِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالْأَنْبِيَاءِ
تَنْتَهَوْنَ عَنْهُمْ وَخَيْرٌ أَعْيُنُهُمْ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالْأَنْبِيَاءُ
وَقَدْ كُنَّا شَهِيدًا وَلَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْغُيُوبِ
يَتَأْتِيهِمُ الْغُيُوبُ آمَنُوا بِالْغُيُوبِ وَالْغُيُوبُ وَالْغُيُوبُ
وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ وَإِنْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْغُيُوبِ
لَا تَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ إِنَّ سَعْيَ الْغُيُوبِ وَالْغُيُوبُ وَالْغُيُوبُ
الَّذِينَ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٧﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ
وَلَوْ اسْمَعَهُمْ لَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ لَكُنَّا نَسْمَعُ
آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ
وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَأَتَقُوا فِتْنَةَ الْأَنْفُسِ الَّذِينَ ظَلَمُوا
مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٩﴾

٢- الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ورسوله فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهرا وباطنا، فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان، ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول، فإن كان ما دعا إليه ففيه الحياة، فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول.

٣- وفي الآية سر آخر: وهو أنه جمع لهم بين الشرع والأمر به وهو الاستجابة وبين القدر والإيمان به، فهي كقوله: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾. (الفوائد ٨٧-٩٠، ١٣٠).

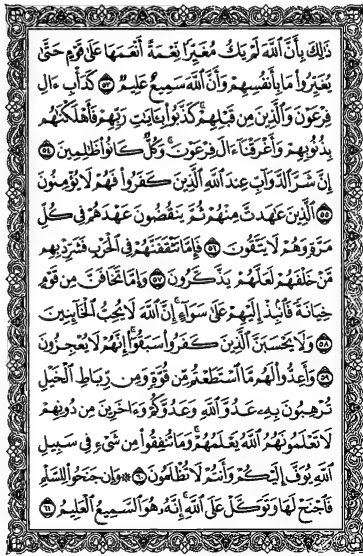
٤- وتأمل كيف أخبر عن حيلولته بين المرء وقلبه بعد أمره بالاستجابة له ولرسوله، كيف تجد في ضمن هذا الأمر والخبر أن من ترك الاستجابة له ولرسوله حال بينه وبين قلبه؛ عقوبة له على ترك الاستجابة، فإنه سبحانه يُعَاقِبُ الْقُلُوبَ بِإِذَاغَتِهَا عَنْ هَدَايَا ثَانِيًا، كما زاغت هي عنه أولاً. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾

وَأَنذَرْتَهُ إِذْ أَتَىٰ قَبْلَ مُسْتَمِدِّمِينَ ۖ وَفَرَّقَ
أَن يَشْهَدَ قَوْمًا عَلَيْهِمْ يُبْعِدُكَ وَرَوَّكَ
بَيْنَ يَدَيْهِمْ ۖ لَمَّا كُنْتُمْ تُكْرَهُونَ ۖ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تَخْوَفُوا اللَّهَ وَخَوْفُهُمْ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَلَتْ يَدًا أَنَّ اللَّهَ
وَأَعْلَمُ أَلَمَّا أَتَىٰ قَوْمَهُمْ ۖ وَأَلَيْسَ لَكُمْ فَتْنَةٌ يَوْمَ أَنَّ اللَّهَ
عِنْدَهُ أَخْبَرُ عَظِيمٌ ۖ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا
اللَّهُ يَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَانًا يُفَزِّقُ عَنْكُمْ رِجَالَكُمْ
وَيَغْنَمُ أَكْثَرُ ۖ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۖ وَأَنذَرْتُكُمْ
الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُغْنِيَنَّ عَنْهُمْ بَنُوهُمْ وَيَمْحُكُمُ
وَيَسْخَرُوا لَهُمْ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَسْخَرِينَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا نَفْسَكُمْ
بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۖ وَأَنذَرْتُكُمْ لَمَّا تَمِشُ فِي الْأَرْضِ
أَلَّا تَسْبِقُوا فِي الْأَرْضِ ۖ وَاللَّهُ قَائِلُ أَلْحَمَّ إِنَّ كَانَ هَذَا
هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ فَلْيُظْهِرْ عَلَيْنَا بَاجِرَاتِ الْمَسْكَنَةِ
أَوْ لِنُؤَيِّدَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنَّهُ
يَهْدِيهِمْ ۖ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنَّهُ يَسْتَغْفِرُ لَهُمْ ۖ

٨- أما اللام فهي لام التعليل على بابها، فإنها مذكورة في بيان حكمته في جمع أوليائه وأعدائه على غير ميعاد ونصرة أوليائه مع قتلهم ورققتهم وضعف عددهم وعدتهم على أصحاب الشوكة والعدد والحد والحديد الذي لا يتوهم بشر أنهم ينصرون عليهم،

فكانت تلك آية من أعظم آيات الرب سبحانه صدق بها رسوله وكتابه ليهلك بعدها من اختار لنفسه الكفر والعناد عن بينة، فلا يكون له على الله حجة، ويحيي من حي بالإيمان بالله ورسوله عن بينة فلا يبقى عنده شك ولا ريب، وهذا من أعظم الحكم. (شفاء العليل ١٩٣).

📖 قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعَيَّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.



٩- وإشارتها أنه إذا عاقب قومًا وابتلاهم، لم يغير ما بهم من العقوبة والبلاء، حتى يغيروا ما بأنفسهم من المعصية إلى الطاعة، كما قال العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما نزل بلاءٌ إلا بذنب، ولا رُفِعَ إلا بتوبة». ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة». فإذا منع الكلب والصورة دخول الملك إلى البيت، فكيف تدخل معرفة الرب ومحبته في قلب ممتلئ بكلاب الشهوات وصورها؟ (الكلام على مسألة السماع ٣٩٧-٣٩٨).

فأخبر الله تعالى أنه لا يغير نعمه التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذي يغير ما بنفسه، فيغير طاعة الله بمعصيته، وشكره بكفره، وأسباب رضاه بأسباب سخطه، فإذا غيّر غيرَ عليه، جزاء وفاقا، وما ربك بظلام للعبيد؛ فإن غيرَ المعصية بالطاعة، غيرَ الله عليه العقوبة بالعافية، والذل بالعز. (الجواب الكافي ١٠٥).



سورة التوبة

قوله تعالى: ﴿ قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَبْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۖ وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۚ وَتَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٥ ﴾

١- الغيظ يؤلم القلب، ودواؤه في شفاء غيظه، فإن شفاه بحق اشتفى، وإن شفاه بظلم وباطل زاده مرضا من حيث ظن أنه يشفيه، وهو كمن شفى مرض العشق بالفجور بالمعشوق، فإن ذلك يزيد مرضه، ويوجب له أمراضا آخر أصعب من مرض العشق. (إغاثة اللهفان ١/١٩).

قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَبْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۖ وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۚ وَتَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٥
أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٦ مَا كَانَ لِلشُّرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ يَشْكُرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الْآخِرَةِ كَالَّذِينَ ۝١٧ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مِنْ ءَامِنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُتَّقِينَ ۝١٨ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝١٩ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ۝٢٠

قوله تعالى: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝١٩ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ۝٢٠ ﴾

٢- نفى التسوية بين المجاهدين وعمّار المسجد

الحرام مع أنواع العبادة مع ثنائه على عمّاره بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُتَّقِينَ ۝١٨ ﴾ [التوبة: ١٨]. فهؤلاء هم عمّار المساجد، ومع هذا فأهل الجهاد أرفع درجة عند الله منهم. (طريق الهجرتين ٣٣٢-٣٣٣).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٤).

يَبْتَغِي هَذَا لَهُمْ بِرَحْمَةِ رَبِّهِ وَتَحْتِ لَهَا فِيهَا قِيمَةٌ مُبْتَدِئَةً ۖ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَخْرَىٰ عَظِيمَةٌ ۖ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْتَحْذِرُونَ فِيهَا كُفْرًا وَلَا خَوْفًا وَلَا يَحْزَنُونَ ۖ إِنْ أَسْتَحْذَرُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَمَنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَالِقُونَ ۖ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۖ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كُرُوكُكُمْ فَلَمْ تَكُنْ مِنْكُمْ شَيْئًا وَنَصَافَتُ عَلَىٰ كُفْرٍ الْأَرْضِ بِمَا رَحِمَتْكُمُ الْوَيْلُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ حُبُورًا لَّنَزَلَ رُوحًا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۖ

٣- أما تقديمهم [أي الآباء والأبناء على الأموال] فلحكمة باهرة: وهي أن براءة متضمنة لو عيد من كانت تلك الأشياء المذكورة فيها، أحب إليه من الجهاد في سبيل الله، ومعلوم أن تصور المجاهد فراق أهله وأولاده وآبائه وإخوانه وعشيرته تمنعه من الخروج عنهم أكثر مما يمنعهم مفارقتهم ماله، فإن تصور مع هذا أن يقتل فيفارقهم فراق الدهر، نفرت نفسه عن هذه أكثر وأكثر، ولا يكاد عند هذا التصور يخطر له

مفارقة ماله، بل يغيب بمفارقة الأحباب عن مفارقة المال، فكان تقديم هذا الجنس أولى من تقديم المال.

وتأمل هذا الترتيب البديع في تقديم ما قدم وتأخير ما أخر، يطلعك على عظمة هذا الكلام وجلالته، فبدأ أولاً بذكر أصول العبد وهم آباؤه المتقدمون طبعاً وشرفاً ورتبة، وكان فخر القوم بآبائهم ومحاماتهم عنهم أكثر من محاماتهم عن أنفسهم وأموالهم، وحتى عن أبنائهم، ولهذا حملتهم محاماتهم عن آبائهم ومنازلتهم عنهم إلى أن احتملوا القتل وسبي الذرية ولا يشهدون على آبائهم بالكفر والنقيصة ويرغبون عن دينهم لما في ذلك من إزرائهم بهم، ثم ذكر الفروع وهم الأبناء لأنهم يتلونهم في الرتبة وهم أقرب أقاربهم إليهم وأعلق بقلوبهم وألصق بأكبادهم من الإخوان والعشيرة، ثم

ذكر الأخوان وهم الكلالة وحواشي النسب.

٤- فذكر الأصول أولا، ثم الفروع ثانيا، ثم النظراء ثالثا، ثم الأزواج رابعا، لأن

الزوجة أجنبية عنده ويمكن أن يتعوض عنها بغيرها، وهي إنما تراد للشهوة، وأما الأقارب من الآباء والأبناء والإخوان فلا عوض عنهم ويرادون للنصرة والدفاع، وذلك مقدم على مجرد الشهوة.

٥- ثم ذكر القرابة البعيدة خامسا، وهي العشيرة وبنو العم، فإن عشائرتهم كانوا بني عمهم غالبا وإن كانوا أجانِب فأولى بالتأخير.

٦- ثم انتقل إلى ذكر الأموال بعد الأقارب

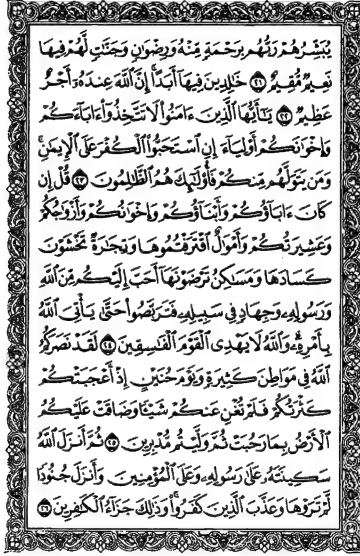
سادسا، ووصفها بكونها مقترفة أي مكتسبة لأن

القلوب إلى ما اكتسبته من المال أميل وله أحب وبقدرة أعرف لما حصل له فيه من التعب والمشقة، بخلاف مال جاء عفوا بلا كسب من ميراث أو هبة أو وصية، فإن حفظه للأول ومراعاته له وحرصه على بقائه أعظم من الثاني والحس شاهد بهذا وحسبك به.

٧- ثم ذكر التجارة سابعا لأن محبة العبد للمال أعظم من محبته للتجارة التي يحصله بها فالتجارة عنده وسيلة إلى المال المقترف، فقدم المال على التجارة تقديم الغايات على وسائلها، ثم وصف التجارة بكونها مما يخشى كسادها، وهذا يدل على شرفها وخطرها وأنه قد بلغ قدرها إلى أنها مخوفة الكساد.

٨- ثم ذكر الأوطان ثامنا آخر المراتب؛ لأن تعلق القلب بها دون تعلقه بسائر ما

تقدم، فإن الأوطان تتشابه، وقد يقوم الوطن الثاني مقام الأول من كل وجه ويكون خيرا



منه فمنها عوض، وأما الآباء والأبناء والأقارب والعشائر فلا يتعوض منهما غيرها، فالقلب وإن كان يحن إلى وطنه الأول فحنينه إلى آبائه وأبنائه وزوجاته أعظم، فمحببة الوطن آخر المراتب.

٩- وهذا هو الواقع إلا لعارض يترجح عنده إثارة البعيد على القريب، فذلك جزئي لا كلي فلا تناقض به، وأما عند عدم العوارض فهذا هو الترتيب المناسب والواقع. (بدائع الفوائد ١/ ٧٥-٧٦).

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا﴾.

إِنَّمَا النَّجِيُّ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُصَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُجَاهِلُونَ عِلْمًا وَيُحْزِنُونَ عِلْمًا بِإِطْلَاقِ عِدَّةٍ مَا حَزَنَ اللَّهُ فَيَجْلُوا مَا حَزَنَ اللَّهُ فَيُوتَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَأَلَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفَأَنْفِرُوا إِلَى الْأَرْضِ أَنْضِبُوا بِأَلْحَبِ الرَّبِّ الْأُتْبَارِ الْأَخِيرَةِ فَمَا مَنَعَ الْحَبِيزَةَ الْأُتْبَارِ فِي الْأَخِيرَةِ إِلَّا قِيلَ ﴿إِلَّا أَنْفِرُوا لَعَلَّكُمْ تُعَذِّبُونَ﴾ عَذَابًا إِلَى مَا نَبَتْهُ لِقَوْمٍ يَعْتَبِرُونَ ﴿١١﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴿١٢﴾ لَا تَصْبِرُوا فَقَدْ فَصَّرَ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَلَاثِينَ إِذْ هَمَّ فِي الْقَارِ أَنْ يَقُولَ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُيُوشِهِ لَزَمَهُ وَجَاهُ وَجَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ﴿١٣﴾ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٤﴾

١٠- فمن أصح الإشارات إشارة هذه الآية، وهي أن من صحب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما جاء به بقلبه وعمله وإن لم يصحبه ببذنه، فإن الله معه.

١١- فلما تركوا الإيمان به وبلقائه وارتابوا بما لا ريب فيه ولم يريدوا الخروج في طاعة الله ولم يستعدوا له ولا أخذوا أهبة ذلك، كره سبحانه انبعاث من هذا شأنه، فإن من لم يرفع به وبرسوله أو كتابه رأساً ولم يقبل هديته التي أهداها إليه على يد أحب خلقه إليه وأكرمهم عليه ولم يعرف قدر هذه النعمة

ولا شكرها بل بدلها كفراً، فإن طاعة هذا وخروجه مع رسوله يكرهه الله سبحانه فثبطه لئلا يقع ما يكره من خروجه وأوحى إلى قلبه قدراً وكوناً أن يقعد مع القاعدين. (شفاء العليل ١٠١-١٠٣).

١٢- قول الله تعالى ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]. أي قابلون مستجيبون

لهم، فإذا كان جيل القرآن كان بينهم منافقون وفيهم سماعون لهم، فما الظن بمن بعدهم فلا يزال المنافقون في الأرض ولا يزال في المؤمنين سماعون لهم لجهلهم بحقيقة أمرهم وعدم معرفتهم بغور كلامهم. (الصواعق المرسلة ٤/ ١٤٠٤-١٤٠٥).

١٣- فإن قيل: انبعاثهم إلى طاعته طاعة له فكيف يكرها؟ وإذا كان سبحانه يكرها فهو يحب ضدها لا محالة إذ كراهة أحد الضدين تستلزم محبة الضد الآخر فيكون قعودهم محبوبا له فكيف يعاقبهم عليه؟

قيل: هذا سؤال له شأن، وهو من أكبر الأسئلة في هذا الباب.

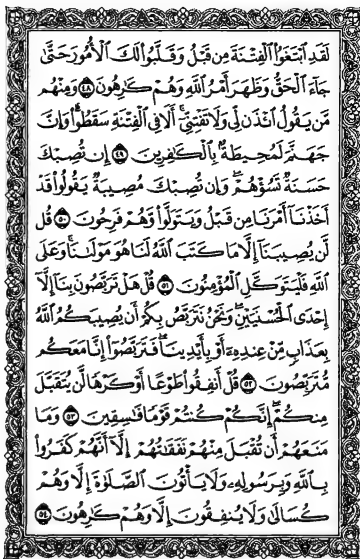
فالجواب الصحيح أنه سبحانه أمرهم بالخروج طاعة له ولأمره واتباعا لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونصرة له وللمؤمنين، وأحب لك منهم ورضيه لهم دينا، وعلم سبحانه أن خروجهم لو خرجوا لم يقع على هذا الوجه، بل يكون خروجهم خروج خذلان لرسوله وللمؤمنين، فكان خروجا يتضمن خلاف ما يحبه ويرضاه ويستلزم وقوع ما يكرهه ويبغضه فكان مكروها له من هذا الوجه ومحبوبا له من الوجه الذي خرج عليه أولياؤه وهو يعلم أنه لا يقع منهم إلا على الوجه

المكروه إليه، فكرهه وعاقبهم على ترك الخروج الذي يحبه ويرضاه لا على ترك الخروج الذي يبغضه ويسخطه، وعلى هذا فليس الخروج الذي كرهه منهم طاعة حتى لو فعلوه لم يثبهم عليه ولم يرضه منهم.

(شفاء العليل ١٠١-١٠٣).

قوله تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾.

١٤- قال قتادة: «ما سقط فيه من الفتنة بتخلفه



عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله سلم والرغبة بنفسه عنه أعظم.

فالفتنة التي فر منها - بزعمه - هي فتنة محبة النساء، وعدم صبره عنهن، والفتنة التي وقع فيها هي فتنة الشرك والكفر في الدنيا، والعذاب في الآخرة. (إغاثة اللهفان ٢/ ١٥٨-١٥٩).

📖 قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾.

١٥ - مما يدل على أن توبة الزنديق بعد القدرة لا تعصم دمه. قال السلف في هذه

الآية: ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ بالقتل إن أظهرتم ما في قلوبكم، وهو كما قالوا؛ لأن العذاب على ما يبطنونه من الكفر بأيدي المؤمنين لا يكون إلا بالقتل؛ فلو قبلت توبتهم بعد ما ظهرت زندقته لم يمكن المؤمنين أن يتربصوا بالزنادقة أن يصيبهم الله بأيديهم؛ لأنهم كلما أرادوا أن يعذبوهم على ذلك أظهروا الإسلام فلم يصابوا بأيديهم قط، والأدلة على ذلك كثيرة جداً، وعند هذا فأصحاب هذا القول يقولون: نحن أسعد بالتنزيل والسنة من مخالفينا في هذه المسألة المشنعين علينا بخلافها، وبالله التوفيق. (إعلام الموقعين ٣/ ١٧٥-١٧٦).

📖 قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

١٦ - الصواب - والله أعلم - أن يقال: تعذيبهم بها هو الأمر المشاهد من تعذيب طلاب الدنيا ومحبيها ومؤثريها على الآخرة، بالحرص على تحصيلها، والتعب العظيم

في جمعها ومقاساة أنواع المشاق في ذلك، فلا تجد أتعب ممن الدنيا أكبر همه، وهو حريص بجهد على تحصيلها. والعذاب هنا هو الألم والمشقة والتعب، كقوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ»، وقوله: «إِنَّ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ». أي: يتألم ويتوجع، لأنه يعاقب بأعمالهم. وهكذا من كانت الدنيا كل همه أو أكبر همه كما قال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ. وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ». (إغاثة اللهفان ١/ ٣٥-٣٦).

فَلَا تَجْعَلْكَ أَمْرُكَ وَلَا أَوْلَاكَ مُتَأَثِّرًا بِدُخَانِ اللَّهِ لِيُعَذِّبَهُمْ
بِهَآءِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أُنْفُسُهُمْ وَتُغْنِي عَنْهُمْ
وَيَحْلِلُونَ بِأَلْفِهِمْ لِيَسْتَعْمُوا مَا هُمْ بِمَعْلُومِينَ وَلَكِنَّهُمْ
قَدْ تَغَيَّرُوا قُلُوبُهُمْ قُلُوبُهُمْ تَحْتَوِي مَلَكًا أَوْ مَلَكَيْنِ أَوْ مَلَكَةً
تُؤْتِي أَلْفَهُمْ وَتُغْنِي عَنْهُمْ بِحَسْبِ مَا هُمْ بِمَعْلُومِينَ
الْقَدَرِ فَإِنْ أَغْطَوْا مِنْهَا أَرْضًا وَإِنْ لَمْ يَغْطُوا مِنْهَا إِلَّا
هَمْ تَحْتَطُّونَ وَقَدْ أَتَاهُمْ رُؤُوسُ أَمَةِ اللَّهِ وَرَسُولُهُ
وَقَالُوا احْسَبْنَا اللَّهَ سَيِّئًا فَدَنَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ
إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ إِنَّمَا الصَّادِقُ الْفَقِيرُ وَالْمُسْكِينُ
وَالْعَمِيلُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهَا وَالْمَوْلَى قُلُوبُهُمْ فِي الرِّقَابِ
وَالْقَدِيرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ لِيَرْضَى
عَنِ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ وَمَنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ
الَّذِينَ وَيَقُولُونَ هُوَ أَذُنٌ قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ تَقْوِي
بِاللَّهِ وَتَقْوِي لِلْمُؤْمِنِينَ وَتَخْشَى لِلَّذِينَ آمَنُوا
مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

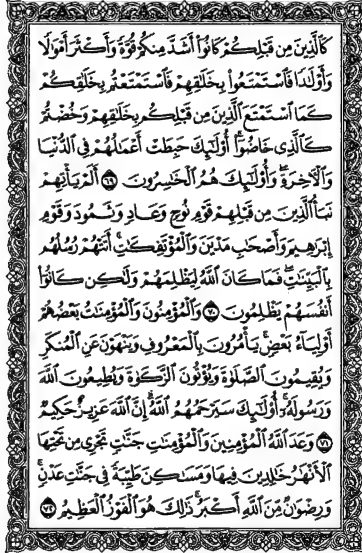
قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أَذُنٌ﴾. الآيات إلى قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾.

١٧- ذكر سبحانه هذه الآية عقب قوله: ﴿وَمِنْهُمْ

الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أَذُنٌ﴾ [التوبة: ٦١].
فجعلهم مؤذنين له بقولهم: ﴿هُوَ أَذُنٌ﴾، ثم قال:
﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة: ٦٣].

فجعلهم بهذا محادين، ومعلوم قطعاً أن من أظهر مسبة الله ورسوله والطعن في دينه أعظم محادة له ولرسوله، وإذا ثبت أنه محاد فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: ٢٠].

وكانوا يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون، فهذا يشبه المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ويعملون بخلافه، وهذا يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم.



٢٠- فقله تعالى: ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٩]. إشارة إلى اتباع الشهوات وهو داء العصاة وقوله: ﴿وَحُضِّمْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: ٦٩]. إشارة إلى الشبهات، وهو داء المتبدعة وأهل الأهواء والخصومات، وكثيرا ما يجتمعان فقل من تجده فاسد الاعتقاد إلا وفساد اعتقاده يظهر في عمله.

٢١- فتأمل صحة هذا القياس وإفادته لمن علق عليه من الحكم، وأن الأصل والفرع قد تساويا في المعنى الذي علق به العقاب، وأكدته كما تقدم بضرب من الأولى، وهو شدة القوة وكثرة الأموال والأولاد، فإذا لم يتعذر على الله عقاب الأقوى منهم بذنبه فكيف يتعذر عليه عقاب من هو دونه؟ (إعلام الموقعين ١/ ١٨٢-١٨٥).

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنْ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

٢٢- كيف جاء بالرضوان مبتدأ منكرا مخبرا عنه بأنه أكبر من كل ما وعدوا به فأيسر شيء من رضوانه أكبر الجنات وما فيها من المساكن الطيبة وما حوته ولهذا لما يتجلى لأوليائه في جنات عدن ويمنيهم أي شيء يريدون، فيقولون: ربنا وأي شيء نريد أفضل مما أعطيتنا؟ فيقول تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «إن لكم عندي أفضل من ذلك أحل عليكم

رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا». (بدائع الفوائد ٢/ ١٦٦-١٦٧).

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهَادَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوِيَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَبْسُ الْمَصِيرُ﴾ (٧٣).

يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهَادَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ
وَمَأْوِيَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَبْسُ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ مَا قَالُوا
وَلَقَدْ قَالُوا كَلْبَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بِهَذَا نِكْوَاهِ رَسُولِهِ
يَسْمَعُونَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَفْقَهُونَ أَنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
مِنَ الضَّالِّينَ فَإِنْ يَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ حِرًّا لَّهُمْ وَانْ يَتُوبُوا يُعَذِّبُهُمُ
اللَّهُ عَذَابَ الْعِسَافِ الَّذِينَ سَافَوا لَأَخْرُجَهُمُ مِنَ الْأَرْضِ
مِنْ دُونِهَا وَلَهُمْ فِيهَا مَصِيرٌ ﴿٧٤﴾ وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ
يَقَاتِلَهُمْ فَغَدَوْا لَهُمْ فَفُتُوا مِنْ عَهْدِهِمْ جَمْعًا
﴿٧٥﴾ فَغَدَا لَهُمْ فِيهَا قِافَا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ
يَسْمَعُونَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَفْقَهُونَ أَنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
مِنَ الضَّالِّينَ فَإِنْ يَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ حِرًّا لَّهُمْ وَانْ يَتُوبُوا يُعَذِّبُهُمُ
اللَّهُ عَذَابَ الْعِسَافِ الَّذِينَ سَافَوا لَأَخْرُجَهُمُ مِنَ الْأَرْضِ
مِنْ دُونِهَا وَلَهُمْ فِيهَا مَصِيرٌ ﴿٧٤﴾ وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ
يَقَاتِلَهُمْ فَغَدَوْا لَهُمْ فَفُتُوا مِنْ عَهْدِهِمْ جَمْعًا
﴿٧٥﴾ فَغَدَا لَهُمْ فِيهَا قِافَا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ

٢٣- فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار، وهو جهاد خواص الأمة وورثة الرسل، والقائمون به أفراد في العالم، والمشاركون فيه والمعاونون عليه وإن كانوا هم الأقلين عددا فهم الأعظمون عند الله قدرا.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ يَقَاتِلَهُمْ فَغَدَوْا لَهُمْ فَفُتُوا مِنْ عَهْدِهِمْ جَمْعًا﴾ (٧٥).

٢٤- فوعد العبد ربه نذر يجب عليه أن يفي له

به؛ فإنه جعله جزاء وشكرا له على نعمته عليه، فجرى مجرى عقود المعاوضات لا عقود التبرعات، وهو أولى باللزوم من أن يقول ابتداء: «الله عليّ كذا» فإن هذا التزام منه لنفسه أن يفعل ذلك، والأول تعليق بشرط وقد وجد، فيجب فعل المشروط عنده؛ لالتزامه له بوعد.

فإن الالتزام تارة يكون بصريح الإيجاب، وتارة يكون بالوعد، وتارة يكون بالشروع كشروعه في الجهاد والحج والعمرة، والالتزام بالوعد أكد من الالتزام بالشروع، وأكد من الالتزام بصريح الإيجاب؛ فإن الله سبحانه ذم من خالف ما التزمه له بالوعد، وعاقبه بالنفاق في قلبه، ومدح من وفى بما نذره له. (إعلام الموقعين ٢/ ١١٢).

قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾

٢٥- قيد سبحانه هذه التبعية بأنها تبعية بإحسان ليست مطلقة فتحصل بمجرد النية والإتباع في شيء والمخالفة في غيره، ولكن تبعية مصاحبة الإحسان، وأن الباء هنا للمصاحبة، والإحسان والمتابعة شرط في حصول رضا الله عنهم وجناته. (الرسالة النبوية ٦٢).

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَتَاهَا بِيَهُ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ﴾

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَصْحَابَ الْإِيمَانِ حَارِبَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٠﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَئِنْ لَمْ تُكَلِّمُوا عَلَى الْقَتْلِ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ يُحْيُونَ أَنْ يَنْظُرُوا وَاللَّهُ يَجِبُ الْمَطْهَرَةَ ﴿١٠١﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَتَاهَا بِيَهُ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٢﴾ لَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خِزْيٍ مِنْهُمْ فِي يَوْمٍ هُمْ فِيهِ مُشَوَّشُونَ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَنْ أَعْيُنِهِمْ فَخْرٌ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ إِنْ أَوَّلَافَ يَعْتَبِرُونَ اللَّهُ فَاسْتَشِيرُوا بِرَسُولِهِ وَالَّذِينَ بَايَعُوا بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٤﴾

٢٦- من أراد علو بنيانه فعليه بتوثيق أساسه وإحكامه وشدة الاعتناء به، فإن علو البنيان على قدر توثيق الأساس وإحكامه، فالأعمال والدرجات بنيان وأساسها الإيمان، ومتى كان الأساس وثيقاً، حمل البنيان واعتلى عليه، وإذا تهدم شيء من البنيان سهل تداركه، وإذا كان الأساس غير وثيق لم يرتفع البنيان ولم يثبت، وإذا تهدم شيء من الأساس سقط البنيان أو كاد، فالعارف همته تصحيح الأساس وإحكامه، والجاهل يرفع في البناء عن غير أساس، فلا يلبث

بنيانه أن يسقط، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَتَاهَا بِيَهُ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ﴾ فالأساس لبناء الأعمال كالقوة لبدن الإنسان، فإذا كانت القوة قوية حملت البدن ودفعت عنه كثيراً من الآفات، وإذا كانت القوة ضعيفة ضعف حملها للبدن وكانت الآفات إليه أسرع شيء.

فإذا كمل البناء فيبُيِّضه بحُسن الخُلُق والإحسان إلى الناس، ثم حظّه بسور من الحذر لا يقتحمه عدو ولا تبدو منه العورة، ثم أرخِ الستور على أبوابه، ثم أقفل الباب الأعظم بالسكوت عما تخشى عاقبته، ثم ركب له مفتاحاً من ذكر الله به تفتحه وتغلقه، فإن فتحت فتحت بالمفتاح وإن أغلقت الباب أغلقته به، فتكون حينئذ قد بنيت حصناً تحصنت فيه من أعدائك. (الفوائد (١٥٤)).

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا بِأَمْرٍ آتٍ وَكَفَرُوا وَتَقَرَّبُوا بَيْنَ
الْمُؤْمِنِينَ وَأُولَٰئِكَ هُمُ حَالَتِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ قَبْلُ
وَيَسْخَلُونَ إِنْ آتَوْكَ إِلَّا الْخُسْفُ وَاللَّهُ يَهْدِي أُمَّةَهُ
لَسَعْدُونَ ﴿١٤٦﴾ لَاقِظُهُ أَبَدُ الْمَسْجِدِ أَيْسَرُ عَلَى الْمُتَّقِينَ
مِنْ أَوَّلِ يَوْمِ لَحْزَنٍ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ مُجْتَرِفُونَ
بَيْنَهُمْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُظْهِرِينَ ﴿١٤٧﴾ أَتَمَّنَ أَيْسَرُ بَيْنَهُمْ
عَلَى تَقْوَاهِ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ خَيْرٌ مِمَّنْ أَسَسَ بَيْنَهُمْ
عَلَى شِقَاقِهِمْ هَارِ قَاتَمَهُ رِيعِي فِي رَجْعَتِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الضَّالِّينَ ﴿١٤٨﴾ لَأَنْزَلَ بَيْنَهُمُ الَّذِي بَنَى رِيسَةً
فِي قُلُوبِهِمْ إِنْ أَلَانَ تَطْعَمَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ
﴿١٤٩﴾ إِنَّ اللَّهَ أَسْرَعُ مِنَ الْمُتَوَفِّينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَوَّلَهُمْ
يَأْتِي لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَهُمْ قَتُلُونَ
وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِمْ حَقًّا مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ
وَالَّذِينَ إِنْ وَتَنَ أَوْفَى يَهْدِيهِمْ مِنَ اللَّهِ تَنْتَشِرُونَ
يَسْعُهُمُ الَّذِي يَأْتِيهِمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْقَوْمُ الْعَظِيمُ ﴿١٥٠﴾

الْجَنَّةُ يُقْنَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْنَلُونَ
وَيُقْنَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ
وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ
مِنْ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعْيَكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ
وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٣١﴾ السَّابِقُونَ
الْعَبِيدُونَ الْحَمِيدُونَ السَّابِقُونَ ﴿٣٢﴾

٢٨- جعل سبحانه ها هنا الجنة ثمنا لنفوس المؤمنين وأموالهم بحيث إذا بذلوها فيه استحقوا

الثمن وعقد معهم هذا العقد وأكده بأنواع من التأكيد:

أحدها: إخبارهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَصِيغَةَ الخبر المؤكد بأداة (إِنَّ).

الثاني: الأخبار بذلك بصيغة المرضي الذي قد وقع وثبت واستقر.

الثالث: إضافة هذا العقد إلى نفسه سبحانه وأنه هو الذي اشترى هذا المبيع.

الرابع: أنه أخبر بأنه وعد بتسليم هذا الثمن وعدا لا يخلفه ولا يتركه.

الخامس: أنه أتى بصيغة على التي للوجوب أعلاما لعباده بأن ذلك حق عليه أحقه هو على نفسه.

السادس: أنه أكد ذلك بكونه حقا عليه.

السابع: أنه أخبر عن محل هذا الوعد، وأنه في أفضل كتبه المنزلة من السماء وهي التوراة والإنجيل والقرآن.

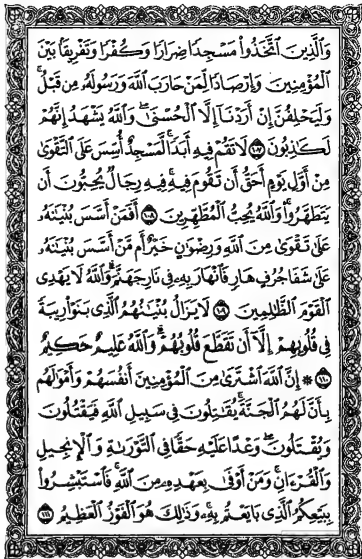
الثامن: إعلامه لعباده بصيغة استفهام الإنكار وأنه لا أحد أوفى بعهده منه سبحانه.

التاسع: أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمرهم أن يستبشروا

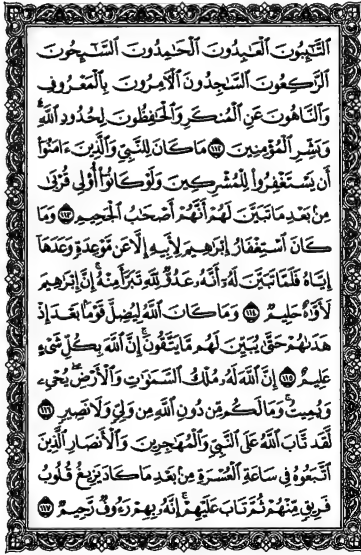
بهذا العقد ويبشر به بعضهم بعضا بشارة من قد تم له العقد ولزم بحيث لا يثبت فيه خيار ولا يعرض له ما يفسخه.

العاشر: أنه أخبرهم إخبارا مؤكدا بأن ذلك البيع الذي بايعوه به هو الفوز العظيم والبيع ها هنا بمعنى المبيع الذي أخذوه بهذا الثمن وهو الجنة.

وقوله: ﴿بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ أي عاوضتم وثامنتم به.



٢٩- وتأمل كيف جعل الله سبحانه التوبة والعبادة قرينتين: هذه ترك ما يكره، وهذه فعل ما يحب والحمد والسياسة قرينتين هذا الشاء عليه بأوصاف كماله، وسياسة اللسان في أفضل ذكره، وهذه سياسة القلب في حبه وذكره وإجلاله. كما جعل سبحانه العبادة والسياسة قرينتين في صفة الأزواج فهذه عبادة البدن وهذه عبادة القلب. (حادي الأرواح ٧٥-٧٦).



قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

٣٠- هذا من أعظم ما يعرف العبد قدر التوبة وفضلها عند الله، وأنها غاية كمال المؤمن، فإنه سبحانه أعطاهم هذا الكمال بعد آخر الغزوات بعد أن قضوا نحبتهم، وبذلوا نفوسهم وأموالهم وديارهم لله،

وكان غاية أمرهم أن تاب عليهم، ولهذا جعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم توبة كعب خير يوم مر عليه منذ ولدته أمه إلى ذلك اليوم، ولا يعرف هذا حق معرفته إلا من عرف الله، وعرف حقوقه عليه، وعرف ما ينبغي له من عبوديته، وعرف نفسه وصفاتها وأفعالها، وأن الذي قام به من العبودية بالنسبة إلى حق ربه عليه كقطرة في بحر، هذا إذا سلم من الآفات الظاهرة والباطنة.

٣١- وتأمل تكريره سبحانه توبته عليهم مرتين في أول الآية وآخرها، فإنه تاب عليهم أولاً بتوفيقهم للتوبة، فلما تابوا تاب عليهم ثانياً بقبولها منهم، وهو الذي وفقهم لفعلها، وتفضل عليهم بقبولها، فالخير كله منه وبه وله وفي يديه، يعطيه من يشاء إحساناً وفضلاً، ويحرمه من يشاء حكمة وعدلاً.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا﴾.

٣٢- أخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم، وأنها هي التي جعلتهم تائبين، فكانت سببا مقتضيا لتوبتهم، فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله تعالى عليهم، والحكم ينتفي لانتهاء علته. (مدارج السالكين ١/ ٣١٣).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (١١١).

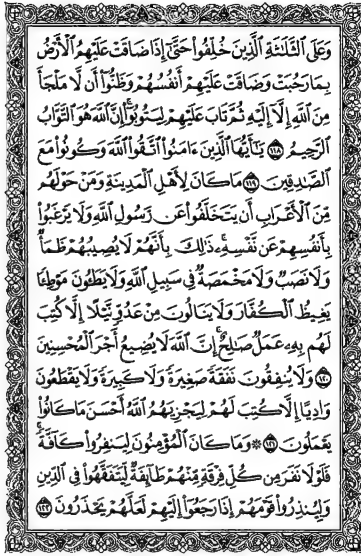
٣٣- معلوم أن من خالفهم في شيء وإن وافقهم في غيره لم يكن معهم فيما خالفهم

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا إِذْ صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِمُؤْمِنُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَٰلِكُمْ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْلُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيلًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَلَاحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٣﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا ظَرْفُ هُنَّ وَنَهْطُ ظَاهِرُهُ لَيَنفَعَهُمَا فِي الْحَيَاةِ وَيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١١٥﴾

فيه، وحينئذ فيصدق عليه أنه ليس معهم، فتنتفي عنه المعية المطلقة، وإن ثبت له قسط من المعية وفيما وافقهم فيه، فلا يصدق عليه أنه معهم بهذا القسط، وهذا كما نفى الله ورسوله الإيمان المطلق عن الزاني والشارب والسارق والمنتهب بحيث لا يستحق اسم المؤمن، وإن لم ينتف عنه مطلق الاسم الذي يستحق لأجله أن يقال: معه شيء من الإيمان، وهذا كما أن اسم الفقيه والعالم عند الإطلاق لا يقال لمن معه مسألة أو مسألتان من فقه وعلم، وإن قيل: معه شيء من العلم. (إعلام الموقعين ٤/ ١٦٥-١٦٦).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْلُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيلًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَلَاحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١١٣) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٤).

٣٤- أخبر الله سبحانه في الآية الأولى: أن المتولد عن طاعتهم وأفعالهم يكتب به



عمل صالح، وأخبر في الثانية: أن أعمالهم الصالحة التي باسروها تكتب لهم أنفسهم، والفرق بينهما: أن الأول ليس من فعلهم، وإنما تولد عنه فكتب لهم به عمل صالح، والثاني نفس أعمالهم فكتب لهم. (الدواء والدواء ٣٠٨).

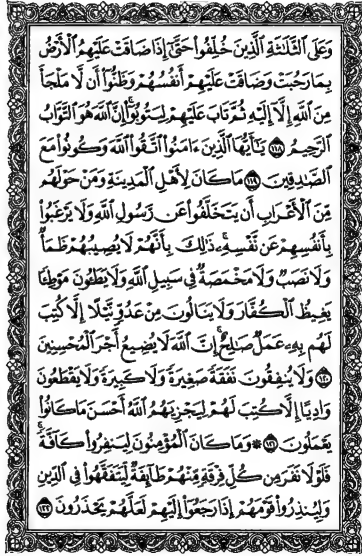
فإن الظماً والنصب وغيظ العدو ليس من أفعالهم فلا يكتب لهم نفسه ولكن لما تولد عن أفعالهم كتب لهم به عمل صالح، وأما القسم الآخر وهو الأفعال المقدورة نفسها كالإنفاق وقطع الوادي فهو عمل

صالح فيكتب لهم نفسه إذ هو مقدور لهم حاصل بإرادتهم وقدرتهم، فعاد الثواب إلى الأفعال المقدورة والمتولد عنها، وبالله التوفيق. (مفتاح دار السعادة ١٩١).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (١٢٢).

٣٥- ندب تعالى المؤمنين إلى التفقه في الدين وهو تعلمه، وإنذار قومهم إذا رجعوا إليهم وهو التعليم وقد اختلف في الآية: فقيل: المعنى أن المؤمنين لم يكونوا لينفروا كلهم للتفقه والتعلم، بل ينبغي أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة تتفقه تلك الطائفة، ثم ترجع تعلم القاعدين، فيكون النفير على هذا نفير تعلم، والطائفة يقال على الواحد فما زاد، قالوا: فهو دليل على قبول خبر الواحد، وعلى هذا حملها الشافعي وجماعة، وقالت طائفة أخرى: المعنى وما كان المؤمنون لينفروا إلى الجهاد كلهم، بل ينبغي أن تنفر طائفة للجهاد وفرقة تقعد تتفقه في الدين، فإذا جاءت الطائفة التي نفرت

فقهتها القاعدة وعلمتها ما أنزل من الدين والحلال والحرام، وعلى هذا فيكون قوله ليتفقهوا ولينذروا للفرقة التي نفرت منها طائفة، وهذا قول الأكثرين، وعلى هذا فالنفير نفير جهاد على أصله، فإنه حيث استعمل إنما يفهم منه الجهاد.



وعلى القولين فهو ترغيب في التفقه في الدين وتعلمه وتعليمه، فإن ذلك يعدل الجهاد، بل ربما يكون أفضل منه. (مفتاح دار السعادة ٦٠-٦١).

قوله تعالى: ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

٣٦- أوجب قبول نذارتهم، وذلك تقليد لهم جوابه من وجوه:

أحدها: أن الله سبحانه إنما أوجب عليهم قبول

ما أنذروهم به من الوحي الذي ينزل في غيبتهم عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الجهاد، فأين في هذا حجة لفرقة التقليد على تقديم آراء الرجال على الوحي؟

الثاني: أن الآية حجة عليهم ظاهرة؛ فإنه سبحانه نوع عبوديتهم وقيامهم بأمره إلى نوعين: أحدهما: نفير الجهاد، والثاني: التفقه في الدين، وجعل قيام الدين بهذين الفريقين، وهم الأمراء والعلماء أهل الجهاد وأهل العلم؛ فالنافرون يجاهدون عن القاعددين، والقاعدون يحفظون العلم للنافرين، فإذا رجعوا من نفيرهم استدرکوا ما فاتهم من العلم بإخبار من سمعه من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فإن سميت ذلك تقليدا فليس الشأن في الأسماء، ونحن لا ننكر التقليد بهذا المعنى، فسموه ما شئتم، وإنما ننكر نصب رجل معين يجعل قوله عيارا على القرآن

والسنن؛ فما وافق قوله منها قبل، وما خالفه لم يقبل، ويقبل قوله بغير حجة، ويرد قول نظيره أو أعلم منه والحجة معه، فهذا الذي أنكرناه، وكل عالم على وجه الأرض يعلن إنكاره وذمه وذم أهله. (إعلام الموقعين ٢/ ٢٥٢-٢٥٣).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١٢٧).

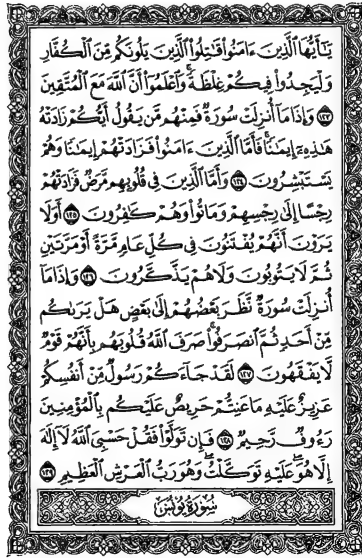
٣٧- أخبر سبحانه عن فعلهم وهو الانصراف وعن فعله فيهم وهو صرف قلوبهم عن القرآن وتدبره لأنهم ليسوا أهلاً له، فالمحل غير صالح ولا قابل، فإن صلاحية المحل بشيئين: حسن فهم، وحسن قصد. وهؤلاء قلوبهم لا تفقه وقصودهم سيئة، وقد صرح سبحانه بهذا في قوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٢٣) فأخبر سبحانه عن عدم قابلية الإيمان فيهم، وأنهم لا خير فيهم يدخل بسببه إلى قلوبهم، فلم يسمعهم سماع إفهام ينتفعون به وإن سمعوه سماعاً تقوم به عليهم حجته فسماع الفهم الذي سمعه به المؤمنون لم يحصل لهم.



٣٨- ثم أخبر سبحانه عن مانع آخر قام بقلوبهم يمنعهم من الإيمان لو أسمعهم هذا السماع الخاص وهو الكبر والتولي والإعراض، فالأول مانع من الفهم، والثاني مانع من الانقياد والإذعان، فأفهام

سيئة وقصود ردية وهذه نسخة الضلال وعلم الشقاء كما أن نسخة الهدى وعلم السعادة فهم صحيح وقصد صالح والله المستعان. وتأمل قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ كيف جعل هذه الجملة الثانية سواء كانت خبراً أو إعادة عقوبة

لأنصرفهم، فعاقبهم عليه بصرف آخر غير الصرف الأول، فإن انصرفهم كان لعدم إرادته سبحانه ومشيتته لإقبالهم لأنه لا صلاحية فيهم ولا قبول، فلم ينلهم الإقبال والإذعان فانصرفت قلوبهم بما فيها من الجهل والظلم عن القرآن، فجازاهم على ذلك صرفاً آخر غير الصرف الأول كما جازاهم على زيغ قلوبهم عن الهدى إزاغة غير الزيغ الأول: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ وهكذا إذا عرض العبد عن ربه



سبحانه جازاه بأن يعرض عنه فلا يمكنه من الإقبال عليه ولتكن قصة إبليس منك على ذكر تنتفع بها أتم انتفاع، فإنه لما عصى ربه تعالى ولم ينقد لأمره وأصر على ذلك عاقبه بأن جعله داعياً إلى كل معصية فعاقبه على معصيته الأولى بأن جعله داعياً إلى كل معصية وفروعها صغيرها وكبيرها وصار هذا الإعراض والكفر منه عقوبة لذلك الإعراض والكفر السابق فمن عقاب السيئة السيئة بعدها كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها.

٣٩- فهذا عدله فيهم وتلك حجته عليهم، فهم سدوا على أنفسهم باب الهدى إرادة منهم واختياراً، فسده عليهم اضطراباً، فخلاهم وما اختاروا لأنفسهم وولاهم ما تولوه، ومكنهم فيما ارتضوه، وأدخلهم من الباب الذي استبقوا إليه، وأغلق عنهم الباب الذي تولوا عنه وهم معرضون، فلا أقبح من فعلهم، ولا أحسن من فعله.



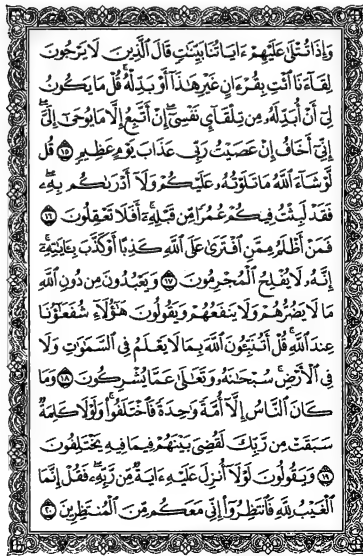
سورة يونس

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرِكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٦).

١ - تأمل هاتين الحجتين القاطعتين تحت هذا اللفظ الوجيز:

إحداهما: أن هذا من الله لا من قبلي ولا هو مقدور لي ولا من جنس مقدور البشر، وأن الله سُبحَانَهُ وتَعَالَى لو شاء لأمسك عنه قلبي ولساني وأسماعكم وأفهامكم، فلم أتمكن من تلاوته عليكم، ولم تتمكنوا من درايته وفهمه.

الحجة الثانية: أني قد لبثت فيكم عمري إلى حين أتيتكم به، وأنتم تشاهدوني وتعرفون حالي وتصحبوني حضرا وسفرا وتعرفون دقيق أمري وجليله وتحققون سيرتي، هل كانت سيرة من هو من أكذب الخلق وأفجرهم وأظلمهم؟ فإنه لا أكذب ولا أظلم ولا أقبح سيرة ممن جاهر ربه وخالفه بالكذب والفرية عليه وطلب إفساد العالم وظلم النفوس والبغي في الأرض بغير الحق.



هذا وأنتم تعلمون أني لم أكن أقرأ كتابا ولا أخطه بيمينني ولا صاحبت من أتعلم منه، بل صحبتكم أنتم في أسفاركم لمن تتعلمون منه وتسالونه عن أخبار الأمم والملوك وغيرها ما لم أشارككم فيه بوجه، ثم جئتكم بهذا النبأ العظيم الذي فيه علم الأولين والآخرين وعلم ما كان وما سيكون على التفصيل، فأني برهان أوضح من هذا وأي عبارة أفصح وأوجز من هذه العبارة المتضمنة له. (الصواعق المرسله ٢/ ٤٧٠ - ٤٧٢).

أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَتَنَهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا
فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ
نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُوا
إِلَى دَارِ السَّلَامِ .

٢- لما كانت الدنيا عرضة لهذه الآفات، والجنة سليمة منها قال: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوْا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥]. فسمّاها هنا دار السلام لسلامتها من هذه الآفات التي ذكرها في الدنيا، فعم بالدعوة إليها، وخص بالهداية من يشاء، فذاك عدله وهذا فضله. (إعلام الموقعين ١/ ٢٠٣).

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿١٦﴾.

٣- لما عطف سبحانه الزيادة على الحسنى التي هي الجنة دل على إنها أمر آخر من وراء الجنة وقدر زائد عليها، ومن فسر الزيادة بالمغفرة والرضوان فهو من لوازم رؤية الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى. (حادي الأرواح ٢٣١-٢٣٤).

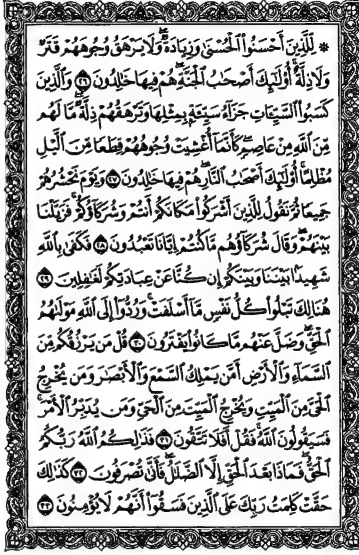
قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ .

٤- قيل هذا من أدق هذه المواضع وأغمضها وألطفها فرفا فتدبر السياق تجده نقيضا لما وقع، فإن الآيات التي في يونس سيقّت مساق الاحتجاج عليهم بما أقروا

به ولم يمكنهم إنكاره من كون الرب تعالى هو رازقهم ومالك أسماعهم وأبصارهم

ومدبر أمورهم وغيرها ومخرج الحي من الميت والميت من الحي.

فلما كانوا مقرين بهذا كله حسن الاحتجاج به عليهم، إن فاعل هذا هو الله الذي لا إله غيره فكيف يعبدون معه غيره ويجعلون له شركاء لا يملكون شيئاً من هذا ولا يستطيعون فعل شيء منه؟ ولهذا قال بعد أن ذكر ذلك من شأنه تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ أي لا بد أنهم يقرون بذلك ولا يجحدونه فلا بد أن يكون المذكور مما يقرون به.



والمخاطبون المحتج عليهم بهذه الآية إنما كانوا مقرين بنزول الرزق من قبل هذه السماء التي يشاهدونها بالحس، ولم يكونوا مقرين ولا عالمين بنزول الرزق من سماء إلى سماء حتى تنتهي إليهم ولم يصل علمهم إلى هذا، فأفردت لفظ السماء هنا فإنه لا يمكنهم إنكار مجيء الرزق منها، لا سيما والرزق ها هنا إن كان هو المطر، فمجئيه من السماء التي هي السحاب ها هنا فإنه يسمى سماء لعلوه ها هنا وقد أخبر سبحانه أنه بسط السحاب في السماء بقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ والسحاب إنما هو مبسوط في جهة العلو لا في نفس الفلك، وهذا معلوم بالحس فلا يلتفت إلى غيره، فلما انتظم هذا بذكر الاحتجاج عليهم لم يصلح فيه إلا أفراد السماء؛ لأنهم لا يقرون بما ينزل من فوق ذلك من الأرزاق العظيمة للقلوب والأرواح، ولا بد من الوحي الذي به الحياة الحقيقية الأبدية، وهو أولى باسم الرزق من المطر الذي به الحياة الفانية المنقضية، فما ينزل من فوق ذلك من الوحي والرحمة

وأما الآية التي في سورة سبأ فلم يتنظم بها ذكر إقرارهم بما ينزل من السماوات؛ ولهذا أمر رسوله بأن يتولى الجواب فيها ولم يذكر عنهم أنهم المجبيون المقرون فقال: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ﴾ ولم يقل: سيقولون الله. فأمر تعالى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يجيب بأن ذلك هو الله وحده الذي ينزل رزقه على اختلاف أنواعه ومنافعه من السماوات السبع، وأما الأرض فلم يدع السياق إلى جمعها في واحدة من الاثنين؛ إذ يقر به كل أحد مؤمن وكافر وبر وفاجر. (بدائع الفوائد ١/ ١١٧-١١٨).

* الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحَسَنَاتِ زِيَادَةً وَأَلْوَنُوا وَجْهَهُمْ فَتَرَوْهُم
 وَلَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْأَعْنَابِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ وَالَّذِينَ
 كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَحْدِلُوا عَنْهَا وَنَجِفَتْ عَنْهَا آلَهُمْ
 مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَأَنَّهُمْ أَفْغِيَتْ وَجْهَهُمْ فَلَمَّا بَلَغَ الْأَبِلَ
 مَطْلَعُهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْأَعْنَابِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ وَقَدْ خَشِيَ رَجُلٌ
 حَيْمًا أَنْ يُقَالَ لِلَّذِينَ ظَنُّوا أَنَّهُمُ اتَّكَفَوْا عَنْ اللَّهِ وَهُمْ لَا يَأْتِيَانَهُمْ
 بَيِّنَةٌ وَقَالَ شُرَكَائِهِمْ أَتَأْتِيَانَهُ أَتَأْتِيَانَهُمْ ۝ وَلَكِنْ وَاللَّهِ
 سَهْبًا بَيِّنَاتٌ وَبَيِّنَاتٌ لَكُمْ أَنَّ عَنْ عِبَادِكُمْ أَفْغِيَاتٌ ۝
 هُنَالِكَ تَبْلَاغُ الْقَبَسِ مَا أَشْلَقَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ
 الْحَقُّ وَصَلُّوا عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝ قُلْ مَنْ يَرْفَعُكُمْ
 السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ أَلَمْ يَسْمَعْ وَآلَمْ يَبْصُرْ وَمَنْ يُخْرِجُ
 الْخَبْثَ مِنَ السَّيِّئِ وَيُخْرِجُ السَّيِّئِينَ مِنَ الْخَيْرِ وَمَنْ يَبْرُؤُ الْكَافِرَ
 فَسَيُؤَلِّوْا اللَّهُ فَقُلْ أَلَا تَشْعُرُونَ ۝ فَقَالَ لَهُ اللَّهُ رَبُّكُمْ
 الْحَقُّ وَأَنَا هُوَ الْحَقُّ أَلَا تَعْلَمُونَ ۝ قَالَ ضَرَبْتُ ۝ كَذَلِكَ
 حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَكْفَرُونَ ۝

٥- من عبد غير الله فما عبد إلا الضلال المحض
والباطل البحت، وأما من عبد الله بأمره، وكان في مقام
التمييز بين محابه ومساخطه مفرقا بينهما يحب هذا
ويبغض هذا، ناظرا بقلبه إلى ربه، عاكفا بهمته عليه،
منفذا لأوامره، فهو مع الحق المحض. والله أعلم.
(طريق الهجرتين ٣٢٤).

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّابٌ لِلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

٦- أخبر أن من قبل المكذبين أصل يعتبر به، والفرع نفوسهم، فإذا ساووهم في المعنى ساووهم في العاقبة. (إعلام الموقعين ١/ ١٨٥-١٨٦).

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

وَأَوَّلُ كُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَا تَقْدَرُ بِهِ وَأَسْرَأُ
الْعَذَابَ لِمَنْ أَوَّلَ الْعَذَابِ وَخُصِيَ بِهِمْ بِالْقَسْبِ وَهُمْ
لَا يَظْلُمُونَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا أَنْ يُلْقَى مَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا أَنْ
يَعَذَّبَ اللَّهُ هَلْ يَكُنْ لَهُ أَكْثَرُ مِنْ أَقْدَامُونَ ﴿٥٩﴾ هُوَ يَخْبِي وَيُخْشِئُ
وَالْيَوْمَ يُصَوِّرُ ﴿٦٠﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ
مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ
﴿٦١﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هَلْ هِيَ إِلَّا
يَجْمَعُونَ ﴿٦٢﴾ قُلْ أَنْ يَشْعُرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنْ رِزْقِي
فَقَسَمْتُ لَكُمْ مِنْهُ حَرْامًا وَحَلَالًا إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ لَكُمْ أَنْ تَعْلَى
اللَّهُ تَقْدَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
وَيُرَى الْفَيْسَمَةُ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٤﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ
وَلَا تَحْمِلُونَهُ مِنْ حَمَلٍ إِلَّا كُنْتُمْ عَلَيْهِمْ شُهُدَاءً أَنْ يَحْكُمُوا
فِيهِمْ وَأَنتُمْ عَنْ قَوْلِهِمْ مِنْ يَقُولُ أَنْزَلَ اللَّهُ الْكِتَابَ وَلَا فِي
الْأَسْمَاءِ وَلَا أَصْنَافٍ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ وَلَا يَكْفُرُ لَكُمْ ﴿٦٥﴾

٧- هو شفاء لما في الصدور من مرض الجهل والغبي، فإن الجهل مرض شفاؤه العلم والهدى. والغبي مرض شفاؤه الرشد، وقد نزه الله سبحانه نبيه عن هذين الداءين، فقال: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ [النجم: ١-٢].

ووصف رسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم خلفاءه بضدهما فقال: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي».

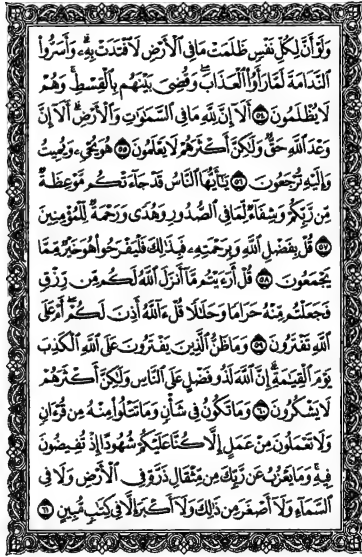
وجعل كلامه سبحانه موعظة للناس عامة، وهدى ورحمة لمن آمن به خاصة، وشفاء تاما لما في الصدور، فمن استشفى به صح وبرئ من مرضه، ومن لم يستشف به فهو كما قيل:

إِذَا بَلَ مِنْ دَاءٍ بِهِ ظَنَّ أَنَّهُ نَجَا وَبِهِ الدَّاءُ الَّذِي هُوَ قَاتِلُهُ

قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

٨- الله سبحانه إنما رفع من رفع بالكتاب والإيمان، ووضع من وضع بعدهما.

فإن قيل: فقد وقع تسمية ذلك تكليفا في القرآن كقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وقوله: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢].



قيل: نعم، إنما جاء ذلك في جانب النفي، ولم يسم سبحانه أوامره ووصاياه وشرائعه تكليفا قط، بل سماها روحا ونورا، وشفاء وهدى ورحمة، وحياة، وعهدا، ووصية، ونحو ذلك. (إغاثة اللهفان ١/ ٣١-٣٢).

٩- فذلك خير من كل ما يجمع الناس من أعراض الدنيا وزينتها. أي هذا هو الذي ينبغي أن يفرح به. ومن فرح به فقد فرح بأجل مفروح به، لا ما يجمع أهل الدنيا منها، فإنه ليس بموضع للفرح؛ لأنه عرضة للآفات، ووشيك الزوال، ووخيم العاقبة،

وهو طيف خيال زار الصب في المنام، ثم انقضى المنام، وولى الطيف، وأعقب مزاره الهجران.

١٠- وقد جاء الفرح في القرآن على نوعين: مُطلق، ومُقيّد.

فالمُطلق: جاء في الذم. كقوله تعالى: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصاص: ٧٦]، وقوله: ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠].

والمُقيّد نوعان أيضا: مقيد بالدنيا، ينسي صاحبه فضل الله ومته، فهو مذموم، كقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فِإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

والثاني: مقيد بفضل الله وبرحمته، وهو نوعان أيضا: فضل ورحمة بالسبب، وفضل بالمسبب، فالأول كقوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [٥٨].

[يونس: ٥٨]. والثاني كقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

فالفرح بالله، وبرسوله، وبالإيمان، وبالسنة، وبالعلم، وبالقرآن، من أعلى مقامات العارفين.

١١- فالفرح بالعلم والإيمان والسنة دليل على تعظيمه عند صاحبه، ومحبته له، وإيثاره له على غيره، فإن فرح العبد بالشيء عند حصوله له على قدر محبته له، ورغبته فيه، فمن ليس له رغبة في الشيء لا يفرحه حصوله له، ولا يحزنه فواته، فالفرح تابع للمحبة والرغبة.

والفرق بينه وبين الاستبشار: أن الفرح بالمحسوب بعد حصوله، والاستبشار يكون به قبل حصوله إذا كان على ثقة من حصوله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

والفرح صفة كمال؛ ولهذا يوصف الرب تعالى بأعلى أنواعه وأكملها: كفرحه بتوبة التائب أعظم من فرحة الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة بعد فقدته لها، واليأس من حصولها. (مدارج

السالكين ١٥٦/٣-١٥٩).

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بَيْتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٧).

١٢- هو من أحسن النظم وأبدعه، فإنه ثنى أولاً؛ إذ كان موسى وهارون هما الرسولان المطاعان ويجب على بني إسرائيل طاعة كل واحد منهما سواء،

وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونَ النَّاسَ فِي كُلِّ سَجْدَةٍ عَلَيْهِمْ سَلَامٌ فَلَمَّا جَاءَهُ النَّاسُ قَالُوا لَهُمْ مُوسَىٰ الْقَوْمَانِ أَتَأْتُونَ النَّاسَ فِي كُلِّ سَجْدَةٍ عَلَيْهِمْ سَلَامٌ فَلَمَّا جَاءَهُ النَّاسُ قَالُوا لَهُمْ مُوسَىٰ الْقَوْمَانِ أَتَأْتُونَ النَّاسَ فِي كُلِّ سَجْدَةٍ عَلَيْهِمْ سَلَامٌ فَلَمَّا جَاءَهُ النَّاسُ قَالُوا لَهُمْ مُوسَىٰ الْقَوْمَانِ أَتَأْتُونَ النَّاسَ فِي كُلِّ سَجْدَةٍ عَلَيْهِمْ سَلَامٌ فَلَمَّا جَاءَهُ النَّاسُ قَالُوا لَهُمْ مُوسَىٰ الْقَوْمَانِ أَتَأْتُونَ النَّاسَ فِي كُلِّ سَجْدَةٍ عَلَيْهِمْ سَلَامٌ

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ۖ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ﴿٩٤﴾

قَالَ قَدْ أُجِيبْتُ دَعْوَتَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ إِذْ أَنْتُمْ عَلَى سَبِيلِ
الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ وَخُذُوا زِينَتَكُمْ لِيُذَكِّرَ الَّذِينَ لَمْ يَدْخُلُوا
الْجَنَّةَ يَوْمَ تَدْنُو مِنْهُمُ الدَّارُ الْوُاسِعَةُ إِذْ أُنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ
الْقُرْآنُ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ إِلَّا أَنْزَلَ إِلَهُ الْإِنْسَانِ وَهُمْ يَكْفُرُونَ
إِنَّ أَوَّلَ الْفِتْنَةِ لَكُمْ وَإِنَّ آخِرَ هَضْمَةِ الْإِنْسَانِ إِنَّكَ كُنْتَ
بِقَاصٍ ﴿٦﴾ وَلَقَدْ نَزَّلْنَاهُ نَجْمًا مُقْدِرًا وَمَا تَشَاءُونَ وَمِنْ أَهْلِ
الْقَرْيَةِ قَوْمُ ثَعْلَبٍ فَاسْتَفْتَاهُ فِي مَا رَأَوْا مِنْ لَدُنْكَ فَقَبِضَ
بِهِمْ نَفْرَةً فَغَوَّاهُمْ فِيمَا أَلْمُؤُومُونَ بِغِيَابِهِمْ ثُمَّ نَزَّلْنَا الْكُتُوبَ
فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ وَأَلْهَمْنَا سُرُوسَهُ الْقُرْآنَ لِقَوْمٍ كَاذِبِينَ ﴿٧﴾
وَلَا تَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ كَانُوا يَكْفُرُونَ وَلَكِنْ أَنْتُمْ أَنْتُمُ الْمُفْسِدُونَ
﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَيْهِمْ كَذَابُ رِبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩﴾
وَلَوْ جَاءَهُمْ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَأْتِيَنَّهُمْ مِنَ الْجِبَالِ غَوَّاسٌ
وَلَوْ جَاءَهُمْ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَأْتِيَنَّهُمْ مِنَ الْجِبَالِ غَوَّاسٌ ﴿١٠﴾

لَفَسَدَتَا ﴿[الأنبياء: ٢٢]، وقوله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بُغْعَا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ ﴿[الإسراء: ٤٢]، وقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ ﴿[الزخرف: ٨١]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ ﴿[الزمر: ٦٥]، ونظائره، فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشك ولم يسأل.

ولا أسأل».

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ
وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]. والمراد أتباعه بهذا الخطاب.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والخطاب شامل للخلق، والمعنى: وإن كنتم في شك والدليل على ذلك قوله تعالى في آخر السورة: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٤].

(أحكام أهل الذمة ١٢-١٥).



سورة هود

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾



١- هؤلاء ثَنِيَّةُ الله من نوع الإنسان المذموم الموصوف باليأس والكفر عند المصيبة والفرح والفخر عند النعمة، ولا خلاص من هذا الذم إلا بالصبر والعمل الصالح . (عدة الصابرين ٧٣-٧٤).

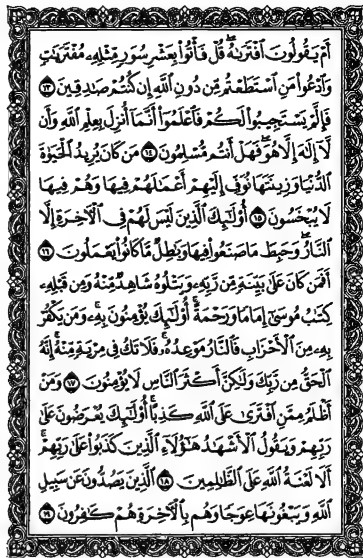
قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ

وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾﴾

٢- هؤلاء المعارضون للوحي بعقولهم جمعوا بين الأمور الثلاثة: الكذب على

الله، والصد عن سبيل الله، وبغيها عوجا. أما الكذب على الله فإنهم نفوا عنه ما أثبتته



لنفسه من صفات الكمال ووصفوه بما لم يصف به نفسه، وأما صدهم عن سبيله وبغيها عوجا فإنهم أفهموا الناس بل صرحوا لهم بأن كلام الله ورسوله ظواهر لفظية لا تفيد علما ولا يقينا، وأن العقول عارضتها فيجب تقديم العقول عليها، وأي عوج أعظم من عوج مخالفة العقل الصريح وقد وصف الله كتابه بأنه غير ذي عوج، ولا ريب أن الله هو الصادق في ذلك وأنهم هم الكاذبون.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

أُولَئِكَ لَوْ كُنُوا مُعْجِنِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ
 دُونِ آلِهِمْ مِنْ آلِيَاءَ يُضْعِفُهُمْ آلُهُمْ الْعَدَاءُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ
 السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا
 أَنْفُسَهُمْ وَجَبَلَ عَنْهُمْ مَكَالَ أُولَئِكَ ثَرُونَ ﴿٦﴾ لَاحِرَةً كَانَتْ
 فِي الْأَخْرَجِ مِنْهُمْ الْأَخْضَرُ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَاتُوا وَجَعَلُوا
 الصُّلَحَاتِ وَخَسِرُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ
 هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَمْثَلِ وَالْأَفْثَرِ
 وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ
 ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِذِي لِكُلِّ دِينٍ ﴿١٠﴾
 أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْبَرِّ ﴿١١﴾
 فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَأْتِيكَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكَ
 وَمَتَابِكَ تَتَذَكَّرُ إِلَّا أُولَئِكَ هُمْ قَوْمُكَ لَا يَأْتِي الرُّسُلَ
 وَمَتَابِكَ لَوْ كُنْتَ عَلِيمًا مِنْ فَضْلِ لَوْ تَنْظُرُ كُلُّهُمْ كَيْدُونَ ﴿١٢﴾
 قَالَ يَقَوْمِ أَوْفَيْتُمْ لِي كُلَّ عَهْدٍ فَأَنْتُمْ عَلَى عَهْدِي إِذْ عَاهَدْتُمْ ثُمَّ
 عُدْتُمْ عَلَيَّ فَمَنْ آلُكُمْ الظُّلُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِيمُونَ ﴿١٣﴾

٥- اعتبروا صورة مجرد الآدمية وشبه المجانسة فيها، واستدلوا بذلك على أن حكم أحد الشبهين حكم الآخر؛ فكما لا نكون نحن رسلا

(إعلام الموقعين ١/ ١٩٨).

[illegible]

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوكُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَيَكْذِبُنِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا نَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾

٨- المقصود أن هذه الآيات تتضمن عدل الرب تعالى وتوحيده، والله يتصرف في خلقه بملكه وحمده وعدله وإحسانه، فهو على صراط مستقيم في قوله وفعله وشرعه وقدره وثوابه وعقابه، يقول الحق ويفعل العدل: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ فهذا العدل والتوحيد الذين دل عليهما القرآن لا يتناقضان. (شفاء العليل ١، ٢، ٨٧).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحَفُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرَانَهُ فَأَيَّمَةٌ فَضَحِكْتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَتُولىَّ ءَالِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَـذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَـذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾

قَالَ يَقَوْمُ أَنَّهُ يَتَمَنَّى أَنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتِ قَوْمٍ رَبِّ وَءَالَتِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَصْرِفُنِي مِنَ اللَّهِ أَنْ عَصَيْتُهُ فَمَنْ يَصْرِفُنِي عَنْ عَصِيَّتِي ﴿٦٩﴾ وَيَقَوْمُ هَـذَا نَافَةٌ اللَّهُ لَكُمُ آيَةٌ فَذَرُوهَا أَكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَتَّبِعُوا هَـؤُلَاءِ فَيُخَذُّوا عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٧٠﴾ فَتَعَرَّوْهَا فَقَالَ تَمَنَّوْا فِي ذَاكِكُمْ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحَفُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرَانَهُ فَأَيَّمَةٌ فَضَحِكْتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾

٩- ما السر في نصب السلام في تسليم الملائكة ورفعته في تسليم إبراهيم؟

[فالجواب]: أنك قد عرفت قول النحاة فيه أن سلام الملائكة تضمن جملة فعلية؛ لأن نصب السلام يدل على سلمنا عليك سلاما. وسلام إبراهيم تضمن جملة اسمية؛ لأن رفعه يدل على أن المعنى سلام

عليكم، والجملة الاسمية تدل على الثبوت والتقرر، والفعلية تدل على الحدوث والتجدد، فكان سلامه عليهم أكمل من سلامهم عليه، وكان له من مقامات الرد ما يليق بمنصبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو مقام الفضل، إذ حياهم بأحسن من تحيتهم هذا تقرير ما قالوه.



١٠- وعندي فيه جواب أحسن من هذا: وهو أنه لم يقصد حكاية سلام الملائكة، فنصب قوله ﴿سَلَامًا﴾ مفعول القول المفرد، كأنه قيل: قالوا قولاً سلاماً، وقالوا سداداً وصواباً، ونحو ذلك، فإن القول إنما تحكى به الجمل، وأما المفرد فلا يكون محكياً به بل منصوب به انتصاب المفعول به، ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ ليس المراد أنهم قالوا هذا اللفظ المفرد المنصوب، وإنما معناه: قالوا قولاً سلاماً، مثل سداداً وصواباً، وسمي القول سلاماً لأنه يؤدي معنى السلام ويتضمنه من

رفع الوحشة وحصول الاستئناس. وحكى عن إبراهيم لفظ سلامه فأتى به على لفظه مرفوعاً بالابتداء محكياً بالقول، ولولا قصد الحكاية لقال سلاماً بالنصب؛ لأن ما بعد القول إذا كان مرفوعاً فعلى الحكاية ليس إلا، فحصل من الفرق بين الكلامين في حكاية سلام إبراهيم ورفعها ونصب ذلك إشارة إلى معنى لطيف جداً، وهو أن قوله سلام عليكم من دين الإسلام المتلقى عن إمام الحنفاء وأبي الأنبياء وأنه من ملة إبراهيم التي أمر الله بها واتباعها، فحكى لنا قوله ليحصل الاقتداء به والاتباع له، ولم يحك قول أضيافه، وإنما أخبر به على الجملة دون التفصيل والله أعلم. فزن هذا الجواب والذي قبله بميزان غير جائر، يظهر لك أقواهما، وبالله التوفيق. (بدائع الفوائد ٢/ ١٥٧-١٥٨).

١١- فتأمل سياق هذه البشارة وتلك، تجدهما بشارتين متفاوتتين، مخرج إحداهما غير مخرج الأخرى.

والبشارة الأولى كانت له، والثانية كانت لها.

والبشارة الأولى هي التي أمر بذبح من بشر به فيها، دون الثانية. (إغاثة اللفهان ٢/ ٣٥٦).

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَقُومُوا هَؤُلَاءِ بِنَاقِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مُسْوَمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (٨٣).

١٢- قد قرب الله سبحانه مسافة العذاب بين هذه الأمة وبين إخوانهم في العمل، فقال مخوفا لهم أن يقع الوعيد: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [سورة هود: ٨٣].

فَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرٌ كَاجَعًا لَهَا سَاطِعًا لَهَا وَأَمَطًا رَاقًا عَلَيْهَا
جِجَارَةً مِّنْ سَاجِدٍ مِّنْضُورٍ ﴿٨٣﴾ مُسْوَمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ
وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٤﴾ وَهِيَ مَنُورٌ أَحْمَرُ
شَمْسِيٌّ قَالَ يَقُولُهُ أَغْنَى وَاللَّهِ مَا لَكَ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
وَلَا تَنْفُصُوا إِلَهَ بَنِي آدَمَ فَإِنِّي أَنزَلْتُمْ بِخَبَرِ
وَالِدِ أَخَاكَ عَلَيْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ مُّجِيطٌ ﴿٨٥﴾ وَتَقُولُ
أُولُوا إِلَهَ بَنِي آدَمَ وَالْمَلَائِكَةُ لَا يَنْفُصُونَ النَّاسَ
أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْضُوا فِي الْأَرْضِ مُقْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ بِقِيَّتِكَ
اللَّهُ خَبَرَكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ
بَحَاطٍ ﴿٨٧﴾ قَالُوا لَيْسَ شَيْءٌ أَسْأَلُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَنْزِلَ
مَآئِدُهُمْ إِنَّا نَكُونُ فِي أَمْرٍ لَّنا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ
لَأَنْتَ الْخَلِيقُ الرَّشِيدُ ﴿٨٨﴾ قَالَ يَقُولُهُ أَرَأَيْتَ إِن كُنتُ
عَلَى بَيْتِكَ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَ فِيهِ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ
أُتَالِكَ لَكُمُ الرِّبَا لَأَأْتِيَنَّكُمْ عَذَابًا أَكْبَرَ إِنْ أَرِيدُ إِلَّا لِإِصْلَاحٍ
مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٩﴾

١٣- وإنما قلنا إنه أولى لأن المعنى عليه فإن الله تعالى أمره أن يسري بأهله إلا امرأته ولو كان الاستثناء من الالتفات لكان قد نهى المسري بهم عن الالتفات وأذن فيه لامرأته وهذا ممتنع لوجهين:

أحدهما: أنه لم يأمره أن يسري بامرأته ولا دخلت في أهله الذين وعد بنجاتهم.

والثاني: أنه لم يكلفهم بعدم الالتفات ويأذن فيه للمرأة. (بدائع الفوائد ٣/ ٦٥-٦٦).

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾.

١٤- إن الغرباء في العالم هم أهل هذه الصفة المذكورة في الآية، وهم الذين أشار إليهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله: «بدأ الإسلام غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء، قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس». (مدارج السالكين ٣/ ١٩٤).

سورة يوسف

📖 قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَهُودَىٰ وَهَمَّ بِهَا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾
إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَعْتِي ۖ

وَرَوَّثُهُ الْيَهُودِيَّ مَوْتِي بَيْنَهُمَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَّقْتُ الْأُكُوبَ
وَقَالَ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ
إِنَّهُ لَا يَفْعِلُ الْفَلَاكُوتَ ۖ وَلَقَدْ هَمَّتْ يَهُودَىٰ وَهَمَّ بِهَا
لَوْلَا أَن رَّاهَا بُرْهَانٌ رَبِّي كَذَلِكَ لِيَكْفِرَ عَنْهُ السُّوءُ
وَالْفَخْشَةُ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِ الْمُحْصِينَ ۖ وَأَسْتَجَبَا
الْبَابَ وَقَدَّتْ قَيْصُورُ مِنْ دُبُرِهَا الْقَيْسِيَّةَ هَذَا الْبَابُ
قَالَ مَا تَجَزَّاهُ مِنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءَ إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابُ
الْإِمْرِ ۖ قَالَ بِنِ زَيْنَتِي عَنْ نَفْسِي وَتَشْهَدُ شَاهِدَتَيْنِ
أَهْلَاهَا إِنْ كَانَ قَيْصُورُ قَدْ مَنَ قَبْلِي فَصَدَّقَتْ وَمَعُونِ
الْكُذِبَيْنِ ۖ وَإِنْ كَانَ قَيْصُورُ قَدْ مَنَ دُبُرِي فَكَذَبَتْ وَمَعُونِ
مِنَ الْقَدِيرَيْنِ ۖ فَلَمَّا رَأَتْ قَيْصُورُ قَدْ مَنَ دُبُرِي قَالَ إِنَّهُ
مِنْ كِبْدِي كُنْ إِنَّ كِبْدِي عَظِيمٌ ۖ يُوسُفُ أَفْرَظُ عَنْ
هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ لِدُبُرِي إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ
ۖ وَقَالَ يَسُوءُ فِي الْمَدِينَةِ أَمْرُكَ التَّيْبُ تَرَوُهُ قَسَمْتُهَا
عَنْ نَفْسِي قَدْ سَقَعَهَا حَبًّا إِذَا لَمْ تَنْهَ فِي صَلَاتِي يُبَيِّنُ ۖ

١- تأمل ما أعجب أمر هذه المرأة: أقرت بالحق، واعتذرت عن محبوبها، ثم اعتذرت عن نفسها، ثم ذكرت السبب الحامل لها على ما فعلت، ثم ختمت ذلك بالطمع في مغفرة الله ورحمته، وأنه إن لم يرحم عبده وإلا فهو عرضة للشكر. فوازن بين هذا وبين تقدير كون هذا الكلام كلام يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لفظاً ومعنى، وتأمل ما بين التقديرين من التفاوت، ولا يستبعد أن تقول المرأة هذا وهي على دين الشرك؛ فإن القوم كانوا يقولون بالرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَبِحَقِّهِ وَإِنْ أَشْرَكُوا

معه غيره، ولا تنس قول سيدها لها في أول الحال ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنبِكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾. (روضة المحبين ٢٩٧-٣٠١).

٢- مع أن الذي ابتلي به أمر لا يصبر عليه إلا من صبره الله، فإن واقعة الفعل بحسب قوة الداعي وزوال المانع، وكان الداعي ها هنا في غاية القوة، وذلك من وجوه: أحدها: ما ركبه الله سبحانه في طبع الرجل من ميله إلى المرأة، كما يميل العطشان إلى الماء، والجائع إلى الطعام، حتى إن كثيراً من الناس يصبر عن الطعام والشراب ولا يصبر عن النساء، وهذا لا يذم إذا صادف حلالاً.

الثاني: أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كان شاباً، وشهوة الشباب وحدثه أقوى.

الثالث: أنه كان عزبا، ليس له زوجة ولا سرية تكسر شدة الشهوة.

الرابع: أنه كان في بلاد غربة، يتأتى للغريب فيها من قضاء الوطر ما لا يتأتى له في وطنه وبين أهله ومعارفه.

الخامس: أن المرأة كانت ذات منصب وجمال، بحيث إن كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى موافقتها.

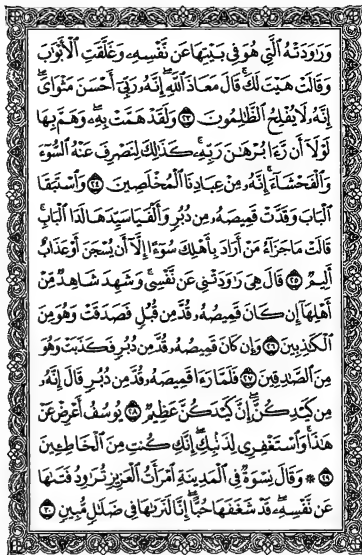
السادس: أنها غير ممتنعة ولا آبية، فإن كثيرا من الناس يزيل رغبته في المرأة إباؤها وامتناعها، لما يجد في نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها، وكثير من الناس يزيده الإباء والامتناع إرادة وحباً، كما قال الشاعر:

وزادني كَلَفًا في الحُبِّ أن مُنِعْتُ أَحَبُّ شَيْءٍ إلى الإنسانِ ما مُنِعَا

فطباع الناس مختلفة، فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة ورغبتها، ويضمحل عند إباؤها وامتناعها، وأخبرني بعض القضاة أن إرادته وشهوته تضمحل عند امتناع امرأته أو سريته وإباؤها، بحيث لا يعاودها، ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمنع فيشتد شوقه كلما منع، ويحصل له من اللذة بالظفر بالضد بعد امتناعه ونفاره، واللذة بإدراك المسألة بعد استصعابها، وشدة الحرص على إدراكها.

السابع: أنها طلبت وأرادت وبذلت الجهد، فكفته مؤونة الطلب وذو الرغبة إليها، بل كانت هي الراغبة الذليلة، وهو العزيز المرغوب إليه.

الثامن: أنه في دارها، وتحت سلطانها وقهرها، بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها له، فاجتمع



داعي الرغبة والرهبة.

التاسع: أنه لا يخشى أن تنم عليه هي ولا أحد من جهتها، فإنها هي الطالبة الراغبة، وقد غلقت الأبواب وغابت الرقباء.

العاشر: أنه كان في الظاهر مملوكا لها في الدار، بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ولا ينكر عليه، وكان الأُنس سابقا على الطلب وهو من أقوى الدواعي، كما قيل لامرأة شريفة من أشرف العرب: ما حملك على الزنى؟ قالت: قرب الوساد، وطول السواد. تعني قرب وساد الرجل من وسادتي، وطول السواد بيننا.

فَكَاسِمَتِ بِكَرِهٍ أَنْ تَلِكَ إِلَيْهِ وَأَعْتَدَتْ لَهُمْ مُنَاسِكَاتٍ وَأَتَتْ كُلَّ رَجُلٍ وَنَمِنَ بِسِكِّينَا وَقَالَتْ أَخْرَجْ عَلَيَّ مِنْ هَذَا إِلَهِكَ كَرِهٍ ۝ قَالَتْ فَذَلِكَ الَّذِي لَمْ تُشْعُرْ بِهِ وَلَقَدْ رَوَاهُ عَنْ نَسِيءٍ ۝ فَاسْتَعَصَمَ وَلَيْنَ لَوْ يَعْلَمُ مَا أُمِرَ بِهِ لَمْ يَسْجُدْ وَلَكِنْ كَانَتْ مِنَ الصَّغِيرِينَ ۝ قَالَ رَبِّ السَّيِّئُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الْبَاطِلِ وَإِلَيْهِ وَالْأَصْرَفُ عَنِّي كَيْدُهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ۝ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ فَهَرَقَ عَنْهُ كَيْدُهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَدَأِ مَا رَأَوْا الْأَوَّلَ لِيَسْجُدُوا حَتَّى جَاءَ ۝ وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجَنَ فَتَبَيَّنَ قَالَ أَحَدُهُمَا لِيَأْتِي أَرْبَعِي أَصْبَحُ حُرًّا وَقَالَ الْآخَرُ لِيَأْتِي أَرْبَعِي لَأَحْمِلَ قَوْفَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الظُّلُمَةُ نَبَاتَاتِ أَوَّلِيَّةٍ إِنَّا نَرَى مِنْكَ مِنَ الْمُخْسِينَ ۝ قَالَ لَا بَأْسَ كَمَا عَلَّمَاؤُنَا قَالُوا لَا بَأْسَ كَمَا بَدَأَ أَوَّلِيَّةٍ قِيلَ أَنْ تَأْتِيَكُمَا إِلَهُكُمَا مَعَلَمِي رَبِّي إِلَيَّ تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝

الحادي عشر: أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال، فأرته إياهن، وشكت حالها إليهن؛ لتستعين بهن عليه، واستعان هو بالله عليهن، فقال: ﴿وَالَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

الثاني عشر: أنها توعدته بالسجن والصغار، وهذا نوع إكراه، إذ هو تهديد من يغلب على الظن وقوع ما هدد به، فيجتمع داعي الشهوة، وداعي السلامة من ضيق السجن والصغار.

٣- الثالث عشر: أن الزوج لم يظهر منه الغيرة والنخوة ما يفرق به بينهما، ويبعد كلا منهما عن صاحبه، بل كان غاية ما قابلها به أن قال ليوسف: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾، وللمرأة: ﴿وَأَسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع، وهنا لم يظهر منه غيرة.

ومع هذه الدواعي كلها فآثر مرضاة الله وخوفه، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنى: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣].

وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه، وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن؛ صبا إليهن بطبعه، وكان من الجاهلين، وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه.

وفي هذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على الألف فائدة، لعلنا إن وفق الله أن نفردها في مصنف مستقل. (الجواب الكافي ٣١٣-٣١٦).

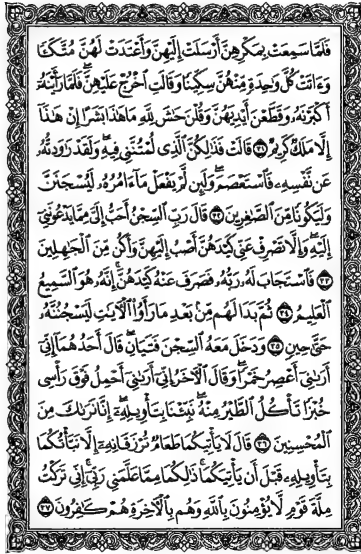
٤- فدل على أن الإخلاص سبب لدفع العشق وما يترتب عليه من السوء والفحشاء التي هي ثمرته ونتيجته، فصرف المسبب صرف لسببه. (زاد المعاد ٣/٣١٩).

٥- وقد حكي الله سبحانه في كتابه عن الشاهد

الذي شهد من أهل امرأة العزيز، وحكم بالقرائن الظاهرة على براءة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكذب المرأة بقوله: ﴿إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٣٦) وَإِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٣٨) [يوسف: ٢٦ - ٢٨].

وسمى الله سبحانه ذلك آية، وهي أبلغ من البينة، فقال: ﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْأَيَّاتِ لِيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ (٣٥) [يوسف: ٣٥].

وحكى سبحانه ذلك مقررًا له غير منكر، وذلك يدل على رضاه به. (إغاثة اللهفان ٢/٦٦). وقد جمع الله سبحانه وتعالى ليوسف الصديق صلوات الله وسلامه عليه بين الأمرين،



فاختار عقوبة الدنيا بالسجن على ارتكاب الحرام.

قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ (٣٢) قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾

فَلَمَّا سَمِعْتُ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلْتُ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدْتُ لَهُنَّ مَكْرًا
وَأَتَيْتُ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ بِكِتَابٍ أَتَتْهُنَّ وَأَخْرَجْتُ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ
أَكْثَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا
إِلَّا نَارُكَ كَرِيمٌ ﴿٣٢﴾ فَذَلِكَ الَّذِي لَمْ تُنْفِ فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدُّهُ
عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ
وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي
إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ
﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْعَذَابَ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ
عَنْهُمْ لَيَأْتِيَنَّ عَنْهُمْ سَاءٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَذَكَرَ مَعَهُ السَّجْنُ فَتَيَّابٌ قَالَ لَعَلَّهُمْ إِنِّي
أَرْسَلْتُ أَغْصُرُكُمْ وَأَقَالَ الْأَعْمَى إِنِّي أَرْسَلْتُ أَهْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي
خُزْنًا تَأْكُلُ الْقُلُوبَ وَمَنْ أُوْبِلِيهِ أَتَى بِهَا نَارَ بَلَدٍ مِنْ
الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيَكُمُ طَعَامٌ تُرْزَقُونَ إِلَّا نَبَأُ كَمَا
يَتَأَوَّلِيهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ ذَلِكَ كَمَا مَعَا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ
مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَبِّهِمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾

٦- اختار السجن على الفاحشة، ثم تبرأ إلى الله من حوله وقوته، وأخبر أن ذلك ليس إلا بمعونة الله له وتوفيقه وتأييده لا من نفسه فقال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فلا يركن العبد إلى نفسه وصبره وحاله وعفته، ومتى ركن إلى ذلك تخلت عنه عصمة الله وأحاط به الخذلان. (روضة المحبين ٤١٣).

٧- قالت امرأة العزيز للنسوة لما أرتهن إياه ليعذرنها في محبته ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾

أي هذا هو الذي فتنت به وشغفت بحبه فمن يلومني على محبته وهذا حسن منظره، ثم قالت: ﴿وَلَقَدْ رَوَدُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ أي فمنع هذا الجمال فباطنه أحسن من ظاهره، فإنه في غاية العفة والنزاهة والبعد عن الخنا، والمحب وإن غيب محبوبه فلا يجري لسانه إلا بمحاسنه ومدحه. (روضة المحبين ٢٢٤-٢٢٥).

قوله تعالى: ﴿مَاتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا﴾.

٨- إنما عبدوا المسميات ولكن من أجل أنهم نحلوها أسماء باطلة كاللات والعزى وهي مجرد أسماء كاذبة باطلة لا مسمى لها في الحقيقة فإنهم سموها آلهة وعبدوها لاعتقادهم حقيقة الإلهية لها وليس لها من الإلهوية إلا مجرد الأسماء لا

حقيقة المسمى فما عبدوا إلا أسماء لا حقائق لمسمياتها وهذا كمن سمى قشور البصل لحما وأكلها فيقال ما أكلت من اللحم إلا اسمه لا مسماه وكمن سمى التراب خبزا وأكله يقال: ما أكلت إلا اسم الخبز. بل هذا النفي أبلغ في آلهتهم فإنه لا حقيقة لإلهيتها بوجه وما الحكمة، ثم إلا مجرد الاسم فتأمل هذه الفائدة الشريفة في كلامه تعالى. (بدائع الفوائد ١/ ١٩-٢٠).

قوله تعالى: ﴿أَيُّهَا الْيَاقِينُ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا تَفْقَدُ صُورَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتَنَا لِنُغْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿٧٦﴾

٩- تأمل حذف المفعول في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠] ليصح

فَلَمَّا جَعَلُوا زَعِيمًا بِمَا هُم بَارِعُونَ فِيهِمْ جَعَلَ الْيَقِينُ فِي رَحْلِ أَخِيهِ
ثُمَّ أَدْنَى مِنْهُمْ أَيْتَهُ الْيَقِينُ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا
وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا تَفْقَدُ صُورَاعَ الْمَلِكِ
وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ
لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتَنَا لِنُغْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾
قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ
مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾
فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ
وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ
فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ
وَنُفِقُ كَيْدَ عَالِي عِلْمٍ ﴿٧٦﴾ قَالُوا لَبَّيْكَ يَاقِينُ ﴿٧٧﴾
فَقَدْ سَرَقَ أَخَاهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَسْأَلَ يُوسُفَ فِي تَقْيِيهِ
وَلَوْ يَبْذُرُهُمُ اللَّهُ قَالَ أَتَسْتَسْرِئُونَ مِنْهُ تَاللَّهِ أَغْلَمَ بِمَا
تَصْنَعُونَ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَيْسَ لَهُ الْبَرَاءَةُ إِنَّ لَهُ وَلَدًا مَن يَشَاءُ كَيْدًا
فَعَزَّزْنَا مَا تَكْتُمُ اللَّهُ لَكُمْ لَعَنَّا قَوْمَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٩﴾

أن يضمن سرقتهم ليوسف فيتم التعريض، ويكون الكلام صدقا، وذكر المفعول في قوله: ﴿تَفْقَدُ صُورَاعَ الْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٢]. وهو صادق في ذلك، فصدق في الجملتين معا تعريضا وتصريحا، وتأمل قول يوسف: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ﴾ [يوسف: ٧٩]. ولم يقل إلا من سرق، وهو أخصر لفظا، تحريا للصدق، فإن الأخ لم يكن سارقا بوجه، وكان المتاع عنده حقا؛ فالكلام من أحسن المعاريض وأصدقها.

١٠- وقد احتج بعض الفقهاء بقصة يوسف على أنه جازر للإنسان التوصل إلى أخذ حقه من الغير بما يمكنه الوصول إليه بغير رضا من عليه الحق.

قال شيخنا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذه الحجة ضعيفة؛ فإن يوسف لم يكن يملك حبس أخيه عنده بغير رضاه، ولم يكن هذا الأخ ممن ظلم يوسف حتى يقال إنه قد اقتص منه، وإنما سائر الإخوة هم الذين كانوا قد فعلوا ذلك، نعم تخلفه عنده كان يؤذيهم من أجل تأذي أبيهم والميثاق الذي أخذه عليهم، وقد استثنى

في الميثاق بقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦]. وقد أحيط بهم، ولم يكن قصد يوسف باحتباس أخيه الانتقام من إخوته؛ فإنه كان أكرم من هذا، وكان في ذلك من الإيذاء لأبيه.

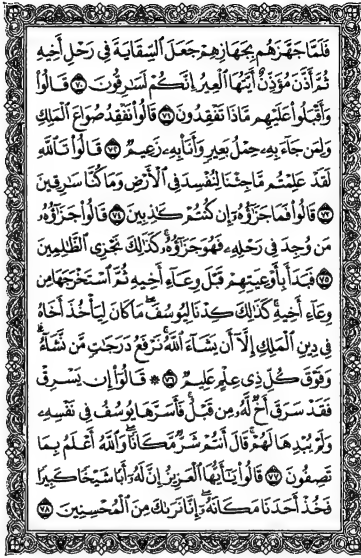
أعظم مما فيه من إيذاء إخوته، وإنما هو أمر أمره الله به ليلبغ الكتاب أجله ويتم البلاء الذي استحق به يعقوب ويوسف كمال الجزاء، وتبلغ حكمة الله التي قضاها لهم نهايتها.

١١- وهذا معلوم من فقه القصة وسياقها ومن حال يوسف.

ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَتٍ مَنْ شَاءَ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

فنسب الله تعالى هذا الكيد إلى نفسه كما نسبه إلى نفسه في قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ (١٥) [الطارق: ١٥]. ﴿وَإِكِيدُوا﴾ (١٦) [الطارق: ١٦]. وفي قوله: ﴿وَمَكْرُومًا مَكْرًا مَكْرًا﴾ [النمل: ٥٠]. وفي قوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

فَلَمَّا جَاءَهُ نَوْمٌ مَحَمَّهُ زَهْرَجَمَلُ السَّقَايَةِ فِي رَحْلِ أَبِيهِ
فَنَزَلَ نَوْمُهُ وَأَتَتْهُ الْوِزِيرَاتُ لِيَكُنَّ لِيُوسُفَ قَوْلًا
وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ فَأَنَّى تَقْدُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا تَقْدُ صُورَةَ الْمَلِكِ
وَلَيْسَ جَسَدُهُ بِجَسَدِ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَهْرَةٌ ﴿١٦﴾ قَالُوا تَقْدُ
لَقَدْ عَلِمْتُمْ فَمَاجِنَا لِنَقِيدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَرِقِينَ
﴿١٧﴾ قَالُوا فَكَيْفَ نَقْدُ مَا كُنَّا نَقْدُكُمْ كَذِبِينَ ﴿١٨﴾ قَالُوا اجْزَوْا
مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَمَوْجَزًا وَكَذَلِكَ تَجْرِي الْقُلُوبُ
﴿١٩﴾ فَجَاءَ أَبَا يَحْيَى بَعِيرُهُ قَبْلَ وَعَاةِ أُجَيْدٍ ثُمَّ اسْتَمَرَّ جَاهِلِينَ
وَعَاةِ أُجَيْدٍ كَذَلِكَ كَذَبَ لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ
فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَتٍ مَنْ شَاءَ
وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٢٠﴾ قَالُوا لَبَّاسُ يَسْرِفُ
فَقَدْ سَرَقَ أَحَدٌ لَمْ يَنْ قَبْلَ فَاسْتَرْهَا يُوسُفَ فِي تَقْسِيمِهِ
وَلَمْ يَبْدُهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكْرًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
تَصِفُونَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا أَبَا الْعَزِيزِ إِنَّ لَهُ أَلْفًا مِائَةً حَافِيًا
فَتُحْذَرُ أَحَدًا مَكْرًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٢٢﴾



وقد قيل: إن تسمية ذلك مكرًا وكيدًا واستهزاء
وخداعًا من باب الاستعارة ومجاز المقابلة نحو:
﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِثْلَهَا﴾ [الشورى: ٤٠]. ونحو قوله:
﴿فَمَنْ أَعَدَّيْ عَلَيْكُمْ فَأَعِدُّوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّيْ عَلَيْكُمْ﴾
[البقرة: ١٩٤]. وقيل وهو أصوب: بل تسميته بذلك حقيقة
على بابه؛ فإن المكر إيصال الشيء إلى الغير بطريق
خفي، وكذلك الكيد والمخادعة، ولكنه نوعان: قبيح
وهو إيصال ذلك لمن لا يستحقه، وحسن وهو إيصاله
إلى مستحقه عقوبة له؛ فالأول مذموم والثاني ممدوح،

والرب تعالى إنما يفعل من ذلك ما يحمد عليه عدلاً منه وحكمة، وهو تعالى يأخذ الظالم
والفاجر من حيث لا يحتسب لا كما يفعل الظلمة بعباده.

وأما السيئة فهي فيعلة مما يسوء، ولا ريب أن العقوبة تسوء صاحبها؛ فهي سيئة
له حسنة من الحكم العدل.

١٢- وإذا عرفت ذلك فيوسف الصديق كان قد كيد غير مرة: أولها أن إخوته كادوا
به كيدا حيث احتالوا به في التفريق بينه وبين أبيه، ثم إن امرأة العزيز كادته بما أظهرت
أنه راودها عن نفسها، ثم أودع السجن، ثم إن النسوة كادوه حتى استعاذ بالله من
كيدهن فصرفه عنه، وقال له يعقوب: ﴿لَا تَقْصُصْ رَأْيَكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾
[يوسف: ٥]. وقال الشاهد لامرأة العزيز: ﴿إِنَّهُمْ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف:
٢٨]. وقال: ﴿أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالَ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾
[يوسف: ٥٠]. فكاد الله له أحسن كيد وأطفه وأعدله، بأن جمع بينه وبين أخيه، وأخرجه
من أيدي إخوته بغير اختيارهم كما أخرجوا يوسف من يد أبيه بغير اختياره، وكاد له

فَلَمَّا جَعَلَهُمْ بِجَاهِهِمْ جَعَلَ السَّاقِيَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ
ثُمَّ أَدْنَى مَوْزُونَ أَيُّهَا الْغَيْرُ لَمْ تَكُنْ لَمْ تَكُنْ لَمْ تَكُنْ
وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَقْعُدُونَ ۖ قَالُوا تَقْعُدُونَ الصَّوَاعِ الْكَلْبِ
وَلَمْ يَجَافِ بِهِ جَعَلَ بَعْدَ وَأَنَا بِهِ رَجِيمٌ ۖ قَالُوا أَتَأْتِيهِ
لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جَعَلْنَا لِنَفْسِنَا فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ
قَالُوا أَفَلَا جَزَاءُ لِمَنْ كَثُرَ كَذِبِينَ ۖ قَالُوا أَجَزَاءُ
مَنْ رُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاءُ ۖ كَذَلِكَ يَجْزِي الظَّالِمِينَ
قَالَ أَبُو بَكْرٍ يَحْمِلُ رَجُلٌ وَعَاءَ أَخِيهِ ثُمَّ أَسْتَحْضَرَهُمَا
وَعَاءَ أَخِيهِ كَذَلِكَ كَذَلِكَ يَوْسُفُ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ
فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَتَيْنِ فَنُفِثَ
وَوُفِّي كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ ۖ قَالُوا لَا بَشَرِي
فَقَدْ سَرَقَ ثُمَّ لَمْ يَكُنْ قَبْلَ فَاسْتَرْجَاهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ
وَلَمْ يَبْدِهَا لَهُمْ قَالُوا نَشْرُوكُكَ بِاللَّهِ أَفَلَمْ يَسْمَعْ
نَصِيحَتِنَ ۖ قَالُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَلْفًا مِائَةً كَثِيرًا
فَخَذَ أَخَاهُ تَامَكَ أَنَّهُ إِذَا تَرَكَ مِنَ الْمُسَيِّبَاتِ ۖ

عوض كيد المرأة بأن أخرجه من ضيق السجن إلى
فضاء الملك، ومكنه في الأرض يتبوأ منها حيث
يشاء، وكاد له في تصديق النسوة اللاتي كذبنه وراودنه
حتى شهدن ببراءته وعفته، وكاد له في تكذيب امرأة
العزیز لنفسها واعترافها بأنها هي التي راودته وأنه من
الصادقين؛ فهذه عاقبة من صبر على كيد الكائد له بغيا
وعدوانا. (إعلام الموقعين ٣/ ٢٧٤-٢٨٢).

والمقصود: أن الله سبحانه كاد ليوسف عليه السلام،

بأن جمع بينه وبين أخيه، وأخرجه من أيدي إخوته بغير

اختيارهم، كما أخرجوا يوسف من يد أبيه بغير اختياره. وكاد له بأن أوقفهم بين يديه
موقف الذليل الخاضع المستجدي، فقالوا: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضُّرَّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ
مُزْجَنَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨]. فهذا الذل
والخضوع في مقابلة ذله وخضوعه لهم يوم إلقائه في الجب وبيعه بيع العبيد. وكاد له بأن
هيا له الأسباب التي سجدوا له هم وأبوه وخالته، في مقابلة كيدهم له، حذرا من وقوع
ذلك، فإن الذي حملهم على إلقائه في الجب خشيتهم أن يرتفع عليهم حتى يسجدوا له
كلهم، فكادوه خشية ذلك. فكاد الله تعالى له حتى وقع ذلك. كما رآه في منامه.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾.

١٣ - كيد الله تعالى لا يخرج عن نوعين: أحدهما وهو الأغلب: أن يفعل تعالى فعلا
خارجا عن قدرة العبد الذي كاد له؛ فيكون الكيد قدرا [زائدا] محضا ليس هو من باب لا
يسوغ، كما كاد أعداء الرسل بانتقامه منهم بأنواع العقوبات، وكذلك كانت قصة يوسف؛
فإن أكثر ما أمكنه أن يفعل أن ألقى الصواع، في رحل أخيه، وأن أذن مؤذن بسرقتهم،

فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِهَا زَهْرٌ جَمَلٌ لَتَقَاتِبَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ
ثُمَّ أَذِنَ مُؤَدِّيُهَا لَهَا أَنْ تَسْرِقَ قَالُوا
وَأَتَّبَعُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَقْعُدُونَ قَالُوا لَقَدْ مُدْخِلُ الْتَلَايَا
وَلَمَّا جَاءَهُمْ بِهَا زَهْرٌ جَمَلٌ لَتَقَاتِبَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ
لَقَدْ عَلِمْتُمْ فَاخِضًا لِنَفْسِهِ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ
قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ قَالُوا جَزَاؤُهُ
مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الْفَاقِلِينَ
قَالَ يَا أَبَتِ هَذَا الَّذِي رَوَيْتَ عَنْكَ أَجِيبْهُمْ أَشْرَعُ هَلْ يَكُونُ
وَعَاءُ أَجِيبُ كَذَلِكَ كَذَبًا لِيُؤْثِرُوا مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ
فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ
وَقَوْكَ كَلِمَ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ قَالُوا لَنْ نَسْرِقَ
فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلِ فَأَسْرَبْنَا يَوْسُفَ فِي نَفْسِهِ
وَلَمْ يَبْدُوا لَهُمْ قَالَ أَسْرَبْنَا يَوْسُفَ وَأَخَاهُ وَأَخَاهُ بِمَا
نَصَبُونَا قَالُوا يَا أَبَتِ الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا مِثْلَكَ بِمَا
فَعَدَّ أَحَدُنَا مَكَانَهُ وَإِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْضَرِينَ

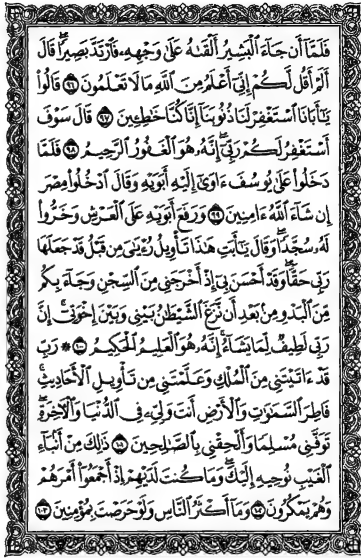
فلما أنكروا قال: ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ [يوسف: ٧٤]. أي جزاء السارق أو جزاء السرقة: ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ [يوسف: ٧٥]. أي جزاءه نفس السارق، يستعبده المسروق منه إما مطلقاً وإما إلى مدة، وهذه كانت شريعة آل يعقوب.

وكان إلهام الله تعالى لإخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام قولهم: ﴿مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ [يوسف: ٧٥]؛ كيدا من الله تعالى ليوسف عَلَيْهِ السَّلَام، أجراه على ألسن إخوته، وذلك خارج عن قدرته. وكان يمكنهم أن يتخلصوا من ذلك، بأن يقولوا: لا جزاء عليه، حتى يثبت أنه هو الذي سرق، فإن مجرد وجوده في رحله لا يوجب أن يكون سارقاً.

وقد كان يوسف عَلَيْهِ السَّلَام عادلاً لا يأخذهم بغير حجة، وكان يمكنهم التخلص أيضاً بأن يقولوا: جزاؤه أن يفعل به ما تفعلونه بالسراق في دينكم، وقد كان من دين ملك مصر - فيما ذكر - أن السارق يضرب ويغرم قيمة المسروق مرتين، فلو قالوا له ذلك، لم يمكنه أن يلزمهم بما لا يلزم به غيرهم، فلذلك قال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [يوسف: ٧٦] أي ما كان ليتمكنه أخذه في دين ملك مصر، لأنه لم يكن في دينه طريق إلى أخذه.

﴿قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾﴾

١٤ - استثناء منقطع، أي لكن إن شاء الله أخذه بطريق آخر، ويجوز أن يكون متصلاً، والمعنى: إلا أن يهيئ الله سبباً آخر يؤخذ به في دين الملك غير السرقة.



النوع الثاني: أن يلهمه أمرا مباحا، أو مستحبا، أو واجبا، يوصله به إلى المقصود الحسن، فيكون على هذا إلهامه ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يفعل ما فعل هو من كيده سبحانه أيضا، فيكون قد كاد له نوعي الكيد، ولهذا قال سبحانه: ﴿ نَرَفَعُ دَرَجَتٍ مِّنْ نَّشَأٍ ﴾ [يوسف: ٧٦].

وفي ذلك تنبيه على أن العلم الدقيق بلطيف الحيل الموصلة إلى المقصود الشرعي الذي يحبه الله تعالى ورسوله، من نصر دينه وكسر أعدائه، ونصر المحق وقمع المبطل: صفة مدح يرفع الله تعالى بها درجة العبد. (إغاثة اللهفان ١٠٨/٢ - ١١٩).

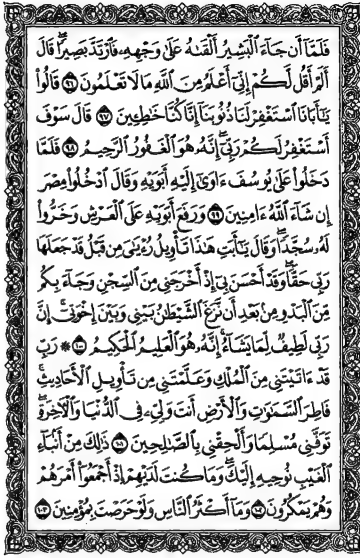
📖 قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾.

١٥ - لعله إنما قالها عند تلقيه لهم، ويكون دخولهم عليه في منزل اللقاء فقال لهم حينئذ ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ فهذا محتمل.

وإن كان إنما قال لهم ذلك بعد دخولهم عليه في دار مملكته، فالمعنى: ادخلوها دخول استيطان واستقرار آمينين إن شاء الله. (إعلام الموقعين ٩٣/٤).

📖 قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾.

١٦ - أخبر أنه يلطف لما يريد فيأتي به بطرق خفية لا يعلمها الناس واسمه اللطيف يتضمن علمه بالأشياء الدقيقة وإيصاله الرحمة بالطرق الخفية ومنه التلطف كما قال أهل الكهف: ﴿ وَكَانَ ظَاهِرًا مَّا أَمْرُهُمْ عَلَيْهِمْ فَلَمَّا هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهُ لَمَحُوا مِنْ ثَمَرٍ أُنْزِلَ مِنْ فَوْقِهِمْ خِيَلُوا إِلَيْهِمْ رَاحِلَ الْإِنْسَانِ الْأَخْبَرُ الْأَخْبَرُ ﴾ فكان ظاهر ما امتحن به يوسف من مفارقة أبيه وإلقائه في السجن وبيعه رقيقا، ثم مراودة التي هو في بيتها عن نفسه وكذبها



عليه وسجنه محنا ومصائب وباطنها نعمًا وفتحًا جعلها الله سببا لسعادته في الدنيا والآخرة، ومن هذا الباب ما يتبلي به عباده من المصائب ويأمرهم به من المكاره وينهاهم عنه من الشهوات هي طرق يوصلهم بها إلى سعادتهم في العاجل والآجل وقد حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات. (شفاء العليل ٣٤).

📖 قوله تعالى: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

١٧- جمعت هذه الدعوة الإقرار بالتوحيد والاستسلام للرب وإظهار الافتقار إليه والبراءة من موالاة غيره سبحانه وكون الوفاة على الإسلام أجل غايات العبد وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد والاعتراف بالمعاد وطلب مرافقة السعداء. (الفوائد ١٩٦).

📖 قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾.

١٨- قال الفراء وجماعة: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ معطوف على الضمير في ﴿أَدْعُوا﴾ يعني: ومن اتبعني يدعو إلى الله كما أدعو. وهذا قول الكلبي، قال: حق على كل من اتبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه ويذكر بالقرآن والموعظة.

١٩- ويقوى هذا القول من وجوه كثيرة.

قال ابن الأنباري: ويجوز أن يتم الكلام عند قوله ﴿إِلَى اللَّهِ﴾، ثم يتدئ بقوله: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ فيكون الكلام على قوله جملتين أخبر في أولاهما أنه يدعو إلى الله، وفي الثانية بأنه من أتباعه على بصيرة. والقولان متلازمان، فلا يكون

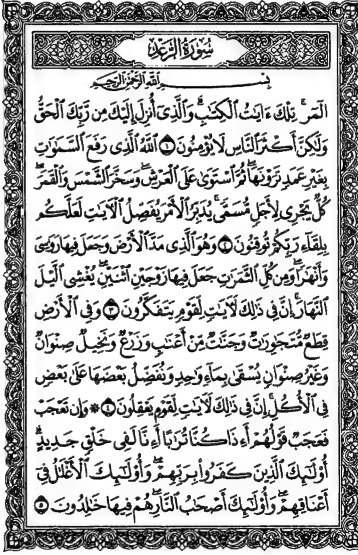
قَالُوا فَلَنَنبَأَ الْبَشِيرَ الْفَقِيرَ عَلَى وَجْهِهِ مَا يَدْعِيهِمْ أَفَلَا
أَتُواهُمُ الْكُفْرَ إِلَى آخِرَتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ مُتَعَلِّمًا ۝ قَالُوا
يَا بَنَاهَا اسْتَمِعُوا لَنَا نَدْعُوكَ أَنْ تَكُونَ عَاطِلِينَ ۝ قَالَ سَوْفَ
أَسْتَمِعُ لَكُمْ إِنِّي أَتَمُّ بِهِمْ أَتَدْعُونِي إِلَى أَنْ أَكُونَ مِنَ الْفُتَنَةِ ۝ فَلَمَّا
دَخَلُوا عَلَيْهِمْ قَالَ يَسُفَءُ بَوَاقِيَهُمْ وَأَقَالَهُمْ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَامِينَ ۝ وَرَفَعَ أَبُوتَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا
لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ دَخَلْنَا أَرْضَ
كَرَى فَفَقَدْنَا مِنْ آخِرَتِهَا إِذِ الْخُرُوجِ مِنَ الْعِيْنِ وَجَاءَ بِكَ
مِنَ الْكُفْرَةِ مِنْ عَدُوٍّ لَكَ الْفِتْنَةُ فَخَلَّيْنَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخُوهُ إِذْ
رَفَعَ لِيُحْيِيَ لِسَانَهُ إِنَّهُ هُوَ الْفِتْنَةُ الْحَكِيمُ ۝ وَبِ
قَدَرٍ أَتَيْنِي مِنَ الْفَالِكِ وَخَلَّيْنَا مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ
فَالْمَلَكُ اسْتَوَى وَالْأَرْضُ سَطَتْ وَلِي فِي الذِّبَانِ الْإِحْرَارُ
تَوَكَّلْ عَلَى مُسْلِمَيْهِ الْإِحْيَى وَالْخَالِجِينَ ۝ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ
الْغَيْبِ يُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ تَنْظُرُهُ إِذْ أَمْعَمُوا أَسْرَفُهُ
وَهُمْ يَتَكَبَّرُونَ ۝ وَمَا أَكْثَرَ الْقَائِلِينَ أَلَوْ خَرَجْتَ مِنْ يُثُومِينَ ۝

بصيرة وأنا أدعو إلى الله، أو المعنى: أدعو إلى الله على بصيرة. والقولان متلازمان، فإنه لا يكون من أتباعه حقا إلا من دعا إلى الله على بصيرة كما كان متبوعه يفعل، فهؤلاء خلفاء الرسل حقا وورثتهم دون الناس وهم أولو العلم الذين قاموا بما جاء به علما وعملا وهداية وإرشادا وصبرا وجهادا، وهؤلاء هم الصديقون وهم أفضل أتباع الأنبياء، ورأسهم وإمامهم الصديق الأكبر أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. (مفتاح دار السعادة (٨٥).



سورة الرعد

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَلَمْ يَأْتِ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ﴾



أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَلُ
فِي آعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴿٦٢﴾

١- في الآية قولان:

أحدهما: إن تعجب من قولهم: ﴿أءِذَا كُنَّا تُرَابًا
أَلَمْ يَأْتِ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥]، فعجب قولهم! كيف
ينكرون هذا، وقد خلقوا من تراب، ولم يكونوا شيئاً؟
والثاني: إن تعجب من شركهم مع الله غيره،

وعدم انقيادهم لتوحيده وعبادته وحده لا شريك له، فإنكارهم للبعث وقولهم ﴿أءِذَا
كُنَّا تُرَابًا أَلَمْ يَأْتِ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥] أعجب!

وعلى التقديرين: فإنكار المعاد عجب من الإنسان، وهو محض إنكار الرب
والكفر به، والجدل لإلهيته وقدرته، وحكمته وعدله وسلطانه. (مدارج السالكين ١/١٢٦).

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۚ﴾

٢- التحقيق في معنى الآية أنه يعلم مدة الحمل وما يعرض فيها من الزيادة
والنقصان، فهو العالم بذلك دونكم كما هو العالم بما تحمل كل أنثى هل هو ذكر أو
أنثى. وهذا أحد أنواع الغيب التي لا يعلمها إلا الله كما في الصحيح عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
«مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله: لا يعلم متى تجيء الساعة إلا الله، ولا يعلم

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْمَعُونَ لَهُمْ شَيْئًا وَلَا كَيْفَ تَهْتِكُ إِلَى السَّمَاءِ يَتَذَكَّرُ الْمَلَكُوتُ وَمَا هُوَ بِرَاجِعٍ إِلَى الْكَوْبِ إِلَّا فِي سَبِيلٍ ۚ وَيَوْمَ لَا تُبْقَى السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ مَلُوكًا وَكَيْفَ تَطْلُقُهُمْ بِالْهُدُوءِ وَالْأَصْبَالِ ۚ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَتَأْخُذُكُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْتُمْ بَشَرٌ تَقُولُ وَالْأَرْضُ قُلُوبُ الْإِنْسَانِ وَالْبَصِيرُ أَرَاهُ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا الْفُلُوكَ وَفَتَنَتُهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلْ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهْرُ ۚ أَوَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مِائَةَ مِائَةٍ أَوْ دُونَ ذَلِكَ قَدْ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا يَأْتُونَ بِشَيْءٍ إِلَّا فِي تَارِيخٍ أَوْ مَتَمِّعٍ زَيْدٍ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۚ وَأَمَّا مَنِعَ النَّاسِ أَنْ يَمْلِكُوا فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ۚ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلْحَقِّ وَالَّذِينَ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُ ۚ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مِثْقَالَ أَرْضٍ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ لَأَخَذَتْهُمُ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ۚ

ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يجيء الغيث إلا الله، ولا يعلم ما في الأرحام إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله».

فهو سبحانه المنفرد بعلم ما في الرحم، وعلم وقت إقامته فيه، وما يزيد من بدنه وما ينقص، وما عدا هذا القول فهو من توابعه ولوازمه كالسقوط والتام ورؤية الدم وانقطاعه. (تحفة الودود ٢٢٩-٢٣٠).

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ

قُلْ أَفَتَأْخُذُكُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا

وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلْ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهْرُ ۚ

٣- احتج على تفرده بالإلهية بتفرده بالخلق، وعلى بطلان إلهية ما سواه بعجزهم عن الخلق، وعلى أنه واحد بأنه قهار والقهر التام يستلزم الوحدة، فإن الشركة تنافي تمام القهر. (الصواعق المرسلة ٢/ ٤٦٥-٤٦٦).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولَئِكَ مَنْ هُوَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولَئِكَ الْآلَبِ

﴿١٩﴾

٤- هذه شهادة من الله على عَمَى هؤلاء وهي موافقة لشهادتهم على أنفسهم بالحيرة والشك وشهادة المؤمنين عليهم. (الصواعق المرسلة ٣/ ٨٥١).

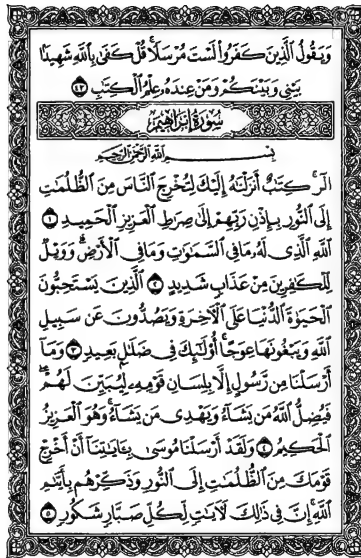
قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولَئِكَ الْآلَبِ﴾ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَقْضُونَ الْمِيقَاتِ ﴿٢٠﴾

وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ

* أَقْبَرُ بِدَعْوَةِ الرَّسُولِ إِلَيْكَ مِنْ دَعْوَةِ الْكُفَرِ لَوْ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ
 أَوَّلَ الْأَنْبِيَاءِ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يُغْنِيهِنَّ الْيَمِينُ
 ۝ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا مَأْتَاهُمْ بِهِ إِنْ يُوصَلْ يُخْشَوْنَ زَعَمَهُ
 وَيَخَافُونَ سَوْءَ الْحِسَابِ ۝ وَالَّذِينَ صَبَرُوا أَبْتِغَاءَ وَجْهِهِ
 وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدُورُونَ
 بِالْحَسَنَةِ أَتَيْنَهُ أُولَئِكَ لَمْ يُغْنِي الْدَارَ ۝ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا
 وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آلِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ وَالْعِبَادُ الَّذِينَ كَانُوا يُدْعَوْنَ
 عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ۝
 وَالَّذِينَ يُضْطَرُّونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ فَيَقْبَلُوهُ
 مَا آتَاهُمُ بِهِ إِنْ يُوصَلْ وَيُغْشَوْنَ مِنَ الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ
 الْفَتْحَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۝ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ
 وَيَقْدِرُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي فَهْمٍ الذِّكْرُ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ إِلَّا
 سَعِيرٌ ۝ وَقَوْلِ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّا أُولُوعَلَيْهِمْ مِنْ دَعْوَةِ
 رَبِّنَا لَأَنفَكْنَا مِنْهُمُ ثَمَنًا يَبُورُ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا
 وَتَزَلَّجَتْ بَيْنَهُمْ ذِكْرُ اللَّهِ أَفِيدُوا كَرَاهَةً تَحْذَرُهَا الْقُلُوبُ ۝

سورة إبراهيم

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾.



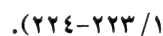
١- الصواب أن أيامه تعم النوعين، وهي وقائعه التي أوقعها بأعدائه، ونعمه التي ساقها إلى أوليائه، وسميت هذه النعم والنقم الكبار المتحدث بها أياما لأنها ظرف لها، تقول العرب: فلان عالم بأيام العرب وأيام الناس، أي بالوقائع التي كانت في تلك الأيام، فمعرفة هذه الأيام توجب للعبد استبصار العبر،

وبحسب معرفته بها تكون عبرته وعظمته، قال الله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

ولا يتم ذلك إلا بالسلامة من الأغراض، وهي متابعة الهوى والانقياد لداعي النفس الأمارة بالسوء، فإن اتباع الهوى يطمس نور العقل، ويعمي بصيرة القلب، ويصد عن اتباع الحق، ويضل عن الطريق المستقيم، فلا تحصل بصيرة العبرة معه البتة، والعبد إذا اتبع هواه فسد رأيه ونظره، فأرته نفسه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن، فالتبس عليه الحق بالباطل، فأنى له الانتفاع بالتذكر أو بالتفكير أو بالعظة؟ (مدارج السالكين ١/ ٤٤٨-٤٤٩).

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾.

٢- فعجبوا من تركهم التوكل على الله [وهو] هداهم، [وأقروا] أن ذلك لا



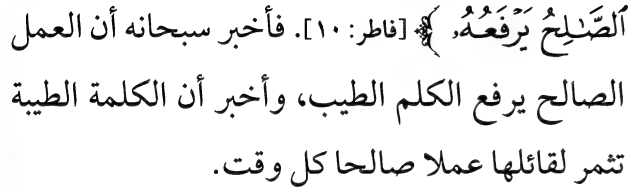
قوله تعالى: ﴿لَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۚ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْآمَنَاتِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٤﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ۝٢٥﴾

تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْآمَنَاتِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٤﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ۝٢٥﴾

٤- إذا تأملت هذا التشبيه رأيت مطابقاً لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب، التي فروعها من الأعمال الصالحة صاعدة إلى السماء، ولا تزال هذه

الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت؛ بحسب ثباتها في القلب، ومحبة القلب لها، وإخلاصه فيها، ومعرفته بحقيقتها، وقيامه بحقوقها، ومراعاتها حق رعايتها، فمن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها التي هي حقيقتها واتصف قلبه بها وانصبغ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغة منها فعرف حقيقة الإلهية التي يثبتها قلبه لله ويشهد بها لسانه وتصدقها جوارحه، ونفى تلك الحقيقة ولو ازماها عن كل ما سوى الله، وواطأ قلبه لسانه في هذا النفي والإثبات، وانقادت جوارحه لمن شهد له بالوحدانية طائفة سالكة سبل ربه ذللاً غير ناكبة عنها ولا باغية سواها بدلاً كما لا يبتغي القلب سوى معبوده الحق بدلاً.

فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الله كل وقت؛ فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الرب تعالى، وهذه الكلمة الطيبة تثمر كلما كثيراً طيباً يقارنه عمل صالح فيرفع العمل الصالح الكلم الطيب، كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ



الزكية والسمت الصالح والهدي والدل المرضي، فيستدل على غرس هذه الشجرة في القلب وثبوتها فيه بهذه الأمور، فإذا كان العلم صحيحا مطابقا لمعلومه الذي أنزل الله كتابه به والاعتقاد مطابقا لما أخبر به عن نفسه وأخبرت به عنه رسله والإخلاص قائم في القلب والأعمال موافقة للأمر، والهدي والدل والسمت مشابه لهذه الأصول مناسب لها، علم أن شجرة الإيمان في القلب أصلها ثابت وفرعها في السماء، وإذا كان الأمر بالعكس علم أن القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار.

ومنها: أن الشجرة لا تبقى حية إلا بمادة تسقيها وتنميتها، فإذا قطع عنها السقي أو شك أن تيسر، فهكذا شجرة الإسلام في القلب إن لم يتعاهدها صاحبها بسقيها كل وقت بالعلم النافع والعمل الصالح والعود بالتذكر على التفكير والتفكر على التذكر، وإلا أو شك أن تيسر، وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْإِيمَانَ يَخْلُقُ فِي الْقَلْبِ كَمَا يَخْلُقُ الثُّوبُ فَجَدِّدُوا إِيْمَانَكُمْ» وبالجملة

قُلْ أَكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا كَانَ ثَمَرُهَا ۖ وَإِذَا سَقَى الْمَاءَ مِنْ قُنُوتِهِ فَاسْقُوا مِنْهُ ۚ وَإِذَا حَرَسَهُمْ فَلْيَحْذَرُوا خَطَرَهُ ۚ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ خَفِيرٌ ۚ
 قُلْ أَكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا كَانَ ثَمَرُهَا ۖ وَإِذَا سَقَى الْمَاءَ مِنْ قُنُوتِهِ فَاسْقُوا مِنْهُ ۚ وَإِذَا حَرَسَهُمْ فَلْيَحْذَرُوا خَطَرَهُ ۚ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ خَفِيرٌ ۚ
 قُلْ أَكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا كَانَ ثَمَرُهَا ۖ وَإِذَا سَقَى الْمَاءَ مِنْ قُنُوتِهِ فَاسْقُوا مِنْهُ ۚ وَإِذَا حَرَسَهُمْ فَلْيَحْذَرُوا خَطَرَهُ ۚ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ خَفِيرٌ ۚ
 قُلْ أَكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا كَانَ ثَمَرُهَا ۖ وَإِذَا سَقَى الْمَاءَ مِنْ قُنُوتِهِ فَاسْقُوا مِنْهُ ۚ وَإِذَا حَرَسَهُمْ فَلْيَحْذَرُوا خَطَرَهُ ۚ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ خَفِيرٌ ۚ
 قُلْ أَكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا كَانَ ثَمَرُهَا ۖ وَإِذَا سَقَى الْمَاءَ مِنْ قُنُوتِهِ فَاسْقُوا مِنْهُ ۚ وَإِذَا حَرَسَهُمْ فَلْيَحْذَرُوا خَطَرَهُ ۚ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ خَفِيرٌ ۚ
 قُلْ أَكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا كَانَ ثَمَرُهَا ۖ وَإِذَا سَقَى الْمَاءَ مِنْ قُنُوتِهِ فَاسْقُوا مِنْهُ ۚ وَإِذَا حَرَسَهُمْ فَلْيَحْذَرُوا خَطَرَهُ ۚ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ خَفِيرٌ ۚ
 قُلْ أَكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا كَانَ ثَمَرُهَا ۖ وَإِذَا سَقَى الْمَاءَ مِنْ قُنُوتِهِ فَاسْقُوا مِنْهُ ۚ وَإِذَا حَرَسَهُمْ فَلْيَحْذَرُوا خَطَرَهُ ۚ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ خَفِيرٌ ۚ
 قُلْ أَكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا كَانَ ثَمَرُهَا ۖ وَإِذَا سَقَى الْمَاءَ مِنْ قُنُوتِهِ فَاسْقُوا مِنْهُ ۚ وَإِذَا حَرَسَهُمْ فَلْيَحْذَرُوا خَطَرَهُ ۚ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ خَفِيرٌ ۚ
 قُلْ أَكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا كَانَ ثَمَرُهَا ۖ وَإِذَا سَقَى الْمَاءَ مِنْ قُنُوتِهِ فَاسْقُوا مِنْهُ ۚ وَإِذَا حَرَسَهُمْ فَلْيَحْذَرُوا خَطَرَهُ ۚ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ خَفِيرٌ ۚ
 قُلْ أَكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا كَانَ ثَمَرُهَا ۖ وَإِذَا سَقَى الْمَاءَ مِنْ قُنُوتِهِ فَاسْقُوا مِنْهُ ۚ وَإِذَا حَرَسَهُمْ فَلْيَحْذَرُوا خَطَرَهُ ۚ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ خَفِيرٌ ۚ

فالغرس إن لم يتعاهده صاحبه أوشك أن يهلك، ومن هنا تعلم شدة حاجة العباد إلى ما أمر الله به من العبادات على تعاقب الأوقات وعظيم رحمته وتمايم نعمته وإحسانه إلى عباده بأن وظفها عليها وجعلها مادة لسقي غراس التوحيد الذي غرسه في قلوبهم.

ومنها: أن الغرس والزرع النافع قد أجرى الله سبحانه العادة أنه لا بد أن يخالطه دغل ونبت غريب ليس من جنسه، فإن تعاهده ربه ونقاؤه وقلمه كمل الغرس والزرع، واستوى، وتم نباته، وكان أوفر

لثمرته، وأطيب وأزكى، وإن تركه أوشك أن يغلب على الغرس والزرع، ويكون الحكم له، أو يضعف الأصل ويجعل الثمرة ذميمة ناقصة بحسب كثرتة وقلته، ومن لم يكن له فقه نفس في هذا ومعرفة به فإنه يفوته ربح كبير وهو لا يشعر؛ فالمؤمن دائماً سعيه في شيئين: سقي هذه الشجرة، وتنقية ما حولها، فبسقيها تبقى وتدوم وتنقية ما حولها تكمل وتتم، والله المستعان وعليه التكلان.

فهذا بعض ما تضمنه هذا المثل العظيم الجليل من الأسرار والحكم، ولعلها قطرة من بحر بحسب أذهاننا الواقفة، وقلوبنا المخطئة، وعلومنا القاصرة، وأعمالنا التي توجب التوبة والاستغفار، وإلا فلو طهرت منا القلوب، وصفت الأذهان وزكت النفوس، وخلصت الأعمال، وتجردت لهم للتلقي عن الله ورسوله؛ لشاهدنا من معاني كلام الله وأسراره وحكمه ما تضحل عنده العلوم، وتلاشى عنده معارف الخلق.

وبهذا تعرف قدر علوم الصحابة ومعارفهم، وأن التفاوت الذي بين علومهم وعلوم من بعدهم كالتفاوت الذي بينهم في الفضل، والله أعلم حيث يجعل مواقع

فضله ومن يختص برحمته.

وإذا تأمل اللبيب أكثر كلام هذا الخلق في خطابهم وكتبهم وجده كذلك؛ فالخسران الوقوف معه والاشتغال به عن أفضل الكلام وأنفعه، [الذي هو كتاب الرب سبحانه].

📖 قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (١٧) .

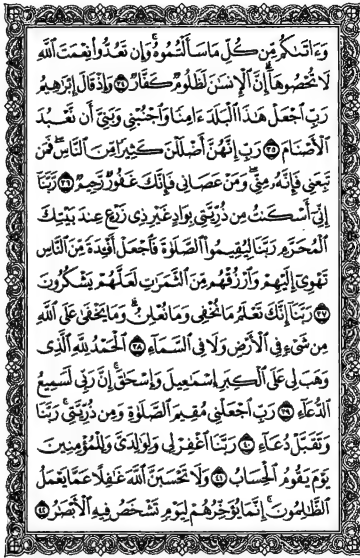
ثَوْبِي أَخْلَعَهَا كُلَّ جَنِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَمَثَلُ كَيْدِهِمْ خَيْبَةٌ
كَشَجَرَةٍ حَبِيبَةٍ أُجْنِفَتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ
قَرَارٍ ﴿١٨﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ
مَا يَشَاءُ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا
وَأَحَلُّوا قُلُوبَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٠﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَهُمْ
لَا مُقَرَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ
تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٢٢﴾ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ
ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا زَكَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُسْرًا وَذَلِكُمْ
فِي قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يُؤْمَرُونَ بِهِ وَلَا يُجِلُّونَ ﴿٢٣﴾ اللَّهُ الَّذِي
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ
بِهِ مِنَ الْأَشْجَارِ رُزْقًا كَثِيرًا وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَاحَ لَتَجْزِيَ
فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ وَالْأَنْهَارَ ﴿٢٤﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ
الْأَنْفُسَ وَالْقُلُوبَ وَالْأَبْصَارَ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْبَلَدَ وَالْأَنْهَارَ ﴿٢٥﴾

٦- تحت هذه الآية كنز عظيم من وفق لمظنته وأحسن استخراجيه واقتناؤه وأنفق منه فقد غنم، ومن حرمه فقد حرم، وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت الله له طرفة عين، فإن لم يشبته وإلا زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما، وقد قال تعالى لأكرم خلقه عليه عبده ورسوله: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَاكَ لَفَدَكْتَ تَرَكَّنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (٧٤) [الإسراء: ٧٤]. وقال تعالى لأكرم خلقه: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَأَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢]. وفي الصحيحين

من حديث البجلي قال: «وهو يسألهم ويشبثهم» وقال تعالى لرسوله: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]. فالخلق كلهم قسمان: موفق بالتثبيت، ومخذول بترك التثبيت، ومادة التثبيت أصله ومنشؤه من القول الثابت وفعل ما أمر به العبد، فبهما يثبت الله عبده، فكل من كان أثبت قولاً وأحسن فعلاً كان أعظم تثبيتاً، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا﴾ [النساء: ٦٦]. فأثبت الناس قلباً أثبتهم قولاً، والقول الثابت هو القول الحق والصدق،

وهو ضد القول الباطل الكذب؛ فالقول نوعان: ثابت له حقيقة، وباطل لا حقيقة له،

وأثبت القول كلمة التوحيد ولوازمها، فهي أعظم ما يثبت الله بها عبده في الدنيا والآخرة؛ ولهذا ترى الصادق من أثبت الناس وأشجعهم قلبا، والكاذب من أمهن الناس وأخبثهم وأكثرهم تلوثا وأقلهم ثباتا، وأهل الفراسة يعرفون صدق الصادق من ثبات قلبه وقت الإخبار وشجاعته ومهابته، ويعرفون كذب الكاذب بضد ذلك؛ ولا يخفى ذلك إلا على ضعيف البصيرة.



وسئل بعضهم عن كلام سمعه من متكلم به،

فقال: والله ما فهمت منه شيئا، إلا أني رأيت لكلامه صولة ليست بصولة مبطل. فما منح العبد منحة أفضل من منحة القول الثابت، ويجد أهل القول الثابت ثمرته أحوج ما يكونون إليه في قبورهم ويوم معادهم، كما في صحيح مسلم من حديث البراء بن عازب «عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ». (إعلام الموقعين ١/ ٢٣٠-٢٣١).

قوله تعالى: ﴿وَأَنِ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾.

٧- سبحانه من لم يجعل لحد معرفة نعمه إلا العلم بالتقصير عن معرفتها كما لم يجعل لحد إدراكه أكثر من العلم أنه لا يدرك، فجعل معرفة نعمه بالتقصير عن معرفتها شكرا كما شكر علم العالمين أنهم لا يدركونه، فجعله إيمانا علما منه أن العباد لا يتجاوزون ذلك. (عدة الصابرين ١٤٥).

﴿قوله تعالى: رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾.

وَمَا أَتَى كَرِيْمٌ كُلِّ مَسْأَلَةٍ مُرَّةً فَإِنْ قُدِّرَ لِقَاءُ اللَّهِ لَا تُخْصِرُهَا إِنَّ الْإِسْلَامَ لَقَدْ كُنَّ كَعَالٍ ۝ وَإِذَا قَالَ الْإِزْهِي رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۝ رَبِّ إِنِّي أَخْشَى أَنْ أَضِلَّكَ عَنْكَ بِرَأْسِ الْكَافِرِينَ ۝ رَبَّنَا يَنْهِنِي فَإِنَّهُ يَنْهَى عَنْ صَالِي فَإِنَّكَ عَزِيزٌ ذُو جَبَرٍ ۝ رَبَّنَا إِنِّي أَشْكُو مِنْ دُرَيْتِي يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْكَ بَيْتُكَ الْحَرَمُ رَبَّنَا لِيُسْمَوِ الصَّلَاةُ فَأَجْعَلَ الْيَوْمَ مِنَ الْقَابِ نَعْمَى الْيَوْمَ وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الْقُرْبَى لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۝ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِمُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۝ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدُّعَاءِ ۝ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ دُرَيْتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ۝ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ۝ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ عَمَلُهُ يَفْعَلُ ۝ الْقَالِ يَوْمَ تَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَتُخْصَرُونَ فِيهِ الْأَصْنَامُ ۝

٨- ها هنا أمران: تجنب عبادتها، واجتنابها.

فسأل الخليل ربه أن يعجنه وبنيه عبادتها ليحصل منهم اجتنابها، فالاجتناب فعلهم، والتجنب فعله، ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله. (شفاء العليل ٥٩).

﴿قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾﴾.

٩- سمى جزاء المكر مكرًا وجزاء الكيد كيدًا؛

تنبيهها على أن الجزاء من جنس العمل. (مفتاح دار السعادة ٥٧٩-٥٨٠).



وتحت هذا سر عظيم من أسرار التوحيد: وهو أن القلب لا يستقر ولا يطمئن ويسكن إلا بالوصول إليه، وكل ما سواه مما يحب ويراد فمراد لغيره، وليس المراد المحبوب لذاته إلا واحد إليه المنتهى، ويستحيل أن يكون المنتهى إلى اثنين، كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين، فمن كان انتهاء محبته ورغبته وإرادته وطاعته إلى غيره بطل عليه ذلك وزال عنه وفارقه أحوج ما كان إليه، ومن كان انتهاء

محبتة ورغبته ورهبته وطلبه هو سبحانه ظفر بنعمه ولذته وبهجته وسعاده أبد الآباد.

(الفوائد ١٩٦-١٩٧).

﴿قوله تعالى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ﴾﴾.

٢- قيل: في أداة (على) سر لطيف، وهو الإشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدى، وهو حق، كما قال في حق المؤمنين ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥]. وقال لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]. والله عزَّوجلَّ هو الحق، وصراطه حق، ودينه حق، فمن استقام على صراطه فهو على الحق والهدى، فكان في أداة (على) على هذا المعنى ما ليس في أداة إلى فتأمل، فإنه سر بديع.

فإن قلت: فما الفائدة في ذكر (على) في ذلك أيضا؟ وكيف يكون المؤمن مستعليا على الحق وعلى الهدى؟

قلت: لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدى، مع ثباته عليه، واستقامته إليه، فكان في الإتيان بأداة (على) ما يدل على علوه وثبوته واستقامته، وهذا بخلاف الضلال والريب، فإنه

يؤتى فيه بأداة (في) الدالة على انغماس صاحبه، وانقماعه وتدسسه فيه، كقوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رِيبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥]. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا صُمْ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام: ٣٩]. وقوله: ﴿فَذَرَّهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤].

وقوله: ﴿وَلِيَّانَهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٌ﴾ [هود: ١١٠].

قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ الْآتِكُونَ مِنَ التَّجِدِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلَافٍ لِّئَلَّا أُسَوِّبَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَأَخْرِجْهَا مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٥٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٥٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأُظْهِرْ لِي يَوْمَ يُعْتَبَرُ ﴿٥٩﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٦٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٦١﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُفِيَنَّ لَكَ يَوْمَ الدِّينِ أَشَدَّ نَجْمًا أَجْمَعِينَ ﴿٦٢﴾ الْإِنشَادُ مِنْهُمُ الْمَخْلُوعِينَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَنُزْجِلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٦٦﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ فُتُوحَةٌ فَخَرَجُوا مَقْسُومًا ﴿٦٧﴾ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٦٨﴾ أَذْخُلُوها بِإِذْنِ رَبِّكُمْ ﴿٦٩﴾ وَنُزْعًا مَّا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٧٠﴾ لَا يَمَسُّهُمُ فِيهَا نَجَسٌ وَبِمَاهِمُ فِيهَا يُخْفَرُ جِيعٌ ﴿٧١﴾ نَبِيٌّ عِبَادِي إِلَى آتِ الْغَمُوزِ الرَّجِيمِ ﴿٧٢﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٧٣﴾ وَيَنْفَعُهُمْ عَنْ ضَيْفٍ إِتْرَاهِيمَ ﴿٧٤﴾

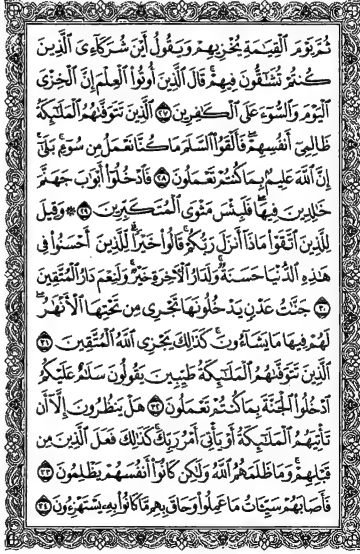
وتأمل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْلِيَاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى
أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، فإن طريق الحق تأخذ
علوا صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير، وطريق
الضلال تأخذ سفلا، هاوية بسالكها في أسفل سافلين.



قَالَ يٰٓإِبْرَاهِيمُ مَا لَكَ الْآتُونَ مَعَ التَّجِدِينَ ۖ قَالَ لَا أُسَبِّحُ
لَا أُسَجِّدُ لِشَيْءٍ خَلَقْتُهُ مِنْ صَاحِبٍ لِّمَنْ يَسْتَوْسِبُ ۖ
قَالَ فَاتَّخِذْ مِنْهَا مَا تَخْتَرُ ۖ وَتِلْكَ أَلْفَتَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ
الْبَيْتِ ۖ قَالَ رَبِّ فَأُظْهِرْ لِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۖ قَالَ إِنَّكَ
مِنَ الْمُنظَرِينَ ۖ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْدُومِ ۖ قَالَ رَبِّ بِمَا
أَعُوذُ بِكَ لَا تَزِدَّ لِي لَهْمًا فِي الْأَرْضِ وَلَا تَجْعَلْهُ أَجْمَعِينَ
ۖ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۖ قَالَ هَذَا جَسَدٌ عَلَيَّ
مُسْتَقِيمٌ ۖ إِنَّ عِبَادِي لَيَكُونَنَّ لَكَ عَلَيْهِمْ شَاقِقُونَ لِأَمْنِ
أَيْتَانِي مِنَ الْقَارُونَ ۖ وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمُزَعٌ هُمْ أَجْمَعِينَ ۖ
لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ وَفَتْحَةٌ ۖ فَتَقْسَمُ ۖ إِنَّ
الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ أَذْخَلُوهَا بِسَلَامٍ أَمِينٍ ۖ
وَرَبَّنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ إِلَّا نَحْنُ نَعْلَمُ ۖ سُرُرٌ مُّتَقَابِلِينَ
ۖ لَا يَمَسُّهُ فِيهَا هَافٍ وَهَافٌ ۖ وَمِنْهَا مِمَّا يُخْرِجُونَ ۖ
* نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۖ وَأَنَّ عَذَابِي
هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ۖ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ صَيفِ إِبْرَاهِيمَ ۖ

سورة النحل

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾.



١- قد تكرر هذا المعنى في هذه السورة دون غيرها في أربعة مواضع لسر بديع، فإنها سورة النعم التي عدد الله سبحانه فيها أصول النعم وفروعها، فعرف عباده أن لهم عنده في الآخرة من النعم أضعاف هذه بما لا يدرك تفاوته، وأن هذه من بعض نعمه العاجلة عليهم، وأنهم إن أطاعوه زادهم إلى هذه النعم نعمًا أخرى، ثم في الآخرة يوفيهم أجور أعمالهم تمام التوفية. (إعلام الموقعين ٢/ ١٧٢).

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّا أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٨) ﴿لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ﴾ (٣٩).

٢- ذكر تعالى حكمتين بالغتين في بعثة الأموات بعدما أماتهم:

إحداهما: أن يبين للناس الذي اختلفوا فيه، وهذا بيان عياني تشترك فيه الخلائق كلهم والذي حصل في الدنيا بيان إيماني اختص به بعضهم.

الحكمة الثانية: علم المبطل بأنه كان كاذبا وإن كان على باطل وأن نسبة أهل الحق إلى الباطل من افترائه وكذبه وبهتانه فيخزيه ذلك أعظم خزي. (بدائع الفوائد ٤/ ١٦١).

📖 قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ ﴿٨٨﴾

٣- فأحد العذابين بكفرهم، والعذاب الآخر بصددهم عن سبيل الله. وقد استقرت حكمة الله وعدله أن يجعل على الداعي إلى الضلال مثل آثام من اتبعه واستجاب له، ولا ريب أن عذاب هذا يتضاعف ويتزايد بحسب من اتبعه وضل به.

وهذا النوع في الأشقياء مقابل دعاة الهدى في

السعداء، فأولئك يتضاعف ثوابهم وتعلو درجاتهم بحسب من اتبعهم واهتدى بهم، وهؤلاء عكسهم. (طريق الهجرتين ٣٨٠).

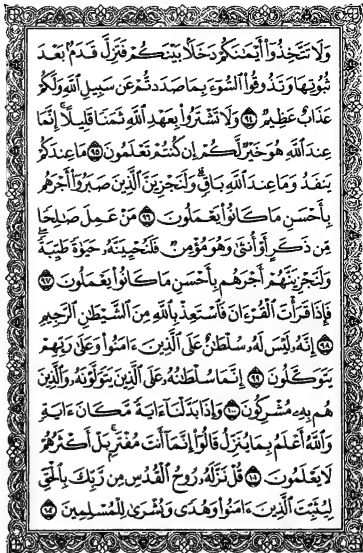
📖 قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٧﴾

٤- قد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحاً أن يحييه حياة طيبة، فهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده، وأي حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها وصارت هما واحداً في مرضاة الله؟ ولم يتشعب قلبه، بل أقبل على الله، واجتمعت إرادته وأفكاره التي كانت متقسمة بكل واد منها شعبة على الله، فصار ذكره بمحبوبه الأعلى وحبه والشوق إلى لقائه، والأنس بقربه هو المستولي عليه، وعليه تدور همومه وإرادته وقصوده بكل خطرات قلبه، فإن سكت سكت بالله، وإن نطق نطق بالله، وإن سمع فبه يسمع، وإن أبصر فبه يبصر، وبه يبطش، وبه يمشي، وبه يسكن، وبه يحيا، وبه يموت، وبه يبعث. (الجواب الكافي ٢٧٧-٢٧٨).

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَكَوْنُهُمْ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِهِ بِالْعَمَلِ وَالْإِحْسَانِ فَلْيَتَّصِلْ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَتَّقِ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالَّذِي يُبْغِضُ كَمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأُولَٰئِكَ يَتَعَدَّى اللَّهُ إِلَهُكُمْ إِذَا عَصَيْتُمْ وَلَا تَتَّقُوا الْإِنْسَانَ بَعْدَ تَوْعِيدِهِمْ وَأَنَّهُ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ كِتَابًا كَرِيمًا ﴿٩١﴾ إِنَّهُ يَكُونُ مَا تَقُولُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي تَقْتَضِي عَنْ يَمِينٍ يَدُورُونَ أَنَّهُمْ لَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ كَانُوا يَكُونُونَ بِسْمِ اللَّهِ أَنَّهُمْ هِيَ أَرْقَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُغُ اللَّهُ بِهِمْ وَلَيْسَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ تَوْبَةُ الْيَتِيمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ فَتَقْتُلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَوْ سَأَلَ اللَّهُ لَجَعَلَ كُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَنَسْأَلَنَّ عَنْ أَمْرِكُمْ لَنَعْلَمَ ﴿٩٤﴾

٥- يغلط الجفاة الأجلاف في مسمى الحياة، حيث يظنونها التمتع في أنواع المآكل والمشارب والملابس والمناح أو لذة الرياسة والمال وقهر الأعداء والتفنن بأنواع الشهوات، ولا ريب أن هذه لذة مشتركة بين البهائم، بل قد يكون حظ كثير من البهائم منها أكثر من حظ الإنسان، فمن لم تكن عنده لذة إلا اللذة التي تشاركه فيها السباع والدواب والأنعام، فذلك ممن ينادى عليه من مكان بعيد، ولكن أين هذه اللذة من اللذة بأمر إذا خالط بشاشته القلوب سلى عن الأبناء والنساء والأوطان والأموال والإخوان والمساكن، ورضي بتركها كلها والخروج منها رأسا، وعرض نفسه لأنواع المكار والمشايق وهو متحل بهذا منشرح الصدر به يطيب له قتل ابنه وأبيه وصاحبه وأخيه لا تأخذه في ذلك لومة لائم حتى إن أحدهم ليتلقى الرمح ب صدره ويقول: فزت ورب الكعبة. ويستطيل الآخر حياته حتى يلقي قوته من يده ويقول: إنها لحياة طويلة إن صبرت حتى أكلها. ثم يتقدم إلى الموت فرحا مسرورا، ويقول الآخر مع فقره: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه، لجالدونا عليه بالسيوف. ويقول الآخر إنه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربا. وقال بعض العارفين: إنه لتمر بي أوقات أقول

فيها إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب. (مفتاح دار السعادة ٣٨).



قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (١٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (١١) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠) ﴿١٠٠﴾

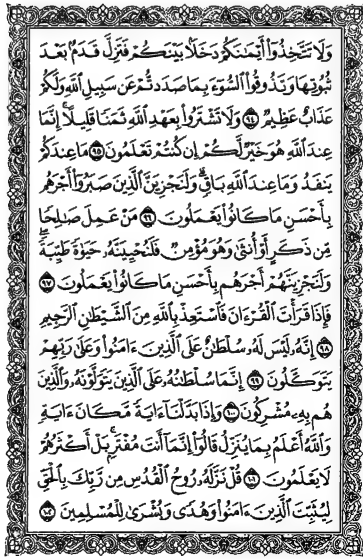
٦- أمر سبحانه بالاستعاذة به من الشيطان عند

قراءة القرآن. وفي ذلك وجوه:

منها: أن القرآن شفاء لما في الصدور يذهب لما يلقيه الشيطان فيها من الوسوس والشهوات والإرادات الفاسدة، فهو دواء لما أمره فيها الشيطان، فأمر أن يطرد مادة الداء ويخلي منه القلب ليصادف الدواء محلاً خالياً، فيتمكن منه، ويؤثر فيه، كما قيل:

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْهَوَى فَصَادَفَ قَلْبًا خَالِيًا فَتَمَكَّنَا

فيجيء هذا الدواء الشافي إلى قلب قد خلا من مزاحم ومضاد له فينجع فيه.



ومنها: أن القرآن مادة الهدى والعلم والخير في القلب، كما أن الماء مادة النبات، والشيطان نار يحرق النبات أولاً فأولاً، فكلما أحس نبات الخير في القلب سعى في إفساده وإحراقه، فأمر أن يستعيد بالله عز وجل منه لئلا يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن.

والفرق بين هذا الوجه والوجه الذي قبله: أن الاستعاذة في الوجه الأول لأجل حصول فائدة القرآن، وفي الوجه الثاني لأجل بقائها وحفظها وثباتها.

ومنها: أن الملائكة تدنو من قارئ القرآن وتستمع

لقراءته. كما في حديث أسيد ابن حضير لما كان يقرأ ورأى مثل الظلة فيها مثل المصابيح، فقال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ».

والشيطان ضد الملك وعدوه. فأمر القارئ أن يطلب من الله تعالى مباحدة عدوه عنه حتى يحضره خاصته وملائكته، فهذه وليمة لا يجتمع فيها الملائكة والشياطين.

ومنها: أن الشيطان يجلب على القارئ بخيله ورجله، حتى يشغله عن المقصود

بالقرآن، وهو تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه، فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن، فلا يكمل انتفاع القارئ به، فأمر عند الشروع أن يستعين بالله عَزَّوَجَلَّ منه.

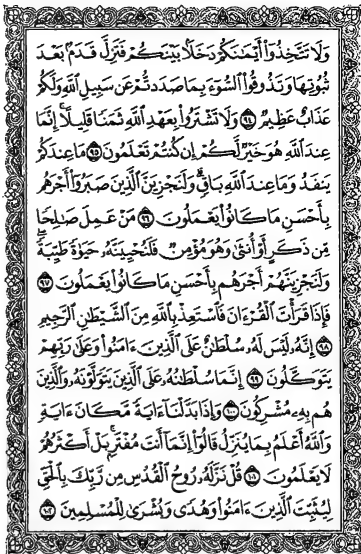
ومنها: أن القارئ مُناجٍ لله تعالى كلامه، والله تعالى أشد أذناً للقارئ الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته. والشیطان إنما قراءته الشعر والغناء، فأمر القارئ أن يطرده بالاستعاذة عند مناجاته تعالى واستماع الرب قراءته.

ومنها: أن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته، والسلف كلهم على أن المعنى: إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته. كما قال الشاعر في عثمان:

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ وَآخِرُهُ لَأَقَى حِمَامَ الْمَقَادِرِ

فإذا كان هذا فعله مع الرسل عليهم الصلاة والسلام فكيف بغيرهم؟ ولهذا يغلط القارئ تارة ويخلط عليه القراءة، ويشوشها عليه، فيخبط عليه لسانه، أو يشوش عليه ذهنه وقلبه، فإذا حضر عند القراءة لم يعد منه القارئ هذا أو هذا، وربما جمعهما له، فكان من أهم الأمور: الاستعاذة بالله تعالى منه عند القراءة.

ومنها: أن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهم بالخير، أو يدخل فيه فهو يشتد عليه حينئذ ليقطعه عنه، وفي الصحيح عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ شَيْطَانًا تَفَلَّتَ عَلَى الْبَارِحَةِ، فَأَرَادَ أَنْ يَقْطَعَ عَلَيَّ صَلَاتِي» الحديث.



وكلما كان الفعل أنفع للعبد وأحب إلى الله تعالى، كان اعتراض الشيطان له أكثر.

وفي مسند الإمام أحمد من حديث سبرة بن أبي الفاكه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرَقِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ: أَتُسَلِّمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَأَبَاءِ آبَائِكَ؟ فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهَجْرَةِ، فَقَالَ: أَتُهَاجِرُ وَتَذَرُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ؟ وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَالْفَرَسِ فِي الطَّوْلِ فَعَصَاهُ وَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ، وَهُوَ جِهَادُ النَّفْسِ وَالْمَالِ فَقَالَ: تَقَاتِلُ فَتُقْتَلُ، فَتُنَكِّحُ الْمَرْأَةَ وَيُقَسِّمُ الْمَالَ؟ قَالَ: فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ».

فالشيطان بالرصد للإنسان على طريق كل خير.

ومنها: أن الاستعاذة قبل القراءة عنوان وإعلام بأن المأتي به بعدها القرآن، ولهذا لم تشرع الاستعاذة بين يدي كلام غيره، بل الاستعاذة مقدمة وتنبية للسامع أن الذي يأتي بعدها هو التلاوة، فإذا سمع السامع الاستعاذة استعد لاستماع كلام الله تعالى، ثم شرع ذلك للقارئ، وإن كان وحده، لما ذكرنا من الحكم وغيرها. (إغاثة اللهفان ١/ ٩١ - ٩٥).

٧- قال في سورة الحجر: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخُوَيْتَنِي لِأُرْسِنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ [الحجر: ٣٩ - ٤٢]، وقال في سورة النحل: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (١١) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ [النحل: ٩٩ - ١٠٠]، فتضمن ذلك أمرين:

وَلَا تُخَيِّدُوا أَيْمَنَكُمْ وَخَلَّ بَيْنَكُمْ فَتَرَلَّ قَدَمٌ بَعْدَ بُيُوتِهِمْ وَتَدْعُوا الشُّعْرَ بِمَا صَدَقْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَشْفَعُوا لِعِبَادِكُمْ أَنْ يُعَذِّبَ اللَّهُ قَوْمًا إِلَّا بِإِذْنِهِمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٥١﴾ مَا عِدَّكَ بِقُدْرَةِ وَمَا عِدَّ اللَّهُ بِإِقْدَارِهِ وَلَتَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا بِالْخَيْرِ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٥٢﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْفِقَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٥٤﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٥﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿٥٦﴾ وَإِذَا قُلْتُمْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَلَامًا فَلَا أَسْمَاءَ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ يُدْعَوْنَ إِلَى اللَّهِ فَتُحْصَىٰ أَعْمَالُهُمْ يُسْأَلُونَ عَنْ أَعْمَالِهِمْ وَأَلْفَاءُ لَهُمْ سَلَوَاتٌ مُنْفَرَتٌ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ قُلْ إِنَّكَ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ يُلْقِي الرُّسُومَ عَلَى الَّذِينَ يَشَاءُ وَيُؤْخَذُ بِهَا مَثَلٌ خَلْفَ الْأُذُنِ وَإِنَّ لَكُم مِّنْ أَمْرِ يُنْذَرُ ﴿٥٨﴾ وَإِنَّ لَكُم مِّنْ أَمْرِ يُنْذَرُ ﴿٥٩﴾ وَإِنَّ لَكُم مِّنْ أَمْرِ يُنْذَرُ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّ لَكُم مِّنْ أَمْرِ يُنْذَرُ ﴿٦١﴾ وَإِنَّ لَكُم مِّنْ أَمْرِ يُنْذَرُ ﴿٦٢﴾ وَإِنَّ لَكُم مِّنْ أَمْرِ يُنْذَرُ ﴿٦٣﴾ وَإِنَّ لَكُم مِّنْ أَمْرِ يُنْذَرُ ﴿٦٤﴾ وَإِنَّ لَكُم مِّنْ أَمْرِ يُنْذَرُ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُم مِّنْ أَمْرِ يُنْذَرُ ﴿٦٦﴾ وَإِنَّ لَكُم مِّنْ أَمْرِ يُنْذَرُ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ لَكُم مِّنْ أَمْرِ يُنْذَرُ ﴿٦٨﴾ وَإِنَّ لَكُم مِّنْ أَمْرِ يُنْذَرُ ﴿٦٩﴾ وَإِنَّ لَكُم مِّنْ أَمْرِ يُنْذَرُ ﴿٧٠﴾

أحدهما: نفى سلطانه وإبطاله على أهل التوحيد والإخلاص.

والثاني إثبات سلطانه على أهل الشرك وعلى من تولاه. (إغاثة اللهفان ١/ ٩٨).

٨- فإن قيل: فقد أثبت له على أوليائه ها هنا سلطاناً بقوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠]، فكيف نفاه بقوله تعالى حاكياً عنه مقررًا له: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبا: ٢٠-٢١].

قيل: السلطان الذي أثبته له عليهم غير الذي نفاه من وجهين:

أحدهما: أن السلطان الثابت هو سلطان التمكن منهم وتلاعبه بهم وسوقه إياهم كيف أراد بتمكينهم إياه من ذلك بطاعته وموالاته، والسلطان الذي نفاه سلطان الحجة فلم يكن لإبليس عليهم من حجة يتسلط بها غير أنه دعاهم فأجابوه بلا حجة ولا برهان.

الثاني: أن الله لم يجعل له عليهم سلطانا ابتداء البتة، ولكن هم سلطوه على أنفسهم بطاعته ودخولهم في جملة جنده وحزبه، فلم يتسلطن عليهم بقوته، فإن كيدَه ضعيف، وإنما تسلطن عليهم بإرادتهم واختيارهم. (عدة الصابرين ٢٦).

ولما علم عدو الله أن الله تعالى لا يسلمه على

وَلَا تَسْخَدُوا أَيْمَنَكُمْ وَتَحْلُو بَيْنَكُمْ قَوْلَ قَدَمٍ بَعْدَ
بُيُوتِهَا وَقَدْ وَفَّاءُ الشَّيْءُ بِمَا صَدَّقْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ⑤ وَلَا تَقْرَأُوا لَهُمْ الْقُرْآنَ فَتَعْلَمُوا أَنَّكُمْ
عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُعْلِمُونَ ⑥ مَا عِنْدَكُمْ
يَنْفَعُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَتَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَدَّقُوا أَجْرَهُمْ
بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ⑦ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا
مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً مُّطَهَّرَةً
وَلَنَـُٔخْرِيَنَّاهُ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ⑧
فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ
⑨ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ ⑩ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ
هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ⑪ وَإِذَا بَلَغْتَ آيَةَ السَّكَانَةِ فَاتَّقِ اللَّهَ
وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُنْفَرِّقُ بَلَاءٍ لَّهُمْ
لَا يَكُونُونَ ⑫ قُلْ تَزَالُ تَرَوْهُمُ الْقُلُوبُ مِنَ قَوْلِكَ بِالْحَقِّ
لِيُخَيَّرَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَنُورًا لِلْمُسْلِمِينَ ⑬

أهل التوحيد والإخلاص قال: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿ ٨٣ ﴾ [ص: ٨٢-٨٣]، فعلم عدو الله أن من اعتصم بالله عَزَّجَلَّ وأخلص له وتوكل عليه، لا يقدر على إغوائه وإضلاله، وإنما يكون له السلطان على من تولاه وأشرك مع الله، فهو لاء رعيته وهو وليهم وسلطانهم ومتبوعهم. (إغاثة اللفهان ١/ ٩٩).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾.

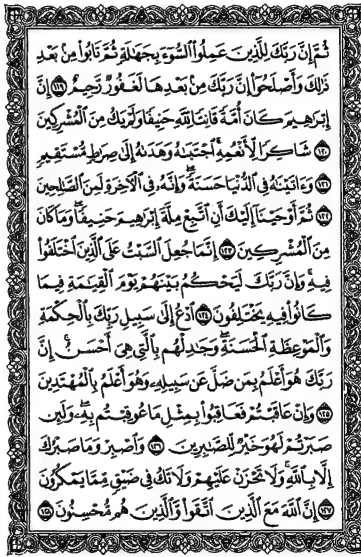
٩- فتأمل حسن الاعتراض وجزالته في قول الرب تعالى ﴿وَلِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفَوِّخٌ﴾. فقلوه: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ﴾ اعتراض بين الشرط وجوابه أفاد أموراً: منها الجواب عن سؤال سائل ما حكمة هذا التبديل وما فائدته، ومنها أن الذي يدل وأتى بغيره منزل محكم نزوله قبل الإخبار بقولهم، ومنها أن مصدر الأمرين عن علمه تَبَارَكَ وَتَعَالَى وأن كلا منهما منزل فيجب التسليم والإيمان بالأول والثاني. (التبيان في أقسام القرآن ٢٢٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِثْرَهِمْ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٣٠) شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ أَحْبَبْنَاهُ وَهَدَّاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٣١) وَعَآيِنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٢) ﴿١٣٢﴾

١٠- فهذه أربع أنواع من الشناء افترضها بأنه أمة، والأمة هو القدوة الذي يؤتم به، قال ابن مسعود: والأمة المعلم للخير، وهي فعلة من الائتتام كقدوة،

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّرُوءَ بِحِمْطٍ تُؤْتِيهِمْ مَوَاقِلُ مِنْ تَحْتِهَا
 أَمْطَارٌ مِثْلُ وَاصِلَةٍ تَوْحِشُ أَهْلَهَا ۝ إِنَّ
 إِلَهَكُمْ هُوَ ۚ كَانَ أَهْلُهَا يَسْتَلِقُونَ حَيْثُ قَامُوا فِيهَا مِنَ الْمُتَشَكِّكِينَ
 ۝ مَا يَكُونُ لَكُمْ أَعْمُو؟ فَتَحْبِطُ وَهَذِهِ الْأَرْضُ عَلَيْهَا مُتَوَشِّجَةٌ
 ۝ وَتَاقِبُ عَلَيْهَا الْأُمُوتُ فَتُحْصَى ۚ وَأَنْتُمْ فِي الْأَجْزَالِ مِنَ الصَّالِحِينَ
 ۝ ثُمَّ أَحْيَا نَحْنُكَ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَجْعُ ۚ وَإِلَهُكُمْ حَيْثُ مَا كُنَّا
 مِنَ الْمُتَشَكِّكِينَ ۝ إِنَّمَا جَعَلَ الشَّكَّ عَلَى الَّذِينَ اتَّخَذُوا
 دِينَهُمْ وَأَنْ رَبَّكَ لَيَكْفِي عَنْهُمْ رَبُّهُمُ الْفِتْنَةَ فِيمَا
 كُنْتُمْ فِيهَا تَخْتَلِفُونَ ۝ ادْخُلْ فِي سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ
 وَالْعِزَّةِ وَالْحَسَّةِ وَحَدِّدْ لَهُمُ الْبَالِي ۚ إِنَّ
 رَبَّكَ هُوَ الْعَاقِلُ ۚ يَمْنُ حُزْنَ سَبِيلِهِمْ وَمُؤَامَلَةً بِالْمُتَشَكِّكِينَ
 ۝ وَإِنَّ عَاقِبَتَهُمْ لَأَيْدِي بَيْتِ مَا عَرَفْتُمْ بِدِينِهِمْ
 صَبْرُهُمْ لَهُمْ حُزْنٌ بِالصَّبْرِ ۝ وَأَصْرِي وَمَا أُصْرِكُ
 إِلَّا بِاللَّهِ وَلَهُ تَحَوَّنَ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي حَسْبٍ فَمَا تَكُونُ
 ۝ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ حُسْنِهِ

وهو الذي يقتدي به، والفرق بين الأمة والإمام من وجهين: أحدهما أن الإمام كل ما يؤتم به، سواء كان بقصده وشعوره أو لا، ومنه سمي الطريق إمامًا، كقوله تعالى:



﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ (٧٨) ﴿فَأَنْقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾ (٧٩) أي بطريق واضح لا يخفى على السالك ولا يسمى الطريق أمة. الثاني أن الأمة فيه زيادة معنى، وهو الذي جمع صفات الكمال من العلم والعمل، بحيث بقي فيها فردا وحده فهو الجامع لخصال تفرقت في غيره، فكأنه باين غيره باجتماعها فيه وتفرقها أو عدمها في غيره ولفظ الأمة يشعر بهذا المعنى لما فيه من الميم المضعفة الدالة على الضم بمخرجها وتكريرها، وكذلك ضم أوله

فإن الضمة من الواو ومخرجها ينضم عند النطق بها، وأتى بالتاء الدالة على الوحدة كالغرفة واللقمة، ومنه الحديث: «إن زيد بن عمرو بن نفيل يبعث يوم القيامة أمة وحده»، فالضم والاجتماع لازم لمعنى الأمة، ومنه سميت الأمة التي هي آحاد الأمم؛ لأنهم الناس المجتمعون على دين واحد أو في عصر واحد.

الثاني: قوله: ﴿فَإِنَّا لِلَّهِ﴾ قال ابن مسعود: القانت المطيع. والقنوت يفسر بأشياء كلها ترجع إلى دوام الطاعة.

الثالث: قوله: ﴿حَنِيفًا﴾ والحنيف: المقبل على الله، ويلزم هذا المعنى ميله عما سواه، فالميل لازم معنى الحنيف لأنه موضوعه لغة.

الرابع: قوله: ﴿شَاكِرًا لِنِعْمِهِ﴾ والشكر للنعم مبني على ثلاثة أركان: الإقرار بالنعمة وإضافتها إلى المنعم بها وصرفها في مرضاته والعمل فيها بما يجب، فلا يكون

العبد شاعرا إلا بهذه الأشياء الثلاثة. والمقصود أنه مدح خليله بأربع صفات كلها ترجع إلى العلم والعمل بموجبه وتعليمه ونشره، فعاد الكمال كله إلى العلم والعمل بموجبه ودعوة الخلق إليه. (مفتاح دار السعادة ١٨٩-١٩٠).

📖 قوله تعالى: ﴿ اَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾.

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلذَّيِّتِ عَمِلُوا الشُّعْرَ بِجَهَنَّمَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَلُّهُمُ رَاجِعُونَ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٩٠﴾ شَاكِرًا لِنِعْمَةِ رَبِّهِ إِذْ وَهَبَهُ الْوَحْيَ وَكَذَلِكَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٩١﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي الدِّينِ نَاسِحًا حَسَنَةً وَلَئِنْ فِي الْأَجْرَةِ لَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّمَا اتَّخَذُوا الشُّعْرَ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَلَوْلَا رَبُّكَ لَخَلَكْنَا مِنْ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِئَسًا كَانُوا يَفْتَقِرُونَ ﴿١٩٤﴾ اَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنَافِقِينَ ﴿١٩٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِوَسْطٍ مِمَّا عَفَاكُمْ بِهِ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُنَافِقِينَ ﴿١٩٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَلٰىلٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٩٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٩٨﴾

١١- جعل سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق: فالمتسجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه يدعى بطريق الحكمة، والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر يدعى بالموعظة الحسنة وهي الأمر والنهي المقرون بالرغبة والرغبة، والمعاند الجاحد يجادل بالتي هي أحسن. (مفتاح دار السعادة ١٦٧).

١٢- أطلق الحكمة ولم يقيدها بوصف الحسنة، إذ كلها حسنة، ووصف الحسن لها ذاتي.

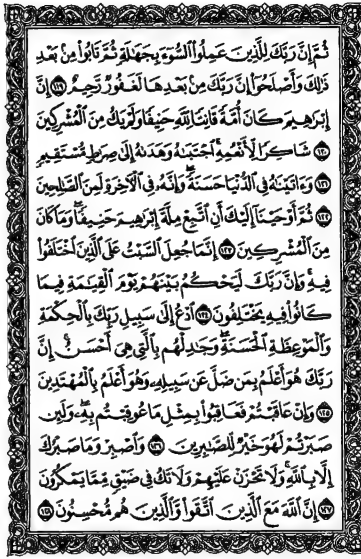
١٣- وأما الموعظة فقيدها بوصف الإحسان، إذ ليس كل موعظة حسنة.

١٤- وكذلك الجدل قد يكون بالتي هي أحسن، وقد يكون بغير ذلك، وهذا يحتمل أن يرجع إلى حال المجادل وغلظته، ولينه وحدته ورفقه، فيكون مأمورا بمجادلتهم بالحال التي هي أحسن.

ويحتمل أن يكون صفة لما يجادل به من الحجج والبراهين، والكلمات التي هي أحسن شيء وأبينه، وأدله على المقصود، وأوصله إلى المطلوب.

والتحقيق: أن الآية تتناول النوعين. (مدارج السالكين ١/٤٤٥).

١٥ - فمراتب الدعوة وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو، فإنه إما أن يكون



طالباً للحق راغباً فيه محباً له مؤثراً له على غيره إذا عرفه، فهذا يدعى بالحكمة ولا يحتاج إلى موعظة ولا جدال، وإما أن يكون معرضاً مشتغلاً بضد الحق ولكن لو عرفه عرفه وآثره واتبعه، فهذا يحتاج مع الحكمة إلى الموعظة بالترغيب والترهيب، وإما أن يكون معانداً معارضاً، فهذا يجادل بالتي هي أحسن، فإن رجع إلى الحق وإلا انتقل معه من الجدال إلى الجلال إن أمكن، فلمناظرة المبطل فائدتان:

أحدهما: أن يرد عن باطله ويرجع إلى الحق.

الثانية: أن ينكشف شره وعداوته ويتبين للناس أن الذي معه باطل، وهذه الوجوه

كلها لا يمكن أن تنال بأحسن من حجج القرآن. (الصواعق المرسلة ٤/ ١٢٧٦ - ١٢٧٧).

﴿قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾﴾

١٦ - وليس المراد بهذه الباء الاستعانة، فإن هذا أمر مشترك بين المطيع والعاصي،

فإن ما لا يكون بالله لا يكون، بل هي باء المصاحبة والمعية التي صرح بمضمونها في

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ وهي المعية الحاصلة لعبده الذي تقرب إليه بالنوافل حتى

صار محبوباً له، فبه يسمع وبه يبصر وكذلك به يصبر، فلا يتحرك ولا يسكن ولا يدرك

إلا والله معه، ومن كان كذلك أمكنه الصبر له وتحمل الأثقال لأجله كما في الأثر الإلهي

يعني «وما يتحمل المتحملون من أجلي» فدل قوله: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ على أنه

من لم يكن الله معه، لم يمكنه الصبر، وكيف يصبر على الحكم الأمري امتثالاً وتنفيذاً

وتبليغا وعلى الحكم القدري احتمالا له واضطلاعا
به من لم يكن الله معه؟! فلا يطمع في درجة الصبر
المحمود عواقبه من لم يكن صبره بالله، كما لا يطمع
في درجة التقرب المحبوب من لم يكن سمعه وبصره
وبطشه ومشيه بالله. (عدة الصابرين ٤٥-٤٦).



ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّرُوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ
ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤٥﴾ إِنَّ
إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٤٦﴾
ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَىٰ رَبِّهِ وَخَدَعَهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٧﴾
وَنَاقِيَتُهُ فِي اللَّهِ تَابَ حَسَنَةً وَلَئِنَّ فِي الْأَخْيَرَةِ لَعَمَلًا لِلصَّالِحِينَ ﴿٤٨﴾
ثُمَّ أَوْسَعْنَا لَكَ أَنْ تَتَّبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ
مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٤٩﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا
فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَخْتَبِرُكَ بَيْنَ تَهْتِكَةِ الْفَيْسَةِ فِيمَا
كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٥٠﴾ ادْخُلْ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ
وَالنُّزُولِ لَمْ تَسْتَوْ وَتَجِدْ لَهُمْ يَأْتِي مِنْ أَحْسَنُ إِنَّ
رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صَحَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَمَنْ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥١﴾
وَإِنَّ عَاقِبَتَهُمْ لَأَيْتُونَا بِيُحْسِلِ صَافٍ وَمَنْ يَحْسِلِ
صَافٍ ثُمَّ لَمْ يَحْزَنْ لِلصَّابِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ
إِلَّا بِأَنَّكَ لَا تَخْزَنَ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ وَمَا يَمْكُرُونَ ﴿٥٣﴾
إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿٥٤﴾

سورة الإسراء

📖 قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾



١- ذكره بالعبودية في مقام الإسراء. دون بعث بعده، وأرسل به، ما يفيد مصاحبته له في مسراه، فإن الباء هنا للمصاحبة، كالهاء في قوله: هاجر بأهله، وسافر بغلامه. وليست للتعدية، فإن «أسرى» يتعدى بنفسه، يقال: سرى به وأسراه، وهذا لأن ذلك السرى كان أعظم أسفاره، والسفر يعتمد الصاحب، ولهذا كان المسافر يقول: «اللهم أنت الصاحب في السفر».

(مدارج السالكين ١/ ١٠٣).

📖 قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلِيقَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا﴾

يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾

٢- قال ابن جرير: «فإن قال قائل: فكيف قال ألزمناه طاقره في عنقه إن كان الأمر على ما وصفت، ولم يقل في يديه أو رجله أو غير ذلك من أعضاء الجسد؟ قيل: إن العنق هي موضع السمات وموضع القلائد والأطوق وغير ذلك مما يزين أو يشين» فجرى كلام العرب بنسبة الأشياء اللازمة سائر الأبدان إلى الأعناق، كما أضافوا جنایات أعضاء الأبدان إلى اليد فقالوا: ذلك بما كسبت يده. وإن كان الذي جره عليه لسانه أو فرجه، فكذلك قوله: ﴿أَلْزَمْنَاهُ طَلِيقَهُ فِي عُنُقِهِ﴾.

📖 قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ ﴿٢٢﴾

٣- ﴿مَذْمُومًا﴾ لا حامد لك، ﴿تَحْذُولًا﴾ لا ناصر لك، إذ قد يكون بعض الناس مقهورا محمودا كالذي قهر بباطل، وقد يكون مذموما منصورا، كالذي قهر وتسلط عليه بباطل، وقد يكون محمودا منصورا كالذي تمكن وملك بحق، والمشارك المتعلق بغير الله قسمه أرباً الأقسام الأربعة، لا محمود ولا منصور. (مدارج السالكين ١/ ٤٥٨).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٣٢).



٤- علل النهي في الموضعين بكون المنهي عنه فاحشة، ولو كان جهة كونه فاحشة هو النهي لكان تعليلا للشيء بنفسه، ولكان بمنزلة أن يقال: لا تقربوا الزنا. فإنه يقول لكم لا تقربوه، أو فإنه منهي عنه، وهذا محال من وجهين: أحدهما أنه يتضمن إخلاء الكلام من الفائدة، والثاني أنه تعليل للنهي بالنهي. (مفتاح دار السعادة ٣٣٣-٣٣٤).

٥- فأخبر عن فحشه في نفسه، وهو القبيح الذي قد تناهى قبحه حتى استقر فحشه في العقول حتى عند

كثير من الحيوان، كما ذكر البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي قال: «رأيت في الجاهلية قردًا زنى بقردة، فاجتمع القروء عليهما فرجموهما حتى ماتا».

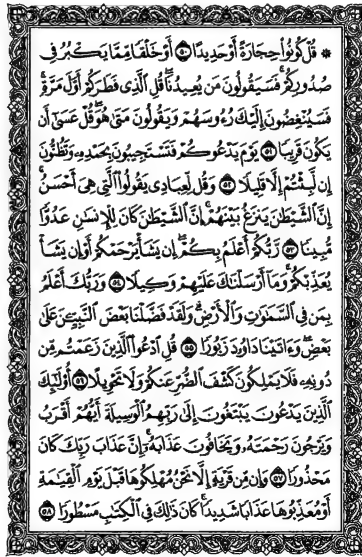
ثم أخبر عن غايته بأنه ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ فإنه سبيل هلكة وبوار وافتقار في الدنيا، وعذاب وخزي ونكال في الآخرة. (الجواب الكافي ٢٢٧).

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ (٣٨).

٦- فتأمل قوله: ﴿سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ أي أنه سيئ في نفس الأمر عند الله

هذه النشأة التي لا تقبل البقاء ولم يجعلنا حجارة ولا حديدا؛ فقد قامت عليكم الحجة بإقراركم، فما الذي يحول بين خالقكم ومنشئكم وبين إعادتكم خلقا جديدا.

وللحجة تقرير آخر: وهو أنكم لو كنتم من حجارة أو حديد أو خلق أكبر منهما، لكان قادرا على أن يفتيكهم ويحيل ذواتكم وينقلها من حال إلى حال.



ومن قدر على التصرف في هذه الأجسام مع شدتها وصلابتها بالإفناء والإحالة ونقلها من حال إلى حال، فما يعجزه عن التصرف فيما هو دونها بإفنائها وإحالتها ونقله من حال إلى حال.

فأخبر سبحانه أنهم يسألون سؤالاً آخر بقولهم: ﴿مَنْ يُعِيدُنَا﴾ إذا استحالت أجسامنا وفنيت؛ فأجابهم بقوله: ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١]. وهذا الجواب نظير جواب قول السائل ﴿مَنْ

يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، فلما أخذتهم

الحجة ولزمهم حكمها ولم يجدوا عنها معدلا، انتقلوا إلى سؤال آخر يتعللون به كما يتعلل المقطوع بالحجاج بمثل ذلك، وهو قولهم: ﴿مَتَى هُوَ﴾ فأجيبوا بقوله: ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجِيحُوتُ بِحَمْدِهِ وَتَنْظُنُّونَ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٥٢)

[الإسراء: ٥١-٥٢]. (الصواعق المرسلة ٣/ ٤٧٥-٤٨٠).

٨- فليتأمل اللبيب لطف موقع هذا الدليل، واستلزامه لمدلوله استلزاما لا محيد عنه، وما تضمنه من السؤالات والجواب عنها أبلغ جواب وأصح وأوضحه، فله ما يفوت المعرضين عن تدبر القرآن المتعوضين عنه بزبالة الأذهان ونخالة الأفكار.

* قُلْ كُونُوا حِجَابَةً أَوْرَثِيكُمْ ۖ أَوْ خَالِفًا بَيْنًا مِّنْ بَيْنِ
 صُدُورِكُمْ فَتَسْمِعُونَ لِمَن فِيهِمْ خَلْفًا أَلَيْسَ خَلْقًا مِّنْ قَوْلِ
 تَسْمِعُونَ لِمَن فِيكَ ذُو سُلْطَنَةٍ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قَوْلُ عِيسَىٰ
 يَكُونُ قَوْلًا ۚ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحُجُودٍ وَظَنٍّ
 إِن لَّيْسَ لَكُمُ الْآيَاتُ ۚ وَقُلْ لِّعِبَادِي يَقُولُوا لِمَن أَخْسَرُ
 إِلَّ الشَّيْطَانُ يَنْزَعُ بَيْنَهُمَ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسِ عَدُوًّا
 مُّبِينًا ۚ وَذِكْرُكُمْ إِنَّمَا بَعَثْنَا نِسَاءً فَحَرَمُوا بَيْنَهُنَّ
 بَعْضَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ بَيْنَ عِبَادِهِ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ
 بِمَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النِّسَاءِ عَلَى
 بَعْضٍ وَلِلْآيَةِ آدَاءٌ وَذِكْرٌ ۚ فَمَن ذَا الَّذِينَ يَتَخَفُونَ
 ذُوهُمْ فَلَا يَكُونُ لَهُمْ السُّلْطَانُ عَلَيْهِمْ وَلَا يَكُونُوا لَهَا
 آيَةً ۚ يَنْصُرُونَ إِلَىٰ ذِيهِمُ الْبُيُوتِ أَهْلُهَا أَقْرَبُ
 وَيُخَوِّنُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَوِّفُونَ عَذَابَهَا ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ
 مُحَذَّرًا ۚ وَفَن يَفْقَهُ الْآخِثُ لِمَلَاكِلَ مَا فِي ذِي الْبُيُوتِ
 أَوْفَعُهُ لِيُخَوِّعَهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ۝

الحب والخوف والرجاء، والمعنى أن الذين تدعونهم من دون الله من الملائكة والأنبياء والصالحين يتقربون إلى ربهم ويخافونه ويرجونه، فهم عبيده كما أنكم عبيده، فلماذا تعبدونهم من دونه وأنتم وهم عبيد له؟ (طريق الهجرتين ٢٦٢-٢٦٣).

وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ الْكَافِرِينَ كَذِبًا يُكَذِّبُونَ
وَتَتَّبِعُوا آلَ الْفِرْعَوْنَ أَفَلَا تَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ قُلُوبُهُمْ مُتَمَثِّلُونَ طُغْيَانًا فِي الْآيَاتِ الْكَلِيمَةِ
إِذْ قَالَ اللَّهُ لِمُوسَى أَطِيعُوا أَمْرًا بَالِغًا لِّمَا تُكَذِّبُونَ
أَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقُتِلَا فِي أَوَّلَيْهِمَا ذُكُرَتِ الْأَمْثَلُ وَالشَّجَرَةُ الْمُنْعَوَةُ
فِي الْفِرْعَوْنِ وَخُوفُهُمْ قَتْلَهُمْ فَخَالَفُوا وَطْعَانًا كَبِيرًا
وَأَذْنَبُوا السَّيْئَاتِ فَمَا أُصْغِرُ الْإِنْسَانَ مِمَّا حَفِظْتُ لَهُ أَفْعَالًا
قَالَ لَهُ اسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا قَالَ أُوَيْدَتْكَ أَفْئِدَتِي هَذَا الَّذِي
كَرِهْتُ عَزَّ لَيْلَى الْخَرِيقِ إِلَى يَوْمِ الْفِتْنَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ
ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا قَالَ أَذْهَبَ قَسَمَ تَحِيَّاتِكَ مِنْهُمْ قَلِيلًا
جَهَنَّمَ جَزَاءُ أَكْرَمُ جَزَاءَ مَوْفُورًا وَأَسْتَغْفِرُكَ مِنْ أَسْخَفَتِ
مِنْهُمْ يَصْرُوكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخِيَلِكَ وَرَحْمَتِكَ
فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَدْرُونَ الْقَيْنُطُ إِلَّا
غُرُورًا إِنَّ عِبَادِي لَشَاءُوا لِقَاءَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى
بِرَبِّكَ وَكِيلًا وَذِكْرُ الَّذِي يُنْفِى أَعْمَى الْفَلَاحُ فِي
الْبَحْرِ لِيَتَغَوَّيْنَ فَضْلِيَّةً إِنَّهُ كَانَ بِكُنْزِهِ رَحِيمًا

قوله تعالى: ﴿ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبَعَكَ مِنْهُمْ فَأَتَ جَهَنَّمَ جَزَاءً أَكْرَمُ جَزَاءَ مَوْفُورًا ﴾.

١١- أعاد الضمير بلفظ الخطاب وإن كان من تبعك يقتضي الغيبة؛ لأنه اجتمع مخاطب وغائب، فغلب المخاطب وجعل الغائب تبعاً له كما كان تبعاً له في المعصية والعقوبة، فحسن أن يجعل تبعاً له في اللفظ، وهذا من حسن ارتباط اللفظ بالمعنى واتصاله به. (بدائع الفوائد ٤/ ١٨٥-١٨٦).

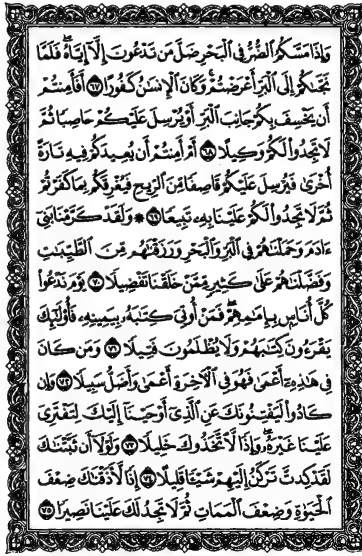
قوله تعالى: ﴿ وَأَسْتَغْفِرُكَ مِنْ أَسْخَفَتِ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخِيَلِكَ وَرَحْمَتِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَدْرُونَ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (٦٤).

١٢- وهذا الصوت هو أحد الأسباب الخمسة التي أقسم الشيطان أن يحتنك بها ذرية آدم ويستأصلهم إلا قليلاً: وهي استغرازهم بصوته، والإجلاب عليهم بخيله ورجله، ومشاركتهم في أموالهم وأولادهم. فكل راكب في معصية الله فهو خيالة الشيطان، وكل ماشٍ في معصية الله فمن رجالاته، وكل مالٍ أخذ من غير حله وأُخرج في غير حقه فهو شريك صاحبه فيه، وكل ولدٍ من نطفة زنا فهو شريك أبيه فيه. (الكلام على مسألة السماع ١٧٩-٣٨١).

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾.

١٣- فسبحان من ألبسه خلع الكرامة كلها من العقل، والعلم، والبيان، والنطق، والشكل، والصورة الحسنة، والهيئة الشريفة، والقد المعتدل، واكتساب العلوم بالاستدلال والفكر، واقتناص الأخلاق الشريفة الفاضلة من البر والطاعة والانقياد.

(مفتاح دار السعادة ١/ ٢٦٣).



📖 قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تَبْنَتَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (٧٦).

١٤- فالتبثيت فعله، والثبات فعل رسوله، فهو سبحانه المثبت، وعنده الثابت. (شفاء العليل ٥٩).

أي: لولا تثبيتنا لك لقد كدت تركز إليهم بعض الشيء، ولو فعلت لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات، أي ضاعفنا لك العذاب في الدنيا والآخرة. (مدارج السالكين ١/ ٣٣٣).

فضرورته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ربه وفاقه إليه بحسب معرفته به، وحسب قربه منه ومنزلته عنده. (طريق الهجرتين ١٠).

📖 قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ (٨٠).

١٥- أمر الله تعالى رسوله أن يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه على الصدق، وأخبر عن خليله إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنه سأله أن يهب له لسان صدق في الآخرين. فقال: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٨٤). [الشعراء: ٨٤]. وبشر عباده بأن لهم عنده قدم صدق، ومقعد صدق. فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾

[يونس: ٢]. وقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤ - ٥٥].

فهذه خمسة أشياء: مدخل الصدق، ومخرج الصدق، ولسان الصدق، وقدم الصدق، ومقعد الصدق.

وحقيقة الصدق في هذه الأشياء هو الحق الثابت المتصل بالله، الموصل إلى الله، وهو ما كان به وله من الأقوال والأعمال، وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة. (مدارج السالكين

٢ / ٢٧٠ - ٢٧٢).



قوله تعالى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٦ - «من» هنا لبيان الجنس لا للتبويض، فإن القرآن كله شفاء، كما قال في الآية المتقدمة، فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب، فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أشجع في إزالة الداء من القرآن. (الجواب الكافي ٤).

قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾.

١٧ - الروح في القرآن على عدة أوجه:

أحدها: الوحي كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ وقوله تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وسمى الوحي روحا لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح.

الثاني: القوة والثبات والنصرة التي يؤيد بها من شاء من عباده المؤمنين كما قال:

﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾.

وَأَنَّ كِتَابَ الْإِسْمَاءِ تَزَكَّى وَمِنْ أَخْرِضَ لِلْغَيْبِ وَمِنْهَا
وَلَا لَا يَكْتُمُونَ خَلْقَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٣٠﴾ سَمِعْنَا مِنْ قَدِ ارْتَسْنَا
قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا نَجِدُ لِسَانِنَا تُحْمِلُهُ ﴿١٣١﴾ أَمِ
الْعَذَابُ لِلَّذِينَ النَّاسُ إِلَى عَذَابِ الْآلِ وَهُمْ إِنْ الْعَذَابِ
إِنْ قُرْآنَاتِ الْعَذَابِ كَانَتْ شَهْرًا ﴿١٣٢﴾ وَمِنْ آيَاتِ فَهَجْدِ
يَوْمَ تَأْتِيهِ الْآلَةُ عَنِ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّخْمُومًا ﴿١٣٣﴾
وَلَوْ رَأَى أَدْنَى مَدْعَلٍ صَدَقَ وَأَخْرَجِي مُخْرَجَ صَدَقَ
وَأَجْعَلْ لِي مِنْ ذَلِكَ سُلْطَانًا أَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ وَقُلْ جَاءَ الْمُؤْمِنُونَ
الْأَيْلُ إِنَّ الْإِيلَ كَانَ رُحُومًا ﴿١٣٥﴾ وَبُذِلَ مِنَ الْفَنَاءِ إِنْ مَا هُوَ
شَقَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِدُ الْقَالِيلِينَ الْإِحْسَانًا ﴿١٣٦﴾
وَلَا تَعْتَسَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَتَأْكُلْ بِيَدَيْهِ وَلَا مَنَاسِدَ
الَّذِينَ يَتُوبُونَ ﴿١٣٧﴾ فَلِكُلِّ يَمْعَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ وَيُخْرِجُهُ
مِنْ هُوَ الْعَدَى سَيْلًا ﴿١٣٨﴾ وَتَعْلَمُونَ أَنَّ الرُّوحَ قُلُوبُ الرُّوحِ مِنْ
أَمْرِ رَبِّي وَمَا أَلْبَسْتُهُ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا هَيْلًا ﴿١٣٩﴾ وَلَيْسَ شَيْئًا تَنْفَعُ
بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ فَتُزِيلَهُ عَنْكَ بِمَاءٍ عَنِّي تَأْكُلُ ﴿١٤٠﴾

الثالث: جبريل كقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ

الْأَمِينُ ﴿١٣٠﴾ عَلَى قَلْبِكَ﴾ وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَتْ

عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ وهو روح القدس

قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾.

الرابع: الروح التي سأل عنها اليهود فأجيبوا بأنها

من أمر الله، وقد قيل: إنها الروح المذكورة في قوله

تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾

وإنها الروح المذكور في قوله: ﴿نَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ

فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾.

الخامس: المسيح ابن مريم قال تعالى ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ

وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ وأما أرواح بني آدم فلم تقع تسميتها في القرآن

إلا بالنفس قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّنُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ

الْوَامَةِ ﴿٢٨﴾﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾، وقال تعالى: ﴿أَخْرِجُوا

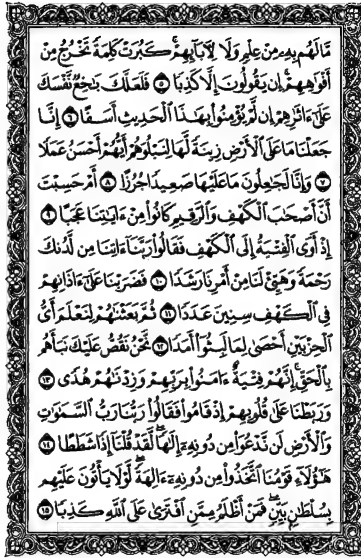
أَنفُسَكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾،

وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ وأما في السنة فجاءت بلفظ النفس والروح،

والمقصود أن كونها من أمر الله لا يدل على قدمها وأنها غير مخلوقة. (الروح ١٥٠-١٥٤).



سورة الكهف



قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُوهُ مِنْ دُونِهِ إِنَّهَا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾.

١- فإن هؤلاء كانوا بين قومهم الكفار في خدمة ملكهم الكافر، فما هو إلا أن وجدوا حقيقة الإيمان والتوفيق، وذاقوا حلاوته، وباشرو قلوبهم، فقاموا من بين قومهم، وقالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الكهف: ١٤]. الآية. (مدارج السالكين ٣/ ٦٧- ٦٨).

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

٢- استنبط السهيلي في الروض: «أن عدة أصحاب الكهف سبعة، قال: لأن الله تعالى عطف عليهم الكلب بحرف الواو» فقال: ﴿وَأَثَامُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ ولم يذكر الواو فيما قبل ذلك من كلامهم، والواو تقتضي تقرير الجملة الأولى، وما استنبطه حسن غير أنه إنما يفيد إذا كان المعطوف بالواو ليس داخلا في جملة قولهم، بل يكون قد حكي سبحانه أنهم قالوا سبعة، ثم أخبر تعالى أن ثامنهم الكلب، فحيثئذ يكون ذلك تقريراً لما قالوه وإخباراً بكون الكلب ثامناً، وأما إذا كان الإخبار عن الكلب من جملة قولهم وأنهم قالوا هذا، وهذا لم يظهر ما قاله ولا تقتضي الواو في ذلك تقريراً ولا تصديقاً فتأمل. (بدائع الفوائد ٢/ ١٧٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾.

٣- فإذا أراد العبد أن يقتدي برجل فليُنظر: هل هو من أهل الذكر أو من الغافلين؟ وهل الحاكم عليه الهوى أو الوحي؟

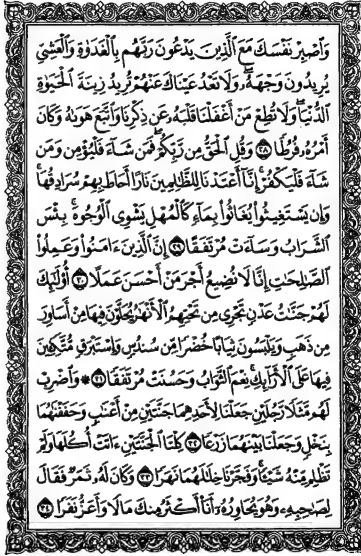
فإن كان الحاكم عليه هو الهوى وهو من أهل الغفلة، كان أمره فرطًا.

ومعنى الفرط قد فسر بالتضييع، أي: أمره الذي يجب أن يلزمه ويقوم به، وبه رشده وفلاحه ضائع قد فرط فيه، وفسر بالإسراف، أي قد أفرط، وفسر بالإهلاك، وفسر بالخلاف للحق. وكلها أقوال متقاربة.

٤- والمقصود أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَهَى عن طاعة من جمع هذه الصفات، فينبغي للرجل أن ينظر في شيخه وقدوته ومتبوعه، فإن وجده كذلك فليبعد منه. وإن وجده ممن غلب عليه ذكر الله تعالى عَزَّ وَجَلَّ واتباع السنة وأمره غير مفروط عليه، بل هو حازم في أمره فليستمسك بغرضه، ولا فرق بين الحي والميت إلا بالذكر، فمثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت. (٦٠-٦١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۖ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾.

٥- نبه سبحانه على قبح هذه الموالاة بقوله: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف: ٥٠]. كما نبه على قبحها بقوله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠]. فبين أن عداوته لربه





أَلَمْ تَرَ أَنَّ السُّورَةَ رِيشَةَ الْحَبِيبِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ أَفْضَلُ حَبِيبٍ عِنْدَ رَبِّكَ قَوْمًا وَخَيْرُ أَمَلٍ ۝ وَكَمْ شِعْرٍ الْجِبَالُ وَرَبِّي الْأَرْضُ بَارِدَةٌ وَحَسَنَ نَّهْمٍ فَكَلَّمَ عَبْدَهُ مَعَهُ أَحَدًا ۝ وَغُرُوبًا عَنْ رَبِّكَ صَمًا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا جَاءَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَنَّنَا جَعَلْنَا لَكُمُ الْعَدَا ۝ وَنُصِصَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُتَشَفِّعِينَ مِنْهُ يَوْمًا يُبْعَثُونَ تَوَلَّوْنَا مَا لَمْ يَكُنْ لَكُمُ الْبَأْسُ لَكُمُ صَبِيرَةٌ وَلَا كِبَرَةٌ إِلَّا أَنْخَسْنَاهَا وَجَعَلْنَا مَا تَعْمَلُونَ حَاضِرًا وَلَا يَطْلُبُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا الْإِبْلِسَ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ فَفَسَدَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَسْجُدُونَ لَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أُولِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُوَ كَعُذْرَتُهُ يَبْسُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ۝ مَا أَفْهَمُهُمْ خَلْقَ السَّمَكِينَ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ تُخَدَّعُونَ عِبَادًا ۝ وَقَدْ يَقُولُ كَادَوا أَشْرَكُوا لَوْلَا الَّذِي رَعَيْنَاهُ فَتَعَفَوْهُ لَقَدْ يَسْتَحْيِيهِمُ اللَّهُ وَيُجَنَّبُنَا عَنْهُ قُرُونًا ۝ وَرَبِّ الْمُجْرِمِينَ أَلَمْ تَرَ لَقَدْ جَاءُوا أَفْهَمَ قُرُونًا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَعْرِفًا ۝

وعداوته لنا، كل منهما سبب يدعو إلى معاداته، فما هذه الموالاة؟ وما هذا الاستبدال؟ بئس للظالمين بدلا.

٦- ويشبه أن يكون تحت هذا الخطاب نوع من العتاب لطيف عجيب، وهو أني عاديت إبليس إذ لم يسجد لأبيكم آدم مع ملائكتي، فكانت معاداته لأجلكم، ثم كان عاقبة هذه المعادة أن عقدتم بينكم وبينه عقد المصالحة. (الداء والدواء ١١٨-١١٩).

٧- فتأمل ما تحت هذه المعاتبة وما في طي هذا الخطاب من سوء هذا العبد وما تعرض له من المقت

والخزي والهوان ومن استعطاف ربه واستعباده ودعائه إياه إلى العود إلى وليه ومولاه الحق الذي هو أولى به، فإذا عاد إليه وتاب إليه، فهو بمثابة من أسر له العدو محبوبا له، واستولوا عليه وحالوا بينه وبينه، فهرب منهم ذلك المحبوب وجاء إلى محبه اختيارا وطوعا حتى توسد عتبة بابه، فخرج المحب من بيته فوجد محبوبه متوسدا عتبة بابه واضعا خده وذقنه عليها، فكيف يكون فرحه به؟ والله المثل الأعلى. (طريق الهجرتين ٢٢٤-٢٢٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَدَاءُ نَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾.

٨- لما سافر موسى إلى الخضر وجد في طريقة مس الجوع والنصب، فقال لفتاه: ﴿إِنَّا عَدَاءُ نَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾، فإنه سفر إلى مخلوق. ولما واعد ربه ثلاثين ليلة وأتمها بعشر فلم يأكل فيها، لم يجد مس الجوع ولا النصب، فإنه سفر إلى ربه تعالى.

وهكذا سفر القلب وسيره إلى ربه، لا يجد فيه من الشقاء والنصب ما يجده في

سفره إلى بعض المخلوقين. (بدائع الفوائد ٣/ ٢٠٣).

قوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا

يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ (١٠١).

٩- وهذا يتضمن معنيين: أحدهما أن أعينهم

في غطاء عما تضمنه الذكر من آيات الله وأدلة توحيده

وعجائب قدرته، والثاني أن أعين قلوبهم في غطاء عن

فهم القرآن وتدبره والاهتداء به، وهذا الغطاء للقلب

أولا، ثم يسري منه إلى العين.



سورة مريم



قوله تعالى: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾.

١- إنه من قول زكريا عَلَيْهِ السَّلَام، فقد قيل: إنه دعاء المسألة. والمعنى: إنك عودتني أجابتك وإسعافك ولم تشقني بالرد والحرمان. فهو توسل إليه تعالى بما سلف من إجابته وإحسانه، كما حكي أن رجلا سأل رجلا وقال: أنا الذي أحسنت إليّ وقت كذا وكذا. فقال: مرحبا بمن توسل إلينا بنا، وقضي حاجته. وهذا ظاهرها هنا، ويدل عليه أنه قدم ذلك أمام طلبه الولد وجعله وسيلة إلى ربه، فطلب منه أن

يجاريه على عادته التي عودته من قضاء حوائجه إلى ما سأله. (بدائع الفوائد ٣/ ٥٤).

قوله تعالى: ﴿وَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

٢- قيل: ما الحكمة في تقييد السلام في قصتي يحيى والمسيح صلوات الله عليهما بهذه الأوقات الثلاثة؟

فسره -والله أعلم- أن طلب السلامة يتأكد في المواضع التي هي مظان العطب ومواطن الوحشة، وكلما كان الموضوع مظنة ذلك، تأكد طلب السلامة وتعلقت بها الهمة، فذكرت هذه المواطن الثلاثة؛ لأن السلامة فيها أكد وطلبها أهم، والنفس عليها أحرص؛ لأن العبد فيها قد انتقل من دار كان مستقرا فيها موطن النفس على صحبتها

الموطن الثاني: خروجه من هذه الدار إلى دار البرزخ عند الموت، ونسبة الدنيا إلى تلك الدار كنسبة داره في بطن أمه إلى الدنيا تقريبا وتمثيلا، وإلا فالأمر أعظم من ذلك وأكبر، وطلب السلامة أيضا عند انتقاله إلى تلك الدار من أهم الأمور.

من الدور إليه وطلب السلامة فيه أكد من جميع ما قبله، فإن عطبه لا يستدرك وعثرته لا تقال وسقمه لا يداوى وفقره لا يسد.

كُلِّمَ وَأَسْتَشْفِي وَفَرِيَ عَيْنًا فَلَمَّا نَجَّوْهُ مِنَ الْمَسْرِ أَحَدًا أَقْبَلُوا
إِلَى تَذَرُّبِ الْبُخْتِ مِنْ صَوَامِكُنْ أَكْبَرُ الْبُخْتِ إِسْيَا ۖ قَالَتْ
يَوْمَ قَوْمَهَا أَتَقْلِمُهُ ۚ قَالُوا بَشِيرُهُ أَقْدَحِيضُ شَيْخَانِ قَرِيهَا
تَبَاحَتْ حُرُونُ مَا كَانَ الْبُوكُ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كُنْتَ
أَتْلُو عَيْنًا ۖ قَالَتْ إِنْ إِيَّاهُ أَرَأَيْتَ كَلَّوْهُ مِنْ كَانِ فِي
الْمَهْدِ صَبِيًّا ۖ قَالَ إِنْ عَبْدُ اللَّهِ رَأَيْتَ الْكَيْبَ وَتَعَلَّى
عَيْنًا ۖ وَتَعَلَّى مَبَارَكًا ابْنُ مَا كُنْتُ وَأَوْصِي بِالْأَسْوَدِ
وَالْأَسْوَدُ مَا تَدْرِكُ حَيًّا ۖ وَتَزَلُّ وَتَلْدِي وَلَمْ تَجْعَلِي
حَيًّا رَأْسِيًّا ۖ وَرَأْسُهُ عَلَى قَوْمٍ وَلَدَتْ وَيَوْمَ أَمُوتُ
وَيَوْمَ أَبْعَثُ حَيًّا ۖ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ
الَّذِي يَوْمَهُ تَبْعُونَ ۖ مَا كَانَ لَوَلَانِ يَشْفَعُ مِنْ وَلَوْ سَبَخْتَهُ
إِذَا تَخَيَّرَ أَمْرًا كَلَّمَاهُ لَوْلَا لَمْ يَكُنْ يَكُونُ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَوْمَهُ وَتُؤَكِّدُ
فَأَقْدَحُوهُ هَذَا صِرَاطُ مُسْتَقِيمَةٍ ۖ فَاتَّخَذَ الْاِخْتِلَافُ مِنْ
تَبْيِيعِهِ قَوْلَ الْكَلْبِ كَرَاهِينَ مُشْتَبِهَةً وَيَوْمَ عِطِيمٍ ۖ أَسْمِعْ يَوْمَهُ
وَأَنْصِرْ يَوْمَ مَا كُنْتُمْ لَكِنِ الظَّالِمِينَ الْيَوْمِ فِي صَلَاحٍ ثَبَرٍ ۖ

للعبد في هذه المواطن الثلاثة عند خروجه إلى عالم الابتلاء وعند معاينته هول المطلاع إذا قدم على الله وحيدا مجردا عن كل مؤنس إلا ما قدمه من صالح عمل وعند موافاته القيامة مع الجمع الأعظم ليصير إلى إحدى الدارين التي خلق لها واستعمل بعمل أهلها، فأَي موطن أحق بطلب السلامة من هذه المواطن، فنسأل الله السلامة فيها بمنه وكرمه ولطفه وجوده وإحسانه. (بدائع الفوائد ٢/ ١٦٨-١٦٩).

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ ۖ﴾.

٤- قال سفيان بن عيينة: جعلني مباركا أينما كنت، قال: معلما للخير. وهذا يدل على أن تعليم الرجل الخير هو البركة التي جعلها الله فيه، فإن البركة حصول الخير ونماؤه ودوامه، وهذا في الحقيقة ليس إلا في العلم الموروث عن الأنبياء وتعليمه، ولهذا سمي سبحانه كتابه مباركا كما قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكٍ أَنْزَلْنَاهُ ۖ﴾، وقال: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ۖ﴾، ووصف رسوله

بأنه مبارك كما في قول المسيح ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ ۖ﴾ فبركة كتابه ورسوله هي سبب ما يحصل بهما من العلم والهدى والدعوة إلى الله. (مفتاح دار السعادة ١٩٠).

قوله تعالى: ﴿يَتَابَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۚ﴾ ﴿٤٢﴾ يَتَابَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۖ﴾ ﴿٤٣﴾.

٥- ابتداء خطابه بذكر أبوته الدالة على توقيره ولم يسمه باسمه، ثم أخرج الكلام معه مخرج السؤال فقال: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۖ﴾ ولم يقل: لا تعبد.

٦- ثم قال: ﴿يَتَابَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ۖ﴾ فلم يقل له: جاهل لا علم عندك، بل عدل عن هذه العبارة إلى ألطف عبارة تدل على هذا المعنى فقال: ﴿جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ۖ﴾، ثم قال: ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۖ﴾ وهذا مثل قول موسى لفرعون: ﴿وَاهْدِكَ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ﴾.

فَكُلٌّ وَأَشْرَىٰ وَقَرَىٰ عَيْنًا فَإِنَّمَا تَوَدُّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُلْتُ
إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ۖ فَأَنَّتْ
بِهِ قَوْمَهَا فَحَمَلَهُ فَأَلَا أَسْمُرُ بِهِ لَقَدْ جَنَّبَ شَيْئًا أَقْرَبًا ۖ
بِتَأَخُّتِ خُدُودِ مَا كَانَ لَوْلَا أَمْرُ أَسْرُو وَمَا كَانَ أَتَى
أُمِّي نَبِيًّا ۖ فَأَنشَرَتْ إِلَيْهِ قَالَ أَكَيْفَ تَكُونُ مَنْ كَانَ فِي
الْمَهْدِ صَبِيًّا ۖ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي
نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالْفَلَاةِ
وَأَلَّا أَكْفُرَ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ وَمَنْ بَرَّ إِلَهِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي
حَيًّا أَنَا شَقِيًّا ۖ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ وَوَعْدُكَ وَأَمْرُكَ
وَوَعْدُكَ لَكُمْ حَقًّا ۖ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ
الَّذِي فِيهِ بَيِّنَاتٌ لِّمَنْ كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ وَمَنْ يُجَادِلْ
إِلَّا فَضْلًا أَمَرَ أَنْ لَا تَقُولَ لَهُ دَرِكٌ فَيَكُونُ ۖ قَالَ اللَّهُ رَبِّي وَرَبُّكُمْ
فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۖ فَأَخَذَ الْاَلْخُرَابُ مِنْ
بَيْتِهِمْ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ
وَأَنصَرَفَ قَوْمُهُ يَأْتُونَ نَارًا لَّكَ الْقَالِيلُونَ الْيَوْمَ فِي صَلَاتِهِ لُحْيِينَ ۖ

وَأَنذَرْتَهُمْ أَهْلَهُ إِذْ قُبِضَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥﴾ إِنَّا نَحْنُ رَبُّ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا إِلَهُ الرَّحْمَنُونَ ﴿١٦﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِذْ يَرْجِعُ اللَّهُ كَانَ صِدْقًا نَبِيًّا ﴿١٧﴾ إِذْ قَالَ لِأَيُّهَا يَتَابِعُ لِمَ تَتَّبِعُونَ مَا لَا يُحْسِنُ وَلَا يُجِيزُ وَلَا يُغْنِي عَنْكُمْ شَيْئًا ﴿١٨﴾ يَتَابِعُ إِلَى قَدْحَانِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَا يَأْتِيكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِيكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿١٩﴾ يَتَابِعُ لَا تَتَّبِعُوا الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٢٠﴾ يَتَابِعُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَسْخَرَكُمُ عَذَابُكَ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٢١﴾ قَالَ أَرَأَيْبَ أَمْتُ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لِمَ تَرْتَدُّهُ لِأَرْجَمَكَ وَأَهْجُرِي مِلًّا ﴿٢٢﴾ قَالَ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي خُفْيَا ﴿٢٣﴾ وَأَنزَلَ كُرْسِيًّا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَشِيَ ﴿٢٤﴾ آكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي سَوِيًّا ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا أَتَاهُ نُورًا وَهَامُومًا دُونَ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ الْوَحْيَ وَوَعَدْنَا نَبِيًّا ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا جَعَلْنَا لِسَانَ صِدْقٍ عَلَيَّكَ ﴿٢٧﴾ وَأَذْكُرُ الْكِتَابَ مَوْعِظَةً لِّكُلِّ مَخْلُوقٍ وَأَنزَلَ كُرْسِيًّا

﴿١٥﴾ قوله تعالى: ﴿يَتَابِعُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ ﴿١٥﴾.

٧- فنسب الخوف إلى نفسه دون أبيه كما يفعل الشفيق الخائف على من يشفق عليه وقال: ﴿يَمَسَّكَ﴾ فذكر لفظ المَسِّ الذي هو أطف من غيره، ثم نكر العذاب، ثم ذكر الرحمن ولم يقل الجبار ولا القهار، فأى خطاب أطف وألين من هذا؟! ونظير هذا خطاب صاحب يس لقومه حيث قال: ﴿يَقَوْمِ أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا

وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ونظير ذلك قول نوح لقومه: ﴿يَقَوْمِ إِنِّي كُنْتُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٢١﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴿٢٢﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿٢٣﴾.

٨- وكذلك سائر خطاب الأنبياء لأمتهم في القرآن إذا تأملته وجدته ألين خطاب وأطفه، بل خطاب الله لعباده وأطف خطاب وألينه كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ ﴿١﴾ الْآيَاتِ وَقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَعِصُوا لِلَّهِ إِنَّكَ إِلَهُ الْوَالِدِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ ﴿٢﴾ وَقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ ﴿٥٠﴾.

وتأمل ما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ ﴿٥٠﴾ من اللطف الذي سلب العقول، وقوله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ ﴿٥١﴾ على أحد التأويلين، أي: نترككم فلا ننصحكم

ولا ندعوكم ونعرض عنكم إذا أعرضتم أنتم وأسرفتم. (بدائع الفوائد ٣/ ١٣٣-١٣٤).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَزَعَنَّكَ مِنْ كُلِّ شَيْعَةٍ أَهْلَهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا﴾ ﴿٦١﴾.

٩ - والشيعية القوم الذين شايعوا، أي: تبع بعضهم بعضا وغالب ما يستعمل في الدم ولعله لم يرد في القرآن إلا كذلك كهذه الآية وكقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا﴾ وقوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ﴾ وذلك والله أعلم لما في لفظ الشيعة من الشيع والاشاعة التي هي ضد الائتلاف والاجتماع؛ ولهذا لا يطلق لفظ الشيع إلا على فرق الضلال لتفرقهم واختلافهم. (بدائع الفوائد

١/ ١٥٥).

رَبِّ السَّمَكِينَ وَالْأَرْضِ وَابْنَهُمَا فَأَعْبَدُهُ وَاعْبُدْ لَهُ عِبَادِي
هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦١﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ أَكَا مَلُوكٌ لَسْتُ
أُخْرِجَ حَيًّا ﴿٦٢﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِن قَبْلُ
وَلَمْ يَكُن شَيْئًا ﴿٦٣﴾ فَوَرَّكَ لَتَخْشُرَ لَهُمُ وَالشَّجَرُ يَخْشَى
لَتَخْشُرَ لَهُمُ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٤﴾ ثُمَّ لَنَزَعَنَّكَ مِنْ كُلِّ
شَيْعَةٍ أَهْلَهُ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا ﴿٦٥﴾ ثُمَّ لَنَزَعَنَّكَ مِنَ الَّذِينَ
هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلَاً ﴿٦٦﴾ وَلَنْ يَذْكُرَ الْوَارِثُ هَآكَذَا عَلَىٰ رَأْسِكَ
حَتَّىٰ تَقْضِيَّهَا ﴿٦٧﴾ ثُمَّ نَسْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ
فِيهَا جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ وَإِذَا نَسَّيَ عَلَيْهِمُ مَا يَفْتَأْنَ نَسِيتَ قَالَ الَّذِينَ كُفَرُوا
لِلَّذِينَ آمَنُوا أَلَمْ يَأْتِ الْكَافِرِينَ خَوْفٌ مِّمَّا وَالْحَسَنُ يَكِيدُ ﴿٦٩﴾
وَيَكِيدُ كَمَا كَفَرُوا مِن قَبْلُ مِمَّنْ أَحْسَنَ أَمْرُهُمْ فِيهَا
قُلْ مَن كَانَ فِي الْعِصَةِ اللَّئِيمَةِ فَلْيَسْتَدِ ذَٰلِكَ الرَّحْمَنُ مِمَّا خَلَقَ إِذَا رَأَىٰ
مَالُوعُونَ إِذَا الْعَذَابُ لَمَسَ السَّاعَةَ فَمَسَّعُومُونَ مَن قَوَّضُوا
مَكَانَهُمْ فَمَنْ جُنْدًا ﴿٧٠﴾ وَوَرَّادُ اللَّهِ الَّذِينَ لَعَنَهُ وَأَهْلَهُ
وَالْبُيُوتَ الصَّالِحِينَ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧١﴾



سورة طه

﴿قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾﴾.

١- والأظهر أنها لام التعليل، أي: أقم الصلاة لأجل ذكري.

ويلزم من هذا أن تكون إقامتها عند ذكره، وإذا ذكر العبد ربه، فذكر الله تعالى سابق على ذكره، فإنه لما ذكره ألهمه ذكره. (الوابل الصيب ٩١، دار البيان).

﴿قوله تعالى: ﴿فَأَنبِأَهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْدِبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾﴾ (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ (٤٨).

إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ آلِكَ مَائِيكَ ﴿٤٧﴾ أَنِ اقْضِيهِ فِي السَّابِقِ قَاتِلِيهِ
فِي الْيَوْمِ قَاتِلِيهِ أَلَيْسَ بِأَمْثَلُ عَذَابِي وَعَذَابُهُ وَالْقَبْرُ
عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِّنِي وَالصَّبْرُ عَلَىٰ عَذَابِي ﴿٤٨﴾ قَاتِلِيهِ أَلَيْسَ
بِأَمْثَلُ عَذَابِي وَأَلَيْسَ بِأَمْثَلُ عَذَابِي وَأَلَيْسَ بِأَمْثَلُ عَذَابِي
وَلَا تَحْزَنْ وَفَقَدْ نَفَسْنَا فَتَحْتَنَّاكَ مِّنَ الْقَمَرِ وَفَقَدْ نَفَسْنَا
فَلَيْتَ سَبِيحِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ فَجِئْتُكَ عَلَىٰ قَدَرٍ تَسْمَعُونَ ﴿٤٩﴾
وَأَمْسَلْتُ نَفْسَكَ لِنَفْسِي ﴿٥٠﴾ أَذْهَبَ أَنتَ وَأَسْرَعُكَ بِعَاتِلِي وَلَا
تَبْقَىٰ ذِكْرِي ﴿٥١﴾ أَذْهَبَ إِلَىٰ وَغْرَةٍ إِلَهٍ طَلْعِي ﴿٥٢﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلَا
إِنَّا أَعْلَمُ بِتَذْكَرِ أَوْعَيْنِي ﴿٥٣﴾ قَالَ رَبَّنَا إِنَّا أَلْفَخَا أَن يُبْرِطَ
عَلَيْنَا أَوْرَانُ يَطْلَعُنَّ ﴿٥٤﴾ قَالَ لَا تَخَفَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ
﴿٥٥﴾ فَأَنبِأَهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ
وَلَا تَعْدِبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ
الْهُدَىٰ ﴿٥٦﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ
وَتَوَلَّىٰ ﴿٥٧﴾ قَالَ قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ
وَتَوَلَّىٰ ﴿٥٨﴾ فَخَلَعْنَا عَنْهُ كُفَّهُ دَعَىٰ ﴿٥٩﴾ قَالَ فَتَابَ الْقُرُونُ الْأُولَىٰ ﴿٦٠﴾

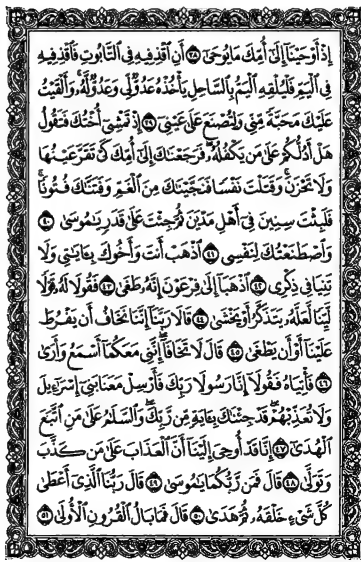
٢- أما قول موسى ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾

فليس بسلام تحية، فإنه لم يبتدئ به فرعون، بل هو خبر محض، فإن من اتبع الهدى له السلام المطلق دون من خالفه، فإنه قال له: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْدِبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ (٤٨) أفلا ترى أن هذا ليس بتحية في ابتداء

الكلام ولا خاتمته، وإنما وقع متوسطا بين الكلامين إخبارا محضاً عن وقوع السلامة وحلولها على من اتبع الهدى.

ففيه استدعاء لفرعون وترغيب له بما جبلت النفوس على حبه وإيثاره من السلامة، وأنه إن اتبع الهدى الذي جاءه به، فهو من أهل السلام، والله تعالى أعلم.

٣- وتأمل حسن سياق هذه الجمل وترتيب هذا الخطاب ولطف هذا القول اللين الذي سلب القلوب حسنه وحلاوته مع جلالته وعظمته، كيف ابتدأ الخطاب بقوله إنا رسول ربك، وفي ضمن ذلك: إنا لم نأتك لنتنازعك ملكك ولا لنشركك فيه، بل نحن عبدان مأموران مرسلان من ربك إليك، وفي إضافة اسم الرب إليه هنا دون إضافته إليهما استدعاء لسمعه وطاعته وقبوله، كما يقول الرسول للرجل من عند مولاه: أنا



رسول مولاك إليك وأستاذك، وإن كان أستاذهما معا، ولكن ينبهه بإضافته إليه على السمع والطاعة له، ثم إنهما طلبا منه أن يرسل معهما بني إسرائيل ويخلي بينهم وبينهما ولا يعذبهم. ومن طلب من غيره ترك العدوان والظلم وتعذيب من لا يستحق العذاب، فلم يطلب منه شططا ولم يرهقه من أمره عسرا، بل طلب منه غاية النصف.

٤- ثم أخبره بعد الطلب بثلاث إخبارات:

أحدها قوله تعالى: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ﴾

فقد برئنا من عهدة نسبتك لنا إلى التقول والافتراء بما جئناك به من البرهان والدلالة الواضحة فقد قامت الحجة، ثم بعد ذلك للمرسل إليه حالتان: إما أن يسمع ويطيع فيكون من أهل الهدى والسلام على من اتبع الهدى، وإما أن يكذب ويتولى فالعذاب على من كذب وتولى، فجمعت الآية طلب الإنصاف وإقامة الحجة وبيان ما يستحق السامع المطيع وما يستحقه المكذب المتولي باللطف خطاب وأليق قول وأبلغ ترغيب

إِذْ رَجَعْنَا إِلَىٰ أُمَمِكَ يَا مُوسَىٰ ۖ أَنْ أَقْرَبِي فِي التَّائِبِينَ فَأَقْرَبِيهِ
فِي السَّيْرِ فَلْيَلْقَهُ السَّيْرُ بِأَعْدُوِّي وَعَدُوْلُهُ وَالْقَبِيْرُ
عَلَيْكَ مَحَنَةٌ يَتَىٰ رُلْمَسْتُمْ عَلَىٰ عَيْتِي ۖ إِذْ قَرَّبْتُمْ أُنْثَىٰ فَتَقُولُ
هَلْ أَذْكَرُ عَلَىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمَمِكَ لِيَتَفَرَّغَ عَلَيْهَا
وَلَا تَحْزَنُ ۚ وَفَعَلْتَ نَفْسًا فَتَجَنَّبَكَ مِنَ الْفَقْرِ وَفَعَلْتَ كُفْرًا
فَلَيْسَتْ سَيِّئِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ فَجِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْشِي ۖ
وَأَضْحَمْتَ نَفْسَكَ لِيَقْبِي ۖ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخْرَجْتَ بَنَاتِي وَلَا
يَبْقَىٰ فِي ذِكْرِي ۖ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۖ فَتَقُولُ لَهُ قَوْلًا
يَسْتَأْذِنُ ۖ يَذْكُرُ لِي وَنَحْنُ ۖ قَالَ رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَاكَ أَنْ تَرْضَىٰ
عَلَيْنَا أَوْ لَا تَرْضَىٰ ۖ قَالَ لَا تَخَفَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ
فَأَنبَأَهُ قَوْلَهُ لَا تَخَفَا سَوْلاَ رَبُّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنَاتِي وَاسْتَزَلْ
وَلَا تَهْزَأْ بِهِنَّ قَدْ جِئْتَنِيكَ بِبَنَاتِي مِنْ نَزْوَىٰ ۖ وَكَانَ لَعَلَّ عَلَىٰ مَنْ أَتَيْتُ
الْهَدْيَ ۖ أَفَأَقْدَرُ مِنْ أَيْنَا ۖ أَذْهَبَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ
وَقَوْلِي ۖ قَالَ قَدْ رُبَّ كَذَّابٍ يَتَّبِعُنِي ۖ قَالَ رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ
كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ۖ فَجُودِي ۖ قَالَ فَتَابَ الْفُرْقَانُ الْأَوَّلَىٰ ۖ

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمْوَسَىٰ﴾ (٤١) قَالَ رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ۖ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) .

٥- لما علم فرعون أن هذه حجة قاطعة لا مطعن فيها بوجه من الوجوه، عدل إلى سؤال فاسد عن وارد فقال: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ (٥١) ، أي: فما للقرون الأولى لم تقر بهذا الرب ولم تعبد، بل عبدت الأوثان والمعنى: لو كان ما تقوله حقا لم يخف على القرون الأولى ولم يهملوه، فاحتج عليه بما يشاهده هو وغيره من آثار ربوبية رب العالمين،

فعارضه عدو الله بكفر الكافرين به وشرك المشركين، وهذا شأن كل مبطل، ولهذا صار هذا ميزانا في ورثته يعارضون نصوص الأنبياء بأقوال الزنادقة والملاحدة وأفراخ الفلاسفة والصابئة والسحرة ومبتدعة الأمة وأهل الضلال منهم.

فأجابه موسى عن معارضته بأحسن جواب فقال: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ ، أي: أعمال تلك القرون وكفرهم وشركهم معلوم لربي قد أحصاه وحفظه وأودعه في كتاب، فيجازيهم عليه يوم القيامة ولم يودعه في كتاب خشية النسيان والضلال، فإنه سبحانه لا يضل ولا ينسى، وعلى هذا فالكتاب ها هنا كتاب الأعمال.

وقال الكلبي: يعني به اللوح المحفوظ، وعلى هذا فهو كتاب القدر السابق، والمعنى على هذا أنه سبحانه قد علم أعمالهم وكتبها عنده قبل أن يعملوها، فيكون هذا من تمام قوله ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ۖ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (٥٠) فتأمله. (شفاء العليل ٧٨ - ٧٩).

٦- لما تمكن الإيمان من قلوبهم، علموا أن عقوبة الدنيا أسهل من عقوبة الآخرة وأقل بقاء، وأن ما يحصل لهم في الآخرة من ثواب الإيمان أعظم وأنفع وأكثر بقاء. (الصواعق المرسلة ٤/ ١٣٨٩).

٧- ومن عجيب أمرهم: أنهم لم يكتفوا بكونه إلههم، حتى جعلوه إله موسى، فنسبوا موسى عليه السلام إلى الشرك وعبادة غير الله تعالى، بل عبادة أبلد الحيوانات، وأقلها دفعا عن نفسه، بحيث يضرب به المثل في البلادة والذل. فجعلوه إله كليم الرحمن.

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ إِلَىٰ أَرْضِ فَارِسَ ۚ
فَإِذَا بِهِ جُنُودٌ يَبْسُتُونَ أَلَّا يَلْقَاهُ ۚ فَنَزَّلْنَا الذُّلُومَ ۖ وَأَنبَتْنَاهُمْ قُرُونًا
يُخَالِفُونَ بِغَيْرِهِمْ ۖ فَنُفِثْنَاهُ خِلَافَهُمْ ۖ وَأَنبَتْنَاهُ قُرُونًا يَخْتَرِفُونَ
أَحَادِيثَهُ ۖ فَتَتَّبِعِي أَهْلَ بَيْتِهِ إِذْ يَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصَوِّفِينَ ۖ فَمِنْ دُونِهِمُ
مُؤْمِنَاتٌ مِّلَاتٌ ۖ قُلْنَ إِنَّا كَاذِبَاتٌ ۚ وَتَلَوْنَا عَلَيْهِمْ آلَ مَرْيَمَ ۖ وَآلَ إِبْرَاهِيمَ
ۖ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا أَنْبِيَاءَنَا بِمَا كُنتُمْ لَعَنُوكُمْ ۖ فإِنَّهُمْ عَلَىٰ كُفْرٍ وَلَئِنَّكُمْ
عَلَيْكُمْ يَوْمَ تَأْتِي سَأَرَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ ۚ وَلَا ظُلْمَ لَّيَوْمَ ۚ فَوَجَّهْنَا لِيُسْأَلَهُ سَبْأَتُهَا
فَأُوتِيَتْ أَجْلٌ لَّيْلَةٌ ۚ وَقَدْ غَفُونا عَنْ أَهْلِ الْعِلَادَةِ ۖ لِمَن تَابَ
وَأَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا مَّا حَفَظْنَاهُ ۚ وَمَا أَجْعَلُكَ عَنْ
قَوْلِكَ تَسْمُونَ ۚ قَالَ هُمْ أَوْلَىٰ عَلَيَّ ذَنبًا ۚ وَجَعَلْتُ إِلَيْكَ
رَبِّي لِأَتَضَعَن ۚ قَالَ فَلَا تَذْهَبْ فَاذْهَبْنَا فَمِنْ دُونِهِمْ مِّمَّنْ أَسْلَمْنَا لَهُمُ
السَّامِرِيُّ ۚ فَخَرَجَ مُوسَىٰ عَلَىٰ قَوْمِهِ عَشِينَ ۖ أَسْرَفُوا قَالَ
يَتَّبِعُهُ الرَّبُّ وَكُونُوا مَعَهُ حَاسِبًا ۖ أَصْحَابًا عَلَيْهِ كُتُبُ الْهَدَىٰ
أَرَادَ ثَمَنًا يَجْعَلُ عَلَيْهِمْ عَشِينَ ۖ وَبَنَىٰ كَوْفًا لَّهُمْ
تَمْرِيدي ۚ قَالُوا إِنَّا الْخَلْقُ أَمْوَالُكُمْ بَسْمَلِكُمْ ۚ وَارْتَبَكُوا حِمْلًا
أَوْ ذَاكَ مِنْ رِّبَايَةِ الْقَوْمِ ۚ فَقَدْ فَتَنَاهُ ذَٰلِكَ ۚ أَلَيْسَ السَّامِرِيُّ

بمطارق الحديد، مقلبا في النار مرة بعد مرة، قد نحت بالمبارد، وأحدث الصانع صورته وشكله على صورة الحيوان المعروف بالبلادة والذل والضميم. وجعلوه إله موسى، ونسبوه إلى الضلال، حيث ذهب يطلب إليها غيره.

٩- فجعل امتناع صفة الكلام والتكليم وعدم ملك الضر والنفع دليلاً على عدم الإلهية، وهذا دليل عقلي سمعي على أن الإله لا بد أن يكلم ويتكلم ويملك لعباده الضر والنفع وإلا لم يكن إلهاً. (الصواعق المرسله ٣/ ٩١٥).

📖 قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عِزْمًا ۝١١٥﴾.

١٠- تأمل أول نقص دخل على أبي البشر وسرى إلى أولاده كيف كان من عدم العلم والعزم. فقال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ﴾ الآية، والنسيان سواء كان عدم العلم أو عدم الصبر كما فسر بهما هنا، فهو أمر عديمي. (طريق الهجرتين ١٠٠).

📖 قوله تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾.

١١- كيف شرك بينهما في الخروج وخص الذكر بالشقاء لاشتغاله بالكسب

والمعاش والمرأة في خدرها. (بدائع الفوائد ٣/ ٢٢٩).

📖 قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ

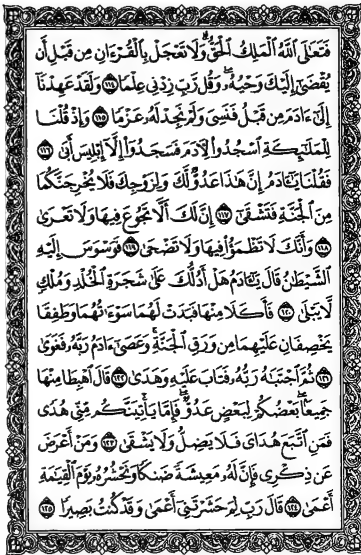
۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ۝١١٩﴾.

١٢- قابل بين الجوع والعري دون الجوع

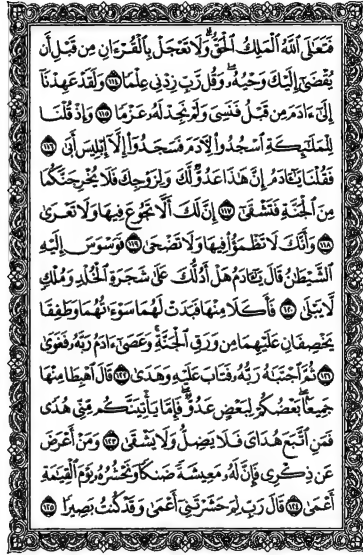
والظمأ وبين الظمأ والضحى دون الظمأ والجوع، فإن الجوع عري الباطن وذله، والعري جوع الظاهر وذله، فقابل بين نفي ذل باطنه وظاهره وجوع باطنه وظاهره، والظمأ حر الباطن والضحى حر الظاهر،

فقابل بينهما. (روضة المحبين ٢٢٦).

والواقف مع القالب ربما يخيّل إليه أن الجوع يقابل بالظمأ والعري بالضحى، والداخل إلى بلد المعنى يرى هذا الكلام في أعلى الفصاحة والجلالة؛ لأن الجوع ألم



الباطن والعري ألم الظاهر فهما متناسبان في المعنى، وكذلك الظمأ مع الضحى؛ لأن الظمأ موجب لحرارة الباطن، والضحى موجب لحرارة الظاهر، فاقتضت الآية نفى جميع الآفات ظاهرا وباطنا. (بدائع الفوائد ٣/ ٢٤٠).



📖 قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَصِلْ وَلَا يَشْقَى﴾

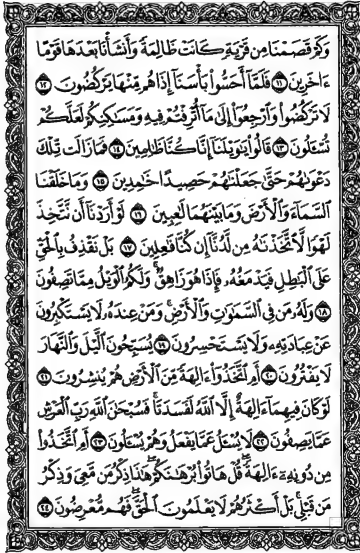
١٣- نفى عنه الضلال الذي هو عذاب القلب والروح، والشقاء الذي هو عذاب البدن والروح أيضا، فهو منعم القلب والبدن بالهدى والفلاح. (إغاثة اللفهان ٥٨).

١٤- فهذا هو الإعراض عن ذكره، فإذا كان هذا

حال المعرض عنه، فكيف حال المعارض له بعقله أو عقل من قلده وأحسن الظن به، فكما أنه لا يكون مؤمنا إلا من قبله وانقاد له، فمن أعرض عنه وعارضه من أبعد الناس عن الإيمان به. (الصواعق المرسله ٣/ ٨٤٥-٨٤٦).



سورة الأنبياء



قوله تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴿٢٣﴾.

١- كيف ساق الآية في الإنكار على من اتخذ من دونه آلهة لا تساويه، فسواها به مع أعظم الفرق، فقوله: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ إثبات لحقيقة الإلهية وإفراده له بالربوبية والإلهية، وقوله: ﴿وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ في صلاح تلك الآلهة المتخذة للإلهية

فإنها مسئولة مربوبة مدبرة، فكيف يسوى بينها وبينه مع أعظم الفرقان؟ فهذا الذي سيق له الكلام، فجعلها الجبرية ملجأ ومعقلا في إنكار حكمته وتعليل أفعاله بغاياتها المحمودة وعواقبها السيئة، والله الموفق للصواب. (مفتاح دار السعادة ٢٩٥).

٢- قال أبو الفرج بن الجوزي: «والدليل على أن الخضر ليس بباقي الدنيا أربعة أشياء: القرآن، والسنة، وإجماع المحققين من العلماء، والمعقول.

أما القرآن فقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِلشِّرِّ مِن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ ﴿١﴾ فلو دام الخضر كان خالدا. (المنار المنيف ٦٨).

قوله تعالى: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾.

٣- والتماثيل جمع تماثل وهو الصور الممثلة، فتعلق القلب بغير الله واشتغاله

به والركون إليه عكوف منه على التماثيل التي قامت بقلبه، وهو نظير العكوف على تماثيل الأصنام، ولهذا كان شرك عباد الأصنام بالعكوف بقلوبهم وهمهم وإرادتهم على تماثيلهم، فإذا كان في القلب تماثيل قد ملكته واستعبدته، بحيث يكون عاكفا عليها، فهو نظير عكوف الأصنام عليها، ولهذا سماه النبي عبدا لها ودعا عليه بالتعس والنكس فقال: «تَعَسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعَسَ عَبْدُ الدَّرْهَمِ، تَعَسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شَيْكَ فَلَا أَنْتَقَشَ». (الفوائد ١٩٠).

٤- جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه ووجود طعم المحبة في المتملق له، والإقرار له بصفة الرحمة وأنه أرحم الراحمين والتوسل إليه بصفاته سبحانه وشدة حاجته وهو فقره، ومتى وجد المبتلى هذا كشف عنه بلواه، وقد حارب أنه من قالها سبع مرات ولا سيما مع هذه المعرفة، كشف الله ضره. (الفوائد ١٩٥).

فإن فيها من كمال التوحيد والتنزيه للرب تعالى، واعتراف العبد بظلمه وذنبه، ما هو من أبلغ أدوية الكرب، والهم، والغم، وأبلغ الوسائل إلى الله سبحانه في قضاء الحوائج، فإن التوحيد والتنزيه يتضمنان إثبات كل كمال لله، وسلب كل نقص وعيب وتمثيل عنه، والاعتراف بالظلم يتضمن إيمان العبد بالشرع والثواب والعقاب، ويوجب انكساره ورجوعه إلى الله واستقالته عشرته، والاعتراف بعبوديته، وافتقاره إلى ربه، فهذا هنا أربعة أمور قد وقع التوسل بها: التوحيد، والتنزيه، والعبودية، والاعتراف. (زاد المعاد ٤/ ٢٠٨).

٥- وهذا الإيراد الذي أورده ابن الزبيري لا يرد على الآية، فإنه سبحانه قال:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ولم يقل: ومن تعبدون. و(ما) لما لا يعقل، فلا يدخل فيها الملائكة والمسيح وعزير، وإنما ذلك للأحجار ونحوها. (شفاء العليل ٢٦-٢٨).

📖 قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (١٠٥) **إِنَّ فِي هَذَا الْبَلَاغِ الْقَوْمَ عِبْدِي** (١٠٦).

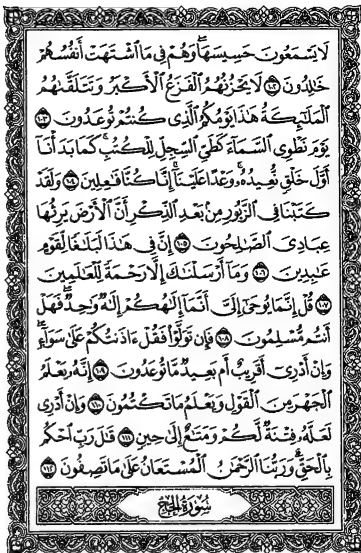
٦- وهي علم من أعلام نبوة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فإنه أخبر بذلك بمكة وأهل الأرض كلهم كفار أعداء له ولأصحابه، والمشركون قد أخرجوهم من ديارهم ومساكنهم وشتتوهم في أطراف الأرض، فأخبرهم ربهم تَبَارَكَ وَتَعَالَى أنه كتب في الذكر الأول أنهم يرثون الأرض من الكفار، ثم كتب ذلك في الكتب التي أنزلها على رسله. (شفاء العليل ٣٩).

📖 قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٧).

٧- وأصح القولين في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٧) [الأنبياء

١٠٧] أنه على عمومته، وفيه على هذا التقدير وجهان:

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته، أما أتباعه فنالوا به كرامة الدنيا والآخرة، وأما أعداؤه فالمحاربون له عجل قتلهم وموتهم خير لهم من حياتهم؛ لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة، وهم قد كتب عليهم الشقاء، فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر. وأما المعاهدون له فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده



وذايمته وهم أقل شرا بذلك العهد من المحاربين له .
وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن
دمائهم وأموالهم وأهلهم واحترامها وجريان أحكام
المسلمين عليهم في التوارث وغيره، وأما الأمم النائية
عنه، فإن الله سبحانه رفع برسالته العذاب العام عن
أهل الأرض، فأصاب كل العالمين النفع برسالته .

الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد، لكن المؤمنون قبلوا هذه الرحمة فانتفعوا بها دنيا وأخرى، والكفار ردوها فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم،

لكن لم يقبلوها، كما يقال هذا دواء لهذا المرض، فإذا لم يستعمله المريض لم يخرج
عن أن يكون دواء لذلك المرض. (جلاء الإفهام (١١٥-١١٦) الطبعة المنيرية).



سورة الحج

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبُّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ١﴾
يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا
وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ ۚ



١- والمرضعة من ألقت الثدي للرضيع،
وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ
مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أبلغ من (مرضع) في هذا
المقام، فإن المرأة قد تذهل عن الرضيع إذا كان غير
مباشر للرضاعة، فإذا التقم الثدي واشتغلت برضاعه
لم تذهل عنه إلا لأمر أعظم عندها من اشتغالها
بالرضاع.

٢- وتأمل - رحمك الله تعالى - السر البديع في

عدوله سبحانه عن كل حامل إلى قوله: ﴿ذَاتِ حَمْلٍ﴾، فإن الحامل قد تطلق على
المهياة للحمل وعلى من هي في أول حملها ومبادئه، فإذا قيل: ﴿ذَاتِ حَمْلٍ﴾ لم
يكن إلا لمن ظهر حملها وصلاح للوضع كاملاً أو سقطاً، كما يقال: ذات ولد، فأتى في
المرضعة بالتاء التي تحقق فعل الرضاعة دون التهيؤ لها، وأتى في الحامل بالسبب الذي
يحقق وجود الحمل وقبوله للوضع، والله تعالى أعلم. (بدائع الفوائد ٤/ ٢١-٢٢).

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ
مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ٥﴾ ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّذِينَ هُمْ أَلْحَقُ وَأَنَّهُ يُخَيِّمُ الْمَوْتُ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
٦ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ٧

٣- جعل الله سبحانه إحياء الأرض بعد موتها نظير إحياء الأموات، وإخراج النبات منها نظير إخراجهم من القبور، ودل بالنظير على نظيره، وجعل ذلك آية ودليلا على خمسة مطالب:

أحدها: وجود الصانع، وأنه الحق المبين، وذلك يستلزم إثبات صفات كماله، وقدرته، وإرادته، وحياته، وعلمه، وحكمته، ورحمته، وأفعاله.

الثاني: أنه يحيي الموتى.

الثالث: عموم قدرته على كل شيء.

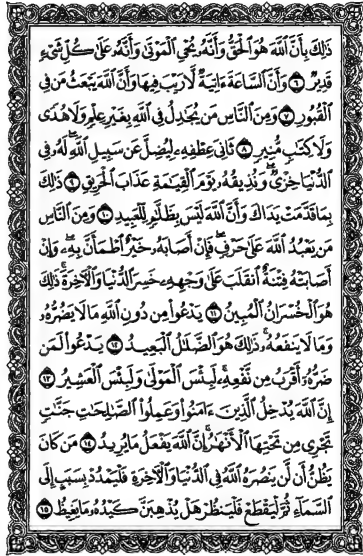
الرابع: إتيان الساعة وأنها لا ريب فيها.

الخامس: أنه يخرج الموتى من القبور كما أخرج

النبات من الأرض. (إعلام الموقعين ١/ ١٩٣).

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ۝ ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۝﴾

٤- ورتب سبحانه هذه الأمور الثلاثة أحسن ترتيب: فبدأ بالأعم وهو العلم، وأخبر أنه لا علم عند المعارض لآياته بعقله، ثم انتقل منه إلى ما هو أخص وهو الهدى، ثم انتقل إلى ما هو أخص وهو الكتاب المبين، فإن العلم أعم مما يدرك بالعقل والسمع والفترة، وأخص منه الهدى الذي لا يدرك إلا من جهة الرسل، وأخص منه الكتاب الذي أنزله الله على رسوله، فإن الهدى قد يكون كتابا وقد يكون سنة، وهذه الثلاثة منتفية عن هؤلاء قطعاً، أما الكتاب والهدى المأخوذ عن الرسل فقد قالوا إنه لا يفيد علماً ولا يقينا، والمعقول يعارضه، فقد أقروا أنهم ليس معهم كتاب ولا سنة وبقي العلم، فهم يدعونه والله تعالى قد نفاه عنهم.



٥- وذكر التفصيل في مجادلة المتبوع الداعي وأنها في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، واكتفى في ذكر التابع بنفي العلم المستلزم لنفي هذه الثلاثة، فإن مجادلة المتبوع أصل وهو أقعد بها من مجادلة التابع ومصدرها كبر ومصدر مجادلة التابع ضلال وتقليد، فذكر حال المتبوع على التفصيل، ولهذا ذكر فساد قصده وعلمه، وذكر من عقوبته أشد مما ذكر من عقوبة التابع، وهذا وأمثاله من أسرار القرآن التي حرمها الله على من عارض بينه وبين العقل وقدم العقل عليه. (الصواعق المرسلة ٣/ ١٠٨٦-١٠٩١).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنَ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (١٨).

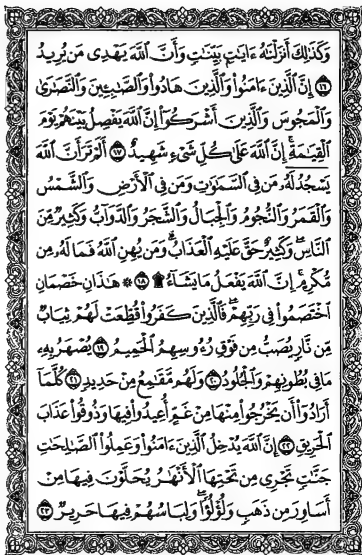
٦- فالذي حق عليه العذاب هو الذي لا يسجد له سبحانه، وهو الذي أهانه بترك السجود له، وأخبر أنه لا مكرم له، وقد هان على ربه حيث لم يسجد له. (كتاب الصلاة ١٨٠).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَكُم مِّن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (٢٧).

٧- تقديم الرجال على الركبان ففيه فائدة جلييلة:

وهي أن الله تعالى شرط في الحج الاستطاعة، ولا بد

من السفر إليه لغالب الناس، فذكر نوعي الحجاج لقطع توهم من يظن أنه لا يجب إلا على راكب، وقدم الرجال اهتماما بهذا المعنى وتأكيذا، ومن الناس من يقول قدمهم جبرا لهم؛ لأن نفوس الركبان تزدرهم وتوبخهم وتقول: إن الله تعالى لم يكتبه عليكم ولم يرد



منكم وربما توهموا أنه غير نافع لهم، فبدأ به جبرا لهم ورحمة. (بدائع الفوائد ١/ ٦٩).

قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (٣٠)
 حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ
 تَهْوِي بِهِ إِلَى الْأَرْضِ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾

وَهُذُو إِلَى الظَّيْبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُذُو إِلَى مَرِطِ الْحَمِيدِ
 ⑤ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَتَوَّابِينَ
 الْحَزَلَةُ الَّتِي حَمَلَتْهُ النَّاسُ سَوَاءَ الْحَكِيمِ يَدُو وَالتَّائِبُ
 وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَامٍ يُظْلَمُ تُؤْخَذُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ
 ⑥ وَذُو الْبَأْسِ الْإِبْرَاهِيمَ تَكَانَ الظَّيْبُ أَنْ تَنْشُرَكَ
 فِي شَيْخَانٍ وَطَهْرَتِ بَنِي الْقَلْبَانِ وَالْقَابِضِينَ وَالزُّكُومِ
 السُّجُودِ ⑦ وَأَذْنُ فِي النَّاسِ بِالْمُخْبَرِ بِأَوَّلِهِ بِصَالٍ وَكَانَ
 كُلُّ صَاحِبٍ بِأَوَّلِهِ مِنْ كُلِّ قَبْ عَيْنٍ ⑧ لِيُشْهِدُوا
 مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا نَاسْرَ اللَّهِ فِي أَثَرِهِ مَقُولِينَ
 عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَعَلُوا مِنْهَا
 وَأَطَاعُوا أَلْبَاسَ الْقَوَدِ ⑨ ثُمَّ لِيَقْضُوا قَضَاهُمْ
 وَيُلْوَ فُؤَادَهُمْ وَيَتَقَرَّبُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ⑩
 ذَلِكَ وَمَنْ يَعْظُرْ حُرُوبِ اللَّهِ فَحُورَتُهُ عِدَّةُ
 رِيْدِهِ وَأَحْلَتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ الْأَمَانِي عَلَى كَفَرٍ
 فَاجْتَنِبُوا الْجَنَابِ مِنَ الْأَذْنِ وَاجْتَنِبُوا أَزْوَارَ ⑪

٨- فتأمل هذا المثل ومطابقته لحال من أشرك بالله وتعلق بغيره، ويجوز لك في هذا التشبيه أمران:

أحدهما: أن تجعله تشبيها مركبا، ويكون قد شبه من أشرك بالله وعبد معه غيره برجل قد تسبب إلى هلاك نفسه هلاكا لا يرجى معه نجاة، فصور بصورة حال من خر من السماء فاخطفته الطير في الهوي فتمزق مزقا في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطارح البعيدة، وعلى هذا لا تنظر إلى كل فرد من أفراد المشبه ومقابله من المشبه به.

والثاني: أن يكون من التشبيه المفرق، فيقابل كل واحد من أجزاء الممثل بالممثل به، وعلى هذا فيكون قد شبه الإيمان والتوحيد في علوه وسعته وشرفه بالسماء التي هي مصعده ومهبطه، فمنها هبط إلى الأرض، وإليها يصعد منها، وشبه تارك الإيمان والتوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين من حيث التضييق الشديد والآلام المترامة والطير الذي تخطف أعضائه وتمزقه كل ممزق بالشياطين التي يرسلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْهِ وتؤزّه أزا، وترعجه وتقلقه إلى مظان هلاكه؛ فكل شيطان له مزعة من دينه وقلبه، كما أن لكل طير مزعة من لحمه وأعضائه، والريح التي تهوي به في مكان سحق هو هواه الذي حمله على إلقاء نفسه في أسفل مكان وأبعده من السماء. (إعلام الموقعين ١/ ٢٣٤-٢٣٥).



قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعِيرٍ ۗ اللَّهُ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ ۚ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ ۚ

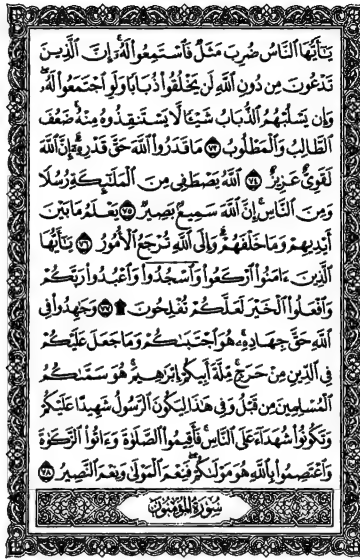
٩- أخبر أنه إنما سخرها لمن يذكر اسمه عليها، وأنه إنما يناله التقوى - وهو التقرب إليه بها وذكر اسمه عليها - فإذا لم يذكر اسمه عليها كان ممنوعا

من أكلها، وكانت مكروهة لله، فأكسبتها كراهيته لها - حيث لم يذكر عليها اسمه أو ذكر عليها اسم غيره - وصف الخبث فكانت بمنزلة الميتة.

١٠- وإذا كان هذا في متروك التسمية وما ذكر عليه اسم غير الله، فما ذبحه عدوه المشرك به الذي هو من أخبث البرية أولى بالتحريم، فإن فعل الذابح وقصده وخبثه لا ينكر أن يؤثر في المذبوح، كما أن خبث الناكح ووصفه وقصده يؤثر في المرأة المنكوحة.

قوله تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۚ﴾

١١- ذكر للمخبتين أربع علامات: وجل قلوبهم عند ذكره، والوجل خوف مقرون بهيبة ومحبة، وصبرهم على أقداره، وإتيانهم بالصلاة قائمة الأركان ظاهرا وباطنا، وإحسانهم إلى عبادته بالإنفاق مما آتاهم، وهذا إنما يتأتى للقلب المخبت.



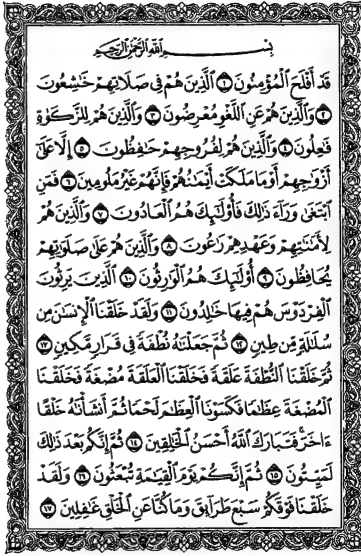
١٢- فإن قيل: كان معناه التواضع والخشوع، فكيف عدي بـ(إلي) في قوله: ﴿وَأَجْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾؟ قيل: ضمن معنى أنابوا واطمأنوا وتابوا، وهذه عبارات السلف في هذا الموضع، والمقصود أن القلب المخبت ضد القاسي والمريض، وهو سبحانه الذي جعل بعض القلوب مخبتا إليه، وبعضها قاسيا، وجعل للقسوة آثارا. (شفاء العليل ١٩٢).

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ ۚ فَاٰسْتَجِئُوْا لَهٗٓ اِنْ اِلَيْكَ تَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ لَنْ يَخْلُقُوْا ذُبَابًا وَّلَوْ اٰجْتَمَعُوْا لَهٗٓ ۚ وَاِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوْهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوْبِ ۗ مَا قَدَرُوْا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهٖٓ ۚ اِنَّ اللّٰهَ لَقَوِيٌّ عَزِيْزٌ ۝٧٦﴾

١٣- حقيق على كل عبد أن يستمع قلبه لهذا المثل، ويتدبره حق تدبره، فإنه يقطع مواد الشرك من قلبه، وذلك أن المعبود أقل درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده وإعدام ما يضره، والآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق الذباب ولو اجتمعوا كلهم لخلقته، فكيف ما هو أكبر منه؟ ولا يقدر على الانتصار من الذباب إذا سلبهم شيئا مما عليهم من طيب ونحوه فيستنقذوه منه، فلا هم قادرون على خلق الذباب الذي هو من أضعف الحيوانات، ولا على الانتصار منه واسترجاع ما سلبهم إياه، فلا أعجز من هذه الآلهة، ولا أضعف منها، فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله؟! (إعلام الموقعين ١/ ٢٣٥-٢٣٧).



سورة المؤمنون



قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ٧﴾.

١ - علق سبحانه فلاح العبد على حفظ فرجه

منه، فلا سبيل إلى الفلاح بدونه.

وهذا يتضمن ثلاثة أمور: أن من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفليحين، وأنه من الملوّمين، ومن العادين، ففاته الفلاح، واستحق اسم العدوان، ووقع في اللوم، فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك. (الجواب الكافي ٢٢٧).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ١٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ١١﴾.

٢ - الله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن.

من تأمل أحوال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جميعا بين التقصير، بل التفريط والأمن. (الصواعق المرسلة ٢/ ٤٦٩-٤٧٠).

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ (١٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ

يَحْضُرُونِ ﴿١٨﴾

بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٧﴾ مَا تَلَاقَى اللَّهُ مِنْ
وَلَوْ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ الْعِلْمِ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ الْيَمِّ بِمَا خَلَقَ
وَلَمْ يَلْمِزْهُمْ عَزَّ وَجَلَّ شَيْئًا مِنْهُمْ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٨﴾
عَلَى الْقَيْبِ وَالْغَيْبَةِ فَعَمَلًا عَمَّا يُفْرِكُونَ ﴿١٩﴾ قُلْ رَبِّ
إِنِّي أَسْأَلُكَ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ ﴿٢٠﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الْغَالِيينَ
﴿٢١﴾ وَأَنَا عَلِيمٌ أَنْ تُرِيَا مَا قَدْ كُنْتُمْ لِقَائِهِمْ لَقَدْ رَوْنِ ﴿٢٢﴾ أَذْفَعُ بِالَّتِي
هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ رَبِّ
أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٢٤﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ
يَحْضُرُونِ ﴿٢٥﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَهُ أَحَدُهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ
ارْجِعُونِ ﴿٢٦﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا
﴿٢٧﴾ فَدَاخِلٌ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ
﴿٢٨﴾ فَمَنْ تَلَوْتُمْ مَزِينًا ﴿٢٩﴾ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٠﴾ وَتَنْ
خَفَّتْ مَرْزِيئُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَيْرًا وَأَشْفَعُ فِي حِمْلِهِ
خَلَّادُونَ ﴿٣١﴾ تَلَفَحَ وَجْهُهُمُ النَّارَ وَفِيهَا كَالْكَلْبِ

٣- تضمنت الاستعاذة أن لا يمسوه ولا يقربوه،
وذكر ذلك سبحانه عقيب قوله: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (١٦) [المؤمنون: ٩٦].

فأمره أن يحترز من شر شياطين الإنس بدفع
إساءتهم إليه بالتي هي أحسن، وأن يدفع شر شياطين
الجن بالاستعاذة منهم. (إغاثة اللهفان ١/ ٩٥-٩٦).

قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ أَحَدُهُمُ الْمَوْتُ قَالَ

رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ (٢٦) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴿٢٧﴾

٤- تأمل قوله أولا ﴿رَبِّ﴾ استغاث بربه، ثم التفت إلى الملائكة الذين أمروا
بإحضاره بين يدي ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فقال: أرجعوني. ثم ذكر سبب سؤال الرجعة، وهو أن
يستقبل العمل الصالح فيما ترك خلفه من ماله وجاهه وسلطانه وقوته وأسبابه، فيقال
له: كلا لا سبيل لك إلى الرجعى وقد عمرت ما يتذكر فيه من تذكر.

ولما كان شأن الكريم الرحيم أن يجيب من استغاث، وأن يفسح له في المهلة
ليتذكر ما فاتته، أخبر سبحانه أن سؤال هذا المفرط الرجعة كلمة هو قائلها لا حقيقة
تحتها، وأن سجيته وطبيعته تأبى أن تعمل صالحا لو أجيب، وإنما ذلك شيء يقوله
بلسانه، وأنه لو رد لعاد لما نهى عنه وأنه من الكاذبين، فحكمه أحكم الحاكمين، وعزته
وعلمه وحمده يأبى إجابته إلى ما سأل، فإنه لا فائدة في ذلك، ولو رد لكانت حالته
الثانية مثل حالته الأولى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا

سورة النور

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾ (١٣).

١- حكم الله في مثل هذا أن يعاقب عقوبة المفترى الكاذب، وإن كان خبره مطابقا، وعلى هذا فلا تتحقق توبته حتى يعترف بأنه كاذب عند الله، كما أخبر الله تعالى به عنه، فإذا لم يعترف بأنه كاذب وجعله الله كاذبا، فأى توبة له؟ وهل هذا إلا محض الإصرار والمجاهرة بمخالفة حكم الله الذي حكم به عليه؟ (مدارج السالكين ١/ ٣٦٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

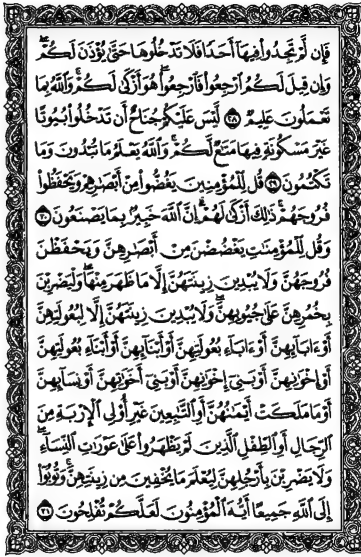
٢- ذكر ذلك سبحانه عقيب تحريم الزنا والقذف ونكاح الزانية، فدل على أن التزكي هو باجتناب ذلك. (إغاثة اللهفان ١/ ٤٩).

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٣٠).

٣- فلما كان غض البصر أصلا لحفظ الفرج بدأ بذكره، ولما كان تحريمه تحريم الوسائل فيباح للمصلحة الراجحة ويحرم إذا خيف منه الفساد ولم يعارضه مصلحة أرجح من تلك المفسدة، لم يأمر سبحانه بغضه مطلقا، بل أمر بالغض منه، وأما حفظ



الفرج فواجب بكل حال لا يباح إلا بحقه، فلذلك عم الأمر بحفظه.



وقد جعل الله سبحانه العين مرآة القلب، فإذا غص العبد بصره غص القلب شهوته وإرادته، وإذا أطلق بصره أطلق القلب شهوته. فجعل الزكاة بعد غص البصر وحفظ الفرج.

ولهذا كان غص البصر عن المحارم يوجب ثلاث فوائد عظيمة الخطر، جليلة القدر:

٤- إحداها: حلاوة الإيمان ولذته، التي هي أحلى وأطيب وألذ مما صرف بصره عنه وتركه لله تعالى، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله عز وجل خيراً منه،

والنفس مولعة بحب النظر إلى الصور الجميلة، والعين رائد القلب. فيبعث رائده لنظر ما هناك، فإذا أخبره بحسن المنظور إليه وجماله، تحرك اشتياقاً إليه، وكثيراً ما يتعب ويتعب رسوله ورائده.

الفائدة الثانية في غص البصر: نور القلب وصحة الفراسة.

الفائدة الثالثة: قوة القلب وثباته وشجاعته.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَصْرِيحُ بِالْإِيمَانِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ ۚ وَمَا يَسْتَكْبِرُونَ إِلَّا عَلَىٰ غُلُوبٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۚ﴾ جميعاً أيّه المؤمنين لعلكم تفلحون.

٥- منعهم من الضرب بالأرجل وإن كان جائزاً في نفسه؛ لئلا يكون سبباً إلى سماع الرجال صوت الخلخال فيشير ذلك دواعي الشهوة منهم إليهم. (إعلام الموقعين ٣/ ١٨١).

٦- وهذه الآية في سورة مدنية، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا

إليه، بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم، ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه، وأتى بأداة لعل المشعرة بالترجي، إيذاناً بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون، جعلنا الله منهم. (مدارج السالكين ١/١٧٨).

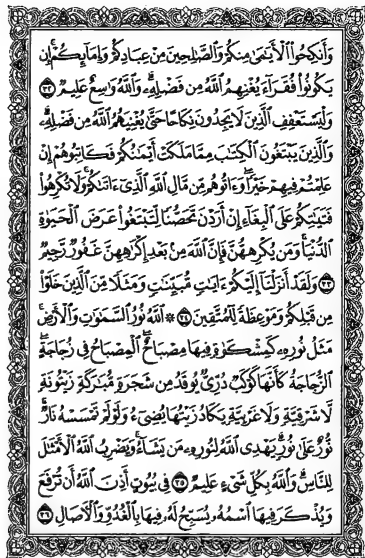
فكل تائب مفلح، ولا يكون مفلحاً إلا من فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه. (مدارج السالكين ٣٠٥-٣٠٦).

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَوْفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٣٥).

٧- وفي هذا التشبيه لأهل المعاني طريقتان:

إحداهما: طريقة التشبيه المركب وهي أقرب مأخذاً وأسلم من التكلف، وهي أن تشبه الجملة برمتها بنور المؤمن من غير تعرض لتفصيل كل جزء من أجزاء المشبه ومقابلته بجزء من المشبه به، وعلى هذا عامة أمثال القرآن الكريم.

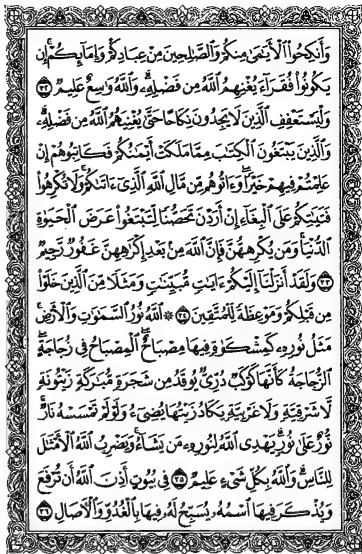
فتأمل صفة مشكاة، وهي كوة لا تنفذ لتكون أجمع للضوء قد وضع فيها مصباح وذلك المصباح داخل زجاجة تشبه الكوكب الدري في صفائها وحسنها، ومادته من أصفى الأدهان وأتمها وقوداً من زيت شجرة في وسط القراح، لا شرقية ولا غربية، بحيث تصيبها الشمس في أحد طرفي النهار، بل هي



في وسط القراح محمية بأطرافه، تصيها الشمس أعدل إصابة والآفات إلى الأطراف دونها، فمن شدة إضاءة زيتها وصفائه وحسنه يكاد يضيء من غير أن تمسه نار، فهذا المجموع المركب هو مثل نور الله تعالى الذي وضعه في قلب عبده المؤمن وخصه به. والطريقة الثانية: طريقة التشبيه المفصل، فقيل: المشكاة صدر المؤمن والزجاجة قلبه، وشبه قلبه بالزجاجة لرقتها وصفائها وصلابتها، وكذلك قلب المؤمن، فإنه قد جمع الأوصاف الثلاثة، فهو يرحم ويحسن ويتحنن ويشفق على الخلق برقته.

وبصفائه تتجلى فيه صور الحقائق والعلوم على ما هي عليه ويباعد الكدر والدرن والوسخ بحسب ما فيه من الصفاء، وبصلابته يشتد في أمر الله تعالى، ويتصلب في ذات الله تعالى ويغلظ على أعداء الله تعالى ويقوم بالحق لله تعالى، وقد جعل الله تعالى القلوب كالآنية، كما قال بعض السلف: القلوب آنية الله في أرضه وأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفها.

والمصباح هو نور الإيمان في قلبه والشجرة المباركة هي شجرة الوحي المتضمنة للهدى، ودين الحق وهي مادة المصباح التي يتقد منها، والنور على النور: نور الفطرة الصحيحة والإدراك الصحيح، ونور الوحي والكتاب، فينضاف أحد النورين إلى الآخر، فيزداد العبد نورا على نور، ولهذا يكاد ينطق بالحق والحكمة قبل أن يسمع ما فيه بالأثر، ثم يبلغه الأثر بمثل ما وقع في قلبه ونطق به، فيتفق عنده شاهد العقل والشرع والفطرة والوحي، فيريه عقله وفطرته وذوقه أن الذي جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الحق لا يتعارض عنده العقل والنقل البتة، بل يتصادقان ويتوافقان، فهذا علامة النور على النور.



قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أََعْمَلَهُمْ كِرَابٌ بِقِيَعِهِ يَحْسَبُهُ الظُّلُمَانُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ٢٩﴾ أَوْ كُطِّلِمَتْ فِي بَحْرِ لُجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكُدُّهُ لَمْ يَكْدِرْهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ٤٠﴾

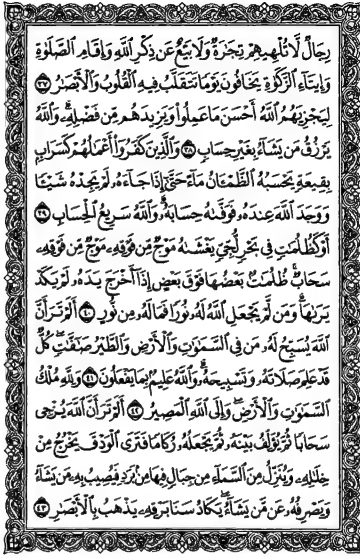
يَجَالُ لَأَتْلُوهُ بِرَحْمَةٍ وَلَا يَمُوتُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَتَيْنَاهُ الزَّكَاةَ بِخُلُوفٍ رَّيْحَانًا تَقَبَّلَ فِيهِ الْمُؤْمِنُونَ وَالْأَجْسَرُ ٥
لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ
يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٦ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَفْعَمَلُهُمْ كِرَابٌ
بِقِيَعِهِ يَحْسَبُهُ الظُّلُمَانُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا
وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ٧
أَوْ كُطِّلِمَتْ فِي بَحْرِ لُجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ
سَحَابٌ ظَلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكُدُّهُ لَمْ يَكْدِرْهَا
وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ٨ أَلَمْ تَرَ أَنَّ
اللَّهَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالظُّلُمِ نَسْفَتِي كُلَّ
قَدِيرٍ مَّكَانَتُهُمْ وَتَسْبِيحُهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ٩ وَاللَّهُ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ١٠ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُخْرِجُ
سَحَابًا ثُمَّ يُنْفِثُ فِيهِ رِيحًا فَتَكُونُ سَحَابًا مِّنْ ثَوَابِغٍ مِّنْ
خِلَافِهِ وَتَكُونُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِجَالٍ مَّوَدَّعِينَ وَيَكُونُ مِنْهُ
وَقَصْرٌ مِّنْ رَّحْمَتِهِ يَكَادُ سَتَابَهُمْ يَذْهَبُ بِالْأَجْسَرِ ١١

٨- فإن المعرض عما بعث الله تعالى به محمداً صلى الله عليه وسلم من الهدى ودين الحق يتقلب في خمس ظلمات: قوله ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمة، فقلبه مظلم، ووجهه مظلم، وكلامه مظلم، وحاله مظلمة، وإذا قابلت بصيرته الخفاشية ما بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم من النور، جد في الهرب منه وكاد نوره يخطف بصره، فهرب إلى ظلمات الآراء التي هي به أنسب وأولى كما قيل.

خفافيش أعشاها النهار بضوئه ووافقها قطع من الليل مظلم، فإذا جاء إلى زبالة الأفكار ونحاتة الأذهان، جال وصال، وأبدى وأعاد، وقعقع وفرقع. فإذا طلع نور الوحي وشمس الرسالة، انحجر في أحجرة الحشرات.

وقوله تعالى: ﴿فِي بَحْرِ لُجِّي﴾ [النور: ٤٠]. اللجي: العميق منسوب إلى لجة البحر وهي معظمه.

٩- وقوله تعالى: ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ [النور: ٤٠]. تصوير لحال هذا المعرض عن وحيه فشبه تلاطم أمواج الشبه، والباطل في صدره بتلاطم أمواج ذلك البحر، وأنها أمواج بعضها فوق بعض.



١٠ - فشبه سبحانه أعمالهم أولاً في فوات نفعها وحصول ضررها عليهم بسراب خداع يخدع رائيه من بعيد، فإذا جاء وجد عنده عكس ما أمله ورجاه، وشبهها ثانياً في ظلمتها وسوادها لكونها باطلة خالية عن نور الإيمان بظلمات متراكمة في لجج البحر المتلاطم الأمواج الذي قد غشيه السحاب من فوقه، فإله تشبيها ما أبدعه وأشدّه مطابقة بحال أهل البدع والضلال وحال من عبد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى خِلاف ما بعث به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنزل به كتابه.

وهذا التشبيه هو تشبيه لأعمالهم الباطلة بالمطابقة والتصريح وعلومهم وعقائدهم الفاسدة بالزوم.

وكل واحد من السراب والظلمات مثل لمجموع علومهم وأعمالهم، فهي سراب لا حاصل لها وظلمات لا نور فيها.

وهذا عكس مثل أعمال المؤمن وعلومه التي تلقاها من مشكاة النبوة، فإنها مثل الغيث الذي به حياة البلاد والعباد، ومثل النور الذي به انتفاع أهل الدنيا والآخرة. ولهذا يذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذين المثلين في القرآن في غير موضع لأوليائه وأعدائه.

(اجتماع الجيوش الإسلامية ١٢٦).

١١ - فتضمنت الآيات أوصاف الفرق الثلاثة: المنعم عليهم وهم أهل النور، والضالين وهم أصحاب السراب، والمغضوب عليهم وهم أهل الظلمات المتراكمة، والله أعلم.

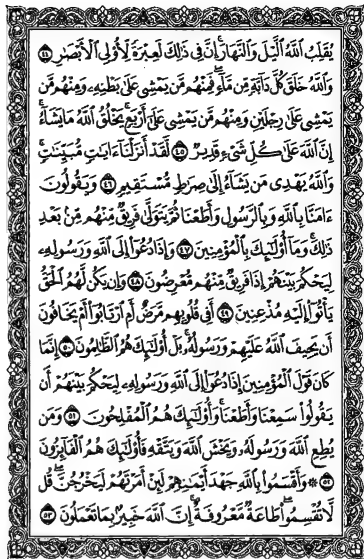
فالمثل الأول من المثليين لأصحاب العمل الباطل الذي لا ينفع، والمثل الثاني لأصحاب العلم الذي لا ينفع والاعتقادات الباطلة، وكلاهما مضاد للهدى ودين الحق، ولهذا مثل حال الفريق الثاني في تلاطم أمواج الشكوك والشبهات والعلوم الفاسدة في قلوبهم بتلاطم أمواج البحر فيه، وأنها أمواج متراكمة من فوقها سحب مظلم، وهكذا أمواج الشكوك والشبه في قلوبهم المظلمة التي قد تراكمت عليها سحب الغي والهوى والباطل، فليتدبر اللبيب أحوال الفريقين، وليطابق بينهما وبين المثليين، يعرف عظمة القرآن وجلالته، وأنه تنزيل من حكيم حميد.

وأخبر سبحانه أن الموجب لذلك أنه لم يجعل لهم نورا، بل تركهم على الظلمة التي خلقوا فيها فلم يخرجهم منها إلى النور؛ فإنه سبحانه ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور. (إعلام الموقعين ١/ ٢٠٥-٢٠٩).

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤٥).

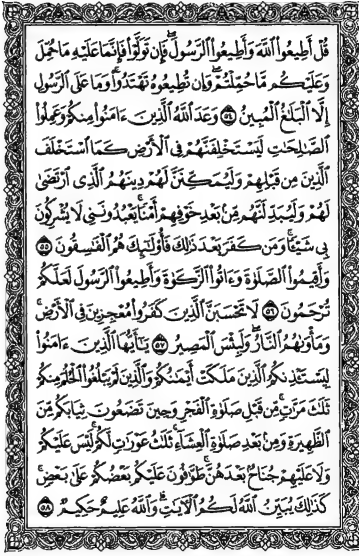
١٢- تأمل كيف نبه سبحانه باختلاف الحيوانات

في المشي مع اشتراكها في المادة على الاختلاف فيما وراء ذلك من أعضائها وأشكالها وقواها وأفعالها وأغذيتها ومسكنها، فنبه على الاشتراك والاختلاف فيشير إلى يسير منه، فالطير كلها تشترك في الريش والجنح وتفاوت فيما وراء ذلك أعظم تفاوت، واشتراك ذوات الحوافر في الحافر كالفرس والحمار والبغل، وتفاوتها في ما وراء ذلك، واشتراك ذوات الأظلاف في الظلف وتفاوتها في غير ذلك، واشتراك



ذوات القرون فيها وتفاوتها في الخلق والمنافع والأشكال، واشتراك حيوانات الماء في كونها سباحة تأوي فيها وتتكون فيها وتفاوتها أعظم تفاوت عجز البشر إلى الآن

عن حصره، واشتراك الوحوش في البعد عن الناس والتفاوت عنهم وعن مساكنهم وتفاوتها في صفاتها وأشكالها وطبائعها وأفعالها أعظم تفاوت يعجز البشر عن حصره، واشتراك الماشي منها على بطنه في ذلك وتفاوت نوعه، واشتراك الماشي على رجلين في ذلك وتفاوت نوعه أعظم تفاوت، وكل من هذه الأنواع له علم وإدراك وتحليل على جلب مصالحه ودفع مضاره يعجز كثير منها نوع الإنسان، فمن أعظم الحكم الدلالة الظاهرة على معرفة الخالق الواحد المستولي بقوته وقدرته وحكمته على ذلك كله، بحيث جاءت



كلها مطيعة منقادة منساقة إلى ما خلقها له على وفق مشيئته وحكمته، وذلك أدل شيء على قوته القاهرة وحكمته البالغة وعلمه الشامل. (شفاء العليل ٢٣١-٢٣٢).

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَعِذَّ بِكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ۚ﴾

١٣- لم يأمرهم بالاستئذان في غيرها وإن أمكن في تركه هذه المفسدة لدورها وقلة الإفضاء إليها فجعلت كالمقدمة. (إعلام الموقعين ١٨١-١٨١).

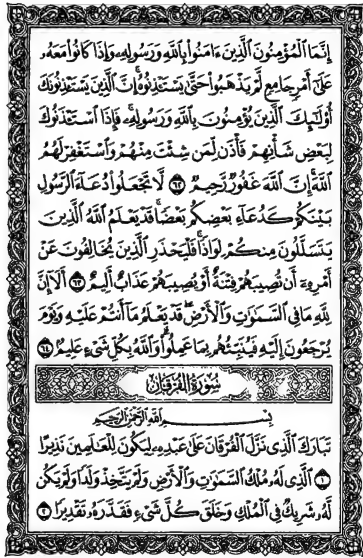
قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ۚ﴾

١٤ - فإذا جعل من لوازم الإيمان أنهم لا يذهبون مذهباً إذا كانوا معه إلا باستئذانه،

فأولى أن يكون من لوازمه أن لا يذهبوا إلى قول ولا مذهب علمي إلا بعد استئذانه، وإذنه يعرف بدلالة ما جاء به على أنه أذن فيه. (إعلام الموقعين ١/ ٨٧).

قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾.

١٥ - على كل تقدير فكما أمر الله سبحانه بأن يميز عن غيره في خطابه ودعائه إياهم قياماً للأمة بما يجب عليهم من تعظيمه وإجلاله، فتميزه بالصلاة عليه عند ذكر اسمه من تمام هذا المقصود. (جلاء الأفهام ٢٣٥).



سورة الفرقان

📖 قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾.

وفيها قراءتان:

أشهرهما: (نتخذ) بفتح النون وكسر الخاء على البناء للفاعل وهي قراءة السبعة.

والثانية: (نتخذ) بضم النون وفتح الخاء، على البناء للمفعول، وهي قراءة الحسن ويزيد بن القعقاع.
١ - فإن قيل: فقد صحت القراءتان لفظاً ومعنى، فأيهما أحسن؟

قلت: قراءة الجمهور أحسن وأبلغ في المعنى المقصود والبراءة مما لا يليق بهم، فإنهم على قراءة

الضم: يكونون قد نفوا حسن اتخاذ المشركين لهم أولياء، وعلى قراءة الجمهور: يكونون قد أخبروا أنهم لا يليق بهم، ولا يحسن منهم أن يتخذوا ولياً من دونه، بل أنت وحدك ولينا ومعبودنا، فإذا لم يحسن بنا أن نشرك بك شيئاً، فكيف يليق بنا أن ندعو عبادك إلى أن يعبدونا من دونك؟ وهذا المعنى أجل من الأول وأكبر، فتأمل.

📖 قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا.

٢ - قلت: قرن الله سبحانه الفتنة بالصبر هاهنا، وفي قوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّا رَحْمَةً﴾ هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جهدوا وصبروا ﴿[النحل: ١١٠]﴾.



فالفتنه كير القلوب، ومحك الإيمان، وبها يتبين الصادق من الكاذب: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿٣﴾ [العنكبوت: ٣].

فالفتنه قسمت الناس إلى صادق وكاذب، ومؤمن ومنافق، وطيب وخبيث. فمن صبر عليها كانت رحمة في حقه، ونجا بصبره من فتنه أعظم منها، ومن لم يصبر عليها وقع في فتنه أشد منها. (إغاثة اللهفان ٢/ ١٦٠-١٦٢).

[illegible]

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَك بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ قَسِيرًا﴾ ﴿٣٣﴾.

٤- لا تجد كلاما أحسن تفسيراً ولا أتم بياناً من كلام الله سبحانه، ولهذا سماه

الله بيانا، وأخبر أنه يسره للذكر ويسر ألفاظه للحفظ ومعانيه للفهم، وأوامره ونواهيه للامتثال، ومعلوم أنه لو كان بالألفاظ لا يفهمها المخاطب لم يكن ميسرا له، بل كان معسرا عليه، وإذا أريد من المخاطب أن يفهم من ألفاظه ما لا يدل عليه من المعاني، أو يدل على خلافه فهذا من أشد التعسير، فإنه لا شيء أعسر على الأمة من أن يراد منهم أن يفهموا كونه سبحانه لا داخلا في العالم ولا خارجه، ولا متصلا به، ولا منفصلا عنه، ولا مباينا له، ولا محايثا له، ولا يرى بالأبصار عيانا، ولا له يد ولا وجه من قوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]. (الصواعق المرسلة ١ / ٣٣٠-٣٣٢).

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿١﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَكَ آيَاتُكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا تُحْتَمِلُ الظُّلُمَاتِ عَنْ يَدَيْهِ ﴿٢﴾ ثُمَّ قَضَيْتُمُ الْإِسْلَامَ إِسْبَارًا ﴿٣﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْيَوْمَ الْإِسْلَامَ سَبِيلًا وَجَعَلَ النَّهْرَ لُشُورًا ﴿٤﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا لَيَدْفِ رَحْمَتِيهِ وَأَرْسَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُرًا ﴿٥﴾ لِيُخْرِجَ بِهِ أَشْجَارًا ذَاتَ ثَمَرٍ ﴿٦﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ فِئَةً مِمَّا عَلَّمْنَا أَنْتُمُ الْوَالِدِينَ كَيْفَ يُرَى ﴿٧﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَنَّى أَكْثَرَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨﴾ أَلَا كُفْرًا ﴿٩﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَمَعَنَّا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ لَذِكْرًا ﴿١٠﴾ فَلَا تُطِيعُ الْكُفْرِينَ وَيَهْتَدُونَ بِهِمْ جَاهِدَا كَيْفَ يُرَى ﴿١١﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا يَمِلُّ إِلَى الْحَاحِ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَارَزًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلَ الْفُجُورَ كَيْفَ يُرَى ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿١٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿١٥﴾

٥- شبه أكثر الناس بالأنعام، والجامع بين النوعين التساوي في عدم قبول الهدى والانقياد له، وجعل الأكثرين أضل سبيلا من الأنعام؛ لأن البهيمة يهديها سائقها فتهتدي وتتبع الطريق، فلا تحيد عنها يمينا ولا شمالا، والأكثرين يدعوهم الرسل ويهدونهم السبيل فلا يستجيبون ولا يهتدون ولا يفرقون بين ما يضرهم وبين ما ينفعهم، والأنعام تفرق بين ما يضرها من النبات والطريق فتجتنبه وما

ينفعها فتؤثره، والله تعالى لم يخلق للأنعام قلوبا تعقل بها، ولا ألسنة تنطق بها، وأعطى ذلك لهؤلاء، ثم لم ينتفعوا بما جعل لهم من العقول والقلوب والألسنة والأسماع والأبصار، فهم أضل من البهائم، فإن من لا يهتدي إلى الرشد وإلى الطريق مع الدليل إليه أضل وأسوأ حالا ممن لا يهتدي حيث لا دليل معه. (إعلام الموقعين ١ / ٢١٠).

ظہیراً ﴿۝﴾

(الفوائد ٧٩ - ٨٠).

الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ .

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٠﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَمِنْتُ شَأْنًا أَنْ يَبْخُلُوا إِلَيَّ فِي رِيْبِهِمْ سَيَذَرُوكَ
عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَيَسْخَرُ مِنْكَ وَيُخَذِّلُكَ بِهِ
يَذَلُّونَ عِبَادَهُ وَيُخَذِّلُونَ ﴿١٠١﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَلَهُ الْعِزَّةُ الْأَعْلَى عَلَى الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٢﴾
فَقُتِلَ بِهِ خَيْرٌ ﴿١٠٣﴾ وَلَقَدْ قِيلَ لَهُمْ أَتُبْعُونَ الْمَدْيَنَ
وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنْكُمْ وَلَاحِظُوا سَعْيَكُمْ فِى الدِّينِ قَالُوا
الَّذِي جَعَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَوْجِعًا تَجْعَلُ مِنْ يَمِينِنَا وَجْهًا
مُتَّيِبًا ﴿١٠٤﴾ وَلَهُوَ الَّذِي جَعَلَ الْجِبَالَ رِجَالًا تَرَاهَا رُحُفًا لَئِنْ أَرَادَ
أَنْ يَذْهَبَ عَنْهَا لَانْزُلًا شُكْرًا ﴿١٠٥﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنْشِئُ السَّحَابَ
عَلَى الْأَرْضِ فَيَنْزِلُ عَلَيْهَا غَلًّا فَيجْعَلُ مِنْهَا رُحَى قَالُوا سَاءَ مَا
كُنَّا بِأَعْيُنِنَا ﴿١٠٦﴾ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْإِثْمَ مِنْكَ يَكْتُمُونَ
بِقَوْلِهِمْ رَبِّكَ مُتَعَمِّدٌ عَلَى عَذَابِكَ جَهَنَّمَ إِنْ لَمْ يَكُنْ
عَذَابُكَ إِلَّا مَسَافَةً مِنْ سَمَكٍ ﴿١٠٧﴾ وَالَّذِينَ إِذَا
أَقْبَلُوا لِلْزُّبُرِ قَالُوا وَلَوْ قَرَّبُوا وَكَانَ بَيْنَهُمْ قُلُوبًا

٧- تأمل جمعت الآية وصفهم في حركتي الأرجل والألسن بأحسنها وألطفها وأحكمها وأوقرها، فقال ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي: بسكينة ووقار.

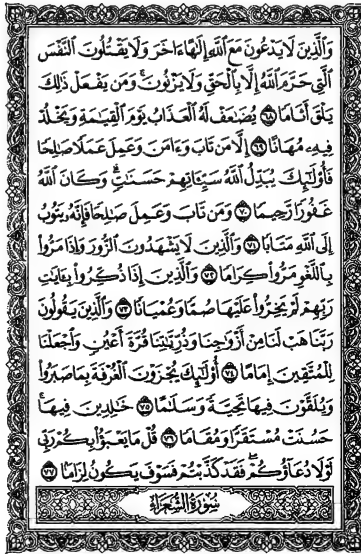
والهَوْنُ (بفتح الهاء) من الشيء الهين، فوصف مشيهم بأنه مشي حلم ووقار لا مشي جهل وعنف وتبختر ووصف نطقهم بأنه سلام، فهو نطق حلم وسكينة ووقار لا نطق جهل وفحش وخناء وغلظة، فلهذا جمع بين المشي والنطق في الآية فلا يليق بها

المعنى الشريف العظيم الخطير أن يكون المراد منه سلام عليكم، فتأمله. (بدائع الفوائد

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾



٨- دين الله بين الغالي فيه والجافي عنه، وخير الناس النمط الأوسط، الذين ارتفعوا عن تقصير المفرطين، ولم يلحقوا بغلو المعتدين، وقد جعل الله سبحانه هذه الأمة وسطاً، وهي الخيار العدل، لتوسطها بين الطرفين المذمومين، والعدل هو الوسط بين طرفي الجور والتفريط. والآفات إنما ينتظرون إلى الأطراف، والأوساط محمية بأطرافها، فخير الأمور أوسطها. (إغاثة اللهفان ١/ ١٨٢).



قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ

عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ

حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝٧٠﴾

٩- هذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن

بتوبتهم إيمان وعمل صالح، وهو حقيقة التوبة، قال

ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: ما رأيت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرح

بشيء قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت، وفرحه بنزول:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ

وَمَا تَأَخَّرَ ۝٢﴾ [الفتح: ١-٢].

١٠- وتأمل قوله: ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]. ولم يقل مكان كل

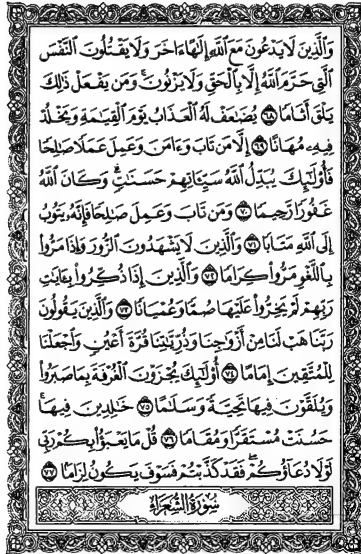
واحدة واحدة فهذا يجوز أن يبدل السيئة الواحدة بعدة حسنات بحسب حال المبدل.

(مدارج السالكين ١/ ٣٠١-٣٠٤).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۚ﴾ ﴿٧٢﴾.

١١- تأمل كيف قال سبحانه: ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢].

ولم يقل: بالزور؛ لأن يشهدون بمعنى: يحضرون. فمدحهم على ترك حضور مجالس الزور، فكيف بالتكلم به وفعله؟ والغناء من أعظم الزور.



والزور يقال على الكلام الباطل، وعلى العمل الباطل، وعلى العين نفسها كما في حديث معاوية لما أخذ قصة من شعر يوصل به، فقال: «هذا الزور» فالزور: القول، والفعل، والمحل.

وأصل اللفظة من الميل، ومنه الزور بالفتح، ومنه: زرت فلانا، إذا ملت إليه، وعدلت إليه، فالزور: ميل عن الحق الثابت إلى الباطل الذي لا حقيقة له قولاً وفِعْلاً. (إغاثة اللهفان ١/ ٢٤١-٢٤٢).



سورة الشعراء

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

١- لا تصح الموالاتة إلا بالمعاداة، فلم يصح لخليل الله هذه الموالاتة والخلة إلا بتحقيق هذه المعاداة، فإنه لا ولاية إلا بالبراءة من كل معبود سواه. (الجواب الكافي ٢٦٤).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

٢- لا تتم له سلامته مطلقا حتى يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد، وبدعة تخالف السنة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذكر، وهوى يناقض التجريد والإخلاص.

وهذه الخمسة حجب عن الله، وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة، تتضمن أفرادا لا تنحصر. (الجواب الكافي ١٧٩).

قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٩٧)

إِذْ نُسَوِّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾

٣- قال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعهم الجحيم: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٩٧) ﴿إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٩٨) [الشعراء: ٩٧ - ٩٨]. ومعلوم أنهم ما سووهم به سبحانه في الخلق، والرزق، والإماتة، والإحياء، والملك، والقدرة، وإنما سووهم به في الحب، والتآله، والخضوع لهم والتذلل، وهذا غاية الجهل والظلم، فكيف يسوى

وَأَجْعَلِ لِي سَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ۖ وَأَجْعَلْنِي مِنْ رَاكِعِي حَتَّى
الْعَبِيرِ ۖ وَارْقُظْ لِي أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ وَلَا تُخَذِّلْنِي بِشَيْءٍ
يُحْشَرُونَ ۖ وَبُورًا لِيَتَفَعَّلُوا مَالًا وَلَا يَكُونُوا ۝ الْإِنْسَانُ أَتَى اللَّهَ بِقُلُوبٍ
سَلِيلَةٍ ۖ وَأَنْزَلَنِي فَالْحَيَّةُ السَّقِينَةُ ۖ وَزُورَنِي بِالْحَبِيرَةِ الْعَالِقِينَ ۝
وَقِيلَ لَهُمْ أَنْ مَكَّدْتُمْ هَذِهِ نَارًا مِنْ نَارِ اللَّهِ هَلْ يَعْبُدُونَكُمْ
أَوْ تَتَّبِعُونَ ۖ فَكُذِّبُوا بِهَا فَأَعْرَضُوا الْقَائِلِينَ ۖ وَخُذُوا لِي لَيْلِسَ
أَجْمَعُونَ ۖ قَالُوا قُلْ مَا يَخْتَصِمُونَ ۖ فَأَنذَرْتُ أَنْ تَأْتِيَنِي
حَذَائِكُمْ فِيهِ ۖ إِذْ تَسْكُبُونَ رَبِّيَ الْعَالَمِينَ ۖ وَمَا أَتَىكَ إِلَّا
الْمُعْجِرُونَ ۖ فَتَأْتَاكَ مِنْ شَيْعِينَ ۖ وَلَا حَصْبِي بِحَبِيرٍ ۖ فَلَوْ
أَنْ تَأْكُلُوا فَنَكُلَ مِنْ الْفُؤُوسِ ۖ إِذْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لَ الَّذِينَ
لَمْ يُكْرِهُوا فُؤُوسِينَ ۖ وَأَنْزَلَ اللَّهُ الْغُرُوحَ الْجَدِيدَ ۖ كَذَّبَتْ
قَوْمُ بَعْثِ الْمُرْسَلِينَ ۖ إِذْ قَالَ لَهُمُ الْخُرُوعُ أَتَسْتَأْذِنُونَ ۝
إِلَى الْكُرُوسِ ۖ أَوَلَمْ يَأْتِ اللَّهُ وَالطَّيْعُونَ ۖ وَمَا أَسْأَلُكُمْ
عَلَيْهِمْ أَنْ يَمُنَ بِأُخْرَى إِلَّا لَعَلَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ۖ فَأَنذَرْتُ اللَّهَ
وَالطَّيْعُونَ ۖ قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَتَتَعَبُ الْآدَمُ ۖ لَوْ ۝

التراب برب الأرباب. (الجواب الكافي ١٩٧).

٤- وهذه التسوية لم تكن منهم في الأفعال والصفات، بحيث اعتقدوا أنها مساوية لله سبحانه في أفعاله وصفاته، وإنما كانت تسوية منهم بين الله وبينها في المحبة والعبودية [فقط]. مع إقرارهم بالفرق بين الله وبينها، فتصحيح هذه [المسألة]. هو تصحيح شهادة أن لا إله إلا الله، فحقيق لمن نصح نفسه وأحب سعادتها ونجاتها أن يتيقظ لهذه المسألة علما وعملا وحالا وتكون أهم الأشياء عنده، وأجل علومه وأعماله،

فإن الشأن كله فيها والمدار عليها والسؤال يوم القيامة عنها، قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ

لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣]. (طريق الهجرتين ٣٨٣).



سورة النمل



قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾.

١- فهو ميراث العلم والنبوة لا غير، وهذا باتفاق أهل العلم من المفسرين وغيرهم، وهذا لأن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ كان له أولاد كثيرة سوى سليمان، فلو كان الموروث هو المال لم يكن سليمان مختصا به، وأيضا فإن كلام الله يصابن عن الإخبار بمثل هذا، فإنه بمنزلة أن يقال مات فلان وورثه ابنه، ومن المعلوم أن كل أحد يرثه ابنه، وليس في الإخبار بمثل هذا فائدة.

وأیضا فإن ما قبل الآية وما بعدها يبين أن المراد بهذه الورثة وراثته العلم والنبوة لا وراثته المال، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْחَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٥) ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾. وإنما سيق هذا لبيان فضل سليمان وما خصه الله به من كرامته وميراثه ما كان لأبيه من أعلى المواهب وهو العلم والنبوة أن هذا لهو الفضل المبين، وكذلك قول زكريا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْلَىٰ مِنْ وَرَآئِي وَكَانَتْ أُمْرَآتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ (٥) ﴿يَرْثُنِي وَيَرِثُ مِنِّي عَالٍ يَعْقُبُ عَنِّي وَأَجْعَلَ رَبِّ رَضِيًّا﴾ (٦).

فهذا ميراث العلم والنبوة والدعوة إلى الله، وإلا فلا يظن بنبي كريم أنه يخاف عصبته أن يرثوا ماله؛ فيسأل الله العظيم ولدا يمنعهم ميراثه ويكون أحق به منهم، وقد نزه الله أنبياءه ورسله عن هذا وأمثاله، فبعداً لمن حرّف كتاب الله وردّ على رسوله كلامه ونسب الأنبياء إلى ما هم برآء منه، والحمد لله على توفيقه وهدايته. (مفتاح دار السعادة ٧٣).

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّمْلُ أَدْخُلُوا مَسْكَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٨).

وَجَدُوا بِهَا وَأَسْتَفْتِيهَا أَنْفُسُهُمْ ظَلَمُوا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٨﴾ وَقَدْ أَتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلِمَاءَ
وَقَالَ لِمَنْ دَعَا دَاوُدَ وَكَانَ كَبِيرًا مِنْ عِبَادِهِ الْمُرْسَلِينَ
﴿١٩﴾ وَكَانَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَبْنَاءَ النَّاسِ عِلْمُنَا مَطْلَقُ
الطَّيْرِ وَأَوْنِيَّتَانِ كُلِّ عَيْنٍ إِنَّ هَذَا لَهَوُ الْفَضْلِ الْمُبِينِ ﴿٢٠﴾
وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ
يُوزَعُونَ ﴿٢١﴾ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادٍ النَّمْلِ قَالَتْ نَمَلَةٌ لِأَبْنَاءِهَا
أَدْخُلُوا مَسْكَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٢﴾ فَتَبَسَّضَ صَاحِبُهَا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي
أَنْ أَشْكُرَ بِعَسْكَرِكَ الْفَرَسَ عَلَى وَادٍ وَلَدَيْكَ وَأَنْ أَغْشَلَ
صَلِيلَكَ وَرَحْمَةً وَأَدْخِلْنِي رَحْمَتَكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ
﴿٢٣﴾ وَتَقَفَ الطَّيْرُ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَيْهَذَا أَمْ كَانَ
مِنْ الْأَنْبِيَاءِ ﴿٢٤﴾ لَا تُخَذِّلْنِي بِهَذَا عَدُوًّا شَدِيدًا أَوْ لَا أَذْجَبْتَنِي
أَوْ لِيَأْتِيَنِي سُلَاطِنُ ثَمُودَ ﴿٢٥﴾ فَمَكَكَ عَمِيرٌ يُبْقِي فَقَالَ
أَحْطُ بِمَا تُرْجَى مِنْ يَدِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَلَمٍ لِيَأْتِيَنِي ﴿٢٦﴾

٢- استفتحت خطابها بالنداء الذي يسمعه من خاطبته، ثم أتت بالاسم المبهم، ثم أتبعته بما يثبت من اسم الجنس إرادة للعموم، ثم أمرتهم بأن يدخلوا مساكنهم فيتحصنون من العسكر، ثم أخبرت عن سبب هذا الدخول وهو خشية أن يصيبهم معرفة الجيش فيحطمهم سليمان وجنوده، ثم اعتذرت عن نبي الله وجنوده بأنهم لا يشعرون بذلك، وهذا من أعجب الهداية! وتأمل كيف عظم الله سبحانه شأن

النمل بقوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (١٧).

٣- ثم قال: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادٍ النَّمْلِ﴾ فأخبر أنهم بأجمعهم مروا على ذلك الوادي. ودل على أن ذلك الوادي معروف بالنمل كوادي السباع ونحوه، ثم أخبر بما دل على شدة فطنة هذه النملة ودقة معرفتها، حيث أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم المختصة بهم، فقد عرفت هي والنمل أن لكل طائفة منها مسكناً لا يدخل عليهم فيه سواهم، ثم قالت: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فجمعت بين اسمه وعينه وعرفته بهما وعرفت جنوده وقائدها، ثم قالت: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. فكأنها جمعت بين الاعتذار عن مضرة الجيش بكونهم لا يشعرون وبين لوم أمة النمل حيث لم يأخذوا حذرهم ويدخلوا مساكنهم؛ ولذلك تبسم نبي الله ضاحكاً من قولها، وإنه لموضع تعجب وتبسم.

٤- ومن عجيب هدايتها أنها تعرف رهباً بأنه فوق سماواته على عرشه كما رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد من حديث أبي هريرة يرفعه قال: «خرج نبي من الأنبياء

قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَتْ فَجَاءَ بِعَبِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحْطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَاءٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾

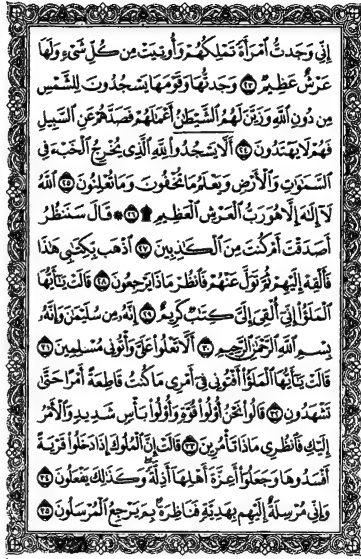
إِنِّي وَجَدْتُ أُمَّةً عَمَلُوا كَمَا وَأَدْبَت مِنْ كُلِّ فَخٍّ وَوَلَمَّا
عَزَّيْطُهُ ﴿٥٠﴾ وَجَدْتُ أُمَّةً مِمَّا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَرَفَعْتُ لَهُمُ السَّيْفَ لِيُقَاتِلَهُمْ فَجَعَلَهُمْ عُرَى السَّيْلِ
فَعَمِلُوا كَعَمَلِ خَيْرٍ ﴿٥١﴾ أَلَيْسَ جَدًّا وَأَيُّهُ الَّذِي يَخْرُجُ الْعُتْبَى فِي
السَّحَابِ وَالْأَرْضِ وَسِعَهُمُ الْخَفُونَ وَمَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ اللَّهُ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٥٣﴾ هُوَ قَالَ سَطَّطُ
أَصَدَقْتُ أَمْ كُنْتُمْ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ أَذْهَبَ بِكُمُيْ هَذَا
قَالَتِ الْيَهُودُ نُوْحٌ قَوْلَ عَصَمَةَ فَأَنْظَرُوا مَاذَا يَجْعَلُونَ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَأْتِيهِمُ
الْمَلَائِكَةُ إِلَى الرَّجُلِ كَيْتٌ كَرِيمٌ ﴿٥٦﴾ اللَّهُ مِنْ سَائِلَةِ اللَّهِ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٥٧﴾ أَتَقُولُونَ لَوْ أَنَّا رَأَيْنَا سَيِّدِينَ ﴿٥٨﴾
قَالَ تَأْتِيهِمُ الْمَلَائِكَةُ الْفُتُورِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى
تَشْهَدُونِ ﴿٥٩﴾ لَوْ أَنَّا قَوْمٌ زُلُوفُوا تَأْتِيهِمْ سَيِّدُونَ وَالْخُزْ
إِلَيْهِ فَأُظْهِرِي مَاذَا فَعَلْنَ ﴿٦٠﴾ قَالَ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا قَدِيرٌ ﴿٦١﴾
فَسَدِّدْهَا وَجْعَلُوا الْعِرَّةَ أَهْلَهَا وَأَعْلَاهَا وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٦٢﴾
وَلَقَدْ مَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ بِعَذَابٍ مُتَسَاوِرٍ فَسَطَّوهُ بِمَعْرِجِ الْمَرْسَلِينَ ﴿٦٣﴾

٦ - ثم أخبر عن المغوي لهم الحامل لهم على ذلك وهو تزيين الشيطان لهم أعمالهم حتى صدهم عن السبيل المستقيم وهو السجود لله وحده، ثم أخبر أن ذلك

الصد حال بينهم وبين الهداية والسجود لله الذي لا ينبغي السجود إلا له.

٧- ثم ذكر من أفعاله سبحانه إخراج الخبء في السماوات والأرض، وهو المخبوء فيهما من المطر والنبات والمعادن وأنواع ما ينزل من السماء وما يخرج من الأرض.

وفي ذكر الهدهد هذا الشأن من أفعال الرب تعالى بخصوصه إشعار بما خصه الله به من إخراج الماء المخبوء تحت الأرض قال صاحب الكشاف: «وفي إخراج الخبء إمارة على أنه من كلام الهدهد لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض، وذلك بإلهام



من يخرج الخبء في السماوات والأرض جلّت قدرته ولطف علمه ولا يكاد يخفى على ذي الفراسة الناظر بنور الله مخايل كل شخص بصناعة أو فن من العلم في روائه ومنطقه وشمائله فما عمل آدمي عملاً إلا ألقى الله عليه رداء عمله». (شفاء العليل ٧٠-٧٠).

📖 قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ (٧٩).

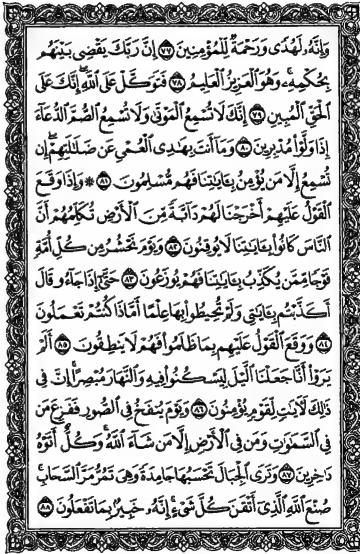
٨- في ذكر أمره بالتوكل، مع إخباره بأنه على الحق دلالة على أن الدين بمجموعه في هذين الأمرين أن يكون العبد على الحق في قوله وعمله، واعتقاده ونيته، وأن يكون متوكلاً على الله واثقاً به. فالدين كله في هذين المقامين. (مدارج السالكين ١٢٧/٢).

٩- فأمر سبحانه بالتوكل عليه، وعقب هذا الأمر بما هو موجب للتوكل مصحح له مستدع لثبوتة وتحققه، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾، فإن كون العبد

على الحق يقتضى تحقيق مقام التوكل على الله، والاكتفاء به، والإيواء إلى ركنه الشديد، فإن الله هو الحق، وهو ولي الحق وناصره ومؤيده، وكافي من قام به. فما لصاحب الحق أن لا يتوكل عليه؟ وكيف يخاف وهو على الحق؟ (طريق الهجرتين ٢٣٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى﴾.

١٠- وصف الكافر بأنه ميت وأنه بمنزلة أصحاب القبور، وذلك أن القلب الحي هو الذي يعرف الحق ويقبله ويحبه ويؤثره على غيره، فإذا مات القلب لم يبق فيه إحساس ولا تمييز بين الحق والباطل ولا إرادة للحق وكراهة للباطل بمنزلة الجسد الميت الذي لا يحس بلذة الطعام والشراب وألم فقدهما. (شفاء العليل ١٠٤).



سورة القصص

قوله تعالى: ﴿فَالنَّقْطَةُ عَالِ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾.

١ - هو تعليل لقضاء الله سبحانه بالتقاطه وتقديره له، فإن التقاطهم له إنما كان بقضائه وقدره، فهو سبحانه قدر ذلك وقضى به ليكون لهم عدوا وحزنا، وذكر فعلهم دون قضائه لأنه أبلغ في كونه حزنا لهم وحسرة عليهم، فإن من اختار أخذ ما يكون هلاكه على يديه إذا أصيب به كان أعظم لحزنه وغمه وحسرتة من أن لا يكون فيه صنع ولا اختيار، فإنه سبحانه أراد أن يظهر لفرعون وقومه ولغيرهم من خلقه كمال قدرته وعلمه وحكمته الباهرة، وأن هذا الذي يذبح فرعون

الأبناء في طلبه هو الذي يتولى تربيته في حجره ويثبه باختياره وإرادته ويكون في قبضته وتحت تصرفه فذكر فعلهم به في هذا أبلغ وأعجب من أن يذكر القضاء والقدر. (شفاء العليل ١٩١).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٤٧﴾

٢- دلت الآية على بطلان قول الطائفتين جميعا الذين يقولون إن أعمالهم قبل البعثة ليست قبيحة لذاتها، بل إنما قبحت بالنهي فقط، والذين يقولون إنها قبيحة ويستحقون عليها العقوبة عقلا بدون البعثة، فنظمت الآية بطلان قول الطائفتين ودلت على القول الوسط الذي اخترناه ونصرناه أنها قبيحة في نفسها ولا يستحقون العقاب

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾.

٣- قسم الناس إلى مستجيبين للرسول، ومتبع هواه، فمن ترك استجابته إذا ظهرت له سنة وعدل عنها إلى خلافها، فقد اتبع هواه، وهذا أكثر من أن يذكر.

٤- والمقصود أن الواجب على الخلق بعد وفاته هو الواجب عليهم في حياته سواء، ففرض من سمع كلامه أن يأخذ به ومن خفي عليه قوله سأل من يعرفه، فإذا سمعه ففرض عليه أن يأخذ به، فإن خفي عليه فغاية قول غيره أن يسوغ له الأخذ به فيكون

سائق الاتباع بعد خفاء السنة لا واجب الاتباع ولا سيما مع ظهور السنة، وبالله التوفيق.

(الصواعق المرسله ٤/ ١٥٢٦-١٥٢٧).

٥- فقسم الأمر إلى أمرين لا ثالث لهما: إما الاستجابة لله والرسول وما جاء به، وإما اتباع الهوى، فكل ما لم يأت به الرسول فهو من الهوى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْغِي الْجَاهِلِينَ﴾.

وكان رفع السلام متعينا لأنه حكاية ما قد وقع ونصب السلام في آية الفرقان متعينا؛

(بدائع الفوائد ٢/ ١٥٩ - ١٦٠).

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْفِتْنَةَ سَرًّا لَمْ تَكُونُوا
الْفِتْنَةَ مِنْ عِندِ اللَّهِ بِأَيِّكُمْ بَصِيرَةٌ أَفَلَا تَسْمَعُونَ
﴿٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْقَهْرَ سَرًّا لَمْ يَكُنْ
يَوْمَ الْفِتْنَةِ مِنْ عِندِ اللَّهِ بِأَيِّكُمْ بَصِيرَةٌ أَفَلَا تَسْمَعُونَ
يَوْمَ الْفِتْنَةِ مِنْ عِندِ اللَّهِ بِأَيِّكُمْ بَصِيرَةٌ أَفَلَا تَسْمَعُونَ
وَمَنْ يَحْمِلْهُ جَعَلَ كَافِرًا لِكُلِّ
وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَلَمْ يُلَاقُوا فِي شَأْنِهِ وَلَمْ يُحْمَلْ
تَسْمَعُونَ ﴿٦﴾ وَهُمْ يَتَّبِعُهُ الْقَوْمُ الَّذِينَ
كُنْزُهُمْ فِي بُطُونِ الْعِبْزِ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ فَلْيَقُلْ
مَنْ آوَى إِلَيْكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ
فَمَا لَهُمْ بَشِيرٌ أَوْ نَذِيرٌ ﴿٧﴾ إِنَّ قَوْمَكَ مِنْ قَوْمٍ مُوسَى
فَقِيلَ عَلَيْهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ فَمَا لَهُمْ قَتْلَوا
الْمُرْسَلِينَ أُولَى الْقُرْبَى أَفَقَالَ لَهُمْ قَوْمُهُ لَمَّا خَلَّوْا اللَّهَ
لَا يُحِبُّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨﴾ وَرَبُّهُمْ فَمَا أَضَلَّ اللَّهُ الْقَوْمَ الْأَفْرَافَ
وَلَا تَحْسَبُوهُمْ كَالَّذِينَ رَافَعُوا رُحَمَاءَ كَثَرُوا لَكُمْ فَهُمْ يَأْتُونَكُمْ
وَلَا يَتَّبِعُ الْقَوْمَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُنْكَرِينَ ﴿٩﴾

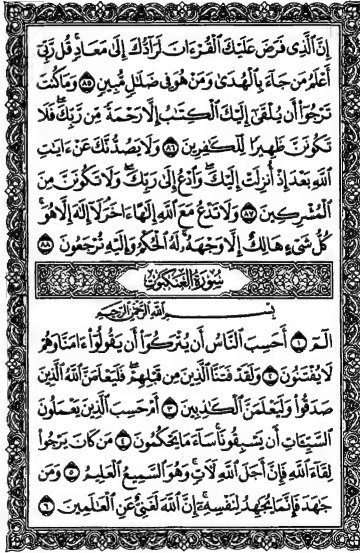
﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيََاءٍ﴾ وقوله: ﴿أَفَلَا تَبْصُرُونَ﴾
﴿إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ .

٧- فلم كان إعطاء المال والقوة والجاه يدل على رضا الله سبحانه عن آتاه ذلك

وشرف قدره وعلو منزلته عنده، لما أهلك من آتاه من ذلك أكثر مما آتى قارون، فلما أهلكهم مع سعة هذا العطاء وبسطته علم أن عطاءه إنما كان ابتلاء وفتنة لا محبة ورضا واصطفاء لهم على غيرهم. (شفاء العليل ٣٧).

قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾.

٨- فإن احتج مبتدع أو زنديق بقول الله عز وجل ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، وبنحو هذا من متشابه القرآن، قيل له: كل شيء مما كتب الله عليه الفناء والهلاك هالك، والجنة والنار خلقنا للبقاء لا للفناء ولا للهلاك، وهما من الآخرة لا من الدنيا، والهور العين لا يمتن عند قيام الساعة، ولا عند النفخة ولا أبدا؛ لأن الله عز وجل خلقهن للبقاء لا للفناء ولم يكتب



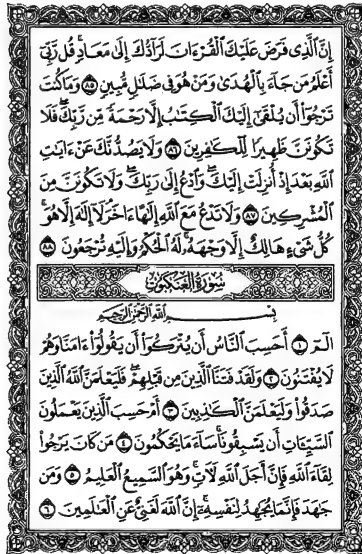
عليهن الموت، فمن قال خلاف هذا، فهو مبتدع وقد ضل عن سواء السبيل. (حادي الأرواح ٤٩-٥١).



سورة العنكبوت

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ النَّاسَ أَن يَتَّبِعُوهُمُ أَكْثَرُ وَأَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْفِهُنَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ

اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾



١- لما كان زمن التألم والعذاب فصره طويل فأنفاسه ساعات وساعاته أيام وأيامه شهور وأعوام، بلا سبحانه الممتحنين فيه بأن ذلك الابتلاء آجلا ثم ينقطع، وضرب لأهله أجلا للقائه يسليهم به ويشكر نفوسهم ويهون عليهم أثقاله، فقال: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٥).

فإذا تصور العبد أجل ذلك البلاء وانقطاعه، وأجل لقاء المبتلى سبحانه وإثباته، هان عليه ما هو فيه وخف عليه حمله.

٢- ثم لما كان ذلك لا يحصل إلا بمجاهدة للنفس وللشيطان ولبني جنسه، وكان العامل إذا علم أن ثمرة علمه وتعبه يعود عليه وحده لا يشركه فيه غيره، كان أتم اجتهدا وأوفر سعيا، فقال تعالى: ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (٦).

٣- وأيضا فلا يتوهم متوهم أن منفعة هذه المجاهدة والصبر والاحتمال يعود على الله سبحانه، فإنه غني عن العالمين لم يأمرهم بما أمرهم به حاجة منه إليهم،

٤- ثم لما كان الممتحن لا بد أن ينحرف عن طريق الصبر والمجاهدة لدواعي طبيعته وهواه وضعفه عن مقاومة ما ابتلي به، وعده سبحانه أن يتجاوز له عن ذلك ويكفره عنه لأنه لما أمر به والتزم طاعته اقتضت رحمته أن كفر عنه سيئاته وجازاه بأحسن أعماله.

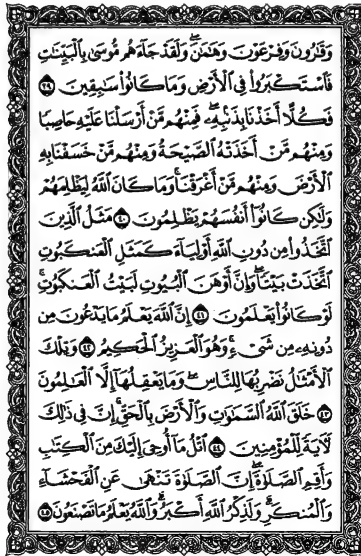
٥- ذكر سبحانه ابتلاء العبد بأبويه وما أمر به من طاعتهما وصبره على مجاهدتهما له على أن لا يشرك به فيصبر على هذه المحنة والفتنة ولا يطيعهما، بل يصاحبهما على هذه الحال معروفًا، ويعرض عنهما إلى متابعة سبيل رسله. وفي الإعراض عنهما وعن سبيلهما والإقبال على من خالفهما وعلى سبيله من الامتحان والابتلاء ما فيه.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ
وَنَجْعَلَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَثِيرًا ۚ وَالَّذِينَ كَانُوا يُشْرِكُونَ
لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۚ وَرَضِيَ اللَّهُ
عَنِ الْقَوْمِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَنُكَلِّفُنَّ فِيهَا
الْمُؤْمِنِينَ عِثْرًا وَلَئِنَّ كَثِيرًا مِّنَ أَهْلِهَا لَكَاذِبُونَ ۚ
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمُ فِي الصَّالِحِينَ
۝ وَهُوَ الَّذِي مَن يُقُولُ إِنَّمَا إِلَهُمُ إِلَٰهُنَّ بَنِي
إِسْرَٰءِيلَ فَقَالَ اللَّهُ بَنِي إِسْرَٰءِيلَ جَعَلْتُمُونِي
إِنَّا كُنَّا صَاحِبِيكُمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ لَآبْلَغُ الْعِلْمِ بِمَا صَدُرَ
التَّالِيِينَ ۝ وَلَيُعَذِّبَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَئِن كَانَ
بِالْمُؤْمِنِينَ لَشَيْءٌ مِّنَ اللَّهِ لَظَهِيرٌ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَالَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا
وَلْنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا نَحْمِلُهَا مِن فَتْرَةٍ
مِّنْ فَتْرَتِهِمْ لَنَنصَرُّنَّ إِلَى اللَّهِ لَعَلَّكُمْ
تَهْتَكُونَ ۚ وَلَيُعَذِّبَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَئِن كَانَ بَيْنَهُمْ لَافْتَاكٌ
كَثِيرٌ ۚ وَلَقَدْ رَأَيْنَا لَوْحًا فِي قَوْمِهِ
كَذَّبُوا فِيهِ ۚ فَكَفَّ عَنْهُمْ ۚ وَلَئِن كَانَ
إِلَّا أَحْمِيصٌ ۚ عَامَا عَظَمَهُمُ الظُّلُمَاتُ ۚ وَهُوَ
ظَالِمُونَ ۝

٦- هذا يدل على عدم البصيرة، وأن الإيمان لم يدخل قلبه ولا ذاق حلاوته حتى سوى بين عذاب الله له على الإيمان بالله ورسوله وبين عذاب الله لمن لم يؤمن به وبرسوله، وهذا حال من يعبد الله على حرف

واحد لم ترسخ قدمه في الإيمان وعبادة الله، فهو من المفتونين المعذيين وإن فر من عذاب الناس له على الإيمان، ثم ذكر حال هذا عند نصره المؤمنين وأنهم إذا نصرُوا الجأ إليهم وقال كنت معكم، والله سبحانه يعلم من قلبه خلاف قوله. (شفاء العليل ٢٤٥-٢٤٧).

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٤١).



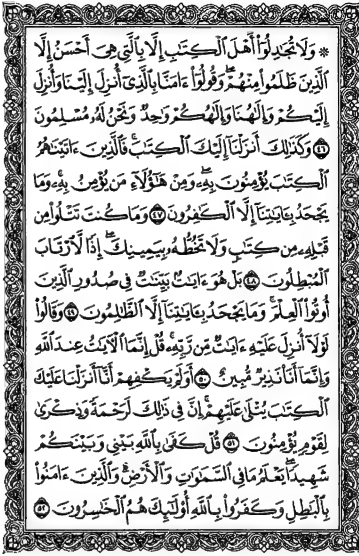
٧- هذا من أحسن الأمثال وأدلها على بطلان الشرك وخسارة صاحبه وحصوله على ضد مقصوده. فإن قيل: فهم يعلمون أن أوهن البيوت بيت العنكبوت، فكيف نفى عنهم علم ذلك بقوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

فالجواب أنه سبحانه لم ينف عنهم علمهم بوهن بيت العنكبوت، وإنما نفى عنهم علمهم بأن اتخاذهم أولياء من دونه كالعنكبوت اتخذت بيتا، فلو علموا ذلك لما فعلوه، ولكن ظنوا أن اتخاذهم الأولياء من

دونه يفيدهم عزا وقدرة، فكان الأمر بخلاف ما ظنوه. (إعلام الموقعين ١/ ٢٠٤-٢٠٥).

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (٤٣).

٨- ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقرير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس.



وقد تأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر على المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر. (بدائع الفوائد ٩/٤).

٩- وقد أخبر سبحانه عن أمثاله التي يضر بها لعباده يدلهم على صحة ما أخبر به أن أهل العلم هم المتفعون بها المختصون بعلمها.

وفي القرآن بضعة وأربعون مثلاً، وكان بعض السلف إذا مر بمثل لا يفهمه يبكي ويقول: لست من العالمين. (مفتاح دار السعادة ٥١/١).

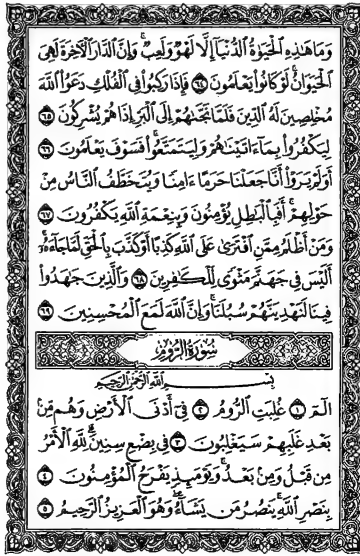
قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَتٌ بَيِّنَةٌ فِي صُورِ الَّذِينَ أوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾.

١٠- إنه سبحانه مدح أهل العلم وأثنى عليهم وشرفهم بأن جعل كتابه آيات بينات في صدورهم، وهذه خاصة ومنقبة لهم دون غيرهم.

وسواء كان المعنى أن القرآن مستقر في صدور الذين أوتوا العلم ثابت فيها محفوظ وهو في نفسه آيات بينات، فيكون أخبر عنه بخبرين: أحدهما أنه آيات بينات، الثاني أنه محفوظ مستقر ثابت في صدور الذين أوتوا العلم، أو كان المعنى أنه آيات بينات في صدورهم، أي كونه آيات بينات معلوم لهم ثابت في صدورهم. والقولان متلازمان ليسا بمختلفين، وعلى التقديرين فهو مدح لهم وثناء عليهم في ضمنه الاستشهاد بهم، فتأمل. (مفتاح دار السعادة ٥٤).

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥١).

١١ - ذكر هذا جواباً لطلبهم آية تدل على صدقه، فأخبر أنه يكفيهم من كل آية، فلو كان ما تضمنه من الإخبار عنه وعن صفاته وأفعاله واليوم الآخر يناقض العقل، لم يكن دليلاً على صدقه فضلاً عن أن يكون كافياً، وسيأتي في الوجه الذي بعد هذا بيان أن تقديم العقل على النقل يبطل كون القرآن آية وبرهاناً على صحة النبوة، والمقصود أن الله سبحانه تمم الدين وأكمله بنبيه وما بعثه به، فلم يحوج أمته إلى سواه، فلو عارضه العقل وكان أولى بالتقديم منه، لم يكن كافياً للأمة، ولا كان تاماً في نفسه.



قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾.

١٢ - علق سبحانه الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهاداً، وأفرض الجهاد جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا، فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته، ومن ترك الجهاد، فاته من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد. (الفوائد ٥٨).



سورة الروم

قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ (١١).

١- دل بالنظير على النظير، وقرب أحدهما من الآخر جدا بلفظ الإخراج، أي: يخرجون من الأرض أحياء كما يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي. (إعلام الموقعين ١/ ١٨٦).

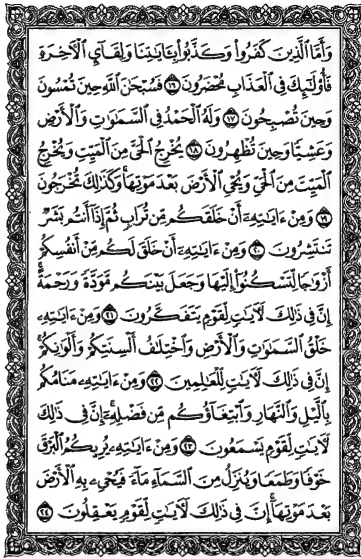
قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١١). إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾.

٢- نَوَّع سبحانه الآيات في هذه السور، فجعل خلق السماوات والأرض واختلاف لغات الأمم وألوانهم آيات للعالمين كلهم لاشتراكهم في العلم بذلك وظهوره ووضوح دلالاته.

٣- وجعل خلق الأزواج التي تسكن إليها الرجال وإلقاء المودة والرحمة بينهم آيات لقوم يتفكرون، فإن سكون الرجل إلى امرأته وما يكون بينهما من المودة والتعاطف والترحام أمر باطن مشهود بعين الفكرة والبصيرة، فمتى نظر بهذه العين إلى الحكمة والرحمة والقدرة التي صدر عنها ذلك، دلَّه فكره

على أنه الإله الحق المبين الذي أقرت الفطر بربوبيته وإلهيته وحكمته ورحمته.

وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كَفَرُوا وَسَكَنُوا إِلَيْنَا وَلَقَدْ آتَيْنَا الْآخِرَةَ
فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُتَصِفُونَ ﴿١٠﴾ فَتَسْكُنُ الْفُجُورُ تُمْسُونَ
وَيُحْيِي تَضْمِينُ ﴿١١﴾ وَلَهُ الْخَمْدُ فِي السَّحَابِ وَالْأَرْضُ
وَيَحْيِي تَضْمِينُ ﴿١٢﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ
الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ
﴿١٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ مِنْ نَارٍ ذَا أَسْمَاءٍ يَنْشُرُ
تَنْشُرُ ﴿١٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ
أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٥﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ
خَلَقَ السَّحَابَ وَالْأَرْضَ وَخَلَقَ الْبَشَرَ وَالْأَنْفُسَ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَا تَكُونُ
بِالْأَيْلِ وَالْقَهَارِ وَأَيُّكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرْسِلُ الرِّيحَ
حَوَافًا تَطْمِئِنُّ الْوَاضِحَاتُ وَالسَّحَابُ مَاءً فَيَنْجِي بِهِ الْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٨﴾



٤- وجعل المنام بالليل والنهار للتصرف في المعاش وابتغاء فضله آيات لقوم يسمعون وهو سمع الفهم.

٥- وتدبر هذه الآيات وارتباطها بما جعلت آية له مما أخبرت به الرسل من حياة العباد بعد موتهم وقيامهم من قبورهم كما أحياهم سبحانه بعد موتهم وأقامهم للتصرف في معاشهم، فهذه الآية إنما ينتفع بها من سمع ما جاءت به الرسل وأصغى إليه واستدل بهذه الآية عليه.

٦- وجعل إراءتهم البرق وأنزل الماء من السماء وإحياء الأرض به آيات لقوم يعقلون، فإن هذه أمور مرتبة بالإبصار مشاهدة بالحس، فإذا نظر فيها ببصر قلبه وهو عقله، استدل بها على وجود الرب تعالى وقدرته وعلمه ورحمته وحكمته إمكان ما أخبر به من حياة الخلائق بعد موتهم كما أحيأ هذه الأرض بعد موتها، وهذه أمور لا تدرك إلا ببصر القلب وهو العقل، فإن الحس دل على الآية، والعقل دل على ما جعلت له آية، فذكر سبحانه الآية المشهودة بالبصر والمدلول عليه المشهود بالعقل فقال:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢٤) فتبارك الذي جعل كلامه حياة للقلوب وشفاء لما في الصدور. (مفتاح دار السعادة ٢٠٣- ٢٠٤).

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾.

٧- وهذا يعم جميع الناس، فعلم أن الله سبحانه فطر الناس كلهم على فطرته المذكورة، وأيضا فإنه أضاف الفطرة إليه إضافة مدح لا إضافة ذم، فعلم أنها فطرة

محمودة لا مذمومة كدين الله وبيته وناقته. (شفاء العليل
٢٨٦-٢٧٨).

قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾.

٨- ونزل هذه الآية على أحوال العالم وطابق بين الواقع وبينها، وأنت ترى كيف تحدث الآفات والعلل كل وقت في الثمار والزرع والحيوان، وكيف يحدث من تلك الآفات آفات آخر متلازمة، بعضها أخذ برقاب بعض، وكلما أحدث الناس ظلماً وفجوراً، أحدث

لهم ربهم تَبَارَكَ وَتَعَالَى من الآفات والعلل في أغذيتهم وفواكههم، وأهويتهم ومياهم، وأبدانهم وخلقهم، وصورهم وأشكالهم وأخلاقهم من النقص والآفات ما هو موجب أعمالهم وظلمهم وفجورهم. (زاد المعاد ٤/ ٣٦٣-٣٦٤).

٩- والظاهر - والله أعلم - أن الفساد المراد به الذنوب وموجباتها، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿لِيَذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ فهذا حالنا، وإنما أذقنا الشيء اليسير من أعمالنا، ولو أذقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة. (الجواب الكافي ٨٩-٩٠).

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٠- فهذا حق أحقه على نفسه، فهو طلب وإيجاب على نفسه بلفظ «الحق»،

ولفظ «على». (بدائع الفوائد ٢/ ١٦٢).

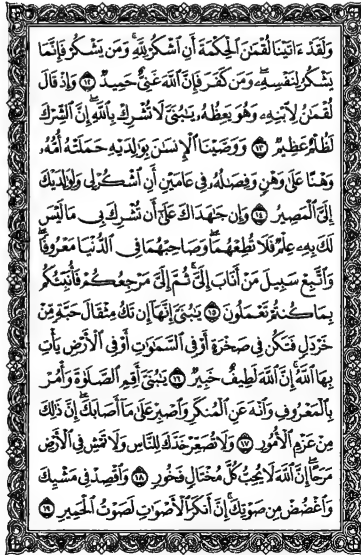


وَأَذَانُ النَّاسِ مِنْ غَيْرِ رَحْمَةٍ إِلَيْهِمْ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ فَمَا لَهُمْ
بِغَيْرِهِ رَحْمَةً إِذَا قِيلَ لَهُمْ يَوْمَ تَشْرُونَ ﴿١﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا
عَلَيْتُمْ فَتُخْرَجُوا مِنْهُ تَخْرُجُونَ ﴿٢﴾ لَمْ يَأْتِ تِلْكَ آيَاتُهُمْ
مُسْلِمِينَ فَتُخْرَجُوا مِنْهُ تَخْرُجُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا
النَّاسَ رَحْمَةً فَذُحِرُوا إِذَا هُمْ فِي حُجْرٍ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ
وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥﴾ فَتَابَ ذَلِكَ الْغُرَى
حَقَّهُ وَالْمُسْكِينِ وَآلِ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ
وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٦﴾ وَمَاءً يَسْقُونَ ﴿٧﴾
لِيَرْزُقُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْزُقُوا عَنْ اللَّهِ وَمَا عَنْتِبُ الَّذِينَ
نَصَرُوا وَهُمْ يَدْعُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾
اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَرَزَقَكُمْ فَرِيقًا مِمَّنْ كَفَرُوا هَلْ هِيَ
شُرَكَائِكُمْ مَن يَقُولُ بَيْنَ يَدَيْهِمْ قُرْآنٌ مِّنْ سِجِّينَ ﴿٩﴾
عَمَّا يُنشَرُونَ ﴿١٠﴾ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ
أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا أَنَّهُمْ وَهُمْ

سورة لقمان

قوله تعالى: ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۝ ﴾

١- فلله ما أحلى هذا اللفظ وأوجزه وأدله على بطلان الشرك، فإنهم إن زعموا أن آلهتهم خلقت شيئاً مع الله، طولبوا بأن يروه إياه، وإن اعترفوا بأنها أعجز وأضعف وأقل من ذلك كانت ألوهيتها باطلا ومحالا. (الصواعق المرسلة ٢/ ٤٦٥).



قوله تعالى: ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۝ ﴾

٢- كل من الصحابة منيب إلى الله فيجب اتباع سبيله، وأقواله واعتقاداته من أكبر سبيله، والدليل على أنهم منيبون إلى الله تعالى أن الله تعالى قد هداهم وقد قال: ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣]. (إعلام الموقعين ٤/ ١٦٣).

قوله تعالى: ﴿ يَبْنِيْ اِقِمِ الصَّلَاةَ وَاْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَاَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاَصْبِرْ عَلَى مَا اَصَابَكَ ۝ ﴾

٣- أمره بالمعروف يتناول فعله بنفسه وأمر غيره به، وكذلك نهيه عن المنكر، أما من حيث إطلاق اللفظ فتدخل نفسه فيه وغيره، وأما من حيث اللزوم الشرعي، فإن الأمر الناهي لا يستقيم له أمره ونهيه حتى يكون أول مأمور ومنهي. (عدة الصابرين ٢٩).

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ ﴾

٤- معنى هذا أنه لو فرض البحر مدادا وبعده سبعة أبحر تمده كلها مدادا وجميع

الْوَرَقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مِائِي السَّمَوَاتِ وَمِائِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ رِيعَهُمْ ظُهُورَهُ وَمِائِي السَّمَوَاتِ وَمِائِي الْأَرْضِ وَمِنْ يَحْدُلُ فِي اللَّهِ يَغْتَرِبُوا وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ أَقْبَلْ لَهُمُ الْقُرْآنَ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَالْوَيْلُ لِلْبَاطِلِ نَبِيٍّ مَا وَجَدَ نَاعِيَهُ نَاعِيَةً نَأَى أُولَئِكَ كَانَ السَّيِّئِينَ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ وَمَنْ يُسْلِمِ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ وَمِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ أَسْلَمَ إِلَى الْفِتْنَةِ الْوَقْفِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ أَلِيمٌ ﴿١٢﴾ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنُكَ كُفْرُهُمْ إِنَّ سِعْلَهُمْ فِي النَّارِ مَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٤﴾ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ فَطَعْنُوا إِلَى عَذَابِ غَلِيظٍ ﴿١٥﴾ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ فَلْيَوْمِئَاتِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْقَبِيضُ الْحَمِيدُ ﴿١٧﴾ وَلَوْ أَنَّ مِائِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَفْطَرُوا الْيَوْمَ مِائَةً مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ مَا خَلَقُوا وَلَا يَخْلُقُ إِلَّا لَكُنَّ قَبْلَهُ رَكْدَتٌ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾

أشجار الأرض أقلاما وهو ما قام منها على ساق من النبات والأشجار المثمرة وغير المثمرة وتستمد بذلك المداد، لفنيت البحار والأقلام وكلمات الرب لا تفنى ولا تنفد، فسبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته.

فأين هذا من وصف من يصفه بأنه ما تكلم ولا يتكلم ولا يقوم به كلام أصلا؟ وقول من وصف كلامه بأنه معنى واحد لا ينقضي ولا يتجزأ ولا له بعض ولا كل ولا هو سور وآيات ولا حروف وكلمات؟ (المنار

المنيف ٣٧ ٣٨).



سورة السجدة

قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢﴾



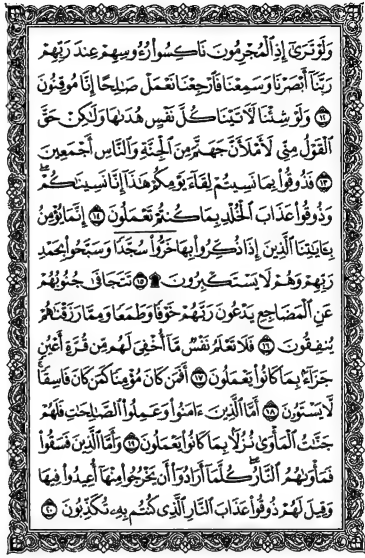
١- جعل سبحانه من أعظم أدلة صدقه نفي الريب عنه في مثل هذه المطالب التي هي أصل مطالب بني آدم وأجل معارفهم وعلومهم على الإطلاق، فلو كان فيه ما يخالف صريح العقل لكان فيه أعظم الريب، ولما اطمأنت به القلوب ولا ثلجت به الصدور. (الصواعق المرسله ١١٧).

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٤﴾

الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ عَلَىٰ جُودِهِمْ لَمْ يَلْقَ لَهُمْ يَلْقَاءَ رَبِّهِمْ كَغُفُورٍ ﴿٣﴾

٢- تأمل ما في هذه الآيات من الرد على طوائف المعطلين والمشركين فقلوه:

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الفرقان: ٥٩] يتضمن إبطال قول الملاحدة القائلين بقدم العالم، وأنه لم يزل، وأن الله سبحانه لم يخلقه بقدرته ومشئته، ومن أثبت منهم وجود الرب جعله لازماً لذاته أولاً وأبداً غير مخلوق، كما هو قول ابن سينا والنصير الطوسي وأتباعهما من الملاحدة الجاحدين لما اتفقت عليه الرسل عليهم الصلاة والسلام والكتب وشهدت به العقول والفطر.



٣- وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾

[الأعراف: ٥٤]. يتضمن إبطال قول المعطلة والجهمية الذين يقولون ليس على العرش شيء سوى العدم، وأن الله ليس مستويا على عرشه، ولا ترفع إليه الأيدي، ولا يصعد إليه الكلم الطيب، ولا رفع المسيح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إليه، ولا عرج برسوله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليه، ولا تعرج الملائكة والروح إليه، ولا ينزل من عنده جبريل وغيرهم من فوقهم، ولا يراه المؤمنون في الدار الآخرة عيانا بأبصارهم من

فوقهم، ولا تجوز الإشارة إليه بالأصابع إلى فوق كما أشار إليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أعظم مجامعه في حجة الوداع وجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكبها إلى الناس ويقول: اللهم اشهد. (اجتماع الجيوش الإسلامية ٢٨).

وقوله تعالى: ﴿نَتَجَافَىٰ جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (١٦) ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٧).

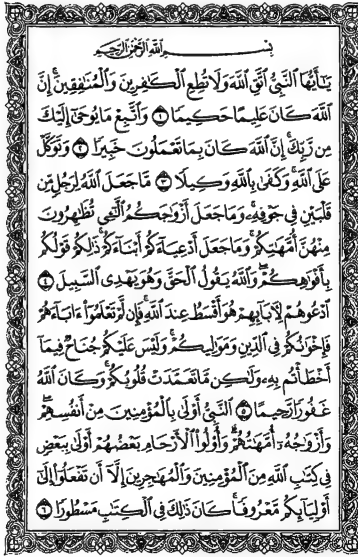
٤- تأمل كيف قابل ما أخفوه من قيام الليل بالجزاء الذي أخفاه لهم مما لا تعلمه نفس، وكيف قابل قلقهم وخوفهم واضطرابهم على مضاجعهم حين يقوموا إلى صلاة الليل بقرة الأعين في الجنة. (حادي الأرواح ٢٢٣).

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (١٤).

٥- أخبر أن إمامة الدين إنما تنال بالصبر واليقين، فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة، واليقين يدفع الشكوك والشبهات. (زاد المعاد ١٠/٣).

سورة الأحزاب

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ آتَى اللَّهِ وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝٣﴾



١- تجد تحت هذا اللفظ أن القلب ليس له إلا وجهة واحدة، إذا مال بها إلى جهة لم يمل إلى غيرها، وليس للعبد قلبان يطيع الله ويتبع أمره ويتوكل عليه بأحدهما والآخر لغيره، بل ليس إلا قلب واحد، فإن لم يفرد بالتوكل والمحبة والتقوى ربه، وإلا انصرف ذلك إلى غيره، ثم استطرد من ذلك إلى أنه سبحانه لم يجعل زوجة الرجل أمه واستطرد منه إلى أنه لم يجعل دعيه ابنه، فانظر ما أحسن هذا التأصيل وهذا الاستطراد الذي تسجد له العقول والألباب. (روضة المحبين ٢٧٢ - ٢٧٥).

قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۝٢﴾

٢- هو دليل على أن من لم يكن الرسول أولى به من نفسه فليس من المؤمنين، وهذه الأولوية تتضمن أموراً:

منها: أن يكون أحب إلى العبد من نفسه، لأن الأولوية أصلها الحب، ونفس العبد أحب له من غيره، ومع هذا يجب أن يكون الرسول أولى به منها وأحب إليه منها، فبذلك يحصل له اسم الإيمان. ويلزم من هذه الأولوية والمحبة كمال الانقياد والطاعة والرضا والتسليم وسائر لوازم المحبة من الرضا بحكمه والتسليم لأمره وإيثاره على ما سواه.

ومنها: أن لا يكون للعبد حكم على نفسه أصلاً، بل الحكم على نفسه للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحكم عليها أعظم من حكم السيد على عبده أو الوالد على ولده، فليس له في نفسه تصرف قط إلا ما تصرف فيه الرسول الذي هو أولى به منها.

📖 قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ الصَّدِيقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾.

٣- فإذا سئل الصادقون وحوسبوا على صدقهم فما الظن بالكاذبين؟ (إغاثة اللهفان

٨٣/١ - ٨٤).

📖 قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١٧).

٤- وإذا كان هذا في مصيبة النفس، فالأمر هكذا في مصيبة المال والعرض والبدن، فإن من بخل بماله أن ينفقه في سبيل الله تعالى وإعلاء كلمته، سلبه الله إياه، أو قبض له إنفاقه فيما لا ينفعه دنيا ولا أخرى، بل فيما يعود عليه بمضرته عاجلاً وأجلاً، وإن حبسه وادخره منعه التمتع به، ونقله إلى غيره. فيكون له مهنته وعلى مخلفه وزوه.

قُلْ لَنْ يَنْصَحَكُمْ الْفِرَارُ لَنْ تَرْجُوهُ مِنَ التَّوْبَةِ أَوْ الْفَقْرِ وَلَا تَأْتُمُّونَ إِلَّا أَفْقَالًا ۖ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۖ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُتَوَفِّينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْرَجِهِمْ هَٰؤُلَاءِ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِ الْبَاسِ إِلَّا أَفْقَالًا ۖ أَيْخَةَ عَلَيْهِمْ كُفْرًا جَاهُ الْخَلْقِ وَأَتَيْنَهُمْ بِظُلُومٍ إِلَيْكَ تَدْرَأُ عَنْهُمْ كَأَنَّهُ يَنْقُصُ عَلَيْهِمْ مِنَ التَّوْبَةِ فَإِنَّا دَعَبُ الْخَلْقِ سَلَفُكُمْ بِالْأَيْمَةِ جَدَا أَيْخَةَ عَلَى لِقَائِكُمْ أَوَّلِيكُمْ لَمْ يَكُنُوا قَدْ خُفِضَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۖ يَحْسَبُونَ الْآخِرَ بَرًّا لِيَدْفَعُوا بِآيَاتِ الْآخِرِينَ يَدْرَأُ لَوْلَا أَنَّهُمْ تَادُونَ فِي الْآخِرِينَ يَسْتَعْلُونَ عَنْ آيَاتِكُمْ لَوْلَا فَكَّرُوا فَاخْتَرُوا ۖ قُلْ لَنْ يَنْصَحَكُمْ إِلَّا أَفْقَالًا ۖ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا ذَكِيرًا ۖ وَلَقَدْ آتَيْنَا الْيَهُودَ الْآخِرَ بَرًّا قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۖ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ۖ

٥- وكذلك من رفه بدنه وعرضه وأثر راحته على التعب لله وفي سبيله أتعبه الله سبحانه أضعاف ذلك في غير سبيله، وممرضاته وهذا أمر يعرفه الناس بالتجارب.

٦- الذي لا يتقي الله من معالجة الخلق أعظم مما يلقي الذي يتقي الله من معالجة التقوى.

واعتبر ذلك بحال إبليس، فإنه امتنع من السجود لأدم فرارا أن يخضع له ويذل، وطلب إعزاز نفسه،

[illegible]

٨- نهاهن عن الخضوع بالقول، فربما ذهب الوهم إلى الإذن في الإغلاظ في القول والتجاوز، فرفع هذا التوهم بقوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢]. (إعلام الموقعين ٤/ ٢٠٤).

أمرهن أن لا يُلن في كلامهن، كما تلين المرأة المعطية الليان في منطقها، فيطمع الذي في قلبه مرض الشهوة، ومع ذلك فلا يخشن في القول، بحيث يلتحق بالفحش، بل يقلن قولاً معروفاً. (إغاثة اللهفان ١- ١٤).



قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾.

٩- دل هذا على أنه إذا ثبت لله ورسوله في كل مسألة من المسائل حكم طلبي أو خبري، فإنه ليس لأحد أن يتخير لنفسه غير ذلك الحكم فيذهب إليه، وأن ذلك ليس لمؤمن ولا مؤمنة أصلاً، فدل على أن ذلك مناف للإيمان.

١٠- فإن الحجة الواجب اتباعها على الخلق كافة إنما هو قول المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وأما أقوال غيره فغايتها أن تكون سائغة الاتباع، فضلاً عن أن يعارض بها النصوص وتقدم عليها، عياذا بالله من الخذلان. (الرسالة التبوكية ٤٤- ٤٥).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢).

١١- هذه الصلاة منه تَبَارَكَ وَتَعَالَى ومن ملائكته إنما هي سبب الإخراج لهم من الظلمات إلى النور. فأَي خير لم يحصل لهم، وأي شر لم يندفع عنهم؟ فيا حسرة

الغافلين عن ربهم ماذا حرموا من خيره وفضله! وبالله التوفيق. (الوابل الصيب ١٠٠).

لَا تُجْتَنَحُ عَلَيْهِمْ فِي عَمَلَاتِهِمْ وَلَا أَيْتَانِهِمْ وَلَا إِخْرَاجِهِمْ وَلَا
أَيْتَانَهُ إِخْرَاجِهِمْ وَلَا أَيْتَانَهُ إِخْرَاجِهِمْ وَلَا أَيْتَانَهُ إِخْرَاجِهِمْ
أَيْتَانَهُمْ وَأَيْتَانَهُمْ أَنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا
إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ٥٦ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا
مُهِينًا ٥٧ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا
وَبُغْيًا فَقَدْ أَخْرَجَهُمُ اللَّهُ مِنْ دِينِهِمْ وَأَمَّا إِلَهُكُمْ ٥٨
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَكْرِمَنَّكَ رَبِّي وَبَنَاتِي وَبَنَاتِي
يُؤْمِنُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ جَلِيلٍ هُوَ الَّذِي أَذَقَ أَنْ يُعْرِضَ فَلَا
يُؤْذِنُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٥٩ لَيْسَ لَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجُومِينَ فِي الْمَدِينَةِ
لَغْوِيَّةٌ يَوْمَئِذٍ لَا يَجَاوِزُونَكَ بِهَا إِلَّا أَقِيلًا ٦٠ تَلْعَنُونَ
أَيْتَانَهُمْ أَعْدُوا وَفُتِلُوا تَقْبِيلًا ٦١ سُبْحَةَ اللَّهِ فِي
الَّذِينَ خَلَقُوا مِنْ قَبْلِ وَلَنْ يَجِدَ لِسُوءِ اللَّهِ تَبْدِيدًا ٦٢

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ٥٦.

١٢- إن الله سبحانه أمر بالصلاة عليه عقب إخباره بأنه وملائكته يصلون عليه، والمعنى أنه إذا كان الله وملائكته يصلون على رسوله، فصلوا أنتم عليه فأنتم أحق بأن تصلوا عليه وتسلموا تسليماً؛ لما نالكم ببركة رسالته ويمن سفارته من شرف الدنيا والآخرة. (جلاء الأفهام ١٢٥-١٢٦).

في الفوائد والثمرات الحاصلة بالصلاة عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

- * منها: امتثال أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.
- * ومنها: موافقته سبحانه في الصلاة عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإن اختلفت الصلاتان فصلاتنا عليه دعاء وسؤال وصلاة الله تعالى عليه ثناء وتشريف كما تقدم.
- * ومنها: موافقة ملائكته فيها.
- * ومنها: حصول عشر صلوات من الله على المصلي مرة.
- * ومنها: أنه يرفع عشر درجات.
- * ومنها: أنه يكتب له عشر حسنات.
- * ومنها: أنه يمحي عنه عشر سيئات.
- * ومنها: أنه يرجى إجابة دعائه إذا قدمها أمامه، فهي تصاعد الدعاء إلى عند رب العالمين.



* ومنها: أنها سبب لشفاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا قرنها بسؤال الوسيلة له أو أفردا كما تقدم حديث رويغ بذلك.

* ومنها: أنها سبب لغفران الذنوب كما تقدم.

* ومنها: أنها سبب لكفاية الله العبد ما أهمه.

* ومنها: أنها سبب لقرب العبد منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم القيامة.

* ومنها: أنها سبب لرد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصلاة والسلام على المصلي والمسلم عليه.

* ومنها: أنها سبب ل دوام محبته للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وزيادتها وتضاعفها، وذلك عقد من عقود الإيمان الذي لا يتم إلا به؛ لأن العبد كلما أكثر من ذكر المحبوب واستحضاره في قلبه واستحضار محاسنه ومعانيه الجالبة لحبه، تضاعف حبه وتزايد شوقه إليه واستولى على جميع قلبه.

* ومنها: أنها متضمنة لذكر الله تعالى وشكره ومعرفة إنعامه على عبده بإرساله، فالمصلي عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد تضمنت صلاته على ذكر الله وذكر رسوله وسؤاله أن يجزيه بصلاته عليه ما هو أهله. (جلاء الأفهام ٣٣٥-٣٤٣ باختصار).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيِّنَّا أَطْعَمَنَا اللَّهُ وَأَطْعَمَنَا الرَّسُولَ﴾ (١٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطْعَمْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ (١٧) رَبَّنَا إِنَّهُمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (١٨).

١٣- تمنى القوم طاعة الله ورسوله حين لا ينفعهم ذلك واعتذروا بأنهم أطاعوا كبراءهم ورؤساءهم واعترفوا بأنهم لا عذر لهم في ذلك، وأنهم أطاعوا السادات والكبراء

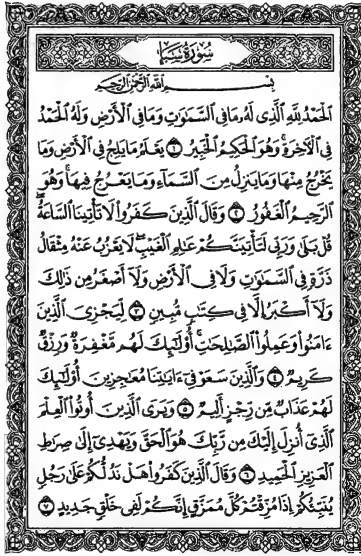
وعصوا الرسول، وأت تلك الطاعة والمواالات إلى قولهم: ﴿رَبَّنَا آتِنَهُمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ (٦٨) وفي بعض هذا عبرة للعاقل وموعظة شافية، وبالله التوفيق. (الرسالة التبوكية ٥٥-٥٦).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عَلَّمْتُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يَدْرِيكَ
لَعْنُ السَّاعَةِ تَكُونُ قَرِيبًا ۝ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ
لَهُمْ سَعِيرًا ۝ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ فِيهَا وَلِيًّا وَلَا ظَعِيرًا ۝
يَوْمَ تَقُفُّ أَرْجُلُهُمْ فِي النَّارِ يَلْوُونَ يَدَهُمْ فَيَلْبَسُونَ بِثَلَاثًا أَطْعَمَنَا اللَّهُ
وَأَطْعَمَنَا الرَّسُولُ ۝ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطْعَمْنَا سَادَةً نُنَا وَكَرِهْنَا
فَأَسْأَلُونَكَ السَّبِيلَ ۝ رَبَّنَا آتِنَهُمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ
وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ
ءَادُوا الْمَوْسَىٰ فَمَرَّاهُ اللَّهُ وَمَعَآ قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ۝
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ
لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
فَقَدْ كَسَبَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا
الْإِنْسَانُ ۝ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ
وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝

سورة سبأ

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ۝١ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ۝٢﴾.



١- أما تقديم (الرحيم) على (الغفور) في موضع واحد وهو أول سبأ، ففيه معنى غير ما ذكره يظهر لمن تأمل سياق أوصافه العلى وأسمائه الحسنى في أول السورة إلى قوله: ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾.

وقدم (الرحيم) في هذا الموضع لتقدم صف، فحسن ذكر الرحيم بعده ليقترن به فيطابق قوله ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ ثم ختم الآية بذكر صفة المغفرة لتضمنها دفع الشر وتضمن

ما قبلها جلب الخير، ولما كان دفع الشر مقدما على جلب الخير، قدم اسم (الغفور) على (الرحيم) حيث وقع ولما كان في هذا الموضع تعارض يقتضي تقديم اسمه (الرحيم) لأجل ما قبله قدم على (الغفور). (بدائع الفوائد ١/ ٧٩).

قوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٦﴾.

٢- هذا دليل ظاهر أن الذي نراه معارضا للنقل ويقدم العقل عليه ليس من الذين أوتوا العلم في قبيل ولا دبير ولا قليل ولا كثير. (الصواعق المرسله ٣/ ٨٥٠).

وَلَا تَصْنَعُ الشَّعْطَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَدْرَكَهُ حَتَّىٰ تَرَ الْفُجْعَ عَنْ
قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَا قَالَ رَبُّكَ قَالُوا الْحَقُّ وَقَوْلُ الْكَاذِبِ
﴿٥٠﴾ هَلْ مِنْ مِزَاجٍ مَعَكُمْ مِنَ السَّكِينِ وَالْأَخْصِ عَلَى اللَّهِ
وَالْأَوَّابِ كَعَمَلِ مَنْ هَدَىٰ لُؤْلُؤٌ حَبْلٌ مُبِينٌ ﴿٥١﴾ هَلْ
لِأَسْمَانٍ عَنَّا الْخُرُوبُ وَأَلْأَسْفَلِ عَنَّا الْعَمَلُ ﴿٥٢﴾ هَلْ
يَجْعَلُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُم مِّقْيَعًا يُفْضَعُ بَيْنَنَا وَبَالِحًا وَقَوْلُهُ لَلْغُلَامِ
﴿٥٣﴾ هَلْ أَرَبُّوهُ الَّذِينَ الظُّلُمُ بِهِمْ شَكٌّ لَّا تُكَلِّمُ الْكَافِرِينَ
أَتَعْلَمُونَ لِمَ كُفِرُوهُمْ ﴿٥٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَلَامًا
يُتَذَكَّرُ بِهِ لِمَا وَكُنَّا أَعْيُنَ رَائِينَ أَنَّهُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٥٥﴾
وَقُلُوبُهُمْ مَخْصُونٌ فَهُمْ هَذَا أَلَوْ عُدْنَا لَنَعْنَيْ صُدُوقَهُ ﴿٥٦﴾
هَلْ لَكُم مِّنْ عِشَارٍ يُبْدُونَ أَلَنَنْتَحِبْنَهُمْ عَنَّا سَاعَةً وَلَا تَعْتَبِرُونَ ﴿٥٧﴾
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِي قُلُوبُهُمْ هَذَا الَّذِينَ الظُّلُمُ وَلَا
بِأَلَدٍ يَنْتَ وَيَذَرُهُمْ إِلَىٰ طُلُوعِ الْغُلَامِ مَوْفُوقَهُ عِنْدَ
رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلِ يَقُولُ الَّذِينَ
أَسْخَرُوا غُلَامَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا أَنَا لَنُكَلِّمُنَّكَ مَوْفُوقَهُ ﴿٥٨﴾

فإن لم يكن مالكا كان شريكا للمالك، فإن لم يكن شريكا له كان معينا له وظهيرا، فإن لم يكن معينا ولا ظهيرا كان شفيعا عنده.

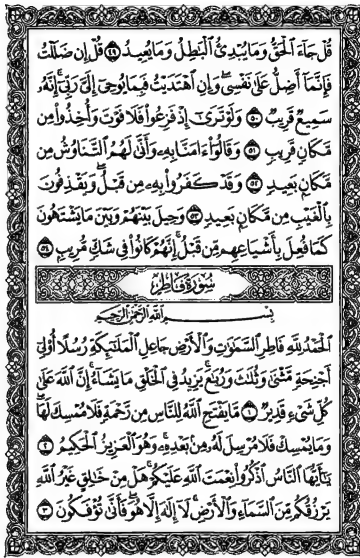
فكفى بهذه الآية نورا وبرهانا ونجاة، وتجريدا للتوحيد، وقطعا لأصول الشرك وموداه لمن عقلها، والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمنه له، ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثا، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن. (مدارج السالكين ١/ ٣٤٣).

فتأمل كيف أخذت هذه الآية على المشركين بمجامع الطرق التي دخلوا منها إلى الشرك وسدتها عليهم أحكم سد وأبلغه، وأخبر أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فهو الذي يأذن للشافع، فإن لم يأذن له لم يتقدم بالشفاعة بين يديه كما يكون في حق

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالْبَاطِي تَقَرُّكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾.

٤- أي: لا قريب عنده إلا من آمن وعمل صالحا، سواء كان له مال وولد أو لم يكن له، والانقطاع فيه أظهر، فإنه تعالى نفى قرب الناس إليه بأموالهم وأولادهم، وأثبت قربهم عنده بإيمانهم وعملهم الصالح، فتقدير (لكن) ها هنا أظهر من تقدير الاتصال في هذا الاستثناء.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾



٥- هذا نص صريح في أن هدي الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يحصل بالوحي، فيا عجباً! كيف يحصل الهدى لغيره من الآراء والعقول المختلفة والأقوال المضطربة؟! ولكن من يهد الله، فهو المهتد، ومن يضل فلن تجد له وليا مرشدا، فأى ضلال أعظم من ضلال من زعم أن الهداية لا تحصل بالوحي، ثم يحيل فيها على عقل فلان ورأي فلتان وقول زيد وعمرو؟ ولقد عظمت نعمة الله على عبد عافاه من هذه البلية العظمى والمصيبة الكبرى، والحمد لله رب العالمين. (الرسالة التبوكية ٥٤).



سورة فاطر

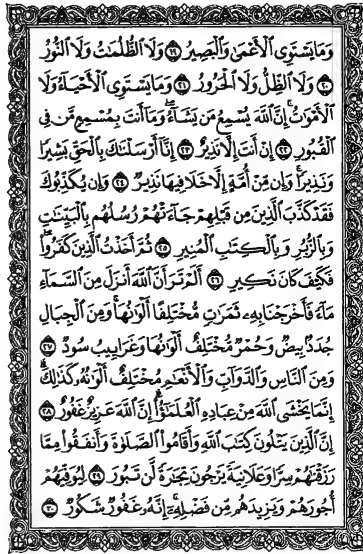
قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾.

١- الأمر باتخاذ عدوا تنبيه على استفراغ الوسع في محاربته، ومجاهدته، كأنه عدو لا يفتر ولا يقصر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس. (زاد المعاد ٦/٣).

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّبُهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (١٥).

٢- هذا الخطاب بالفقر إليه للأرواح والأبدان ليس هو للأبدان فقط، وهذا الغنى التام لله وحده لا يشركه فيه أحد. (الروح ١).

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ (١٩) وَلَا الظُّلُمْتُ وَلَا النُّورُ (٢٠) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ (٢٢).

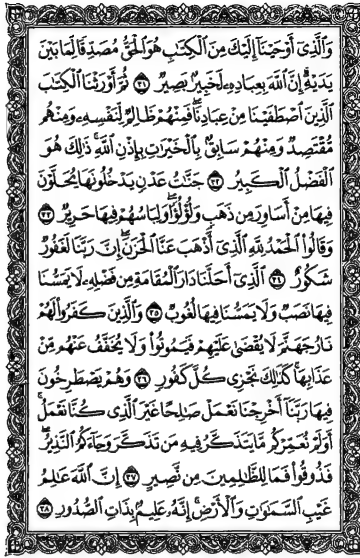


٣- جعل من اهتدى بهداه واستنار بنوره بصيرا حيا في ظل يقيه من حر الشبهات والضلال والبدع والشرك مستنيرا بنوره والآخر أعمى ميتا في حر الكفر والشرك والضلال منغمسا في الظلمات. (اجتماع الجيوش الإسلامية ٢٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

٤- يقتضي الحصر من الطرفين أن لا يخشاه إلا العلماء ولا يكون عالما إلا من يخشاه، فلا يخشاه إلا

عالم، وما من عالم إلا وهو يخشاه، فإذا انتفى العلم انتفت الخشية، وإذا انتفت الخشية دلت على انتفاء العلم.



٥- ومقام الخشية جامع لمقام المعرفة بالله، والمعرفة بحق عبوديته، فمتى عرف الله وعرف حقه اشتدت خشيته له، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨]. فالعلماء به وبأمره هم أهل خشيته، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً». (مدارج السالكين ١/ ١٣٦-١٣٧).

📖 قوله تعالى: ﴿ أَوْ لَعَنَ نَعْمَ رَبُّكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكَّرٍ ﴾.

٦- من لم يورثه التعمير وطول البقاء إصلاح

معائبه وتدارك فارطه واغتنام بقية أنفاسه، فيعمل على حياة قلبه وحصول النعيم المقيم، وإلا فلا خير له في حياته، فإن العبد على جناح سفر: إما إلى الجنة، وإما إلى النار، فإذا طال عمره وحسن عمله كان طول سفره زيادة له في حصول النعيم واللذة، فإنه كلما طال السفر أيها كانت الصبابة أجل وأفضل، وإذا طال عمره وساء عمله كان طول سفره زيادة في ألمه وعذابه ونزولاً له إلى أسفل فالمسافر إما صاعد وإما نازل وفي الحديث المرفوع: خيركم من طال عمره وحسن عمله، وشركم من طال عمره وقبح عمله. (الفوائد ١٨٩).

📖 قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٤١).

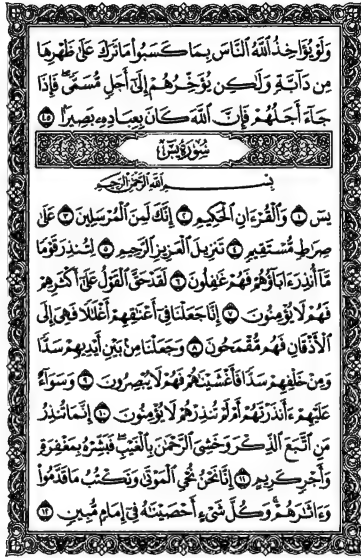
٧- في الآية إشعار بأن السماوات والأرض تهم وتستأذن بالزوال لعظم ما يأتي به العباد، فيمسكها بحلمه ومغفرته، وذلك حبس عقوبته عنهم وهو حقيقة صبره تعالى،

فالذي عنه الإمساك هو صفة الحلم، والإمساك هو الصبر وهو حبس العقوبة، ففرق بين حبس العقوبة وبين ما صدر عنه حبسها، فتأمله. (عدة الصابرين ٢٧٧-٢٧٨).



هُوَ الَّذِي جَعَلَ عَيْنَيْكَ فِي الْأَرْضِ فَصَبْرٌ عَلَيْهِ كَثِيرٌ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مُتَمَرِّدِينَ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٥٠﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ لَهُمْ ثَنَاتٌ فَأَنْهَضُوا عَلَيَّ يَتَنَبَّأُونَ بِلِقَاءِ رَبِّكَ الْفَلَّاحِينَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا الْإِغْوَاءُ ﴿٥١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُنْسِفُ السَّمَكِينَ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَ وَلَئِنْ رَأَيْتَ أَنَّ امْسَكَهَا مِنْ أَحْوَرٍ مَعْدِيهِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا عَفُوًّا ﴿٥٢﴾ وَأَنْتُمْ بِاللَّهِ جَاهِلُونَ لَكُمْ جَاهِلُكُمْ تَذِيرٌ لَكُمْ أَنْ تُهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمُورِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ تَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا بُغْوًَّا ﴿٥٣﴾ أَنْتُمْ كَذِبٌ فِي الْأَرْضِ وَمَكْرُ السَّيِّئِ وَلَا يَجِئُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَوْبَةً وَلَا تَجِدَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَحِيلاً ﴿٥٤﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَكِينَ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٥٥﴾

سورة يس



📖 قوله تعالى: ﴿يَس ١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾.

١- الصحيح أن ﴿يَس﴾ بمنزلة ﴿حَم﴾ و﴿وَالْعَمَّ﴾ ليست أسماء من أسماء النبي، وأقسم سبحانه بكتابه على صدق رسوله وصحة نبوته ورسالته، فتأمل قدر المقسم به والمقسم عليه.

٢- فأخبر سبحانه عن الموانع التي منعهم بها من الإيمان عقوبة لهم ومثلها بأحسن تمثيل وأبلغه

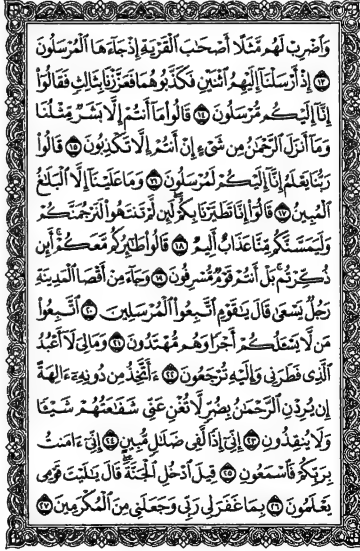
وذلك حال قوم قد وضعت الأغلال العريضة الواصلة إلى الأذقان في أعناقهم وضمت أيديهم إليها وجعلوا بين السدين لا يستطيعون النفوذ من بينهما وأغشيت أبصارهم فهم لا يرون شيئاً.

وإذا تأملت حال الكافر الذي عرف الحق وتبين له، ثم جحده وكفر به وعاداه أعظم معاداة وجدت هذا المثل مطابقاً له أتم مطابقة، وأنه قد حيل بينه وبين الإيمان كما حيل بين هذا وبين التصرف، والله المستعان.

📖 قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ١٢﴾.

٣- فإن قلت: قد استفيد هذا من قوله ﴿قَدَّمُوا﴾ فما أفاد قوله: ﴿وَأَثَرَهُمْ﴾ على قوله؟ قلت: أفاد فائدة جلييلة، وهو أنه سبحانه يكتب ما عملوه وما تولد من

أعمالهم، فيكون المتولد عنها كأنهم عملوه في الخير والشر وهو أثر أعمالهم، فآثارهم هي آثار أعمالهم المتولدة عنها، وهذا القول أعم من قول مقاتل، وكأن مقاتلا أراد التمثيل والبيان على عادة السلف في تفسير اللفظة العامة بنوع، أو فرد من أفراد مدلولها تقريبا وتمثيلا لا حصرا وإحاطة.



قوله تعالى: ﴿قَالَ يَقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ

٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ

٢١﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ

٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِن يَرِدْني الرَّحْمَنُ

بِضُرٍّ لَّا تُغْنِي عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ

٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾

٤- نبه على موجب الاتباع وهو كون المتبوع

رسولا لمن لا ينبغي أن يخالف ولا يعصى، وأنه على

هداية ونبه على انتفاء المانع وهو عدم سؤال الأجر، فلا يريد منكم دنيا ولا رئاسة،

فموجب الاتباع كونه مهتديا، والمانع منه متنفذ، وهو طلب العلو في الأرض والفساد

وطلب الأجر.

ثم قال: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾

أخرج الحجة عليهم في معرض المخاطبة لنفسه تأليفا لهم، ونبه على أن عبادة

العبد لمن فطره أمر واجب في العقول مستهجن تركها قبيح الإخلال بها، فإن خلقه لعبده

أصل إنعامه عليه ونعمة كلها بعد تابعة لإيجاده وخلقها وقد جبل الله العقول والفطر

على شكر المنعم ومحبة المحسن ولا يلتفت إلى ما يقوله نفاة التحسين والتقبيح في

ذلك، فإنه من أفسد الأقوال وأبطلها في العقول والفطر والشرائع. (الصواعق المرسلة ٢/ ٤٩٤-٤٩٧).



قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَنُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۝ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ ٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝ ٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ ۝ ٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ

أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝ ٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝ ٨٢﴾ فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ ٨٣﴾

تضمنت هذه الآيات عشرة أدلة:

٥ - أحدها قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَنُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ [يس: ٧٧]. فذكره مبدأ خلقه ليدله به على النشأة الثانية.

٦ - ثم أخبر أن هذا الجاحد لو ذكر خلقه لما ضرب المثل، بل لما نسي خلقه ضرب المثل؛ فتحت قوله: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ [يس: ٧٨] ألطف جواب وأبين دليل، وهذا كما تقول لمن جحدك أن تكون قد أعطيته شيئاً: فلان جحدني بالإحسان إليه، ونسي الثياب التي عليه، والمال الذي معه، والدار التي هو فيها. حيث لا يمكنه جحد أن يكون ذلك منك.

٧ - ثم أجيب عن سؤاله بما يتضمن أبلف الدليل على ثبوت ما جحده فقال:

هذا الخلق العظيم الذي هو أكبر من خلق الناس كيف تعجز عن إحيائهم بعد موتهم؟

١١- ثم قرر هذا المعنى بذكر وصفين من أوصافه مستلزمين لما أخبر به، فقال:

﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]، فكونه خلاقا عليمًا يقتضي أن يخلق ما يشاء، ولا يعجزه ما أَرَادَهُ من الخلق.



١٢- ثم قرر هذا المعنى بأن عموم إرادته وكمالها

لا يقصر عنه ولا عن شيء أبداً، فقال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. فلا يمكنه الاستعصاء عليه، ولا يتعذر عليه، بل يأتي طائعا منقادا لمشيئته وإرادته.

١٣- ثم زاده تأكيدا وإيضاحا بقوله: ﴿فَسُبْحَانَ

الَّذِي يَدْرِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يس: ٨٣]. فنزه نفسه عما نطق به أعداؤه المنكرون للمعاد معظما لها بأن ملك

كل شيء بيده يتصرف فيه تصرف المالك الحق في مملوكه الذي لا يمكنه الامتناع عن أي تصرف شاء فيه.

١٤- ثم ختم السورة بقوله: ﴿وَالِيَهُ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣]. كما أنهم ابتداءً منه هو

فكذلك مرجعهم إليه، فمنه المبدأ وإليه المعاد، وهو الأول والآخر؟ وأن إلى ربك المنتهى. (إعلام الموقعين ١/ ١٨٩-١٩١).

فلو رام أعلم البشر وأفصحهم وأقدرهم على البيان أن يأتي بأحسن من هذه الحجة أو بمثلها في ألفاظ تشابه هذه الألفاظ في الإيجاز والاختصار ووضوح الدلالة وصحة البرهان، لألفى نفسه ظاهر العجز منقطع الطمع يستحي الناس من ذلك، فإنه سبحانه

افتتح هذه الحجة بسؤال أورده الملحد اقتضى جوابا، فكان في قوله سبحانه: ﴿وَنَسِيَ



خَلَقَهُ، ﴿مَا وَفَىٰ بِالْجَوَابِ وَأَقَامَ الْحُجَّةَ وَأَزَالَ الشُّبْهَةَ، لولا ما أراد سبحانه من تأكيد حجته وزيادة تقريرها، وذلك أنه سبحانه أخبر أن هذا الملحد السائل عن هذه المسألة لو لم ينس خلق نفسه وبدأ كونه وذكر خلقه، لكانت فكرته فيه كافية في جوابه مسكته له عن هذا السؤال، ثم أوضح سبحانه ما تضمنه قوله: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ وصرح به جوابا له عن مسألته فقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩].

فاحتج بالإبداء على الإعادة وبالنشأة الأولى

على النشأة الأخرى إذ كل عاقل يعلم علما ضروريا أن من قدر على هذه قدر على هذه، وأنه لو كان عاجزا عن الثانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز.

ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من الشيء الأجل الأعظم على الأيسر الأصغر، وأن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل، فهو على ما دونه بكثير أقدر وأقدر.

فمن قدر على حمل قطار، فهو على حمل أوقية أشد اقتدارا، فقال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: ٨١].



سورة الصافات



قوله تعالى: ﴿وَالصَّفَّاتِ صَفًا ۝١﴾ فَأَلْزَجَتْ زَحْرًا ۝٢﴾ فَأَلْتَلَيْتِ ذُكُرَ ۝٣﴾ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ۝٥﴾.

١- خص المشارق ها هنا بالذكر إما لدلالاتها على المغارب إذ الأمر أن المتضايغان كل منهما يستلزم الآخر، وإما لكون المشارق مطلع الكواكب ومظاهر الأنوار، وإما توطئة لما ذكر بعدها من تزيين السماء بزينة الكواكب وجعلها حفظاً من كل شيطان،

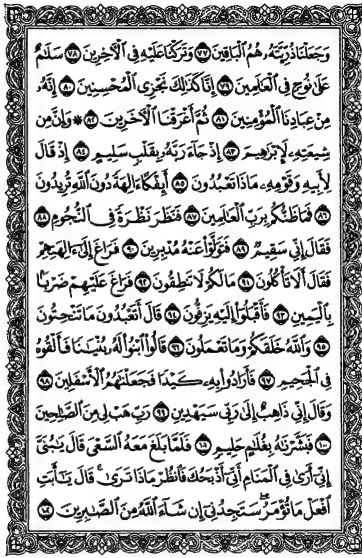
فذكر المشارق أنسب بهذا المعنى وأليق، والله تعالى أعلم. (التبيان في أقسام القرآن ٤٢٧ - ٤٢٨).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيْنًا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾.

٢- جعل المصباح زينة لظواهرها ولباطنها بالحراسة من الشياطين، فهي زينة الظاهر والباطن. (الصواعق المرسله ٤ / ١٣٧٧).

قوله تعالى: ﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ۝٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ۝٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۝٦٤﴾.

٣- إنما دلنا الله تعالى على الغائب عنده بالحاضر عندنا، فالأسماء متفقة الدلالة، والمعاني مختلفة، وما في الجنة من ثمرها وفرشها وشجرها وجميع آلاتها على مثل ذلك. والمقصود: أن هذه الشجرة فتنة لهم في الدنيا، بتكذيبهم بها، وفتنة لهم في الآخرة بأكلهم منها. (إغاثة اللهنان ٢ / ١٦٣).



قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٦١).

٤- إذا تقرر هذا فالله سبحانه أنكر عليهم عبادتهم الأصنام وبين أنها لا تستحق العبادة، ولم يكن سياق الكلام في معرض الإنكار عليهم ترك عبادته، وأن ما هو في معرض الإنكار عبادة من لا يستحق العبادة، فلو أنه قال: (لا تعبدون الله وقد خلقكم وما تعملون)، لتعينت المصدرية قطعاً، ولم يحسن أن يكون بمعنى (الذي)، إذ يكون المعنى: كيف لا تعبدونه وهو الذي أوجدكم وأوجد أعمالكم؟ فهو المنعم عليكم بنوعي

الإيجاد والخلق، فهذا وزان ما قرروه من كونها مصدرية، فأما سياق الآية فإنه في معرض إنكاره عليهم عبادة من لا يستحق العبادة، فلا بد أن يبين فيه معنى ينافي كونه معبوداً، فبين هذا المعنى بكونه مخلوقاً له، ومن كان مخلوقاً من بعض مخلوقاته، فإنه لا ينبغي أن يعبد، ولا تليق به العبادة، وتأمل مطابقة هذا المعنى لقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (٢٠). كيف أنكر عليهم عبادة آلهة مخلوقة له سبحانه وهي غير خالقة؟

فهذا يبين المراد من قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٦١) ونظيره قوله في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ نَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ﴾، أي: هم عباد مخلوقون كما أنتم كذلك فكيف تعبدون المخلوق؟! (بدائع الفوائد ١/ ١٤٦-١٥٣).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣١) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠).

٥- فقارع فكان من المغلولين. فهذان نبيان كريمان استعملا القرعة، وقد احتج

الأئمة الأربعة بشرع من قبلنا إن صح ذلك عنهم. (الطرق

الحكمية ٢٩٤).

قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (١٥٩) إِلَّا

عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾.

٦- فتره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عما يصفه به كل أحد إلا

المخلصين من عباده وهم الرسل ومن أتبعهم. (جلاء

الافهام ٩١).



سورة ص

قوله تعالى: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ ١.

١- إن في المقسم به من تعظيم القرآن ووصفه بأنه ذي الذكر المتضمن لتذكير العباد ما يحتاجون إليه، وللشرف والقدر ما يدل على المقسم عليه وكونه حقاً من عند الله غير مفترى كما يقوله الكافرون، وهذا معنى قول كثير من المفسرين متقدميهم ومتأخريهم إن الجواب محذوف تقديره: (إن القرآن لحق)، وهذا مطرد في كل ما شأنه ذلك. (التبيان في أقسام القرآن ١٠/١٣).

قوله تعالى: ﴿أَجْعَلِ لِلَّهِ إِلَهًا وَاحِدًا﴾.

٢- تأمل ما اشتملت عليه سورة (ص) من الخصومات المتعددة:

* فأولها: خصومة الكفار مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿أَجْعَلِ لِلَّهِ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ إلى آخر كلامهم.

* ثم اختصام الخصمين عند داود.

* ثم تخاصم أهل النار.

* ثم اختصم الملائكة في العلم وهو الدرجات والكفارات.

* ثم مخاصمة إبليس واعتراضه على ربه في أمره بالسجود لآدم.

* ثم خصامه ثانياً في شأن بنيه حلفه ليغوينهم أجمعين إلا أهل الإخلاص منهم.

فليتأمل اللبيب الفطن: هل يليق بهذه السورة غير (ص) وبسورة (ق) غير حرفها؟



وهذه قطرة من بحر من بعض أسرار هذه الحروف، والله أعلم. (بدائع الفوائد ٣/ ١٧٤).

قوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ، ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ، عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَعَابٍ﴾ (٢٥).

أَضْرَبَ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَكْثَرُ عِنْدَنَا أَنَّهُ كَانَ الْوَيْلُ لِقَوْمٍ إِذَا
سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُمْ لَيَسِيحْنَ بِالْعُنُقِ وَالْأَشْرَاقِ وَالْكَافِرِ
مَحْشُورَةً عَلَى آلِهِ وَأَوَّاتٍ * وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ
وَفَضَّلْنَا الْخَطَّابِ * وَهَلْ أَتَاكَ نَتَقُ الْقَنَاصِمِ إِذْ تَسْرِوْا
الْيَحْرَابَ إِذْ كَانُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَرَّجَ مِنْهُمُ قَالُوا لَا تَخَفْ
خَضَمَانِ بَنَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَتَى كُرَيْتًا بِالْحَقِّ وَلَا تَقْطِطْ
وَأَهْدَأْنَا إِلَى سَوَاءٍ الْفَرِيطِ * إِذَا هَذَا إِلَى الْفَرِيقِ وَتَسْمَعُونَ نَجْمَةً
وَلَيْ نَجْمَةً وَجِدَّةً فَقَالَ أَكْفَلْتُمَهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ * قَالَ
لَقَدْ عَلِمْتُمْ لِيُسْأَلُ فَنَجَّيْتُكَ إِلَى يَعْجَازٍ وَلَا كَيْفَ رَأَيْتُ الْقَطْلَةَ لَيْسَ
بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَكَلِمٌ
مَامُورٌ وَلَقَدْ دَاوُدَ الصَّادِقَةَ فَاسْتَغْفِرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ *
﴿فَغَفَرْنَا لَهُ، ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ، عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَعَابٍ﴾
يَدَاوُدُ إِذَا جَعَلْتَكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَأَتَى كُرَيْتَ الْكَافِرِ بِالْحَقِّ
وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ تُنْفَخُ الْأَنْسَابُ

٣- زاده على المغفرة أمرين: الزلفى وهي درجة القرب منه، وقد قال فيها سلف الأمة وأئمتها ما لا تحتمله عقول الجهمية وفراخهم، ومن أراد معرفتها فعليه بتفاسير السلف. والثاني: حسن المآب وهو حسن المنقلب وطيب المأوى عند الله. قالوا: ومن تأمل زيادة القرب التي أعطاها داود بعد المغفرة، علم صحة ما قلنا، وأن العبد بعد التوبة يعود خيرا مما كان. (طريق الهجرتين ٢١٧).

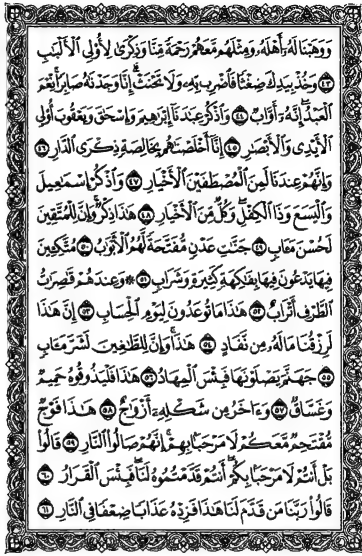
قوله تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي

الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ تُنْفَخُ الْأَنْسَابُ﴾ (٢٦).

٤- قسم سبحانه طريق الحكم بين الناس إلى الحق، وهو الوحي الذي أنزله الله على رسوله، وإلى الهوى وهو ما خالفه. (إعلام الموقعين ١/ ٨١).

قوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ (٢٨).

٥- دل على أن هذا حكم سيئ قبيح ينزه الله عنه، ولم ينكره سبحانه من جهة أنه أخبر بأنه لا يكون وإنما أنكره من جهة قبحه في نفسه، وإنه حكم سيئ يتعالى ويتنزه عنه لمنافاته لحكمته وغناه وكماله ووقوع أفعاله كلها على السداد والصواب والحكمة،



فلا يليق به أن يجعل البر كالفاجر، ولا المحسن كالمسيء، ولا المؤمن كالمفسد في الأرض، فدل على أن هذا قبيح في نفسه، تعالى الله عن فعله. (مفتاح دار السعادة ٣٣٨-٣٣٩).

وهذا استفهام إنكار، فدل على أن هذا قبيح في نفسه، منكر تنكره العقول والفطر. (مدارج السالكين ٢٣٨/١).

قوله تعالى: ﴿وَحُذِّبِيكَ ضِعْفًا فَأَصْرَبَ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾.

٦- هذه الجملة خرجت مخرج التعليل كما في نظائرها، فعلم أن الله سبحانه وتعالى إنما افتاه بهذا جزاء له على صبره، وتخفيفا عن امرأته، ورحمة بها. (إعلام الموقعين ٣/ ٢٧٠-٢٧١).

قوله تعالى: ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ مُمْنَعَةٍ لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ٥٠﴾ مُتَكَبِّرِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ٥١﴾.

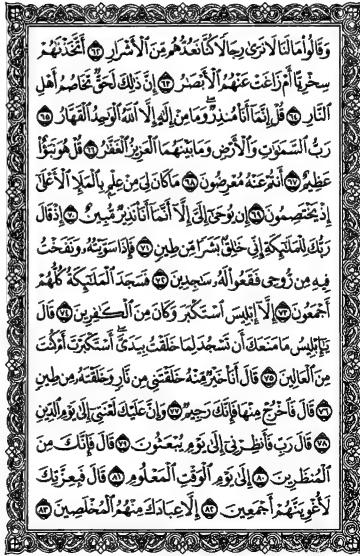
٧- كيف تجد تحته معنى بديعا: وهو أنهم إذا دخلوا الجنة لم تغلق أبوابها عليهم، بل تبقى مفتحة كما هي. وأما النار فإذا دخلها أهلها أغلقت عليهم أبوابها كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ٨﴾، أي: مطبقة. ومنه سمي الباب وصيدا، وهي موصدة في عمد ممددة، قد جعلت العمدة ممسكة للأبواب من خلفها كالحجر العظيم الذي يجعل خلف الباب.

٨- وأيضا فإن في تفتيح الأبواب لهم إشارة إلى تصرفهم وذهابهم وإياهم وتبوءهم في الجنة حيث شاءوا ودخول الملائكة عليهم كل وقت بالتحف والألطف من ربهم

ودخول ما يسرهم عليهم كل وقت.

٩- وأيضا إشارة إلى أنها دار أمن لا يحتاجون فيها إلى غلق الأبواب كما كانوا يحتجون إلى ذلك في الدنيا. (حادي الأرواح ٥٤).

﴿قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيدَيَّ﴾﴾



١٠- هذا كلام ورد في معرض التوبيخ والتبكيك للعين على امتناعه من السجود ولم يستحق هذا التبكيك والتوبيخ حيث كان السجود لمن يعقل، ولكن للمعصية والتكبر على ما لم يخلقه إذ لا ينبغي التكبر لمخلوق على مثله إنما التكبر للخالق وحده، فكأنه يقول سبحانه: لِمَ عصيتني وتكبرت على ما لم تخلقه وخلقته أنا وشرفته وأمرتك بالسجود له؟

١١- فهذا موضع (ما)؛ لأن معناها أبلغ ولفظها أعم وهو في الحجة أوقع وللعذر والشبهة أقطع فلو

قال: ما منعك أن تسجد لمن خلقت؟ لكان استفهاما مجردا من توبيخ وتبكيك، ولتوهم أنه وجب السجود له من حيث كان يعقل، ولعله موجود في ذاته وعينه وليس المراد كذلك، وإنما المراد توبيخه وتبكيته على ترك سجوده لما خلق الله وأمره بالسجود له.

ولهذا عدل عن اسم آدم العلم مع كونه أخص وأتى بالاسم الموصول الدال على جهة التشريف المقتضية لسجوده له كونه خلقه بيديه وأنت لو وضعت مكان (ما) لفظة (من) لما رأيت هذا المعنى المذكور في الصلاة، وأن ما جيء بها وصلة إلى ذكر الصلاة، فتأمل ذلك، فلا معنى إذا للتعين بالذكر، إذ لو أريد التعيين لكان بالاسم العلم أولى وأحرى. (بدائع الفوائد ١/١٣٢).

سورة الزمر

قوله تعالى: ﴿ مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾.

١- فهم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه غيره، فلم يتنف عنهم الفعل لوقوعه منهم ونفي الوصف؛ لأن من عبد غير الله لم يكن ثابتاً على عبادة الله موصوفاً بها، فتأمل هذه النكتة البديعة كيف تجد في طيها أنه لا يوصف بأنه عابد الله وعبده المستقيم على عبادته إلا من انقطع إليه بكليته وتبتل إليه تبتلاً لم يلتفت إلى غيره لم يشرك به أحداً في عبادته، وأنه وإن عبده وأشرك به غيره فليس عابداً لله ولا عبداً له، وهذا من أسرار هذه السورة العظيمة الجليلة التي هي إحدى سورتي الإخلاص التي تعدل ربع القرآن كما جاء في بعض السنن، وهذا لا يفهمه كل أحد ولا يدركه إلا من منحه الله فهماً من عنده، فله الحمد والمنة. (بدائع الفوائد ١/ ١٣٧).



قوله تعالى: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادَ ۖ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ ﴾.

٢- مدحهم باستماع القول واتباع أحسنه، ومن المعلوم أن كثيراً من القول، بل أكثره ليس فيه حُسنٌ، فضلاً عن أن يكون أحسن، بل غالب القول يكُبُّ قائله في النار على مَنْخَرِه.

٣- إنه سبحانه علّق الهداية على اتباع أحسن هذا القول، فقال: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادَ ۖ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْأَوَّلُونَ ﴾ [الزمر: ١٧ - ١٨]. ومن المعلوم بالاضطرار أن الهداية إنما حصلت لمن اتبع

القرآن، فهو الذي هداه الله، فأين الهدى في أقوال المغنين والمغنيات؟

📖 قوله تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۖ﴾.

وَبَايَعُوا سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ تَأْكُلُ أُولَئِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٥﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِسْمَ مَضْرُوبًا إِذَا جَاءَهُ
يَغْمُزُ وَأَنَا قَالَ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ عَلَّمَ بِلِسَانٍ يَفْتَقِرُ وَلَكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ هُمْ
أَتَقَىٰ عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا وَكَسَبُوا سَيِّئَاتٍ ﴿١٧﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ
مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيَّيْبُهُمْ سَيِّئَاتُ
مَا كَسَبُوا وَمَا لَهُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٨﴾ أُولَئِكَ ظَلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَنْصَرِفُ
أَلَّا يُرَاقَىٰ لِمَنِ نَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ
﴿١٩﴾ قُلْ يَحْيَايَ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَّ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا
مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ
الْعَفُوفُ الرَّحِيمُ ﴿٢٠﴾ وَلَيُبَيِّنَ إِلَىٰ رِزْقِهِمْ وَأَسْبَابِهَا لَهُمْ
قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ فَرُغُوا مِنْهُمْ ﴿٢١﴾ وَلَيُبَيِّنَ لَهُمْ
مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رِزْقِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ
بِقِتَّةٍ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢٢﴾ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَنْصَرِفُ
عَلَّ مَا قَرَأْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ الْتَائِبِينَ ﴿٢٣﴾

٤- هي في حق التائب، لأنه أطلق وعمم، فلم يخصصها بأحد، ولم يقيدھا بذنْب، ومن المعلوم بالضرورة أن الكفر لا يغفره، وكثير من الذنوب لا يغفرها، فعلم أن هذا الإطلاق والتعميم في حق التائب، فكل من تاب من، أي: ذنب كان غفر له. (مدارج السالكين ١/ ٣٢٦).

فلا يخرج من هذا العموم ذنب واحد، ولكن هذا في حق التائبين خاصة. (الجواب الكافي ٢٥٠).

📖 قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ﴾.

٥- هذا الذي وصف به نفسه ها هنا يتضمن من اقتداره على تغيير العالم وتبديله ما يبطل قول أعدائه الملاحدة المكذبين بالمبدأ والمعاد أئمة هؤلاء المعارضين للوحي بالعقل والرأي. (الصواعق المرسله ٤/ ١٣٦٣).

📖 قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا ۖ﴾.

٦- سر حذف الواو في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا ۖ﴾ ففاجأهم وبغتهم عذابها وما أعد الله تعالى فيها فهم بمنزلة من وقف على باب لا يدري بما يفتح له من أنواع الشر إلا أنه متوقع منه شرا عظيما

ففتح في وجهه وفاجأه ما كان يتوقعه.

وهذا كما تجد في الدنيا من يساق إلى السجن، فإنه يساق إليه وبابه مغلق حتى إذا جاءه فتح الباب في وجهه ففاجأته روعته وألمه بخلاف ما لو فتح له قبل مجيئه.

وهذا بخلاف أهل الجنة فإنهم لما كانوا مساقين إلى دار الكرامة، وكان من تمام إكرام المدعو الزائر أن يفتح له باب الدار فيجيء فيلقاه مفتوحا، فلا يلحقه ألم الانتظار، فقال في أهل الجنة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا

جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ وحذف الجواب تفخيما لأمره وتعظيما لشأنه على عاداتهم في حذف الجوابات لهذا المقصد وهذه الطريقة تريحك من دعوى زيادة الواو، ومن دعوى كونها واو الثمانية؛ لأن أبواب الجنة ثمانية، فإن هذا لو صح فإنما يكون إذا كانت الثمانية منسوقة في اللفظ واحدا بعد واحد فينتهون إلى السبعة، ثم يستأنفون العدد من الثمانية بالواو، وهنا لا ذكر للفظ الثمانية في الآية ولا عدها، فتأمل.

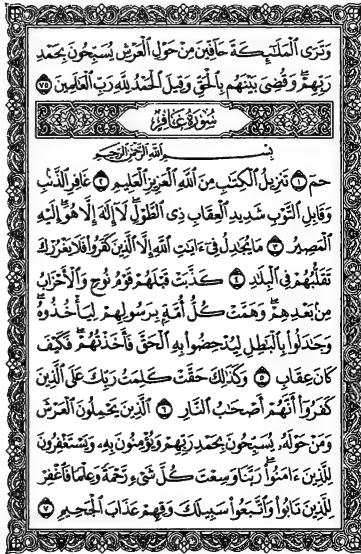
قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ خَزَنَتُهَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ طَبَعَتْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

٧- قال خزنة أهل الجنة لأهلها: ﴿سَلَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ فبدءوهم بالسلام المتضمن للسلامة من كل شر ومكروه، أي: سلمتم فلا يلحقكم بعد اليوم ما تكرهون، ثم قال لهم: ﴿طَبَعَتْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾، أي: سلامتكم ودخولها بطيبيكم، فإن الله حرمها إلا على الطيبين، فبشروهم بالسلامة والطيب والدخول والخلود.

وَيُفْتَحُ فِي الصُّبْحِ فَتُصَوِّقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ
إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ فَيُفْتَحُ فِيهِ الْخُرْقَىٰ فَإِذَا هُمْ فِيهَا يُعْطَوْنَ
﴿٥٠﴾ وَأُتْرَقَ الْأَرْضُ بِثَوْبِهَا وَوُضِعَ الْمَكْتُوبُ وَجَاهَةً
يَالَيْسَ وَاللَّهِ هَذَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَوُضِعَ الْمَكْتُوبُ
﴿٥١﴾ وَوُضِعَتْ عَلَىٰ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهِيَ أَعْلَمُ بِمَا فَعَلَتْ
وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا
فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ رَسُولٌ
يَأْتِيكُمْ عَلَيْكُمْ ءَاتٍ زَيْدٌ وَرُؤُسُكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ
هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ
﴿٥٢﴾ فَيَدْخُلُونَ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَيُفْتَحُ مَتْنُ
الْمَكْتُوبِ ﴿٥٣﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ
زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا
سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طَبَعَتْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٥٤﴾ وَقَالُوا
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَ وَعْدُهُ وَأَوْفَىٰ نِعْمَتَهُ
نَسْتَبْرَأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ نُنْشَأَ فَيُنْفِخَ بَنُورَ الْمَسِيلِينَ ﴿٥٥﴾

٨- وتأمل قول خزنة الجنة لأهلها: ﴿فَادْخُلُوهَا﴾ وقول خزنة النار لأهلها: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ تجد تحته سرا لطيفا ومعنى بديعا لا يخفى على المتأمل: وهو أنها لما كانت دار العقوبة وأبوابها أفتح شيء وأشد حرا وأعظمه عما يستقبل فيها الداخل من العذاب ما هو أشد منها ويدنوا من الغم والحزن والكرب بدخول الأبواب، فقل: ادخلوا أبوابها؛ صغارا لهم وإذلالا وخزيا، ثم قيل لهم لا يقتصر بكم على مجرد دخول الأبواب الفظيعة، ولكن وراءها الخلود في النار. وأما الجنة فهي دار الكرامة والمنزل الذي أعده الله لأوليائه، فبشروا من أول وهلة بالدخول إلى المقاعد والمنازل والخلود فيها. (حادي الأرواح ٥١-٥٤).

قوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمَلَكَةَ حَافِيَةً مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.



٩- حذف فاعل القول لأنه غير معين، بل كل أحد يحمده على ذلك الحكم الذي حكم فيه فيحمده أهل السماوات وأهل الأرض والأبرار والفجار والإنس والجن حتى أهل النار. قال الحسن أو غيره: لقد دخلوا النار وإن حمده لفي قلوبهم ما وجدوا عليه سبيلا. وهذا والله أعلم هو السر الذي حذف لأجله الفاعل في قوله: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ وقوله: ﴿وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾

كأن الكون كله نطق بذلك وقاله لهم، والله تعالى أعلم بالصواب. (روضة المحبين ٧٤-٧٥).

سورة غافر

قوله تعالى: ﴿حَمَّ ۝١ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ۝﴾.

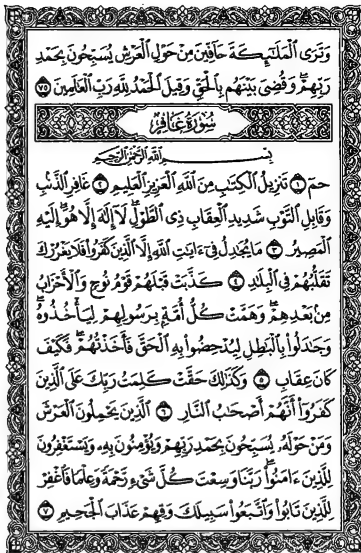


١- أتى بالواو في الوصفين الأولين وحذفها في الوصفين الآخرين؛ لأن غفران الذنب وقبول التوب قد يظن أنهما يجريان مجرى الوصف الواحد لتلازمهما، فمن غفر الذنب قبل التوب، فكان في عطف أحدهما على الآخر ما يدل على أنهما صفتان وفعالان متغايران ومفهومان مختلفان لكل منهما حكمه: أحدهما: يتعلق بالإساءة والإعراض وهو المغفرة. والثاني: يتعلق بالإحسان والإقبال على الله تعالى والرجوع إليه وهو التوبة، فتقبل هذه الحسنة وتغفر تلك السيئة.

وحسن العطف ها هنا هذا التغاير الظاهر، وكلما كان التغاير أبين كان العطف أحسن، ولهذا جاء العطف في قوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۝﴾، وترك في قوله: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ ۝﴾ وقوله: ﴿الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۝﴾.

٢- وأما: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ۝﴾ فترك العطف بينهما لنكتة بديعة: وهي الدلالة على اجتماع هذين الأمرين في ذاته سبحانه، وأنه حال كونه شديد العقاب، فهو ذو الطول وطوله لا ينافي شدة عقابه، بل هما مجتمعان له بخلاف الأول والآخر، فإن الأولية لا تجامع الآخيرية، ولهذا فسرهما النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء»، فأوليته أزليته وآخريته أبديته. (بدائع الفوائد ٣/ ٥٢-٥٣).

٣- تأمل كيف وقع الوصف بشديد العقاب بين صفة رحمة قبله وصفة رحمة بعده، فقبله ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾، وبعده ﴿ ذِي الطَّلَوِّ ﴾ ففي هذا تصديق الحديث الصحيح وشاهد له وهو قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا، فَهُوَ موضوع عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي» (رواه البخاري ومسلم)، وفي لفظ: «سبقت غضبي». وقد سبقت صفة الرحمة هنا وغلبت، وتأمل كيف افتتح الآية بقوله: ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ﴾ والتنزيل يستلزم علو المنزل من عنده لا تعقل العرب من لغتها، بل ولا غيرها من الأمم السليمة الفطرة إلا ذلك، وقد أخبر أن تنزيل الكتاب منه، فهذا يدل على شيئين: أحدهما علوه تعالى على خلقه، والثاني أنه هو المتكلم بالكتاب المنزل من عنده لا غيره. فإنه أخبر أنه منه وهذا يقتضي أن يكون منه قولاً كما أنه منه تنزيلاً، فإن غيره لو كان هو المتكلم به لكان الكتاب من ذلك الغير، فإن الكلام فإنما يضاف إلى المتكلم به ومثل هذا ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي ﴾ ومثله: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ ﴾ ومثله: ﴿ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ فاستمسك بحرف (من) في هذه المواضع، فإنه يقطع حجج شعب المعتزلة والجهمية.

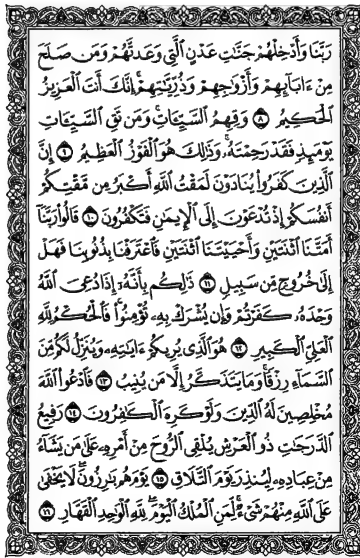


٤- وتأمل كيف قال: ﴿ تَنْزِيلٌ مِّنْ ﴾ ولم يقل: (تنزيله). فتضمنت الآية إثبات علوه ومكانه وثبوت الرسالة.

قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾.

٥- هو سبحانه يقرن بين سعة العلم والرحمة كما يقرن بين العلم والحلم.

فاقتران العفو بالقدرة كاقتران الحلم والرحمة بالعلم؛ لأن العفو إنما يحسن عند القدرة، وكذلك الحلم والرحمة إنما يحسنان مع العلم وقدم الرحيم في هذا الموضع لتقدم صف، ثم ختم الآية بذكر صفة المغفرة لتضمنها دفع الشر وتضمن ما قبلها جلب الخير، ولما كان دفع الشر مقدما على جلب الخير قدم اسم الغفور على الرحيم حيث وقع، ولما كان في هذا الموضع تعارض يقتضي تقديم اسمه الرحيم لأجل ما قبله قدم على الغفور. (بدائع الفوائد ١/ ٨٠).



📖 قوله تعالى: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

٦- قيل: وقاية السيئات نوعان:

أحدهما: وقاية فعلها بالتوفيق فلا تصدر منه.

والثاني: وقاية جزائها بالمغفرة، فلا يعاقب عليها.

فتضمنت الآية سؤال الأمرين، والظرف تقييد

للجملة الشرطية لا للجملة الطلبية.

٧- وتأمل ما تضمنه هذا الخبر عن الملائكة من مدحهم بالإيمان والعمل الصالح

والإحسان إلى المؤمنين بالاستغفار لهم، وقدموا بين يدي استغفارهم توسلهم إلى الله

تعالى بسعة علمه وسعة رحمته، فسعة علمه يتضمن علمه بذنوبهم وأسبابها وضعفهم

عن العصمة، واستيلاء عدوهم وأنفسهم وهواهم وطباعهم وما زين لهم من الدنيا

وزيبتها، وعلمه بهم إذ أنشأهم من الأرض، وإذ هم أجنة في بطون أمهاتهم، وعلمه

السابق بأنهم لا بد أن يعصوه، وأنه يحب العفو والمغفرة، وغير ذلك من سعة علمه

الذي لا يحيط به أحد سواه.

وسعة رحمته تتضمن أنه لا يهلك عليه أحد من المؤمنين به أهل توحيده ومحبته، فإنه واسع الرحمة لا يخرج عن دائرة رحمته إلا الأشقياء، ولا أشقى ممن لم تسعه رحمته التي وسعت كل شيء. (الجواب الكافي ١٦٩-١٧١).

قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ ﴿٤٦﴾.

• وَيَقُولُ مَا لِيَ أُدْعَى إِلَى النَّارِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ
 ﴿٤٦﴾ تَدْعُونَنِي لِأَعْتُرَّ بِاللهِ وَأُشْرِكُ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ
 عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ لَا جَبَمَ أَفَنَارُ
 تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ
 وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنْ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ
 ﴿٤٧﴾ فَتَسْأَلُونَ مَا أَكُلُوا لَكُمُ الْفَوْصُ أَمْ رَأَى إِلَى اللَّهِ
 إِنْ كُنْتُمْ نَصِيرِينَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اللَّهُ سَيُفْتِنُكُمْ
 مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٨﴾ فَتَقَالُ مِنْهُ النَّارُ يُعْرَضُونَ
 عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ
 فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَنْصَحُونَ فِي النَّارِ
 فَيَقُولُ الظَّالِمُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا تَسْتَغْفِرُوا لَنَا كُلَّ يَوْمٍ
 أَنْتُمْ قَاتِلُونَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٥٠﴾ قَالَ
 الَّذِينَ آمَنُوا تَسْتَغْفِرُوا لَنَا كُلَّ يَوْمٍ أَنْتُمْ قَاتِلُونَ فَاعْتَبِرُوا
 يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٥١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي النَّارِ لِيُخْرِجَنَّهُمْ
 مِنْهَا أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْهِمْ خَطْفًا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ فَيَكُونُ
 لِكُلِّ ذِي نَفْسٍ لَحْمٌ طَرْدٌ ﴿٥٢﴾

٨- هذا تنبيه على أن فرعون نفسه في الأشد من ذلك، لأنهم إنما دخلوا أشد العذاب تبعاً له، فإنه هو الذي استخفهم فأطاعوه، وغرهم فاتبعوه. ولهذا يكون يوم القيامة إمامهم وفرطهم في هذا الورد، قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٨].

والمقصود: أنهم استحقوا أشد العذاب لغلظ كفرهم، وصددهم عن سبيل الله وعقوبتهم من آمن بالله، فليس عذاب الرؤساء في النار كعذاب أتباعهم،

ولهذا كان في كتاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له رقل: «فإن توليت، فإن عليك إثم الأريسيين».

(طريق الهجرتين ٣٨٠-٣٨١).



سورة فصلت

﴿قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ﴾﴾.



١- كان اليوم نحسا عليهم لإرسال العذاب عليهم.

فسعود الأيام ونحوسها إنما هو بسعود الأعمال وموافقتها لمرضاة الرب، ونحوس الأعمال مخالفتها لما جاءت به الرسل واليوم الواحد يكون يوم سعد لطائفة ونحس لطائفة، كما كان يوم بدر يوم سعد للمؤمنين ويوم نحس على الكافرين، فما للكوكب والطالع والقرانات وهذا السعد والنحس، وكيف يستنبط علم أحكام النجوم من ذلك ولو كان المؤثر في هذا النحس هو نفس الكوكب والطالع، لكان

نحسا على العالم، فأما أن يقتضي الكوكب كونه نحسا لطائفة سعدا لطائفة، فهذا هو المحال. (مفتاح دار السعادة ٥٣٧).

﴿قوله تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾﴾ (٣٧).

٢- من تأمل هذا الموضع حق التأمل، علم أن حسن الظن بالله هو حسن العمل نفسه، فإن العبد إنما يحمله على حسن العمل ظنه بربه أن يجازيه على أعماله ويثيبه عليها ويتقبلها منه، فالذي حملة على العمل حسن الظن، فكلما حسن ظنه حسن عمله، وإلا فحسن الظن مع اتباع الهوى عجز، كما في حديث الترمذي والمسند من حديث شداد بن أوس عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله».

وبالجملة فحسن الظن إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاة. (الجواب الكافي ٢٧).

📖 قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٢١﴾ تَزْلَ مِنْ عَفْوَ رَبِّهِمْ ۖ﴾

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٢١﴾ تَزْلَ مِنْ عَفْوَ رَبِّهِمْ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَيْفَ اللَّهُ وَلِي حَكِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَدَّقُوا وَآمَنُوا بِقَوْلِهَا إِلَّا دُورَ حِطِّ عَظِيمٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا تَزْنَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٥﴾ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْبُلَّ وَالْقَهْرَ وَالشَّهْرَ وَالْقَهْرَ لَا تَسْجُدُ لِلشَّيْطَانِ وَلَا لِلْقَهْرِ وَاسْجُدْ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُ إِنْ كُنْتُمْ إِتَّعِدْتُمْ ﴿٢٦﴾ فَإِنْ اسْتَعِزَّ بِرَبِّهِ فَلْيَرْجِعْ عِنْدَ رَبِّكَ يَسْأَلُونَكَ بِالْبَلَاءِ وَالْهَارِ وَالْهَارِ وَهُمْ لَا يَسْتَمِعُونَ ﴿٢٧﴾

٣- فالملك يتولى من يناسبه بالنصح له والإرشاد والتثبيت والتعليم وإلقاء الصواب على لسانه ودفع عدوه عنه والاستغفار له إذا زل وتذكيره إذا نسي وتسليته إذا حزن وإلقاء السكينة في قلبه إذا خاف وإيقاظه للصلاة إذا نام عنها وإيعاد صاحبه بالخير وحضه على التصديق بالوعد وتحذيره من الركون إلى الدنيا وتقصير أمله وترغيبه فيما عند الله، فهو أنيسه في الوحدة ووليه ومعلمه ومثبته ومسكن

جأشه ومرغبه في الخير ومحذره من الشر يستغفر له إن أساء ويدعو له بالثبات إن أحسن وإن بات طاهرا يذكر الله بات معه في شعاره، فإن قصده عدو له بسوء وهو نائم دفعه عنه. (روضة المحبين ٢٤٦).

📖 قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۖ﴾

٤- تبليغ سنته إلى الأمة أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو؛ لأن ذلك التبليغ يفعله كثير من الناس، وأما تبليغ السنن فلا تقوم به إلا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم في أممهم، جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه.

تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ إلى قوله: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٢ - ٢٣].

فجاء التوكيد في قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦] في سياق هذا الإنكار، أي: هو وحده الذي له كمال قوة السمع وإحاطة العلم، لا كما يظن به أعداؤه الجاهلون: أنه لا يسمع إن أخفوا وأنه لا يعلم كثيرا مما يعملون، وحسن ذلك أيضا: أن المأمور به في سورة فصلت دفع إساءتهم إليه بإحسانه إليهم، وذلك أشق على النفوس من مجرد

الإعراض عنهم؛ ولهذا عقبه بقوله: ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا دُوْحَظٌ عَظِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٥].

فحسن التأكيد لحاجة المستعيز. (إغاثة اللهفان

١/ ٩٦ - ٩٧).

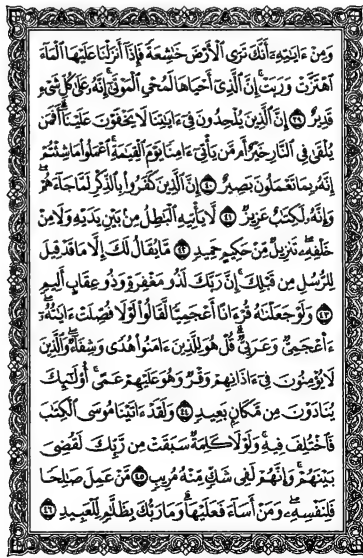
قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْزَلَتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمَجِي الْمَوْقِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٣٩﴾.

٦- دل سبحانه عباده بما أراهم من الإحياء

الذي تحققوه وشاهدوه على الإحياء الذي استبعدوه، وذلك قياس إحياء على إحياء، واعتبار الشيء بنظيره؛ والعلة الموجبة هي عموم قدرته سبحانه، وكمال حكمته؛ وإحياء الأرض دليل العلة. (إعلام الموقعين ١/ ١٨٦).

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَعْمِلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ ﴿٤١﴾ وَلَئِنْ أَدْقَنْتَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي .

٧- إذا مسه الخير نسي أن الله هو المنعم عليه المفضل بما أعطاه فبطر، وظن أنه هو المستحق لذلك، ثم أضاف إلى ذلك تكذيبه بالبعث فقال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ



قَائِمَةً ﷻ، ثم أضاف إلى ذلك ظنه الكاذب أنه إن بعث كان له عند الله الحسنى، فلم يدع هذا للجهل والغرور موضعاً. (شفاء العليل ٣٨).

﴿قوله تعالى: ﴿سَرَّيْهِمْ أَیَّتِنَا فِی الْآفَاقِ وَفِی أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ یَبَیِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ ﷻ.﴾

٨- أي إن القرآن حق، فأخبر أنه لا بد من أن يريهم من آياته المشهودة ما يبين

﴿إِلَيْهِ يَرْجِعُ السَّاعَةَ وَمَا تَخْتَرُونَ مِنْ دُمُرٍ مِنْ أَهْلِهَا وَمَا تَخْتَرُونَ مِنَ الْغَيْبِ وَلَا تَقْضِي الْأَيُّومَ بِتَأْيِيدِهِمْ أَنْ شَرَكْتُمْ بِهِ قَوْلًا أَذْكَاءَ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ مِنْ شَهِيدٍ﴾ وَصَلَّيْكُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلِ وَطَرُوا مَا الْهَرَمَ مِنْ مَجْبِصٍ لَا يَتَعَذَّرُ الْإِنْسَانُ مِنْ دَعَاؤِ الْخَيْرِ وَلَنْ تَسْأَلَ الشَّرُّ فَيُؤْتَى قَبُولٌ وَلَنْ أَذْقَنَهُ رَحْمَةً يَتَأَمَّنُ بِهَا مِنْ بَعْدِ ضَرَّةٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْخُسْرَىٰ فَلَنْ يَتَذَكَّرَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَيَذَّيْقُنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿وَلَا تَقْنَطُوا عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْعَرَضَ وَيَتَذَكَّرَ بِهِ﴾ وَلَا تَسْأَلُهُ الشُّرُكَاءُ دُعَاؤَ عَرِيضٍ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مَكْرٌ فَتَقْرَأُونَ بِهِ مِنْ أَنْصَلٍ وَمَنْ مَكْرُوفٍ يُشَاقِقُ يُعِيدُو﴾ سَرَّيْهِمْ أَیَّتِنَا فِی الْآفَاقِ وَفِی أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ یَبَیِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكُنْ بِرَبِّكَ أَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿الْأَنَّهُمْ فِی مِرْقَاتٍ لِقَاءَ رَبِّهِمْ الْآيَةُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُعِجَلٌ﴾

لهم أن آياته المتلوة حق، ثم أخبر بكفاية شهادته على صحة خبره بما أقام من الدلائل والبراهين على صدق رسوله، فأياته شاهدة بصدقه، وهو شاهد بصدق رسوله بآياته، وهو الشاهد والمشهود له، وهو الدليل والمدلول عليه، فهو الدليل بنفسه على نفسه كما قال بعض العارفين: كيف أطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء؟! فأی دليل طلبته عليه فوجده أظهر منه. ولهذا قال الرسل لقومهم: ﴿أَفِی اللَّهِ شَكٌّ﴾، فهو أعرف من كل معروف، وأبين من

كل دليل، فالأشياء عرفت به في الحقيقة وإن كان عرف بها في النظر والاستدلال بأفعاله وأحكامه عليه. (الفوائد ٢٣).



بعض وإرادة كل طائفة أن يكون العلو والظهور لها ولقولها دون غيرها، وإذا تأملت تفرق أهل البدع والضلال رأيته صادرا عن هذا بعينه.

فهكذا وارثه ينتصب للعدل بين المقالات والآراء والمذاهب ونسبته منها إلى



القدر المشترك بينهما من الحق، فهو أولى به وبتقريره وبالحكم لمن خاصم به، ثم أمره أن يخبرهم بأن الرب المعبود واحد، فما الحامل للتفرق والاختلاف وهو ربنا وربكم والدين واحد ولكل عامل عمله لا يعدوه إلى غيره.

📖 قوله تعالى: ﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَقِعُ بِهِمْ ۚ ﴾

٣- هذا وصف لحالهم في الآخرة عند معاينة العذاب أو عند الموت.

فهذا إشفاق مقرون بالاستيحاش، لأنه قد علم أنه صائر إليه كمن قدم إلى العقوبة ورأى أسبابها، فهو مشفق منها إذا رآها لعلمه بأنه صائر إليها. (طريق الهجرتين ٢٦٥).

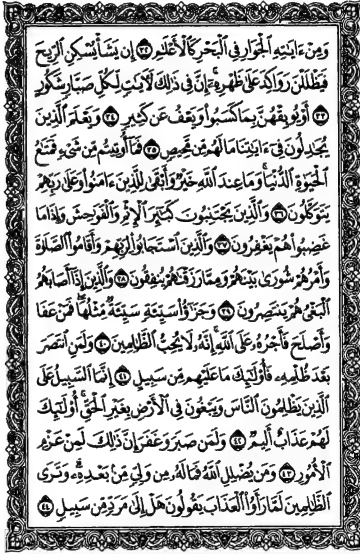
📖 قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ۚ ﴾

٤- استدل شيعة على الوصية لأهل البيت بقوله تعالى: ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ۚ ﴾ فأجيب بأن قيل: هذه وصية بهم لا وصية إليهم، فهي حجة على خلاف قول الشيعة؛ لأن الأمر لو كان إليهم لأوصاهم ولم يوص بهم. (بدائع الفوائد ٣/ ١٢٩).

📖 قوله تعالى: ﴿ فَمَا أَوْفَيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۚ ﴾ وَالَّذِينَ يَجْنَبُونَ كِبِيرَ الْأَلَامِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا عَصَبُوا هُمْ يَعْفِرُونَ ۚ ﴿٢٧﴾

٥- قال: ﴿وَالَّذِينَ يَجْنِبُونَ كَبِيرَ الْأَلَامِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (٣٧)

فهذا اجتناب داعي القوة الشهوانية، ثم قال: ﴿وَأِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾
فهذا مخالفة القوة الغضبية، فجمع بين التوحيد والعفة والعدل التي هي جماع الخير
كله. (الفوائد ٨١).



قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصَرُونَ﴾ (٣١).

٦- مدحهم بقوتهم على الانتصار لنفوسهم
وتقاضيتهم منها ذلك حتى إذا قدروا على من بغى
عليهم وتمكنوا من استيفاء ما لهم عليه ندمهم إلى
الخلق الشريف من العفو والصفح فقال: ﴿وَحَرَّوْا
سَيِّئَةَ سَيِّئَةٍ مِثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا
يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٠) فذكر المقامات الثلاثة: العدل
وأباحه، والفضل وندب إليه، والظلم وحرمة.

٧- فإن قيل: فكيف مدحهم على الانتصار والعفو وهما متنافيان؟

قيل: لم يمدحهم على الاستيفاء والانتقام، وإنما مدحهم على الانتصار وهو
القدرة والقوة على استيفاء حقهم، فلما قدروا ندمهم إلى العفو. قال بعض السلف في
هذه الآية: كانوا يكرهون أن يستذلوا، فإذا قدروا عفوا، فمدحهم على عفو بعد قدرة
لا على عفو ذل وعجز ومهانة، وهذا هو الكمال الذي مدح سبحانه به نفسه في قوله
﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفْوًا غَفُورًا﴾، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

٨- وتأمل قوله سبحانه: ﴿هُم يَنْصَرُونَ﴾ كيف يفهم منه أن فيهم من القوة
ما يكونون هم بها المنتصرين لأنفسهم، لا أن غيرهم هو الذي ينصرهم، ولما كان
الانتصار لا تقف النفوس فيه على حد العدل غالبا، بل لا بد من المجاوزة شرع فيه

سبحانه المماثلة والمساواة وحرم الزيادة وندب إلى العفو. (الروح ٢٤٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَبَهَا وَإِنْ نُضَيِّبُهُمْ سَيِّئَةً يُمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾.

٩- كيف أتى في تعليق الرحمة المحققة إصابتها من الله تعالى بـ(إذا)، وأتى في

وَرَبُّهُمْ يَصْرِفُهُمْ عَلَى مَا يَشَاءُ مِنْ الذَّلِيلِ يُظَلِّقُونَ
مِنْ ظَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الْبَرُّ اسْمُ الْإِنْسَانِ الْخَيْرِ وَالْإِنْسَانُ
خَيْرٌ وَأَنْفُسُهُمْ وَأَهْلِيهِمْ قَوْمٌ الْقَيْمَةُ الْآيَةُ الْفَالِقِينَ
فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ۝ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أُولِيَّةٍ يُضَرُّوهُمْ
مِنْ ذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلٌ ۝ أَسْتَجِيبُ
لِرُؤُوفِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ بُرُؤَهُمْ لَوْلَا ذَلِكَ مِتَّ اللَّهُ مَا لَكُمْ
مِنْ قَلْبٍ يُؤْمِرُكُمْ وَمَا لَكُمْ مِنْ كَلِمَةٍ تَكْبِيرٍ ۝ فَإِنْ أَعْرَضُوا
فَمَا أَرْسَلْنَا عَنْهُمْ خَفِيضًا أَنْ عَلَيْهِ إِلَّا الْبَلْعُ وَإِنَّا إِذَا
أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَبَهَا وَإِنْ نُضَيِّبُهُمْ سَيِّئَةً
يُمَاقِدُ مَتَّ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ۝ وَلِلَّهِ مَلَكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِئِنَّ
وَهَبَ لِمَنْ يَشَاءُ الْآكُورَ ۝ أَوْ يُرْجِيهِمْ دُكَّةً وَلَوْ أَنَّ
وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيْبًا إِنَّهُمْ عَلَى قَدِيرٍ ۝ وَمَا كَانَ
لِنَبِيِّ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا رَحِيْمًا أَوْ مِنْ وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ
رُسُلًا فَيُخَوِّضَهُمْ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝

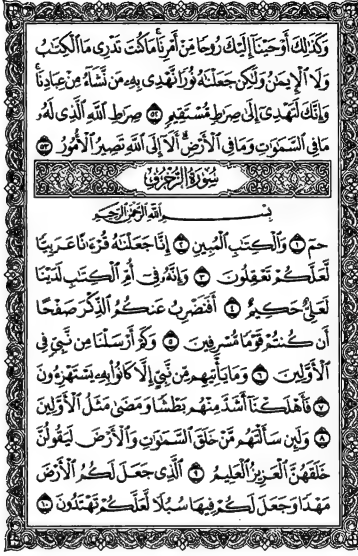
إصابة السيئة بـ(إن)؟ فإن ما يعفو الله تعالى عنه أكثر،
وأتى في الرحمة بالفعل الماضي الدال على تحقيق
الوقوع، وفي حصول السيئة بالمستقبل الدال على أنه
غير محقق ولا بد؟ وكيف أتى في وصول الرحمة بفعل
الإذاقة الدال على مباشرة الرحمة لهم، وأنها مذوقة
لهم، والذوق هو أخص أنواع الملازمة وأشدّها؟
وكيف أتى في الرحمة بحرف ابتداء الغاية مضافة إليه
فقال: ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾؟ وأتى في السيئة بباء السببية
مضافة إلى كسب أيديهم؟

وكيف أكد الجملة الأولى التي تضمنت إذافة الرحمة بحرف إن دون الجملة الثانية؟

وأسرار القرآن الكريم أكثر وأعظم من أن يحيط بها عقول البشر. (بدائع الفوائد ١/ ٤٧ ٤٨).

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِئِنَّ
وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الْآكُورَ ۝ أَوْ يُرْجِيهِمْ دُكَّرًا وَإِنِئِنَّ وَجَعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيْبًا إِنَّهُ
عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

١٠- بدأ سبحانه بذكر الإناث، فقل: جبرا لهن لأجل استئفال الوالدين لمكانهن،
وقيل وهو أحسن: إنما قدمهن؛ لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاء لا ما يشاء الأبوان،



فإن الأبوين لا يريدان إلا الذكور غالباً، وهو سبحانه قد أخبر أنه يخلق ما يشاء، فبدأ بذكر الصنف الذي يشاء ولا يريد الأبوان.

وعندي وجه آخر: وهو أنه سبحانه قدم ما كانت تؤخره الجاهلية من أمر البنات حتى كانوا يئدوهن، أي: هذا النوع المؤخر عندكم مقدم عندي في الذكر.

١١- وتأمل كيف نكر سبحانه الإناث وعرف الذكور، فجبر نقص الأنوثة بالتقديم، وجبر نقص التأخير بالتعريف، فإن التعريف تنويه، كأنه قال:

ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم.

ثم لما ذكر الصنفين معاً، قدم الذكور إعطاء لكل من الجنسين حقه من التقديم والتأخير، والله أعلم بما أراد من ذلك. (تحفة الودود في أحكام المولود ٢٣-٢٤).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحَنَا مَنْ أَمَرْنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝﴾.

١٢- جمع بين الروح الذي يحصل به الحياة، والنور الذي يحصل به الإضاءة والإشراق، وأخبر أن كتابه الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم متضمن للأمرين، فهو روح تحيا به القلوب، ونور تستضيء به. (إغاثة اللهفان ١/٢١).



سورة الزخرف

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (١٧) ﴿وَمَنْ يُسْأَلْ فِي الْحَيَاةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرَ مُبِينٍ﴾ (١٨) ﴿﴾.

١- قال تعالى: ﴿أَوْمِنْ يُنْشَأُ فِي الْحُلِيِّهِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف:

[١٨]. فأشار بنشأتهن في الحلية إلى أنهن ناقصات فيحتجن إلى حلية يكملن بها، وأنهن عيبات فلا يبين عن حاجتهن وقت الخصومة.

مع أن في قوله: ﴿أَوْ مَنْ يُنشَأُ فِي الْحِلْيَةِ﴾ تعريضا بما وضعت له الحلية من التزين لمن يفترشهن ويطأهن وتعريضا بأنهم لا ينشأ في الحرب والطعان والشجاعة فذكر الحلية التي هي علامة الضعف والعجز والوهن. (الصواعق المرسلة ٢/ ٤٨٣ - ٤٨٥).

وَالَّذِي ذَرَكْنَا مِنَ التَّاسِئَةِ مَا بِكَ فَاَنْتَرَبَاهُ بِلَهِّهِ تَمَيَّنَا
كَذَلِكَ فَخُجِرَتْ ۝ وَالَّذِي خَلَقَ الْاَنْدَادَ كَمَا هُوَ فَخُجِرَتْ
لَكُنْ مِنَ الْفَالِكِ وَالْاَتَمِّ مَا تَكُونُ ۝ لَيْسَتْ بَارِئَةً عَنِ ظُهُورِهِ
فُوْءُكَ لَوْ اَبْقَاهُ زَكَوْا كَمَا اَسْتَوْتُمْ عَلَيْهِ وَفَعَلُوا سَجْدَةً
الَّذِي سَجَرْنَا اَحَدًا وَمَا كَانَ نَاَالَهُ مَقْرِيْن ۝ وَقَالُوا رَبَّنَا
لَمَنَعْنَاهُ ۝ وَجَعَلُوهُ اَللهُ مِنْ عِبَادِهِ فَمِنْ اِنَّا اَلَسْنَا
اَكْبَرُ مِنْهُمْ ۝ اَوَلَمْ نَقْعِدْ مَعًا اِيْلًا بَنَانٍ وَاصْفَدْنَا
بِالْبَيْتَيْنِ ۝ وَلَا اَبْرُءُ اَحَدَهُمْ وَيَصَارِعُ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا
عَلَّ وَجْهَهُ مَسْرُوكًا وَهُوَ كَطِيْر ۝ اَوْ اَنْ يَنْشُرَا فِي
الْحَيَاةِ وَفَوَيْ اَلْخِصَاءِ غَيْرُ بَيْنِ ۝ وَجَعَلُوا الصَّلَاتِ كَ
الَّذِيْنَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ اِتْنَا اَشْهُدُ اَوْ اَحَقُّ هَهُمْ مُسْكِبُ
سَهْنَهُمْ وَفَعَلُوْنَ ۝ وَقَالُوا اِلَّا رَشَدَ الرَّحْمَنِ مَا عَدَدْنَاهُ
عَالِهِمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ اَنْ هُمْ اِلَّا يَخْضَرُونَ ۝ اَمْ اَنْ يَخْضَرُوا
يَكُنْ اَنْ يَنْقَلِبَهُ فَعَمِيْدُهُ مُسْتَكْبِرِينَ ۝ بَلْ قَالُوا اِنَّا
وَجَعَلْنَا اِبْرَاهِيْمَ نَاعِلًا اَقْرَبُ وَلَنَا عَلَ اَعْدَائِهِمْ فَمَهْمُونَ ۝

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِصْ

لَهُ، شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴿٣٨﴾

٢- لما كان المصاب إذا شاركه غيره في مصيبة، حصل له بالتأسي نوع تخفيف وتسلية، أخبر الله سبحانه أن هذا غير موجود وغير حاصل في حق المشتركين في العذاب، وأن القرين لا يجد راحة ولا أدنى فرح بعذاب قرينه معه، وإن كانت المصائب في الدنيا إذا عمت صارت مسلاة، كما قالت الخنساء في أخيها صخر:

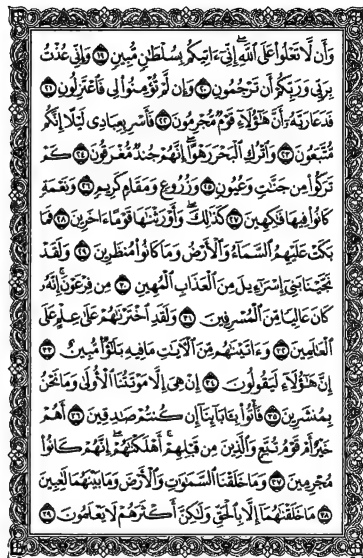
ولولا كثرة الباكين حولي
وما يكون مثل أخي، ولكن
على إخوانهم لقتلت نفسي
أعزي النفس عنه بالتأسي

فمنع الله سبحانه هذا القدر من الراحة على أهل النار فقال: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ أَلْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٣٩]. (الجواب الكافي ١٣٦-١٣٧).



وَلَمْ يَنْفَعَهُمْ أَنْبَاءُ وَمُرَّاتُهَا بَشَرَتْ ۝ وَزُحُرُهَا كَانَتْ
كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْخَلْقَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ
لِلْمُتَّقِينَ ۝ وَمَنْ يَحْشُرْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضًا لَهُ شَيْئًا
فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۝ وَأَنْهُمْ لَيَبْغُذُوهُمْ عَنْ السَّبِيلِ وَتَحْسَبُونَ
أَنَّهُمْ مُتَعَدُّونَ ۝ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَبَتُّنَا رَبَّنَا
بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْقُصُ الْفَقِيرُ ۝ وَلَنْ يَنْفَعَكَ الْيَوْمَ
إِذْ ظَلَمْتَ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ
الْأُصْمَ الْأَوْفَقِيذِ الْغَنَىٰ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝ فَلَمَّا
تَذَكَّرْنَا بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ ۝ أَوْ مُرْسِلًا إِلَىٰ
وَعَدْتَهُمْ فِي آيَاتِهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ۝ فَاسْتَسْيِرْ بِالَّذِي أَرَىٰ
إِلَيْكَ إِلَهُكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ وَإِنَّهُ لَوَعْدُكَ وَلَقَوْلُكَ
وَسَوْفَىٰ تُسْأَلُونَ ۝ وَتَقُولُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا
أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ۝ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّي
الْعَالَمِينَ ۝ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا بِضُحُكُونَ ۝

سورة الدخان



قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِيبٍ ۖ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ﴾

١- الحق هو الحكم والغايات المحمودة التي لأجلها خلق ذلك كله، وهو أنواع كثيرة:

* منها: أن يعرف الله تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وآياته.

* ومنها: أن يحب ويعبد ويشكر ويذكر ويطاع.

* ومنها: أن يأمر وينهى ويشعر الشرائع.

* ومنها: أن يدبر الأمر ويبرم القضاء ويتصرف في المملكة بأنواع التصرفات.

* ومنها أن يثيب ويعاقب فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، فيوجد أثر عدله وفضله موجودا مشهودا، فيحمد على ذلك ويشكر.

* ومنها: أن يعلم خلقه أنه لا إله غيره ولا رب سواه.

* ومنها: أن يصدق الصادق فيكرمه ويكذب الكاذب فيهيئه.

* ومنها ظهور آثار أسمائه وصفاته على تنوعها وكثرتها في الوجود الذهني والخارجي، فيعلم عباده ذلك علما مطابقا لما في الواقع.

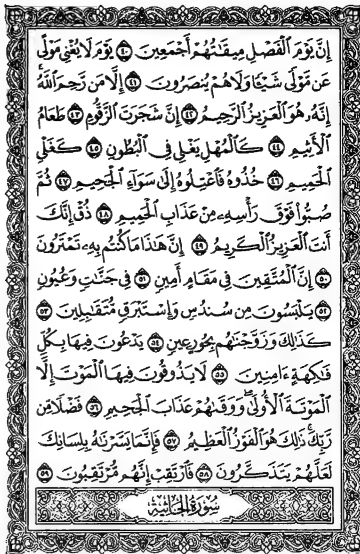
* ومنها: شهادة مخلوقاته كلها بأنه وحده ربها وفاطرها ومليكيها وأنه وحده إلهها ومعبودها.

* ومنها: ظهور أثر كماله المقدس، فإن الخلق والصنع لازم كماله، فإنه حي قدير، ومن كان ذلك كذلك لم يكن إلا فاعلا مختارا.

- * ومنها: أن يظهر أثر حكمته في المخلوقات بوضع كل منها في موضعه الذي يليق به ومحبته على الوجه الذي تشهد العقول والفطر بحسنه، فتشهد حكمته الباهرة.
- * ومنها: أنه سبحانه يحب أن يجود وينعم ويعفو ويغفر ويسامح ولا بد من لوازم ذلك خلقا وشرعا.
- * ومنها: أنه يحب أن يشنى عليه ويمدح ويمجد ويسبح ويعظم.
- * ومنها كثرة شواهد ربوبيته ووحدانيته وإلهيته، إلى غير ذلك من الحكم التي تضمنها الخلق. (شفاء العليل ١٩٨-١٩٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾﴾

٢- جمع لهم بين حسن المنزل وحصول الأمن فيه من كل مكروه واشتماله على



الثمار والأنهار وحسن اللباس وكمال العشرة لمقابلة بعضهم بعضا وتمام اللذة بالهور العين ودعائهم بجميع أنواع الفاكهة مع أمنهم من انقطاعها ومضرتها وغائلتها وختام ذلك أعلمهم بأنهم لا يذوقون فيها هناك موتا. (حادي الأرواح ١٧٨).

٣- وتأمل كيف ذكر سبحانه الأمن في قوله

تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾﴾ وفي قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾

فجمع لهم بين أمن المكان وأمن الطعام، فلا يخافون

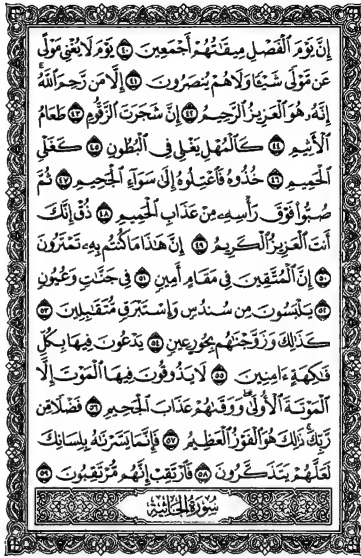
انقطاع الفاكهة ولا سوء عاقبتها ومضرتها وأمن الخروج منها، فلا يخافون ذلك وأمن من

الموت فلا يخافون فيها موتاً. (حادي الأرواح ٨٩).

قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾.

٤- فهذا الاستثناء هو لتحقيق دوام الحياة وعدم ذوق الموت، وهو يجعل النفي الأول العام بمنزلة النص الذي لا يتطرق إليه استثناء البتة، إذ لو تطرق إليه استثناء فرد من أفرادها، لكان أولى بذكره من العدول عنه إلى الاستثناء المنقطع، فجرى هذا الاستثناء مجرى التأكيد، والتنصيص على حفظ

العموم، وهذا جارٍ في كل منقطع، فتأمل، فإنه من أسرار العربية. (مدارج السالكين ١/ ٣١٩).



قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيَاهُمْ وَمَنَّاهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿١١﴾

١- أنكر سبحانه هذا الحسبان إنكار منبه للعقل
على قبحه، وأنه حكم سيئ، والحاكم به مسيء ظالم،
ولو كان قبحه لكونه خلاف ما أخبر به لم يكن الإنكار
لما اشتمل عليه من القبح اللازم من التسوية بين
المحسن والمسيء، المستقر قبحه في فطر العالمين
كلهم، ولا كان هنا حكم سيئ في نفسه ينكر على من
حكم به. (الكلام على مسألة السماع ٢٨١-٢٨٢).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاةً﴾.

٢- أما الغشاوة فهو غطاء العين كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ وهذا الغطاء سري إليها من غطاء القلب، فإن ما في القلب يظهر على العين من الخير والشر، فالعين مرآة القلب تظهر ما فيه، وأنت إذا أبغضت رجلا بغضا شديدا أو أبغضت كلامه ومجالسته تجد على عينك غشاوة عند رؤيته ومخالطته، فتلك أثر البغض والإعراض عنه وغلظت على الكفار عقوبة لهم على إعراضهم ونفورهم عن الرسول، وجعل الغشاوة عليها يشعر بالإحاطة على ما تحته كالعمامة، ولما عشوا عن ذكره الذي أنزله، صار ذلك العشاء غشاوة على أعينهم فلا تبصر مواقع الهدى. (شفاء العليل ٩٦).



سورة الأحقاف

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.



١ - هذا يدل على تكليفهم من وجوه متعددة:

* أحدها: أن الله سبحانه وتعالى صرفهم إلى رسوله يستمعون القرآن ليؤمنوا به ويأتمروا بأوامره وينتهوا عن نواهيه.

* الثاني: أنهم ولوا إلى قومهم مندرين، والإنذار هو الإعلام بالخوف بعد انعقاد أسبابه، فعلم أنهم منذرون لهم بالنار إن عصوا الرسول.

* الثالث: أنهم أخبروا أنهم سمعوا القرآن وعقلوه وفهموه وأنه يهدي إلى الحق، وهذا القول منهم يدل على أنهم عالمون بموسى

وبالكتاب المنزل عليه، وأن القرآن مصدق له، وأنه هادٍ إلى صراط مستقيم.

* وهذا يدل على تمكينهم من العلم الذي تقوم به الحجة، وهم قادرون على امتثال ما فيه والتكليف إنما يستلزم [العقل]، والقدرة.

* الرابع: أنهم قالوا لقومهم: ﴿يَقَوْمَنَا أَحْبَبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ﴾ [الأحقاف: ٣١]. وهذا صريح في أنهم مكلفون بمأمورين بإجابة الرسول، وهي تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر.

* الخامس: أنهم قالوا: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ والمغفرة لا تكون إلا عن ذنب وهو مخالفة الأمر.



* السادس: أنهم قالوا: ﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾ والذنب مخالفة الأمر.

* من لم يستجب منهم لداعي الله، لم يجره من العذاب الأليم. وهذا صريح في تعلق الشريعة الإسلامية بهم.

* السابع: أنهم قالوا: ﴿وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ [الأحqاف: ٣٢]. وهذا تهديد لمن تخلف عن إجابة داعي الله منهم. وقد استدلل بها على أنهم كانوا متعبدين بشريعة موسى كما هم متعبدون

بشريعة محمد، وهذا ممكن والآية لا تستلزمه. (طريق الهجرتين ٣٩٠-٣٩١).

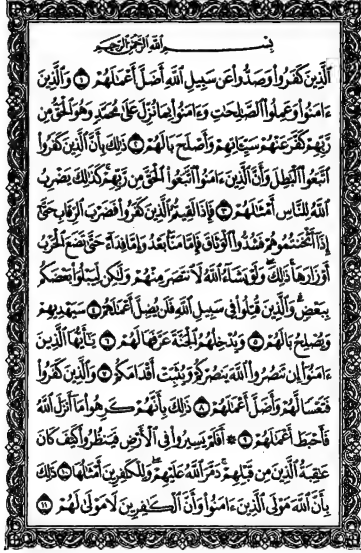
📖 قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢٠).

٢- وتعبيرهم عنه ها هنا بالطريق فيه نكتة بديعة، وهي أنهم قدموا قبله ذكر موسى وأن الكتاب الذي سمعوه مصداقاً لما بين يديه من كتاب موسى وغيره، فكان فيه كالنبا عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله لقومه: ﴿مَا كُنْتُ بِدَاعٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾، أي: لم أكن أول رسول بعث إلى أهل الأرض، بل قد تقدمت رسل من الله إلى الأمم، وإنما بعثت مصداقاً لهم بمثل ما بعثوا به من التوحيد والإيمان، فقال مؤمنو الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، أي: إلى سبيل مطروق قد مرت عليه الرسل قبله، وإنه ليس بدع كما قال في أول السورة نفسها، فاقضت البلاغة والإعجاز لفظ الطريق؛ لأنه فعيل بمعنى مفعول، أي: مطروق مشت عليه الرسل والأنبياء قبل، فحقيق على من صدق رسل الله وآمن بهم أن يؤمن به ويصدقه، فذكر الطريق ها هنا إذاً أولى لأنه أدخل في باب الدعوة والتنبيه على تعيين أتباعه، والله أعلم. (بدائع الفوائد ١٦/٢-١٧).

سورة محمد

قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَرَا اللَّهُ

عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ۝١٠﴾



١- كل موضع أمر الله سبحانه فيه بالسير في الأرض، سواء كان السير الحسي على الأقدام والدواب، أو السير المعنوي بالتفكر والاعتبار، أو كان اللفظ يعمهما وهو الصواب، فإنه يدل على الاعتبار والحذر أن يحل بالمخاطبين ما حل بأولئك، ولهذا أمر سبحانه أولي الأبصار بالاعتبار بما حل بالمكذبين. (إعلام الموقعين ١/ ١٣٢).

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَأَرْسَلْنَاكُمْ فَلَاعْرِفَنَّهُمْ بِسِيمَتِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۝١١﴾

٢- وذلك في حق المنافقين.

فالأول: فراسة النظر والعين، والثاني: فراسة الأذن والسمع.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: علق معرفته إياهم بالنظر على المشيئة، ولم يعلق تعريفهم بلحن خطابهم على شرط. بل أخبر به خبراً مؤكداً بالقسم، فقال: ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۝١١﴾ وهو تعريض الخطاب، وفحوى الكلام ومغزاه.

والمقصود: أنه سبحانه أقسم على معرفتهم من لحن خطابهم. فإن معرفة المتكلم وما في ضميره من كلامه أقرب من معرفته بسيماه وما في وجهه، فإن دلالة الكلام على قصد قائله وضميره أظهر من السيماء المرئية. والفراسة تتعلق بالنوعين:

وَلَوْ نَشَاءُ لَأَكْبَرْنَا عَنْكُمْ وَلَقَدْ رَفَعْنَاهُمْ بِسَمْعِهِمْ وَلَقَدْ رَفَعْنَاهُمْ فِي
لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَلَكُمْ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ نَزَّلْنَاهُ كَذِبًا نَسُوهُ
الْمُجْرِمِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبَّأُوا الْخَائِبِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ
كَذَّبُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَنَجَّأُوا الرَّسُولَ مِنْ يَدِ
مَاتِينَ لَهُمْ هَذَا الْهَدْيُ لَنْ يَصُرُوا إِلَى اللَّهِ يَسْعَاوْنَ سَيْحًا أَعْمَلَكُمْ
﴿٧٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ
وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَلَكُمْ ﴿٧٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ
اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا قُلْ يَتَوَفَّاكَ اللَّهُ لَمْ يَمُتْ فَلَا تَهْتَفُوا
وَنَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنُشِرُ الْأَخْبَارَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَفْشَوْا
أَعْمَلَكُمْ ﴿٧٩﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لُغْوٌ وَلَهُ وَلَنْ تَجْعَلَ لَهَا
ثَوْبًا وَلَا جُزْءًا وَلَا تَسْأَلُكُمْ أَفْعَالَكُمْ ﴿٨٠﴾ إِنْ يَسْأَلُكُمْ عَنْهَا
فَقُولُوا كَذَبُوا وَخُفُوا أَصْحَابُ الْغُرَفِ هَذَا نُفُوسُ هَذِهِ
نَدْعُوهُ لِيُفِيقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَسَمُكَ مَنْ يَسْأَلُ وَمَنْ يَسْأَلُ
فَالنَّاسُ يَسْأَلُونَ عَنْ نَفْسِهِمْ وَاللَّهُ الْغَوِيُّ وَأَنُشِرُ الْفَقْرَ فَإِنْ
تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَعْمَلَكُمْ ﴿٨١﴾

بالنظر، والسماع. وفي الترمذي من حديث أبي سعيد
الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اتقوا
فراصة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله. ثم تلا قوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ ﴿٧٥﴾ [الحجر: ٧٥].

(مدارج السالكين ٢/ ٤٨٣).

٣- ظهور ما في قلب الإنسان على لسانه أعظم
من ظهوره على وجهه، لكنه يبدو في الوجه بُدْوًا خفيًا
يراه الله، ثم يقوى حتى يصير صفةً في الوجه يراها
أصحاب الفراسة، ثم يقوى حتى يظهر لجمهور

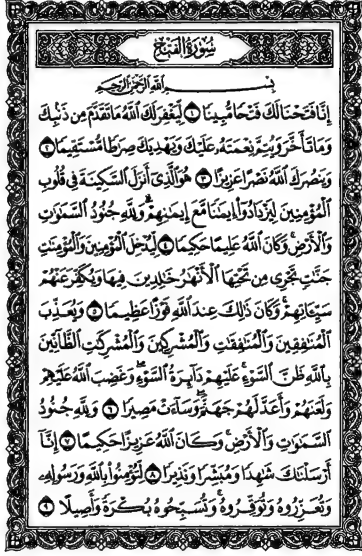
الناس، ثم يقوى حتى يُمَسَّخ الوجه على طبيعة الحيوان الذي هو على خلقه من قردٍ أو
خنزيرٍ، كما جرى على كثير من الأمم قبلنا، ويجري على بعض هذه الأمة، كما وعد به
الصادق الذي لا ينطق عن الهوى. (الكلام على مسألة السماع ٣٧٢-٣٧٣).



سورة الفتح

قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُنِمْ

نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝٢﴾



١- جمع الله سبحانه لرسوله في آية الفتح من أنواع العطايا وذلك خمسة أشياء:

- * أحدها: الفتح المبين.
- * والثاني: مغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر.
- * والثالث: هدايته الصراط المستقيم.
- * والرابع: إتمام نعمته عليه.
- * والخامس: إعطاء النصر العزيز.

٢- وجمع سبحانه له بين الهدى والنصر؛ لأن

هذين الأصلين بهما كمال السعادة والفلاح، فإن الهدى هو العلم بالله تعالى ودينه والعمل بمرضاته وطاعته، فهو العلم النافع والعمل الصالح والنصر والقدرة التامة على تنفيذ دينه، فالحجة والبيان والسيف والسنان، فهو النصر بالحجة واليد، وقهر القلوب المخالفين له بالحجة، وقهر أبدانهم باليد، وهو سبحانه كثيرا ما يجمع بين هذين الأصلين؛ إذ بهما تمام الدعوة وظهور دينه على الدين كله كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ (بدائع الفوائد ٢/ ١٤-١٥).

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ

مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨﴾



٣- علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا فِي قُلُوبِهِم مِنَ الْفَلَقِ والاضطراب لما منعهم كفار قريش من دخول بيت الله، وحبسوا الهدي عن محله، واشترطوا عليهم تلك الشروط الجائرة الظالمة، فاضطربت قلوبهم، وقلقت ولم تطق الصبر، فعلم تعالى ما فيها، فثبتها بالسكينة رحمة منه ورأفة ولطفاء، وهو اللطيف الخبير، وتحتمل الآية وجهها آخر، وهو أنه سبحانه علم ما في قلوبهم من الإيمان والخير ومحبه ومحبة رسوله فثبتها بالسكينة وقت قلقها واضطرابها، والظاهر أن الآية تعم الأمرين:

وهو أنه علم ما في قلوبهم مما يحتاجون معه إلى إنزال السكينة، وما في قلوبهم من الخير الذي هو سبب إنزالها.

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝﴾.

٤- ثمرة هذه السكينة الطمأنينة للخير تصديقا وإيقانا، وللأمر تسليما وإذعانا، فلا تدع شبهة تعارض الخير ولا إرادة تعارض الأمر، فلا تمر معارضات السوء بالقلب إلا وهي مجتازة من مرور الوسوس الشيطانية التي يبتلى بها العبد ليقوى إيمانه، ويعلو عند الله ميزانه بمدافعتها وردها وعدم السكون إليها، فلا يظن المؤمن أنها لنقص درجته عند الله. (إعلام الموقعين ٤/ ٢٥٤-٢٥٥).

٥- فانظر قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ كيف جعل فعل الشرط ماضيا والجزاء مستقبلا؟ لأن القصد كان إلى دخولهم المسجد الحرام

وعنايتهم كلها مصروفة وهمهم معلقة به دون وقوع الأفعال بمشيئة الله تعالى،



فإنهم لم يكونوا يشكون في ذلك ولا يرتابون، وأكد هذا المعنى تقديم الجزاء على الشرط، وهو إما نفس الجزاء على أصح القولين دليلاً كما تقدم تقريره، وإما دال على الجزاء وهو محذوف مقدر تأخيرها وعلى القولين، فتقدم الجزاء أو تقديم ما يدل عليه اعتناء بأمره وتجريداً للقصد إليه، ويدل عليه أيضاً تأكيده باللام المؤذنة بالقسم المضمرة، كأنه قيل: والله لتدخلن المسجد الحرام. فهذا كله يدل على أنه هو المقصود المعنى به. (بدائع الفوائد ١/ ١٠٦-١٠٧).

قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾

٦- شهادة منه لرسوله، قد أظهرها وبينها، وبين صحتها غاية البيان، بحيث قطع العذر بينه وبين عبادته، وأقام الحجة عليهم، فكونه سبحانه شاهداً لرسوله: معلوم بسائر أنواع الأدلة: عقليها، ونقلها، وفطريها، وضروريها، ونظريها.

ومن نظر في ذلك وتأمله، علم أن الله سبحانه شهد لرسوله أصدق الشهادة، وأعدلها وأظهرها، وصدقته بسائر أنواع التصديق: بقوله الذي أقام البراهين على صدقه فيه، وبفعله وإقراره، وبما فطر عليه عبادته من الإقرار بكماله. (مدارج السالكين ٣/ ٤٧٠).



سورة الحجرات

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَانفُوا لِلَّهِ إِنَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ۖ

١- فإذا كان سبحانه قد نهى عن التقديم بين يديه، فأى تقديم أبلغ من تقديم عقله على ما جاء به؟ (الوابل الصيب ٢١).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ۖ﴾

٢- ها هنا فائدة لطيفة: وهي أنه سبحانه لم يأمر برد خبر الفاسق وتكذيبه ورد شهادته جملة، وإنما أمر بالتبين، فإن قامت قرائن وأدلة من خارج تدل على صدقه، عمل بدليل الصدق، ولو أخبر به من أخبر. (مدارج السالكين ١/ ٣٦٠-٣٦١).

قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَٰكِنَ اللَّهُ جَبَّ إِلَيْكُمْ الْإِيمَنَ وَزَيَّنَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمُ لَكَانَ غَيْرَ اللَّهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝٨ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِثْلِ مَا صِيبُوا عَلَى مَا فَعَلُوا كَذِبًا ۝٩ وَأَعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَٰكِنَ اللَّهُ جَبَّ إِلَيْكُمْ الْإِيمَنَ وَزَيَّنَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّٰشِدُونَ ۝١٠ فَذَكَرَ اللَّهُ نِعْمَةً وَأَنَّمَا عَلَيْهِ حِكْمَةٌ ۝١١ فَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا أَتَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَتَحْيَا أَلَّتِي يُبَغَّىٰ لَهَا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا قَلِيلًا ۝١٢ فَأَصْلَحُوا أَتَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَالْأَعْطَىٰ إِنَّ اللَّهَ لَجِدُّ الْمُنْظِرِينَ ۝١٣ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٤ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ سُنَّةَ آلِ فِرْعَوْنَ وَآلِ لُوطٍ وَإِنَّ سُنَّةَ آلِ فِرْعَوْنَ وَآلِ لُوطٍ أَلَسَتْ بِسُنَّةٍ لَّا تَسْلَمُ ۝١٥ أَلَمْ تَرَ أَنَّ آلَ فِرْعَوْنَ لَا يُمِيزُونَ بَيْنَ الْفَاسِقِ وَالْطَّيِّبِينَ ۝١٦

٣- أخبر سبحانه أنه جعل في قلوب عباده المؤمنين الأمرين: حبه، وحسنه الداعي إلى حبه، وألقى في قلوبهم كراهة ضده من الكفر والفسوق والعصيان، وإن ذلك محض فضله ومته عليهم، حيث لم يكلهم إلى أنفسهم، بل تولى هو سبحانه هذا التحبيب والتزيين وتكريه ضده فجاد عليهم به فضلا منه ونعمة، والله عليم بمواقع فضله، ومن يصلح له

ومن لا يصلح، حكيم بجعله في مواضعه. (شفاء العليل ٥٧).

﴿قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتَّبِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾﴾.

٤ - قَسَمَ العباد إلى تائب وظالم، وما ثمَّ قسم ثالث البتة، وأوقع اسم الظالم على من لم يتب، ولا أظلم منه؛ لجهله بربه وبحقه، وبعبث نفسه وآفات أعماله. (مدارج

السالكين ١/ ١٧٨ - ١٧٩).

﴿قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾﴾.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِمَّا زُكِّرَ لَكُمْ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَفْكُنَّ النَّاسَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ إِفْكُكُمْ لَا يَمُوتُ وَلَا يُحْيَىٰ وَلَا يَنْفَعُكُمْ فِي شَيْءٍ مِمَّا كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا نَذِيرًا ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا قَوْلًا سَوِيًّا إِنَّمَا يَحْضُرُونَ مَعَنَا وَلَا يَفْعَلُونَ شَيْئًا مِمَّا نَحْنُ بِكَافِرِينَ ﴿٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا قَوْلًا سَوِيًّا إِنَّمَا يَحْضُرُونَ مَعَنَا وَلَا يَفْعَلُونَ شَيْئًا مِمَّا نَحْنُ بِكَافِرِينَ ﴿٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا قَوْلًا سَوِيًّا إِنَّمَا يَحْضُرُونَ مَعَنَا وَلَا يَفْعَلُونَ شَيْئًا مِمَّا نَحْنُ بِكَافِرِينَ ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا قَوْلًا سَوِيًّا إِنَّمَا يَحْضُرُونَ مَعَنَا وَلَا يَفْعَلُونَ شَيْئًا مِمَّا نَحْنُ بِكَافِرِينَ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا قَوْلًا سَوِيًّا إِنَّمَا يَحْضُرُونَ مَعَنَا وَلَا يَفْعَلُونَ شَيْئًا مِمَّا نَحْنُ بِكَافِرِينَ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا قَوْلًا سَوِيًّا إِنَّمَا يَحْضُرُونَ مَعَنَا وَلَا يَفْعَلُونَ شَيْئًا مِمَّا نَحْنُ بِكَافِرِينَ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا قَوْلًا سَوِيًّا إِنَّمَا يَحْضُرُونَ مَعَنَا وَلَا يَفْعَلُونَ شَيْئًا مِمَّا نَحْنُ بِكَافِرِينَ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا قَوْلًا سَوِيًّا إِنَّمَا يَحْضُرُونَ مَعَنَا وَلَا يَفْعَلُونَ شَيْئًا مِمَّا نَحْنُ بِكَافِرِينَ ﴿٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا قَوْلًا سَوِيًّا إِنَّمَا يَحْضُرُونَ مَعَنَا وَلَا يَفْعَلُونَ شَيْئًا مِمَّا نَحْنُ بِكَافِرِينَ ﴿١٠﴾

٥ - قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ نفيا للإيمان المطلق لا لمطلق الإيمان، لوجه:

* منها أنه أمرهم أو أذن لهم أن يقولوا أسلمنا، والمنافق لا يقال له ذلك.

* ومنها أنه قال: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ﴾ ولم يقل: قال المنافقون.

* ومنها أن هؤلاء الجفأة الذين نادوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من وراء الحجرات ورفعوا

أصواتهم فوق صوته غلظة منهم وجفاء لا نفاقا وكفرا.

* ومنها أنه قال: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ ولم ينف دخول الإسلام في قلوبهم، ولو كانوا منافقين لنفى عنهم الإسلام كما نفى الإيمان.

* ومنها أن الله تعالى قال: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾،

[illegible]

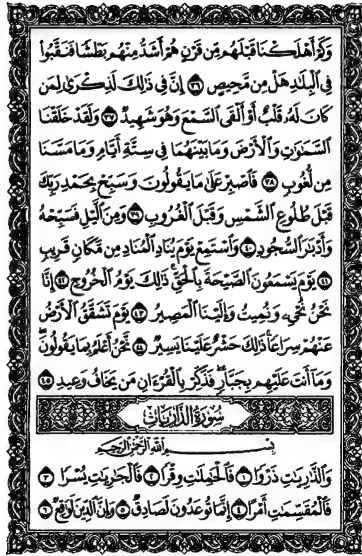
سورة ق

١- قوله تعالى: ﴿تَبَصَّرْهُ وَذَكَرْهُ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ ﴿٨﴾ .

فالناظر فيها يتبصر أولا، ثم يتذكر ثانيا، وأن هذا لا يحصل إلا لعبد منيب إلى الله بقلبه وجوارحه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ﴿٢٧﴾ .

١- تأمل ما تحت هذه الألفاظ من كنوز العلم، وكيف تفتح مراعاتها للبعد أبواب العلم والهدى، وكيف ينغلق باب العلم عنه من إهمالها وعدم مراعاتها، فإنه سبحانه أمر عباده أن يتدبروا آياته المتلوة المسموعة والمرئية المشهودة بما تكون تذكرة لمن



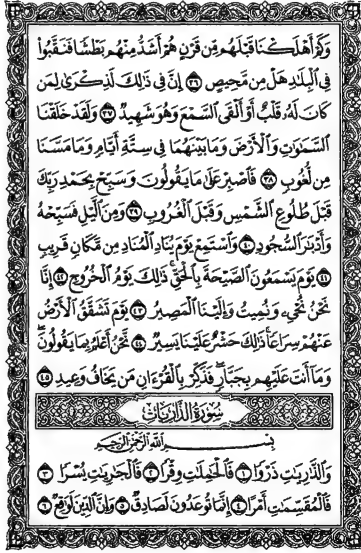
كان له قلب، فإن من عدم القلب الواعي عن الله، لم ينتفع بكل آية تمر عليه ولو مرت به كل آية، ومرور الآيات عليه كطلوع الشمس والقمر والنجوم، ومرورها على من لا بصر له، فإذا كان له قلب كان بمنزلة البصير إذا مرت به المرئيات، فإنه يراها، ولكن صاحب القلب لا ينتفع بقلبه إلا بأمرين: أحدهما أن يحضره ويشهده لما يلقي إليه، فإن كان غائبا عنه مسافرا في الأماني والشهوات والخيالات لا ينتفع به، فإذا أحضره أشهده لم ينتفع إلا بأن يلقي سمعه ويصغي بكليته إلى ما يوعظ به ويرشد إليه، وها هنا ثلاثة أمور: أحدها: سلامة القلب وصحته وقبوله.

الثاني: إحضاره وجمعه ومنعه من الشرود والتفرق.

الثالث: إلقاء السمع وإصغائه والإقبال على الذكر، فذكر الله تعالى الأمور الثلاثة

في هذه الآية.

٢- وأيضا فإن الآية تضمنت تقسيما وترديدا بين قسمين: أحدهما من كان له قلب، والثاني من ألقى السمع وحضر بقلبه ولم يغب، فهو حاضر القلب شاهده لا غائبه، وهذا - والله أعلم - سر الإتيان به (أو) دون الواو؛ لأن المنتفع بالآيات من الناس نوعان:



أحدهما: ذو القلب الواعي الزكي الذي يكتفي بهدايته بأدنى تنبيه، ولا يحتاج إلى أن يستجلب قلبه ويحضره ويجمعه من مواضع شتاته، بل قلبه واع زكي قابل للهدى غير معرض عنه، فهذا لا يحتاج إلا إلى وصول الهدى إليه فقط؛ لكمال استعداده وصحة فطرته، فإذا جاء الهدى سارع قلبه إلى قبوله كأنه كان مكتوبا فيه، فهو قد أدركه مجملا، ثم جاء الهدى بتفصيل ما شهد قلبه بصحته مجملا، وهذه حال أكمل

الخلق استجابة لدعوة الرسل كما هي حال الصديق الأكبر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

والنوع الثاني: من ليس له هذا الاستعداد والقبول، فإذا ورد عليه الهدى أصغى إليه بسمعه وأحضر قلبه وجمع فكرته عليه وعلم صحته وحسنه بنظره واستدلاله، وهذه طريقة أكثر المستجيبين، ولهم نوع ضرب الأمثال وإقامة الحجج وذكر المعارضات والأجوبة عنها، والأولون هم الذين يدعون بالحكمة، وهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة، فهؤلاء نوعا المستجيبين.

٣- فالناس ثلاثة: رجل قلبه ميت، فذلك الذي لا قلب له، فهذا ليست هذه الآية ذكرى في حقه.

الثاني: رجل له قلب حي مستعد، لكنه غير مستمع للآيات المتلوة التي يخبر بها



الله عن الآيات المشهودة، إما لعدم ورودها، أو لوصولها إليه، ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها، فهو غائب القلب، ليس حاضرا، فهذا أيضا لا تحصل له الذكرى مع استعداده ووجود قلبه.

الثالث: رجل حي القلب مستعد، تليت عليه الآيات، فأصغى بسمعه، وألقى السمع وأحضر قلبه، ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه، فهو شاهد القلب، ملق السمع، فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلوة والمشهودة.

فالأول: بمنزلة الأعمى الذي لا يبصر.

والثاني: بمنزلة البصير الطامح ببصره إلى غير جهة المنظور إليه، فكلاهما لا يراه.

والثالث: بمنزلة البصير الذي قد حذق إلى جهة المنظور، وأتبعه بصره، وقابله على توسط من البعد والقرب، فهذا هو الذي يراه.

فسبحان من جعل كلامه شفاء لما في الصدور.

(مدارج السالكين ٤٤٢-٤٤٣).



٤- قال: ﴿ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ ولم يقل عنه كما قال: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٌ ﴾ ولم يقل: في شك فيه. وجاء هذا في المصدر وإن لم يجيء في الفعل، فلا يقال: غفلت منه، ولا شككت منه، كأن غفلته وشكه ابتداء منه، فهو مبدأ غفلته وشكه، وهذا أبلغ من أن يقال في غفلة عنه وشك فيه، فإنه جعل ما ينبغي أن يكون مبدأ التذكرة واليقين ومنشأهما مبدأ للغفلة والشك.

٥- ثم ذكر صفات هذا الملقى فذكر له ست صفات:

أحدها: أنه كَفَّار لنعم الله وحقوقه، كَفَّار بدينه وتوحيده وأسمائه وصفاته، كَفَّار برسله وملائكته، كَفَّار بكتبه ولقائه.

الثانية: أنه معاند للحق بدفعه جحدا وعنادا.

الثالثة: أنه مَنَّاع للخير، وهذا يعم منعه للخير الذي هو إحسان إلى نفسه من الطاعات والقرب إلى الله والخير الذي هو إحسان إلى الناس، فليس فيه خير لنفسه ولا لبني جنسه كما هو الحال أكثر الخلق.

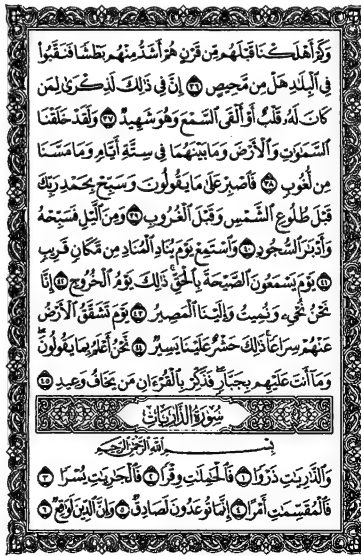
الرابعة: أنه مع منعه للخير معتد على الناس ظلوم غشوم، معتد عليهم بيده ولسانه.

الخامسة: أنه مريب، أي: صاحب ريب وشك، ومع هذا فهو آت لكل ريبة، يقال: فلان مريب، إذا كان صاحب ريبة.

السادسة: أنه مع ذلك مشرك بالله قد اتخذ مع الله إلها آخر يعبد به ويحبه ويغضب له ويرضى له ويحلف باسمه وينذر له ويوالي فيه ويعادي فيه.

٦- ثم أخبر عن تقريب الجنة من المتقين وأن أهلها هم الذين اتصفوا بهذه الصفات الأربع:

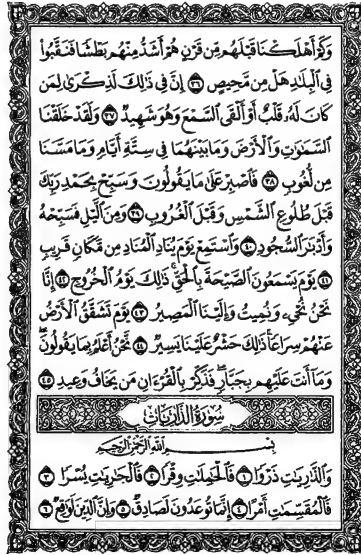
إحداها: أن يكون أَوَّاباً، أي رجَّاعاً إلى الله من معصيته إلى طاعته، ومن الغفلة عنه إلى ذكره. قال عبيد بن عمير: الأَوَّاب الذي يتذكر ذنوبه، ثم يستغفر منها. وقال مجاهد: هو الذي إذا ذكر ذنبه في الخلاء استغفر منه. وقال سعيد بن المسيب: هو الذي يذنب، ثم يتوب، ثم يذنب، ثم يتوب.



الثانية: أن يكون حفيظا. قال ابن عباس: لِمَا ائتمنه الله عليه وافترضه. وقال قتادة: حافظ لِمَا استودعه الله من حقه ونعمته. ولما كانت النفس لها رجوعه إلى الله قوتان قوة الطلب وقوة الإمساك، كان الأواب مستعملا لقوة الطلب في مرضاته وطاعته، والحفيظ مستعملا لقوة الحفظ في الإمساك عن

معاصيه ونواهيه، فالحفيظ: الممسك نفسه عما حرم عليه، والأواب: المقبل على الله بطاعته.

الثالثة: قوله: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ يتضمن الإقرار بوجوده وربوبيته وقدرته وعلمه وإطلاعه على تفاصيل أحوال العبد، ويتضمن الإقرار بكتبه ورسله وأمره ونهيه، ويتضمن الإقرار بوعدته ووعيده ولقائه، فلا تصح خشية الرحمن بالغيب إلا بعد هذا كله.



الرابعة: قوله: ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ قال ابن

عباس: راجع عن معاصي الله مقبل على طاعة الله. وحقيقة الإنابة عكوف القلب على طاعة الله ومحبته والإقبال عليه، ثم ذكر سبحانه جزاء من قامت به هذه الأوصاف بقوله: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ۝﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝﴾ ﴿٣٥﴾.



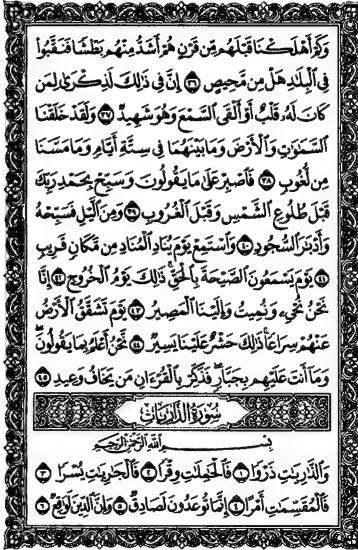
سورة الذاريات

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءُ ذَاتَ الْجُبِّ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي

قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أُولَئِكَ ﴿٩﴾ قُلِ الْخَرَصُونَ

﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ

الدِّينِ ﴿١٢﴾ ﴿١٣﴾



١- وصف الوعد بكونه صادقاً أبلغ من وصفه

بكونه صادقاً ولا حاجة إلى تكلف جعله بمعنى مصدوق فيه، بل هو صادق نفسه كما يوصف المتكلم بأنه صادق في كلامه فوصف كلامه بأنه صادق وهذا مثل قولهم سر كاتم وليل قاتم ونهار صائم وماء دافق، ومنه ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ وليس ذلك بمجاز ولا مخالف لمقتضى التركيب.

وإذا تأملت هذا التناسب والارتباط بين المقسم به والمقسم عليه وجدته دالاً عليه مرشداً إليه.

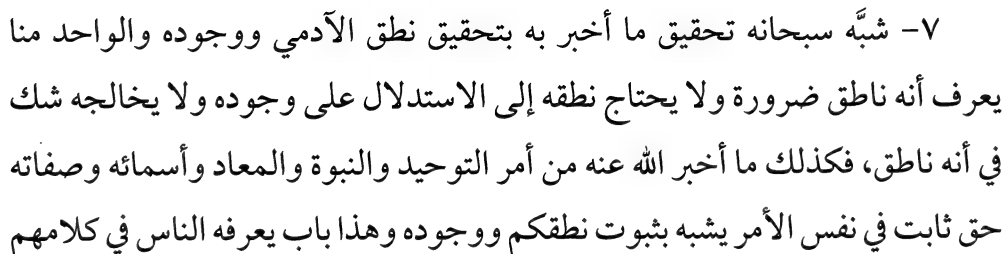
٢- فالقول المختلف أقوالهم في القرآن وفي النبي وهو خرص كله، فإنهم لما كذبوا بالحق اختلفت مذاهبهم وآراؤهم وطرائقهم وأقوالهم، فإن الحق شيء واحد وطريق مستقيم، فمن خالفه اختلفت به الطرق والمذاهب كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ (٥)، أي: مختلط ملتبس وفي ضمن هذا الجواب أنكم في أقوال باطلة متناقضة يكذب بعضها بعضاً، ثم أخبر سبحانه بسبب تكذيبهم بالحق.

[illegible]

ومنها: رضاهم به.

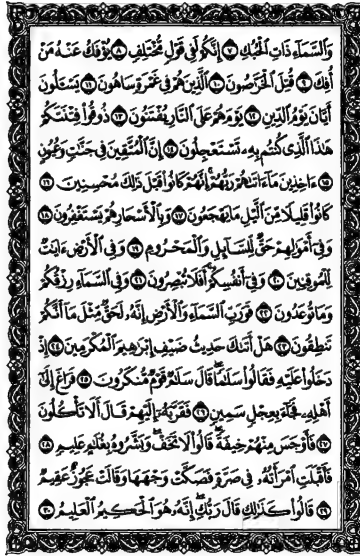
ومنها: أن جزاءهم من جنس أعمالهم، فكما أخذوا ما أمرهم به في الدنيا وقابلوه بالرضا والتسليم وانشرح الصدر أخذوا ما آتاهم من الجزاء كذلك.

٥- وتأمل حكمة الرب تعالى في كونه حرمة بقضائه وشرع لأصحاب الجدة إعطاءه وهو أغنى الأغنياء وأجود الأجودين، فلم يجمع عليه بين الحرمان بالقدر وبالشرع شرع عطاءه بأمره وحرمة بقدره، فلم يجمع عليه حرمانين.



يقول أحدهم: هذا حق مثل الشمس، وأفصح الشاعر عن هذا بقوله:

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل



قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَأَىٰ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بَعْلَكُمُ عَلِيمٌ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَاقَتٍ فَصَكَتَ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠) .

٨- في هذا الشئاء على إبراهيم من وجوه متعددة:

أحدها: أنه وصف ضيفه بأنهم مكرمون وهذا على أحد القولين أنه إكرام إبراهيم لهم أنهم المكرمون عند الله، ولا تنافي بين القولين، فالآية تدل على المعنيين.

الثاني: قوله تعالى: ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ ﴾ فلم يذكر استئذانهم، ففي هذا دليل على أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان قد عرف بإكرام الضيفان واعتياد قراهم، فبقي منزله مضيضة مطروقا لمن ورده لا يحتاج إلى الاستئذان، بل استئذان الداخل دخوله وهذا غاية ما يكون من الكرم.

الثالث: قوله لهم: ﴿ سَلَامٌ ﴾ بالرفع، وهم سلموا عليه بالنصب، والسلام بالرفع أكمل، فإنه يدل على الجملة الاسمية الدالة على الثبوت والتجدد، والمنصوب يدل على الفعلية الدالة على الحدوث والتجدد، إبراهيم حياهم أحسن من تحيتهم، فإن

الرابع: أنه حذف من قوله: ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾، فإنه لما أنكرهم ولم يعرفهم احتشم من مواجهتهم بلفظ ينفر الضيف لو قال: أنتم قوم منكرون. فحذف المبتدأ هنا من أطف الكلام.

وَالنَّسَاءُ ذَاتُ الْحَيْضِ ۖ إِذَا كُنَّ فِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ۖ يُؤَيِّدُ بَعْضُهُنَّ الْآخَرَ ۖ فَتَأْخُذُ بِهِ ۚ وَاللَّيْظُ مِنَ الْقَوْمِ هَؤُلَاءِ ۚ وَنَسْأَلُونَ
أَتَانًا يَوْمَ الْاِذِينَ ۖ وَيَوْمَ يُعْرَلُ السَّيْفُ بِمَنِّهِمْ ۖ فَذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ ۚ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِرُءُوسِهِمْ تَسْتَعْجِلُونَ ۚ وَإِنَّ الْعَاقِبِينَ فِي خَيْرٍ وَحُسْنِ
حَالٍ ۚ وَأُولَئِكَ مَتَابَعُهُمْ ۚ قُلْ أُوذِيَ بِالْكَافِرِ ۚ إِنَّكَ أَكْبَرُ مَحْشُودٍ ۚ
وَأَقْبَلُوا لِلْاِذِينَ ۚ وَالْمُحَاقِقُونَ ۚ وَالْأَشْقَاتُ هُمْ يَسْتَعْجِلُونَ ۚ
وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّأَتَائِهِمُ السَّابِلِ ۚ وَالْمُخْرَجِينَ ۚ وَفِي الْأَنْفُسِ هَيْئَةٌ
لِّلْمُتَّقِينَ ۚ وَفِي الْغُلُقُوتِ أَفْئِدَةٌ كَثِيرَةٌ ۚ وَفِي السَّيِّئَاتِ رُذُوقٌ
وَمَا يُؤْمِنُونَ ۚ وَفَرَّقَ النَّسَاءُ وَالْأَرْضَ ۚ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكَ
تَنْظُرُونَ ۚ قَالَ إِنَّكَ لَكَاذِبٌ ۚ حَدِيثُ ضَيْفٍ إِزْهِيهِ لِّلْمُكْرِمِينَ ۚ إِذْ
دَخَلُوا عَلَيْهِمْ فَقَالُوا فَالَّذِي أَكَلْنَا قَالَ سَلَطَنَةٌ فُتِحَتْ كُرُورُ ۚ وَفَرَعَ الْغُلُقُوتِ
أَعْلَاهُ فَجَعَلَ يَعْبُلُ سَبِينَ ۚ فَقَرَأَ الْيَاسِينَ ۚ قَالَ الْاِذِينَ قَالُوا أَطْلَعُونَ
ۚ فَأَنْصَبُوا مِنْهُمْ خَبِيقَةً ۚ قَالَ الْاِذِينَ وَنَحْنُ بِرُءُوسِهِمْ عَلِيلَةٌ ۚ
فَأَلْبَسَ أَمْرَانَهُ ۚ فِي صُرُوفِهِمْ كُنَّ وَجْهَهَا وَأَوَّلَ عَجْرٍ عُصْفٍ ۚ
فَقَالُوا كَيْتُكَ ۚ قَالَ زَيْلٌ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ۚ

بخلاف من يسمع ضيفه ويقول له أو لمن حضر مكانكم حتى آتيكم بالطعام ونحو ذلك مما يوجب حياء الضيف واحتشامه.

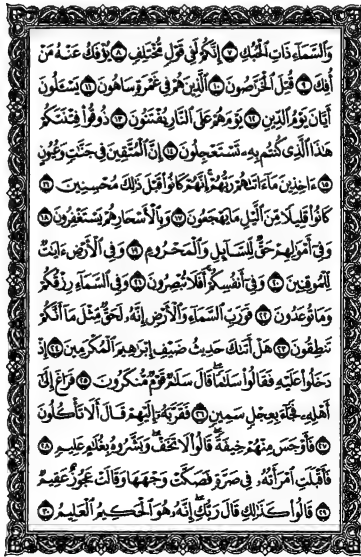
الثامن: قوله تعالى: ﴿فَجَاءَ بِعِجْلِ سَمِينٍ﴾ دل على خدمته للضيف بنفسه، ولم يقل فأمر لهم، بل هو الذي ذهب وجاء به بنفسه ولم يبعثه مع خادمه وهذا أبلغ في إكرام الضيف.

التاسع: أنه جاء بعجل كامل ولم يأت بيضعة منه وهذا من تمام كرمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

العاشر: إنه سمين لا هزيل ومعلوم أن ذلك من أفخر أموالهم ومثله يتخذ للاقتناء والتربية فأثر به ضيفانه.

الحادي عشر: أنه قربه إليهم بنفسه ولم يأمر خادمه بذلك.

الثاني عشر: أنه قربه ولم يقرّبهم إليه وهذا أبلغ في الكرامة أن يجلس الضيف، ثم يقرب الطعام إليه ويحمله إلى حضرته ولا يضع الطعام في ناحية، ثم يأمر الضيف بأن يتقرب إليه.



الثالث عشر: أنه قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ وهذا عرض وتلطف في القول وهو أحسن من قوله كلوا أو مدوا أيديكم، وهذا مما يعلم الناس بعقولهم حسنه ولطفه، ولهذا يقولون باسم الله، أو ألا تتصدق، أو ألا تجبر، ونحو ذلك.

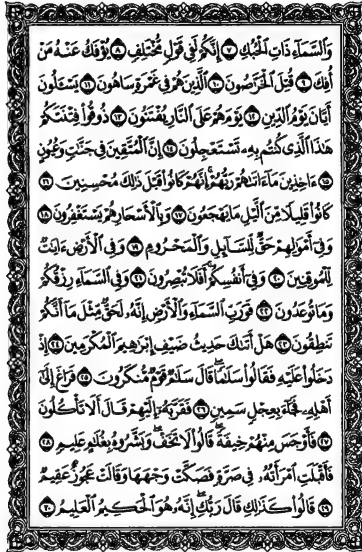
الرابع عشر: أنه إنما عرض عليهم الأكل لأنه رآهم لا يأكلون، ولم يكن ضيوفه يحتاجون معه إلى الإذن في الأكل، بل كان إذا قدم إليهم الطعام أكلوا،

وهؤلاء الضيوف لما امتنعوا من الأكل قال لهم: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ولهذا أوجس منهم خيفة، أي: أحسها وأضمرها في نفسه ولم يبدها لهم وهو الوجه.

الخامس عشر: فإنهم لما امتنعوا من أكل طعامه خاف منهم ولم يظهر لهم ذلك، فلما علمت الملائكة منه ذلك قالوا: ﴿لَا تَخَفْ﴾ وبشروه بالسلام.

فقد جمعت هذه الآية آداب الضيافة التي هي أشرف الآداب وما عداها من التكاليف التي هي تخلف وتكلف إنما هي من أوضاع الناس وعوائدهم، وكفى بهذه

الآداب شرفا وفخرا، فصلى الله على نبينا وعلى إبراهيم وعلى آلهما، وعلى سائر
النبيين. (جلاء الأفهام ١٥٦-١٥٩).



فعهدي بك إذا قرأت هذه الآية وتطلعت إلى
معناها وتدبرتها، فإنما تطلع منها على أن الملائكة
أتوا إبراهيم في صورة الأضياف يأكلون ويشربون
وبشروه بغلام عليم، وإنما امرأته عجبت من ذلك
فأخبرتها الملائكة أن الله قال ذلك. ولم يتجاوز
تدبرك غير ذلك.

فاسمع الآن بعض ما في هذه الآيات من أنواع
الأسرار:

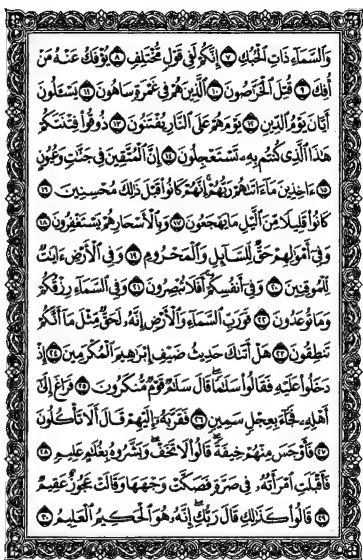
📖 قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ (٢٤) ❦

٩- افتتح سبحانه القصة بصيغة موضوع للاستفهام، وليس المراد بها حقيقة

الاستفهام، ولهذا قال بعض الناس: إن (هل) في مثل هذا الموضع بمعنى (قد)
التي تقتضي التحقيق، ولكن في ورود الكلام في مثل هذا بصيغة الاستفهام سر لطيف،
ومعنى بديع، فإن المتكلم إذا أراد أن يخبر المخاطب بأمر عجيب ينبغي الاعتناء به،
وإحضار الذهن له صدر له الكلام بأداة الاستفهام لتنبيه سمعه وذهنه للمخبر به، فتارة
يصدره بآلا، وتارة يصدره بهل، فقول: هل علمت ما كان من كيت وكيت؟ إما مذكرا
به، وإما واعظا له مخوفا، وإما منبها على عظمه ما يخبر به، وإما مقرر له.

فقوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ (١٥) ❦ و ﴿ هَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصَمِ ﴾ ❦ و ﴿ هَلْ
أَتَاكَ حَدِيثُ الْعَشِيَةِ ﴾ (١) ❦ و ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ (٢٤) ❦ متضمن

لتعظيم هذه القصص والتنبية على تدبرها ومعرفتها ما تضمنته.



١٠- ففيه أمر آخر: وهو التنبيه على أن إتيان هذا إليك علم من أعلام النبوة، فإنه من الغيب الذي لا تعمله أنت ولا قومك، فهل أتاك من غير أعلامنا وإرسالنا وتعريفنا؟ أم لم يأتك إلا من قبلنا؟

١١- فانظر ظهور هذا الكلام بصيغة الاستفهام، وتأمل عظم موقعه من جميع موارد يشهد أنه من الفصاحة في ذروتها العليا.

وقوله: ﴿صَيْفُ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ متضمن لثنائه على خليله إبراهيم.

١٢- وقوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَاقَتِهَا فَفَصَكَتَ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ فيه بيان ضعف عقل المرأة وعدم ثباتها، إذ بادرت إلى الندبة فصكت الوجه عند هذا الإخبار.

١٣- وقوله: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ فيه حسن أدب المرأة عند خطاب الرجال واقتصارها من الكلام على ما يتأدى به الحاجة، فإنها حذفت المبتدأ ولم تقل أنا عجوز عقيم، واقتصرت على ذكر السبب الدال على عدم الولادة لم تذكر غيره، وأما في سورة هود فذكرت السبب المانع منها ومن إبراهيم وصرحت بالعجب.

١٤- وقوله تعالى: ﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾ متضمن لإثبات صفة القول له.

١٥- وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ متضمن لإثبات صفة الحكمة والعلم اللذين هما مصدر الخلق والأمر، فجميع ما خلقه سبحانه صادر عن علمه وحكمته،

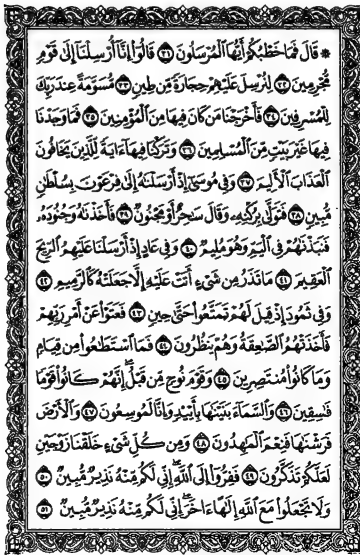
وكذلك أمره وشرعه مصدره عن علمه وحكمته.

والعلم والحكمة متضمنان لجميع صفات الكمال، فالعلم يتضمن الحياة ولوازم كمالها من القيومية والقدرة والبقاء والسمع والبصر وسائر الصفات التي يستلزمها العلم التام.

واختصت هذه القصة بذكر هذين الاسمين لاقتضائهما لتعجب النفوس من تولد

مولود بين أبوين لا يولد لمثلهما عادة، وخفاء العلم بسبب هذا الإيلاد، وكون الحكمة اقتضت جريان هذه الولادة على غير العادة المعروفة، فذكر في الآية اسم العلم والحكمة المتضمن لعلمه سبحانه بسبب هذا الخلق وغايته وحكمته في وضعه موضعه من غير إخلال بموجب الحكمة.

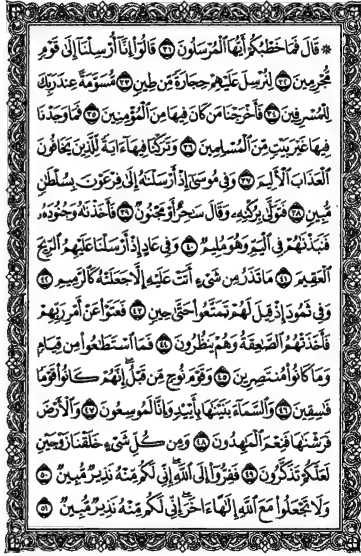
قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاخْطَبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (٣١) ﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَجْرٍ مِنْ قَبْلِهِ لِيُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ (٣٢).



١٦- ذكر سبحانه وتعالى قصة الملائكة في إرسالهم لهلاك قوم لوط، وإرسال الحجارة المسومة عليهم. وفي هذا ما يتضمن تصديق رسله وإهلاك المكذبين لهم والدلالة على المعاد والثواب والعقاب لوقوعه عياناً في هذا العالم، وهذا من أعظم الأدلة الدالة على صدق رسله لصحة ما أخبروا به عن ربهم.

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣٥) ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣٦).

١٧- فرق بين الإسلام والإيمان هنا لسر اقتضاه الكلام، فإن الإخراج هنا عبارة عن النجاة فهو إخراج نجاة من العذاب، ولا ريب أن هذا مختص بالمؤمنين المتبعين للرسول ظاهراً وباطناً.



وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٢٦﴾ لما كان الموجودون من المخرجين أوقع اسم الإسلام عليهم؛ لأن امرأة لوط كانت من أهل هذا البيت وهي مسلمة في الظاهر، فكانت في البيت الموجودين لا في القوم الناجين، وقد أخبر سبحانه عن خيانة امرأة لوط، وخيانتها أنها كانت تدل قومها على أضيافه وقلبها معهم، وليست خيانة فاحشة، فكانت من أهل البيت المسلمين ظاهراً، وليست من المؤمنين الناجين.

ومن وضع دلالة القرآن وألفاظه مواضعها تبين له من أسرارهِ وحكمة ما يبهر العقول ويعلم أنه تنزيل من حكيم حميد.

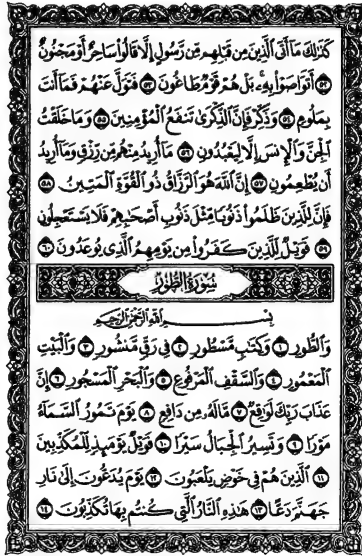
وبهذا خرج الجواب عن السؤال المشهور وهو أن الإسلام أعم من الإيمان، فكيف استثناء الأعم من الأخص، وقاعدة الاستثناء تقتضي العكس وتبين أن المسلمين المستثنى مما وقع عليه فعل الوجود، والمؤمنين غير مستثنى منه، بل هم المخرجون الناجون.

وقوله تعالى: ﴿وَرَكَّاهَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ﴿٢٧﴾

١٨- فيه دليل على أن آيات الله سبحانه وعجائبه التي فعلها في هذا العالم

سورة الطور

قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ ١﴾ وَكُتِبَ مَسْطُورٍ ٢ ﴿فِي رَقٍ مَّنشُورٍ ٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ٤ وَالسَّعْفِ الْمَرْفُوعِ ٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوْقُعٌ ٧ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ٨ ﴿٨﴾



١ - في وصفه الكتاب بأنه مسطور تحقيق لكونه مكتوباً مفروغاً منه وفي وصفه بأنه منشور إيدان بالاعتناء به وأنه بأيدي الملائكة منشور غير مهجور.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوْقُعٌ ٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ٨ ﴿٨﴾

٢ - ولما كان الذي يقع قد يمكن دفعه أخبر سبحانه أنه لا دافع له وهذا يتناول أمرين: أحدهما أنه لا دافع لوقوعه، والثاني أنه لا دافع له إذا وقع، ثم ذكر سبحانه وقت وقوعه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ١٧﴾ فَتَكِيهِنَّ بِمَاءٍ النَّهْمِ رَبُّهُمْ وَوَقَّهَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ١٨ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ١٩ مُتَكِينِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ٢٠ ﴿٢٠﴾

٣ - المقصود أنه سبحانه جمع لهم بين النعيمين: نعيم القلب بالتفكه، ونييم البدن بالأكل والشرب والنكاح، ووقاهم عذاب الجحيم، فوقاهم مما يكرهون وأعطاهم ما يحبون جزاء وفاقاً؛ لأنهم تركوا ما يكره وأتوا بما يحب، فكان جزاؤهم مطابقاً لأعمالهم، ثم أخبر عن دوام ذلك لهم بما أفهمه قوله هنيئاً. فإنهم لو علموا

وفي ذكر اصطفاؤها تنبيه على كمال النعمة عليهم بقرب بعضهم من بعض ومقابلة بعضهم بعضا كما قال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَدِّمِينَ﴾ (١٦)، فإن من تمام اللذة والنعيم أن يكون مع الإنسان في بستانه ومنزله من يحب معاشرته ويؤثر قربه، ولا يكون بعيداً منه قد حيل بينه وبينه، بل سريره إلى جانب سرير من يحبه.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ٢١﴾ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَنْزِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْسٍ ﴿٢٣﴾ وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنْ آتَاهُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّعْنَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾

أَفَبِعَذَابِنَا أَنتُمْ لَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥﴾ أَفَلَا تَضْحَكُونَ ﴿١٦﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِأَبِيهِ إِذْ عَلَّمَهُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ قُلْ أَنَا خَشَعْتُ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ فَاسْمِعْ لِيَ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ بَيْنَهُمَا عِشْرِينَ مَرَّةً وَهُوَ غَافِلٌ عَنِّي ﴿١٧﴾ وَإِذْ قَالَ زَكَرِيَّا إِذْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى الْإِسْحَاقَ إِنَّمَا عَظَّمْتُمُ الْمَسْجِدَ وَتَضَاعَفْتُمُ الْحَقَّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ بَيْنَهُمَا عِشْرِينَ مَرَّةً وَهُوَ غَافِلٌ عَنِّي ﴿١٨﴾ وَإِذْ قَالَ يَسَّىٰ إِذَا هُوَ مُوَدِّعٌ لِّأَهْلِ بَيْتِهِ إِذْ يَنْصَرِفُ أَتَىٰ عَلَى الْغَدَاةِ صِغَرًا فَتَبِعَهُنَّ حَتَّىٰ دَخَلَ الْمَدِينَةَ بِأَنَّهَا تَافِتَةٌ إِذْ فِيهَا صَافُّةٌ تُدْخِلُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ فِي الضُّلَّةِ فَاتَّبَعَ حَتَّىٰ دَخَلَ الْكَنَّةَ فَاتَّبَعَ فِيهَا فَسَوَّغَ لَهَا مِنْ عَزْلَىٰ غَايَةِ الْكَنَّةِ فَكَلَبَ يَدَيْهَا فَكَسَّرَهَا وَلِفَتَاتٍ ﴿١٩﴾ وَكَانَ صَافُّةٌ تُدْخِلُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ فِي الضُّلَّةِ فَاتَّبَعَ حَتَّىٰ دَخَلَ الْكَنَّةَ فَاتَّبَعَ فِيهَا فَسَوَّغَ لَهَا مِنْ عَزْلَىٰ غَايَةِ الْكَنَّةِ فَكَلَبَ يَدَيْهَا فَكَسَّرَهَا وَلِفَتَاتٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذْ قَالَ يَسَّىٰ إِذَا هُوَ مُوَدِّعٌ لِّأَهْلِ بَيْتِهِ إِذْ يَنْصَرِفُ أَتَىٰ عَلَى الْغَدَاةِ صِغَرًا فَتَبِعَهُنَّ حَتَّىٰ دَخَلَ الْمَدِينَةَ بِأَنَّهَا تَافِتَةٌ إِذْ فِيهَا صَافُّةٌ تُدْخِلُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ فِي الضُّلَّةِ فَاتَّبَعَ حَتَّىٰ دَخَلَ الْكَنَّةَ فَاتَّبَعَ فِيهَا فَسَوَّغَ لَهَا مِنْ عَزْلَىٰ غَايَةِ الْكَنَّةِ فَكَلَبَ يَدَيْهَا فَكَسَّرَهَا وَلِفَتَاتٍ ﴿٢١﴾

٤- أخبر سبحانه عن تكميل نعيمهم بإلحاق ذرياتهم بهم في الدرجة وإن لم يعملوا أعمالهم لتقر أعينهم بهم ويتم سرورهم وفرحهم، وأخبر سبحانه أنه لم ينقص الآباء من عملهم من شيء بهذا الإلحاق فينزلهم من الدرجة العليا إلى الدرجة السفلى، بل ألحق الأبناء بالآباء ووفر على الآباء أجورهم ودرجاتهم

ثم أخبر سبحانه أن هذا إنما هو فعله في أهل الفضل وأما أهل العدل فلا يفعل بهم ذلك، بل ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ ففي هذا دفع لتوهم التسوية بين الفريقين بهذا

الإلحاق كما في قوله: ﴿وَمَا أَلَنَّهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ دفع لتوهم حط الآباء إلى درجة الأبناء وقسمة أجور الآباء بينهم وبين الأبناء فينقص أجر أعمالهم، فرفع هذا التوهم بقوله: ﴿وَمَا أَلَنَّهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾، أي: ما نقصناهم.

٥- قوله تعالى: ﴿لَا تَغَوْفِهَا وَلَا تَأْتِيَنَّ﴾ فنفي باللغو السباب والتخاصم والهجر

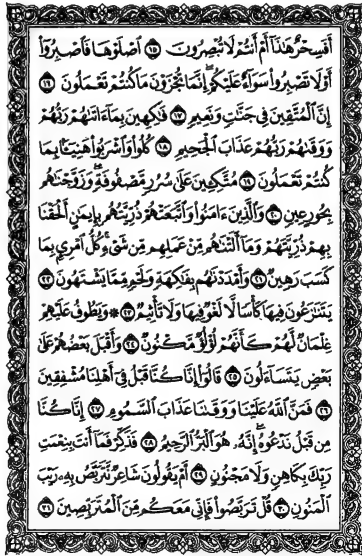
والفحش في المقال والعريضة، ونفي بالتأثيم جميع الصفات المذمومة التي أثمت شارب الخمر.

٦- وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَأْتِيَنَّ﴾ ولم يقل ولا إثم، أي: ليس فيها ما يحملهم على الإثم ولا يؤثم بعضهم بعضًا بشربها ولا يؤثمهم الله بذلك ولا الملائكة فلا يلغون ولا يأتون، قال ابن قتيبة: لا يذهب بعقولهم فيلغوا ولم يقع منهم ما يؤثمهم.

٧- ثم وصف خدمهم الطائفين عليهم بأنهم كاللؤلؤ في بياضهم، والمكنون المصون الذي لا

تدنسه الأيدي، فلم تذهب الخدمة تلك المحاسن وذلك اللون والصفاء والبهجة، بل مع انتصابهم لخدمتهم كأنهم لؤلؤ مكنون ووصفهم في موضع آخر ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لَوْلُؤًا مُسْتَوَرًّا﴾ ففي ذكره المنشور إشارة إلى تفرقهم في حوائج ساداتهم وخدمتهم وذهابهم ومجيئهم وسعة المكان، بحيث لا يحتاجون أن ينضم بعضهم إلى بعض فيه لضيقه.

٨- ثم ذكر سبحانه ما يتحدثون به هناك وأنهم يقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾، أي: كنا خائفين في محل الأمن بين الأهل والأقارب والعشائر، فأوصلنا ذلك الخوف والإشفاق إلى أن من الله علينا فأمننا مما نخاف ﴿وَوَقَّنَا عَذَابَ السَّعِيرِ﴾

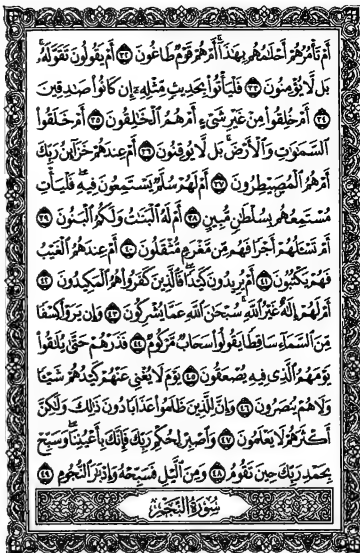


وهذا ضد حال الشقي الذي كان في أهله مسرورًا، فهذا كان مسرورًا مع إساءته وهؤلاء كانوا مشفقين مع إحسانهم، فبدل الله سبحانه إشفاقهم بأعظم الأمن، وبدل أمن أولئك بأعظم المخاوف، فبالله سبحانه المستعان. (التيان في أحكام القرآن ٢٦٤-٢٧٨).

٩- فهذا دعاء العبادة المتضمن للسؤال رغبة ورهبة، والمعنى: إنا كنا من قبل نخلص له العبادة وبهذا استحقوا أن وقاهم عذاب السموم لا بمجرد السؤال المشترك بين الناجي وغيره، فإن الله سبحانه يسأله من في السماوات ومن في الأرض والفوز والنجاة إنما هي بإخلاص العبادة لا بمجرد السؤال والطلب. (بدائع الفوائد ٣/ ٦٥).

📖 قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْقِنُونَ﴾ (٣٦) .

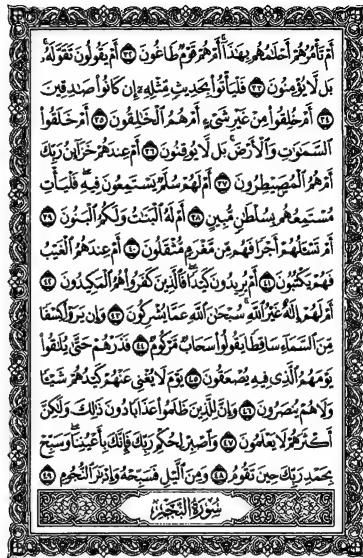
١٠- تأمل هذا التريديد والحصص المتضمن لإقامة الحجة بأقرب طريق وأفصح عبارة يقول تعالى هؤلاء مخلوقون بعد أن لم يكونوا فهل خلقوا من غير خالق خلقهم فهذا من المحال الممتنع عند كل من له فهم وعقل أن يكون مصنوع من غير صانع ومخلوق من غير خالق.



ولو مر رجل بأرض قفر لا بناء فيها، ثم مر بها فرأى فيها بنيانا وقصورا وعمارات محكمة لم يتخالجه شك ولا ريب أن صانعا صنعها وبانيا بناها. ثم قال ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ وهذا أيضا من المستحيل أن يكون العبد موجدا خالقا لنفسه، فإن من لا يقدر أن يزيد في حياته بعد وجوده وتعاطيه أسباب الحياة ساعة واحدة ولا أصبعا ولا ظفرا ولا شعرة

كيف يكون خالقا لنفسه في حال عدمه.

وإذا بطل القسمان تعين أن لهم خالقا خلقهم وفاطرا فطرهم، فهو الإله الحق الذي يستحق عليهم العبادة والشكر فكيف يشركون به إلها غيره وهو وحده الخالق لهم. فإن قيل: فما موقع قوله: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الطور: ٣٦] من هذه الحجة؟ قيل: أحسن موقع، فإنه بين بالقسمين الأولين أن لهم خالقا وفاطرا، وأنهم مخلوقون، وبين بالقسم الثالث أنهم بعد أن وجدوا وخلقوا فهم



عاجزون غير خالقين فإنهم لم يخلقوا نفوسهم ولم يخلقوا السماوات والأرض وأن الواحد القهار الذي لا إله غيره ولا رب سواه هو الذي خلقهم وخلق السماوات والأرض، فهو المتفرد بخلق المسكن والساكن بخلق العالم العلوي والسفلي وما

فيه. (الصواعق المرسلة ٢/ ٤٩٣-٤٩٤).



سورة النجم

قوله تعالى: ﴿إِذَا هَوَىٰ ۖ﴾ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۚ ﴿٢﴾

١- فالناس أربعة أقسام:

[الأول:] ضال في علمه غاو في قصده وعلمه وهؤلاء شرار الخلق وهم مخالفو الرسل.

الثاني: مهتد في علمه غاو في قصده وعمله، وهؤلاء هم الأمة الغضبية ومن تشبه بهم وهو حال كل من عرف الحق ولم يعمل به.

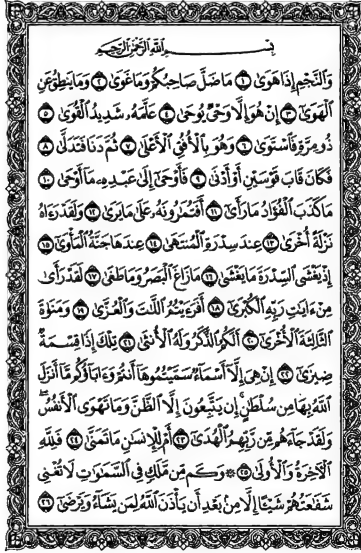
الثالث: ضال في علمه، ولكن قصده الخير وهو لا يشعر.

الرابع: مهتد في علمه راشد في قصده، وهؤلاء ورثة الأنبياء وهم وإن كانوا الأقلين عدداً فهم الأكثرون عند الله قدراً وهم صفوة الله من عباده وحزبه من خلقه.

٢- وتأمل كيف قال سبحانه ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ ولم يقل: ما ضل محمد؛ تأكيداً لإقامة الحجة عليهم بأنه صاحبهم وهم أعلم الخلق به وبحاله وأقواله وأعماله وأنهم لا يعرفونه بكذب ولا غي ولا ضلال ولا ينقمون عليه أمراً واحداً قط وقد نبه على هذا المعنى بقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ وبقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ (٢٣).

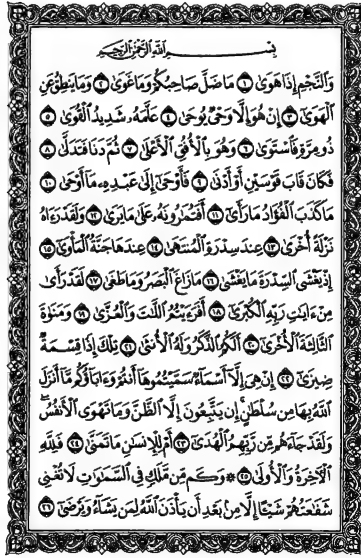
قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ﴾ (٢) إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۖ ﴿٤﴾

٣- قال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (٢) ولم يقل: وما ينطق بالهوى؛ لأن نطقه عن الهوى أبلغ، فإنه يتضمن أن نطقه لا يصدر عن هوى، وإذا لم يصدر عن هوى فكيف



ينطق به فتضمن نفي الأمرين نفي الهوى عن مصدر النطق ونفيه عن نفسه فنطقه بالحق ومصدره الهدى والرشد لا الغي والضلال.

ثم قال: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيُ يُوحَىٰ﴾ ٤ فأعاد الضمير على المصدر المفهوم من الفعل، أي: ما نطقه إلا وحي يوحى وهذا أحسن من قول من جعل الضمير عائداً إلى القرآن، فإنه يعم نطقه بالقرآن والسنة وإن كليهما وحي يوحى.



قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ ٥ ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ﴾ ٦ ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ ٧ ﴿ثُمَّ دَنَا فَدَلَّىٰ﴾ ٨ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ ٩ ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ ١٠

٤- هذا تعديل لسند الوحي والنبوة وتزكية له كما تقدم نظيره في سورة التكويد فوصفه بالعلم والقوة وجمال المنظر وجلالته، وهذه كانت أوصاف الرسول البشري والملكى، فكان رسول الله أشجع الناس وأعلمهم وأجملهم وأجلهم والشياطين وتلاميذهم بضد من ذلك فهم أقبح الخلق صورة ومعنى، وأجهل الخلق وأضعفهم همماً ونفوساً.

٥- قوله: ﴿مَا أَوْحَىٰ﴾ ٥ أبهمه لعظمه، فإن الإبهام قد يقع للتعظيم، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَعَشِيَهُمْ مِّنْ آلِيمٍ مَا عَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨]. أي: أمر عظيم فوق الصفة.

قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ ٧

٦- قال ابن عباس: «ما زاغ البصر يميناً ولا شمالاً، ولا جاوز ما أمر به». وعلى هذا المفسرون، فنفي عن نبه ما يعرض للرأي الذي لا أدب له بين يدي الملوك والعظماء

من التفاته يميناً وشمالاً ومجاورة بصره لما بين يديه، وأخبر عنه بكمال الأدب في ذلك المقام وفي تلك الحضرة، إذ لم يلتفت جانباً، ولم يمد بصره إلى غير ما أرى من الآيات وما هناك من العجائب، بل قام مقام العبد الذي أوجب أدبه وإطراقه وإقباله على ما أرى دون التفاته إلى غيره، ودون تطلعه إلى ما لم يره مع ما في ذلك من ثبات الجأش وسكون القلب وطمأنينته، وهذا غاية الكمال وزين البصر التفاته جانباً وطغيانه مده أمامه إلى حيث ينتهي، فوزه في هذه السورة علمه عن الضلال وقصده وعمله عن الغي ونطقه عن الهوى وفؤاده عن تكذيب بصره وبصره عن الزيغ والطغيان، وهكذا يكون المدح:

تِلْكَ الْمَكَارِمُ لَا قَعْبَانَ مِنْ لَبَنِ شَيْبَا بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالَا

(التبيان في أقسام القرآن ٢٤٢-٢٦٤).

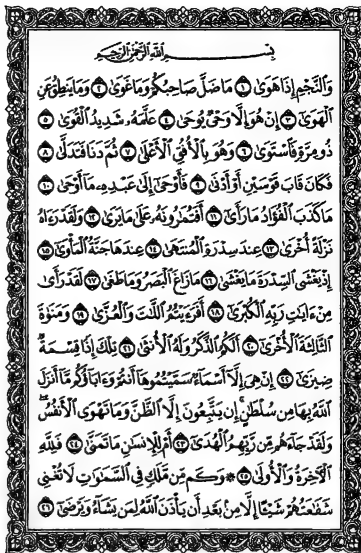
قوله تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾.

٧ - فالظن الشبهة، وما تهوى الأنفس الشهوة، والهدى الذي جاءنا من ربنا مخالف

لهذا وهذا. (الكلام على مسألة السماع ١٧٢).

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْتَبِنُونَ كَثِيرٌ إِلَّا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

٨ - وهذه اللفظة فيها معنى المقاربة والإعتاب بالفعل حيناً بعد حين، فإنه يقال: ألم بكذا، إذا قاربه ولم يغشه، ومن هذا سميت القبلة والغمرة لمما، لأنها تلم بما بعدها، ويقال: فلان لا يزورنا إلا لماما، أي: حيناً بعد حين، فمعنى اللفظة ثابت في الوجهين اللذين



فسر الصحابة بهما الآية، وليس معنى الآية الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم فإنهم لا يجتنبونه، فإن هذا يكون ثناء عليهم بترك اجتناب اللمم، وهذا محال، وإنما هذا استثناء من مضمون الكلام ومعناه، فإن سياق الكلام في تقسيم الناس إلى محسن ومسيء، وأن الله يجزي هذا بإساءته وهذا بإحسانه، ثم ذكر المحسنين ووصفهم بأنهم يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، ومضمون هذا أنه لا يكون محسناً مجزياً بإحسانه، ناجياً من عذاب الله، إلا من اجتنب كبائر الإثم والفواحش، فحسن حينئذ استثناء اللمم،

وإن لم يدخل في الكبائر، فإنه داخل في جنس الإثم والفواحش. (مدارج السالكين ١/ ٣١٥-٣١٩).

قوله تعالى: ﴿أَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وَزَرَ أُخْرَىٰ ۖ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ (٣٨) وَأَن

لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩).

٩- تأمل حسن اجتماع هاتين الآيتين.

ونظيره قوله تعالى: ﴿مَن أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِىٰ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وَزَرَ أُخْرَىٰ ۚ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (١٥) فحكم سبحانه

لأعدائه بأربعة أحكام هي غاية العدل والحكمة:

أحدها: أن هدى العباد بالإيمان والعمل الصالح لنفسه لا لغيره.

الثاني: أن ضلاله بفوات ذلك وتخلفه عنه على نفسه لا على غيره.

الثالث: أن أحدا لا يؤاخذ بجريرة غيره.

الرابع: أنه لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه برسله.

فتأمل ما في ضمن هذه الأحكام الأربعة من حكمته تعالى وعدله وفضله والرد



على أهل الغرور والأطماع الكاذبة وعلى أهل الجهل بالله وأسمائه وصفاته.

﴿قوله تعالى: ﴿وَأَن إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾﴾

١٠- متضمن لكثرة عظيم: وهو أن كل مراد إن لم يرد لأجله ويتصل به، وإلا



فهو مضمحل منقطع، فإنه ليس إليه المنتهى وليس المنتهى إلا إلى الذي انتهت إليه الأمور كلها، فانتَهت إلى خلقه ومشيئته وحكمته وعلمه، فهو غاية كل مطلوب، وكل محبوب لا يُحِبُّ لأجله فمحبته عناء وعذاب، وكل عمل لا يراد لأجله، فهو ضائع وباطل وكل قلب لا يصل إليه، فهو شقي محجوب عن سعادته وفلاحه فاجتمع ما يراد منه كله في قوله:

﴿وَأَن إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ واجتمع ما يراد له كله في قوله: ﴿وَأَن إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ فليس

وراءه سبحانه غاية تطلب، وليس دونه غاية إليها المنتهى.

وتحت هذا سر عظيم من أسرار التوحيد: وهو أن القلب لا يستقر ولا يطمئن ويسكن إلا بالوصول إليه وكل ما سواه مما يحب ويراد فمراد لغيره وليس المراد المحبوب لذاته إلا واحد إليه المنتهى، ويستحيل أن يكون المنتهى إلى اثنين كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين، فمن كان انتهاء محبته ورغبته وإرادته وطاعته إلى غيره بطل عليه ذلك وزال عنه وفارقه أحوج ما كان إليه، ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو سبحانه ظفر بنعمه ولذته وبهجته وسعادته أبد الآباد. (الفوائد ١٩٦-١٩٧).



سورة القمر

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ﴿١٧﴾

خُتُّوا بِالنَّارِ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١﴾ وَالْجَنَّةَ الَّتِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢﴾ مُنْذُ بَنُوا إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَاذِبُونَ كَذِبًا غَيْرًا ﴿٣﴾ كَذِبَتْ قُلُوبُهُمْ فَوُضِعَ الْكُفْرُ أَعْدَادًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا لِمَ تُدْعَوْنَ إِلَى دِينٍ قَدِ انقَضَى عَنْ آبَائِكُمْ وَلَكُمْ آلُكُمْ قُلْ دِينُ اللَّهِ هُوَ الَّذِي قُضِيَ لَهُ الْاَمْرُ قَدْ قُدِّرَ ﴿٥﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٧﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٨﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٧﴾

١- أيسر شيء على النفوس تحصيله وحفظه وفهمه، فإنه كتاب الله الذي يسره للذكر كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧]. قال البخاري في صحيحه: قال مطر الوراق: هل من طالب علم فيعان عليه؟ ولم يقل: فتضيع عليه مصالحه وتتعطل معاشه عليه، وسنة رسوله وهي بحمد الله تعالى مضبوطة محفوظة، وأصول الأحكام التي تدور عليها نحو خمسمائة حديث، وفرشها وتفصيلها نحو أربعة آلاف حديث وإنما الذي هو في

غاية الصعوبة والمشقة مقدرات الأذهان وأغلوطات المسائل والفروع والأصول التي ما أنزل الله بها من سلطان. (إعلام الموقعين ٢/ ٢٣٨).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْنَدٍ ﴿٥٥﴾

٢- فسمى الجنة مقعد صدق لحصول كل ما يراد من المقعد الحسن فيها كما يقال: مودة صادقة، إذا كانت ثابتة تامة وحلاوة صادقة وجملة صادقة، ومنه الكلام الصدق لحصول مقصوده منه وموضع هذه اللفظة في كلامهم الصحة والكمال، ومنه الصدق في الحديث والصدق في العمل. (حادي الأرواح ٨٩-٩٠).

سورة الرحمن

﴿قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤﴾﴾



١- دلت هذه الكلمات على إعطائه سبحانه مراتب الوجود بأسرها.

فقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ إخبار عن الإيجاد الخارجي العيني، وخص الإنسان بالخلق؛ لأنه موضع العبرة.

وقوله: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ إخبار عن إعطاء الوجود العلمي الذهني فإنما تعلم الإنسان القرآن بتعليمه كما انه إنما صار إنسانا بخلقه، فهو الذي خلقه وعلمه.

ثم قال: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ والبيان يتناول مراتب ثلاثة كل منها يسمى بيانا:

أحدها: البيان الذهني الذي يميز فيه بين المعلومات.

الثاني: البيان اللفظي الذي يعبر به عن تلك المعلومات.

الثالث: البيان الرسمي الخطي الذي يرسم به تلك الألفاظ فيتبين الناظر معانيها كما يتبين للسامع معاني الألفاظ (حادي الأرواح ٩١-٩٢).

فهذا بيان للعين، وذاك بيان للسمع، والأول بيان للقلب.

وكثيرا ما يجمع سبحانه بين هذه الثلاثة كقوله: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ

وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْعَدَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ويذم من عدم الانتفاع بها في اكتساب الهدى والعلم النافع كقوله: ﴿صُمُّ بُكُمْ عُمَى﴾ وقوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غِشْوَةً﴾.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿١٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴿١٥﴾

٢- خاطب النوعين بالخطاب المتضمن لاستدعاء الإيمان منهم، وإنكار تكذيبهم بالآية، وترغيبهم في وعده، وتخويفهم من وعيده، وتهديدهم بقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ ﴿٣١﴾ [الرحمن: ٣١]. وتخويفهم من عواقب ذنوبهم، وأنه لعلمه بها لا يحتاج أن يسألهم عنها سؤال استعلام، بل يعرف المجرمون منهم بسيماهم فيؤخذ بنواصيهم والأقدام، ثم ذكر عقاب الصنفين وثوابهم.

وهذا كله تصريح في أنهم هم المكلفون المأمورون المنهون المثابون المعاقبون.

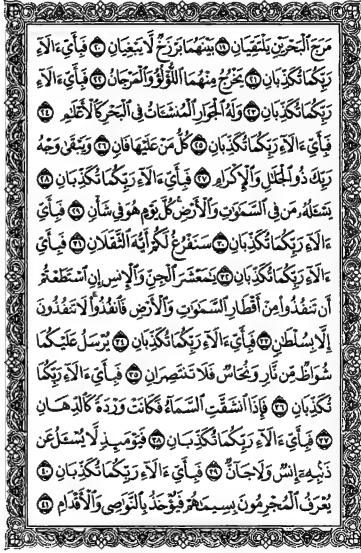
﴿قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿١٨﴾﴾.

٣- مجيء المشرق والمغرب في القرآن تارة مجموعين، وتارة مثنيين، وتارة مفردين، لاختصاص كل محل بما يقتضيه من ذلك.

فتأمل وروده مثنى في سورة الرحمن لما كان مساق السورة مساق المثنائي المزدوجات، فذكر أولاً نوعي الإيجاد وهما الخلق والتعظيم، ثم ذكر سراجي العالم ومظهري نوره وهما الشمس والقمر، ثم ذكر نوعي النبات ما قام منه على



ساق وما انبسط منه على وجه الأرض وهما النجم والشجر، ثم ذكر نوعي السماء المرفوعة والأرض الموضوعة وأخبر أنه رفع هذه ووضع هذه ووسط بينهما ذكر



الميزان، ثم ذكر العدل والظلم في الميزان فأمر بالعدل ونهى عن الظلم ذكر نوعي الخارج من الأرض وهما الحبوب والثمار، ثم ذكر خلق نوعي المكلفين وهما نوع الإنسان ونوع الجان، ثم ذكر نوعي المشرقين ونوعي المغربين، ثم ذكر بعد ذلك البحرين الملح والعذب، فتأمل حسن تثنية المشرق والمغرب في هذه السورة وجلالة ورودهما لذلك وقدر موضعهما. (بدائع الفوائد ١/ ١٢١).

قوله تعالى: ﴿كُلٌّ مِنْ عَلَيْهَا فَإِنْ﴾

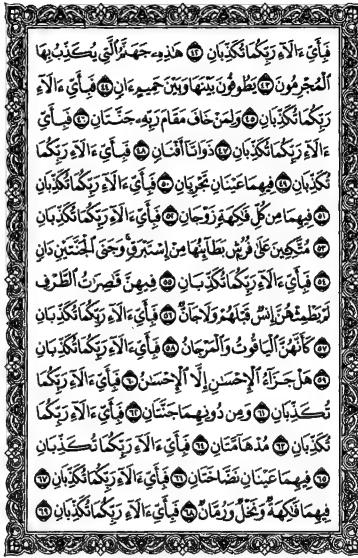
٤- لم يقل: (فيها)؛ لأن عند الفناء ليس الحال حال القرار والتمكين. (بدائع الفوائد

٤/ ٢١٠).

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾

٥- أضاف الذنوب إلى الثقلين، وهذا دليل على أنهما سويا في التكليف.

واختلف في هذا السؤال المنفي، فقيل: هو وقت البعث والمصير إلى الموقف لا يسألون حينئذ ويسألون بعد إطالة الوقوف واستشفاعهم إلى الله أن يحاسبهم ويريحهم من [مقابلهم] ذلك. وقيل: المنفي سؤال الاستعلام والاستخبار، لا سؤال المحاسبة والمجازاة، أي: قد علم الله ذنوبهم فلا يسألهم عنها سؤال من يريد علمها، وإنما يحاسبهم عليها.



﴿ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ ٤٦ ﴾

٦- هذا يدل على أن ثواب محسنهم الجنة من وجوه:

أحدها: أن «مَنْ» من صيغ العموم، فتناول كل خائف.

الثاني: أنه رتب الجزاء المذكور على خوف مقامه، فدل على استحقاقه به.

والمقصود أن قوله تعالى: ﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾

﴿ جَنَّاتٍ ﴾ ٤٦ يتناول الصنفين من وجوه تقدم منها وجهان.

الثالث: قوله عقيب هذا الوعد: ﴿ فَإِنِّي ءَالِئٌكُمْ مَقَامَكُمْ ﴾ ٤٦.

الرابع: أنه ذكر في وصف نسائهم أنهم: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ [الرحمن: ٥٦]، وهذا والله أعلم معناه أنه لم يطمث نساء الإنس إنس قبلهم، ولا نساء الجن جن قبلهم. (طريق الهجرتين ٣٩١-٣٩٦).

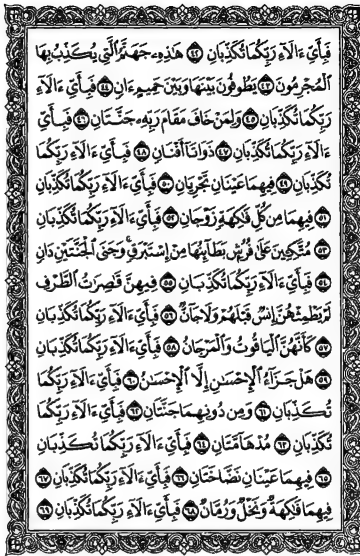
﴿ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ ٦٢ ﴾

٧- وصف الفرش بكونها مبطنة بالإستبرق وهذا يدل على أمرين:

أحدهما: أن ظهائرها أعلى وأحسن من بطائنها؛ لأن بطائنها للأرض وظهائرها للجمال والزينة والمباشرة.

﴿ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ ﴾ ٦٢ ﴾

٨- السياق يدل على تفضيل الجنيتين الأوليين من عشرة أوجه:



أحدها: قوله: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ٤٨﴾ وفيه قولان: أحدهما أنه جمع (فنن) وهو الغصن، والثاني: أنه جمع (فن) وهو الصنف، أي: ذواتا أصناف شتى من الفواكه وغيرها، ولم يذكر ذلك في اللتين بعدهما.

الثاني: قوله: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ٥٠﴾ وفي الآخرين: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ ٦٦﴾ والنضاجة هي الفؤارة والجارية السارحة، وهي أحسن من الفؤارة فإنها تضمن الفوران والجريان.

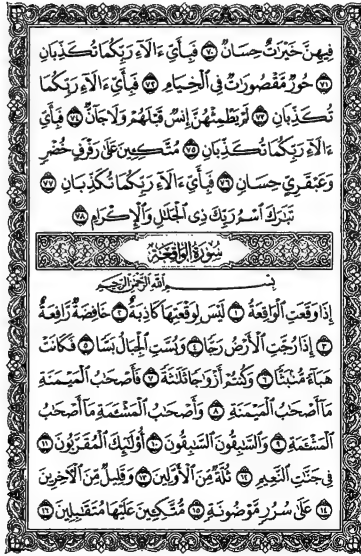
الثالث: أنه قال: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ٥٢﴾

وفي الآخرين: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَانٌ ٦٨﴾ ولا ريب أن وصف الأولين أكمل. واختلف في هذين الزوجين بعد الاتفاق على أنهما صنفان: فقالت طائفة: الزوجان الرطب واليابس الذي لا يقصر في فضله وجودته عن الرطب وهو متمتع به كما متمتع باليابس وفيه نظر لا يخفى. وقالت طائفة: الزوجان صنف معروف وصنف من شكله غريب. وقالت طائفة: نوعان. ولم تزد، والظاهر والله أعلم أنه الحلو والحامض، والأبيض والأحمر، وذلك لأن اختلاف أصناف الفاكهة أعجب وأشهى، وألذ للعين والفم.

الرابع: أنه قال: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ٥٤﴾ وهذا تنبيه على فضل الظواهر وخطرها وفي الآخرين قال: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ٦٦﴾، وفسر الرفرف بالمحابس والبسط، وفسر بالفرش وفسر بالمحابس فوقها، وعلى كل قول فلم يصفه بما وصف به فرش الجنتين الأولين.

الخامس: أنه قال: ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ٥٦﴾ أي: قريب وسهل يتناولونه كيف شاءوا، ولم يذكر ذلك في الآخرين.

السادس: أنه قال: ﴿فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الظَّرْفِ﴾، أي: قد قصرن طرفهن على أزواجهن فلا يرون غيرهم لرضاهن بهم ومحبتهم لهن، وذلك يتضمن قصرهن أطرافهن أزواجهن عليهن فلا يدعهن حسنهن أن ينظروا إلى غيرهن، وقال في الآخرين: ﴿حُرْمٌ مَقْصُورَةٌ فِي الْحَيَامِ ٧٢﴾ ومن قصرت طرفها على زوجها باختيارها أكمل ممن قصرت بغيرها.



السابع: أنه وصفهن بشبه الياقوت والمرجان في صفاء اللون وإشراقه وحسنه ولم يذكر ذلك في التي بعدها.

الثامن: أنه قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي الْجَنَّتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ٦٠﴾ وهذا يقتضي أن أصحابهما من أهل الإحسان المطلق الكامل، فكان جزاؤهم بإحسان كامل.

التاسع: أنه بدأ بوصف الجنتين الأوليين وجعلهما جزءا لمن خاف مقامه، وهذا يدل على أنهما

أعلى جزء الخائف لمقامه، فرتب الجزء المذكور على الخوف ترتيب المسبب على سببه، ولما كان الخائفون على نوعين مقربين وأصحاب يمين ذكر جنتي المقربين، ثم ذكر جنتي أصحاب اليمين.

العاشر: أنه قال: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ٦٢﴾ والسياق يدل على أنه نقيض فوق كما قال الجوهرى، فإن قيل: فكيف انقسمت هذه الجنان الأربع على من خاف مقام ربه؟ قيل: لما كان الخائفون نوعين كما ذكرنا، كان للمقربين منهم الجنتان العاليتان، ولأصحاب اليمين الجنتان اللتان دونهما. (حادي الأرواح ٩١-٩٢).

سورة الواقعة

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنْشَاءً﴾ (٣٥) ﴿فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا﴾ (٣٦) ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ (٣٧) ﴿لِأَصْحَابِ

الْبَيْتِ﴾ (٣٨).

١- جمع سبحانه بين حسن صورتها وحسن عشرتها وهذا غاية ما يطلب من النساء وبه تكمل لذة الرجل بهن. (حادي الأرواح ١٨٣-١٨٥).

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَنَتَعًا لِلْمُقْوِينَ﴾

(٧٢).

٢- خص المقوين بالذكر وإن كانت منفعتها عامة للمسافرين والمقيمين تنبيها لعباده- والله أعلم

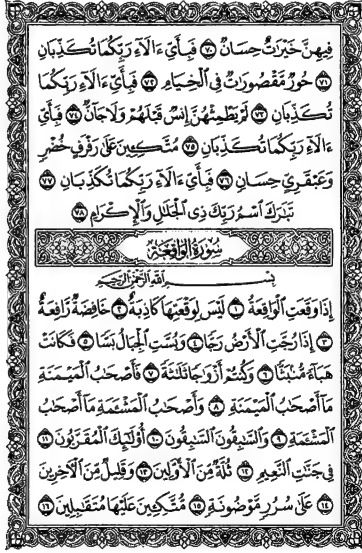
بمراده من كلامه- على أنهم كلهم مسافرون وأنهم في هذه الدار على جناح سفر ليسوا هم مقيمين ولا مستوطنين وأنهم عابرو سبيل وأبناء سفر. (طريق الهجرتين ١٣١-١٣٢).

قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾ (٧٥) ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾

(٧٦) ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ (٧٧) ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ (٧٨) ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٧٩) ﴿نَزِيلٌ

مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٨٠).

٣- المناسبة بين ذكر النجوم في القسم وبين المقسم عليه وهو القرآن من وجوه: أحدها أن النجوم جعلها الله يهتدى بها في ظلمات البر والبحر وآيات القرآن يهتدى بها في ظلمات الجهل والغي فتلك هداية في الظلمات الحسية وآيات القرآن في الظلمات المعنوية، فجمع بين الهدايتين مع ما في النجوم من الرجوع للشياطين وفي آيات القرآن



من رجوم شياطين الإنس والجن والنجوم آياته المشهودة المعاينة والقرآن آياته المتلوة السمعية مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول.

٤- فوصفه بما يقتضي حسنه وكثرة خيره ومنافعه وجلالته، فإن الكريم هو البهي الكثير الخير العظيم النفع وهو من كل شيء أحسنه وأفضله والله سبحانه وصف نفسه بالكرم ووصف به كلامه ووصف به عرشه ووصف به ما كثر خيره وحسن

منظره من النبات وغيره ولذلك فسر السلف الكريم بالحسن قال الكلبي إنه لقرآن كريم، أي: حسن كريم على الله وقال مقاتل كرمه الله وأعزه لأنه كلامه وقال الأزهري الكريم اسم جامع لما يحمد والله كريم جميل الفعال وإنه لقرآن كريم يحمد لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة وبالجملة فالكريم الذي من شأنه أن يعطي الخير الكثير بسهولة ويسر وضده اللئيم الذي لا يخرج خيره النزر إلا بعسر وصعوبة وكذلك الكريم في الناس واللئيم.

٥- ثم قال تعالى: ﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ ﴾ ﴿ اختلف المفسرون في هذا فقيل: هو اللوح المحفوظ، والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة وهو المذكور في قوله: ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝١٦ ﴾ ويدل على أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة قوله: ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۝٧٨ ﴾ ﴿ فهذا يدل على أنه بأيديهم يمسونه وهذا هو الصحيح في معنى الآية ومن المفسرين من قال: إن المراد به أن المصحف لا يمسّه إلا طاهر.



والأول أرجح لوجه:

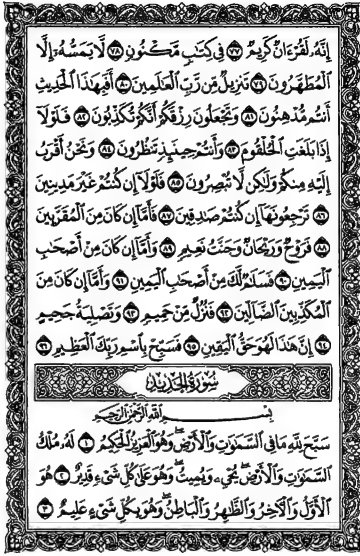
أحدها: أن الآية سقت تنزيهاً للقرآن أن تنزل به الشياطين وأن محله لا يصل إليه فيمسه إلا المطهرون فيستحيل على أخا بخلق الله وأنجسهم أن يصلوا إليه أو يمسه كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ (٢١) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢٢) فنفي الفعل وتأتيه منهم وقدرتهم عليه فما فعلوا ذلك ولا يليق بهم ولا يقدرون عليه، فإن الفعل قد ينتفي عنهم يحسن منه، وقد يليق بمن لا يقدر عليه، فنفي عنهم

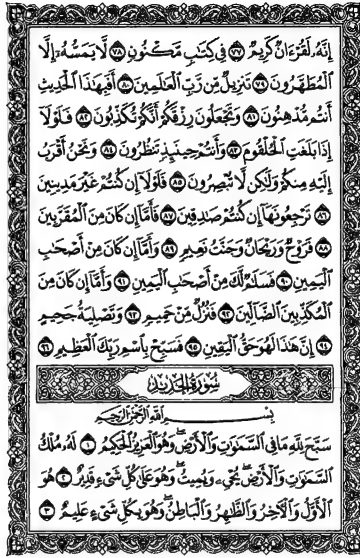
الأمور الثلاثة. وكذلك قوله في سورة عبس: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) فوصف محله بهذه الصفات بياناً أن الشيطان لا يمكنه أن يتنزل به وتقرير هذا المعنى أهم وأجمل وأنفع من بيان كون المصحف لا يمسه إلا طاهر.

الوجه الثاني: أن السورة مكية والاعتناء في السور المكية إنما هو بأصول الدين من تقرير التوحيد والمعاد والنبوة وأما تقرير الأحكام والشرائع فمظنة السور المدنية.

الوجه الثالث: إن القرآن لم يكن في مصحف عند نزول هذه الآية ولا في حياة رسول الله، وإنما جمع في المصحف في خلافة أبي بكر وهذا وإن جاز أن يكون اعتبار ما يأتي فالظاهر أنه إخبار بالواقع حال الأخبار يوضحه:

الوجه الرابع: وهو قوله في كتاب مكنون والمكنون المصون المستور عن الأعين الذي لا تناله أيدي البشر كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ (٤٩) وهكذا قال السلف قال الكلبي مكنون من الشياطين وقال مقاتل مستور وقال مجاهد لا يصيبه تراب ولا غبار وقال أبو إسحاق مصون في السماء يوضحه:





الوجه الخامس: أن وصفه بكونه مكنوناً نظير وصفه بكونه محفوظاً فقوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) كقوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢) يوضحه:

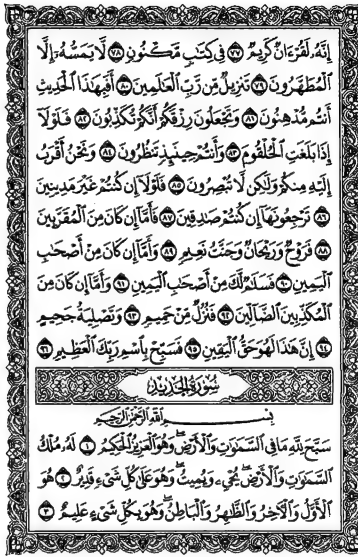
الوجه السادس: أن هذا أبلغ في الرد على المكذبين وأبلغ في تعظيم القرآن من كون المصحف لا يمسه محدث.

الوجه السابع: قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٧٨) بالرفع فهذا خبر لفظاً ومعنى ولو كان نهياً

لكان مفتوحاً ومن حمل الآية على النهي احتاج إلى صرف الخبر عن ظاهره إلى معنى النهي والأصل في الخبر والنهي حمل كل منهما على حقيقته وليس ها هنا موجب يوجب صرف الكلام عن الخبر إلى النهي.

الوجه الثامن: أنه قال: ﴿إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ ولم يقل: إلا المتطهرون. ولو أراد به منع المحدث من مسه لقال: إلا المتطهرون. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾. وفي الحديث: «اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين». فالمُطَهِّرُ فاعل التطهير، والمُطَهَّرُ الذي طهره غيره، فالمتوضئ مُتَطَهِّرٌ، والملائكة مُطَهَّرُونَ.

الوجه التاسع: أنه لو أريد به المصحف الذي بأيدينا، لم يكن في الإخبار عن كونه مكنوناً كبير فائدة، إذ مجرد كون الكلام مكنوناً في كتاب لا يستلزم ثبوته، فكيف يمدح القرآن بكونه مكنوناً في كتاب وهذا أمر مشترك، والآية إنما سيقّت لبيان مدحه وتشريفه



وما اختص به من الخصائص التي تدل على أنه منزل من عند الله وأنه محفوظ مضمون لا يصل إليه شيطان بوجه ما ولا يمس محله إلا المطهرون وهم السفرة الكرام البررة.

الوجه العاشر: ما رواه سعيد بن منصور في سننه حدثنا أبو الأحوص حدثنا عاصم الأحول عن أنس بن مالك في قوله: ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٧٨) قال: المطهرون الملائكة وهذا عند طائفة من أهل الحديث في الحكم المرفوع، وقال الحاكم: تفسير

الصحابة عندنا في حكم المرفوع، ومن لم يجعله مرفوعاً فلا ريب أنه عنده أصح من تفسير من بعد الصحابة، والصحابة أعلم الأمة بتفسير القرآن ويجب الرجوع إلى تفسيرهم وقال حرب في مسائله: سمعت إسحاق في قوله: ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٧٨) قال: النسخة التي في السماء لا يمسها إلا المطهرون، قال: الملائكة.

٦- ودلت الآية بإشارتها وإيمائها على أنه لا يدرك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة وحرام على القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه وأن يفهمه كما ينبغي. قال البخاري في صحيحه: في هذه الآية لا يجد طعمه إلا من آمن به، وهذا أيضاً من إشارة الآية وتنبيهها، وهو أنه لا يلتذ به وبقرائه وفهمه وتدبره إلا من شهد أنه كلام الله تكلم بها حقاً وأنزله على رسوله وحياً ولا ينال معانيه إلا من لم يكن في قلبه حرج منه بوجه من الوجوه، فمن لم يؤمن بأنه حق من عند الله ففي قلبه منه حرج، ومن لم يؤمن بأن الله سبحانه تكلم به وحياً وليس مخلوقاً من جملة مخلوقاته، ففي قلبه منه حرج ومن قال: إن له باطنًا يخالف ظاهره وإن له تأويلًا يخالف ما يفهم

منه ففي قلبه منه حرج ومن قال إن له تأويلاً لا نفهمه ولا نعلمه وإنما نتلوه متعبدين
بألفاظه ففي قلبه منه حرج.



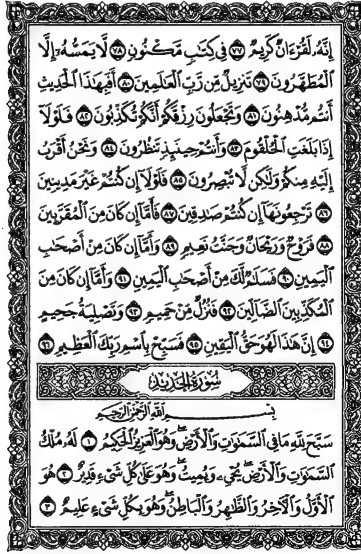
ومن سلط عليه آل الآرائين وهذيان المتكلمين
وسفسطة المسفسطين وخيالات المتصوفين، ففي
قلبه منه حرج ومن جعله تابعا لنحلته ومذهبه وقول
من قلده دينه ينزله على أقواله ويتكلف حمله عليها
ففي قلبه منه حرج، ومن لم يحكمه ظاهراً وباطناً في
أصول الدين وفروعه ويسلم وينقاد لحكمه أين كان،
ففي قلبه منه حرج، ومن لم ياتمر بأوامره وينزجر عن
زواجره ويصدق جميع أخباره ويحكم أمره ونهيه

وخبره ويردله كل أمر ونهي وخبر خالفه ففي قلبه منه حرج، وكل هؤلاء لم تمس قلوبهم
معانيه ولا يفهمونه كما ينبغي أن يفهم ولا يجدون من لذة حلاوته وطعمه ما وجده
الصحابة ومن تبعهم، وأنت إذا تأملت قوله: ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمَطْهُرُونَ﴾ (٧١) وأعطيت
الآية حقها من دلالة اللفظ وإيمائه وإشارته وتنبيهه وقياس الشيء على نظيره واعتباره
بمشاكله، وتأملت المشابهة التي عقدها الله سبحانه وربطها بين الظاهر والباطن، فهمت
هذه المعاني كلها من الآية، وبالله التوفيق.

٧- وأفاد كونه تنزيلاً من رب العالمين مطلوبين عظيمين من أجل مطالب الدين:

أحدهما: أنه المتكلم وأنه منه نزل ومنه بدأ وهو الذي تكلم به ومن هنا قال
السلف منه بدأ ونظيره ﴿وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلِ مِنِّي﴾ وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن
رَبِّكَ﴾.

والثاني: علو الله سبحانه فوق خلقه، فإن النزول والتنزيل الذي تعقله العقول وتعرفه الفطر هو وصول الشيء من أعلا إلى أسفل والرب تعالى إنما يخاطب عباده بما تعرفه فطرهم وتشهد به عقولهم، وذكر التنزيل مضافاً إلى ربوبيته للعالمين المستلزمة تملكه لهم وتصرفه فيهم وحكمه عليهم وإحسانه وإنعامه عليهم وأن من هذا شأنه مع



الخلق كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سدى ويدعهم هملاً ويخلقهم عبثاً لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يثيبهم ولا يعاقبهم، فمن أقر بأنه رب العالمين، أقر بأن القرآن تنزيله على رسوله، واستدل بكونه رب العالمين على ثبوت رسالة رسوله وصحة ما جاء به، وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق وإن كانت دلالتها أقرب إلى أذهان عموم الناس، وتلك إنما تكون لخواص العقلاء.

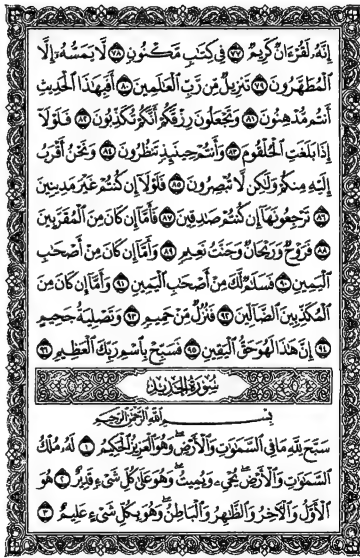
قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ (٨٢) وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصُورَ (٨٥) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧)﴾

٨- إن قيل: أي ارتباط بين هذين الأمرين حتى يلزم بينهما؟

قيل: هذا من أحسن الاستدلال وأبلغه، فإنهم إما أن يقرروا بأنهم مربوبون مملوكون عبيد لمالك قادر متصرف فيهم قاهر آمر ناه، أو لا يقررون بذلك، فإن أقرروا به لزمهم القيام بحقه عليهم وشكره وتعظيمه وإجلاله وأن لا يجعلوا له نداً ولا شريكاً وهذا هو الذي جاءهم به رسوله ونزل عليه به كتابه، وإن أنكروا ذلك وقالوا إنهم ليسوا بعبيد ولا مملوكين ولا مربوبين وإن الأمر إليهم يردون الأرواح إلى مقارها إذا بلغت الحلقوم،

فإن المتصرف في نفسه الحاكم على روحه لا يمتنع منه ذلك بخلاف المحكوم عليه المتصرف فيه غير المدبر له سواء الذي هو عبد مملوك من جميع الجهات.

وهذا الاستدلال لا محيد عنه ولا مدفع له
ومن أعطاه حقه من التقرير والبيان انتفع به غاية
النفع وانقاد لأجله للعبودية وأذعن ولم يسعه غير
التسليم للربوبية والإلهية والإقرار بالعبودية والله ما
أحسن جزالة هذه الألفاظ وفصاحتها وبلوغها أقصى
مراتب البلاغة والفصاحة والاختصار التام وندائها
إلى معناها من أقرب مكان واشتمالها على التوخيخ
والتقرير والإلزام ودلائل الربوبية والتوحيد والبعث
وفصل النزاع في معرفة الروح وأنها تصعد وتنزل
وتنتقل من مكان إلى مكان.

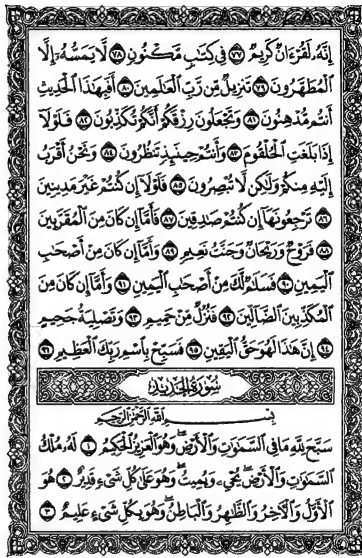


٩- وما أحسن إعادة (لولا) ثانيًا قبل ذكر الفعل الذي يقتضيه الأول وجعل الحرفين يقتضيان اقتضاء واحدًا وذكر الشرطين مع الفصل بينهما بكلمة واحدة هي الرابط بين (لولا) الأولى والثانية والشرط الأول والثاني، وهذا تركيب يستحد العقل والسمع لمعناه ولفظه.

فتضمنت الآيتان تقريراً وتوبيخاً واستدلالاً على أصول الإيمان من وجود الخالق سبحانه وكمال قدرته ونفوذ مشيئته وربوبيته وتصرفه في أرواح عباده حيث لا يقدرُونَ على التصرف فيها بشيء، وأن أرواحهم بيده يذهب بها إذا شاء ويردها إليهم إذا شاء ويخلي أبدانهم منها تارة ويجمع بينها وبينهما تارة وإثبات المعاد وصدق رسوله فيما أخبر به عنه وإثبات ملائكته وتقرير عبودية الخلق.

وأتى بهذا في صورة تحضيضين وتوبيخين
وتقريرين وجوابين وشرطين وجزاءين منتظمة
أحسن الانتظام ومتداخلة أحسن التداخل متعلقاً
بعضها ببعض، وهذا كلام لا يقدر البشر على مثل
نظمه ومعناه قال الفراء وأجيب ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ
الْحُلُقُومَ ﴾ (٨٣) ﴿ وَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ (٨٦) ﴿
بجواب واحد وهو ﴿ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٨٧)﴾.

(البيان في أقسام القرآن ٢١٩-٢٤٢)





سورة الحديد

قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ، وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (١١).

هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ مَا يَلَيْقُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَعْرِضُ مِنْهَا وَمَا يَرْثِي مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرِضُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلَى اللَّهِ تُرْجِعُ الْأُمُورَ ﴿٢﴾ يُرَاجِعُ الْبَلَدَ فِي النَّهَارِ وَيُجْلِي النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي وَرَسُولُهُ وَأَنْقَضُوا بِمَا جَعَلَكُمْ مُتَسَلِّطِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْقَضُوا لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِمَا كَرِهْتُمْ أَحَدًا يَشْفَعُ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا بِإِذْنِهِ هُوَ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَى عَبْدِهِ بِالْبَيِّنَاتِ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَلَهُ اللَّهُ بِكُمْ رَبٌّ لَوْ لَا رَحْمَةٌ ۖ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَبْزُغُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَاءِكَ أَقْطَعُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا وَلَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ الْمَنْشَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٥﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ، وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿٦﴾

١ - صدر سبحانه الآية بالطف أنوع الخطاب، وهو الاستفهام المتضمن لمعنى الطلب، وهو أبلغ في الطلب من صيغة الأمر، والمعنى: هل أحد يبذل هذا القرض الحسن فيجازي عليه أضعافا مضاعفة؟ وسمى ذلك الإنفاق قرضا حسنا حثا للنفوس وبعثا لها على البذل؛ لأن الباذل متى علم أن عين ماله يعود إليه ولا بد طوعت له نفسه بذله وسهل عليه إخراجه. فإن علم أن المستقرض ملي وفي محسن، كان أبلغ في طيب قلبه وسماحة نفسه، فإن علم أن المستقرض

يتجر له بما اقترضه وينمي له ويثمره حتى يصير أضعاف ما بذله كان بالقرض أسمح وأسمح، فإن علم أنه مع ذلك كله يزيده من فضله وعطائه أجرا آخر من غير جنس القرض وأن ذلك الأجر حظ عظيم وعطاء كريم، فإنه لا يتخلف عن قرضه إلا لآفة في نفسه من البخل والشح أو عدم الثقة بالضمان، وذلك من ضعف إيمانه، ولهذا كانت الصدقة برهانا لصاحبها.

وهذه الأمور كلها تحت هذه الألفاظ التي تضمنتها الآية، فإنه سماه قرضا، وأخبر أنه هو المقرض لا قرض حاجة، ولكن قرض إحسان إلى المقرض واستدعاء لمعاملته، وليعرف مقدار الربح، فهو الذي أعطاه ماله واستدعى منه معاملته به، ثم أخبر [عمّا] يرجع إليه بالقرض وهو الأضعاف المضاعفة، ثم أخبر عما يعطيه فوق

ذلك من الزيادة وهو الأجر الكريم.

وحيث جاء هذا القرض في القرآن قيده بكونه حسنا، وذلك يجمع أموراً ثلاثة:

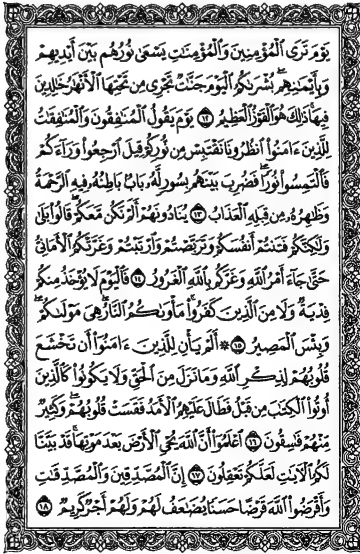
أحدها: أن يكون من طيب ماله لا من رديئه وخبيثه.

الثاني: أن يخرج طيبة به نفسه ثابتة عند بذله ابتغاء مرضاة الله.

الثالث: ألا يمين به ولا يؤذى.

فالأول يتعلق بالمال، والثاني يتعلق بالمنفق بينه وبين الله، والثالث بينه وبين

الآخذ. (طريق الهجرتين ٣٣٨ - ٣٣٩).



قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَن مَّخْشَعٌ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾.

٢- لما كان الإيمان موجبا للخشوع، وداعيا إليه،

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَن مَّخْشَعٌ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]. دعاهم من مقام الإيمان إلى مقام الإحسان. يعني: أما أن لهم أن يصلوا إلى الإحسان بالإيمان؟ وتحقيق ذلك بخشوعهم لذكره الذي أنزله إليهم؟ (مدارج السالكين ١/ ٥٢٠).

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع

سنين. (مدارج السالكين ٢/ ٥٠٩).

قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾.

٣- لما كانت المصيبة تتضمن فوات محبوب أو خوف فواته أو حصول مكروه أو

خوف حصوله نبه بالأسى على الفائت على مفارقة المحبوب بعد حصوله وعلى فوته حيث لم يحصل ونبه بعدم الفرح به إذا وجد على توطين النفس لمفارقته قبل وقوعها وعلى الصبر على مرارتها بعد الوقوع وهذه هي أنواع المصائب، فإذا تيقن العبد أنها مكتوبة مقدرة وأن ما أصابه منها لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه هانت عليه وخف حملها وأنزلها منزلة الحر والبرد. (شفاء العليل ١٩٤).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَنِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَارِعُوهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ
وَالْمِيزَانَ لِيُخَوِّذُوا بِالنَّبِيِّ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالْحَدِيدِ فِيهِ
بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْعِقَةٌ لِتَأْيِيسَ وَارْتِعَادَ اللَّهِ عَنْ تَضَرُّعِهِمْ وَرُسُلِهِ
وَالْعَبِيدِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ
وَعِصَىٰ ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ
وَكُنْزٌ مِّنْهُمْ فَسَقُوا ﴿٢﴾ ثُمَّ قَبَضْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ
وَأَعْمَأَزْنَا ذَلِيلًا يَّعْمَىٰ إِنَّ مِنْ أُمَّةٍ أَعْمِيَّتْ وَخَلَعْنَا
فِي قُلُوبِهَا الْيَرِينَ أَتَمَعُوا وَأَذَىٰ وَرَحْمَةً وَرَهَابِيَّةً
أَبْدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ
فَمَا يَكُونُ حَقٌّ رَّعَاهُمَا فَكُنَّا نُكَلِّمُهُمُ الْيَرِينَ أَمَّا مِثْلُكُمْ أَجْعَلُ
وَكَيْدَهُمْ فَمِنْهُمْ فَسُوقٌ ﴿٣﴾ بَيْنَهُمُ الْيَرِينَ أَمَّا مِثْلُكُمْ أَلَمْ
تَعْلَمُوا أَنَّ رُسُلَهُ لَوْ كَذَبُوا مِنْ رَبِّهِمْ وَجَعَلُوكُمْ
تَشْتَكُونَ بِهِمْ وَتَحْفَرُونَ لَهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
أَهْلُ الْكِتَابِ أَتَقْدِرُونَ عَلَىٰ قَوْلٍ مِّنْ قَوْلِ اللَّهِ وَإِنَّ
الْفَضْلَ يَدُ اللَّهِ يُدْهِمُ قَوْمًا مِنْ بَنِي إِدْرَاةَ وَالْفَضْلَ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾

٤- الباعث على ابتداء هذه الرهبانية، وأنه هو طلب الرضوان. ثم ذمهم بترك رعايتها؛ إذ من التزم لله شيئاً لم يلزمه الله إياه من أنواع القرب لزمه رعايته وإتمامه. حتى ألزم كثير من الفقهاء من شرع في طاعة مستحبة حكمه بإتمامها، وجعلوا التزامها بالشروع كالالتزامها بالنذر. كما قال أبو حنيفة ومالك وأحمد في إحدى الروايتين عنه وهو إجماع - أو كالإجماع - في أحد النسكين.

قالوا: والالتزام بالشروع أقوى من الالتزام

بالقول. فكما يجب عليه ما التزمه بالنذر وفاء، يجب عليه رعاية ما التزمه بالفعل إتماماً.

وليس هذا موضع استقصاء هذه المسألة.

والقصد: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذَمُّهُ لَمْ يَرِيعْ قُرْبَةَ ابْتِدْعِهَا اللَّهُ تَعَالَى حَقَّ رِعَايَتِهَا؛

فكيف بمن لم يرع قربة شرعها الله لعباده، وأذن بها وحث عليها؟! (مدارج السالكين ٢/ ٦٠).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٨).

٥- في قوله تعالى: ﴿تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد: ٢٨] نكتة بديعة: وهي أنهم يمشون على الصراط بأنوارهم كما يمشون بها بين الناس في الدنيا، ومن لا نور له، فإنه لا يستطيع أن ينقل قدما عن قدم على الصراط، فلا يستطيع المشي أحوج ما يكون إليه. (اجتماع الجيوش الإسلامية ٥-٦).

٦- قد ضمن لهم سبحانه بالتقوى ثلاثة أمور:

أحدها أعطاهم نصيبين من رحمته نصيباً في الدنيا ونصيباً في الآخرة وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة فيصير نصيبين.

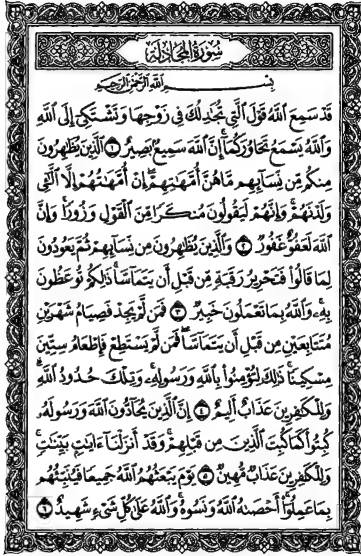
الثاني: أعطاهم نوراً يمشون به في الظلمات.

الثالث: مغفرة ذنوبهم وهذا غاية التيسير، فقد جعل سبحانه التقوى سبباً لكل يسر وترك التقوى سبباً لكل عسر. (التبيان في أقسام القرآن ٣٧).

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَصْرِفُهُ وَرُسُلَهُ
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِيزَهُمْ مُّشْرِكُوكُمْ
وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَيَقْضُونَ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَنْ أَنبِيَائِهِمْ
يُرْسِلْنَا وَفَقَّيْنَا يَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا
فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَ اتُّفَاتٍ
أَنذَرْنَاهَا مَأْكِنَتَهَا عَلَيْهِمْ سَلًّا إِنَّا نَظِيرُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
فَأَنذَرْنَاهَا قَوْمًا فَاتَّبَعْنَاهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرُهُمْ
وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَيَقْضُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
وَأَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا
تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لَقَدْ أَنزَلْنَا
أَهْلَ الْكِتَابِ الْآيَاتِ لِيُذَكِّرُوا عَلَى قُلُوبِهِمْ فَتَقِلَّ اللَّهُ وَرَأً
الْقَضِيلَ يَرَى اللَّهُ يَوْمَ تَوْبِهِ مَن يَسْأَلُ وَاللَّهُ ذُو الْقَضِيلِ الْعَظِيمِ



سورة المجادلة



قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (١).

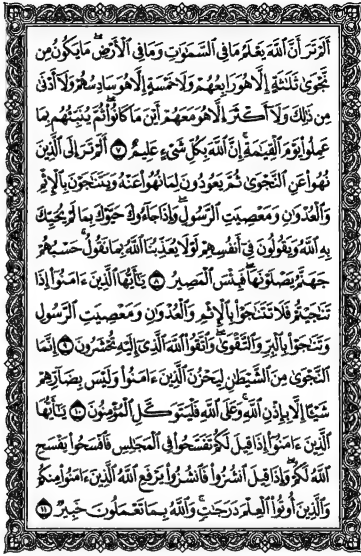
١- لا يشك صحيح الفهم البتة في هذا الخطاب أنه نص صريح لا يحتمل التأويل بوجه في إثبات صفة السمع للرب تعالى حقيقة وأنه بنفسه سمع. (الصواعق المرسلة ١/ ٣٩٠).

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾ (٢).

٢- إن قيل: فما تقولون في قول المظاهر: «أنت علي كظهر أمي» هل هو إنشاء أو أخبار؟
وفصل الخطاب: أن قوله: «أنت علي كظهر أمي» يتضمن إنشاء وإخبارا، فهو إنشاء من حيث قصد التحريم بهذا اللفظ، وإخبار من حيث تشبيهها بظهر أمه، ولهذا جعله الله منكرا وزورا، فهو منكرا باعتبار الإنشاء وزور باعتبار الإخبار. (بدائع الفوائد ١/ ١١-١٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَيْتُ مَا كَيْتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.

٣- دليل على أن [المحاددة] مغالبة ومعاودة حتى يكون أحد المحادين غالبا، وهذا إنما يكون بين أهل الحرب لا أهل السلم، فعلم أن المحاد ليس بمسالمة، فلا يكون له أمان مع المحادة، وقد جرت سنة الله سبحانه أن الغلبة لرسوله بالحجة والقهر،



فمن أمر منهم بالحرب نصر على عدوه، ومن لم يؤمر بالحرب أهلك عدوه.

يوضحه أن المحادة مشاقة؛ لأنها من الحد والفصل والبيونة، وكذلك المشاقة من الشق، وكذلك المعادة من العدو وهي الجانب، يكون أحد العدوين في شق وجانب وحد، وعدوه الآخر في غيرها، والمعنى في ذلك كله معنى المقاطعة والمفاصلة، وذلك لا يكون إلا مع انقطاع الحبل الذي بيننا وبين أهل العهد لا يكون مع اتصال الحبل أبداً.

يوضحه أن الحبل وصلة وسبب، فلا يجامع المفاصلة والمباينة.

وأيضا فإنها إذا كانت بمعنى المشاقة فقد قال تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (١٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) [الأنفال: ١٢-١٣]، فأمر بضرب أعناقهم، وعلل ذلك بمشاققتهم [ومحادثتهم]، وكل من فعل ذلك وجب أن يضرب عنقه. (أحكام أهل الذمة ٨٢٦-٨٢٨).

قوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾.

٤- اللام في «العلم» ليست للاستغراق، وإنما هي للعهد، أي: العلم الذي بعث الله به نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإذا كانوا أوتوا هذا العلم كان اتباعهم واجبا. (إعلام الموقعين

سورة الحشر

قوله تعالى: ﴿مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُخْرِجُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ۖ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ مَا أَطْعَمْتُمْ لَيْسَ أَوْ تَرَكْتُمْهَا قَابِضَةً عَلَىٰ أُمُولِهِمْ فَإِذَا مِنْ اللَّهِ وَإِلَىٰ عِزِّ الْقُسُوفِ ﴿٨﴾ وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُ فَمَا أَضَحُّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ خَبَلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُنَازِلُ رَسُولَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٠﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُخْرِجُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٢﴾

١- التنصيص على الأصناف الخمسة يفيد تحقيق إدخالهم، وأنهم لا يخرجون من أهل الفيء بحال، وأن الخمس لا يعدوهم إلى غيرهم، كأصناف الزكاة لا تعدوهم إلى غيرهم، كما أن الفيء العام في آية الحشر للمذكورين فيها لا يتعداهم إلى غيرهم، ولهذا أفتى أئمة الإسلام كمالك وإمام أحمد وغيرهما أن الرافضة لا حق لهم في الفيء؛ لأنهم ليسوا من المهاجرين، ولا من الأنصار، ولا من الذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذي

سبقونا بالإيمان، وهذا مذهب أهل المدينة، واختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، وعليه يدل القرآن، وفعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخلفائه الراشدين. (زاد المعاد ٥/ ٤٨ - ٨٧).

قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

٢- أخبر أن إثارهم إنما هو بالشيء الذي إذا بقي الرجل الشح به كان من المفلحين، وهذا إنما هو فضول الدنيا لا الأوقات المصروفة في الطاعات.

فإن الفلاح كل الفلاح في الشح بها فمن لم يكن شحيحاً بوقته تركه الناس على الأرض [عيانا] مفلساً، فالشح بالوقت هو عمارة القلب وحفظ رأس ماله.

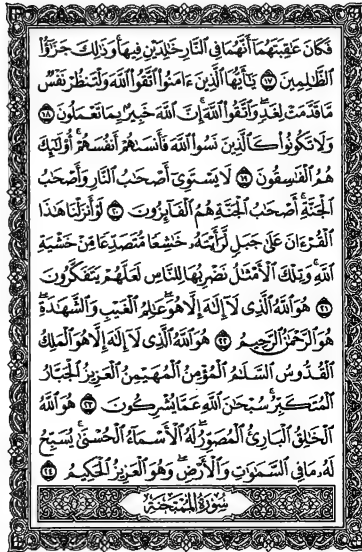
ومما يدل على هذا أنه سبحانه أمر بالمسابقة في أعمال البر والتنافس فيها والمبادرة إليها، وهذا ضد الإيثار بها. (طريق الهجرتين ٢٧٨).

📖 قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ﴾.

٣- أمر سبحانه العبد أن ينظر ما قدم لغد، وذلك يتضمن محاسبة نفسه على ذلك، والنظر هل يصلح ما قدمه أن يلقي الله به أو لا يصلح؟

والمقصود من هذا النظر ما يوجبه ويقتضيه، من كمال الاستعداد ليوم المعاد، وتقديم ما ينجيه من عذاب الله، ويبيض وجهه عند الله، وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَ يُدْعَىٰ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [١٨] [الحاقة: ١٨]. أو قال: على من لا تخفى عليه أعمالكم. (مدارج

السالكين ١/ ١٧٠).



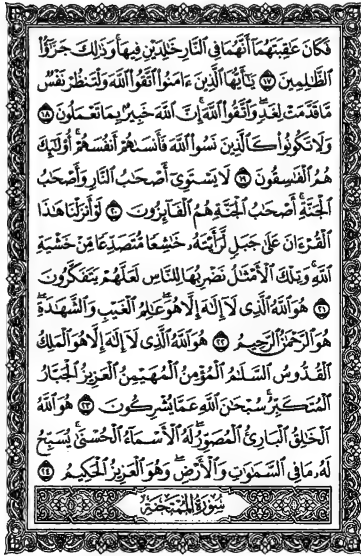
📖 قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [١٩].

٤- لما نسوا ربهم سبحانه نسيهم وأنساهم أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ

فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].

فعاقب سبحانه من نسيه عقوبتين: إحداهما: أنه سبحانه نسيه. والثانية: أنه أنساه نفسه. ونسيانه سبحانه للعبد: إهماله، وتركه، وتخليه عنه، وإضاعته، فالهلاك أدنى إليه من اليد للقم، وأما إنساؤه نفسه، فهو إنساؤه لحظوظها العالية، وأسباب سعادتها وفلاحها، وإصلاحها، وما تكمل به بنسيه ذلك كله جميعه فلا يخطر بباله، ولا يجعله على ذكره، ولا يصرف إليه همته فيرغب فيه، فإنه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثره.

٥- وأيضا فينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفات، فلا يخطر بباله إزالتها.

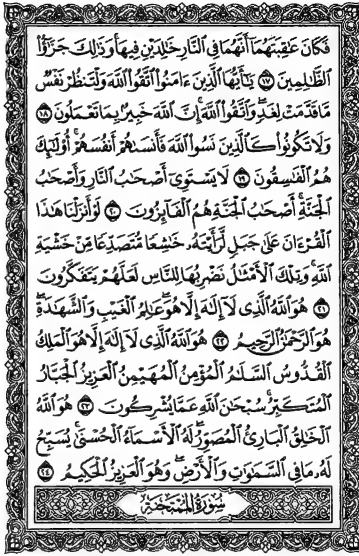


وأیضا فينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها، فلا يخطر بقلبه مداواتها، ولا السعي في إزالة عللها وأمراضها التي تتول بها إلى الفساد والهلاك، فهو مريض مثخن بالمرض، ومرضه مترام به إلى التلف، ولا يشعر بمرضه، ولا يخطر بباله مداواته، وهذا من أعظم العقوبة العامة والخاصة.

فأي عقوبة أعظم من عقوبة من أهمل نفسه وضعيها، ونسي مصالحها وداءها ودواءها، وأسباب

سعادتها وفلاحها وصلاحها وحياتها الأبدية في النعيم المقيم؟ (الجواب الكافي ١٥٠-١٥١).

ولا سبيل إلى الأمان من ذلك إلا بدوام ذكر الله تعالى والالهج به، وأن لا يزال اللسان رطباً به، وأن يتولى منزلة حياته التي لا غنى له عنها ومنزلة غذائه الذي إذا فقدته فسد جسمه وهلك، وبمنزلة الماء عند شدة العطش، وبمنزلة اللباس في الحر والبرد وبمنزلة الكن في شدة الشتاء والسموم.



فحقيق بالبعد أن ينزل ذكر الله منه بهذه المنزلة وأعظم، فأين هلاك الروح والقلب وفسادهما من هلاك البدن وفساده؟ هذا هلاك لا بد منه وقد يعقبه صلاح لا بد، وأما هلاك القلب والروح فهلاك لا يرجى معه صلاح ولا فلاح، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ولو لم يكن في فوائد الذكر وإدامته إلا هذه الفائدة وحدها لكفي بها، فمن نسي الله تعالى أنساه نفسه في الدنيا ونسيه في العذاب يوم القيامة. (الوابل

الصيب ٦٧-٦٨).



سورة الممتحنة

📖 قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِينِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرِجُوكُم مِّن دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا الَّذِينَ عَدَّوْكُمْ وَأُولِيَائِهِ تَلْقَوْنَ
إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا سَاءَ لَكُمْ مِنَ اللَّغْوِ يُخْرُجُونَ الرِّسَالَ
وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَاتَلُوا فِي الدِّينِ وَكُنْتُمْ خَرَجْتُمْ فِي سَبِيلِ
وَتَبَرُّوهُمْ مَتَىٰ لِيُخْرِجُوا إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ
وَمَا أَفْلَحَ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ قَدْ حَسَلَ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝٩
يَقُولُونَ كُنَّا كَالَّذِينَ قَاتَلُوا فِي الدِّينِ وَكُنْتُمْ خَرَجْتُمْ فِي سَبِيلِ
بِالسَّوَةِ وَوَدَّوْا كَفَرُوا ۝١٠ لَن تَقْعُوكُمْ أَسْمَاكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَفَصَّلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١ فَكَانَتْ
لَكُمْ أَسْرَةٌ حَسَنَةٌ فِي ذِي الْقُرْبَىٰ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لَقَدْ مَنَعَنَا
لُزْمَةُ أَلْمَنُوكُمْ وَمَتَىٰ تَعْدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَقَدْ كُنَّا بِكُمْ وَبِأَيِّتِنَا
وَيَتَنَكَّرُونَ الْعَدُوَّةَ وَالْبَغْضَاءَ أَبَدًا حَتَّىٰ تَقُولُوا لِلَّهِ حُدُودُ الْإِقْل
إِلَهِكُمْ لَا يُؤْمِرُ لَأَسْتَفِيرَنَّ اللَّهُ وَمَا أَمْرُكَ إِلَّا مَنَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ
رَّبَّنَا عَلَّمَكُم نَوَاحِي دِينِكُمْ وَإِلَيْكُمُ الْمَصِيرُ ۝١٢ رَّبَّنَا إِنِ أَصْبَحْتَ
بَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَأَغْرَضْتَ كَاتِبًا إِلَيْكَ أَمْرَ الْعَالَمِينَ فَالْحَكِيمُ ۝

١- إن الله سبحانه لما نهى في أول السورة عن اتخاذ المسلمين الكفار أولياء وقطع المودة بينهم وبينهم، توهم بعضهم أن برهم والإحسان إليهم من الموالاة والمودة، فبين الله سبحانه أن ذلك ليس من الموالاة المنهي عنها، وأنه لم ينه عن ذلك، بل هو من الإحسان الذي يحبه ويرضاه، وكتبه على كل شيء، وإنما المنهي عنه تولي الكفار والإلقاء إليهم بالمودة. (أحكام أهل الذمة ١/ ٣٠١).

📖 قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْنَتْهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُفَّارِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُم مَّا أَنْفَقْتُمْ حُكْمٌ اللَّهُ يُعَذِّبُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٠﴾

٢- صالح قريشا على وضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين، على أن من جاءه منهم مسلما رده إليهم، ومن جاءهم من عنده لا يردونه إليه، وكان اللفظ عاما في الرجال والنساء، فنسخ الله ذلك في حق النساء، وأبقاه في حق الرجال، وأمر الله نبيه والمؤمنين

أن يمتحنوا من جاءهم من النساء، فإن علموها مؤمنة لم يردوها إلى الكفار، وأمرهم ببرد مهرها إليهم لما فات على زوجها من منفعة بضعها، وأمر المسلمين أن يردوا على من ارتدت امرأته إليهم مهرها إذا عاقبوا، بأن يجب عليهم رد مهر المهاجرة، فيردونه إلى من ارتدت امرأته، ولا يردونها إلى زوجها المشرك، فهذا هو العقاب، وليس من العذاب في شيء.



٣- وكان في هذا دليل على أن خروج البضع من ملك الزوج مقوم، وأنه مقوم بالمسمى الذي هو ما أنفق الزوج لا بمهر المثل.

٤- وأن أنكحة الكفار لها حكم الصحة، لا يحكم عليها بالبطلان.

٥- وأنه لا يجوز رد المسلمة المهاجرة إلى الكفار ولو شرط ذلك.

٦- وأن المسلمة لا يحل لها نكاح الكافر.

٧- وأن المسلم له أن يتزوج المرأة المهاجرة إذا انقضت عدتها، وآتاها مهرها، وفي هذا أبين دلالة على خروج بضعها من ملك الزوج، وانفساخ نكاحها منه بالهجرة والإسلام.

٨- وفيه دليل على تحريم نكاح المشركة على المسلم، كما حرم نكاح المسلمة على الكافر.

وهذه أحكام استفيدت من هاتين الآيتين، وبعضها مجمع عليه، وبعضها مختلف فيه، وليس مع من ادعى نسخها حجة البتة، فإن الشرط الذي وقع بين النبي صلى الله عليه وسلم

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهَا آسَاءٌ كَثِيرَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ
وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ
وَبَيْنَ الَّذِينَ كَذَبُوا عَنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَكَانَ عَمَلُهُمْ مُّشِيرًا ﴿١٤١﴾ لَا يَتَمَسَّكُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِمَّنْ
دَبَّرُوا أَن يَخْرُجُوا وَيُقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيُخْرِجُوا الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ إِنَّمَا يَتَمَسَّكُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِمَّنْ
دَبَّرُوا وَكَانُوا عَلَيْهِمْ لَحِيضَةً وَكَانُوا يَتَمَسَّكُونَ بِأَيْدِيهِمْ فَالْقَائِلُ
هُوَ الظَّالِمُونَ ﴿١٤٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ الْمُؤْمِنَاتُ
فَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّهُنَّ مُؤْمِنَاتٌ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا
تَحْسِبُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهْلُنَّ جِلَّ أَلُمُّهُنَّ وَلَا تَحْسِبُوهُنَّ لَهُنَّ وَنُفُوهُنَّ
مَا أَتَقَدَّرُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ
وَلَا تَحْسِبُوا يَصِيحُمُ الْكُفَّارُ لِمَا أَتَقَدَّرُوا وَلَئِن لَّمْ تَقْدَرُوا فَمَا أَتَقَدَّرُوا
ذَلِكَ كُرْهُهُمُ اللَّهُ يَنْكِحُوا بَنَاتِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٤٤﴾ وَإِنْ قَاتَلْتُمُوهُنَّ
فَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّهُنَّ مُؤْمِنَاتٌ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا
تَحْسِبُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهْلُنَّ جِلَّ أَلُمُّهُنَّ وَلَا تَحْسِبُوهُنَّ لَهُنَّ وَنُفُوهُنَّ
مَا أَتَقَدَّرُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ
وَلَا تَحْسِبُوا يَصِيحُمُ الْكُفَّارُ لِمَا أَتَقَدَّرُوا وَلَئِن لَّمْ تَقْدَرُوا فَمَا أَتَقَدَّرُوا
ذَلِكَ كُرْهُهُمُ اللَّهُ يَنْكِحُوا بَنَاتِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٤٥﴾

وبين الكفار في رد من جاءه مسلماً إليهم، إن كان مختصاً بالرجال، لم تدخل النساء فيه، وإن كان عاماً للرجال والنساء، فالله سبحانه وتعالى خصص منه رد النساء ونهاهم عن ردهن، وأمرهم برد مهورهن، وأن يردوا منها على من ارتدت امرأته إليهم من المسلمين المهر الذي أعطها، ثم أخبر أن ذلك حكمه الذي يحكم به بين عباده، وأنه صادر عن علمه وحكمته، ولم يأت عنه ما يتنافى هذا الحكم، ويكون بعده حتى يكون ناسخاً. (زاد المعاد ٣/ ١٤٠-١٤١).



٢- تشوقت النفوس إلى هذه التجارة الرباحة التي الدال عليها رب [العالمين العليم]. الحكيم فقال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرُسُولِهِ وَيَجْهَدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ [الصف: ١١]. فكان النفوس ضنت بحياتها وبقائها فقال: ﴿ذَلِكُمْ حَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني أن الجهاد خير لكم من قعودكم للحياة والسلامة، فكانها قالت: فما لنا في الجهاد من الحظ؟ فقال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، مع المغفرة: ﴿وَيَدْخُلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾

وَمَسْكَنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ [الصف: ١٢].

فكأنها قالت: هذا في الآخرة فما لنا في الدنيا؟ فقال:

﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ﴾

﴿١٣﴾ [الصف: ١٣].

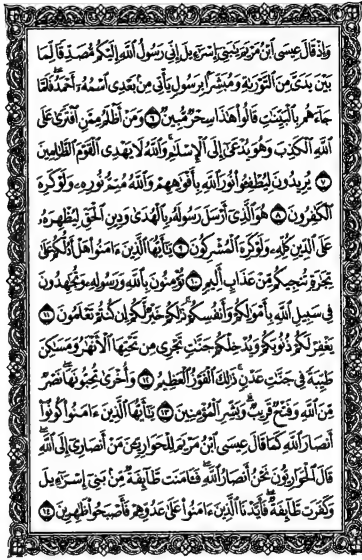
[فلله] ما أحلى هذه الألفاظ وما ألصقها بالقلوب

وما أعظمها جذبا لها وتسييرا إلى ربها؟! وما ألطف

موقعها من قلب كل محب؟! وما أعظم غنى القلب

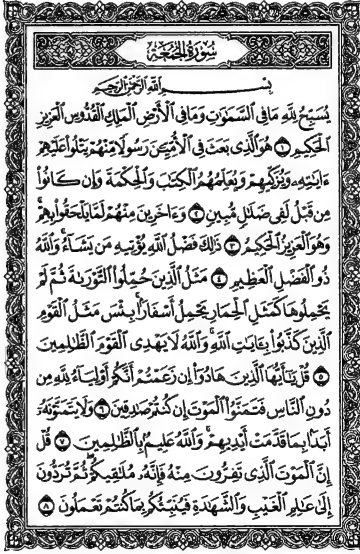
وأطيب عيشه حين تباشره معانيها؟! فنسأل الله من

فضله إنه جواد كريم. (طريق الهجرتين ٣٣٢).



سورة الجمعة

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾.



١- من جهلهم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شَبَهُمْ فِي حَمْلِهِمُ التَّوْرَةَ، وَعَدَمِ الْفَقْهِ فِيهَا، وَالْعَمَلِ بِهَا بِالْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا، وَفِي هَذَا التَّشْبِيهِ مِنَ النَّدَاءِ عَلَى جَهَالَتِهِمْ وَجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ:

منها: أن الحمار من أبلد الحيوانات التي يضرب بها المثل في البلادة.

ومنها: أنه لو حمل غير الأسفار من طعام أو علق أو ماء لكان له به شعور ما.

ومنها: أنهم حين حملوها حيث حملوها تكليفا وقهرا لا أنهم حملوها طوعا واختيارا، بل كانوا كالمكلفين لما حملوا لم يرفعوا به رأسا.

ومنها: أنهم حيث حملوها تكليفا وقهرا لم يرضوا بها ولم يحملوها رضا واختيارا، وقد علموا أنهم لا بد لهم من حملها، وأنهم إن حملوها اختيارا كانت لهم العاقبة في الدنيا والآخرة.

ومنها: أنها مشتملة على مصالح معاشهم ومعادهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وإعراضهم عن التزام ما فيه سعادتهم وفلاحهم إلى ضده من غاية الجهل والغباوة، وعدم الفطنة. (هداية الحيارى ٢٨٦- ٢٨٧).

٢- هذه أحسن من قراءة من قرأ: (فامضوا إلى ذكر الله).

وأما السعي المأمور به في الآية، فهو الذهاب إليها على وجه الاهتمام بها والتفرغ لها عن الأعمال الشاغلة من بيع وغيره والإقبال بالقلب على السعي إليها. (التبيان في أقسام القرآن ٧).



يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمُوا إِلَى الصَّلَاةِ فَمِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا فَاسْتَوُوا
إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ
فَإِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ وَأَقْدُمَكُمْ
مِنْ قُدْسٍ لِلَّهِ وَذَكِّرُوا أَنَّهُ كَبِيرٌ ۚ لَعَلَّكُمْ تَفْهَمُونَ
وَأَذِّنْ لَتَلْعَبُوهَا قُلُوبُكُمْ وَتَزَكَّيْكُمْ ۚ قُلُوبُكُمْ لَا بِمَا عَدَّ سَاعِدٌ
اللَّهُ خَيْرٌ مِّنْ النَّاسِ ۚ وَمَن يَتَذَكَّرْهُ فَإِنَّهُ خَيْرٌ لِّكَفَرَةٍ ۝

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

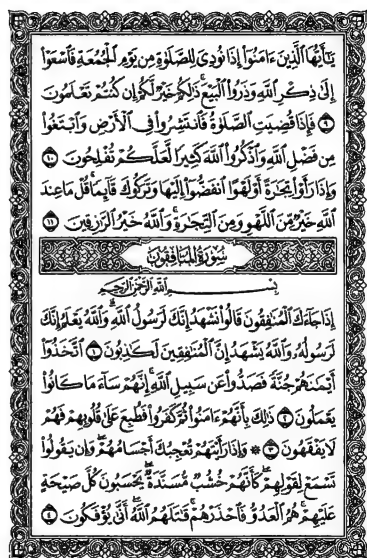
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُشْكُوفِينَ إِذْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ
تُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ لَأَكْفُرَنَّ بَعضُهُمْ أَتَعْلَمُونَ ۚ أَتَعْلَمُونَ
أَنَّهُمْ خُفَّتْ حُبَّتُهُمْ بِالنَّبِيِّ ۚ أَلَا عَجَبٌ ۚ إِنَّهُمْ أَصْحَابُ أَلْسِنَةٍ أَعْلَىٰ ۚ لَا يَفْهَمُونَ
وَلَا يَفْهَمُونَ ۚ وَلَقَدْ أَنشَأْنَا لَكُمْ أَجْنَاسًا مُّشْرِكَةً ۚ وَان يَفْقَهُوا
تَتَّبِعُوا قُلُوبُهُمْ فَأَلْفَقْنَاهُمْ فَجُثِبَتْ عَلَيْهِمْ فَجَسَدٌ مِّثْلُ بَعضِهِ
عَلَيْهِمْ هُوَ الْعَذَابُ ۚ فَاحْذَرُوهُ ۚ وَنَسُوا اللَّهَ أَنَّىٰ يَبُوءُ كُفْرَتِ ۝

سورة المنافقون

قوله تعالى: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ﴾.

١- مثل هذا اللفظ يقتضي الحصر، أي: لا عدو إلا هم، ولكن لم يرد ها هنا حصر العداوة فيهم وأنهم لا عدو للمسلمين سواهم، بل هذا] من إثبات الأولوية والأحقية لهم في هذا الوصف، وأنه لا يتوهم بانتسابهم إلى المسلمين ظاهراً وموالاتهم لهم، ومخالطتهم إياهم أنهم ليسوا بأعدائهم، بل هم أحق بالعداوة ممن بينهم في الدار، ونصب لهم العداوة وجاهرهم بها، فإن ضرر هؤلاء المخالطين لهم



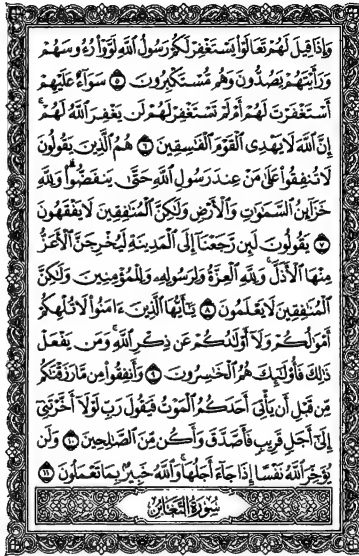
المعاشرين لهم -وهم في الباطن على خلاف دينهم- أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزم وأدوم؛ لأن الحرب مع أولئك ساعة أو أياما، ثم ينقضي ويعقبه النصر والظفر، وهؤلاء معهم في الديار والمنازل صباحا ومساء، يدلون العدو على عوراتهم ويتربصون بهم الدوائر ولا يمكنهم مناجزتهم، فهم أحق بالعداوة من المباين المجاهر، فلهذا قيل: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]. لا على معنى أنه لا عدو لكم سواهم، بل على معنى أنهم أحق بأن يكونوا لكم عدوا من الكفار المجاهرين. (طريق الهجرتين ٣٧٤).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ ءُمُورُكُمْ وَلَا تَأْوِلُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

٢- إن في ذلك تحذيرًا من فتنة المنافقين الذين غفلوا عن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ فوقعوا في النفاق.

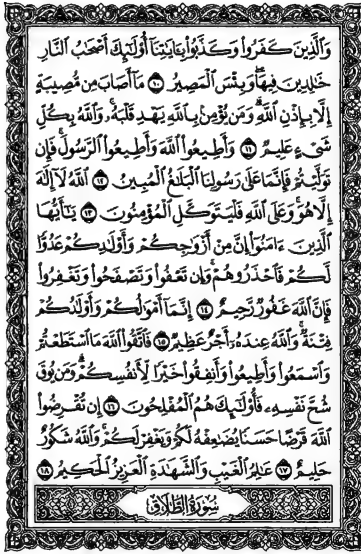
وسئل بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عن الخوارج: منافقون هم؟ قال: لا، المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلاً.

فهذا من علامة النفاق قلة ذكر الله عزَّ وجلَّ، وكثرة ذكره أمان من النفاق، والله عزَّ وجلَّ أكرم من أن يبتلي قلباً ذاكراً بالنفاق، وإنما ذلك لقلوب غفلت عن ذكر الله عزَّ وجلَّ. (الوابل الصيب ١١٠).



سورة التغابن

﴿قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾﴾.



١- ذكر اسم الإيمان ها هنا دون سائر أسمائهم دليل على استدعاء الإيمان للتوكل، وإن قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه، وكلما قوي إيمان العبد كان توكله أقوى، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفا، فهو دليل على ضعف الإيمان ولا بد، والله تعالى يجمع بين التوكل والعبادة وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والهداية. (طريق الهجرتين ٢٣٨).

﴿قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُدُوَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾﴾.

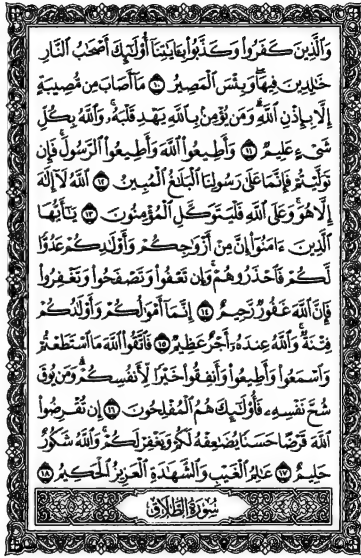
٢- ليس المراد من هذه العداوة ما يفهمه كثير من الناس أنها عداوة البغضاء والمحادة، بل إنما هي عداوة المحبة الصادقة للآباء عن الهجرة والجهاد وتعلم العلم والصدقة وغير ذلك من أمور الدين وأعمال البر كما في جامع الترمذي من حديث إسرائيل، حدثنا سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس، وسأله رجل عن هذه الآية: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُدُوَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ قال: «هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة فأرادوا أن يأتوا النبي، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا رسول الله، فلما أتوا رسول الله ورأوا الناس قد فقهوا في الدين، هموا أن يعاقبوهم

فأنزل الله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِبْرَءِيلُ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَدَكُمْ عَدُوَّكُمْ﴾ الآية. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وما أكثر ما فات العبد من الكمال والفلاح بسبب زوجته وولده!

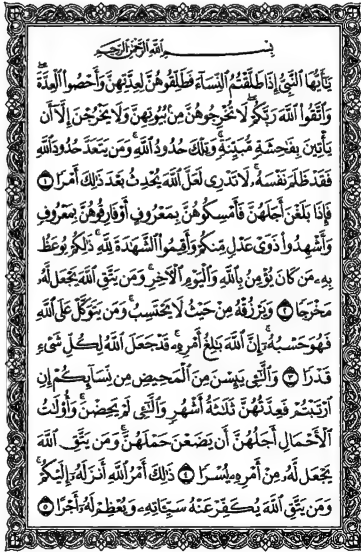
وفي الحديث: «الولد مبخلة مجبنة». وقال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب قال: حدثني زيد بن واقد قال: حدثني عبد الله بن بريدة قال: سمعت أبي يقول: «كان رسول الله يخطبنا فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله عن المنبر فحملهما فوضعهما بين

يديه، ثم قال صدق الله ﴿إِنَّمَا آمَوَ لَكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فَتَنَةٌ﴾ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما». وهذا من كمال رحمته ولطفه بالصغار وشفقته عليهم، وهو تعليم منه للأمة الرحمة والشفقة واللطف بالصغار. (عدة الصابرين ٦٤ - ٦٥).



سورة الطلاق

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾



١- جعل التوكل بعد التقوى الذي هو قيام الأسباب المأمور بها، فحينئذ إن توكل على الله، فهو حسبه، وكما قال في موضع آخر: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١]. فالتوكل والحسب بدون قيام الأسباب المأمور بها عجز محض، فإن كان مشوباً بنوع من التوكل، فهو توكل عجز، فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزاً، ولا يجعل عجزه توكلًا، بل يجعل توكله من جملة الأسباب المأمور بها التي لا يتم المقصود إلا بها كلها.

٢- فلما ذكر كفايته للمتوكل عليه فربما أوهم ذلك تعجيل الكفاية وقت التوكل فعقبه بقوله: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]. أي: وقتاً لا يتعداه، فهو يسوقه إلى وقته الذي قدره له.

فلا يستعجل المتوكل ويقول: قد توكلت، ودعوت فلم أر شيئاً ولم تحصل لي الكفاية، فالله بالغ أمره في وقته الذي قدره له، وهذا كثير جداً في القرآن والسنة، وهو باب لطيف من أبواب فهم النصوص. (عدة الصابرين ٦٤ - ٦٥).



سورة التحريم

قوله تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

١- أخبر أنهم لا يعصونه في أمره، وأنهم قادرون على تنفيذ أوامره ليس بهم عجز عنها، بخلاف من يترك ما أمر به عجزاً فلا يعصي الله ما أمره وإن لم يفعل ما أمره به.

(روضۃ المحیین ۶۸).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُولُوا لِلّٰهِ قَوْلَهُ خُصُّوْا عَاسِيَ رِزْقِهِ
أَنْ يَكْبُرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَبِمَا كُفَرْتُمْ جَنَّبَتْ قَبْرِي
مِنْ تَحْتِهَا أَهْلُكُمْ وَقَدْ لَاحِظِي إِلَهَ الْكَافِرِينَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا
مَعَهُ قُلُوبُهُمْ بِسَمْعِي يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِهِمْ
أَنْبِيَاءُ قَدْ أُوتُوا كِتَابًا أَتَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٥
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَاخُذْ بَعِثُوا فِتْنَةً
وَمَا لَهُمْ حُجٌّ عَلَيْهِمْ السُّعُورُ وَالْمُتَّقِينَ أَفْطَلَتْ عَلَيْهِمْ
وَمَا لَهُمْ حُجٌّ قَوْلِهِمْ يُرْسِلُ الْعَصِيدُ ٦ حَرَبَ اللَّهُ مَثَلَكُمْ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَمْرَانِ لَوْجٌ وَأَمْرَانِ لَوْجٌ كَأَنَّمَا نَحْنُ
عَبْدَانِ مِنْ عِبَادِهِ لَصَلِحَ خَلْقًا فَهُمَا قُلُوبُنَا غُلِبَتْ
مِنْهُمَا ٧ قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ مَا أُوحِيَ إِلَيْنَا وَمَعَ الْوَاقِعَاتِ ٨
وَحَرَبَ اللَّهُ مَثَلَكُمْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَمْرَانِ وَقَعْتُمْ إِذْ
قَالَتْ رَبِّ أَنْبِيءٌ بَيْنَافِي الْجَنَّةِ وَنَحْنُ مِنْ دُونِ
وَعَمَلِهِمْ وَنَحْنُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ٩ وَمَرْءٌ أَبْتَنَى
عِمْرَةً لِنَفْسِهِ أَفَصَحَّتْ عَمَّا فِيهِ مِنْ دُرِّهَا
وَصَدَّقَتْ لِحَبْلِهَا وَكَلِمَةٍ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِئِينَ ١٠

قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا

أَمْرَاتٍ نُوحٍ وَأَمْرَاتٍ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَمْرَاتٍ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾

وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ

مِنْ رُّوحِنَا وَصَدَقْتَ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا وَكَانَتْ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٢﴾ ﴿١٢﴾

٢- فذكر ثلاثة أصناف من النساء: المرأة الكافرة التي لها وصلة بالرجل الصالح والمرأة الصالحة التي لها وصلة بالرجل الكافر، والمرأة العزب التي لا وصلة بينها وبين أحد: فالأولى لا تنفعها وصلتها وسببها، والثانية لا تضرها وصلتها وسببها، والثالثة لا يضرها عدم الوصلة شيئاً.

٣- ثم في هذه الأمثال من الأسرار البديعة ما يناسب سياق السورة؛ فإنها سيقَت في ذكر أزواج النبي ﷺ، والتحذير من تظاهرهن عليه، وأنهن إن لم يطعن

سورة الملك

قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١٣) ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١٤).

وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۚ
يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۚ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ
ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ۝
أَلَمْ يَسْخَرْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝
أَلَمْ يَسْخَرْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ
كَيْفَ نَذِيرٍ ۝ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝
أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الظَّالِمِينَ قَوْمَهُمُ الَّذِينَ يَقْبِضُونَ مَائِدَتَهُمْ إِلَّا
الْزَمْرُودَ فَإِنَّهُ كُلُّ حَقٍّ بِبَصِيرٍ ۝ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمُ
يَتَنَزَّلُونَ فِي ثُبُونِ الْكَهْجُورِ ۚ إِنَّ فِي غَوْرٍ ۝ أَمَّنْ هَذَا
الَّذِي يَزُوقُ أَهْلُ الْأَنْبِيَاءِ رِزْقَهُ بِلَاجِأٍ فِي غَوْرٍ ۚ أَفَمَن
يَشْتَرِي بِكَافَرٍ وَجَاهِدٍ مُّهْدِيٍّ أَمَّنْ يَشْتَرِي بِسَوِيٍّ عَالٍ صَرْطِ
مُسْتَقِيمٍ ۚ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَنَسَمٍ ۚ وَالْأَنْفُسُ
وَالْأَفْعِدَةُ لِيَلَا تَنفَكُّنَّ ۚ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي
الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۚ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ۚ قُلْ إِنَّمَا الْيَوْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝

١- هذا من أبلغ التقرير، فإن الخالق لا بد أن يعلم مخلوقه والصانع يعلم مصنوعه، وإذا كنتم مقربين بأنه خالقكم وخالق صدوركم وما تضمنته، فكيف تخفى عليه وهي خلقه؟! وهذا التقرير مما يصعب على القدرة فهمه، فإنه لم يخلق عندهم ما في الصدور، فلم يكن في الآية على أصولهم دليل على علمه بها ولهذا طرد غلاة القوم ذلك ونفوا علمه فأكفرهم السلف قاطبة.

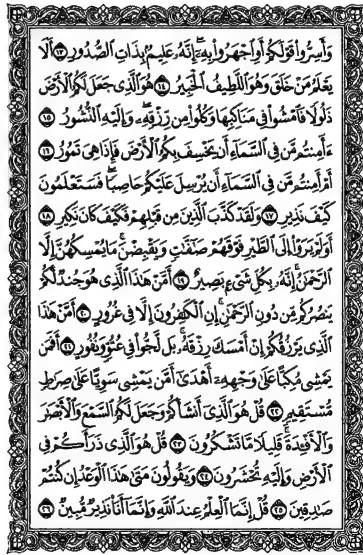
وهذا التقرير من الآية صحيح على التقديرين أعني تقدير أن تكون من في محل رفع على الفاعلية وفي محل نصب على المفعولية، فعلى التقدير الأول: ألا يعلم الخالق الذي شأنه الخلق، وعلى التقدير الثاني: ألا يعلم الرب مخلوقه ومصنوعه. (الصواعق المرسلة ٢/ ٤٩١).

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (١٥).

٢- وحسن التعبير بمناكبها عن طرقها وفجاجها؛ لما تقدم من وصفها بكونها ذلولا، فالماشي عليها يطا على مناكبها وهو أعلى شيء فيها، ولهذا فسرت المناكب بالجبل كمناكب الإنسان وهي أعاليه، قالوا وذلك تنبيه على أن المشي في سهولها أيسر وقالت طائفة: بل المناكب الجوانب والنواحي، ومنه مناكب الإنسان لجوانبه.

والذي يظهر أن المراد بالمناكب الأعالي، وهذا الوجه الذي يمشي عليه الحيوان هو العالي من الأرض دون الوجه المقابل له، فإن سطح الكرة أعلاها والمشي إنما يقع في سطحها، وحسن التعبير عنه بالمناكب لما تقدم من وصفها بأنها ذلول.

٣- على أنا في هذا المسكن غير مستوطنين ولا مقيمين، بل دخلناه عابري سبيل، فلا يحسن أن نتخذة وطنًا ومستقرًا وإنما دخلناه لتزود منه إلى دار القرار، فهو منزل عبور لا مستقر حبور ومعبر وممر لا وطن ومستقر فتضمنت الآية الدلالة على ربوبيته ووحدانيته وقدرته وحكمته ولطفه والتذكير بنعمه وإحسانه والتحذير من الركون إلى الدنيا واتخاذها وطنًا ومستقرًا، بل نسرع فيها السير إلى داره وجنته، فله ما في ضمن هذه الآية من معرفته وتوحيده والتذكير بنعمه والحث على السير إليه والاستعداد للقاءه والقدوم عليه والإعلام بأنه سبحانه يطوي هذه الدار كأن لم تكن، وأنه يحيي أهلها بعدما أماتهم وإليه النشور. (الفوائد ٢٠-٢١).

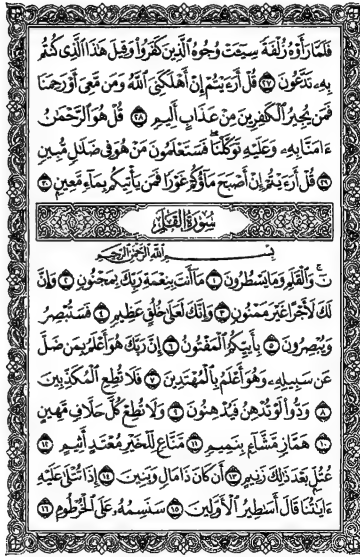


قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ۝ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ، بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ۝﴾.

٤- جمع سبحانه بين النصر والرزق، فإن العبد مضطر إلى من يدفع عنه عدوه بنصره، ويجلب له منافعه برزقه، فلا بد له من ناصر ورازق. والله وحده هو الذي ينصر ويرزق، فهو الرزاق ذو القوة المتين. ومن كمال فطنة العبد ومعرفته: أن يعلم أنه إذا مسه الله بسوء لم يرفعه عنه غيره، وإذا ناله بنعمة لم يرزقه إياها سواه. (إغاثة اللهفان ١/٣٣).

سورة القلم

قوله تعالى: ﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (١) مَا أَنْتَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ .



١ - المقسم عليه بالقلم والكتابة في هذه السورة تنزيه نبيه ورسوله عما يقول فيه أعداؤه، وهو قوله تعالى: ﴿مَا أَنْتَ بِمَجْنُونٍ﴾ (٢). وأنت إذا طابقت بين هذا القسم والمقسم به وجدته دالاً عليه أظهر دلالة وأبينها، فإن ما سطر الكاتب بالقلم من أنواع العلوم التي يتلقاها البشر بعضهم عن بعض لا تصدر من مجنون ولا تصدر إلا من عقل وافر، فكيف يصدر ما جاء به الرسول من هذا الكتاب الذي هو في أعلى درجات العلوم، بل العلوم التي تضمنها ليس

في قوى البشر الإتيان بها، ولا سيما من أُمي لا يقرأ كتاباً ولا يخط بيمينه، مع كونه في أعلى أنواع الفصاحة سليماً من الاختلاف برياً من التناقض يستحيل من العقلاء كلهم لو اجتمعوا في صعيد واحد أن يأتوا بمثله ولو كانوا في عقل رجل واحد منهم، فكيف يتأتى ذلك من مجنون لا عقل له يميز به ما عسى كثير من الحيوان أن يميزه، وهل هذا إلا من أقبح البهتان وأظهر الإفك؟!

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ (٣).

٢ - أي: غير مقطوع، بل هو دائم مستمر. ونكر الأجر تنكير تعظيم كما قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً﴾، و﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾، و﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا﴾، و﴿إِنَّ الْمُنْتَفِينَ مَفَازًا﴾ (٣١)، و﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ وهو كثير وإنما كان التنكير للتعظيم

لأنه صور للسامع بمنزلة أمر عظيم لا يدركه الوصف ولا يناله التعبير.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْتُهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْتُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَت كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾ فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلْنَهَا أَلْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدُوا عَلَى حَرٍِّ قَدِيرٍ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾

إِنَّا بَلَوْتُهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْتُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَت كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾ فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلْنَهَا أَلْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدُوا عَلَى حَرٍِّ قَدِيرٍ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾

٣- لما تحيلوا على إسقاط نصيب المساكين بأن يصرموها مصبحين قبل مجيء المساكين، فكان في ذلك عبرة لكل محتال على إسقاط حق من حقوق الله تعالى أو حقوق عباده. (إغاثة اللهنان ١/ ٣٤٢-٣٤٣).

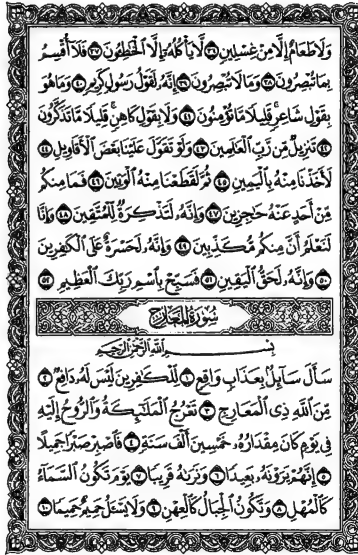
قوله تعالى: ﴿فَأَنْجَعِلْ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

٤- أنكر عليهم الحكم بهذا وأخرجه مخرج الإنكار لا مخرج الإخبار لينبه العقول على هذا مما تحيله الفطر وتأباه العقول السليمة. (طريق الهجرتين ٩٧).



سورة الحاقة

قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ (٣٨) ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾



١ - ضمن هذا القسم أن كل ما يرى وما لا يرى آية ودليل على صدق رسوله، وأن ما جاء به هو من عند الله وهو كلامه لا كلام شاعر ولا مجنون ولا كاهن.

ومن تأمل المخلوقات ما يراه منها وما لا يراه واعتبر ما جاء به الرسول بها ونقل فكرته في مجاري الخلق والأمر ظهر له أن هذا القرآن من عند الله، وأنه كلامه وهو أصدق الكلام وأنه حق ثابت كما أن سائر الموجودات ما يرى منها وما لا يرى حق كما قال

تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ نَنْطُقُونَ﴾ (٢٣)، أي: إن كان نطقكم حقيقة وهو أمر موجود لا تمارون فيه ولا تشكون فهكذا ما أخبرتكم به من التوحيد والمعاد والنبوة حق كما في الحديث إنه لحق مثلما أنك ها هنا، فكأنه سبحانه يقول: إن القرآن حق كما أن ما شاهدوه من الخلق وما لا يشاهدونه حق موجود، بل لو فكرتم فيما تبصرون وما لا تبصرون، لذلك ذلك على أن القرآن حق، ويكفي الإنسان من جميع ما يبصره وما لا يبصره بعينه ومبدأ خلقه ونشأته وما يشاهده من أحواله ظاهراً وباطناً، ففي ذلك أبين دلالة على وحدانية الرب وثبوت صفاته وصدق ما أخبر به رسوله وما لم يباشر قلبه ذلك حقيقة لم تخالط بشاشة الإيمان قلبه.

٢ - ثم ذكر سبحانه المقسم عليه فقال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (٤٠) وهذا رسوله

وكذا كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، ﴿وَقُلْ لِعِبَادِيَ يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾، ونظائره، فإذا بلغ الرسول ذلك، صح أن يقال قال الرسول كذا وهذا قول الرسول، أي: قاله مبلغاً وهذا قوله مبلغاً عن

مرسله ولا يجيء في شيء من ذلك تكلم لهم بكذا وكذا، ولا تكلم الرسول بكذا وكذا، ولا أنه بكلام رسول كريم، ولا في موضع واحد، بل قيل للصديق وقد تلى آية: هذا كلامك وكلام صاحبك. فقال: ليس بكلامي ولا كلام صاحبي، هذا كلام الله.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ﴾ (٤٩) ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٥٠) ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ (٥١).

٥- أخبر سبحانه أن القرآن والرسول حق

اليقين، فقيل هو من باب إضافة الموصوف إلى

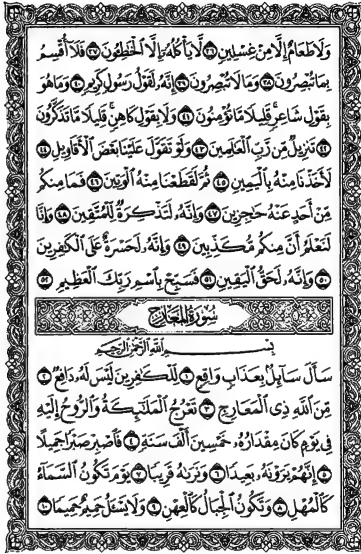
صفته، أي: الحق اليقين نحو مسجد الجامع وصلاة الأولى، وهذا موضع يحتاج إلى تحقيق، فنقول وبالله التوفيق: ذكر الله سبحانه في كتابه مراتب اليقين وهي ثلاثة: حق اليقين، وعلم اليقين، وعين اليقين، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ (٥) ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ (٦) ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ (٧). فهذه ثلاث مراتب لليقين:

أولها: علمه، وهو التصديق التام به، بحيث لا يعرض له شك ولا شبهة تقدح في تصديقه كعلم اليقين بالجنة مثلاً، وتيقنهم أنها دار المتقين ومقر المؤمنين، فهذه مرتبة العلم كيقينهم أن الرسل أخبروا بها عن الله وتيقنهم صدق المخبر.

المرتبة الثانية: عين اليقين، وهي مرتبة الرؤية والمشاهدة كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ



لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ وبين هذه المرتبة والتي قبلها فرق ما بين العلم والمشاهدة، فاليقين للسمع، وعين اليقين للبصر.



وفي المسند للإمام أحمد مرفوعاً: ليس الخبر كالمعاين. وهذه المرتبة هي التي سألها إبراهيم الخليل ربه أن يريه كيف يحيي الموت؛ ليحصل له مع علم اليقين عين اليقين، فكان سؤاله زيادة لنفسه وطمأنينة لقلبه، فيسكن القلب عند المعاينة، ويطمئن لقطع المسافة التي بين الخبر والعيان، وعلى هذه المسافة أطلق النبي لفظ الشك حيث قال: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» ومعاذ الله أن يكون هناك

شك ولا من إبراهيم، وإنما هو عين بعد علم، وشهود بعد خبر، ومعاينة بعد سماع.

المرتبة الثالثة: مرتبة حق اليقين، وهي مباشرة الشيء بالإحساس به كما إذا أدخلوا الجنة وتمتعوا بما فيها، فهم في الدنيا في مرتبة علم اليقين، وفي الموقف حين نزل ونقرب منهم حتى يعاينوها في مرتبة عين اليقين، وإذا دخلوها وباشروا نعيمها في مرتبة حق اليقين.

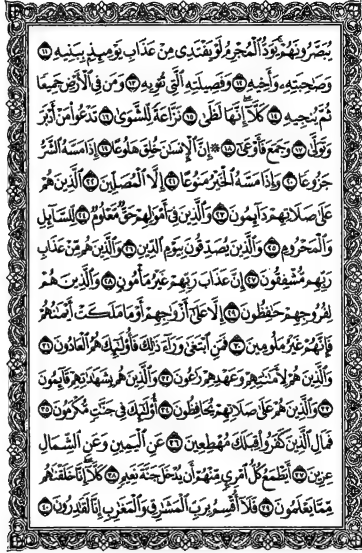
وقد ضرب بعض العلماء للمراتب الثلاثة مثالا فقال: إذا قال لك من تجزم بصدقه: عندي غسل أريد أن أطعمك منه، فصدقته، كان ذلك علم يقين، فإذا أحضره بين يديك، صار ذلك عين اليقين، فإذا ذقته، صار ذلك حق اليقين.

وعلى هذا فليست هذه الإضافة من باب إضافة الموصوف إلى صفته، بل من إضافة الجنس إلى نوعه.

[illegible]

وتعالى عما ينسبه إليه الجاهلون علوا كبيرا. (التبيان في أقسام القرآن ١٧٥-١٩٤).

سورة المعارج



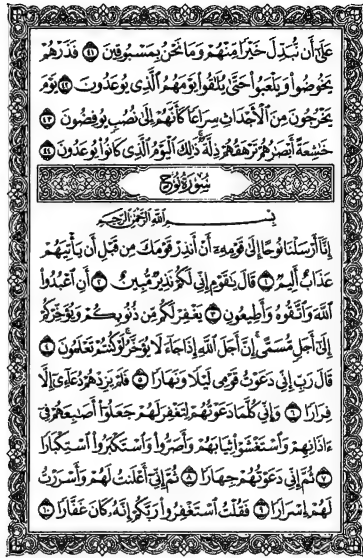
قوله تعالى: ﴿أَيُّطَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ (٣٨) كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ .

١ - إذا تأملت ارتباط إحدى الجملتين بالأخرى، وجدت تحتها كنزا عظيما من كنوز المعرفة والعلم، فأشار سبحانه بمبدأ خلقه مما يعلمون من النطفة وما بعدها إلى موضع الحجة والآية الدالة على وجوده ووحدانيته وكماله وتفرد بالربوبية والإلهية، وأنه لا يحسن به مع ذلك أن يتركهم سدى لا يرسل إليهم رسولا ولا ينزل عليهم كتابا، وأنه لا يعجز مع ذلك أن

يخلقهم بعدما أماتهم خلقا جديدا ويبعثهم إلى دار يوفيههم فيها أعمالهم من الخير والشر. فكيف يطمعون في دخول الجنة وهم يكذبون ويكذبون رسلي ويعدلون بي خلقي وهم يعلمون من أي شيء خلقتهم؟!

ويشبه هذا قوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ فَلَوْلَا تَصْدَقُونَ﴾ (٥٧) وهم كانوا مصدقين بأنه خالقهم، ولكن احتج عليهم بخلقهم لهم على توحيدهم ومعرفة وصدق رسله فدعاهم منهم ومن خلقه إلى الإقرار بأسمائه وصفاته وتوحيده وصدق رسله والإيمان بالمعاد. (شفاء العليل (٣٦).

قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ﴾ (٤٠) عَلَى أَنْ تُبَدَلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ .



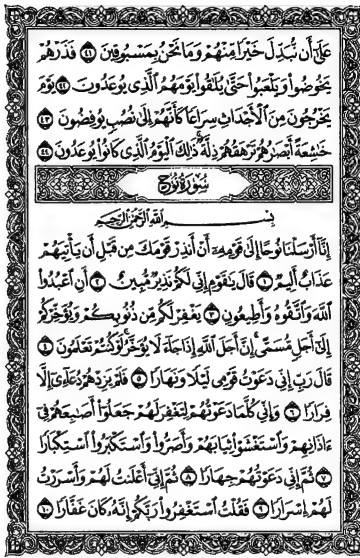
٢- في ربوبيته سبحانه للمشارك والمغرب تنبيه على ربوبيته السماوات وما حوته من الشمس والقمر والنجوم وربوبيته ما بين الجهتين وربوبيته الليل والنهار وما تضمنناه.

٣- وقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، أي: لا يفوتني ذلك إذا أردته ولا يمتنع مني وعبر عن هذا المعنى بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾؛ لأن المغلوب يسبقه الغالب إلى ما يريده فيفوت عليه، ولهذا عدي بـ(على) دون (إلى) كما في قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ ١٠٠ عَلَى أَنْ

تُبَدِّلَ أَمَثَلَكُمُ، فإنه لما ضمنه معنى مغلوبين ومقهورين عداه بـ(على) بخلاف سبقه إليه، فإنه فرق بين سبقته إليه وسبقته عليه. فالأول بمعنى غلبته وقهرته عليه، والثاني بمعنى وصلت إليه قبله.

٤- وقد وقع الإخبار عن قدرته عليه سبحانه على تبديلهم بخير منهم، وفي بعضها تبديل أمثالهم، وفي بعضها استبداله قومًا غيرهم، ثم لا يكونوا أمثالهم، فهذه ثلاثة أمور يجب معرفة ما بينها من الجمع والفرق، فحيث وقع التبديل بخير منهم، فهو إخبار عن قدرته على أن يذهب بهم ويأتي بأطوع واتقى له منهم في الدنيا وذلك قوله: ﴿وَلَا يَنْتَوَلَوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ يعني: بل يكونوا خيرًا منكم.

قال مجاهد: يستبدل بهم من شاء من عباده فيجعلهم خيرًا من هؤلاء، فلم يتولوا بحمد الله فلم يستبدل بهم. وأما ذكره تبديل أمثالهم ففي سورة الواقعة وسورة الإنسان، فقال في الواقعة ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ ١٠٠ عَلَى أَنْ يُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنْشِئَكُمُ



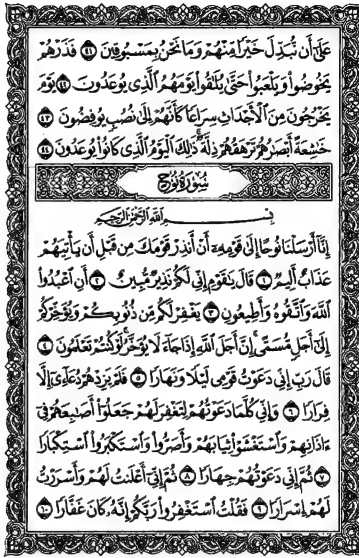
فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾، وقال في سورة الإنسان ﴿لَنَخْنُ
خَلَقْنَهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمَثْلَهُمْ بَدِيلًا
﴿٢٨﴾ قال كثير من المفسرين: المعنى أنا إذا أردنا أن
نخلق خلقًا غيركم، لم يسبقنا سابق، ولم يفتنا ذلك،
وفي قوله: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمَثْلَهُمْ بَدِيلًا﴾ إذا شئنا
أهلكناهم وأتيننا بأشباههم فجعلناهم بدلًا منهم.

قال المهدوي: قومًا موافقين لهم في الخلق
مخالفين لهم في العمل، ولم يذكر الواحدي ولا
ابن الجوزي غير هذا القول، وعلى هذا فتكون هذه

الآيات نظير قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ فيكون
استدلالا بقدرته على إذهابهم والإتيان بأمثالهم على إتيانه بهم أنفسهم إذا ماتوا.

وهذا تهديد شديد يتضمن ترك هؤلاء الذين قامت عليهم حجتي، فلم يقبلوها ولم
يخافوا بأسني ولا صدقوا رسالاتي في خوضهم بالباطل ولعبهم، فالخوض في الباطل
ضد التكلم بالحق واللعب ضد السعي الذي يعود نفعه على ساعيه، فالأول ضد العلم
النافع، والثاني ضد العمل الصالح، فلا تكلم بالحق ولا عمل بالصواب، وهذا شأن كل
من أعرض عما جاء به الرسول لا بد له من هذين الأمرين.

٥- ثم ذكر سبحانه حالهم عند خروجهم من القبور فقال: ﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ
سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُوفُضُونَ ﴿٤٣﴾، أي: يسرعون، والنُّصْب العلم والغاية التي تنصب
فيؤمونها، وهذا من اللطف التشبيه وأبينه وأحسنه، فإن الناس يقومون من قبورهم
مهطعين إلى الداعي يؤمون الصوت لا يعرجون عنه يمينة ولا يسرة كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ
يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾، أي: يقبلون من كل أوب إلى صوته وناحيته لا يعرجون



عنه. قال الفراء: وهذا كما تقول دعوتك دعوة لا عوج لك عنها. وقال الزجاج: المعنى لا عوج لهم عن دعائه، أي لا يقدرّون إلا على اتباعه وقصده.

قوله تعالى: ﴿خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ٤٤﴾.

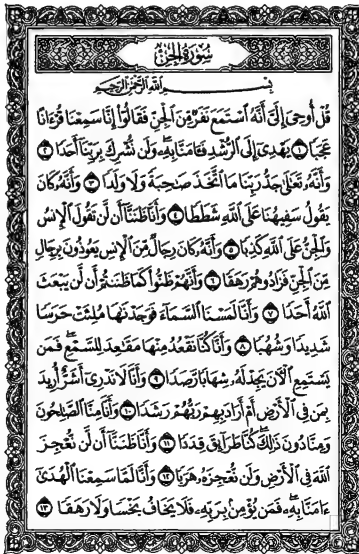
٦- وصفهم بذل الظاهر وهو خشوع الأبصار وذلل الباطن وهو ما يرهقهم من الذل خشعت عنه أبصارهم، وقريب من هذا قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ٢٤ تَنْظُرُ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ٢٥﴾ ونظيره قوله: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ

مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَانَمَا أَغَشِيَتْ وَجُوهُهُمْ قُطْعًا مِنَ الْإِلِّ مُظْلِمًا﴾ وضد هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ١١٨﴾ فنفي عنه الجوع الذي هو ذل الباطن والعري الذي هو ذل الظاهر وضده أيضًا قوله: ﴿وَلَقَدْهُمْ نَضْرَةٌ وَسُرُورًا﴾ فالنضرة عز الظاهر وجماله والسرور عز الباطن وجماله، ومثله أيضًا قوله: ﴿عَلَيْهِمْ ثَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ٢١﴾ فجمع لهم بين زينة الظاهر والباطن، ومثله وقوله: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكُمُ وَرِيشًا وَلِبَاسُ الْتَقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ فجمع لهم بين زينة الظاهر والباطن، ومثله قوله: ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ٦﴾ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ٧﴾ فزين ظاهرها بالنجوم وباطنها بالحفظ من كل شيطان رجيم، ومثل قوله أيضًا: ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَاَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، وقريب منه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾، ومنه قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَتْ وَجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ١٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وَجُوهُهُمْ فَبِإِذْنِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ١٧﴾ فجمع لهؤلاء بين جمال الظاهر

سورة الجن

﴿قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾﴾

١- هذا يعرف سره من السياق، فإن هذا حكاية كلام مؤمني الجن حين سماع القرآن كما قال تعالى: ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ (١) ﴿الآيات.



وكان القرآن أول ما خوطب به الإنس ونزل على نبيهم وهم أول من بدأ بالتصديق والتكذيب قبل الجن، فجاء قول مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بتقديم الإنس لتقدمهم في الخطاب بالقرآن وتقديمهم في التصديق والتكذيب، وفائدة أخرى: وهي أن هذا حكاية كلام مؤمني الجن لقومهم بعد أن رجعوا إليهم فأخبروهم بما سمعوا من القرآن وعظمته وهدايته إلى الرشd، ثم اعتذروا

عما كانوا يعتقدونه أولاً بخلاف ما سمعوه من الرشd بأنهم لم يكونوا يظنون أن الإنس والجن يقولون على الله كذبا.

فذكرهم الإنس هنا في التقديم أحسن في الدعوة وأبلغ في عدم التهمة، فإنهم خالفوا ما كانوا يسمعون من الإنس والجن لما تبين لهم كذبهم فبداءتهم بذكر الإنس أبلغ في نفي الغرض والتهمة، وألا يظن بهم قومهم أنهم ظاهروا الإنس عليهم، فإنهم أول ما أقرؤوا بتقولهم الكذب على الله تعالى، وهذا من أطف المعاني وأدقها، ومن تأمل مواقعه في الخطاب عرف صحته. (بدائع الفوائد ١/ ٦٧).

الذين خلفوا بعدهم، ولما كان الإنس أكمل من الجن وأتم عقولا، ازدادوا عليهم بثلاثة أصناف آخر ليس شيء منها للجن، وهم: الرسل، والأنبياء، والمقربون. فليس في الجن صنف من هؤلاء، بل حيلتهم الصلاح. (طريق الهجرتين ٣٨٥ - ٣٨٧).



سورة المدثر

قوله تعالى: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرَ ٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ٣٣ ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ٣٤﴾ إِنَّهَا لِأَحَدَى الْكُبَرِ ٣٥ ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ٣٦﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ٣٧ ﴿



١- أمّا إقسامه سبحانه بـ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ٣٣﴾ فلما في إدباره وإقبال النهار من أبين الدلالات الظاهرة على المبدأ والمعاد، فإنه مبدأ ومعاد يومي مشهود بالعيان، بينما الحيوان في سكون الليل قد هدأت حركاتهم وسكنت أصواتهم ونامت عيونهم وصاروا إخوان الأموات، إذ أقبل من النهار داعيه

وأسمع الخلائق مناديه، فانتشرت منهم الحركات، وارتفعت منهم الأصوات، حتى كأنهم قاموا أحياء من القبور يقول قائلهم: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور، فهو معاد جديد بدأه وأعاده الذي يبدئ ويعيد، فمن ذهب بالليل وجاء بالنهار سوى الواحد القهار؟

٢- وأقسم سبحانه بهذه الأشياء الثلاثة: وهي القمر، والليل إذا أدبر، والصبح إذا أسفر، على المعاد؛ لما في القسم من الدلالة على ثبوت المقسم عليه، فإنه يتضمن كمال قدرته وحكمته وعنايته بخلقه، وإبداء الخلق وإعادته كما هو مشهود في إبداء النهار والليل وإعادتهما، وفي إبداء النور وإعادته في القمر، وفي إبداء الزمان وإعادته الذي هو حاصل بسير الشمس والقمر، وإبداء الحيوان والنبات وإعادتهما، وإبداء فصول السنة وإعادتها، وإبداء ما يحدث في تلك الفصول وإعادته، فكل ذلك دليل



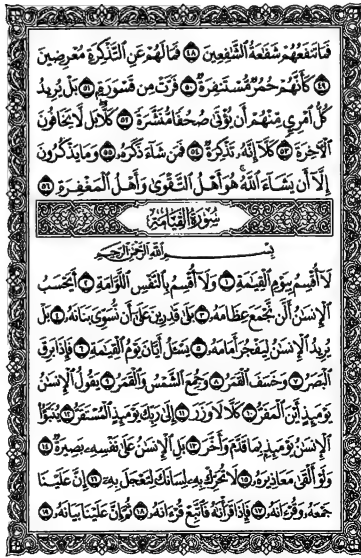
ظاهر على المبدأ والمعاد الذي أخبرت به الرسل
كلهم عنه، فصرف سبحانه الآيات الدالة على صدق
رسله ونوعها وجعلها للفطر تارة، والسمع تارة،
والمشاهدة تارة، فجعلها آفاقية، ونفسية، ومنقولة،
ومعقولة، ومشهودة بالعيان، ومذكورة بالجنان،
فأبى الظالمون إلا كفورًا ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا
يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْ
يَنْفَعُوا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ (٢).

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (٣٨) ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ (٣٩) ﴿فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ﴾ (٤٠) عَنِ
الْمُجْرِمِينَ ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ (٤١) ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ (٤٢) ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾
﴿وَكُنَّا نَحْوُكُمْ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ (٤٥).

٣- هذه أربع صفات أخرجتهم من زمرة المفلحين وأدخلتهم في جملة الهالكين:
الأولى: ترك الصلاة وهي عمود الإخلاص للمعبود.

الثانية ترك إطعام المسكين الذي هو من مراتب الإحسان للعبيد فلا إخلاص
للخلق ولا إحسان للمخلوق كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ (٦) وَيَمْنَعُونَ
الْمَاعُونَ ﴿٧﴾، وقال: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ
كَرْهُونَ﴾، وهذا ضد ما وصف به أصحاب اليمين بقوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ
وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (٢) وقال: ﴿نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا
وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (١١).

الصفة الثالثة والرابعة: الخوض بالباطل، والتكذيب بالحق، فاجتمع لهم عدم الإخلاص والإحسان والخوض بالباطل والتكذيب بالحق، واجتمع لأصحاب اليمين الإخلاص والإحسان والتصديق بالحق والتكلم به، فاستقام إخلاصهم وإحسانهم ويقينهم وكلامهم، واستبدل أصحاب الشمال بالإخلاص شرًا، وبالإحسان إساءة، وباليقين شكًا وتكذيبًا، وبالكلام النافع خوضًا في الباطل، فلذلك لم تنفعهم شفاعة الشافعين.



📖 قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ ۖ كَانَهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ۖ﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ۖ﴾ ﴿٥١﴾ ﴿

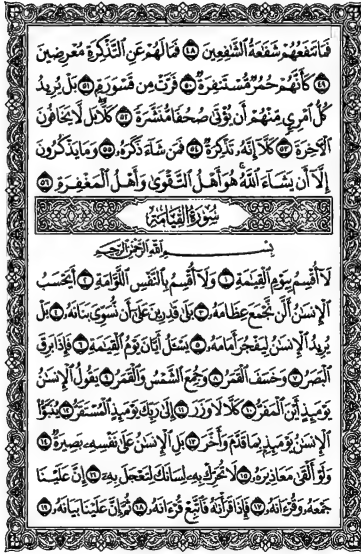
٤- شبههم في إعراضهم ونفورهم عن القرآن بحمر رأت الأسد أو الرماة ففرت منه، وهذا من بديع القياس والتمثيل، فإن القوم في جهلهم بما بعث الله به رسوله كالحمر، وهي لا تعقل شيئًا، فإذا سمعت صوت الأسد أو الرمي نفرت منه أشد النفور، وهذا غاية الذم لهؤلاء، فإنهم نفروا عن الهدى الذي فيه سعادتهم وحياتهم كنفور الحمر عما يهلكها ويعقرها،

وتحت المستنفرة معنى أبلغ من النافرة؛ فإنها لشدة نفورها قد استنفر بعضها بعضها وحضه على النفور، فإن في الاستفعال من الطلب قدرا زائدا على الفعل المجرد، فكأنها تواصلت بالنفور، وتواطأت عليه، ومن قرأها بفتح الفاء فالمعنى أن القسورة استنفرها وحملها على النفور ببأسه وشدته. (إعلام الموقعين ١/ ٢١٥-٢١٦).



سورة القيامة

📖 قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۖ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۖ (٢)﴾ .



١- نبّه سبحانه بكونها لومة على شدة حاجتها وفاقتها وضرورتها إلى من يعرفها الخير والشر ويدلها عليه ويرشدها إليه، ويلهمها إياه، فيجعلها مريدة للخير مرشدة له، كارهة للشر مجانية له، لتخلص من اللوم ومن شر ما تلوم عليه، ولأنها متلومة مترددة لا تثبت على حال واحدة، فهي محتاجة إلى من يعرفها ما هو أنفع لها في معاشها ومعادها، فتؤثره وتلوم نفسها عليه إذا فاتها فتتوب منه إن كانت سعيدة، ولتقوم عليها حجة عدله، فيكون لومها في القيامة

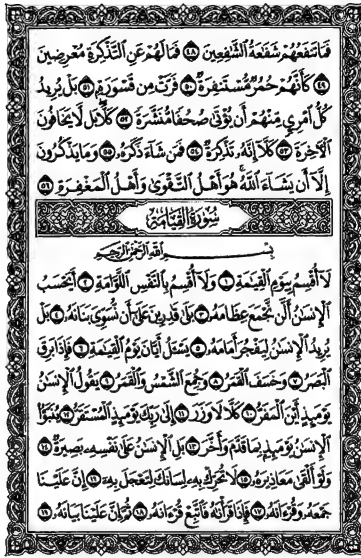
لنفسها عليه لومًا بحق قد أعذر الله خالقها وفاطرها إليها فيه، ففي صفة اللوم تنبيه على ضرورتها إلى التصديق بالرسالة والقرآن، وأنها لا غنى لها عن ذلك، ولا صلاح ولا فلاح بدونه البتة، ولما كان يوم معادها هو محل ظهور هذا اللوم وترتب أثره عليه قرن بينهما في الذكر. (البيان في أقسام القرآن ١٤-١٨).

📖 قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ۖ (٣) بَلَىٰ قَدَرِينَا عَلَيَّ أَنْ تُسَوِّىَ بَنَانَهُ ۖ (٤) بَلَىٰ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرْ أَمَامَهُ ۖ (٥) يَسْتَلْ أَتَىٰ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ (٦)﴾ .

٢- في ذكر البنان لطيفة أخرى: وهي أنها أطرافه وآخر ما يتم به خلقه، فمن قدر على جمع أطرافه وآخر ما يتم به خلقه مع دقتها وصغرها ولطافتها، فهو على ما دون ذلك أقدر، فالقوم لما استبعدوا جمع العظام بعد الفناء والأرمام، قيل: إنا نجمع

ونسوي أكثرها تفرقاً وأدقها أجزاء، وآخر أطراف
البدن وهي عظام الأنامل ومفاصلها.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۖ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۚ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَتَى الْمَفْرُ ۙ﴾



٣- ما أجمع هذه السورة لمعاني الجمع والضم،
وقد افتتحت بالقسم بيوم القيامة الذي يجمع الله فيه
بين الأولين والآخرين، وبالنفس اللوامة التي اجتمع
فيها همومها وغموها وإرادتها واعتقاداتها، وتضمنت

ذكر المبدأ والمعاد والقيامة الصغرى والكبرى، وأحوال الناس في المعاد، وانقسام
وجوههم إلى ناظرة منعمة وباسرة معذبة، وتضمنت وصف الروح بأنها جسم يتقل
من مكان إلى مكان، فتجمع من تفاريق البدن حتى تبلغ التراقي.

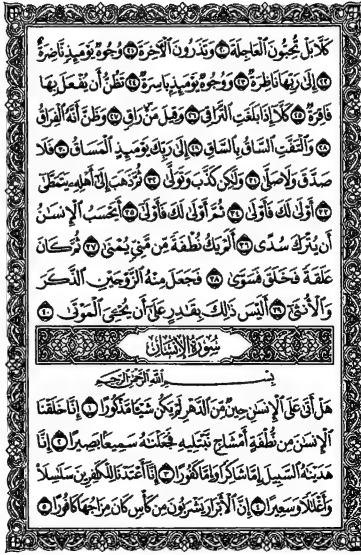
قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۚ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۚ﴾

٤- ضمنت التاني والتثبت في تلقي العلم وألا يحمل السامع شدة محبته وحرصه
وطلبه على مبادرة المعلم بالأخذ قبل فراغه من كلامه، بل من آداب الرب التي أدب بها
نبيه أمره بترك الاستعجال على تلقي الوحي، بل يصبر إلى أن يفرغ جبريل من قراءته،
ثم يقرؤه بعد فراغه عليه، فهكذا ينبغي لطالب العلم ولسامعه أن يصبر على معلمه حتى
يقضي كلامه، ثم يعيده عليه، أو يسأل عما أشكل عليه منه ولا يبادره قبل فراغه.

وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى في ثلاثة مواضع من كتابه، هذا أحدها، والثاني
قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۚ﴾

فَنَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ. وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾، والثالث قوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ ﴿٦﴾ فضمن لرسوله ألا ينسى ما أقرأه إياه، وهذا يتناول القراءة وما بعدها. (البيان في أقسام القرآن ١٤٧-١٦٣).

قوله تعالى: ﴿وَجُودٌ بِوَمِيذٍ نَاصِرَةٍ﴾ ﴿٢٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٣﴾.



٥- إذا أجرت هذه الآية من تحريفها عن مواضعها والكذب على المتكلم بها سبحانه فيما أراده منها، وجدتها منادية نداء صريحا: إن الله سبحانه يرى عيانا بالأبصار يوم القيامة، وإن أبيت إلا تحريفها الذي يسميه المحرفون تأويلا، فتأويل نصوص المعاد والجنة والنار والميزان والحساب أسهل على أربابه من تأويلها وتأويل كل نص تضمنه القرآن والسنة كذلك، ولا يشاء مبطل على وجه الأرض أن يتأول النصوص ويحرفها عن مواضعها إلا وجد إلى ذلك من السبيل ما وجده متأول مثل هذه النصوص، وهذا الذي أفسد الدين والدنيا.

٦- وإضافة النظر إلى الوجه الذي هو محله في هذه الآية وتعديته بأداة (إلى) الصريحة في نظر العين وإخلاء الكلام من قرينة تدل على أن المراد بالنظر المضاف إلى الوجه المعدي بـ(إلى) خلاف حقيقته وموضوعه صريح في أن الله سبحانه وتعالى أراد بذلك نظر العين وإخلاء الكلام من قرينة تدل على أن المراد بالنظر المضاف إلى الوجه المعدي بـ(إلى) خلاف حقيقته، وموضوعه صريح في أن الله سبحانه وتعالى أراد بذلك نظر العين التي في الوجه إلى نفس الرب جلَّ جلاله. (حادي الأرواح ٢٣٧-٢٣٨).

[illegible]

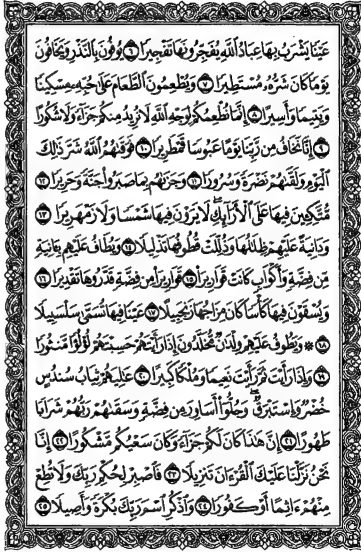
(مدارج السالكين ١ / ٢٣٨).

فانظر إلى هذا الحجاج العجيب بالقول الوجيز الذي لا يكون أوجز منه، والبيان الجليل الذي لا يتوهم أوضح منه، ومأخذه القريب الذي لا تقع الظنون على أقرب

منه. (الصواعق المرسلة ٤٨٠-٤٨١).

سورة الإنسان

قوله تعالى: ﴿لَا نُزِيدُكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ .



١ - يحتمل أن يكون مصدرا كالقعود، وأن يكون جميعا كالبرود والكفور، والشكران خلاف الكفران، وتشكرت له مثل شكرت له، والشكور من الدواب ما يكفيه العلف القليل، واشتكرت السماء اشتد وقع مطرها، واشتكر الضرع امتلا لبنا، تقول منه شكرت الناقة (بالكسر) تشكر شكرا، فهي شكرة، وشكرت الشجرة تشكر شكرا، إذا خرج منها الشكير، وهو ما ينبت حول الشجرة من أصلها.

فتأمل هذا الاشتقاق وطابق بينه وبين الشكر المأمور به وبين الشكر الذي هو جزاء الرب الشكور، كيف نجد في الجميع معنى الزيادة والنماء.

ويقال أيضا: دابة شكور، إذا أظهرت من السمن فوق ما تعطي من العلف.

وشكر العبد يدور على ثلاثة أركان لا يكون شكورا إلا بمجموعها:

أحدها: اعترافه بنعمة الله عليه.

والثاني: الثناء عليه بها.

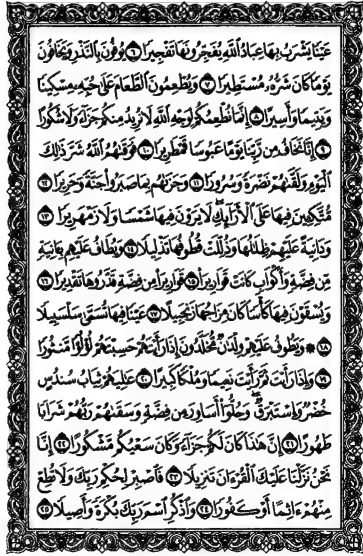
والثالث: الاستعانة بها على مرضاته. (عدة الصابرين ١٤٨).

إن الله تعالى وصفهم بالإخلاص وإنهم إنما قصدوا بإطعام الطعام وجهه ولم

يريدوا من المُطعمين جزاء ولا شكورا. (بدائع الفوائد ٢/ ٨٤-٨٥).

قوله تعالى: ﴿وَجَزَّيْنَهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ (١٢).

٢- لما كان في الصبر الذي هو حبس النفس عن الهوى خشونة وتضييق، جازاهم على ذلك نعومة الحرير وسعة الجنة. (روضة المحبين ٤٣٠).



قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِثَانِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾ (١٥) قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَرُهَا نَقْدِيرًا (١٦).

٣- القوارير هي الزجاج، فأخبر سبحانه وتعالى عن مادة تلك الآنية أنها من الفضة، وأنها بصفاء الزجاج وشفافيته، وهذا من أحسن الأشياء وأعجبها، وقطع سبحانه توهم كون تلك القوارير من زجاج فقال: ﴿قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ﴾.

٤- وقوله: ﴿قَدَرُهَا نَقْدِيرًا﴾ التقدير: جعل الشيء

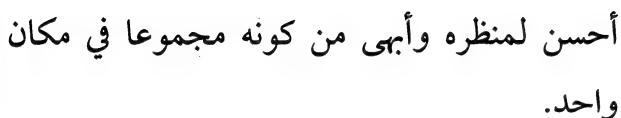
بقدر مخصوص، فقدرت الصناعات هذه الآنية على قدر ربيهم، لا يزيد عليه ولا ينقص منه، وهذا أبلغ من لذة الشارب، فلو نقص عن ربه لنقص التذاده، ولو زاد حتى يشمئز منه حصل له ملالة وسآمة من الباقي، هذا قول جماعة من المفسرين.

قوله تعالى: ﴿وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانِ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنْثُورًا﴾ (١١).

٥- شبههم سبحانه باللؤلؤ المنشور لما فيه من البياض وحسن الخلقة، وفي كونه منشورا فائدتان:

إحداهما: الدلالة على أنهم غير معطلين، بل مبثوثون في خدمتهم وحوائجهم.

والثانية: أن اللؤلؤ إذا كان منشورا ولا سيما على بساط من ذهب أو حرير، كان



وإذا تأملت لفظة ﴿وَلَدَانُ﴾ ولفظة ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ واعتبرتها بقوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غُلَامَانُ لَهُمْ﴾ وضممت ذلك إلى حديث أبي سعيد المذكور آنفا، علمت أن الولدان غلمان أنشأهم الله تعالى في الجنة خدماً لأهلها، والله أعلم. (حادي الأرواح ١٧٥ - ١٧٧).

قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾

٦- تأمل ما دلت عليه لفظة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ من كون ذلك اللباس ظاهرا بارزا يجمل ظواهرهم ليس بمنزلة شعار الباطن، بل الذي يلبس فوق الثياب للزينة والجمال.

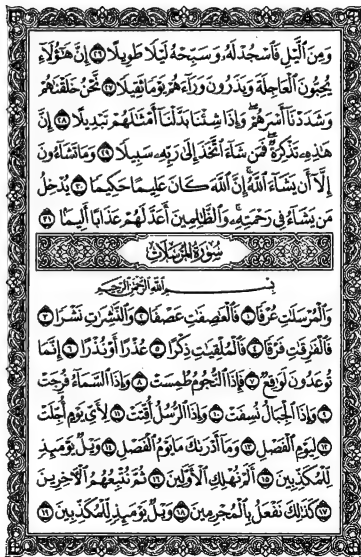
قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ (٢٢).

٧- جمع لهم سبحانه بين الأمرين: أن شكر سعيهم، وأثابهم عليه، والله تعالى يشكر عبده إذا أحسن طاعته، ويغفر له إذا تاب إليه، فيجمع للعبد بين شكره لإحسانه، ومغفرته لإساءته، إنه غفور شكور. (عدة الصابرين ٢٨٠).



سورة المرسلات

قوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتُ عُرْفًا ۝١﴾ فَأَلْصَقَتْ عَصْفًا ۝٢﴾ وَالنَّشْرُوتُ نَشْرًا ۝٣﴾ فَأَلْفَرَقَتْ فَرَقًا ۝٤﴾ فَأَلْمَلِيقَتِ ذِكْرًا ۝٥﴾ عُدْرًا أَوْ نَذْرًا ۝٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَفِّعَ ۝٧﴾ ﴿.



١ - يظهر والله أعلم بما أراد من كلامه أن القسم في هذه الآية وقع على النوعين: الرياح، والملائكة. ووجه المناسبة أن حياة الأرض والنبات وأبدان الحيوان بالرياح، فإنها من روح الله وقد جعلها الله تعالى نشورا، وحياة القلوب والأرواح بالملائكة، فبهذين النوعين يحصل نوعا الحياة، ولهذا والله أعلم فصل أحد النوعين من الآخر بالواو، وجعل ما هو تابع لكل نوع بعده بالفاء.

وتأمل كيف وقع القسم في هذه السورة على المعاد والحياة الدائمة الباقية وحال السعداء والأشقياء

فيها وقررها بالحياة الأولى في قوله: ﴿الَّذِينَ خَلَقَكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ۝٢٠﴾ ﴿ فذكر فيها المبدأ والمعاد، وأخلص السورة لذلك، فحسن الإقسام بما يحصل به نوعا الحياة المشاهدة وهو الرياح والملائكة، فكان في القسم بذلك أبين دليل وأظهر آية على صحة ما أقسم عليه وتضمنته السورة؛ ولهذا كان المكذب بعد ذلك في غاية الجحود والعناد والكفر، فاستحق الويل بعد الويل، فتضاعف عليه الويل كما تضاعف منه الكفر والتكذيب.

فلا أحسن من هذا التكرار في هذا الموضع ولا أعظم منه موقعا، فإنه تكرر عشر مرات ولم يذكر إلا في أثر دليل أو مدلول عليه عقيب ما يوجب التصديق وما يوجب التصديق به، فتأمل. (البيان في أقسام القرآن ١٤٢-١٤٧).

سورة النبأ



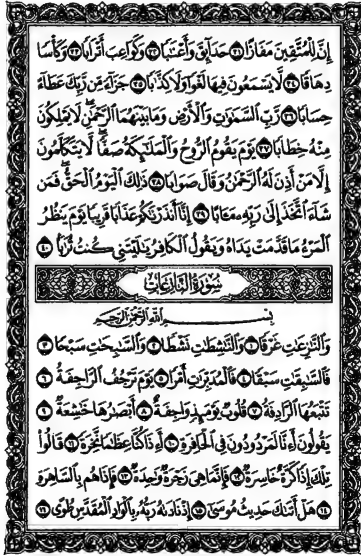
قوله تعالى: ﴿لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ (٢٣) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ .

١- لما نفى ذوق البرد والشراب، فرمى توهم أنهم لا يذوقون غيرهما، فقال: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ فيكون الاستثناء من عام مقدر. (بدائع الفوائد ٣/ ٧٠).



سورة النازعات

قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرَقًا ۝١﴾ وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا ۝٢﴾ وَالسَّيِّحَاتِ سَبْحًا ۝٣﴾
فَالسَّيِّغَاتِ سَبْحًا ۝٤﴾ فَاَلْمَدِيرَاتِ أَمْرًا ۝٥﴾.



١- هذه خمسة أمور وهي صفات الملائكة.

فأقسم سبحانه بالملائكة الفاعلة لهذه الأفعال؛ إذ ذلك من أعظم آياته، وحذف مفعول النزع والنشط؛ لأنه لو ذكر ما تنزع وتنشط لأوهم التقييد به وأن القسم على نفس الأفعال الصادرة من هؤلاء الفاعلين، فلم يتعلق الغرض بذكر المفعول كقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَكَى ۝٥﴾ ونظائره، فكان نفس النزع هو المقصود لا عين المنزوع.

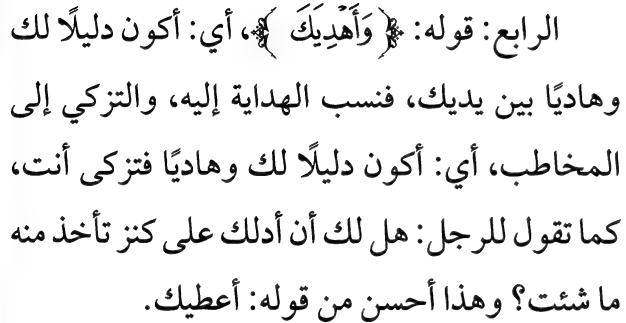
قوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَرْكَبَ ۝١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَانْحَسِبْ ۝١٩﴾.

٢- في هذا من لطف الخطاب ولينه وجوه:

أحدهما: إخراج الكلام مخرج العرض، ولم يخرج مخرج الأمر والإلزام وهو اللطف، ونظيره قول إبراهيم لضييفه المكرمين: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ولم يقل: كلوا.

الثاني: قوله: ﴿إِلَىٰ أَنْ تَرْكَبَ﴾ والتزكي: النماء والطهارة والبركة والزيادة، فعرض عليه أمرًا يقبله كل عاقل، ولا يرده إلا كل أحمق جاهل.

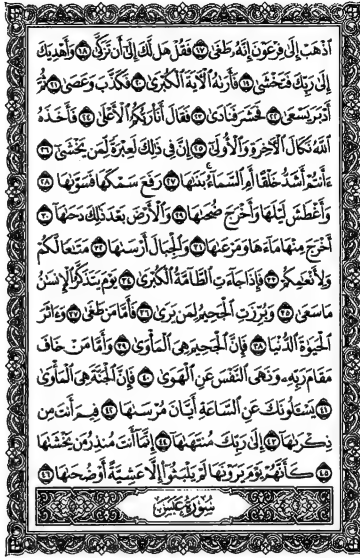
الثالث: قوله: ﴿تَرْكَبَ﴾ ولم يقل: أذكبك. فأضاف التزكية إلى نفسه، وعلى هذا يخاطب المملوك.



الخامس: قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، فإن في هذا ما
يوجب قبول ما دل عليه وهو أنه يدعو ويوصله إلى
ربه فاطره وخالقه الذي أوجده ورباه بنعمه حينما
وصغيرًا وكبيرًا وآتاه الملك وهو نوع من خطاب
الاستعطاف والإلزام كما تقول لمن خرج عن طاعة
ومالكك؟ وتقول للوالد: ألا تطيع أباك الذي رباك؟

السادس: قوله: ﴿فَخَشِيَ﴾، أي: إذا اهتديت إليه وعرفته خشيته؛ لأن من عرف الله خافه، ومن لم يعرفه لم يخفه، فخشيته تعالى مقرونة بمعرفته، وعلى قدر المعرفة تكون الخشية.

السابع: أن في قوله: ﴿هَلْ لَكَ﴾ فائدة لطيفة، وهي أن المعنى: هل لك في ذلك حاجة أو أرب؟ ومعلوم أن كل عاقل يبادر إلى قبول ذلك؛ لأن الداعي إنما يدعو إلى حاجته ومصلحته لا إلى حاجة الداعي، فكأنه يقول: الحاجة لك وأنت المتزكي، وأنا الدليل لك، والمرشد لك إلى أعظم مصالحك. فقابل هذا بغاية الكفر والعناء، وادعى أنه رب العالمين، هذا وهو يعلم أنه ليس بالذي خلق فسوى، ولا قدر فهدى، فكذب الخبر وعصى الأمر، ثم أدبر يسعى بالخدعة والمكر، فحشر جنوده فأجابوه، ثم نادى فيهم بأنه ربهم الأعلى، واستخفهم فأطاعوه، فبطش به جبار السماوات والأرض



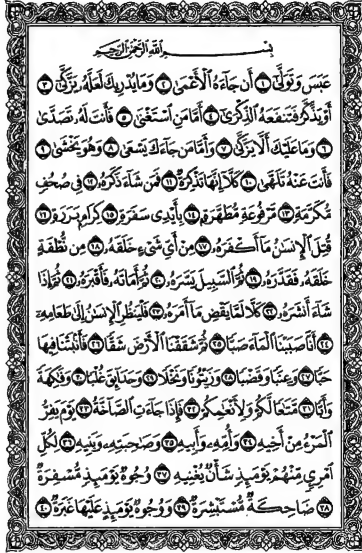
بطشة عزيز مقتدر، وأخذه نكال الآخرة والأولى؛
ليعتبر بذلك من يعتبر، فاعتبر بذلك من خشي ربه من
المؤمنين، وحق القول على الكافرين. (التبيان في أقسام
القرآن ١٣٢-١٤٢).

📖 قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ﴾ (٣٧) ﴿وَأَثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾
﴿٢٨﴾ ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (٣١).

٣- النفس تدعو إلى الطغيان وإيثار الحياة
الدنيا، والرب يدعو عبده إلى خوفه ونهي النفس عن
الهوى. والقلب بين الداعيين، يميل إلى هذا الداعي
مرة، وإلى هذا مرة، وهذا موضع المحنة والابتلاء. (إغاثة اللهفان ١/ ٧٥).



سورة عبس



قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (٢٤) أَنَا
صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦)
فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَبَا وَقَضَا (٢٨) وَزَيَّنَّا وَنَحَلًا
(٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَكَهْهً وَأَبًّا (٣١) مَنَّاعًا
لَكُمْ وَلِأَنفُسِكُمْ (٣٢).

١- جعل سبحانه نظره في إخراج طعامه من الأرض دليلاً على إخراجِهِ هو منها بعد موته، استدلالاً بالنظير على النظير. (إعلام الموقعين ١/١٩٦).



سورة التكويد

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾



١- وصف رسوله الملكي في هذه السورة بأنه كريم، قوي، مكين عند الرب تعالى، مطاع في السماوات، أمين. فهذه خمس صفات تتضمن تذكية سنة القرآن، وأنه سماع محمد من جبريل، وسماع جبريل من رب العالمين، فناهيك بهذا السند علواً وجلالة قول الله سبحانه بنفسه تركيته.

الصفة الأولى: كون الرسول الذي جاء به إلى محمد كريماً ليس كما يقول أعداؤه إن الذي جاء به

شيطان، فإن الشيطان خبيث مخبث لئيم قبيح المنظر عديم الخير باطنه أقبح من ظاهره وظاهره أشنع من باطنه وليس فيه ولا عنده خير، فهو أبعد شيء عن الكرم والرسول الذي ألقى القرآن إلى محمد كريم جميل المنظر بهي الصورة كثير الخير طيب مطيب معلم الطيبين وكل خير في الأرض من هدى وعلم ومعرفة وإيمان وبر، فهو مما أجراه ربه على يده وهذا غاية الكرم الصوري والمعنوي.

الوصف الثاني: أنه ذو قوة كما قال في موضع آخر ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴿٥﴾﴾، وفي ذلك تنبيه على أمور:

أحدها: أنه بقوته يمنع الشياطين أن تدنو منه وأن ينالوا منه شيئاً وأن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه، بل إذا رآه الشيطان هرب منه ولم يقربه.



الثاني: أنه موال لهذا الرسول الذي كذبتموه ومعاضد له ومواد له وناصر كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾.

الثالث: أن من عادى هذا الرسول فقد عادى صاحبه ووليه جبريل ومن عادى ذا القوة والشدة، فهو عرضة للهلاك.

الرابع: أنه قادر على تنفيذ ما أمر به لقوته فلا يعجز عن ذلك، مؤد له كما أمر به لأمانته، فهو

القوي الأمين وأحدكم إذا انتدب غيره في أمر من الأمور لرسالة أو ولاية أو وكالة أو غيرها فإنما ينتدب لها القوي عليه الأمين على فعله وإن كان ذلك الأمر من أهم الأمور عنده انتدب له قويا أميناً معظماً ذا مكانة عنده مطاعاً في الناس كما وصف الله عبده جبريل بهذه الصفات.

٢- وهذا يدل على عظمة شأن المرسل والرسول والرسالة والمرسل إليه حيث انتدب له الكريم القوي المكين عنده المطاع في الملاء الأعلى الأمين حق الأمين، فإن الملوك لا ترسل في مهماتها إلا الأشراف ذوي الأقدار والرتب العالية.

٣- قوله: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾، أي: له مكانة ووجاهة عنده وهو أقرب الملائكة إليه، وفي قوله: ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ﴾ إشارة إلى علو منزلة جبريل إذ كان قريباً من ذي العرش سبحانه.

٤- وفي قوله: ﴿مُطَاعٌ﴾، ثم إشارة إلى أن جنوده وأعوانه يطيعونه إذا ندبهم لنصر صاحبه وخليله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



٥- وفيه إشارة أيضًا إلى أن هذا الذي تكذبونه وتعادونه سيصير مطاعًا في الأرض كما أن جبريل مطاع في السماء وأن كلاً من الرسولين مطاع في محله وقومه، وفيه تعظيم له بأنه بمنزلة الملوك المطاعين في قومهم، فلم ينتدب لهذا الأمر العظيم إلا مثل هذا الملك المطاع.

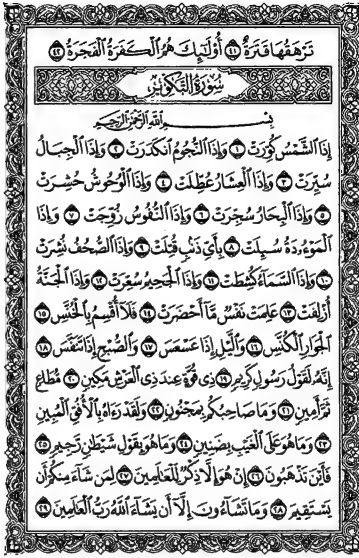
٦- وفي وصفه بالأمانة إشارة إلى حفظه ما حمله وأدائه له على وجهه.

٧- ثم نزه رسوله البشري وزكاه عما يقول فيه

أعداؤه فقال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ ❷ وهذا أمر يعلمونه ولا يشكون فيه وإن قالوا بالسستهم خلافه فهم يعلمون أنهم كانوا كاذبين.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾ ❸ ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ ❹ ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ ❺ ﴿فَإِنَّ تَذَاهِبُونَ﴾ ❻

٨- أخبر عن رؤيته لجبريل، وهذا يتضمن أنه ملك موجود في الخارج يرى بالعيان ويدركه البصر لا كما يقول المتفلسفة ومن قلدتهم إنه العقل الفعال، وإنه ليس مما يدرك بالبصر، وحقيقته عندهم أنه خيال موجود في الأذهان لا في الأعيان وهذا مما خالفوا به جميع الرسل وأتباعهم وخرجوا به عن جميع الملل ولهذا كان تقرير رؤية النبي لجبريل أهم من تقرير رؤيته لربه تعالى، فإن رؤيته لجبريل هي أصل الإيمان الذي لا يتم إلا باعتقادها ومن أنكرها كفر قطعاً، وأما رؤيته لربه تعالى فغايتها أن تكون مسألة نزاع لا يكفر جاحداً بالاتفاق. وقد صرح جماعة من الصحابة بأنه لم يره،



وحكى عثمان بن سعيد الدارمي اتفاق الصحابة على ذلك، فنحن إلى تقرير رؤيته لجبريل أحوج منا إلى تقرير رؤيته لربه تعالى، وإن كانت رؤية الرب أعظم من رؤية جبريل ومن دونه، فإن النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها البتة.

٩- قال أبو إسحاق: فأى طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بينت لكم؟ قلت: هذا من أحسن اللازم وأبينه أن تبين للسامع الحق، ثم تقول له أيش تقول خلاف هذا؟ وأين تذهب خلاف هذا؟

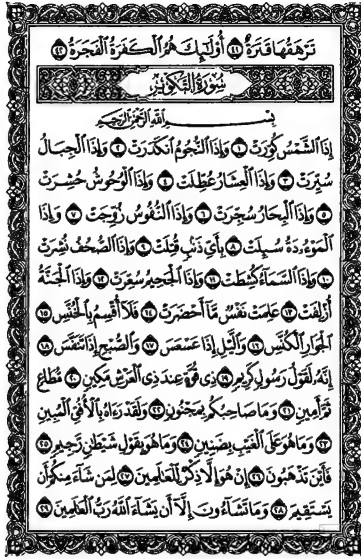
قال تعالى: ﴿فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ وقال: ﴿فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَأَيْنَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ فالأمر منحصر في الحق والباطل والهدى والضلال، فإذا عدلتُم عن الهدى والحق، فأين العدول وأين المذهب؟!

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٢٧) ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩).

١٠- رد على الجبرية القائلين بأن العبد لا مشيئة له أو أن مشيئته مجرد علامة على حصول الفعل لا ارتباط بينها وبينه إلا مجرد اقتران عادي من غير أن يكون سبباً فيه.

١١- وقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ رد على القدرية القائلين بأن مشيئة العبد مستقلة بإيجاد الفعل من غير توقف على مشيئة الله، بل متى شاء العبد الفعل وجد، ويستحيل عندهم تعلق مشيئة الله بفعل العبد، بل هو يفعله بدون مشيئة الله.

فالآيتان مبطلتان لقول الطائفتين.



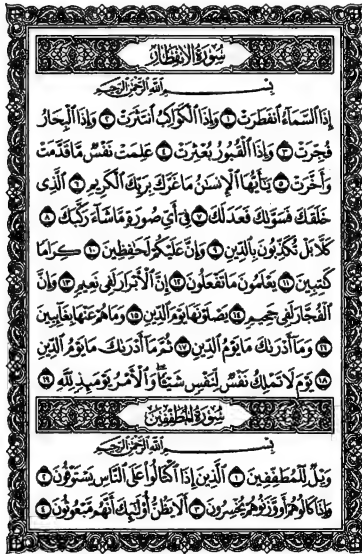
وهاتان الآيتان متضمنتان إثبات الشرع والقدر والأسباب والمسببات وفعل العبد واستناده إلى فعل الرب ولكل منهما عبودية مختص بها فعبودية الآية الأولى الاجتهاد واستفراغ الوسع والاختيار والسعي، وعبودية الثانية الاستعانة بالله والتوكل عليه واللجأ إليه واستنزال التوفيق والعون منه والعلم بأن العبد لا يمكنه أن يشاء ولا يفعل حتى يجعله الله كذلك.

وقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يتنظم ذلك كله ويتضمنه، فمن عطل أحد الأمرين، فقد جحد كمال الربوبية وعطلها، وبالله التوفيق. (البيان في أقسام القرآن ١١٤-١٣٢).



سورة الانفطار

﴿قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْمَلُونَ مَا تَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾﴾



١- أي استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام وأكرمواهم، وأجلوهم أن يروا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم، والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم، وإذا كان ابن آدم يتأذى ممن يفجر ويعصي بين يديه، وإن كان يعمل مثل عمله، فما الظن بأذى الملائكة الكرام الكاتبين؟! والله المستعان.

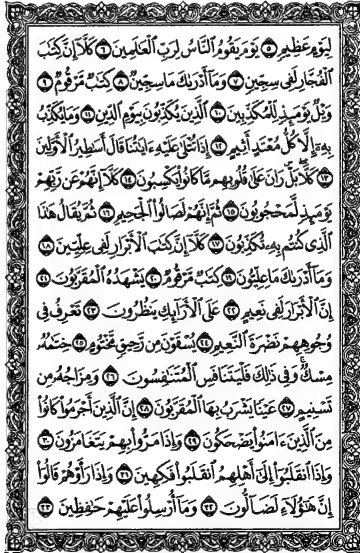
(الجواب الكافي ١٥٩).



سورة المطففين

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ﴿١٧﴾

١- ووجه الاستدلال بها أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل من أعظم عقوبة الكفار كونهم محجوبين عن رؤيته واستماع كلامه، فلو لم يره المؤمنون ولم يسمعوا كلامه كانوا



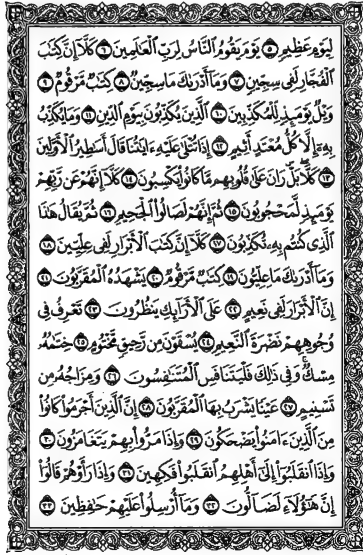
أيضا محجوبين عنه، وقد احتج بهذه الحجة الشافعي نفسه وغيره من الأئمة فذكر الطبراني وغيره عن المزي قال: سمعت الشافعي يقول في قوله عَزَّجَلَّ ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ (١٥): فيها دليل على أن أولياء الله يرون ربهم يوم القيامة. وقال الحاكم: حدثنا الأصم، أنبأنا الربيع بن سليمان قال: حضرت محمد بن إدريس الشافعي وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها: ما تقول في قول الله عَزَّجَلَّ ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ (١٥)؟ فقال الشافعي: لما

أن حجب هؤلاء في السخط، كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضا. قال الربيع: فقلت يا أبا عبد الله وبه تقول؟ قال: نعم، وبه أدين الله، ولو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى الله لما عبد الله عَزَّجَلَّ.

ورواه الطبراني في شرح السنة من طريق الأصم أيضا، وقال أبو زرعة الرازي: سمعت أحمد بن محمد بن الحسين يقول: سئل محمد بن عبد الله بن الحكم: هل يرى الخلق كلهم ربهم يوم القيامة المؤمنون والكفار؟ فقال محمد بن عبد الله: ليس يراه إلا المؤمنون. قال محمد: وسئل الشافعي عن الرؤية، فقال يقول الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ

رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّحُجُّوْنَ ﴿١٥﴾ ففي هذا دليل على أن المؤمنين لا يحجبون عن الله عَرَجَلٌ.
(حادي الأرواح ٢٣٤).

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنْ كُنْتَ الْآبَرَارَ لَفِي عِلِّيَّاتٍ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلْيُونَ ﴿١٩﴾ كُنْتَ مَرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمَرْقُومُونَ ﴿٢١﴾﴾.



٢- أخبر الله تعالى أن كتابهم كتاب مرقوم تحقيقاً لكونه مكتوباً كتابة حقيقية وخص تعالى كتاب الأبرار بأنه يكتب ويوقع لهم به بمشهد المقربين من الملائكة والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسادات المؤمنين، ولم يذكر شهادة هؤلاء لكتاب الفجار تنويها بكتاب الأبرار وما وقع لهم به وإشهاراً له وإظهاراً بين خواص خلقه كما تكتب الملوك توابع من تعظمه بين الأمراء وخواص أهل المملكة تنويها باسم المكتوب له وإشادة بذكره وهذا نوع من صلاة الله سبحانه وتعالى وملائكته على عبده. (طريق الهجرتين ١٨٠-١٨١).

فهؤلاء الأبرار المقتصدون، وأخبر أن المقربين يشهدون كتابهم -أي يكتب بحضرتهم ومشهدهم- لا يغيبون عنه، اعتناء به وإظهاراً للكرامة صاحبه ومنزلته عند ربه.

قوله تعالى: ﴿وَمَزَاجُهُمْ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمَرْقُومُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

٣- التسنيم أعلى أشربة الجنة، فأخبر سبحانه أن مزاج شراب الأبرار من التسنيم، وأن المقربين يشربون منه بلا مزاج، ولهذا قال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمَرْقُومُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين: ٢٨] كما قال تعالى في سورة الإنسان سواء.

قال ابن عباس وغيره: يشرب بها المقربون صرفاً، ويمزج لأصحاب اليمين مزجاً، وهذا لأن الجزاء وفاق العمل، فكما خلصت أعمال المقربين كلها لله خلص شرابهم، وكما مزج الأبرار الطاعات بالمباحات مزج لهم شرابهم، فمن أخلص أخلص شرابه، ومن مزج مزج شرابه. (طريق الهجرتين ١٨٠-١٨١).



قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۚ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ۚ﴾.

٤- تأمل كيف قابل سبحانه ما قاله الكفار في أعدائهم في الدنيا وسخروا به منهم، بضده في القيامة، فإن الكفار كانوا إذا مر بهم المؤمنون يتغامزون ويضحكون منهم: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ ۚ﴾ [المطففين: ٣٢].

فقال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ

يَضْحَكُونَ ۚ﴾ [المطففين: ٣٤] مقابلة لتغامزهم وضحكهم منهم، ثم قال: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ۚ﴾ فأطلق النظر، ولم يقيده بمنظور دون منظور، وأعلى ما نظروا إليه وأجله وأعظمه هو الله سبحانه. والنظر إليه أجل أنواع النظر وأفضلها، وهو أعلى مراتب الهداية، فقابل بذلك قولهم: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ ۚ﴾ [المطففين: ٣٢].

فالنظر إلى الرب سبحانه مراد من هذين الموضعين ولا بد، إما بخصوصه، وإما بالعموم والإطلاق، ومن تأمل السياق لم يجد الآيتين تحتملان غير إرادة ذلك، خصوصاً أو عموماً. (إغاثة اللهفان ٣٢-٣٣).



سورة البروج

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْوَعْدِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُلْ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤﴾.



١- إن قيل: فما وجه الارتباط بين هذه الأمور الثلاثة المقسم بها؟ قيل: هي بحمد الله في غاية الارتباط، والإقسام بها متناول لكل موجود في الدنيا والآخرة، وكل منها آية مستقلة دالة على ربوبيته وإلهيته، فأقسم بالعالم العلوي وهي السماء وما فيها من البروج التي هي أعظم الأمكنة وأوسعها، ثم أقسم بأعظم الأيام وأجلها قدرًا الذي هو مظهر ملكه وأمره ونهيه وثوابه وعقابه ومجمع أوليائه وأعدائه والحكم

بينهم بعلمه وعدله، ثم أقسم بما هو أعم من ذلك كله وهو الشاهد والمشهود وناسب هذا القسم ذكر أصحاب الأخدود الذين عذبوا أوليائه وهم شهود على ما يفعلون بهم، والملائكة شهود عليهم بذلك، والأنبياء وجوارحهم تشهد به عليهم، وأيضًا فالشاهد هو المطلع والرقيب والمخبر، والمشهود هو المطلع عليه المخبر به المشاهد.

والأحسن أن يكون هذا القسم مستغنيًا عن الجواب؛ لأن القصة التنبيه على المقسم به، وأنه من آيات الرب العظيمة ويبعد أن يكون الجواب ﴿قُلْ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤﴾ الذين فتنوا أوليائه وعذبوهم بالنار ذات الوقود. (بدائع الفوائد ٤٢/٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَنُّوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝١٠﴾.

[illegible]

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يَبْدِئُ وَيَعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْعَفْوَ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ ١٥ .

٤- قال: ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ فأضاف العرش إلى نفسه كما تضاف إليه الأشياء العظيمة الشريفة، وهذا يدل على عظمة العرش وقربه منه سبحانه واختصاصه به، بل يدل على غاية القرب والاختصاص كما يضيف إلى نفسه بـ(ذو) صفاته القائمة به كقوله: ذو

القوة، ذو الجلال والإكرام. ويقال: ذو العزة، وذو الملك، وذو الرحمة، ونظائر ذلك، فلو كان حظ العرش منه حظ الأرض السابعة، لكان لا فرق أن يقال، ذو العرش، وذو الأرض.



قوله تعالى: ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ (١٦).

٥- دليل على أمور:

أحدها: أنه سبحانه يفعل بإرادته ومشيئته.

الثاني: أنه لم يزل كذلك لأنه لم يزل، كذلك لأنه ساق ذلك في معرض المدح والثناء على نفسه وأن ذلك من كماله سبحانه، فلا يجوز أن يكون عادماً لهذا الكمال في وقت من الأوقات وقد قال تعالى:

﴿أَمَّنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٧) وما كان من أوصاف كماله ونعوت جلاله لم يكن حادثاً بعد أن لم يكن.

الثالث: أنه إذا أراد شيئاً فعله، فإن (ما) موصولة عامة، أي: يفعل كل ما يريد أن يفعله وهذا في إرادته المتعلقة بفعله.

الرابع: أن فعله سبحانه وإرادته متلازمان فما أراد أن يفعله فعله وما فعله فقد أراد به بخلاف المخلوق، فإنه يريد ما لا يفعل وقد يفعل ما لا يريد فما، ثم فعال لما يريد إلا الله وحده.

الخامس: إثبات إرادة متعددة بحسب الأفعال وأن كل فعل له إرادة تخصه وهذا هو المعقول في الفطر وهو الذي يعقله الناس من الإرادة فشأنه تعالى أنه يريد على الدوام ويفعل ما يريد.

السادس: أن كل ما صلح أن تتعلق به إرادته جاز فعله، فإذا أراد أن ينزل كل ليلة



إلى سماء الدنيا وأن يجيء يوم القيامة لفصل القضاء وأن يري نفسه لعباده وأن يتجلى لهم كيف شاء وأن يخاطبهم ويضحك إليهم وغير ذلك مما يريد سبحانه لم يمتنع عليه فعله، فإنه فعال لما يريد، وإنما تتوقف صحة ذلك على إخبار الصادق به، فإذا أخبر به وجب التصديق به، وكان رده ردًا لكماله الذي أخبر به عن نفسه وهذا عين الباطل، وكذلك إذا أمكن إرادته سبحانه محو ما شاء وإثبات ما شاء أمكن فعله وكانت الإرادة والفعل من مقتضيات كماله المقدس.

قوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ (١١) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾

٦- أخبر عن أعدائه بأنهم مكذبون بتوحيده ورسالاته مع كونهم في قبضته وهو محيط بهم ولا أسوأ حالاً ممن عادى من هو في قبضته ومن هو قادر عليه من كل وجه وبكل اعتبار.

فهذا أعجب، عجب ممن كفر بمن هو محيط به وأخذ بناصيته قادر عليه.

قوله تعالى: ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ (٢٢)

٧- أكثر القراء على الجبر صفة اللوح، وفيه إشارة إلى أن الشياطين لا يمكنهم التنزل به؛ لأن محله محفوظ أن يصلوا إليه وهو في نفسه محفوظ أن يقدر الشيطان على الزيادة فيه والنقصان، فوصفه سبحانه بأنه محفوظ في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ



سورة الطارق

قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۖ﴾ ﴿٤﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ .



١- نبه سبحانه بكونه دافقاً على أنه ضعيف غير متماسك، ثم ذكر محله الذي يخرج منه وهو بين الصلب والترائب. قال ابن عباس: صلب الرجل وترائب المرأة وهو موضع القلادة من صدرها والولد يخلق من المائتين جميعاً. وقيل: صلب الرجل وترائبه وهي صدره فيخرج من صلبه وصدره وهذه الآية الدالة على قدرة الخالق سبحانه نظير إخراجة اللبن الخالص من بين الفرث والدم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۖ﴾ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَآلَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ .

٢- في التعبير عن الأعمال بالسر لطيفة، وهو أن الأعمال نتائج السرائر الباطنة، فمن كانت سريرته صالحة كان عمله صالحاً فتبدو سريرته على وجهه نوراً وإشراقاً وحياء، ومن كانت سريرته فاسدة كان عمله تابعاً لسريرته لا اعتبار بصورته فتبدو سريرته على وجهه سواداً وظلمة وشيناً وإن كان الذي يبدو عليه في الدنيا إنما هو عمله لا سريرته، فيوم القيامة تبدو عليه سريرته ويكون الحكم والظهور لها، قال الشاعر:

فإن لها في مضمهر القلب والحشا سريرة حب يوم تبلى السرائر

سورة الأعلى

قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي

أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) ﴿



١- إن قيل: فما الفائدة في دخول الباء في قوله:

﴿سَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٧٤) ولم تدخل في

قوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) قيل: التسبيح يراد

به التنزيه والذكر المجرد دون معنى آخر ويراد به ذلك

مع الصلاة وهو ذكر وتنزيه مع عمل، ولهذا تسمى

الصلاة تسبيحا، فإذا أريد التسبيح المجرد فلا معنى

للباء؛ لأنه لا يتعدى بحرف جر، لا تقول: سبحت

بالله، وإذا أردت المقرون بالفعل وهو الصلاة أدخلت

الباء تنبيها على ذلك المراد كأنك قلت سبح مفتتحا باسم ربك أو ناطقا باسم ربك كما

تقول صل مفتتحا أو ناطقا باسمه.

ولهذا السر والله أعلم دخلت اللام في قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

والمراد التسبيح الذي هو السجود والخضوع والطاعة ولم يقل في موضع سبح الله

ما في السماوات والأرض كما قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٥].

وتأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ

﴿ [الأعراف: ٢٠٦]. فكيف قال ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ ﴿لما ذكر السجود باسمه الخاص،

فصار التسبيح ذكرهم له وتنزيههم إياه. (بدائع الفوائد ١/ ٢٠).

سورة الفجر

قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيْلٍ عَشْرِ ۝٢ وَالشَّفْعِ ۝٣ وَالْوَتْرِ ۝٤ وَالْأَيْلِ إِذَا يَسِر ۝٥﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ ۝٦

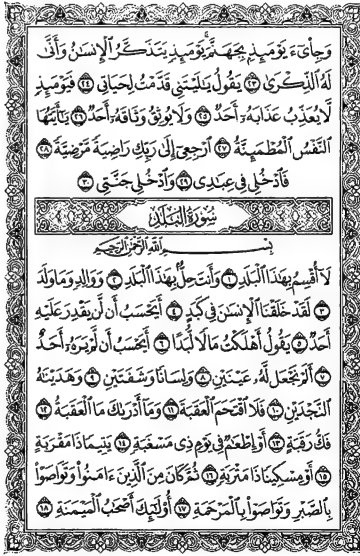
وفي تعريف الفجر ما يدل على شهرته، وأنه
الفجر الذي يعرفه كل أحد ولا يجهره.

٣- وتضمنت هذه السورة ذم من اغتر بقوته وسلطانه وماله وهم هؤلاء الأمم الثلاثة قوم عاد اغتروا بقوتهم وشمود اغتروا بجنانهم وعيونهم وزروعهم وبساتينهم وقوم فرعون اغتروا بالمال والرياسة فصارت عاقبتهم إلى ما قص الله علينا. (التبيان في أقسام القرآن ٢٧-٣٣).



سورة البلد

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ لَّنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ ٥ ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ﴾ ٦ ﴿يَحْسَبُ أَنَّ لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ ٧

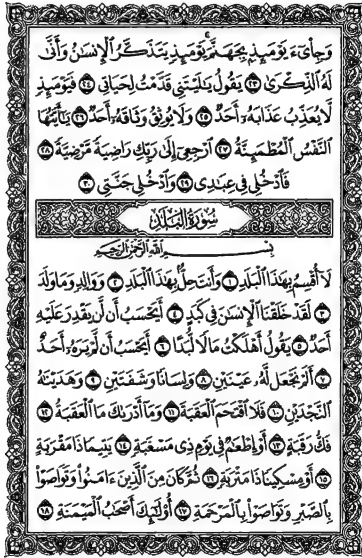


١- أنكر سبحانه على الإنسان قوله: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ﴾ ٦ وهو الكثير الذي يلبد بعضه فوق بعض فافتخر هذا الإنسان بإهلاكه وإنفاقه في غير وجهه إذ لو أنفق في وجوه التي أمر بإنفاقه فيها ووضع مواضعه لم يكن ذلك إهلاكاً له، بل تقريباً به إلى الله وتوصلاً به إلى رضاه وثوابه، وذلك ليس بإهلاك له، فأنكر سبحانه افتخاره وتبجحه بإنفاق المال في شهواته وأغراضه التي إنفاقه فيها إهلاك له.

٢- ثم وبخه بقوله: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ ٧ وأتى بها هنا بـ(لم) الدالة على الماضي في مقابلة قوله: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ﴾ ٦، فإن ذلك في الماضي أفيحسب أن لم يره أحد فيما أنفق وفيما أهلكه؟

٣- ثم ذكر برهاناً مقدراً أنه سبحانه أحق بالرؤية وأولى من هذا العبد الذي له عينان يبصر بهما، فكيف يعطيه البصر من لم يره، وكيف يعطيه آلة البيان من الشفتين واللسان فينطق ويبين عما في نفسه ويأمر وينهى من لا يتكلم ولا يكلم ولا يخاطب ولا يأمر ولا ينهى وهل كمال المخلوق مستفاد إلا من كمال خالقه ومن جعل غيره عالماً بنجدي الخير والشر وهما طريقاهما، أليس هو أولى وأحق بالعلم منه ومن هداة

إلى هذين الطريقين كيف يليق به أن يتركه سدى لا يعرفه ما يضره وما ينفعه في معاشه ومعاده، وهل النبوة والرسالة إلا لتكميل هداية النجدين، فدل هذا كله على إثبات الخالق وصفات كماله وصدق رسله ووعدده.



٤- والناس قسمان: ناج وهو من قطع العقبة وصار وراءها، وهالك وهو من دون العقبة وهم أكثر الخلق، ولا يفتحهم هذه العقبة إلا المضمرون، فإنها عقبة كؤود شاقة لا يقطعها إلا خفيف الظهر وهم أصحاب الميمنة. والهالكون دون العقبة الذين لم يصدقوا الخبر ولم يطيعوا الأمر فهم ﴿أَصْحَابُ الْمَشْأَةِ﴾ ١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ﴿٢٠﴾.

قد أطبقت عليهم فلا يستطيعون الخروج منها كما أطبقت عليهم أعمال الغي والاعتقادات الباطلة المنافية لما أخبرت به رسله، فلم تخرج قلوبهم منها كذلك أطبقت عليهم هذه النار فلم تستطع أجسامهم الخروج منها. فتأمل هذه السورة على اختصارها وما اشتملت عليه من مطالب العلم والإيمان، وبالله التوفيق.

📖 قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ ٨ ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ ٩ ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ ١٠.

٥- ذكر هنا العينين التي يبصر بهما فيعلم المشاهدات وذكر هداية النجدين وهما طريقا الخير والشر، وفي ذلك حديث مرفوع ومرسل وهو قول أكثر المفسرين وتدل عليه الآية الأخرى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ ٢٠ والهداية تكون



بالقلب والسمع، فقد دخل السمع في ذلك لزوماً، وذكر اللسان والشفيتين اللتين هما آلة التعليم، فذكر آلات العلم والتعليم وجعلها من آياته الدالة عليه وعلى قدرته ووحدانيته ونعمه التي تعرف بها إلى عباده. (مفتاح دار السعادة ١/ ١٠٧).



سورة الشمس

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَيْهَا ۝﴾ ﴿١١﴾ .



١- ذكر في هذه السورة ثمود دون غيرهم من الأمم المكذبة، فقال شيخنا: هذا والله أعلم من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، فإنه لم يكن في الأمم المكذبة أخف ذنبًا وعذابًا منهم؛ إذ لم يذكر عنهم من الذنوب ما ذكر عن عاد ومدين وقوم لوط وغيرهم؛ ولهذا لما ذكرهم وعادًا قال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ

﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثُمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ۖ وَكَذَلِكَ إِذَا ذَكَرَهُمْ مَعَ الْأُمَمِ الْمَكْذِبَةِ لَمْ يَذْكُرْ عَنْهُمْ مَا ذَكَرَ عَنْ أَوْلَئِكَ مِنَ التَّجْبَرِ وَالتَّكْبَرِ وَالْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ كَاللُّوَاطِ وَبِخْسِ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ وَالْفُسَادِ فِي الْأَرْضِ كَمَا فِي سُورَةِ هُودٍ وَالشُّعْرَاءِ وَغَيْرِهِمَا.

٢- قلت: وقد يظهر في تخصيص ثمود ها هنا بالذكر دون غيرهم معنى آخر، وهو أنهم ردوا الهدى بعدما تيقنوه وكانوا مستبصرين به قد ثلجت له صدورهم واستيقظت له أنفسهم، فاختاروا عليه العمى والضلالة كما قال تعالى: ﴿فِي وَصْفِهِمْ ۖ وَأَمَّا ثُمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ۖ﴾ وقال: ﴿وَأَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً ۖ﴾، أي: موجبة

لهم التبصرة واليقين وإن كان جميع الأمم المهلكة هذا شأنهم، فإن الله لم يهلك أمة إلا بعد قيام الحجة عليها، لكن خصت ثمود من ذلك الهدى والبصيرة بمزيد، ولهذا لما قرنهم بقوم عاد قال: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مَقَافَةً﴾، ثم قال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ ولهذا أمكن عاداً المكابرة وأن يقولوا النبيهم: ﴿مَا جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ ولم يمكن ذلك ثمود وقد رأوا البينة عياناً وصارت لهم بمنزلة رؤية الشمس والقمر، فردوا الهدى بعد تيقنه والبصيرة التامة، فكان في تخصيصهم بالذكر تحذير لكل من عرف الحق ولم يتبعه، وهذا داء أكثر الهالكين، وهو أعم الأدواء وأغلبها على أهل الأرض، والله أعلم.

(التيبان في أقسام القرآن ١٨ - ٢٧).

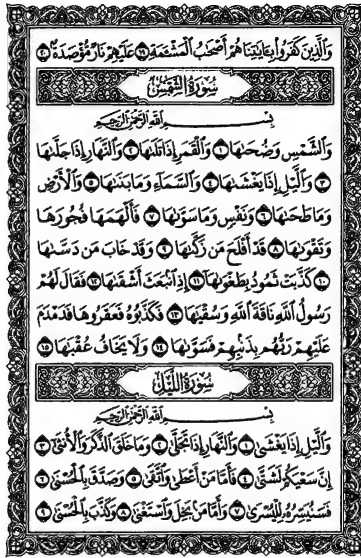
قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ ١٥.

٣- نفى عن نفسه خوف عاقبة ما فعله من إهلاك أعدائه بخلاف المخلوق، فإنه إذا انتقم من عدوه يخاف عاقبة ذلك، إما من الله وإما من المنتصرين لعدوه، وذلك على الله محال والخوف يتضمن نقصان العلم والقدرة والإرادة، فإن العالم بأن الشيء

لا يكون لا يخافه والعالم بأنه يكون ولا بد قد يؤس من النجاة منه فلا يخاف، وإن خاف فخوفه دون خوف الراجي، وأما نقص القدرة فلأن الخائف من الشيء هو الذي لا يمكنه دفعه عن نفسه، فإذا تيقن أنه قادر على دفعه لم يخفه.

وأما نقص الإرادة فلأن الخائف يحصل له الخوف بدون مشيئته واختياره، وذلك محال في حق من هو بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، ومن لا يكون شيء



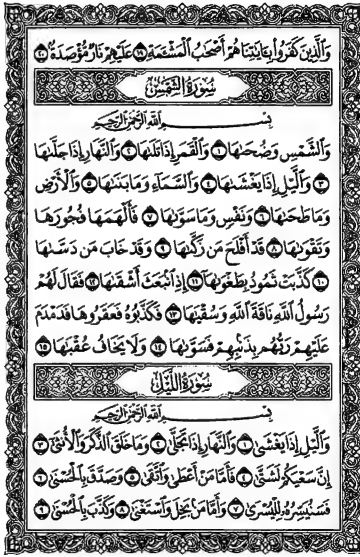


إلا بمشيئته وإرادته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وهذا لا ينافي كراهته سبحانه وبغضه وغضبه، فإن هذه الصفات لا تستلزم نقصاً لا في علمه ولا في قدرته ولا في إرادته، بل هي كمال؛ لأن سببها العلم بقبح المكروه المبغوض المغضوب عليه، وكلما كان العلم بحاله أهم، كانت كراهته وبغضه أقوى، ولهذا يشتد غضبه سبحانه على من قتل نبيه أو قتله نبيه.

(الصواعق المرسلة ١/ ١٤٤٤-١٤٤٥).



سورة الليل



قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤

١- لفظ السعي هو العمل لكن يراد به العمل الذي يهتم به صاحبه ويجهتد فيه بحسب الإمكان، فإن كان يفتقر إلى عدو بدنه عدا، وإن كان يفتقر إلى جمع أعوانه جمع، وإن كان يفتقر إلى تفرغ له وترك غيره فعل ذلك، فلفظ السعي في القرآن جاء بهذا الاعتبار ليس هو مرادفًا للفظ العمل كما ظنه طائفة، بل هو

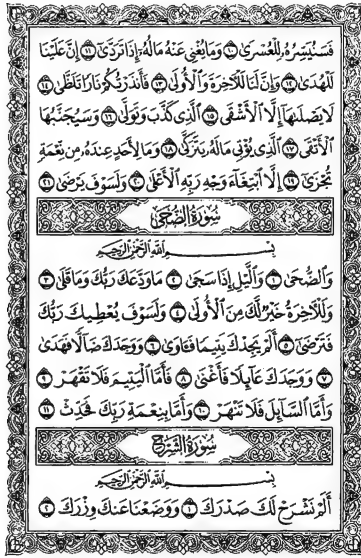
عمل مخصوص يهتم به صاحبه ويجهتد فيه، ولهذا قال في الجمعة: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾. (البيان في أقسام القرآن ٦-٧).

٢- فهو سبحانه يقسم بالليل في جميع أحواله إذ هو من آياته الدالة عليه، فأقسم به وقت غشيانه وأتى بصيغة المضارع لأنه يغشى شيئًا بعد شيء، وأما النهار فإنه إذا طلعت الشمس ظهر وتجلى وهلة واحدة.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَلَجَ ۝٨ وَأَسْتَفْنَىٰ ۝٩ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝١٠ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١١﴾

٣- تضمنت الآيتان ذكر شرعه وذكر الأعمال وجزائها وحكمة القدر في تيسير هذا اليسرى وهذا للعسرى وأن العبد ميسر بأعماله لغاياتها ولا يظلم ربك أحدًا، وذكر للتيسير اليسرى ثلاثة أسباب:

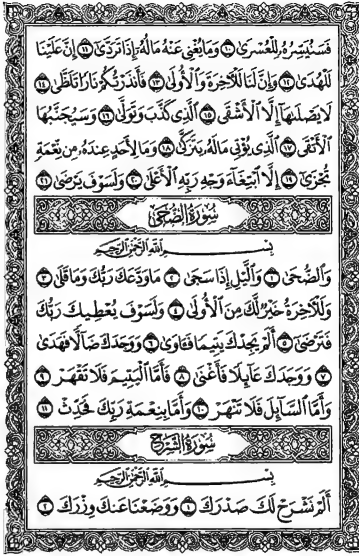
أحدها: إعطاء العبد وحذف مفعول الفعل إرادة للإطلاق والتعميم، أي: أعطى ما أمر به وسمحت به طبيعته وطاوعته نفسه وذلك يتناول إعطاءه من نفسه الإيمان



والطاعة والإخلاص والتوبة والشكر وإعطاء الإحسان والنفع بماله ولسانه وبدنه ونيته وقصده فتكون نفسه نفساً مطيعة باذلة لا لئيمة مانعة فالنفس المطيعة هي النافعة المحسنة التي طبعها الإحسان وإعطاء الخير اللازم والمتعدي فتعطي خيراً لنفسها ولغيرها فهي بمنزلة العين التي ينتفع الناس بشرهم منها وسقي دوابهم وأنعامهم وزرعهم فهم ينتفعون بها كيف شاءوا فهي ميسرة لذلك وهكذا الرجل المبارك ميسر للنفع حيث حل فجزاء هذا أن ييسره الله ليسرى كما كانت نفسه ميسرة للعطاء.

السبب الثاني: التقوى وهي اجتناب ما نهى الله عنه وهذا من أعظم أسباب التيسير وضده من أسباب التعسير فالمتقي ميسرة عليه أمور دنياه وآخرته وتارك التقوى وإن يسرت عليه بعض أمور دنياه تعسر عليه من أمور آخرته بحسب ما تركه من التقوى وأما تيسير ما تيسر عليه من أمور الدنيا فلو اتقى الله لكان تيسيرها عليه أتم ولو قدر أنها لم تيسر له فقد يسر الله له من الدنيا ما هو أنفع له مما ناله بغير التقى، فإن طيب العيش ونعيم القلب ولذة الروح وفرحها وابتهاجها من أعظم نعيم الدنيا وهو أجل من نعيم أرباب الدنيا بالشهوات واللذات.

السبب الثالث: التصديق بالحسنى وفسرت بلا إله إلا الله وفسرت بالجنة وفسرت بالخلف وهي أقوال السلف واليسرى صفة لموصوف محذوف، أي: الحالة والخلة



اليسرى وهي فعلى من اليسرى والأقوال الثلاثة ترجع إلى أفضل الأعمال وأفضل الجزاء.

٤- وتأمل ما اشتملت عليه هذه الكلمات الثلاث وهي الإعطاء والتقوى والتصديق بالحسنى من العلم والعمل وتضمنته من الهدى ودين الحق، فإن النفس لها ثلاث قوى قوة البذل والإعطاء وقوة الكف والامتناع وقوة الإدراك والفهم ففيها قوة العلم والشعور ويتبعها قوة الحب والإرادة وقوة البغض والنفرة.

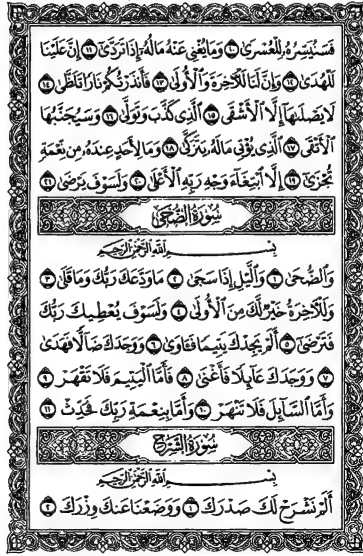
فهذه القوى الثلاث عليها مدار صلاحها وسعادتها وبفسادها يكون فسادها وشقاوتها ففساد قوة العلم والشعور يوجب له التكذيب بالحسنى وفساد قوة الحب والإرادة يوجب له ترك الإعطاء وفساد قوة البغض والنفرة يوجب له ترك الاتقاء، فإذا كملت قوة حبه وإرادته بإعطائه ما أمر به وقوة بغضه ونفرته باتقائه ما نهى عنه وقوة علمه وشعوره بتصديقه بكلمة الإسلام وحقوقها وجزائها فقد زكى نفسه وأعدّها لكل حالة يسرى فصارت النفس بذلك ميسرة لليسرى.

٥- والتيسير لليسرى يكون بأمرين:

أحدهما: أن يحول بينه وبين أسباب الخير فيجري الشر على قلبه ونيته ولسانه وجوارحه.

والثاني: أن يحول بينه وبين الجزاء الأيسر كما حال بينه وبين أسبابه، فإن قيل كيف قابل اتقى بـ«استغنى» وهل يمكن العبد أن يستغنى عن ربه طرفة عين؟

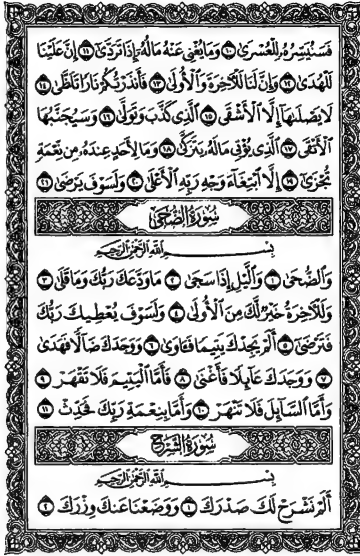
قيل: هذا من أحسن المقابلة، فإن المتقي لما استشعر فقره وفاقته وشدة حاجته إلى ربه اتقاه ولم يتعرض لسخطه وغضبه ومقته بارتكاب ما نهاه عنه، فإن من كان شديد الحاجة والضرورة إلى شخص، فإنه يتقي غضبه وسخطه عليه غاية الاتقاء ويجانب ما يكرهه غاية المجانبة ويعتمد فعل ما يحبه ويؤثره.



فقابل التقوى بالاستغناء تبشيعاً لحال تارك التقوى ومبالغة في ذمه بأن فعل فعل المستغني عن ربه لا فعل الفقير المضطر إليه الذي لا ملجأ له إلا إليه ولا غنى له عن فضله وجوده وبره طرفة عين، فله ما أحلى هذه المقابلة! وما أجمع هاتين الآيتين للخيرات كلها وأسبابها والشرور كلها وأسبابها! فسبحان من تعرف إلى خصائص عبادته بكلامه وتجلي لهم فيه فهم لا يطلبون أثراً بعد عين ولا يستبدلون الحق بالباطل والصدق باليمين.

٦- فإن قيل: فالإعطاء والتقوى والتصديق بالحسنى هي من اليسرى، بل هي أصل اليسرى من يسرها للعبد أولاً وكذلك أضدادها.

قيل: الله سبحانه هو الذي يسر للعبد أسباب الخير والشر وخلق خلقه قسمين: أهل سعادة فيسرهم لليسرى، وأهل شقاوة فيسرهم للعسرى. واستعمل هؤلاء في الأسباب التي خلقوا لغاياتها لا يصلحون لسواها، وهؤلاء في الأسباب التي خلقوا لغاياتها لا يصلحون لسواها، وحكمته الباهرة تأبى أن يضع عقوبته في موضع لا تصلح له كما يأبى أن يضع كرامته وثوابه في محل لا يصلح لهما ولا يليق بهما، بل حكمة آحاد خلقه تأبى ذلك ومن جعل محل المسك والرجيع واحداً، فهو من أسفه السفهاء.



قوله تعالى: ﴿إِنْ عَيْنَا لِلْهَدَىٰ (١٢) وَإِنْ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ (١٣)﴾.

٧- فتضمنت الآيتان أربعة أمور هي المطالب العالية ذكر أعلى الغايات وهو الوصول إلى الله سبحانه وأقرب الطرق والوسائل إليه وهي طريقة الهدى وتوحيد الطريق فلا يعدل عنها إلى غيرها وتوحيد المطلوب وهو الحق فلا يعدل عنه إلى غيره فاقتبس هذه الأمور من مشكاة هذه الكلمات، فإن هذه غاية العلم والفهم، وبالله التوفيق.

والهدى التام يتضمن توحيد المطلوب وتوحيد الطلب وتوحيد الطريق الموصلة والانقطاع وتخلف الوصول يقع من الشركة في هذه الأمور أو في بعضها فالشركة في المطلوب تنافي التوحيد والإخلاص والشركة في الطلب تنافي الصدق والعزيمة والشركة في الطريق تنافي اتباع الأمر فالأول يوقع في الشرك والرياء والثاني يوقع في المعصية والبطالة والثالث يوقع في البدعة ومفارقة السنة فتأمله.

فتوحيد المطلوب يعصم من الشرك وتوحيد الطلب يعصم من المعصية وتوحيد الطريق يعصم من البدعة والشیطان إنما ينصب فخه بهذه الطرق الثلاثة.

قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتَقَىٰ (٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءً وَجْهِهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠)﴾.

٨- في الآية الإرشاد إلى أن صاحب التقوى لا ينبغي له أن يتحمل من الخلق ونعمهم وإن حمل منهم شيئاً بادر إلى جزائهم عليه لئلا يتبقى لأحد من الخلق عليه

نعمة تجزى فيكون بعد ذلك عمله كله لله وحده ليس للمخلوق جزاء على نعمته.

٩- ونبه بقوله: ﴿تَجْزَى﴾ على أن نعمة الإسلام التي لرسول الله على هذا الأتقى لا تجزى، فإن كل ذي نعمة يمكن جزاء نعمته إلا نعمة الإسلام فإنها لا يمكن المنعم بها عليه أن يجزى بها وهذا يدل على أن الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أول وأولى من ذكر في هذه الآية، وأنه أحق الأمة بها، فإن علياً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تربي في بيت النبي، فلرسول الله عنده نعمة غير نعمة الإسلام يمكن أن تجزى.



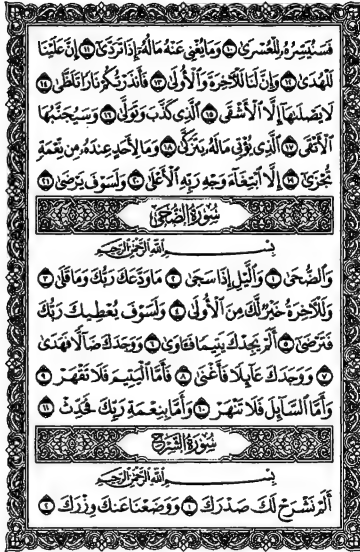
١٠- ونبه سبحانه بقوله: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾

﴿٢٠﴾ على أن من ليس لمخلوق عليه نعمة تجزى، لا يفعل ما يفعله إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى، بخلاف من تطور نعم المخلوقين ومنهم، فإنه مضطر إلى أن يفعل لأجلهم ويترك لأجلهم، ولهذا كان من كمال الإخلاص ألا يجعل العبد عليه منة لأحد من الناس

لتكون معاملته كلها لله ابتغاء وجهه وطلب مرضاته، فكما أن هذه الغاية أعلى الغايات وهذا المطلوب أشرف المطالب، فهذا الطريق أقصد الطرق إليه وأقربها وأقومها، وبالله التوفيق. (التيان في أقسام القرآن ٥٥ - ٧٢).



سورة الضحى



قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ .

١ - أقسم بآيتين عظيمتين من آياته دالتين على ربوبيته وحكمته ورحمته وهما الليل والنهار، فتأمل مطابقة هذا القسم وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل للمقسم عليه وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه حتى قال أعداؤه ودَّع محمداً ربّه فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه وأيضاً، فإن فالتق ظلمة الليل عن ضوء النهار هو الذي فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة، فهذان للحس، وهذان للعقل.

وأيضاً فإن الذي اقتضت رحمته ألا يترك عباده في ظلمة الليل سرمداً، بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعاشهم لا يليق به أن يتركهم في ظلمة الجهل والغي، بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم.

فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه وتأمل هذه الجزالة والرونق الذي على هذه الألفاظ والجلالة التي على معانيها.

٢ - ثم ذكر سبحانه نعمه عليه: من إيوائه بعد يتمه، وهدايته بعد الضلالة، وإغناؤه بعد الفقر، فكان محتاجاً إلى من يؤويه ويهديه ويغنيه، فأواه ربه وهداه وأغناه، فأمره سبحانه أن يقابل هذه النعم الثلاث بما يليق بها من الشكر، فنهاه أن يقهر اليتيم، وأن ينهر السائل، وأن يكتم النعمة، بل يحدث بها فأوصاه سبحانه باليتامى والفقراء والمتعلمين.

(التبيان في أقسام القرآن ٧٢ - ٧٥).

سورة الشرح



قوله تعالى: ﴿الْمُشْرِخُ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (١) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤).

١- قال: شرح الله صدرَ رسوله أتمَّ الشرح، ووضع عنه وزره كل الوضع، ورفع ذكره كل الرفع، وجمل لأتباعه حظاً من ذلك، إذ كل متبوع فلا يتابعه حظ ونصيب من حظ متبوعهم في الخير والشر على حسب اتباعهم له.

فأتبعُ الناس لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشرحهم صدرًا، وأوضعهم وزرًا، وأرفعهم ذكرًا، وكلما قويَتْ متابعته علمًا وعملاً وحالًا وجهادًا، قويت هذه الثلاثة حتى يصير صاحبها أشرح الناس صدرًا، وأرفعهم في العالمين ذكرًا. (الكلام على مسألة السماع ٤٠١-٤٠٣).

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦)﴾.

٢- العسر وإن تكرر مرتين فتكرر بلفظ المعرفة، فهو واحد واليسر تكرر بلفظ النكرة، فهو يسران فالعسر محفوف بيسرين يسر قبله ويسر بعده فلن يغلب عسر يسرين. (بدائع الفوائد ١٥٥/٢).



سورة التين

﴿قوله تعالى: ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالزُّيُونِ﴾ ١ ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ ٢﴾ وَهَذَا أَلْبَدُ الْأَمِينِ ﴿٣﴾﴾



١ - أقسم سبحانه بهذه الأمكنة الثلاثة العظيمة التي هي مظاهر أنبيائه ورسله أصحاب الشرائع العظام والأمم الكثيرة.

فالتين والزيتون المراد به نفس الشجرتين المعروفتين ومنبتهما وهو أرض بيته المقدس فإنها أكثر البقاع زيتوناً وتيناً.

وقد قال جماعة من المفسرين: إنه سبحانه أقسم بهذين النوعين من الثمار لمكان العزة فيهما، فإن التين فاكهة مخلصه من شوائب التنغيص لا عجم

له وهو على مقدار اللقمة وهو فاكهة وقوت وغذاء وأدم ويدخل في الأدوية ومزاجه من أعدل الأمزجة وطبعه طبع الحياة الحرارة والرطوبة وشكله من أحسن الأشكال ويدخل أكله والنظر إليه في باب المفرحات وله لذة يمتاز بها عن سائر الفواكه ويزيد في القوة ويوافق الباء وينفع من البواسير والنفرس ويؤكل رطباً ويابساً.

وأما الزيتون ففيه من الآيات ما هو ظاهر لمن اعتبر، فإن عوده يخرج ثمراً يعصر منه هذا الدهن الذي هو مادة النور وصبغ للأكلين وطيب ودواء، وفيه من مصالح الخلق ما لا يخفى وشجره باق على ممر السنين المتطاولة وورقه لا يسقط.

وهذا الذي قالوه حق ولا ينافي أن يكون منبته مراداً، فإن منبت هاتين الشجرتين حقيق بأن يكون من جملة البقاع الفاضلة الشريفة فيكون الأقسام قد تناول الشجرتين



ومنبتهما وهو مظهر عبد الله ورسوله وكلمته وروحه عيسى بن مريم كما أن طور سينين مظهر عبده ورسوله وكليمه موسى، فإنه الجبل الذي كلمه عليه ونجاه وأرسله إلى فرعون وقومه.

ثم أقسم بالبلد الأمين وهو مكة مظهر خاتم أنبيائه ورسله سيد ولد آدم وترقى في هذا القسم من الفاضل إلى الأفضل فبدأ بموضع مظهر المسيح، ثم ثنى بموضع مظهر الكليم، ثم ختمه بموضع مظهر عبده ورسوله وأكرم الخلق عليه.

📖 قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴾ (٨).

٢- هذا تقرير لمضمون السورة من إثبات النبوة والتوحيد والمعاد وحكمه بتضمن نصره لرسوله على من كذبه وجحد ما جاء به بالحجة والقدرة والظهور عليه وحكمه بين عباده في الدنيا بشرعه وأمره وحكمه بينهم في الآخرة بثوابه وعقابه وإن أحكم الحاكمين لا يليق به تعطيل هذه الأحكام بعد ما ظهرت حكمته في خلق الإنسان في أحسن تقويم ونقله في أطوار التخليق حالاً بعد حال إلى أكمل الأحوال، فكيف يليق بأحكم الحاكمين ألا يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته؟! وهل ذلك إلا قدح في حكمه وحكمته؟! فله ما أخصر لفظ هذه السورة وأعظم شأنها وأتم معناها! والله أعلم. (التيان في أحكام القرآن ٤٣-٥٤).



سورة العلق



قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَى بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② أَفَرَأَى رَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③﴾.

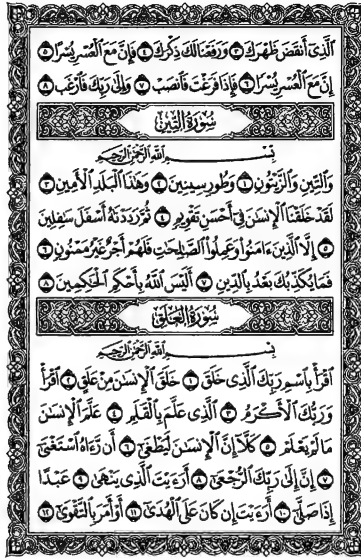
١- خص الإنسان من بين المخلوقات لما أودعه من عجائبه وآياته الدالة على ربوبيته وقدرته وعلمه وحكمته وكمال رحمته أنه لا إله غيره ولا رب سواه.

٢- وذكر هنا مبدأ خلقه من علق لكون العلق مبدأ الأطوار التي انتقلت إليها النطفة فهي مبدأ تعلق التخليق، ثم أعاد الأمر بالقراءة مخبراً عن نفسه بأنه الأكرم.

وهو الأفعل من الكرم وهو كثرة الخير ولا أحد أولى بذلك منه سبحانه، فإن الخير كله بيديه والخير كله منه والنعم كلها هو موليتها والكمال كله والمجد كله له، فهو الأكرم حقاً.

٣- ثم ذكر تعليمه عموماً وخصوصاً فقال: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④﴾ فهذا يدخل فيه تعليم الملائكة والناس، ثم ذكر تعليم الإنسان خصوصاً فقال: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمُ ⑤﴾.

والمقصود أنه سبحانه تعرف إلى عبادته بما علمهم إياه بحكمته من الخط واللفظ والمعنى، فكان العلم أحد الأدلة الدالة عليه، بل من أعظمها وأظهرها وكفى بهذا شرفاً وفضلاً له. (مفتاح دار السعادة ٦٣).



٤- ثم تأمل نعمة الله على الإنسان بالبيان
البيان النطقي والبيان الخطي وقد اعتد بهما سبحانه
في جملة من اعتد به من نعمه على العبد فقال في أول
سورة أنزلت على رسول الله: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ
﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ
بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ فتأمل كيف جمع
في هذه الكلمات مراتب الخلق كلها وكيف تضمنت
مراتب الوجودات الأربعة بأوجز لفظ وأوضحه
وأحسنه.

فذكر أولاً: عموم الخلق وهو إعطاء الوجود الخارجي.

ثم ذكر ثانياً: خصوص خلق الإنسان لأنه موضع العبرة والآية فيه عظيمة ومن
شهوده عما فيه محض تعدد النعم وذكر مادة خلقه ها هنا من العلقه، وفي سائر
المواضع يذكر ما هو سابق عليها إما مادة الأصل وهو التراب والطين أو الصلصال
الذي كالفخار أو مادة الفرع وهو الماء المهيّن وذكر في هذا الموضع أول مبادئ تعلق
التخليق وهو العلقه، فإنه كان قبلها نطفة فأول انتقالها إنما هو إلى العلقه.

ثم ذكر ثالثاً: التعليم بالقلم الذي هو من أعظم نعمه على عباده؛ إذ به تخلد العلوم
وتثبت الحقوق وتعلم الوصايا وتحفظ الشهادات ويضبط حساب المعاملات الواقعة
بين الناس وبه تقيد أخبار الماضين للباقيين.

والتعليم بالقلم يتسلزم المراتب الثلاثة مرتبة الوجود الذهني والوجود اللفظي
والوجود الرسمي فقد دل التعليم بالقلم على أنه سبحانه هو المعطي لهذه المراتب
ودل قوله خلق على أنه يعطى الوجود العيني فدلّت هذه الآيات مع اختصارها ووجازتها

وفصاحتها على أن مراتب الوجود بأسرها مسندة إليه تعالى خلقا وتعلينا وذكر خلقين وتعليمين: خلقا عاما وخلقاً خاصا، وتعلينا خاصا وتعلينا عاما.



وذكر من صفاته ها هنا اسم الأكرم الذي فيه كل خير وكل كمال فله كل كمال وصفا ومنه كل خير فعلا، فهو الأكرم في ذاته وأوصافه وأفعاله وهذا الخلق والتعليم إنما نشأ من كرمه وبره وإحسانه لا من حاجة دعتة إلى ذلك وهو الغني الحميد. (مفتاح دار السعادة ٣٠٠-٣٠١).

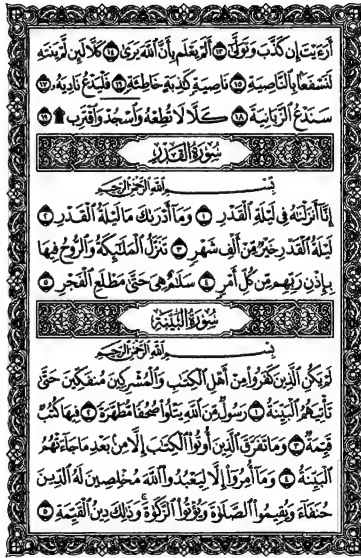
قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا كَرِهَ﴾ (٦) ﴿أَن رَّاهُ أَسْتَعْيَىٰ﴾ (٧).

٥- لم يقل: إن استغنى، بل جعل الطغيان ناشئا عن رؤية غنى نفسه، ولم يذكر هذه الرؤية في سورة الليل، بل قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ﴾ (٨) ﴿وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَىٰ﴾ (٩) ﴿فَسَيُسِيرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ (١٠) [الليل: ٨-١٠]. وهذا والله أعلم لأنه ذكر موجب طغيانه وهو رؤية غنى نفسه، وذكر في سورة الليل موجب هلاكه وعدم تيسيره لليسرى، وهو استغناؤه عن ربه بترك طاعته وعبوديته، فإنه لو افتقر إليه لتقرب إليه بما أمره من طاعته، فعل المملوك الذي لا غنى له عن مولاه طرفة عين ولا يجد بدا من امتثال أوامره، ولذلك ذكر معه بخله وهو تركه إعطاء ما وجب عليه من الأقوال والأعمال وأداء المال، وجمع إلى ذلك تكذيبه بالحسنى.

والمقصود أن الاستغناء عن الله سبب هلاك العبد وتيسيره لكل عسرى، ورؤيته غنى نفسه سبب طغيانه، وكلاهما مناف للفقر والعبودية. (طريق الهجرتين ١٣).

سورة البيّنة

﴿قوله تعالى: وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾



١- نهى سبحانه أن يكون أمر عباده بغير العبادة التي قد أخلص عاملها له فيها النية ومعلوم أن إخلاص النية للمعبود أصل لنية أصل العبادة، فإذا لم يأمرهم إلا بعمل هو عبادة قد أخلص عاملها النية فيها لربه عَزَّجَلَّ ومعلوم أن النية جزء من العبادة، بل هي روح العبادة كما تبين علم أن العمل الذي لم ينو ليس بعبادة ولا مأمور به فلا يكون فاعله متقرباً إلى الله تعالى وهذا مما لا يقبل نزاعاً. (بدائع الفوائد ٣/ ١٨٩).

فمن لم يخلص لله في عبادته لم يفعل ما أمر به،

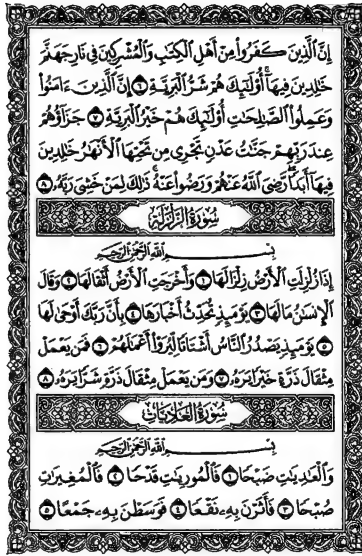
بل الذي أتى به شيء غير المأمور به، فلا يصح ولا يقبل منه. (الجواب الكافي ١٧٦).



سورة الزلزلة

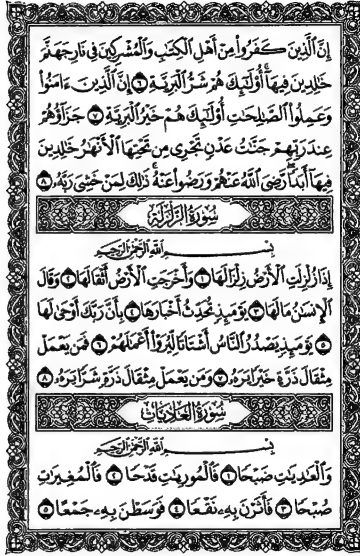
قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾
وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾.

١ - قد أخلصت من أولها وآخرها لهذا الشطر، فلم يذكر فيها إلا الآخرة وما يكون فيها من أحوال الأرض وسكانها، كانت تعدل نصف القرآن. (زاد المعاد ١/ ٣١٨).



سورة العاديات

قوله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۝١﴾ فَأَلْمُورِيَّتِ قَدْحًا ۝٢﴾ فَأَلْمُغِيرَتِ ضَبْحًا ۝٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۝٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ۝٥﴾.



١- كان ذكر الفعل في أثرن ووسطن أحسن من ذكر الاسم؛ لأنه سبحانه قسم أفعالنا إلى قسمين: وسيلة، وغاية. فالوسيلة هي العدو وما يتبعه من الإيراء والإغارة، والغاية هي توسط الجمع وما يتبعه من إثارة النقع فهن عاديات موريات مغيرات حتى يتوسطن الجمع ويثرن النقع، فالأول شأنهن الذي أعددن له، والثاني فعلهن الذي انتهين إليه، والله أعلم.

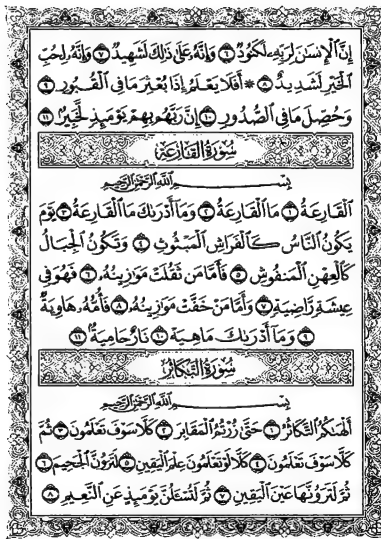
قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝١﴾ وَخُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١﴾.

٢- قيد سبحانه كونه خبيراً بهم ذلك اليوم وهو خير بهم في كل وقت إيذاناً بالجزاء، وأنه يجازيهم في ذلك اليوم بما يعلمه منهم فذكر العلم والمراد لازمه، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ. (التيان في أقسام القرآن ٧٥-٨٣).



سورة التكاثر

📖 قوله تعالى: ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢﴾.



١- أعرض عن ذكر المتكاثر به إرادة لإطلاقه وعمومه وأن كل ما يكثر به العبد غيره سوى طاعة الله ورسوله وما يعود عليه بنفع معاده، فهو داخل في هذا التكاثر. (الفوائد ٣٢).

٢- وجعل الغاية زيارة المقابر دون الموت إيذاناً بأنهم غير مستوطنين ولا مستقرين في القبور وأنهم فيها بمنزلة الزائرين يحضرونها مدة، ثم يظعنون عنها كما كانوا في الدنيا زائرين لها غير مستقرين فيها ودار القرار هي الجنة أو النار.

٣- ولم يعين سبحانه المتكاثر به، بل ترك ذكره، إما لأن المذموم هو نفس التكاثر بالشيء لا المتكاثر به كما يقال شغلك اللعب واللهو ولم يذكر ما يلعب ويلهو به، وإما إرادة الإطلاق وهو كل ما تكثر به العبد غيره من أسباب الدنيا من مال أو جاه أو عبيد أو إماء أو بناء أو غراس أو علم لا ينبغي به وجه الله أو عمل لا يقربه إلى الله، فكل هذا من التكاثر الملهي عن الله والدار الآخرة.

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن الشخير أنه قال: «انتهيت إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يقرأ ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ قال: يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفنت، أو لبست فأبليت؟»

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ٢ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ٤ ۝ ﴾ قوله تعالى: ﴿

٤- قيل تأكيد لحصول العلم كقوله: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ٢ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ

تَعْلَمُونَ ۝ ٤ ۝ ﴾.



وقيل: ليس تأكيداً بل العلم الأول عند المعاينة ونزول الموت، والعلم الثاني في القبر هذا قول الحسن ومقاتل ورواه عطاء عن ابن عباس.

ويدل على صحة هذا القول عدة أوجه:

أحدها: أن الفائدة الجديدة والتأسيس هو الأصل وقد أمكن اعتباره مع فخامة المعنى وجلالته وعدم الإخلال بالفصاحة.

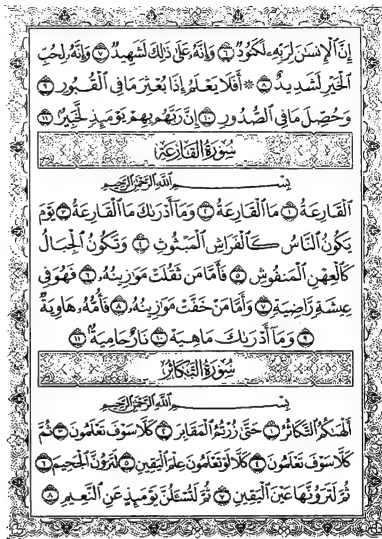
الثاني: توسط ثم بين العلمين وهي مؤذنة بتراخي ما بين المرتبتين زماناً وخطراً.

الثالث: أن هذا القول مطابق للواقع، فإن المحتضر يعلم عند المعاينة حقيقة ما كان عليه، ثم يعلم في القبر وما بعده ذلك علماً هو فوق الأول.

الرابع: أن علياً بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره من السلف فهموا من الآية عذاب القبر قال الترمذي: حدثنا أبو كريب، حدثنا حكام بن سليم الرازي، عن عمرو بن أبي قيس عن الحجاج بن المنهال بن عمر، عن زر عن علي رضي الله عنه قال: «ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت ألهاكم التكاثر».

قال الواحدي: يعني أن معنى قوله: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ٢ ۝ ﴾ في القبر.

الخامس: أن هذا مطابق لما بعده من قوله: ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ٦ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا



عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ فهذه الرؤية الثانية غير الأولى من وجهين إطلاق الأولى وتقييد الثانية بعين اليقين وتقدم الأولى وتراخي الثانية عنها.

٥- وتأمل ما في هذا العتاب الموجه لمن استمر على إلهاء التكاثر له مدة حياته كلها إلى أن زار القبور ولم يستيقظ من نوم الإلهاء، بل أرقد التكاثر قلبه فلم يستفق منه إلا وهو في عسكر الأموات، وطابق بين هذا وبين حال أكثر الخلق، يتبين لك أن العموم مقصود، وتأمل تعليقه سبحانه

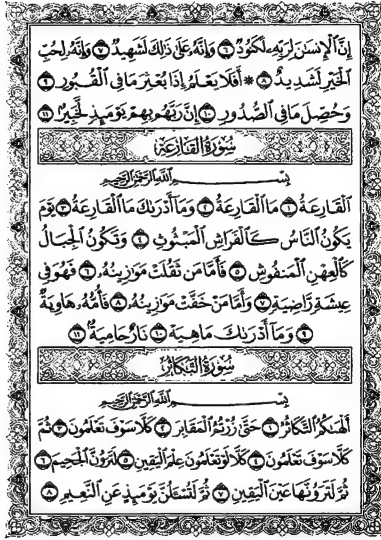
الذم والوعيد على مطلق التكاثر من غير تقييد بمتكاثر به ليدخل فيه التكاثر بجميع أسباب الدنيا على اختلاف أجناسها وأنواعها، وأيضا فإن التكاثر تفاعل وهو طلب كل من المتكاثرين أن يكثر صاحبه فيكون أكثر منه فيما يكاثره به والحامل له على ذلك توهمه أن العزة للكاثر كما قيل:

ولست بالأكثر منهم حصي وإنما العزة للكاثر

٦- ومن تأمل حسن موقع ﴿كَلَّا﴾ في هذا الموضع فإنها تضمنت ردعا لهم وزجرا عن التكاثر، ونفيا وإبطالا لما يؤملونه من نفع التكاثر لهم وعزتهم وكمالهم به، فتضمنت اللفظة نفيا ونفيا وأخبرهم سبحانه أنهم لا بد أن يعلموا عاقبة تكاثرهم علما بعد علم وأنهم لا بد أن يروا دار المكاثرين بالدنيا التي ألهمتهم عن الآخرة رؤية بعد رؤية، وأنه سبحانه لا بد أن يسألهم عن أسباب تكاثرهم من أين استخرجوها وفيما صرفوها؟

فله ما أعظمها من سورة وأجلها وأعظمها فائدة وأبلغها موعظة وتحذيرا

وأشدها ترغيبا في الآخرة وتزهيدا في الدنيا على غاية اختصارها وجزالة ألفاظها وحسن نظمها، فتبارك من تكلم بها حقا وبلغها رسوله عنه وحيًا.



٧- وتأمل كيف جعلهم عند وصولهم إلى غاية كل حي زائرين غير مستوطنين، بل هم مستودعون في المقابر مدة وبين أيديهم دار القرار، فإذا كانوا عند وصولهم إلى الغاية زائرين فكيف بهم وهم في الطريق في هذه الدار فهم فيها عابرو سبيل إلى محل الزيارة، ثم منتقلون من محل الزيارة إلى المستقر

فهنا هنا ثلاثة أمور عبور السبيل في هذه الدنيا وغايته زيارة القبور وبعدها النقلة إلى دار

القرار. (عدة الصابرين ١٨٣-١٩٤).



سورة العصر

قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِيرٌ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾.



١- قال الشافعي رضي الله عنه: لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكففتهم. وبيان ذلك أن المراتب أربعة، وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله:

إحداها: معرفة الحق.

الثانية: عمله به.

الثالثة: تعليمه من لا يحسنه.

الرابعة: صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه.

فذكر تعالى المراتب الأربعة في هذه السورة.

فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذايره، والحمد لله الذي جعل كتابه كافيا عن كل ما سواه، شافيا من كل داء، هاديا إلى كل خير. (مفتاح دار السعادة ٦١).

٢- فإنه ضيق الاستثناء وخصصه فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ ولما قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥﴾ وسع الاستثناء وعممه فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ولم يقل: وتواصوا، فإن التواصي هو أمر الغير بالإيمان والعمل الصالح وهو قدر زائد على مجرد فعله فمن لم



يكن كذلك فقد خسر هذا الربح فصار في خسر ولا يلزم أن يكون في أسفل سافلين، فإن الإنسان قد يقوم بما يجب عليه ولا يأمر غيره، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرتبة زائدة وقد تكون فرضاً على الأعيان وقد تكون فرضاً على الكفاية وقد تكون مستحبة.

والتواصي بالحق يدخل فيه الحق الذي يجب والحق الذي يستحب والصبر يدخل فيه الصبر الذي يجب والصبر الذي يستحب.

فهؤلاء إذا تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر حصل لهم من الربح ما خسره أولئك الذين قاموا بما يجب عليهم في أنفسهم ولم يأمرُوا غيرهم به وإن كان أولئك لم يكونوا من الذين خسروا أنفسهم وأهليهم فمطلق الخسار شيء والخسار المطلق شيء وهو سبحانه إنما قال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خُسْرٌ﴾ ومن ربح في سلعة وخسر في غيرها قد يطلق عليه أنه في خسر، وأنه ذو خسر كما قال عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا لقد فرطنا في قراريط كثيرة فهذا نوع تفريط وهو نوع خسر بالنسبة إلى من حصل ربح ذلك.

٣- وقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ إرشاد إلى منصب الإمامة في قوة الدين كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين. (التبيان في أقسام القرآن ٨٣-٨٤).

سورة الماعون

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ ١ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٢﴾



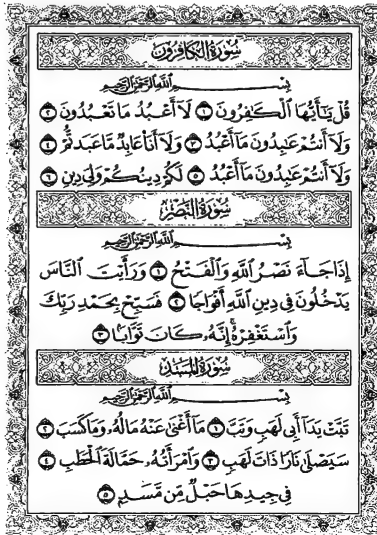
١- ليس السهو عنها تركها، وإلا لم يكونوا مصليين، وإنما هو السهو عن واجبها إما عن الوقت كما قال ابن مسعود وغيره، وإما عن الحضور والخشوع، والصواب أنه يعم النوعين، فإنه سبحانه أثبت لهم صلاة، ووصفهم بالسهو عنها، فهو السهو عن وقتها الواجب، أو عن إخلاصها وحضورها الواجب، ولذلك وصفهم بالرياء، ولو كان السهو سهو ترك لما كان هناك رياء. (مدارج السالكين ١/ ٥٢٧).



سورة الكافرون

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۝٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾

١ - فائدة تكرار الأفعال، فقليل فيه وجو: أحدها أن قوله: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾



نفي للحال والمستقبل، وقوله: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٢﴾ مقابلة، أي: لا تفعلون ذلك، وقوله: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۝٤﴾، أي: لم يكن مني ذلك قط قبل نزول الوحي؛ ولهذا أتى في عبادتهم بلفظ الماضي فقال ﴿مَّا عَبَدْتُمْ﴾ فكأنه قال: لم أعبد قط ما عبدتم، وقوله: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥﴾ مقابلة، أي: لم تعبدوا قط في الماضي ما أعبده أنا دائما.

وعلى هذا فلا تكرار أصلا، وقد استوفت

الآيات أقسام النفي ماضيا وحالا ومستقبلا عن عبادته وعبادتهم بأوجز لفظ وأحضره وأبينه، وهذا إن شاء الله أحسن ما قيل فيها، فلنقتصر عليه ولا نتعداه غيره، فإن الوجوه التي قيلت في مواضعها فعليك بها.

٢ - تكريره الأفعال بلفظ المستقبل حين أخبر عن نفسه ولفظ الماضي حين أخبر عنهم. ففي ذلك سر: وهو الإشارة والإيماء إلى عصمة الله تعالى له عن الزيف والانحراف عن عبادة معبوده والاستبدال به غيره وأن معبوده واحد في الحال والمال على الدوام لا يرضى به بدلا ولا يبغي عنه حولا، بخلاف الكافرين فإنهم يعبدون

أهواءهم ويتبعون شهواتهم في الدين وأغراضهم فهم بصدد أن يعبدوا اليوم معبودا وغدا غيره فقال: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ (٢) يعني الآن، ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (٣) أنا الآن أيضا، ثم قال: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ (٤) يعني ولا أنا فيما يستقبل يصدر مني عبادة لما عبدتم أيها الكافرون، وأشبهت ما هنا رائحة الشرط فلذلك وقع بعدها الفعل بلفظ الماضي وهو مستقبل في المعنى كما يجيء ذلك بعد حرف الشرط كأنه يقول: مهما عبدتم من شيء فلا أعبده أنا.

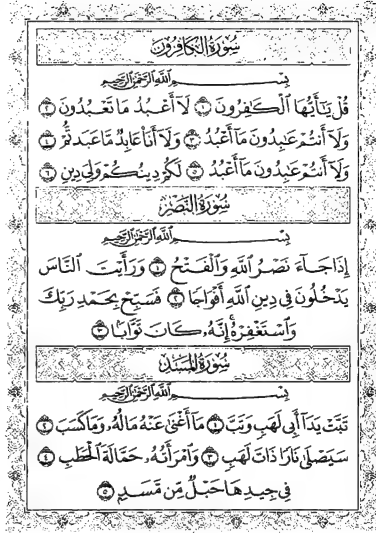


٣- لم يأت النفي في حقهم إلا باسم الفاعل، وفي جهته جاء بالفعل المستقبل تارة وباسم الفاعل أخرى.

فذلك والله أعلم لحكمة بديعة وهي أن المقصود الأعظم براءته من معبوديهم بكل وجه، وفي كل وقت فأتى أولا بصيغة الفعل الدالة على الحدوث والتجدد، ثم أتى في هذا النفي بعينه بصيغة اسم الفاعل الدالة على الوصف والثبوت، فأفاد في

النفي الأول أن هذا لا يقع مني، وأفاد في الثاني أن هذا ليس وصفي ولا شأني فكأنه قال: عبادة غير الله لا تكون فعلا لي ولا وصفا، فأتى بنفيين لمنفيين مقصودين بالنفي، وأما في حقهم فإنما أتى بالاسم الدال على الوصف والثبوت دون الفعل، أي: أن الوصف الثابت اللازم العائد لله منتف عنكم فليس هذا الوصف ثابتا لكم، وإنما ثبت لمن خص الله وحده بالعبادة لم يشرك معه فيها أحدا وأنتم لما عبدتم غيره فلسستم من عابديه وإن عبدوه في بعض الأحيان.

فتأمل هذه النكتة البديعة كيف تجد في طيها أنه لا يوصف بأنه عابد الله وعبدته

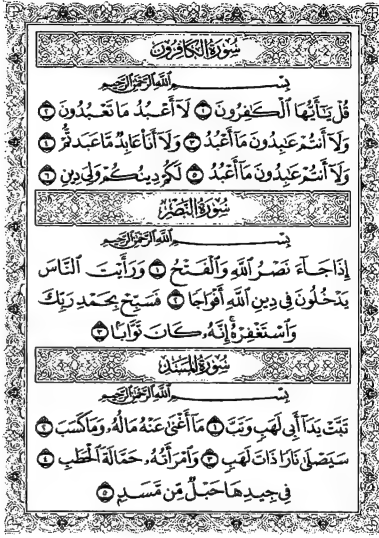


المستقيم على عبادته إلا من انقطع إليه بكلية وتبتل إليه تبتيلا لم يلتفت إلى غيره لم يشرك به أحدا في عبادته، وأنه وإن عبده وأشرك به غيره فليس عابدا لله ولا عبدا له.

وهذا من أسرار هذه السورة العظيمة الجليلة التي هي إحدى سورتي الإخلاص التي تعدل ربع القرآن كما جاء في بعض السنن وهذا لا يفهمه كل أحد ولا يدركه إلا من منحه الله فهما من عنده، فله الحمد والمنة.

٤- أن النفي في هذه السورة أتى بأداة (لا) دون (لن) وذلك؛ لأن النفي بـ(لا) أبلغ منه بـ(لن)، وأن (لا) أدل على دوام النفي وطوله من (لن)، وأنها للطول والمد الذي في نفيها طال النفي بها واشتد، وأن هذا ضد ما فهمته الجهمية والمعتزلة من أن (لن) إنما تنفي المستقبل ولا تنفي الحال المستمر النفي في الاستقبال وقد تقدم تقرير ذلك بما لا تكاد تجده في غير هذا التعليق فالإتيان بـ(لا) متعين هنا، والله أعلم.

٥- اشتمال هذه السورة على النفي المحض فهذا هو خاصة هذه السورة العظيمة فإنها سورة براءة من الشرك كما جاء في وصفها أنها براءة من الشرك فمقصودها الأعظم هو البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشركين ولهذا أتى بالنفي في الجانبين تحقيقا للبراءة المطلوبة هذا مع أنها متضمنة للإثبات صريحا فقوله: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٢﴾ براءة محضة ﴿وَلَا أَنُصَلِّيُ مِمَّا تُصَلُّونَ﴾ ﴿٣﴾ إثبات أن له معبودا يعبده وأنتم بريئون من عبادته فتضمنت النفي والإثبات وطابقت قول إمام الجنفاء: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴿٥﴾ وطابقت قول فئة الموحدين: ﴿وَإِذْ أَعَزَّلْتُمُوهُمْ وَمَا



يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فانتظمت حقيقة لا إله إلا الله تعالى ولهذا كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرنها بسورة قل هو الله أحد في سنة الفجر وسنة المغرب.

فانتظمت السورتان نوعي التوحيد وأخلصتا له فكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفتح بهما النهار في سنة الفجر ويختم بهما في سنة المغرب، وفي السنن أنه كان يوتر بهما فيكونان خاتمة عمل الليل كما كانا خاتمة عمل النهار.

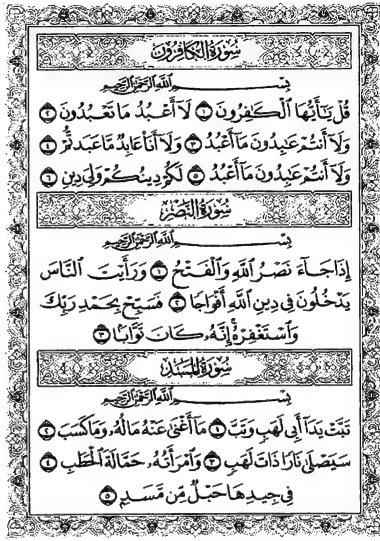
٦- إثباته هنا بلفظ ﴿يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ﴾

دون يا أيها الذين كفروا. فسرّه والله أعلم إرادة الدلالة على أن من كان الكفر وصفا ثابتا لا لازما لا يفارقه، فهو حقيق أن يتبرأ الله منه ويكون هو أيضا بريئا من الله فحقيق بالموحد البراءة منه فكان في معرض البراءة التي هي غاية البعد والمجانبة بحقيقة حاله التي هي غاية الكفر وهو الكفر الثابت اللازم في غاية المناسبة فكأنه يقول كما أن الكفر لازم لكم ثابت لا تتقلون عنه فمجانبتكم والبراءة منكم ثابتة دائما أبدا ولهذا أتى فيها بالنفي الدال على الاستمرار مقابلة الكفر الثابت المستمر وهذا واضح.

٧- ما الفائدة في قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ ٦ وهل أفاد هذا معنى زائدا على

ما تقدم؟

فيقال: في ذلك من الحكمة - والله أعلم - أن النفي الأول أفاد البراءة، وأنه لا يتصور منه ولا ينبغي له أن يعبد معبوديهم وهم أيضا لا يكونون عابدين لمعبوده وأفاد آخر السورة إثبات ما تضمنه النفي من جهتهم من الشرك والكفر الذي هو حظهم وقسمهم ونصيبهم فجرى ذلك مجرى من اقتسم هو وغيره أرضا فقال له لا تدخل في حدي



ولا أدخل في حدك لك أرضك ولي أرضي.

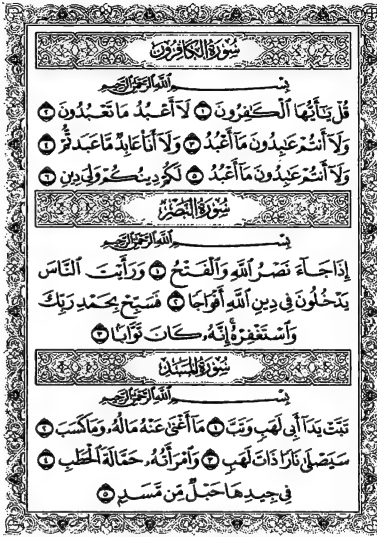
فتضمنت الآية أن هذه البراءة اقتضت أنا اقتسمنا خطتنا بيننا فأصابنا التوحيد والإيمان، فهو نصيبنا وقسمنا الذي نختص به لا تشركونا فيه وأصابكم الشرك بالله والكفر به، فهو نصيبكم وقسمكم الذي تختصمون به لا نشرككم به فتبارك من أحيا قلوب من شاء من عباده بفهم كلامه.

وهذه المعاني ونحوها إذا تجلت للقلوب رافلة في حللها فإنها تسبي القلوب وتأخذ بمجامعها

ومن لم يصادف من قلبه حياة فهي خود تزف إلى ضرير مقعد فالحمد لله على مواهبه التي لا تنتهي ونسأله إتمام نعمته.

٨- تقديم قسمهم ونصيبهم على قسمه ونصيبه، وفي أول السورة قدم ما يختص بهم. فهذا من أسرار الكلام وبديع الخطاب الذي لا يدركه إلا فحول البلاغة وفرسانها، فإن السورة لما اقتضت البراءة واقتسام ديني التوحيد والشرك بينه وبينهم ورضي كل بقسمه، وكان المحق هو صاحب القسمة وقد برز النصيبين وميز القسمين وعلم أنهم راضون بقسمهم الدون الذي لا أردا منه، وأنه هو قد استولى على القسم الأشراف والخط الأعظم بمنزلة من اقتسم هو وغيره سما وشفاء فرضي مقاسمه بالسهم، فإنه يقول له لا تشاركني في قسمي ولا أشاركك في قسمك، لك قسمك ولي قسمي.

فتقدم ذكر قسمه ها هنا أحسن وأبلغ كأنه يقول هذا هو قسمك الذي أثرته بالتقديم وزعمت أنه أشرف القسمين وأحقهما بالتقديم فكان في تقديم ذكر قسمه من التهكم به والنداء على سوء اختياره وقبح ما رضيه لنفسه من الحسن والبيان ما لا يوجد في ذكر



تقديم قسم نفسه والحاكم في هذا هو الذوق والفظن
يكتفي بأدنى إشارة وأما غليظ الفهم فلا ينجع فيه
كثرة البيان.

وجه ثان وهو أن مقصود السورة براءته
صلى الله عليه وسلم من دينهم ومعبودهم هذا هو لبها
ومغزاها وجاء ذكر براءتهم من دينه ومعبوده بالمقصود
الثاني مكملًا لبراءته ومحققًا لها فلما كان المقصود
براءته من دينهم بدأ به في أول السورة، ثم جاء
قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ مطابقًا لهذا المعنى، أي:

لا أشارككم في دينكم ولا أوافقكم عليه، بل هو دين تختصون أنتم به لا أشارككم فيه
أبدا فطابق آخر السورة أولها فتأمل.

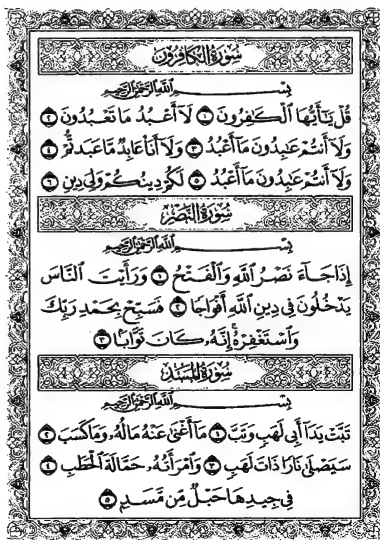
فهذا ما فتح الله العظيم به من هذه الكلمات اليسيرة والنبذة المشيرة إلى عظمة
هذه السورة وجلالتها ومقصودها وبديع نظمها من غير استعانة بتفسير ولا تتبع لهذه
الكلمات من مظان توجد فيه، بل هي استملاء مما علمه الله وألهمه بفضلته وكرمه
والله يعلم أني لو وجدتها في كتاب لأضفتها إلى قائلها ولبالغت في استحسانها وعسى
الله المان بفضلته الواسع العطاء الذي عطاؤه على غير قياس المخلوقين أن يعين على
تعليق تفسير هذا النمط وهذا الأسلوب وقد كتبت على مواضع متفرقة من القرآن
بحسب ما يسنح من هذا النمط وقت مقامي بمكة وبالبیت المقدس والله المرجو إتمام
نعمته. (بدائع الفوائد ١٣٣-١٤٧).



سورة النصر

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾

١ - قال عمر بن الخطاب للصحابه: ما تقولون في: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ



﴿[النصر: ١]. السورة؟ قالوا: أمر الله نبيه إذا فتح عليه أن يستغفره، فقال لابن عباس: ما تقول أنت؟ قال: هو أجل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أعلمه إياه، فقال: ما أعلم منها غير ما تعلم.

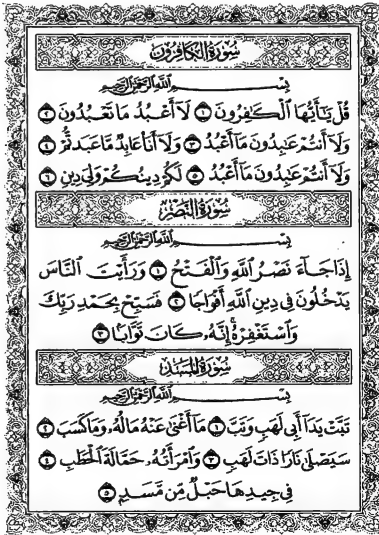
وهذا من أدق الفهم والطفه، ولا يدركه كل أحد، فإنه - سبحانه - لن يعلق الاستغفار بعمله، بل علقه بما يحدثه هو - سبحانه - من نعمة فتحه على رسوله ودخول الناس في دينه، وهذا ليس بسبب للاستغفار، فعلم أن سبب الاستغفار غيره، وهو

حضور الأجل الذي من تمام نعمة الله على عبده توفيقه للتوبة النصوح والاستغفار بين يديه ليلقى ربه طاهرا مطهرا من كل ذنب فيقدم عليه مسرورا راضيا مرضيا عنه، ويدل عليه أيضا قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: ٣]. (إعلام الموقعين ١/ ٤٣٦).



سورة المسد

قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾



١- سَمَّاها «امراته» بعقد النكاح الواقع في الشرك.

وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحریم: ١١]. فسمّاها «امراته».

والصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ غالبهم إنما ولدوا من نكاح كان قبل الإسلام في حال الشرك، وهم ينسبون إلى آبائهم انتساباً لا ريب فيه عند أحد من أهل الإسلام، وقد أسلم الجرم الغفير في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم يأمر أحدا منهم أن يجدد عقده على امرأته.

فلو كانت أنكحة الكفار باطلة لأمرهم بتجديد أنكحتهم، وقد كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو أصحابه لآبائهم، وهذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام. (أحكام أهل الذمة ٣٠٨-٣٠٩).



سورة الإخلاص

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ (٤)﴾.

١- هو توحيد منه لنفسه وأمر للمخاطب بتوحيده، فإذا قال العبد ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ



أَحَدٌ ۝ (١) كان قد وحد الله بما وحد به نفسه وأتى بلفظة ﴿قُلْ﴾ تحقيقاً لهذا المعنى، وأنه مبلغ محض قائل لما أمر بقوله والله أعلم، وهذا بخلاف قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝ (١)﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ (١)﴾، فإن هذا أمر محض بإنشاء الاستعاذة لا تبليغ لقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ (١)﴾، فإن الله لا يستعيز من أحد وذلك عليه محال بخلاف قوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١)﴾،

فإنه خبر عن توحيده وهو سبحانه يخبر عن نفسه

بأنه الواحد الأحد، فتأمل هذه النكتة البديعة، والله المستعان. (بدائع الفوائد ٢/ ١٧٢).



سورة الفلق

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥).



١- [لماذا (قُلْ أَعُوذُ) وليس (أَعُوذُ؟)] قلت:

فكيف جاء امتثال هذا الأمر بلفظ الأمر والمأمور به

فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ (١) و﴿قُلْ أَعُوذُ

بِرَبِّ النَّاسِ﴾ (١) ومعلوم أنه إذا قيل: قل الحمد

لله وقل سبحان الله، فإن امتثاله أن يقول: الحمد لله،

وسبحان الله، ولا يقول: قل سبحان الله.

قلت: هذا هو السؤال الذي أورده أبي بن كعب

على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعينه وأجابه عنه رسول الله

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال البخاري في صحيحه: حدثنا قتيبة، ثنا سفيان، عن عاصم وعبد،

عن زر قال: «سألت أبي بن كعب عن المعوذتين فقال: سألت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فقال: قيل لي فقلت، فنحن نقول كما قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» (رواه البخاري).

ثم قال: حدثنا علي بن عبد الله، ثنا سفيان، ثنا عبد بن أبي لبابة عن زر بن حبیش

وحدثنا عاصم عن زر قال: «سألت أبي بن كعب قلت: أبا المنذر إن أخاك ابن مسعود

يقول كذا وكذا، فقال: إني سألت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: قيل لي فقلت قل،

فنحن نقول كما قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

قلت: مفعول القول محذوف وتقديره قيل لي قل، أو قيل لي هذا اللفظ فقلت

كما قيل لي.



وتحت هذا السر أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس له في القرآن إلا بلاغه، لا أنه هو أنشأه من قبل نفسه، بل هو المبلغ له عن الله، وقد قال الله له: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝﴾ فكان يقتضي البلاغ التام أن يقول: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝﴾ كما قال الله، وهذا هو المعنى الذي أشار النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليه بقوله: «قيل لي فقلت»، أي: إني لست مبتدئاً، بل أنا مبلغ أقول كما يقال لي وأبلغ كلام ربي كما أنزله إليّ فصلوات الله وسلامه عليه لقد بلغ الرسالة

وأدى الأمانة وقال كما قيل له، فكفانا وشفانا من المعتزلة والجهمية وإخوانهم ممن يقول هذا القرآن العربي وهذا النظم كلامه ابتداءً هو به، ففي هذا الحديث أبين الرد لهذا القول، وأنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلغ القول الذي أمر بتبليغه على وجهه ولفظه حتى إنه لما قيل له (قل)، قال هو: قل. لأنه مبلغ محض، وما على الرسول إلا البلاغ.

٢ - [الشر المستعاذ منه نوعان]:

أحدهما: موجود يطلب رفعه.

والثاني: معدوم يطلب بقاءه على العدم وألاً يوجد.

كما أن الخير المطلق نوعان:

أحدهما: موجود فيطلب دوامه وثباته وألاً يسلبه.

والثاني: معدوم فيطلب وجوده وحصوله.

فهذه أربعة هي أمهات مطالب السائلين من رب العالمين، وعليها مدار طلباتهم،



وقد جاءت هذه المطالب الأربعة في قوله تعالى
حكاية عن دعاء عباده في آخر آل عمران في قولهم:

﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا
بِرَبِّكُمْ فَأَمَّا رَبَّنَا فَأَعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا

سَيِّئَاتِنَا ﴾ فهذا الطلب لدفع الشر الموجود، فإن
الذنوب والسيئات شر كما تقدم بيانه.

ثم قال: ﴿ وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ فهذا طلب
لدوام الخير الموجود وهو الإيمان حتى يتوفاهم
عليه فهذان قسمان.

ثم قال: ﴿ رَبَّنَا وَءَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾ فهذا طلب للخير المعدوم أن يؤتيهم
إياه، ثم قال: ﴿ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ فهذا طلب أن لا يوقع بهم الشر المعدوم وهو
خزي يوم القيامة فانتظمت الآيتان للمطالب الأربعة أحسن انتظام مرتبة أحسن ترتيب
قُدِّمَ فيها النوعان اللذان في الدنيا وهما المغفرة ودوام الإسلام إلى الموت، ثم اتبعا
بالنوعين اللذين في الآخرة وهما أن يعطوا ما وعدوه على السنة رسله وألا يخزيهم يوم
القيامة.

فانتظمت الآيتان للمطالب الأربعة أحسن انتظام مرتبة أحسن ترتيب قُدِّمَ فيها
النوعان اللذان في الدنيا وهما المغفرة ودوام الإسلام إلى الموت، ثم اتبعا بالنوعين
اللذين في الآخرة وهما أن يعطوا ما وعدوه على السنة رسله وألا يخزيهم يوم القيامة.

٣ - وقد دخل في قوله تعالى: ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۚ ﴾ الاستعاذة من كل شر في،
أي: مخلوق قام به الشر من حيوان أو غيره إنسيا كان أو جنيا أو هامة أو دابة أو ريحا أو
صاعقة، أي: نوع كان من أنواع البلاء.

قلت: فيها عموم تقييدي وصفي لا عموم إطلاقي. والمعنى: من شر كل مخلوق فيه شر، فعمومها من هذا الوجه، وليس المراد الاستعاذة من شر كل ما خلقه الله تعالى، فإن الجنة وما فيها ليس فيها شر، وكذلك الملائكة والأنبياء فإنهم خير محض، والخير كله حصل على أيديهم، فالاستعاذة من ﴿شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ تعم شر كل مخلوق فيه شر، وكل شر في الدنيا والآخرة، وشر شياطين الإنس والجن، وشر السباع والهوام، وشر النار والهواء وغيره.

فإن الفلق الصبح الذي هو مبدأ ظهور النور وهو الذي يطرد جيش الظلام وعسكر
المفسدين في الليل فيأوي كل خبيث وكل مفسد وكل لص وكل قاطع طريق إلى سرب
أو كن أو غار وتأوي الهوام إلى أحجرتها والشياطين التي انتشرت بالليل إلى أمكتها
ومحالتها، فأمر الله تعالى عباده أن يستعيذوا برب النور الذي يقهر الظلمة ويزيلها ويقهر
عسكرها وجيشها؛ ولهذا ذكر سبحانه في كل كتاب: أنه يخرج عباده من الظلمات إلى
النور، ويدع الكفار في ظلمات كفرهم، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم
مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَٰئِكَ أَطُغُوهُم يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى
الظُّلُمَاتِ﴾، وقال تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مِيسًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ
كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾، وقال في أعمال الكفار: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ
لُّجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ

لَمْ يَكْدِرْهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿١٠﴾، وقد قال قبل ذلك في صفات أهل الإيمان ونورهم ﴿﴾ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيُّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴿﴾.



فالإيمان كله نور، ومآله إلى نور، ومستقره في القلب المضيء المستنير، والمقترن بأهله الأرواح المستنيرة المضيئة المشرقة، والكفر والشرك كله ظلمة، ومآله إلى الظلمات، ومستقره في القلوب المظلمة، والمقترن بها الأرواح المظلمة، فتأمل الاستعاذة برب الفلق من شر الظلمة، ومن شر ما يحدث فيها، ونزول هذا المعنى على الواقع يشهد

بأن القرآن، بل هاتين السورتين من أعظم أعلام النبوة وبراهين صدق رسالة محمد، ومضادة لما جاء به الشياطين من كل وجه، وإن ما جاء به ما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون، فما فعلوه ولا يليق بهم ولا يتأتى منهم ولا يقدرّون عليه.

وفي هذا أبين جواب وأشفاه لما يورده أعداء الرسول عليه من الأسئلة الباطلة التي قصر المتكلمون غاية التقصير في دفعها وما شفوا في جوابها، وإنما الله سبحانه هو الذي شفى وكفى في جوابها، فلم يحوجنا إلى متكلم ولا إلى أصولي ولا أنظار، فله الحمد والمنة لا نحصي ثناء عليه.

٥- واعلم أن الخلق كله فلق، وذلك أن فلقا فعل بمعنى مفعول، كقبض وسلب وقنص بمعنى مقبوض ومسلوب ومقنوص، والله عَزَّجَلَّ فالتق الإصباح، وفالق الحب



والنوى، وفالق الأرض عن النبات، والجبال عن العيون، والسحاب عن المطر، والأرحام عن الأجنة، والظلام عن الإصباح، ويسمى الصبح المتصدع عن الظلمة فلقا وفرقا، يقال: هو أبيض من فرق الصبح وفلقه.

وكما أن في خلقه فلقا وفرقا فكذلك أمره كله فرقان يفرق بين الحق والباطل فيفرق ظلام الباطل بالحق كما يفرق ظلام الليل بالإصباح ولهذا سمى كتابه الفرقان ونصره فرقانا لتضمنه الفرق بين أوليائه وأعدائه ومنه فلقة البحر لموسى وسماه فلقا.

فظهرت حكمة الاستعاذة برب الفلق في هذه المواضع وظهر بهذا إعجاز القرآن وعظمته وجلالته وأن العباد لا يقدرُونَ قدره ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

٦- فإن قيل: فالسحر يكون من الذكور والإناث، فلم خص الاستعاذة من الإناث دون الذكور؟

قيل في جوابه: إن هذا خرج على السبب الواقع وهو أن بنات لبيد بن الأعصم سحرن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هذا جواب أبي عبيدة وغيره وليس هذا بسديد، فإن الذي سحر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو لبيد بن الأعصم كما جاء في الصحيح.

والجواب المحقق أن النفاثات هنا هن الأرواح والأنفس النفاثات لا النساء النفاثات؛ لأن تأثير السحر إنما هو من جهة الأنفس الخبيثة والأرواح الشريرة وسلطانها

سُورَةُ الْاِنشَارِ
بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ
قُلْ هُوَ اللّٰهُ اَحَدٌ ۝ اللّٰهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝
لَمْ يَكُنْ لَهٗ كُنُوءٌ اَحَدٌ ۝

سُورَةُ الْاِنشَارِ
بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ
قُلْ اَعُوْذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِنْ شَرِّ
غَاسِقِ اِذَا وَقَبَ ۝ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝
وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ اِذَا حَسَدَ ۝

سُورَةُ الْاِنشَارِ
بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ
قُلْ اَعُوْذُ بِرَبِّ الْاَلْسِیْنَ ۝ صَلَواتُ الْاَلْسِیْنَ ۝ اِلَیْهِ
الْاَلْسِیْنَ ۝ مِنْ شَرِّ اَلْوَسْوَاسِ الْخَفِیْیْنَ ۝ الَّذِی
یُوسِّوْیْ فِیْ سُدُوْرِ الْاَلْسِیْنَ ۝
مِنْ الْجَنَّةِ وَالْاَلْسِیْنَ ۝

ولو كان الضرر لا يحصل إلا بمباشرة البدن ظاهرا كما يقوله هؤلاء لم يكن للنفث ولا للنفاثات شر يستعاذ منه.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ ﴿٥﴾.

٨- فحق الشر منه عند صدور الحسد والقرآن ليس فيه لفظة مهمة.

ومعلوم أن الحاسد لا يسمى حاسدا إلا إذا قام به الحسد كالضارب والشاتم والقاتل ونحو ذلك، ولكن قد يكون الرجل في طبعه الحسد وهو غافل عن المحسود



لاه عنه، فإن خطر على ذكره وقلبه انبعثت نار الحسد من قلبه إليه ووجهت إليه سهام الحسد من قبله فيتأذى المحسود بمجرد ذلك، فإن لم يستعذ بالله ويتحصن به ويكون له أورد من الأذكار والدعوات والتوجه إلى الله والإقبال عليه، بحيث يدفع عنه من شره بمقدار توجهه وإقباله على الله وإلا ناله شر الحاسد ولا بد فقله تعالى: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ بيان؛ لأن شره إنما يتحقق إذا حصل منه الحسد بالفعل.

٩- والمقصود أن العائن حاسد خاص وهو أضر من الحاسد ولهذا والله أعلم إنما جاء في السورة ذكر الحاسد دون العائن لأنه أعم فكل عائن حاسد ولا بد وليس كل حاسد عائن، فإذا استعاذ من شر الحسد دخل فيه العين وهذا من شمول القرآن الكريم وإعجازه وبلاغته.

وكثيراً ما يجتمع في القرآن الحسد والسحر والمناسبة ولهذا اليهود أسحر الناس وأحسدهم فإنهم لشدة خبثهم فيهم من السحر والحسد ما ليس في غيرهم وقد وصفهم الله تعالى في كتابه بهذا وهذا فقال: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَرْوَتَ ۖ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۖ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ۖ وَلَقَدْ عَلَّمُوا لِمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠٢).

والشيطان يقارن الساحر والحاسد ويحادثهما ويصاحبها، ولكن الحاسد تعينه الشياطين بلا استدعاء منه للشيطان؛ لأن الحاسد شبيه بإبليس وهو في الحقيقة من

أتباعه لأنه يطلب ما يحبه الشيطان من فساد الناس وزوال نعم الله عنهم كما أن إبليس حسد آدم لشرفه وفضله وأبى أن يسجد له حسداً فالحاسد من جند إبليس، وأما الساحر فهو يطلب من الشيطان أن يعينه ويستعينه، وربما يعبد من دون الله تعالى حتى يقضي له حاجته وربما يسجد له.

يعم الحاسد من الجن والإنس، فإن الشيطان وحزبه يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله تعالى من فضله كما حسد إبليس أبانا آدم وهو عدو

لذريته كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾، ولكن الوسواس أخص بشياطين الجن والحسد أخص بشياطين الإنس والوسواس يعمهما كما سيأتي بيانها والحسد يعمهما أيضا فكلا الشيطانين حاسد موسوس فلا استعاذة من شر الحاسد تتناولهما جميعا.

فقد اشتملت السورة على الاستعاذة من كل شر في العالم وتضمنت شروا أربعة يستعاذ منها شرا عاما وهو شر ما خلق وشر الغاسق إذا وقب فهذا نوعان.

١٠ - ﴿إِذَا حَسَدَ﴾؛ لأن الرجل قد يكون عنده حسد، ولكن يخفيه ولا يرتب عليه أذى بوجه ما لا بقلبه ولا بلسانه ولا بيده، بل يجد في قلبه شيئا من ذلك ولا يعاجل أخاه إلا بما يحب الله فهذا لا يكاد يخلو منه أحد إلا من عصمه الله.



وقيل للحسن البصري: أيحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك إخوة يوسف! لكن الفرق



بين القوة التي في قلبه من ذلك وهو لا يطيعها ولا يأتمر بها، بل يعصيه طاعة لله وخوفاً وحياءاً منه وإجلالاً له أن يكره نعمه على عباده فيرى ذلك مخالفة لله وبغضاً لما يحب الله ومحبة لما يبغضه، فهو يجاهد نفسه على دفع ذلك ويلزمها بالدعاء للمحسود وتمني زيادة الخير له بخلاف ما إذا حقق ذلك وحسد ورتب على حسده مقتضاه من الأذى بالقلب واللسان والجوارح فهذا الحسد المذموم هو كله حسد تمنى الزوال.

١١ - فهذه السورة من أكبر أدوية المحسود فإنها تتضمن التوكل على الله والالتجاء إليه والاستعاذة به من شر حاسد النعمة، فهو مستعبد بولي النعم وموليها كأنه يقول يا من أولاني نعمته وأسداها إلي أنا عائد بك من شر من يريد أن يستلبها مني ويزيلها عني وهو حسب من توكل عليه وكافي من لجأ إليه وهو الذي يؤمن خوف الخائف ويجبر المستجير وهو نعم المولى ونعم النصير فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه وانقطع بكليته إليه تولاه وحفظه وحرسه وصانه ومن خافه واتقاه آمنه مما يخاف ويحذر وجلب إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ﴾ فلا تستبطئ نصره ورزقه وعافيته، فإن الله تعالى بالغ أمره وقد جعل الله لكل شيء قدراً لا يتقدم عنه ولا يتأخر ومن لم يخفه أخافه من كل شيء وما خاف أحداً غير الله إلا لنقص خوفه من الله قال



تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وقال: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوانِ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾، أي: يخوفكم بأوليائه ويعظمهم في صدوركم فلا تخافوهم وأفردوني بالمخافة أكفكم إياهم. (بدائع الفوائد ٢/ ١٩٨-٢٧٤).



سورة الناس

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَهِ النَّاسِ ③ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ④ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑤ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ⑥﴾



فنذكر أولاً معنى هذه الإضافات الثلاث، ثم وجه مناسبتها لهذه الاستعاذة فنقول:

الإضافة الأولى: إضافة الربوبية المتضمنة لخلقهم وتديبرهم وتربيتهم وإصلاحهم وجلب مصالحهم وما يحتاجون إليه ودفع الشر عنهم وحفظهم مما يفسدهم هذا معنى ربوبيته لهم وذلك يتضمن قدرته التامة ورحمته الواسعة وإحسانه وعلمه بتفاصيل أحوالهم وإجابة دعواتهم وكشف كرباتهم.

الإضافة الثانية: إضافة الملك، فهو ملكهم المتصرف فيهم وهم عبيده ومماليكه وهو المتصرف لهم المدبر لهم كما يشاء النافذ القدرة فيهم الذي له السلطان التام عليهم، فهو ملكهم الحق الذي إليه مفزعهم عند الشدائد والنوائب وهو مستغاثهم ومعاذهم وملجؤهم فلا صلاح لهم ولا قيام إلا به وتديبره فليس لهم ملك غيره يهربون إليه إذا دهمهم العدو ويستصرخون به إذا نزل العدو بساحتهم.

الإضافة الثالثة: إضافة الإلهية، فهو إلههم الحق ومعبودهم الذي لا إله لهم سواه ولا معبود لهم غيره فكما أنه وحده هو ربهم ومليكهم لم يشركه في ربوبيته ولا في ملكه



أحد فذلك هو وحده إلههم ومعبودهم فلا ينبغي أن يجعلوا معه شريكا في إلهيته كما لا شريك معه في ربوبيته وملكوته وهذه طريقة القرآن الكريم يحتاج عليهم بإقرارهم بهذا التوحيد على ما أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة.

وإذا كان وحده هو ربنا ومالكنا وإلهنا فلا مفزع لنا في الشدائد سواه ولا ملجأ لنا منه إلا إليه ولا معبود لنا غيره فلا ينبغي أن يدعي ولا يخاف ولا يرجى ولا يحب سواه ولا يذل لغيره ولا يخضع لسواه ولا يتوكل إلا عليه.

فظهرت مناسبة هذه الإضافات الثلاث للاستعاذة: من أعدى الأعداء وأعظمهم عداوة وأشدهم ضررا وأبلغهم كيدا.

ثم إنه سبحانه كرر الاسم الظاهر ولم يوقع المضمرة موقعه فيقول رب الناس وملكهم وإلههم تحقيقا لهذا المعنى وتقوية له فأعاد ذكرهم عند كل اسم من أسمائه ولم يعطف بالواو لما فيهم من الإيذان بالمغايرة.

والمقصود الاستعاذة بمجموع هذه الصفات حتى كأنها صفة واحدة.

وقدم الربوبية لعمومها وشمولها لكل مربوب.

وأخر الإلهية لخصوصها لأنه سبحانه إنما هو إله من عبده ووحدته واتخذة دون غيره إلهاً فمن لم يعبده ويوحده فليس بإلهه وإن كان في الحقيقة لا إله له سواه، ولكن ترك إلهه الحق واتخذ إلهاً غيره باطلاً.

ووسط صفة الملك بين الربوبية والإلهية؛ لأن الملك هو المتصرف بقوله وأمره، فهو المطاع إذا أمر وملكه لهم تابع لخلقه إياهم فملكه من كمال ربوبيته وكونه إلههم الحق من كمال ملكه فربوبيته تستلزم ملكه وتقتضيه وملكه يستلزم إلهيته ويقتضيها، فهو الرب الحق الملك الحق الإله الحق خلقهم بربوبيته وقهرهم بملكه استعبدتهم بإلهيته.

فتأمل هذه الجلالة وهذه العظمة التي تضمنته هذه الألفاظ الثلاثة على أبدع نظام وأحسن سياق رب الناس ملك الناس إله الناس.

وقد اشتملت هذه الإضافات الثلاث على جميع قواعد الإيمان وتضمنت معاني أسمائه الحسنى.



أما تضمنها لمعاني أسمائه الحسنى، فإن الرب

هو القادر الخالق البارئ المصور الحي القيوم العليم السميع البصير المحسن المنعم الجواد المعطي المانع الضار النافع المقدم المؤخر الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء ويسعد من يشاء ويشقي ويعز من يشاء ويذل من يشاء إلى غير ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما يستحقه من الأسماء الحسنى.

وأما الملك، فهو الأمر الناهي المعز المذل الذي يصرف أمور عباده كما يحب ويقلبهم كما يشاء وله من معنى الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنى كالعزيز الجبار الحكم العدل الخافض الرافع المعز المذل العظيم الجليل الكبير الحسيب المجيد الوالي المتعالي مالك الملك المقسط الجامع إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك.



وأما الإله، فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال فيدخل في هذا الاسم جميع الأسماء الحسنى ولهذا كان القول الصحيح أن الله أصله الإله كما هو قول سيويه وجمهور أصحابه إلا من شذ منهم وأن اسم الله تعالى هو الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى والصفات العلى فقد تضمنت هذه الأسماء الثلاثة جميع معاني أسمائه الحسنى فكان المستعيز بها جديراً بأن يعاذ ويحفظ ويمنع من الوسواس الخناس ولا يسلط

عليه وأسرار كلام الله أجل وأعظم من أن تدركها عقول البشر وإنما غاية أولي العلم الاستدلال بما ظهر منها على ما وراء وإن بادية إلى الخافي يسير.

وهذه السورة مشتملة على الاستعاذة من الشر الذي هو سبب الذنوب والمعاصي كلها وهو الشر الداخل في الإنسان الذي هو منشأ العقوبات في الدنيا والآخرة فسورة الفلق تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو ظلم الغير له بالسحر والحسد وهو شر من خارج. وسورة الناس تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو سبب ظلم العبد نفسه وهو شر من داخل.

فالشر الأول: لا يدخل تحت التكليف ولا يطلب منه الكف عنه لأنه ليس من كسبه.

والشر الثاني: في سورة الناس يدخل تحت التكليف ويتعلق به النهي فهذا شر المعائب والأول شر المصائب والشر كله يرجع إلى العيوب والمصائب ولا ثالث لهما.



فسورة الفلق تتضمن الاستعاذة من شر المصيبات وسورة الناس تتضمن الاستعاذة من شر العيوب التي أصلها كلها الوسوسة.

وتأمل كيف جاء بناء الوسواس مكررا لتكريره الوسوسة الواحدة مرارا حتى يعزم عليها العبد وجاء بناء الخناس على وزن الفعال الذي يتكرر منه نوع الفعل لأنه كلما ذكر الله انخنس، ثم إذا غفل العبد عاوده بالوسوسة فجاء بناء اللفظين مطابقا لمعنيهما.

وقوله: ﴿الَّذِي يُوسَّوْسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝﴾ صفة ثالثة للشيطان فذكر وسوسته أولا، ثم ذكر محلها ثانيا وأنها في صدور الناس ثالثا.

وقد جعل الله للشيطان دخولا في جوف العبد ونفوذا إلى قلبه وصدره، فهو يجري منه مجرى الدم وقد وكل بالعبد فلا يفارقه إلى الممات.

وتأمل حكمة القرآن الكريم وجلالته كيف أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس ولم يقل من شر وسوسته لتعم الاستعاذة شره جميعه، فإن قوله: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝﴾ يعم كل شره ووصفه بأعظم صفاته وأشدّها شرا وأقواها تأثيرا وأعمها فسادا وهي الوسوسة التي هي مبادئ الإرادة.

وتأمل السر في قوله تعالى: ﴿يُوسَّوْسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝﴾ ولم يقل: في قلوبهم. والصدر هو ساحة القلب وبيته فمنه تدخل الواردات إليه فتجتمع في الصدر، ثم

تلج في القلب، فهو بمنزلة الدهليز له ومن القلب تخرج الأوامر والإرادات إلى الصدر،



ثم تتفرق على الجنود ومن فهم هذا فهم قوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فالشيطان يدخل إلى ساحة القلب وبيته فيلقي ما يريد إلقاءه في القلب، فهو موسوس في الصدر ووسوسته واصله إلى القلب ولهذا قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ ولم يقل: فيه. لأن المعنى أنه ألقى إليه ذلك وأوصله إليه، فدخل في قلبه. (بدائع الفوائد ٢/ ٢٤٧-٢٧٦).



الفهرس

٥	■ المقدمة
٧	■ سورة الفاتحة
٢٠	■ سورة البقرة
٩٠	■ سورة آل عمران
١٠٨	■ سورة النساء
١٢٥	■ سورة المائدة
١٤١	■ سورة الأنعام
١٥٦	■ سورة الأعراف
١٨٤	■ سورة الأنفال
١٨٨	■ سورة التوبة
٢٠٧	■ سورة يونس
٢١٦	■ سورة هود
٢٢٢	■ سورة يوسف
٢٣٥	■ سورة الرعد
٢٣٨	■ سورة إبراهيم
٢٤٦	■ سورة الحجر
٢٤٩	■ سورة النحل
٢٦١	■ سورة الإسراء
٢٧٠	■ سورة الكهف
٢٧٤	■ سورة مريم
٢٧٩	■ سورة طه
٢٨٥	■ سورة الأنبياء

٢٨٩.....	■ سورة الحج
٢٩٥.....	■ سورة المؤمنون
٢٩٨.....	■ سورة النور
٣٠٧.....	■ سورة الفرقان
٣١٣.....	■ سورة الشعراء
٣١٥.....	■ سورة النمل
٣٢٠.....	■ سورة القصص
٣٢٤.....	■ سورة العنكبوت
٣٢٩.....	■ سورة الروم
٣٣٢.....	■ سورة لقمان
٣٣٤.....	■ سورة السجدة
٣٣٦.....	■ سورة الأحزاب
٣٤٣.....	■ سورة سبأ
٣٤٧.....	■ سورة فاطر
٣٥٠.....	■ سورة يس
٣٥٦.....	■ سورة الصافات
٣٥٩.....	■ سورة ص
٣٦٤.....	■ سورة الزمر
٣٦٨.....	■ سورة غافر
٣٧٢.....	■ سورة فصلت
٣٧٧.....	■ سورة الشورى
٣٨٢.....	■ سورة الزخرف
٣٨٤.....	■ سورة الدخان

- سورة الجاثية ٣٨٧
- سورة الأحقاف ٣٨٨
- سورة محمد ٣٩٠
- سورة الفتح ٣٩٢
- سورة الحجرات ٣٩٥
- سورة ق ٣٩٨
- سورة الذاريات ٤٠٣
- سورة الطور ٤١٤
- سورة النجم ٤١٩
- سورة القمر ٤٢٤
- سورة الرحمن ٤٢٥
- سورة الواقعة ٤٣١
- سورة الحديد ٤٤٠
- سورة المجادلة ٤٤٤
- سورة الحشر ٤٤٦
- سورة الممتحنة ٤٥٠
- سورة الصف ٤٥٣
- سورة الجمعة ٤٥٥
- سورة المنافقون ٤٥٧
- سورة التغابن ٤٥٩
- سورة الطلاق ٤٦١
- سورة التحريم ٤٦٢
- سورة الملك ٤٦٤

٤٦٦.....	■ سورة القلم
٤٦٨.....	■ سورة الحاقة
٤٧٣.....	■ سورة المعارج
٤٧٨.....	■ سورة الجن
٤٨٠.....	■ سورة المدثر
٤٨٣.....	■ سورة القيامة
٤٨٧.....	■ سورة الإنسان
٤٩٠.....	■ سورة المرسلات
٤٩١.....	■ سورة النبأ
٤٩٢.....	■ سورة النازعات
٤٩٥.....	■ سورة عبس
٤٩٦.....	■ سورة التكويد
٥٠١.....	■ سورة الانفطار
٥٠٢.....	■ سورة المطففين
٥٠٥.....	■ سورة البروج
٥١٠.....	■ سورة الطارق
٥١١.....	■ سورة الأعلى
٥١٢.....	■ سورة الفجر
٥١٣.....	■ سورة البلد
٥١٦.....	■ سورة الشمس
٥١٩.....	■ سورة الليل
٥٢٥.....	■ سورة الضحى
٥٢٦.....	■ سورة الشرح

٥٢٧	■ سورة التين
٥٢٩	■ سورة العلق
٥٣٢	■ سورة البينة
٥٣٣	■ سورة الزلزلة
٥٣٤	■ سورة العاديات
٥٣٥	■ سورة التكاثر
٥٣٩	■ سورة العصر
٥٤١	■ سورة الماعون
٥٤٢	■ سورة الكافرون
٥٤٨	■ سورة النصر
٥٤٩	■ سورة المسد
٥٥٠	■ سورة الإخلاص
٥٥١	■ سورة الفلق
٥٦٢	■ سورة الناس
٥٦٨	■ الفهرس



التصميم الداخلي للكتاب

Tharwat Sultan@yahoo.com

Tharwat Sultan

للتواصل:

00201019530152

